تفسير
سورة الفاتحة وسورة البقرة

الشيخ عبدالكريم مطيع الحمداوي

شبكة الألوكة
www.alukah.net

تفسير سورة الفاتحة وسورة البقرة

الشيخ عبد الكريم محمد مطيع الحمداوي

بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه والتابعين

تقديم

أَجْدَى السَّعْيِ ما كان علْماً وعملا

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} [1] {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا} [2]، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا } [3].

أما بعد، فإن أصدقَ الحديث كتابُ الله وأحسنَ الهدْيِ هدْيُ محمد صلى الله عليه وسلم، وشرَّ الأمور محدثاتُها وكلَّ مُحْدَثةٍ بدعةٌ، وكلَّ بدعة ضلالةٌ وكلَّ ضلالة في النار, وإن أَجْدَى السَّعْيِ ما كان علما وعملا، خالصَيْن لله حبّا ورَهَباً ورَغَباً وأمَلا، روى أحمد في مسنده (عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَالَ: حَدَّثَنَا مَنْ كَانَ يُقْرِئُنَا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَقْتَرِئُونَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَشْرَ آيَاتٍ، فَلَا يَأْخُذُونَ فِي الْعَشْرِ الْأُخْرَى حَتَّى يَعْلَمُوا مَا فِي هَذِهِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، قَالُوا فَعَلِمْنَا الْعِلْمَ وَالْعَمَلَ).

وقال الإمام مالك في الموطأ[4]:" إنما السَّعْيُ في كتاب الله العملُ والفعلُ، يقول الله تبارك وتعالى: { وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ } [5]، وقال تعالى: { وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى وَهُوَ يَخْشَى } [6]، وقال: { ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى } [7]، وقال: { إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى} [8]، فليس السعي الذي ذكر الله في كتابه بالسعي على الأقدام وإنما العمل والفعل".

1 – آل عمران 102

2 – النساء 1

3 – الأحزاب 71/70

4 – الموطأ 1/ 219

5 – البقرة 205

6 – عبس 9/8

في هذا الإطار، وتحت مِظَلَّةِ هذه التوجيهات، رأيت أن أشتغل بكتاب الله شرحا وتفسيرا، اسْتِمْطارا لِهَدْيِه، واستعانةً به على العمل به، فاستخرت الحكيم الخبير، واستشرت الصادقين الناصحين، وكانت ثمرة الاستخارة والاستشارة هذه الحلقات من تفسير سورتي الفاتحة والبقرة، على أن تتلوهما إن شاء الله تعالى وبعونه غيرهما، وضعتهما على هيئة دروس، لكل درس محوره، تيسيرا للفهم والحفظ وتذليلا لعقبات العلم والعمل.

على أن لي أملا في إخوتي من المطلعين، ومقام أبنائي من الدعاة الصادقين الفقهين، أن ينبهوني لما قد يرونه من نقص أو خطأ، وأن يرشدوني إلى ما ينبغي أن يضاف من صواب، { وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ } [9]، والدالُّ على الخير كفاعله كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، جزاهم الله تعالى خيرا، وجعلنا جميعا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه. { رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} [10].

في 24 جمادى الثانية 1429 من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم وعلى آله وصحابته ومن اتبع سنته إلى يوم الدين.

عبد الكريم محمد مطيع الحمداوي

---

7 – النازعات 22
8 – الليل 4
9 – يوسف 76
10 – البقرة 286

تفسير
سورة الفاتحة

سورة الفاتحة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (1) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (2) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (3) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (4) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (5) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (6) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (7) [الفاتحة: 1]

تمهيد
سورة الفاتحة نهر للحياة

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ يَقُولُ اللَّهُ: مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجُوهُ، فَيَخْرُجُونَ قَدْ امْتُحِشُوا وَعَادُوا حُمَمًا، فَيُلْقَوْنَ فِي نَهَرِ الْحَيَاةِ، فَيَنْبُتُونَ كَمَا تَنْبُتُ الْحِبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ، أَوْ قَالَ حَمِيَّةِ السَّيْلِ، وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَلَمْ تَرَوْا أَنَّهَا تَنْبُتُ صَفْرَاءَ مُلْتَوِيَةً / البخاري.

وفي رواية مسلم: " فَيَخْرُجُونَ كَاللُّؤْلُؤِ فِي رِقَابِهِمْ الْخَوَاتِمُ، يَعْرِفُهُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ هَؤُلَاءِ عُتَقَاءُ اللَّهِ الَّذِينَ أَدْخَلَهُمْ اللَّهُ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ عَمِلُوهُ وَلَا خَيْرٍ قَدَّمُوهُ، ثُمَّ يَقُولُ: ادْخُلُوا الْجَنَّةَ، فَمَا رَأَيْتُمُوهُ فَهُوَ لَكُمْ، فَيَقُولُونَ: رَبَّنَا أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ الْعَالَمِينَ، فَيَقُولُ: لَكُمْ عِنْدِي أَفْضَلُ مِنْ هَذَا، فَيَقُولُونَ: يَا رَبَّنَا أَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ هَذَا؟ فَيَقُولُ: رِضَايَ فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا".

عندما تشرق في قلب المرء آياتُ الإيمان وينغمر القلب في لُجُجِ اليقين، وتنبعث في الجوانح أنوارُ الهداية، فتقشعر الجوارح وتدمع العين ندما على ما فرط في جنب الله وما أضاع من حق نفسه، وما بدد من سوالف الأيام، في غفلة عن حقيقة الوجود، وسهو عن المبتدأ والمنتهى وعاقبة الورود..

عندما تورق الروح بأزهار الحق، فتنطلق من عقال الهوى والضياع، وتسري فيها نداءات اللطف الرباني، الذي اخْتُصَّ به المصطفون الأخيار، وتتحرر من وهدة الضلال وحمأة الغي وأغلال الهوى إلى فساحة المحبةِ، محبةِ أهل الحق للحق، ورحابةِ الشوق، شوقِ الصادقين إلى ما وُعِدوا به، ولذاذةِ الخوف، خوفِ المخبتين مما حُذِّروا منه...

عندما تتفحص الروحُ ما حولها فتنكره, وتستعرض الأجنادَ المجندةَ حولها فلا تعرفها، وتستشعر ألم الغربة في مجتمعها، فتتوق إلى واحة أرواح تعرفها وتأتلف معها، إلى وطن رحب تقطنه وأهلٍ كرام تأنس بهم، ورفقة طريق منعَّمة تسعد بها، وسفينة هنيئة تشق فيها وبها عُباب المحيط ولجحه..

عندما يغترب الإنسان في وطنه، ويتفرد بين أهله وعشيرته، وتضيق نفسه من واقع وهدته، وتتحفز روحه للتخلص من آلام وحدته، وأوجاع قلقه وتوحُّده، وعماء تيهه وضبابية فكره واضطراب تصوره, وسوداوية الفتن الشاغلة المتكاثرة المتراكمة تراكمَ ظُلَم الليل البهيم

عندما يُعْرَض على القلب الشيءُ وضدُّه، والأمرُ ونقيضُه، فلا يدري أيهما يركب، ويحتار أيهما يختار، فيستشعر عجزَه، ويخرج عن حوله وقوته، ويوقن بحاجته إلى سَنَدٍ يشدُّ أزْرَه، ومُسْتَنَدٍ يقيم أمره، وهادٍ يأخذ بيده من توتر الضلال وظلامية المتاهة إلى واحة الاطمئنان والسكينة، ويسافِر به من ضيق الجهل إلى رحابة المعرفة والرشد..

حينئذ يهجر نفسَه، ويتنكر لعادته ويستأصل رعوناتِ جِبِلَّتِه وطِباعِه، بياضُ نهاره تَفَكُّرٌ وبحث عن الحق والحقيقة، فإذا أهَلَّ الليل فاضت المآقي دموعا ونأى الجنبُ عن وَطِيءِ الفراش، وهاج الشوق إلى معرفة المبتدأ والمنتهى، وأيقن أنه هالك لا محالة إن لم يُدرِكه قَبَسٌ من هداية، ومشعلٌ من نبوة، ومشكاةٌ تنير الدرب، مشكاة لا يملكها إلا نور السماوات والأرض...

إذ ذاك، وهو في جوف الليل أسْمَعِ الأوقات دعوةً، يطرُق سمعَه الخفيَّ وعقلَه السَّنِيَّ نداءُ ربه الجليل (من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟)، فينتفض من وهدة الغفلة إلى نَيِّرِ الطريق، وينطلق قلبُه قبل لسانه، ويلهج حالُه قبل مَقاله: { لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ} رب أنقذني واهدني لأرشد أمري، وخذ بناصيتي إلى صراطك المستقيم...

هنالك ينير قلبَه يقينُ المعرفةِ، معرفةِ ما صدر من الأمر, ومعرفةِ منبعِ الصدور، إنه الرحمة الربانيةُ تُدرِكُ من سبقت في علم الله سعادتُهُ، فتَسْحَبُه من الشقاء إلى السعادة، وتستخلصُه من جحيم الضلالة وضنَك الغواية إلى نعيم الهداية وطمأنينة الإيمان، حينئذ يُسافِرُ به من غربة الضياع بين أرواح أنكرها واختلف معها، إلى أنس أرواحٍ يعرفها ويطمئن إليها ويرافقها...أرواحٍ تستظل بالذكر الحكيم وتستفتح بالمثاني والقرآن العظيم، وتسترشد في حبها ورجائها وخوفها وولائها وبرائها بوَحْيِ رب العالمين الرَّحمن الرحيم ملك يوم الدين، وهنالك أيضا يُنْتَزَع من مقابر الغفلة والتيه والضلال إلى مشارف الحياة الحقة واليقظة المبصرة {أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا} الأنعام:122.

ولئن كان على أفواهِ الجنة نهرٌ للحياة يستحم فيه الجهنميون الذين تدركهم شفاعةُ الرحمن، فيَنْبُتون كما تنبت الحبة في حميل السيل، ويخرجون إلى الجنة كاللؤلؤ يعرفهم أهل الجنة عتقاء أدركتهم شفاعة ربهم عز وجل، فإن نهرَ جنةِ الدنيا، جنةِ الإيمان واليقين والإحسان، هو أم القرآن، هو فاتحة الرحمة وبوَّابة الجنان، هذه البوابة الرحبة، فاتحةُ الخيرات والمبرات، وسبيلُ أولي العزم من الرجال، ونبراسُ السلوك للوصول إلى أسعد مآل، لأهميتها نتعبَّد بها في صلواتنا، ونقنُت بها عند مناجاتنا، ونستنجد بها عند ضائقاتنا، ونستشفي بها في رقيتنا لأنفسنا وأبداننا، ونتثبت بمعانيها عند هجوم الغبش وطغيان الضلالة وتظاهر الجهالة.

شد الله تعالى بها أزرَ النبي الكريم صلوات الله عليه وسلامه وهو في مكة قبل الهجرة بين أنياب الجاهلية الأولى، وفي لفح لهيبِ التكذيبِ والاعتراض، ولَظَى عدوانية قريش ومرارة ظلم ذوي القربى؛ كان إذا برز سمع منادياً يناديه: يا محمد، فإذا سمع الصوت انطلق هارباً، فقال له ورقة بن نوفل: إذا سمعتَ النداء فاثبُتْ حتى تسمع ما يقول لك، فلما برز سمع النداء: يا محمد، فقال: لبيك، قال: قل أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، ثم قال: قل { الحَمدُ لِلَّهِ رَبِّ العالَمينَ الرَّحمنِ الرَّحيمِ مالِكِ يَومِ الدينِ} حتى فرغ من فاتحة الكتاب، فلما قام النبي صلى الله عليه وسلم بمكة فقال: { بِسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ الحَمدُ للهِ رَبِّ العالَمينَ} قالت قريش: رَضَّ الله فاك.

لقد كان نزول سورة الفاتحة في مرحلة مبكرة من عمر الدعوة المكية تمكينا للرسول صلى الله عليه وسلم من سلاح فعال في مواجهة مشاق الطريق، هو سلاح الدعاء، بما يتقدمه من حمد لله تعالى وثناء، وما يصاحبه من خشوع واستعانة ورهبة ورغبة وحسن رجاء، وما يختم به من أدب الاستعاذة من طرق الزيغ والبراءة من سبل الضلال. ولذلك امتَنَّ الله عليه بها في نفس المرحلة بقوله في الآية 87 من سورة الحجر وهي مكية بلا خلاف: { وَلَقَد آتَيناكَ سَبعاً مِّنَ المَثاني وَالقُرآنَ العَظيمَ} يعني الفاتحة.

وكانت سورةُ الفاتحة بذلك أنسَه في خلوته وترنيمتَه في محنته ونشيدَه عند مناجاة ربه، وتلاوتَه عليه الصلاة والسلام في صلاته قبل هجرته، ولذلك سماها الحمد وفاتحة الكتاب وأم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني، فقال فيما رواه أبو هريرة مرفوعاً: (إذا قرأتم الحمد فاقرءوا: { بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ }، إنها أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني). وقال:(والذي نفسي بيده ما أنزل الله في التوراة ولا الإنجيل ولا الزبور ولا في القرآن مثلها، إنها لهي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته).

ولا غرابة فهي حقا سورة الحمد، لأنه يفتتح بها في المصاحف وفي التعليم وفي القراءة في الصلاة، ولأن الحمد فاتحة كل كلام، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(كُلُّ كَلَامٍ لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِحَمْدِ اللَّهِ وَالصَّلَاةِ عَلَيَّ فَهُوَ أَقْطَعُ، أَبْتَرُ، مَمْحُوقُ الْبَرَكَةِ) وقال: (وَكُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَمْ يُبْدَأْ فِيهِ بِذِكْرِ اللَّهِ فَهُوَ أَبْتَرُ).

وهي الفاتحة، وفاتحة الكتاب، لأنها بداية القرآن الكريم والمصحف الشريف، ولأن كل صلاة لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب ناقصة غير تامة لقوله صلى الله عليه وسلم:(لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب)، وقال: (أَيُّمَا صَلَاةٍ لَمْ يُقْرَأْ فِيهَا بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ فَهِيَ خِدَاجٌ)، وقال (من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن هي خِداج هي خِداج، هي خِداج غير تمام)

كما لا غرابة في تسميتها السبع المثاني فقد نزلت مرتين، مرة في مكة، ثم مرة أخرى في المدينة حسب بعض الروايات، وتثنى في كل ركعة كما قال عمر رضي الله عنه:" السبع المثاني فاتحة الكتاب، تثنى في كل ركعة "، ولأنها نزلت على قسمين ثناء ودعاء. وبها سبع آيات كريمات لما أخرجه البيهقي والدارقطني وغيرهما عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم كَانَ يَقْرَأُ { بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (1) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (2) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (3) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (4) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (5) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (6) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (7) } فَقَطَّعَهَا آيَةً آيَةً وَعَدَّهَا عَدَّ الأَعْرَابِ وَعَدَّ { بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ } آيَةً وَلَمْ يَعُدَّ { عَلَيْهِمْ }، وأخرج الدارقطني بسند صحيح عن عبد خير قال: سئل عليّ رضي الله عنه عن السبع المثاني فقال: الحمد لله رب العالمين، فقيل له إنما هي ست آيات، فقال: { بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ } آية.

كما أحصى لها العلماء أكثرَ من عشرين اسما لشرفها ومكانتها، ولا شك في أن كثرةَ الأسماء دالةٌ على شرف المسمى، من هذه الأسماء:

سورة الصلاة لتوقف الصلاة عليها لأنها من لوازمها، من باب تسمية الشيء باسْمِ لازِمِه. ولما رواه مسلم في صحيحه من حديث " قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ": (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: مَنْ صَلَّى صَلَاةً لَمْ يَقْرَأْ فِيهَا بِأُمِّ الْقُرْآنِ فَهِيَ خِدَاجٌ ثَلَاثًا غَيْرُ تَمَامٍ فَقِيلَ لِأَبِي هُرَيْرَةَ: إِنَّا نَكُونُ وَرَاءَ الْإِمَامِ، فَقَالَ: اقْرَأْ بِهَا فِي نَفْسِكَ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: { الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: { الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ }، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: " أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي"، وَإِذَا قَالَ: { مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ }، قَالَ: "مَجَّدَنِي عَبْدِي"، وَقَالَ مَرَّةً: "فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي"، فَإِذَا قَالَ: { إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }، قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ: { اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ }، قَالَ: "هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ").

ومن أسمائها: الوافية، لأنها وافية بما في القرآن من المعاني، والكافية، لأنها تكفي في الصلاة عن غيرها ولا يكفي غيرها عنها، و سورة الدعاء لاشتمالها عليه في قوله اهدنا، وسورة تعليم السؤال لما فيها من آداب الدعاء لأنها بدئت بالثناء على الله تعالى قبله فهي تعليم لنا كيف نحمده وكيف نثني عليه وكيف ندعوه ونسأله، وتنبيه إلى أن تقديم الحمد والثناء

على الله قبل الدعاء أحرى بالإجابة، وسورة المناجاة، لأن العبد يناجي فيها ربه بقوله: { إِيَّاكَ نَعْبُدُ }، وسورة التفويض لاشتمالها عليه في قوله: { وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }.

ومن أسمائها "القرآن العظيم"، لاشتمالها على المعاني التي في القرآن ولما رواه أحمد عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (هي أم القرآن، وهي السبع المثاني، وهي القرآن العظيم).

ومن أسمائها الراقية والشافية للحديث النبوي الشريف في رواية البخاري عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قال: (انطَلَقَ نفَرٌ من أصحابِ النبيِّ صلى الله عليه وسلّم في سَفْرةٍ سافروها، حتّى نزَلوا على حيٍّ من أحياءِ العرب فاستَضافوهم فأبَوا أن يُضيِّفوهم، فلُدِغَ سَيِّدُ ذلكَ الحيِّ، فسَعَوا لهُ بكلِّ شيءٍ، لا يَنفَعُهُ شيء. فقال بعضهم: لو أتيتُم هؤُلاءِ الرَّهطَ الذين نزَلوا لعلَّهُ أن يكونَ عندَ بعضهم شيء. فأتوْهم فقالوا: يا أيُّها الرَّهطُ إنَّ سيِّدَنا لُدِغَ، وسَعينا لهُ بكلّ شيءٍ لا يَنفعُه، فهل عندَ أحدٍ منكم مِن شيء؟ فقال بعضُهم: نعم واللهِ، إني لأرقِي، ولكِنْ واللهِ لقدِ استَضَفْناكم فلم تُضيِّفونا، فما أنا بِرَاقٍ لكم حتّى تَجعلوا لنا جُعلاً. فصالَحوهم على قَطيعٍ منَ الغنم. فانطلق يَتفِلُ عليهِ ويقرأُ: { الحمدُ للهِ ربِّ العالَمين... } فكأنَّما نُشِطَ من عِقال، فانطَلَقَ يَمشي وما بهِ قَلَبَة. قال: فأوفوهم جُعلَهمُ الذي صالَحوهم عليه. فقال بعضُهم: اقسِموا. فقال الذي رَقَى: لا تَفْعلوا حتّى نأتيَ النبيَّ صلى الله عليه وسلّم فنذكُرَ لهُ الذي كان فننظُرَ ما يأمُرنا، فقدِموا على رسولِ الله صلى الله عليه وسلّم فذَكَروا له، فقال: وما يُدريكَ أنها رُقْية، ثمَّ قال: قد أَصبتم، اقسِموا واضربوا لي معكم سَهماً، فضَحِكَ النبيُّ صلى الله عليه وسلّم).

وهي أعظم سور القرآن لما رواه البخاري عن أَبِي سَعِيدِ بْنِ الْمُعَلَّى قَالَ:كُنْتُ أُصَلِّي فِي الْمَسْجِدِ فَدَعَانِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمْ أُجِبْهُ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي كُنْتُ أُصَلِّي فَقَالَ:(أَلَمْ يَقُلْ اللَّهُ: { اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ } الأنفال25)، ثُمَّ قَالَ لِي: (لَأُعَلِّمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ السُّوَرِ فِي الْقُرْآنِ قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنْ الْمَسْجِدِ)، ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ قُلْتُ لَهُ: أَلَمْ تَقُلْ لَأُعَلِّمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ؟ قَالَ:(الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُوتِيتُهُ) وقال الإمام علي رضي الله عنه:"نزلت فاتحة الكتاب بمكة من كنز تحت العرش".

في رياض الفاتحة

عندما تدرك المرءَ رحمةُ الله المهداة، فيفتح قلبه لأم القرآن، ويُقْبِل عليها بتدبر وخشوع وإمعان، تُقبلُ عليه كما هي من رب العزة، ثنائيةً بالعطاء والأخذ، أوَّلُها منه لربه، وآخرُها له من الواحد الأحد، منه الحمد والثناء والتمجيد لربه ومنها الهداية إلى سعادة الدنيا والآخرة، وبين هذا وذاك إبحارٌ في رياض ملكوت السماوات والأرض، ومشاهدةُ ما أعد للمؤمن من جناتٍ ونعيم، وقربٍ من الرحمن الرحيم، وما ينتظر ضُلَّالَ القوم من مُساءلةٍ يومَ الدين يوم يُعرضون على النار خاسئين.

يستهِلُّ المرءُ إبحارَه في الفاتحة استعاذةً بربه من الشيطان الرجيم، واستعدادا للذكر الحكيم، وتحصُّنا من شياطين الجن والإنس، واستبعادا لشرور الوسوسة وما يُلْقَى في النفس من هواجس الفتن وشوارد الفكر وشواغل الدنيا، وهو في التجائه إلى ربه واستجارتِه به واحترازِه بقوته وقدرته، مُقِرٌّ ضمناً بالعجز عن جلب المنفعة ودفع المضرة، معترفٌ بانعدام الحَوْلِ لديه والقوة، موقنٌ بأن ذلك كلَّه متعلق بقدرة الله تعالى ولطفه بأوليائه، ورحمانيته الشاملة لعباده. منطلقٌ في جميع أحواله من معرفته بنفسه العاجزة، ومعرفته بربه القادر الحكيم؛ هنالك يقتحم عقبةَ التسليم المطلق فيَلِج رحابَ الخشوع العَصِيّ إلا على الموقنين، ويسرح في رحاب الإخبات، وينيخ الفؤاد في رياض الآيات النيرات.

ولئن كانت طهارة الصلاة الوضوء، فإن طهارة النفوس والعقول والأفئدة للتلاوة هي الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم، ولذلك قال تعالى: { فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ } النحل 98.

ولئن كانت الألْسُن قد تقع في اللغو أو الكذب أو الغيبة أو النميمة فإن الاستعاذة بالله من الشيطان الذي يَسْتَدْرِج المرءَ إلى تلك الآثام كفيلةٌ بتطهير الألسن وإعدادها لتلاوة كتاب الله، بقلب غير غافل ولَا لَاهٍ.

وبَعْد روعةِ استهلالِ الإبحارِ في رياض الفاتحة، يكون اسمُ الله خيرَ مَعْبَرٍ إلى رحمته ورحمانيته، وكأن الفاتحةَ سفينةُ نوح عليه السلام، يَفِرُّ بها المؤمن من موبِقات الفتنِ ولُجَجِ الضّلال وعاتِي الموج { وَقَالَ ارْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ اللهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ } هود41.

إن أولَ آية من الفاتحة وهي البسملةُ { بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ }، مشكاةٌ تنير الدروب، وبلْسَمٌ لشفاء القلوب، وأمانٌ من رب العزة لعبده الأواب، وكما كان عاقبة نوح إذ ركب سفينته بسم الله أن خوطب بقوله تعالى: { يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ } هود48، كذلك عاقبة المؤمن المخبت إذ يفتتح بالبسملة والحمد والثناء على رب العزة، فيفوز بالهداية والسلام، وغنيمة ما سأل من رب الأنام إذ قال: "ولعبدي ما سأل".

وكما أن القصر ببابه والروضَ بأقحوانه، كذلك البسملة، تقبل على المؤمن بالبشارة والإنارة فينفسح القلب ويتسع الأمل وتعظُم الثقة بكرم البارئ عز وجل، ويهيج شوق الأفئدة إلى رحاب الرضا وحسن المآب، ذلك أن رب العزة يتجلى بثلاثة أسماء له، كلها جلال وقدرة ورحمة ولطف "الله، الرحمن، الرحيم".

فاسم الله تعالى هو الإسم الأعظم على قول جمهرة من أهل العلم، تلحق به أسماؤه الأخرى ولا يشاركه فيه غيره، تحِنُّ إليه الأفئدة، وتشتاق إلى رؤيته المهَج، وتأنَس بذكره النفوس، وتحتار فيه العقول فلا تدرك له إلا ما بين لها الوحي كتابا وسنة، منه سبحانه لعباده الألوهيةُ المطلقة العامَّة التامة، ومن عباده له الخضوع والطاعة والاستسلام.

أما اسم الرحمن فمن رحمته التي وسعت كلَّ شيء، { وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ } الأعراف156، لذلك كان الرسول صلى الله عليه وسلم يحث صحابته على حسنِ الثقة بالله والرجاءِ فيما عنده عز وجل، والتعلقِ برحمته وحده، فعن واثلة بن الأسقع، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (قال الله تبارك وتعالى: أنا عند ظن عبدي بي، فلْيَظُنَّ بي ما شاء)، وعن جابر قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول قبل موته بثلاث: (لا يموتُنَّ أحدُكم إلا وهو يحسن بالله الظنَّ)، وقال تعالى: { وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ } البقرة 186.

ولئن كان اسم الرحمن من الرحمة العامة بجميع الخلق كاسم الله خاصا به عز وجل لا يسمى به غيره، فإن اسم الرحيم من الرحمة الخاصة بالمؤمنين، وقد يطلق على غير الله بما لا يخل بالعقيدة، قال الله تعالى عن نفسه: { إِنَّ اللّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ } البقرة 143، وقال عن نبيه صلى الله عليه وسلم: { لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ } التوبة 128.

ولقد كان من شامل رحمته تعالى ولطفه بعباده أن افتتح أمَّ القرآن باسمه الأعظم" الله " المتضمن لصفات الألوهية، وهي توحيد الله بأفعال العباد التي أمروا بها، دعاء وخوفا وخشية، وتوكلا واستعانةً واستعاذةً، ورجاءً وتعلقا وأملا، ومحبةً ورغبةً ورهبةً وتعظيما؛ وقرنه باسمين له متضمنين لكمال صفات البر والإحسان والجود والكرم وهما "الرحمن الرحيم"، فكانت الرحمة بذلك سببا واصلا بين المعبود الحق والعابد الصادق المتحقق.

وحَرِيٌّ بالمؤمن إذ تجلَّتْ في قلبه معاني الألوهية المطلقة برحمتها التي وسعت كل شيء، أن يحمد هذا الفضلَ الإلهيَّ الذي لا حدَّ له، وأن يشكر هذه النعمةَ الربانية التي لا تحصى.

ولئن كان العبد عاجزا عن أداء واجب الحمد والشكر، لعجزه عن إحصاء النعم وتقدير الفضل، فقد تولى رب العزة إرشادَه والأخذَ بيده الرحيمة إلى التعبير السليم والأداء القويم وهو: " الحمد لله "، فكان الفضلُ منه عز جل في كل الأحوال، فضلُ النعم وفضلُ الحمد عليها، فضلُ الرحمة المطلقة وفضلُ استدامتها بالحمد عليها.

إن الحمد لله مجردا مطلقا ومرسلا هو وحده عبادةٌ في كل أحوال المؤمن، في سرائه التي استشعرها، وفي ضرائه التي تستُرُ نعمةً إلهيةً غيَّبَتْها عن ذهنِه حكمةُ الله تعالى، ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في السراء:" الحمد لله المنعم المتفضل" ويقول في الضراء:"الحمد لله على كل حال"، وهو ما ورد في قوله تعالى: { قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ } النمل 59، وقوله: { الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ } النحل 75.

وإن الحمدَ مقيَّدا بصفات الله تعالى تنزيها وفعلا معلمةٌ من معالم الإيمان، تحث المؤمنَ على صعود مَراقي القُرْب والإحسان، لذلك يأمر به الله عز وجل عباده تربيةً وتحليةً وتزكيةً، مرتبطا بمعنى إيمانيّ ينير الطريق، فيَرِدُ حسب السياق القرآني تارة بلفظ: { وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَم يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلَّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً } الإسراء111، وتارة بلفظ: { الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ } الأعراف43، وتارة بلفظ: { الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا } الكهف1، { الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } فاطر1، { الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ } سبأ 1.

كلما ورد الحمد مطلقا كان التنبيه إلى نِعَم الله التي لا تحصى مما يعلمها المرءُ، ومما استأثر ربُّ العزة بعلمها، وكلما ورد الحمد مقيدا كان التعليم المباشر للعبد، أخذا بيده عَبْرَ معالِمِ التوحيد الخالص إلى معرفة ربه.

ولما تجلت سورةُ الفاتحة على المؤمن بصفات الألوهية التي تقتضي الحمدَ المطلق، كان من المناسب وإتمامِ النعمة أن تتجلى تبعاً بصفة الربوبية المطلقة { رَبِّ الْعَالَمِينَ }، وهي توحيد الله تعالى بأفعاله خلقا ورزقا وتدبيرا للأمور وإحياء وإماتة ونحو ذلك. فلا خالق إلا الله { ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ } الأنعام102، ولا رازق إلا الله { وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ } هود 6،ولا مدبّر إلا الله { يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ } السجدة 5، ولا محيي ولا مميت إلا الله { هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } يونس56. ولذلك كان التفكرُ في تدبير الله تعالى للكائنات خَلْقا ورعايةً مفتاحَ استشعارِ ربوبيتِه عز وجل للكائنات فقال: { إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ } آل عمران190، فبَيَّنَ أن بالتفكر في عظمته ووحدانيته، وحكمته، وتدبيره، وسلطانه تستنير آياتُ الربوبية، وتسْطَع أنوارُ اليقين، وتضمحلُّ غمراتُ الشك وظُلَمُ الرَّيْبِ، فإذا ما

أضاءت في قلب المؤمن مشكاةُ الربوبية كانت الاستجابة منه عبوديةً صادقة مخبتةً لربها قانتةً خاشعة، ذلك أن للربوبية عِزّتَها المطلقةَ وللعبودية ذِلَّتَها المحرِّرَةَ للنفس من سلطة ما سواه عز وجل، الربوبيةُ عهدُ الله لعباده، والعبودية عهدُ العباد مع الله { وَأَوْفُواْ بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ } البقرة 40، فإذا استجاب عهدُ العبودية لعهد الربوبية، استشعر المؤمنُ بقلبه ولسانه وجوارحه عزةَ الربوبية وذلةَ العبودية.

إن الله تعالى قد وفى بعهد الربوبية حيث خلق الإنسان وأحياه وأنعم عليه بوجوه النعم وجعله عاقلاً مميزاً، وما ترك ذرة من الذرات إلا وجعلها هادية إلى سبيل الحق، فإذا لم يشتغل المرء بواجب الخدمة والطاعة والعبودية فقد نقض عهده، مع أنه تعالى وفى بعهد ربوبيته.

إن مطلقيةَ الربوبية الإلهية للعالمين في سائر الأزمنة والأمكنة في الدنيا والآخرة، توحيدا وعبادةً وخضوعا وانقيادا، تقتضي مزيدَ الحمد على ما نعلم وما لا نعلم من رعاية الله للعالمين، وعلى حسن تقديره وتسييره وتربيته للمخلوقات { إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ } القمر49، ولذلك اقترنت في أم القرآن معالمُ التوحيد الخالص ألوهيةً وربوبيةً في ظل الرحمة المهداة، رحمةِ الإله الواحد والرب الخبير الحكيم، لعباده المخبتين المطيعين.

ولئن كان الحمد مطلقا من لوازم الألوهية إحقاقا، فإن الحمد مقيدا من لوازم الربوبية استحقاقا، والقيوميةِ قدرةً وحسنَ تقدير، ولذلك تبادر الملائكة منافسةً ومسارعةً، أيٌّ منهم يرفعه، كما ورد عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَجُلاً جَاءَ فَدَخَلَ الصَّفَّ وَقَدْ حَفَزَهُ النَّفَسُ فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلهِ حَمْداً كَثِيراً طَيِّباً مُبَارَكاً فِيهِ. فَلَما قَضَى رَسُولُ اللهِ صَلاَتَهُ قَالَ:(أَيُّكُمُ الْمُتَكَلِّمُ بِالْكَلِمَاتِ؟) فَأَرَمَّ الْقَوْمُ. فَقَالَ: (أَيُّكُمُ الْمُتَكَلِّمُ بِهَا؟ فَإِنَّهُ لَمْ يَقُلْ بَأْساً) فَقَالَ رَجُلٌ: جِئْتُ وَقَدْ حَفَزَنِي النَّفَسُ فَقُلْتُهَا، فَقَالَ: (لَقَدْ رَأَيْتُ اثْنَيْ عَشَرَ مَلَكاً يَبْتَدِرُونَهَا أَيُّهُمْ يَرْفَعُهَا).

وكما أن الحمد مقيدا بربوبيته عز وجل للعالمين يُراد به الإطلاقُ، لأن ربوبيتَه مطلقةٌ، كذلك جميعُ صِيَغِ الحمد لله الواردةِ في الكتاب والسنة تفيد الإطلاقَ، لأن النعم الظاهرة والباطنة التي يُحْمَد عليها الحقُّ جل جلاله خاصةٌ به لا يُنْعِم بها غيرُه، ومن هذا المعنى كان الإطلاق للتعبير المقيد، ألا ترى إلى قوله تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ } سبأ1، وكيف أن انفرادَه تعالى بالحمد في الآخرة وهي الوقت الذي لا يحمد فيه سواه، مبالغةٌ في الانفراد بالحمد المطلق, له الحمد استحقاقاً لعظمته, وله الحمد وجوبا على نعمته، وهو المنفرد به في الدارين، ففي الدنيا المحمودُ اللَّهُ على إنعامه وهدايته, وفي العقبى المحمود اللَّهُ على عدله ومثوبته.

ولذلك عقب على ربوبيته المطلقة في الدنيا والآخرة بقوله { مِلِكِ يَوْمِ الدِّينِ } تذكيرا وتحذيرا وتنبيها وتقريرا، فهو عز وجل مالك يوم الدين والجزاء والعرض والمحاسبة، وملك الأكوان، الواحد الصمد يوم تقر الكائنات له بالملك طوعا

وكرها، يوم يحييها بقدرته وحكمته بعد أن يفنيَها فلا يبقى إلا وجهه ذو الجلال والإكرام، يوم تعنو الوجوه للحي القيوم وتخشع الأصوات للرحمن { وعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً } طه111، { وَخَشَعَت الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً } طه108، يوم يَقبِضُ اللّهُ الأرضَ، ويَطوِي السماوات بيمينِهِ ثم يقول: أنا الملِك، أينَ مُلوكُ الأرضِ؟.

وسواء قرئت { مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} من الملِك بكسر الميم أو { ملِكِ يَوْمِ الدِّينِ } من الملك بضم الميم، فالقراءتان تلتقيان في معنى واحد، إذ كان معلوما أنه لا ملِك إلا وهو مالك.

وتأويل من قرأ { ملِكِ يَوْمِ الدِّينِ } أن الملك لله يومَ الدين خالصا دون جميع خلقه الذين كانوا في الدنيا ملوكا وجبابرة فأيقنوا بلقاء الله يوم الدين أنهم الأصاغر الأذلة، وأن له دونهم ودون غيرهم المُلْك والكبرياء والعزّة والسلطان، { يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} غافر16، { قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّوَرِ} الأنعام73، {فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ} طه:114، وكما روي عن أُمِّ سَلَمَةَ أن رَسُول الله صلى الله عليه وسلم كَانَ يَقْرَأُهَا: { مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ }.

أما تأويل من قرأ { مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ } فما روي عن ابن عباس قال: { مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ } لا يملك أحد في ذلك اليوم معه حكما كملكهم في الدنيا، ثم قال: { لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحْمَنُ وَقَالَ صَوَاباً } النبأ38.

ولا شك أن من قرأ: { مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ } فقد عرفه بأسمائه الحسنى وصفاته العليا، وأنَّ من قرأ { مالكِ يَوْمِ الدِّينِ } فقد عرفه بقدرته وسلطانه وهيمنته على جميع خلقه، والقراءتان كلتاهما صحيح متواتر في السبع.

ولا ريب أن يوم الدين، هو اليوم المشهود المجموع له الناس للعرض والحساب ثوابا وعقابا، { إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ } هود103، { وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفّاً لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِداً } الكهف48، { هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّواْ إِلَى اللّهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ } يونس:30.

ولئن كان لفظ "الدين" حمَّالا لمعاني كثيرة فإن أيا من معانيها لا تعارض مع الآية الكريمة:

فالدِّينُ بمعنى الحِساب؛ ومنه قوْلُه تعالَى: { مَلِكِ يَوْمِ الدِّين }، أَي الحِسابُ الصحِيحُ والعَدَدُ المسْتوي، وبه فسَّرَ بعضهم الحدِيث "الكَيِّس مَنْ دانَ نَفْسَه" أَي حاسَبَها. وقوْلُه تعالَى: { أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَدِينُونَ } الصافات53 أَي مُحاسَبُون.

والدِّينُ بمعنى القَهْرُ والغَلَبَةُ والاسْتِعلاءُ، وفي يوم القيامة تتجلى لجميع الخلائق مؤمنهم وكافرهم بَرِّهِمْ وفاجرِهم قاهريةُ الله وغلبتُه واستعلاؤه.

والدِّينُ بمعنى القضاء، وبه فسَّرَ قتادَةُ قوْلَه تعالَى: { مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ } يوسف76، أَي قَضائِهِ.

والدِّيْنُ بمعنى السلطانِ سلطانِ الله المطلق..والدِّيْنُ بمعنى الحُكْمِ حكمِ الله العدل...

ولأن المقصودَ من الدين هو الوفاءُ بلوازم الربوبية، فإذا أسلم المرءُ وجهَه لله فلم يعبدْ غيرَه ولم يتوقع الخيرَ إلا منه، ولم يشركْ به غيرَه، ولم يَخَفْ إلا من قهره وسطوته، كان هذا هو تمام الوفاء بلوازم الربوبية والعبودية، فصَحَّ أن الدين الكامل هو الإسلام. وأن يومَ الدين في الآخرة هو يوم الخضوع الكامل لرب العباد وهو يومُ الوفاء { وَأَوْفُواْ بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ } البقرة40، {وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ } آل عمران57. وكأني بالخلق يومئذ ما بين مُتَوَثِّبٍ للثواب وواجِفٍ من سوء المآب، وكلا المآلين، شقاءً أو نعيما، وفاءٌ منه تعالى، فالعهدُ نوعان: عهدُ الربوبية منه عز وجل، وعهدُ العبودية من عباده، وهو الوفِيُّ أبدًا والخَلْقُ مابين موفٍ بالعهد وخائنٍ.

في هذا القسم من الفاتحة، النصف الذي هو له بقوله تعالى في الحديث القدسي (فنصفها لي)، وتحت مظلة التحميد { الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }، ومرحمة الثناء والتعبيد { الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ }، ومقام التمجيد والوعد والوعيد { مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ }، يتجلى الرب الكريم على عباده بخمسة أسماء كلها رحمة ونعمة، إشارةً منه عز وجل إلى استحقاقه الحمدَ المطلقَ على نعمه وأفضاله ما عُلِمَ منها وما لم يُعْلَمْ، هذه الأسماء والصفات تعد مرجعَ الأسماء الحسنى والصفات العليا، عليها مدارُها، وعليها مُرْتَكَزُها، ومَرَدُّ نعمِه كلِّها إليها، ومناطُ الحمدِ كلِّه مرتبطٌ بها، وهي:الله، رب العالمين، الرحمن الرحيم ملك يوم الدين. فهو سبحان المحمود بألوهيته، المحمود بربوبيته، المحمود على رحمته ورحمانيته، المحمود بعدله يوم الدين. وهذه المحامد كلها أساس التوحيد، إثباتا لصفات الكمال، ونفيا للشرك والتشبيه والمثال، وتنزيها عن العيوب والنقائص.

فهو الله، المعبود الذي لا سبيل للعباد إلى معرفة عبادته إلا من طريق رسله، ولذلك تتابعت رسالاته إليهم نعمة منه وفضلا.

وهو رب العالمين، بربوبيته يدبر الكون، يقدر الأرزاق والآجال، هدايته العامة تنال البر والفاجر، يدبر الأمر كله { قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللّهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ } يونس31.

وهو الرحمن الرحيم، رحمته ترعى عباده وتَسَعُهم، ورحمانيته ترشدهم إلى طريق سعادتهم في الدارين معاشا ومعادا.

وهو ملك يوم الدين، العادلُ في حكمه، اللطيفُ بعباده، الكريمُ في عطائه الشديدُ في عقابه { وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْماً وَلَا هَضْماً } طه112، { فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْساً وَلَا رَهَقاً } الجن13. { وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ } القمر36، { وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشاً فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ } ق36.

ولئن كان الشقُّ الأول من فاتحة الكتاب خاصا بالله وحده، ودالا على كمال التوحيد اليقيني، فإن ما تلاه منها بين العبد ومولاه، خاصٌّ بأدق معالم التوحيد الإرادي العملي، وهو العبادةُ والاستعانة { إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }، عبادته لله واستعانته بالله، وبذلك يبقى المرء متفيئا ظلالَ الألوهية والربوبية لا يخرج عنها في حركاته وسكناته، في لهجات لسانه وخفقات جنانه.

ولئن كانت العبادة اسما جامعا لكل ما يحبه الله تعالى ويرضاه، أقوالا وأعمالا ظاهرة وباطنة كالصلاة والزكاة والصوم والنسك والصدق والوفاء والبر وصلة الرحم وإخلاص الدين وشكر النعم والرضا بالقضاء وما في حكم ذلك، فإن الذي يجب أن يُلْتَزَمَ فيها أبدا هو أن لا يُتَوَجَّه بها إلا لله تعالى، وأن يكون مدارُها على جميع التصرفات نوايا ومآلا، وتعلقُها بالقلوب والجوارح لسانا وأعمالا، تشمُل النشاطَ الإنساني كلَّه وتغطي كدحَ الحياة الدنيا كاملا، فيرتفع بها المرءُ في مراقي الإسلام والإيمان والإحسان، قياما من الجسم بوظائف الأحكام، ومن القلب بوظائف الاستسلام، ومن الروح باستشعار المراقبةِ والمشاهدةِ لله العلام. وذاك ما بينه حديثُ جبريل عليه السلام إذ سأل الرسولَ الكريم صلى الله عليه وسلم عن الإسلام والإيمان والإحسان فكان الجواب الجامع المانع: (الإِسْلاَمُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لاَ إِلهَ إِلاَّ الله وَأَنَّ مُحَمَّدا رَسُولُ اللهِ، وَتُقِيمَ الصَّلاَةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ، إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلاً) والإيمان (أَنْ تُؤْمِنَ بِالله، وَمَلاَئِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ)، والإحسان (أَنْ تَعْبُدَ الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ. فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ، فَإِنَّهُ يَرَاكَ)، وهو كذلك ما أجمله قول الحق سبحانه تلميحا وتضمينا: { الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ } آل عمران191، ذكرُ الله عبادةٌ بالقلب واللسان، والتعبدُ قياما وقعودا وعلى الجنوب قيامٌ للأعضاء بالأركان، والتفكرُ في خلق السماوات والأرض عبادةُ الروح والجنان. وبذلك يكون المرء في كل أحواله مستغرقا في العبادة، سائحا في رياض الرحمة، ونعيم الهدى، مؤثرا تعبَ السَّعْي لمرضاة ربه على راحة الغفلة والتيه في صحارى الضلال، مقتديا بالسيد المطاع رسول المرحمة وقد روى عن حال عبادته ابن عمر رضي الله عنه قال: قلت لعائشة: أخبريني بأعجب ما رأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلّم، فبكت وأطالت ثم قالت: كل أمره عجب، أتاني في ليلتي فدخل في لحافي حتى ألصق جلده بجلدي، ثم قال لي: يا عائشة هل لك أن تأذني لي الليلة في عبادة ربي، فقلت: يا رسول الله إني لأحب قربك وأحب مرادك، قد أذنت

لك. فقام إلى قربة من ماء في البيت فتوضأ ولم يكثر من صب الماء، ثم قام يصلي، فقرأ من القرآن وجعل يبكي، ثم رفع يديه فجعل يبكي حتى رأيت دموعه قد بلت الأرض، فأتاه بلال يؤذنه بصلاة الغداة فرآه يبكي، فقال له: يا رسول الله أتبكي وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فقال: يا بلال أفلا أكون عبدا شكورا، ثم قال: ما لي لا أبكي وقد أنزل الله في هذه الليلة: { إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَالأَرضِ } ثم قال: ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها، وفي رواية: ويل لمن لاكها بين فكيه ولم يتأمل فيها.

إن أكمل أحوال المرء هو حال اشتغاله بعبادة ربه، عبادةً يستنير بها قلبه، وتزكو بها نفسه، ويرطب بالذكر فيها لسانه، وتنفتح له بها طريق سعادة الدارين، ويتقوى بها على تحمل مشاق الحياة ومتاعبها، ولذلك قَالَ رَجُلٌ مِنْ خُزَاعَةَ: لَيْتَنِي صَلَّيْتُ فَاسْتَرَحْتُ فَكَأَنَّهُمْ عَابُوا عَلَيْهِ ذَلِكَ فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ (يَا بِلَالُ أَقِمْ الصَّلَاةَ أَرِحْنَا بِهَا)، وخاطب رب العزة رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم وقد ضاق صدره بمكر الجاهلين فقال: { وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ } الحجر97- 98، فأمره بالتسبيح والتحميد والصلاة لينصرف عن أذى الخلق إلى لطف الخالق، وعن ضائقة القلب إلى فسحة الانشراح والطمانينة والسكينة وحسن الظن بنصر الله.

وإن أشرف مراتب العبودية ما كان طوعا ورضا وعلى صواب في النية والعمل، حينئذ تلتقي الربوبية الحقة بالعبودية النيرة، والتوفية بالعهد من العبد بالوفاء بالوعد من المعبود، فتثمر شجرةُ الإيمان سعادةَ الدارين، لذلك قال صلى الله عليه وسلم: (قَدْ أَفْلَحَ الْمُزْهِدُ الْمُجْهِدُ ثَلَاثًا الْمُزْهِدُ فِي الْعَيْشِ الْمُجْهِدُ فِي الْعِبَادَةِ) وقال تعالى: { وَأَوْفُواْ بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ } البقرة40، { وَعَدَ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } التوبة72، { إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللّهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } التوبة111.

وإن العبادة أشرف خدمة، وإن أشرف الخدمة عملٌ لله، والعامل مع الله عز وجل إنما عمله أداء الفرائض، واجتناب المحارم وطاعته فيما أمر به ونهى عنه، قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ } الحج77- 78 { وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ

أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ } الأنبياء25. وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم: { قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } الأنعام162.

إلا أن للعبادة آفةً تغتالها، ومرضا يستأصلها، وعيبا يَشينُها فتذهب ريحها، وليس ذلك إلا من غرور يصيب بعضَ العُبَّاد، واغترارٍ ينال بعضَ المتعبدين، واستعلاءٍ بالنفس يختِل الإيمانَ من القلوب، فتصبح قاعا صفصفا وبلقعا قفرا، وهو ما شرحه رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما أخرجه البيهقي في دلائل النبوة عن أنس قال:(ذكروا رجلا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكروا قوته في الجهاد واجتهاده في العبادة فإذا هم بالرجل مقبلا، قالوا: هذا الذي كنا نذكر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: والذي نفسي بيده، إني لأرى في وجهه سنعة[11] من الشيطان، ثم أقبل فسلم عليهم، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: هل حدثت نفسك؟ وفي رواية أبي سعيد: هل حدثتك نفسك أنه ليس في القوم أحد خير منك؟ قال: نعم..).

إن سنعة الشيطان المشار إليها في الحديث الشريف ليست إلا سمة من سمات الغرور الذي هو في حقيقة الأمر شرك خفي حذر منه الرسول صلى الله عليه وسلم فيما أخرجه ابن ماجه عَنْ أَبِي سَعِيدٍ، قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ، وَنَحْنُ نَتَذَاكَرُ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ. فَقَالَ: أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنَ الْمَسِيحِ الدجالِ؟، قَالَ، قُلْنَا: بَلَى، فَقَالَ: الشِّرْكُ الْخَفِيُّ: أَنْ يَقُومَ الرجُلُ يُصَلِّي فَيُزَيِّنُ صَلاَتَهُ لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ.

وإن أنجعَ علاج ووقاية من آفة الغرور أن يستشعر المرء الفقرَ إلى الله تعالى، والضعف بين يديه والخضوعَ له، والخروجَ من الحول والقوة إلا به، والحاجةَ في جميع أمره إليه، ولذلك كان من رحمة الله ولطفه بأوليائه أن أرشدهم إلى بلسم الوقاية والشفاء، بلسم الاستعانة به والتوكل عليه، بأن يشفعوا عبادتهم امتثالا للأوامر والنواهي بدعاء متمِّمٍ للنعم هو { وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }.

ولئن كان هذا الدعاء وقايةً من الآفات التي تشين العبادة، وحمايةً من الغرور والاعتداد بالنفس، فإنه أيضا سلاحٌ للمؤمن في مواجهة متاعب الحياة المادية ما تعلق منها بالدنيا أو ما تعلق منها بأمر الآخرة، فعن أنس رضي الله عنه قال: (كنا

11 – سَنَع: طال، الأَسْنَع: الطويل، الرجُل الأَسْنَعُ والسَنِيعُ الطويل، والخَشِبُ الطويل الجافي العاري العِظَام مع شِدَّةٍ وصَلابة وغِلَظ، والسِّنْع، بالكسر: الرُّسغ، أو الحَزُّ الذي في مَفْصِل الكَف والذراع، أو السُّلامَى يَصِلُ ما بين الأصابعِ والرسْغ في جَوْفِ الكَف، سنعة الشيطان: تطاول شيطاني، أثر من تغرير الشيطان به.

مع النبيّ في غزوة، فلقِيَ العدوَّ، فسمعته يقول: (يا مالِك يَوْمِ الدِّين، إياكَ نَعْبُدُ وإيَّاك نَسْتَعِينُ)، فلقد رأيت الرجالَ تُصْرَعُ تضربها الملائكةُ من بين أيديها ومن خلفها).

ولئن اشتغل أرباب الأهواء بأوساخ شهواتهم وملذات أنفسهم، فإن أربابَ التقوى يتشاغلون عن كل شيء إلا عن اللّجْأِ والسؤال، وفي الأثَر أن قتيبةَ بنَ مسلم لما صافَّ الترك هالَهُ أمرُهم فقال: أين محمد بن واسع؟ فقيل له هو في أقصى الميمنة جانحٌ على سية قوسه[12] يومئ بأصبعه نحو السماء، فقال قتيبة: تلك الأصبع الفاردة أحبُّ إليَّ من مائة ألف سيف شهير، فلما فُتِح عليهم قال له: ما كنت تصنع؟ قال: آخذ لك بمجامع الطرق.

وإن أجلَّ ثمار الإيمان بالقَدَرِ استسلاما لإرادة الله وحكمته، وما يستتبعه من حقائق الإيمان، دوامُ الافتقارِ إلى الله واستمداد العون منه، والتوكل عليه، وانتظار الفرج منه وحده، وهو ما يرشد إليه قوله تعالى: { اسْتَعِينُوا بِاللّهِ وَاصْبِرُواْ إِنَّ الأَرْضَ لِلّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ } الأعراف128، وما نصح به الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ابن عباس بقوله:(يَا غُلَامُ إِنِّي مُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ احْفَظْ اللَّهَ يَحْفَظْكَ احْفَظْ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ وَإِذَا سَأَلْتَ فَلْتَسْأَلْ اللَّهَ وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ رُفِعَتْ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ).

ولعل من أجل معاني { إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ } أن عبادةَ الله نفسها استعانةٌ، والاستعانة بالله عبادة، والمرء في كل أحواله عابدٌ ومستعينٌ، ألَمْ تَرَ أن الدعاءَ استغاثةٌ واستعانةٌ وهو في نفس الوقت عبادةٌ لقوله صلى الله عليه وسلم (الدعاء هو العبادة)، وأن الصبرَ عبادةٌ لقوله تعالى { الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ } آل عمران17، والصلاة عبادة لقوله تعالى: {فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَّوْقُوتاً } النساء103، وقوله: { اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ } العنكبوت45، وكلاهما في نفس الوقت استعانةٌ لقوله تعالى { وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ } البقرة45، ولذلك قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ اللَّهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيّاً فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحب إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطشُ بِهَا وَرِجْلَهُ التِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ)، فإذا حقق المرء بالفرائض والنوافل أمنيته في القرب من ربه عبادة، أثمر ذلك من فضل ربه عونا وقوة وعطاء واستعاذة.

---

12 – سية القوس رأسها أو ما اعوج من رأسها

إن الإنسان في صراع دائم مع نفسه ومع الشيطان الذي يجري منه مجرى الدم، ومع مغريات الهوى ومضلات وساوس الجِنَّة والناس، والذنوبُ من لوازم النفس البشرية، وحاجةُ المرء إلى الهدى في كل لحظة أشدُّ من حاجته إلى الطعام والشراب، وخيراتُ الدنيا وشرورُها في حقيقة أمرها ابتلاءٌ من الله واختبارٌ { وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ } الأنبياء 35، وهو مفتقرٌ إلى من يأخذ بيده إلى شاطئ النجاة، وبناصيته إلى سلامة التصرف في شؤون دنياه، وحسن العاقبة في أمور آخرته، ولا يملك ذلك إلا ربُّ العزة عز وجل، لذلك كان أنفع الدعاء وأعظمه وأحكمه وأرجاه هو دعاء الفاتحة بعد توحيد الربوبية عبادة واستعانة بقوله تعالى: { اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ }.

وقد قيَّد ربُّ العزة الهدايةَ المرجوةَ لعباده بالصراط المستقيم، ومَيَّز أهلَ هذا الصراط عن غيرهم فصار الناس تبعا لهذا التمييز على ثلاثة أصناف، صنف الذين أنعم الله عليهم ممن عرفوا الطريق واتبعوه، وصنف المغضوب عليهم ممن عرفوه وأعرضوا عنه، وصنف الذين ضلوا عنه وغابت عنهم معالمه.

والسعيد من سأل ربه هداية التوفيق والتسديد والرشد، والقلب اليقظ والسمع الواعي والبصيرة النيرة، والتمييز الذي يصون المرءَ عن سفه السفهاء وطيش الأغبياء، ويقيه تمردَ المغضوب عليهم وجهلَ الضالين، ويرفع همته للمعالي ويقوي عزيمته على التعلق بما عند ربه.

ذلك أن الهداية في المفهوم القرآني ثلاث مراتب:

أولاها الهداية العامة المشتركة بين جميع الخلق، وهي المقصودة بقوله تعالى: { قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى } طه50، أي هداه إلى ما خلق له، وهي تعم الإنسان والحيوان بإرشاده إلى الكسب والتناسل والمشاعر والحواس، بل تعم كذلك أعضاء الكائن الحي غير الإرادية كالقلب والرئتين والكبد وما في حكمها لتقوم بوظائفها التي خلقت لها.

والمرتبة الثانية هي هداية البيان والتعريف الخاصةُ بالمكلفين من الجن والإنس، يبلّغون الرسالة وتُبَيَّن لهم طريق النجاح والفلاح فتُقام عليهم الحجة، وتَعُم المؤمنَ والكافر والمطيعَ والعاصيَ، وهي المقصودة بقوله تعالى { وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ } الشورى52، وقوله { وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى } فصلت17.

أما المرتبة الثالثة، فهي هداية الاصطفاء والقرب، الهدايةُ التي أرشدت إليها سورة الفاتحة، وهي خير الهدايات التي يحبها الله تعالى لأوليائه، لذلك شرع ترديدها كل يوم بعدد الصلوات المفروضة والسنن الرواتب، وكلما انشرحت قلوبهم للترويح

على أنفسهم بالركوع والسجود، إنها هداية التوفيق والإلهام، التي قال الله تعالى فيها: { وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ } هود88، وقال: { لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ } البقرة272، وهي الجائزة التي يتفضل بها رب العزة على عباده المقبلين عليه بقلب سليم، المجاهدين أنفسهم ورعوناتهم وأهواءهم وضلالات المجتمع والناس حولهم، ولذلك قال عز وجل: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ } العنكبوت69، فالمجاهدة بالعلم والعمل، والهداية مواهب الله في كل الأحوال.

أما المتكبرون المعجبون بأنفسهم، المغترون بعقولهم، المتمردون على الفطرة السليمة باستعلائهم وتطاولهم وعدوانهم، فيوكَلون إلى حَوْلِهم وقوتهم وما يغني ذلك عنهم من الله في شيء { كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ } الأعراف101، { كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلوبِ الْمُعْتَدِينَ } يونس74، { سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ } الأعراف:146، { ثُمَّ انصَرَفُواْ صَرَفَ اللّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُون } التوبة127.

إن الهداية التي يريدها الله تعالى لنا هي هدايةُ الرشد والتسديد والتأييد، ولا سبيل لأحد من الخلق إليها إلا منه عز وجل، ولذلك قال: { وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَداً وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } النور21. كلما أقبل العبد على ربه أمدَّه من العلم والعمل الصالح حتى يحبه {وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْواهُمْ } محمد17، { قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَىَ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ } الأنعام71، { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إَن تَتَّقُواْ اللّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ } الأنفال29، { أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ } الزمر 22.

تبدأ معالم الهداية أولا رشدا يأخذ بيد العبد إلى الصواب في أموره، يُقَوِّيه على ما فيه صلاحه، ويُفَتِّره على ما فيه فساده، ويحول بينه وبين هواه، ثم تتجلى الهدايةُ في القلب الذي تزكى وتحلى تسديدا يُقَوِّم إرادته ويُوجِّه عزيمته ويأطُر عقلَه على طلب الغرض الذي من أجله خلق في الدنيا، وعنه يسأل يوم الدين، ولا شك أن هذا المطلوب هو المقصود بقوله تعالى { اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ }، فإذا ارتقى العبد إلى طلب هذا الصراط المستقيم بصدق وعزيمة وإصرار، تجلت رحمة الله تعالى عليه بالتأييد والتثبيت والعون والصون وختم له بالحسنى.

إن بين الدنيا والآخرة إلى مرضاة الله تعالى طريقا واحدا مستقيما، ينتهي بمن صفت عقيدته وقُبِلَ عمله إلى الخير المطلق، ولا خير مطلقا إلا الجنة، وعن يمين هذا الصراط المستقيم وعن يساره طرق معوجة تركس من سلكها في الشر المطلق، ولا شر مطلقا إلا النار.

وإن من معالم الرشد والتسديد والتأييد والهداية أن يجتمع للعبد عقلٌ وعِلم يثمران فهما ربانيا للحياة الدنيا بصراطها المستقيم الواجبِ اتباعُه، ومتاهاتها المتعرجة المِعْوَجَّة الواجبِ تجنبُها؛ ولذلك يكون دعاء من بلغها من السعداء أن يتجه إلى ربه تعالى متضرعا وقد تخلص من طيش الشباب ورعونته وجهالته: { رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ } النمل 19.

إن الفهم الرباني الذي هو منحة إلهية وثمرة طبيعية للمجاهدة بالعلم والعقل, العلمِ بالقرآن والسنة، والعقلِ المنضبط بالإيمان, هو قاعدة الانطلاق في صراط الله المستقيم, سيرا فيه واتباعا له, وإعراضا عن سبل الشيطان المتعددةِ ذاتَ اليمين وذاتَ الشمال, سعيا فيها أو وقوفا على أرصفتها.

وغيرُ خفيٍّ عن العقلاء الحكماء أن السير هو تتابع السعي بخطوات متزنة، من نقطة معينة هي الحياة الدنيا إلى نقطة أخرى معلومةٍ ومحددة ومرصودة ومقصودة هي حياةُ الآخرة، وإلا كان مجردَ تحرك عفويّ سائبٍ كحركة الأرنب عندما يدهمها الخطر فتنطلق في أي اتجاه قفزا ونطّاً، أو جريا أو تدحرجا أحيانا، حتى إذا ما أرهقتها الحركة العشوائية وقفت وأسلمت أذنيها لمن يطلبها من شياطين الجن والإنس.

هذا الفهم الرباني الذي هو قاعدة الانطلاق الأولى إلى الصراط المستقيم به يتميز الصواب من الخطأ والحق من الباطل، وسبيلُ الرحمن من سبل الشيطان { وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ} الأنعام153.

من هنا مُفترَق طريق بين صواب واحد هو الحق من ربك، وبين أخطاءٍ متعددة ذاتَ اليمين وذاتَ الشمال، أخطاءٍ ذاتَ اليمين تحتفظ بالانتساب الظاهر للإسلام ولكنها تخرج عنه من عدة أنفاق، وأخطاءٍ ذاتَ الشمال تقطع صلتها بالإسلام وتذهب في الكفر مذاهب شتى، وهذا ما بينه الرسول صلى الله عليه وسلم لنا فيما رواه عبد الله بن مسعود قال: (خط رسول الله صلى الله عليه وسلّم خطاً بيده، ثم قال: هذا سبيل الله مستقيماً، وخط عن يمينه وشماله ثم قال: هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه، ثم قرأ { وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } الأنعام153).

وعن ابن مسعود أيضا أن رسول الله صلى الله عليه وسلّم قال: (ضرب اللَّهُ مثلاً صراطاً مستقيماً، وعلى جَنَبَتَي الصِّراط سوران، فيهما أبوابٌ مفتَّحة، وعلى الأبواب ستورٌ مُرخاةٌ، وعند رأس الصِّراط داعٍ يقول: استَقيموا على الصراطِ ولا تَعْوَجُّوا، وفوق ذلك داعٍ يدعو، كلما همَّ عبدٌ أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال: ويحك لا تفتحْه، فإنك إنْ تفتحْهُ

تَلِجْهُ، ثمَّ فسره فأخبر: أنَّ الصِّراط هو الإسلام، وأنَّ الأبواب المفتَّحة محارمُ الله، وأنَّ الستور المرْخاةَ حدود الله، وأن الداعي على رأس الصِراط هو القرآن، وأن الداعي من فوقه واعظُ الله في قلبِ كلّ مؤمن)

كما روى أبان أن رجلاً قال لابن مسعود: ما الصراط المستقيم؟ قال: تركنا محمد صلى الله عليه وسلّم في أدناه وطرفه في الجنة، وعن يمينه جوادٌّ، وعن يساره جوادٌّ، وثمّ رجال يدعون من مَرَّ بهم، فمن أخذ في تلك الجوادِّ انتهت به إلى النار, ومن أخذ على الصراط انتهى به إلى الجنة، ثم قرأ { وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ }

إن الفهم الرباني الذي يبين لنا الصراطَ المستقيم فنتبعه ونسير فيه بخطوات ثابتة، ويكشف لنا معالمَ سُبُلِ الشيطان اليمينية والشمالية، سبلِ المغضوب عليهم لمعرفتهم الحق والتنكر له، يهودا أو منافقين أو من فسقة علماء المسلمين، وطرق غواية كفرة الجاهلين الراكنين إلى ضلالهم المطمئنين به، من سائر الأديان والملل والنحل، فنجتنبها ونحذِّر منها... هذا الفهم الرباني هو الذي يمنحنا الجراءة الإيمانية على اقتحام العقبة الحرجة, للانطلاق الرشيد نحو هدفنا الأسمى الذي هو مرضاة ربنا عز وجل، وهدفِنا الأدنى الذي هو تحكيم كلمة التوحيد وتمكين الأمة المسلمة من حق التسلط على أمرها الجامع تقريرا وتنفيذا ومراقبة ومحاسبة, كي يكون الدين لله وكلمة الإسلام هي العليا، كما نص على ذلك الكتاب والسنة.

ولئن كان دربنا هذا طويلا وعسيرا, ولا يُشَق إلا بالتضحية والصبر والثبات والوفاء لله وللرسول وإخْوةِ الإيمان ورُفْقةِ الطريق، فإن قاعدةَ الارتكاز الصُّلبَة التي هي الفهم الرباني الأصيل خيرُ أداة تقَوِّي زخْم الاندفاع نحو الغاية، وتسدد الرماية نحو الهدف، وتعصم من وهْن الانطلاق وتيه التوجه وغبَش الرؤية وضلال السعي. ولذلك قرن الله تعالى بين الدعوة إلى الله، وبين البصيرة التي هي الفهمُ الرباني، المستنيرُ باليقين المسترشدُ بالبرهان الشرعي والعقلي، في قوله تعالى: { قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } يوسف108.

إن منطلق التصرف السليم لدى المرء أساسُه العقل السليم، المستنيرُ بالفهم الرباني، أما التصرف السقيم المؤدي إلى الضلالة والانحراف عن الصراط المستقيم فهو دائما منطلق من إحدى ثلاث آفات:

أولاها البلادة وسوء الفهم وغلبة المزاجية والتعصب، لذلك سريعا ما يسقط بسطاء الأحلام في شراك المتشيطنة وأبالسة الجن والإنس, ممن يزينون المنكر ويشوهون المعروف، ويطلقون ألسنتهم بما لا خَبَرَ في قلوبهم منه، ولا لهم بذلك تحقيق, تلبيساً وتدليسا على مستضعفي العقول، ليحسبوه من الحق وما هو من الحق، كما قال تعالى في أمثالهم: { لِتَحْسِبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ } آل عمران78.

وثانيتها القصد السيئ، ونعني به غلبةَ الهوى على النفس وإيثارَها الجاه والمال واللذة والرتب الدنيوية الرفيعة والاستعلاء والاستكبار على الخلق؛ وأصحابُ القصد السيئ هؤلاء هم طائفة المتشيطنة والمتأبلسة الذين يسخرون كل شيء لمصالحهم الدنيئة، من أجل مكسب أو قرب أو رفعة لدى صاحب ثروة أو جاه أو سلطة.

إن أهم صفات ذوي القصد السيئ القسوة الناشئة عن انعدام الحياء من الله ومن الناس ومن النفس، ومن آثار القسوة تحريفُ الكلِم عن مواضعه، و تركُ ما أمر به الله علماً وعملاً، والتخلي عن كل القيم والمبادئ في سبيل مصلحة عاجلة يندثر نفعها وترافقه إلى الآخرة المحاسبة عليها.

وثالثتها الجبنُ الناشئ عن ضعف الإيمان وقلةِ الثقة بالله، ولذلك يسقط الجبان في الخيانة مهما كابر وادعى وتَسَتَّرَ على ضعفه وفساد طويته، وركن إلى التلبيس والتدليس والإنكار والجحود، الجبان يسقط في أول الطريق لدى أول اختبار، فينكشف عواره وتفتضح وتهتك أسراره، إن الجبان يفر من أبيه وأمه وزوجه وولده، ويفتدي نفسه بملابسه التي تستر عورته, فكيف يُرْكَن إليه أو يُعْتَمَد عليه أو يُوثَق به، إن الجبان مشروعُ خيانةٍ مرتقبةٍ دائما, إن لم يخنك اليوم بإرادته خانك غدا طلبا لسلامته، وإن الشجاع يحمي عرضه وعرض من لا يعرفه من الخلق، لأن ما ركب في جبلته من إباء وشهامة ونصرة يأبى عليه أن يُسْلم ضعيفا أو يخذُل مستضعفا أو يتخلى عن ذي ضائقة.

أما العقلاء اليقظون ممن هُدوا إلى المحجة البيضاء ليلها كنهارها إشراقا ونورا، إلى صراط الرب مستقيما، صراط العزيز الحميد سويا، صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض، فقد سلكوه ثابتين غير مترددين ولا متلجلجين، ولزموا باب مولاهم متعلقين بفضله وكرمه وجوده، لا تصدُّهم عنه وحشةُ غربةِ الأيتام في مآدب اللئام، ولا يغلبهم عنه ما يرومُه من الدنيا عبيدُها، إنهم القوم حقا، ورفقاء الطريق السوي صدقا، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في رواية البخاري:(إن لله ملائكةً يطوفون في الطرق يلتمسون أهلَ الذكر فإذا وجدوا قوما يذكرون الله تنادوا:"هلمُّوا إلى حاجتكم"، قال: فيحفُّونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا، قال: فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم: "ما يقول عبادي؟"، قال:يقولون: "يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك"، قال: فيقول: "هل رأوني؟"، قال:" فيقولون: "لا والله ما رأوك"، قال: فيقول: "كيف لو رأوني؟" قال: فيقولون: "لو رأوك كانوا أشد لك عبادة وأشد لك تمجيدا وأكثر لك تسبيحا"، قال: فيقول: "فما يسألون؟"، قالوا:" يسألونك الجنة "، قال: يقول: "وهل رأوها؟"، قال: فيقولون:" لا والله يا رب ما رأوها " قال: فيقول: "فكيف لو رأوها؟"، قال: يقولون: "لو أنهم رأوها كانوا أشد حرصا وأشد لها طلبا وأعظم فيها رغبة"، قال: "فمم يتعوذون؟"، قال: يقولون: "من النار" قال: يقول: "فهل رأوها؟" قال: يقولون:" لا والله يا رب ما رأوها"، قال: يقول: "فكيف لو رأوها؟"، قال: يقولون: "لو رأوها كانوا أشد منها فرارا وأشد لها مخافة" قال:" فيقول:" فأشهدكم أني قد غفرت لهم"، قال: يقول ملك من الملائكة:" فيهم فلان ليس منهم إنما جاء لحاجة"، قال: " هم الجلساء لا يشقى

جليسهم"، وفي رواية مسلم يقول الحق سبحانه وتعالى:(قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ. فَأَعْطَيْتُهُمْ مَا سَأَلُوا وَأَجَرْتُهُمْ مِمَّا اسْتَجَارُوا. قَالَ: فَيَقُولُونَ: رَبِّ فِيهِمْ فُلاَنٌ، عَبْدٌ خَطَّاءٌ، إِنَّمَا مَرَّ فَجَلَسَ مَعَهُمْ. قَالَ: فَيَقُولُ: وَلَهُ غَفَرْتُ، هُمُ الْقَوْمُ لاَ يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ).

نزول الفاتحة

على الرسول صلى الله عليه وسلم

في أول ما نزل من القرآن الكريم أربعة أقوال:

القول الأول وهو الأرجح: { اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ } العلق، في رواية الشيخين والحاكم والبيهقي والطبراني وغيرهم.

القول الثاني: { يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ } المدثر1، في رواية للشيخين عن سلمة بن عبد الرحمن.

القول الثالث: سورة الفاتحة كما ذكر ابن حجر اعتمادا على ما أخرجه البيهقي في دلائل النبوة والواحدي عن أبي ميسرة عمرو بن شرحبيل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لخديجة:" إني إذا خلوت وحدي سمعت نداء، وقد والله خشيت أن يكون هذا أمرا "، فقالت: معاذ الله، ما كان الله ليفعل بك، فوالله إنك لتؤدي الأمانة، وتصل الرحم، وتصدق الحديث؛ فلما دخل أبو بكر، وليس رسول الله صلى الله عليه وسلم ثَمَّ، ذكرت خديجة حديثه له وقالت: يا عتيق اذهب مع محمد إلى ورقة، فلما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ أبو بكر بيده، فقال: انطلق بنا إلى ورقة، فقال: ومن أخبرك؟ قال: خديجة، فانطلقا إليه، فقصا عليه، فقال: إذا خلوت وحدي سمعت نداء خلفي: يا محمد، يا محمد، فأنطلق هاربا في الأرض، فقال: لا تفعل، فإذا أتاك فاثبت حتى تسمع ما يقول، ثم ائتني فأخبرني؛ فلما خلا ناداه يا محمد قل: { بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ }، { الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} حتى بلغ { وَلَا الضَّالِّينَ }، قل: (لا إله إلا الله)، فأتى ورقة فذكر ذلك له، فقال له ورقة: "أبشر، ثم أبشر، فأنا أشهد أنك الذي بشر به ابن مريم، وأنك على مثل ناموس موسى، وأنك نبي مرسل، وأنك سوف تؤمر بالجهاد بعد يومك هذا، ولئن أدركني ذلك لأجاهدن معك"، فلما توفي ورقة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لقد رأيت القس في الجنة عليه ثياب الحرير، لأنه آمن بي وصدقني) يعني ورقة، فهذا منقطع، فإن كان محفوظا فيحتمل أن يكون خبرا عن نزولها بعد ما نزلت عليه اقرأ باسم ربك، ويا أيها المدثر، والله أعلم.

وهذا الحديث لا يفيد إلا أنها نزلت في مكة، يؤيد ذلك قوله تعالى في سورة الحجر وهي مكية بلا خلاف { وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ } الحجر87، كما أنه لا خلاف أيضا في أن فرض الصلاة كان بمكة، ولم يحفظ أنه كان في الإسلام قط صلاة بغير الفاتحة لقول الرسول صلى الله عليه وسلم:(لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب).

القول الرابع: أن أول ما نزل { بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ }، وهو ما أخرجه ابن جرير عن ابن عباس، والواحدي بإسناد عن عكرمة والحسن، قالا:(أول ما نزل من القرآن الكريم { بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ }، وأول سورة "اقرأ"، ويرد عليه بأن من الضروري أن تنزل السورة مبدوءة بالبسملة فهي أول آية نزلت على الإطلاق.

حكم البسملة

في أول الفاتحة وما بين سور القرآن

البسملة آية من كل سورة عدا براءة؛ لثبوتها في المصحف الإمام؛ الذي لا زيادة فيه ولا نقصان بتواتر إجماع الأمة الإسلامية، أثبتها السلف في المصحف مع توصيتهم بتجريد القرآن، ولم يثبتوا "آمين" لكونها ليست منه، ولقول ابن عباس:" من ترك { بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ } فقد ترك آية من كتاب الله " وهذا ما عليه قراء مكة والكوفة والشافعي وأصحابه، وما ذهب إليه أحمد بن حنبل فيما رواه عنه البيهقي في الشعب قال:" من لم يقل مع كل سورة: { بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ } فقد ترك مائة وثلاث عشرة آية من كتاب الله تعالى" وهو أيضا ما فصله الشيخ أبوالقاسم علي بن عثمان العذري عند شرحه لقول الشاطبي في منظومته (حرز الأماني):

وبَسْمَلَ بين السورتين بِسُنَّةٍ رجالٌ نَمَوْها دِرْيَةً وتَحَمُّلا

فقال: (أخبر أن رجالا بسملوا بين السورتين آخذين في ذلك بسنة نموها، أي رفعوها، وهم: قالون والكسائي وعاصم وابن كثير...وعلم من ذلك أن الباقين لا يبسملون بين السورتين... وأراد بالسنة التي نموها كتابةَ الصحابة لها في المصحف، وقولَ عائشة رضي الله عنها:" اقرؤوا ما في المصحف "، وكان النبي صلى الله عليه وسلم لا يعلم انقضاء السورة حتى تنزل عليه { بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ }، ففيه دليل على تكرير نزولها مع كل سورة، ومعنى دراية وتحملا أي دارِينَ متحملين لها، أي جامعين بين الرواية والدراية).

وأما معناها فهو البدء في كل أمر ذي بال باسم ذات الله العلية، وصفاته السنية، كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم، ويؤيده حديث أَبِي هُرَيْرَةَ الَّذِي أَخْرَجَهُ الدَّارَقُطْنِيُّ بِلَفْظِ (إِذَا قَالَ الْعَبْد { بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ }، قَالَ اللَّه تَعَالَى مَجَّدَنِي عَبْدِي)، وعَنْ ابْنِ جُرَيْجٍ، قَالَ أَخْبَرَنِي أَبِي عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ فِي قَوْلِهِ: { وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيم }، قَالَ: هِيَ أُمُّ الْقُرْآنِ. قَالَ أَبِي: وَقَرَأَهَا عَلَى سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ حَتَّى خَتَمَهَا، ثُمَّ قَالَ: { بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرحِيم } الآيَةُ السابِعَةُ. قَالَ سَعِيدٌ: وَقَرَأَهَا عَلَى ابْنِ الْعَباسِ، كَمَا قَرَأْتُهَا عَلَيْكَ، ثُم قَالَ: { بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم } الآيَةُ السابِعَةُ، قَالَ ابْنُ عَباسٍ: فَذَخَرَهَا اللَّهُ لَكُمْ، فَمَا أَخْرَجَهَا لأَحَدٍ قَبْلَكُمْ، قَالَ الشافِعِيُّ فِي رِوَايَةِ حَرْمَلَةَ عَنْهُ: وَكَانَ ابْنُ عَباسٍ يَفْعَلُهُ (يَعْنِي يَفْتَتِحُ الْقِرَاءَةَ بِ { بِسْمِ اللَّهِ الرحْمَنِ الرحِيم } وَيَقُولُ: انْتَزَعَ الشيْطَانُ مِنْهُمْ خَيْرَ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ وَكَانَ يَقُولُ: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يَعْرِفُ خَتْمَ السُّورَةِ حَتَّى تَنْزِلَ: { بِسْمِ اللَّهِ الرحْمَنِ الرحِيم } [13].

[13]– أحكام القرآن الشافعي 43/1

وعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:(فاتحة الكتاب سبع آيات أولاهن { بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ }، وروى البيهقي في سننه الكبرى والدارقطني عن ابن بريدة عن أبيه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا أخرج من المسجد حتى أخبرك بآية – أو قال بسورة – لم تنزل على نبي بعد سليمان غيري)، قال فمشى وتبعته حتى انتهى إلى باب المسجد فأخرج رجله من أُسْكُفَّة[14] المسجد وبقيت الأخرى في المسجد، فقلت بيني وبين نفسي: أنسي؟ قال فأقبل علي بوجهه وقال: (بأي شيء تفتح القراءة إذا افتتحت الصلاة؟)، قال قلت: { بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ }، قال: (هي هي)، ثم خرج.

وأخرج البيهقي عن عَبْدِ خَيْرٍ قالَ: سئِلَ عليٌّ رضي الله عنه عن السَّبْعِ المثَانِي فقال: { الحمدُ للَّهِ }، فقِيلَ لَهُ: إنَّمَا هِيَ ستُّ آياتٍ فقالَ: { بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ } آيةٌ. ورُوِيَ عن أبي هريرَةَ رضي الله عنه مرفوعاً وموقوفاً، والموقوفُ أَصَحُّ.

نفس الحكم أورده ابن عبد البر في الإنصاف عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا افتتح الصلاة جهر ببسم الله الرحمن الرحيم، قال أبو يحيي: قال لي موسى بن هارون الحمال: هذا الحديث قد رواه عن أبي أويس عبد الله, كما رواه عنه ابنه، ومما يدل على أن { بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ } آية من أول فاتحة الكتاب, وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرؤها ويجهر بها، ما وصفت أم سلمة رضي الله عنها من قراءة الرسول عليه الصلاة والسلام لها.

وقد قيل إنها المعنية بقوله تعالى: {وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً } الإسراء46، وأن من قرأها . متعبداً بها . أنجاه الله تعالى من ملائكة الجحيم التسعة عشر في قوله تعالى {عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ } المدّثر30، لأن عدد حروفها بعددهم.

وقال بعضهم: إن البسملة تيجان لسور القرآن وليست بآية منه، وعلى ذلك قراء المدينة والبصرة والشام وفقهاؤها، إلا أن ثبوتها بناصية كل سورة ماعدا سورة براءة في المصحف الإمام الذي تواتر إجماع الأمة عليه، وما ورد من آثار صحيحة في شأن كونها آية، يضعف حجة النفاة.

ولعل الشبهة وردت من عدهم {صِرَاطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ ٱلضَّآلِّينَ } آيتين، إذ لا خلاف أن الفاتحة سبع آيات فإذا عددت { بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ } اطرد العدد، وإذا لم تعدها جزأت الآية الأخيرة { صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ } وجعلتها آيتين، فالخلاف إذن بين أهل العدد، والصحيح أنَّ قوله: { صِرَاطَ الذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ } نصف آية.

14– الأُسْكُفّة والأَسْكُوفة عَتَبة الباب التي يُوطَأُ عليها.

قال ابن كثير في تفسيره: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم:({الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِين} سبع آيات: {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} إحداهن، وهي السبع المثاني والقرآن العظيم، وهي أم الكتاب)، وقد رواه الدارقطني أيضاً عن أبي هريرة مرفوعا بنحوه أو مثله وقال: كلهم ثقات ورواه البيهقي عن علي وابن عباس وأبي هريرة أنهم فسروا قوله تعالى {سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي} بالفاتحة وأن البسملة هي الآية السابعة.

حكم قراءة البسملة

في الفاتحة في الصلاة

نفاة قراءة البسملة في أول الفاتحة في الصلاة حجتهم ما رواه مسلم عن أنس أنه قال: صليت خلف النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر وعثمان فكانوا يستفتحون بالحمد لله رب العالمين لا يذكرون ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ في أول قراءة ولا في آخرها، وقد أعَلَّ الشافعي وغيره الزيادة التي نفى فيها البسملة بأن سبعة أو ثمانية خالفوا في ذلك واتفقوا على الاستفتاح بالحمد لله رب العالمين ولم يذكروا البسملة، والمعنى أنهم يبدؤون بأم القرآن قبل ما يقرأ بعدها، لا أنهم يتركون البسملة كما في رواية الدارقطني (فكانوا يستفتحون بأم القرآن)، وكأن بعض رواة الحديث فهم من الاستفتاح بالحمد نفي البسملة فصرح بما فهمه وهو مخطئ، ويؤيد هذا أن أنسا لم يرو نفي البسملة، بل إنه لما سئل أكان النبي صلى الله عليه وسلم يستفتح بالحمد لله رب العالمين أو ببسم الله؟ قال للسائل: إنك لتسألني عن شيء ما أحفظه وما سألني عنه أحد.

كما أعَلَّ ابن عبد البر حديث أنس باضطراب المتن، ذلك أن روايته في هذه المسألة عظم فيها الخبط والاضطراب والتعارض، فقد رووا عنه ست روايات، إحداها قوله: صليت خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلف أبي بكر وعمر وعثمان، فكانوا يستفتحون الصلاة بالحمد لله رب العالمين، والثانية قوله: إنهم ما كانوا يذكرون ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، والثالثة: لم أسمع أحدا منهم قال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، والرابعة أن أنسا روى أن معاوية لما ترك ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ في الصلاة أنكر عليه المهاجرون والأنصار، فأعاد الصلاة، والخامسة ما روى أبو قلابة عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وعمر كانوا يجهرون ب ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾، والسادسة أن أنسا لما سئل قال للسائل: إنك لتسألني عن شيء ما أحفظه وما سألني عنه أحد.

فإذا ثبت هذا تبقى رواية مثبتي الجهر بها في الصلاة الجهرية هي الأقوى والأرجح، لأن الإثبات مقدم على النفي ولأن رواتها أعلى حالا في العلم والدرجة والفضل مثل علي وابن عباس وابن عمر وأبي هريرة رضي الله عنهم، وقد كانوا يلون الرسول صلى الله عليه وسلم في الصلاة، ويسمعون الجهر بالبسملة منه. وروايات نفاة التسمية معلة المتن مضطربته، والراجح أن أنسا رضي الله عنه لم يكن من الذين يلون الرسول صلى الله عليه وسلم في الصلاة لصغر سنه، فلم يسمع جيدا ولذلك اضطربت روايته.

وتكون بذلك قراءةُ الفاتحة بدون بسملة ناقصةً لدى من يعدها آية، والصلاة تبعا لذلك ناقصة أيضا، كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم:(أيما صلاة لا يقرأ فيها بفاتحة الكتاب فهي خِداج، ثم هي خداج، ثم هي خداج).

ولعل الخلاف حول قراءة البسملة في االفاتحة نفيا وإثباتا يجعلنا بين صلاتين: صلاةٍ تامةٍ عند فريق، وناقصةٍ عند غيره إذا لم نقرأ بها، وبين صلاة تامة غير ناقصة إذا قرأنا بها عند من يقرأ بها ومن لا يقرأ بها، والاحتياط للدين أولى لا سيما في ركن للدين وعماد له.

مباحث مفردات الفاتحة

اسم الجلالة الله:

اتفق العلماء الذين اشتغلوا بمعاني أسماء الله الحسنى أن ما سوى اسم الجلالة " الله " من باب الصفات المشتقة. وذهب بعضهم إلى أن اسم الجلالة " الله " غير مشتق، بل هو اسم علم انفرد الحق سبحانه به كأسماء الأعلام، وعلى رأس هؤلاء المحققين الشافعي وأبو حنيفة والقفال الشاشي والغزالي وغيرهم، وحجتهم قوله تعالى { هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً } مريم65، أي ليس في الوجود شيء يسمى " الله " إلا " الله "، ولأن قول المرء " لا إله إلا الله " يفيد التوحيد الخالص فوجب أن يكون لفظ " الله " غير مشتق، ولأن الأسماء المشتقة صفات والصفات لا تذكر إلا بعد ذكر الموصوف ولابد للموصوف من اسم، و"الله" هو الاسم العلم له جل جلاله. ولذلك قال تعالى: { وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا } الأعراف180، فبدأ بالاسم العلم، اسم الجلالة: "الله" ثم ذكر أسماءه الحسنى وصفاته العليا.

وقال غيرهم: إن اسم الجلالة " الله " من الأسماء المشتقة، ولكنهم اختلفوا حول الجذر اللغوي الذي اشتق منه على أقوال، منها:

- من "وَلِهَ، يَوْلَه" والوَلَهُ شدة المحبة.
- من "لاَهَ، يلوه" أي احتجب.
- من لاه يلوه أي ارتفع.
- من لاهَ يَلِيهُ لَيْهاً تَستَّرَ.
- من أله يأله، إذا تحير لأن العقول متحيرة في كنه جماله وجلاله.
- من "الإله" وهو من له القدرة على الخلق.
- من التأله وهو التعبد. إلاَه على وزن فِعَال بمعنى مفعول لأنه مَألُوه أي مَعْبُود.
- الاسم أصله لاَهٌ ووزنه على هذا، ووزنه على هذا فَعَلٌ اللام فاء الفعل والألف منقلبة عن الحرف الذي هو العين والهاء.

أما قولهم: (لاهُمَّ) و(اللَّهُمَّ)، فالميم بدل من حرف النداء

الرحمن/الرحيم:

الرحمة رقة تقتضي الإحسان إلى المرحوم، وقد تستعمل تارة في الرقة المجردة، وتارة في الإحسان المجرد عن الرقة، نحو: رحم الله فلانا. وإذا وصف بها الباري سبحانه فليس يراد بها إلا الإحسان المجرد دون الرقة، وعلى هذا روي أن الرحمة من الله إنعام وإفضال، ومن الآدميين رقة وتعطف. قال النبي صلى الله عليه وسلم في روايته عن ربه عز وجل: (قال الله: أنا الله، وأنا الرحمن، خلقت الرحم، وشققت لها من اسمي، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها قطعته) أخرجه الترمذي وقال: حديث صحيح.

والرحم مكمن النطفة من المرأة للحمل، وامرأة رحوم تشتكي رحمها. ومنه استعير الرحم للقرابة، لكونهم خارجين من رحم واحدة، قال تعالى: { وَأَقْرَبَ رُحْماً } الكهف81، وعلى هذا فالرحمة منطوية على معنيين: الرقة والإحسان، وقد ركز تعالى في طبائع الناس الرقة، وتفرد بالإحسان.

والرحمن والرحيم، نحو: ندمان ونديم، ولا يطلق الرحمن إلا على الله تعالى من حيث إن معناه لا يصح إلا له، إذ هو الذي وسع كل شيء رحمة، والرحيم يستعمل في غيره وهو الذي كثرت رحمته، قال تعالى: { إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ } البقرة173، وقال في صفة النبي صلى الله عليه وسلم: { لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ } التوبة128.

الحمد:

حمده: شكره وقضى حقه، والمحمدة الخصلة يحمد عليها، وأحمد الرجل صار أمره إلى الحمد، أو فعل ما يحمد عليه، والحمد نقيض الذم، والتحميد حمدك الله تعالى مرة بعد مرة، والحمد لله الثناء عليه عز وجل، وهو أعم من الشكر، وأخص من المدح، فكل شكر حمد، وليس كل حمد شكرا، وكل حمد مدح وليس كل مدح حمدا.

رب:

الرب في الأصل: من التربية، وهو إنشاء الشيء حالا فحالا إلى حد التمام، ويقال ربه، ورباه، وربَبه، ورب الأب ولده يربه إذا رباه وأحسن القيام عليه ووليه حتى أدرك وفارق الطفولة، ورب السحاب المطر أي جمعه، ورب المرء المعروف والنعمة إذا نماها وزادها وأتمها وأصلحها. ورب الشيء في اللغة هو مالكه وسيده ومدبره ومربيه ومتممه، ولا يقال الرب مطلقا

إلا لله تعالى المتكفل بمصلحة الموجودات، نحو قوله:تعالى: { بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ } سبأ15،وعلى هذا قوله تعالى: { وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ الْمَلاَئِكَةَ وَالنِّبِيِّيْنَ أَرْبَاباً } آل عمران80، أي: آلهة، فالله عز وجل هو رب كل شيء ومالكه وله الربوبية المطلقة على جميع الخلق لا شريك له .

العالمين

العين واللام والميم أصل صحيح يدل على أثر بالشيء يتميز به عن غيره، ومنه "العَالَمون/ العالَمين"، وهم أصناف الخلق جنا وإنسا وسواهم، لأن كل جنس من المخلوقات هو في نفسه معلم وعلَم.

والعالَم: اسم للفلك وما يحويه، وهو في الأصل اسم لما يعلم به كالطابَع والخاتَم لما يُطبَع به ويُختَم به، والعالَم بهذه الصيغة كالطابَع والآلة للدلالة على الخالق عز وجل، ولهذا أحالنا تعالى عليه في معرفة وحدانيته، فقال: { أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللّهُ مِن شَيْءٍ }..الآية، الأعراف185، وأما جمعه فلأن كل نوع من الخلائق قد يسمى عالمِاً، فيقال: عالَم الإنس وعالَم الجن وعالم الحيوان وعالَم الماء، وعالَم النار..الخ، وقد جمُِعَ جَمْعَ مذكر سالم (العالمين) لكون الناس في جملة هذه العوالم، والإنسان إذا شارك غيره في اللفظ غلب حكمه.

ملك/مالك:

ملَكَ الشيءَ يملكه بلام مثلثة: احتواه قادرا على الاستبداد به، ومالِك الشيءِ صاحبُه الذي يملك التصرفَ فيه، والمِلِكُ هو المتصرف بالأمر والنهي في الناس، ولهذا يقال: ملِك الناس، ولا يقال: ملِك الأشياء، والمالِك والملِك والمليك: صاحبُ المِلْكِ المتصرِّفُ فيه. وقوله تعالى { مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ} تقديره: الملك في يوم الدين، وذلك لقوله تعالى: { لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ } غافر16.

والمِلْكُ الحقُّ الدائم لله، قال تعالى: { لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ } التغابن1، وقال: { قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } آل عمران26، فالرب تعالى هو المالك لكل شيء، والملك صفتُه عز وجل.

الـدين:

الدِّين بكسر الدال العادة والشأن، والجزاء والمكافأة والمحاسبة، من قولهم "كما تَدين تُدان" أي كما تجازِي تجازَى، وكما تحاسِب تحاسَب، وقوله تعالى: { أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَدِينُونَ } الصافات53، أي مجزيون، ودانه دينا أذله واستعبده، والدِّين أيضا الطاعة يقال: دان له أي أطاعه ومنه قوله تعالى { وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً } النساء125 أي طاعة، والدِّين الإسلام لقوله تعالى: { أَفَغَيْرَ دِينِ اللّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ

مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ } آل عمران83، والدِّين العبادة، والدِّين القهر والغلبة، والدِّين السلطان والملك والحكم والسيرة والتدبير والقضاء، وقوله عز وجل { مَلِكِ يَوْمِ الدِّين } { مَالِكِ يَوْمِ الدِّين } أي أنه الملك المالك مطلقا في الحياة الدنيا، وفي الآخرة يوم المحاسبة والجزاء ثوابا وعقابا على ما سلف من تصرفات الدنيا.

أما الدَّيْن بفتح الدال فمن دِنْتُ الرجلَ إذا أقرضته، فهو مدين ومديون.

نعبد:

قال ابن فارس: العين والباء والدال أصلان صحيحان كأنهما متضادان، الأول يدل على لين وذل، والآخر يدل على شدة وغلظة.

فالأصل الأول: العبد وهو المملوك، جمعه عبيد وعباد، والفعل عبد يعبد بضم عين المضارع أي أطاع ومنه العبادة والعبودية والعبودة أي الطاعة، والتعبد: التنسك، والتعبيد التذليل، وطريق معبد أي مذلل، وعبد يعبد عبادة لا يقال إلا لمن يعبد الله عز وجل.

والأصل الثاني: العَبَدة، وهي القوة والصلابة، ومن هذا القياس العَبَد أي الأنفة والحمية. من عبِد يعبَد كسلِم يسلَم غضِب وأنِف، ومنه قول علي رضي الله عنه " عبِدتُ فصمتُ " أي أنفت فسكتُّ.

نستعين:

العون: المعاونة والمظاهرة، والعون: الظهير على الأمر، للواحد والإثنين والجمع والمذكر والمؤنث،

يقال: فلان عوني، أي: معيني، وقد أعنته. وفي التنزيل: { فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً } الكهف95، { وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُون } الفرقان4.

والتعاون: التظاهر. قال تعالى: { وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ } المائدة2. والاستعانة: طلب العون. قال تعالى: { وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ } البقرة45، وتعاون القوم واعتونوا إذا أعان بعضهم بعضا، وفي الدعاء: "رب أعني ولا تعن علي"

اهدنا:

هداه الطريق وإلى الطريق عرفه له، وهدى واهتدى بمعنى واحد قال تعالى: { فَإِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي مَن يُضِلُّ } النحل37، أي لا يهتدي من يضل، والهدى: الرشاد والدلالة والتبيين، وقوله تعالى { أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ } السجدة26، أي أو لم يبين لهم، والهداية دلالة بلطف، وقوله تعالى: { فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ

الْجَحِيمِ } الصافات23، { يَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ } الحج4، قيل: ذلك استعمل فيه استعمال اللفظ على التهكم مبالغة في المعنى كقوله تعالى: { فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } آل عمران21، وقوله { ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ } الدخان49.

قال الراغب:وهداية الله تعالى للإنسان على أربعة أوجه:

الأول: الهداية التي عم بجنسها كل مكلف من العقل والفطنة، والمعارف الضرورية التي أعم منها، كل شيء بقدر فيه حسب احتماله كما قال تعالى: { قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى } طه50.

الثاني: الهداية التي جعل للناس بدعائه إياهم على ألسنة الأنبياء، وإنزال القرآن ونحو ذلك، وهو المقصود بقوله تعالى: { وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا } الأنبياء73.

الثالث: التوفيق الذي يختص به من اهتدى، وهو المعني بقوله تعالى: { وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى } محمد17، وقوله تعالى { وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ } التغابن11، وقوله تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ } يونس 9.

الرابع: الهداية في الآخرة إلى الجنة المعني بقوله تعالى: { سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ } محمد5.

الصراط:

الصراط: الطريق المستقيم. قال تعالى: { وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ } الأنعام153، وصراط الدنيا هو الإسلام، أما صراط الآخرة فهو المذكور في حديث البخاري ومنه: (فَيُضْرَبُ الصِّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ جَهَنَّمَ فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَجُوزُ مِن الرُّسُلِ بِأُمَّتِهِ وَلَا يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ إِلَّا الرُّسُلُ وَكَلَامُ الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ..) وفي حديث الشفاعة عند مسلم (قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَجْمَعُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى النَّاسَ فَيَقُومُ الْمُؤْمِنُونَ حَتَّى تُزْلَفَ لَهُمْ الْجَنَّةُ فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ: يَا أَبَانَا اسْتَفْتِحْ لَنَا الْجَنَّةَ فَيَقُولُ: وَهَلْ أَخْرَجَكُمْ مِن الْجَنَّةِ إِلَّا خَطِيئَةُ أَبِيكُمْ آدَمَ لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ اذْهَبُوا إِلَى ابْنِي إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ اللَّهِ، قَالَ: فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ: لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ إِنَّمَا كُنْتُ خَلِيلًا مِنْ وَرَاءَ وَرَاءَ اعْمِدُوا إِلَى مُوسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي كَلَّمَهُ اللَّهُ تَكْلِيمًا، فَيَأْتُونَ مُوسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَقُولُ: لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى كَلِمَةِ اللَّهِ وَرُوحِهِ، فَيَقُولُ عِيسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ، فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيَقُومُ فَيُؤْذَنُ لَهُ، وَتُرْسَلُ الْأَمَانَةُ وَالرَّحِمُ فَتَقُومَانِ جَنَبَتَيْ الصِّرَاطِ يَمِينًا وَشِمَالًا فَيَمُرُّ أَوَّلُكُمْ كَالْبَرْقِ قَالَ قُلْتُ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي أَيُّ شَيْءٍ كَمَرِّ الْبَرْقِ قَالَ أَلَمْ تَرَوْا إِلَى الْبَرْقِ كَيْفَ يَمُرُّ وَيَرْجِعُ فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ ثُمَّ كَمَرِّ الرِّيحِ ثُمَّ كَمَرِّ الطَّيْرِ وَشَدِّ الرِّجَالِ تَجْرِي

بِهِمْ أَعْمَالُهُمْ وَنَبِيُّكُمْ قَائِمٌ عَلَى الصِّرَاطِ يَقُولُ رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ حَتَّى تَعْجِزَ أَعْمَالُ الْعِبَادِ حَتَّى يَجِيءَ الرَّجُلُ فَلَا يَسْتَطِيعُ السَّيْرَ إِلَّا زَحْفًا قَالَ وَفِي حَافَتَيْ الصِّرَاطِ كَلَالِيبُ مُعَلَّقَةٌ مَأْمُورَةٌ بِأَخْذِ مَنْ أُمِرَتْ بِهِ فَمَخْدُوشٌ نَاجٍ وَمَكْدُوسٌ فِي النَّارِ)

المستقيم:

قام يقوم قياما، فهو قائم، وجمعه: قيام، وأقامه غيره. وأقام بالمكان إقامة، والقيام على أضرب: قيام بالشخص إما بتسخير أو اختيار، وقيام للشيء هو المراعاة للشيء والحفظ له، وقيام هو على العزم على الشيء، فمن القيام بالتسخير قوله تعالى { مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ } هود100، ومن القيام الذي هو بالاختيار قوله تعالى: { أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاء اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ } الزمر9، وقوله: { وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً } الفرقان64.

واستقامة الإنسان: لزومه المنهج المستقيم. نحو قوله: { إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا } فصلت30، وقوله: { فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ } هود112، وقوله: { فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ } فصلت6، واستقامة الطريق أن يكون على خط مستو، وبه شبه طريق الحق نحو قوله تعالى: { اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ } وقوله: { وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ } الأنعام153.

أنعمت:

نَعِمَ يَنْعَم كسمع ونصر وضرب ثلاث لغات،ونعم الشيء نعومة صار لينا ناعما، والتنعم الترفه، والنعيم والنعمى الخفض والدعة والمال، والنعمة اليد والصنيعة والمنة وما أنعم به عليك، والمنفعة المفعولة على وجه الإحسان إلى الغير، يقال: نعمه تنعيما فتنعم أي: جعله في لين عيش وخصب، قال تعالى: { فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ } الفجر15.

والنِّعمة بكسر النون بناؤها للهيئة كالجِلسة، وهي الحالة التي يكون عليها الإنسان جمع نعم وأنعم قال تعالى: {شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ } النحل121، أما النَّعمة بفتح النون فبناؤها بناء المرة من الفعل، كالضربة والشتمة، وتقال للقليل والكثير.

المغضوب:

الغين والضاد والباء أصل صحيح يدل على شدة وقوة، يقال إن الغضبة هي الصخرة الصلبة، ومنه اشتق الغضب، ضد الرضا لأنه اشتداد السخط، وغضب يغضب غضبا فهو غضبان وغضوب، والغضب يكون على الشيء إذا لم يرض عنه، ويكون للشيء إذا غضب على غيره لأجله، لذلك فالغضب منه محمود إذا كان للحق ضد الباطل، ومنه مذموم إذا كان في غير الحق. وأما غضب الله تعالى فهو إنكاره على من عصاه فيعاقبه.

الضالين:

الضلال ضد الهدى والرشاد، وضل الشيء يضل ضلالا أي ضاع وهلك، وأرض مَضَلة بالفتح، ومَضِلة بفتح الميم وكسر الضاد يضل فيها الطريق، وضللت الطريق وضل هو عني ضلالا إذا لم أعرفه، وأضللتَ الفرس إذا كان معقولا فلم تهتد إليه. والضلال أيضا النسيان ومنه قوله تعالى: { مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاء أَن تَضِلَّ إْحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى } البقرة282، أي أن تنسى إحداهما.

قال ابن فارس: الضاد واللام أصل يدل على معنى واحد هو ضياع الشيء وذهابه في غير حقه، يقال: ضل يضِل ويضَل لغتان، وكل جائر عن القصد ضال. وقال ابن الكمال: الضلال فَقْدُ ما يوصل إلى المطلوب، وقيل سلوك طريق لا يوصل إلى المطلوب. وقال الراغب: الضلال العدول عن الطريق المستقيم، ويضاده الهداية، ويقال الضلال لكل عدول عن المنهج، عمدا كان أو سهوا، يسيرا كان أو كثيرا، فإن الطريق المستقيم الذي هو المرتضى صعب جدا، قال النبي صلى الله عليه وسلم: (استقيموا ولن تحصوا). وإذا كان الضلال ترك الطريق المستقيم عمدا كان أو سهوا، قليلا كان أو كثيرا، صح أن يستعمل لفظ الضلال فيمن يكون منه خطأ ما.

آمين:

لفظ"آمين" ويقال بالمد والقصر، ليس من الفاتحة, ولكنه تأمين على الدعاء, معناه: اللهم استجب, ولذلك يستحب للإمام أن يسكت سكتة لطيفة جداً بين آخر الفاتحة وآمين، لئلا يُتوهم أن آمين من القُرآن، وكي لا يظن الجاهل أنها من كلام الله.

عن أبي هريرة أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال:(إِذَا قَالَ الْإِمَامُ: { غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ }، فَقُولُوا: "آمِينَ"، فَإِنَّهُ مَنْ وَافَقَ قَوْلُهُ قَوْلَ الْمَلَائِكَةِ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ.

وعن أبي هريرة أيضا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:(إِذَا قَالَ أَحَدُكُمْ آمِينَ وَقَالَتْ الْمَلَائِكَةُ فِي السَّمَاءِ آمِينَ فَوَافَقَتْ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ).

وأخرج أبو داود وغيره عن وائل ابن حجر سمعت النبي صلى الله عليه وسلم قرأ: { وَلَا الضَّالِّينَ } فقال: "آمين" يمد بها صوته.

أما الجهر والإِسرار بقول "آمين" بعد قراءة الفاتحة فقد اختلف فيهما العلماء.

تفسير سورة البقرة

القسم الأول: الإعداد للاستخلاف في الأرض

تمهيد

سورة البقرة سنام القرآن وفسطاط المسلمين

عَنْ أَبِي سَعِيد الخُدْرِي أَنَّ أُسَيْدَ بْنَ حُضَيْرٍ بَيْنَمَا هُوَ لَيْلَةً يَقْرَأُ فِي مِرْبَدِهِ إِذْ جَالَتْ فَرَسُهُ، فَقَرَأَ ثُمَّ جَالَتْ أُخْرَى، فَقَرَأَ ثُمَّ جَالَتْ أَيْضًا، قَالَ أُسَيْدٌ: فَخَشِيتُ أَنْ تَطَأَ يَحْيَى فَقُمْتُ إِلَيْهَا فَإِذَا مِثْلُ الظُّلَّةِ فَوْقَ رَأْسِي فِيهَا أَمْثَالُ السُّرُجِ عَرَجَتْ فِي الْجَوِّ حَتَّى مَا أَرَاهَا، قَالَ: فَغَدَوْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ بَيْنَمَا أَنَا الْبَارِحَةَ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ أَقْرَأُ فِي مِرْبَدِي إِذْ جَالَتْ فَرَسِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (اقْرَأ ابْنَ حُضَيْرٍ)، قَالَ: فَقَرَأْتُ ثُمَّ جَالَتْ أَيْضًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (اقْرَأ ابْنَ حُضَيْرٍ)، قَالَ: فَقَرَأْتُ ثُمَّ جَالَتْ أَيْضًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (اقْرَأ ابْنَ حُضَيْرٍ)، قَالَ: فَانْصَرَفْتُ وَكَانَ يَحْيَى قَرِيبًا مِنْهَا خَشِيتُ أَنْ تَطَأَهُ، فَرَأَيْتُ مِثْلَ الظُّلَّةِ فِيهَا أَمْثَالُ السُّرُجِ عَرَجَتْ فِي الْجَوِّ حَتَّى مَا أَرَاهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (تِلْكَ الْمَلَائِكَةُ كَانَتْ تَسْتَمِعُ لَكَ، وَلَوْ قَرَأْتَ لَأَصْبَحَتْ يَرَاهَا النَّاسُ مَا تَسْتَتِرُ مِنْهُم) / متفق عليه واللفظ لمسلم.

للنفوس والأفئدة حاجتها من الحكمة والرشد وطمأنينة الأمن والسكينة كما هو حال الأجساد في حاجتها إلى ثمرات الطعام والهواء والماء والمعافاة، ولئن سَوَّلَ الجهل لنفوس مريضة وجودَ تعارض بين الأمنين، أمنِ النفوس برشدها وهدايتها وأمنِ الأجساد بسلامتها ووفرة رزقها، فاعتذروا عن اتباع الهدى كحال كفار قريش إذ جبههم تنزُّلُ الوحي ودعوة الإيمان { وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ } القصص: 57. ولئن غيبت الغفلة عن عقولهم الارتباط الوثيق بين الأمنين، أمنِ النفوس وأمنِ الأجساد في ظل عقيدة التوحيد، فإن مالكهما الواحد ومصدرهما الوحيد رب العزة تعالى يضرب لهم الأمثال رحمة منه وتذكيرا وتحذيرا وإقامة حجة فيقول { وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ } النحل: 112.

هذه القرية التي ضُرِبت مثلا، مرت كما يبدو من السياق بمرحلتين، مرحلة إيمان عمها الله فيها بالرزق والرخاء، ثم مرحلة تمرد وكفران صب عليها بعصيانها عذاب الجوع والخوف والخسران.

إن حال كل فسطاط عمراني ومآل كل تجمع بشري في ارتباط وثيق بطبيعة العلاقة برب الفسطاط وخالقه، إن إيمانا وإحسانا فرفاه وسداد أمر وعمران، وإن كفرانا وعصيانا فخراب وذلة وتفرق وخسران، وليس من فلاح لأمة إلا باجتماعها على ما يضمن وحدتها وعزتها وصلاح حالها ومآلها، وهو ما يروى عن الرسول صلى الله عليه وسلم: (عليكم بالجماعة، فإن يد الله على الفسطاط)، فسمى الجماعة المؤمنة حول قرآنها فسطاطا تشبيها لها بالخيمة الجامعة، فيها أهلُها أسرةً واحدةً متحابة متعاونة مسترشدة.

ولئن كان فسطاط الجماعة المؤمنة هو قرآنها الجامع لأمر حالها ومآلها، فإن للقرآن أيضا فسطاطه الجامع لما جاء به شارحا للفاتحة قبله ومفصِّلا لما تلاه، هذا الفسطاط العظيم والمصر الجامع هو سورة البقرة التي أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمواظبة على تلاوتها فيما رواه مسلم عن أبي أمامة الباهليّ قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلّم يقول:(اقرءوا سورة البقرة فإنّ أخذها بركة وتركَها حسرة ولا يستطيعها البَطَلة)، وكما ورد فيها أيضا: (السورة التى تذكر فيها البقرة فسطاط القرآن فتعلموها فإن تعلمها بركة وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة) أي المشتغلون بالباطل.

وهذا سر نزول خواتمها مقرونة بالفاتحة، بواسطة ملكين كريمين وشاهدي عدل أمينين، فيما رواه مسلم والنسائي عن ابن عباس قال:(بيْنَمَا جبريلُ قاعدٌ عند النبيّ صلى الله عليه وسلّم سَمِعَ نَقِيضًا مِنْ فَوْقِهِ، فَقَالَ لَهُ: هَذَا مَلَكٌ نَزَلَ إِلَى الأَرْضِ لَمْ يَنْزِلْ قَطُّ إِلاَّ الْيَوْمَ، وَقَالَ: أَبْشِرْ بِنورَيْنِ أُوتِيتَهُمَا، لَمْ يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ؛ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ، وَخَوَاتِمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ؛ لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهَا إِلاَّ أُعْطِيتَهُ).

ولئن كانت فاتحة الكتاب جامعة لمقاصد القرآن بتقريرها أصول الدين، مبادئَ للألوهية والربوبية ومناهجَ للتعبد، أمرا ونهيا ووعدا ووعيدا ومبدأ ومعادا، فإن تركيزها وإيجازها وتعقيبها بسورة البقرة المفصلة لمجملها الشارحة لإشاراتها وتصريحاتها، يجعل المتأمل البصير يقف مبهورا أمام عظمة الحكمة الإلهية في التربية والإرشاد، ذلك أن أرقى طرق تعليم الكبار أن يبدأ بتقرير القاعدة المجملة يعقبها التفصيل والتوضيح وضرب المثل، فيقيّد الإيجازُ مفاصلَ الموضوع ويبيّن الإطنابُ جزئياتِهِ وتفاصيلَ كلياته، ويشرح خفايا إشاراته وتلميحاته، فيتكامل الموجز مع المفصل ويتشرب القلب والذهن مقاصد ما يتلقى وفوائد ما يتزود.

يفتتح المرء القرآن الكريم بأم الكتاب، ثم يتدرج مصعدا في سورة البقرة إلى مشارف الرحمة والمغفرة والعفو والنصر بقوله تعالى: { لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ } البقرة 286، فإذا به على قمة شاهقة ومنتجع عرضه السداد والرشاد والرضا من رب العباد، فإذا واصل التلاوة انحدر إلى ربى مثمرة وسهول نيرة من سور تزيد ما أوجزته الفاتحة وفصلته البقرة وضوحا وشفافية

ونورا. وآياتٍ بيناتٍ هن أشدُّ نفعا من الغيث أيْنَ وَقَعَ نَفَع، ومن الشمس إذا أوْفَتْ أحْيَت، وأطيبُ مَنْهلٍ للظِمَاء من زلال الماء، وللمختنقين يلتمسون الحياةَ باستنشاق الهواء.

وهذا ما يجعل القرآن الكريم مرقاةً للإسلام تصورا وعقيدة وشريعة، وبناء تاما متقنا لأمة أريد لها أن تكون شاهدة ورائدة وقائمة بالقسط، ولذلك سمى الرسول عليه الصلاة والسلام سورة البقرة بسنام القرآن أي أعلاه وذروته فقال في ما أخرجه الحاكم في مستدركه على الشيخين بإسناد صحيح: (إن لكل شيء سناما وإن سنام القرآن سورة البقرة)، وهي بتسنمها هذا المرتقى في مجال البناء الحركي للإسلام وأمته بمثابة الجهاد في مجال التضحية والعطاء الإيماني الصرف لنصرة الدين وحماية العرض والأهل، إذ قال عنه الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم أيضا في ما رواه أحمد: (ذروة سنام الإسلام الجهاد في سبيل الله)، وعندما سئل أبو ذر: أيّ الأعمال أفضل؟ قال: "الصلاة عمادُ الإسلام والجهاد سَنامُ العمل".

ذلك أن سورة البقرة لكونها سنام القرآن قد حوت من أصول العقيدة والتشريع وكليات الأحكام الدينية وجهاد البناء والمدافعة بالقول والعمل ومناضلة أعداء الدين كفرةً ومنافقين بالحجة الساطعة والبرهان القاطع، ما يجعل استيعابَها إحاطةً واعية بمنهج الإسلام وأسلوب تربيته للمؤمنين وبنائه للأمة الشاهدة، فكان التحريض على تلاوتها ومدارستها بقوله صلى الله عليه وسلم في رواية مسلم (لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ مَقَابِرَ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْفِرُ مِنْ الْبَيْتِ الَّذِي تُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ)، وعن أبي سعيد الخدري أن أسيد بن حضير قال: بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة وفرسه مربوطة عنده إذ جالت الفرس فسكت فسكتت، فقرأ فجالت الفرس فسكت فسكتت الفرس، ثم قرأ فجالت الفرس فانصرف، وكان ابنه يحيى قريبا منها فأشفق أن تصيبه، فلما أخره رفع رأسه إلى السماء فإذا مثل الظُّلَّة فيها أمثال المصابيح، فلما أصبح حدَّث النبيَّ صلى الله عليه وسلم فقال:(اقرأ يا ابن حضير اقرأ يا ابن حضير)، قال: فأشفقت يا رسول الله أن تطأ يحيى، وكان منها قريبا، فرفعت رأسي فانصرفت إليه ورفعت رأسي إلى السماء فإذا مثل الظُّلَّة فيها أمثال المصابيح، فخرجْتُ حتى لا أراها، قال:(وتدري ما ذاك؟) قال: لا، قال:(تلك الملائكة دنت لصوتك ولو قرأت لأصبحت ينظر الناس إليها لا تتوارى منهم).

إن مثل سورة البقرة بتسنمها ذروة القرآن مثل الجهاد من الإسلام، لكونه أيضا ذروة للدين، وبدونه تبدو الأمة لا سنام لها، دَكَّاءَ ميسرةً للترويض مهيأةً للركوب، سلسةَ الانقياد، ذيلية تابعة لكل من هش عليها بعصاه، فكان التحريض عليه أيضا قرآنا وسنة بقوله عز وجل: { وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبيلِ اللّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاء وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ } البقرة: 154، وبما أخرجه عبد الرزاق وأحمد وأبو داود والترمذي وصححه والنسائي وابن ماجة وابن حبان والحاكم وصححه والبيهقي عن معاذ بن جبل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:(من قاتل فُوَاقَ ناقة فقد وجبت له الجنة، ومن سأل الله القتل من نفسه صادقاً ثم مات أو قتل فإن له أجر شهيد، ومن جرح جرحاً في سبيل الله أو نكب نكبة فإنها تجيء

يوم القيامة كأغزر ما كانت، لونها لون الزعفران، وريحها ريح المسك، ومن جرح في سبيل الله فإن عليه طابع الشهداء)، وما أخرجه النسائي عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يحكي عن ربه قال: (أيما عبد من عبادي خرج مجاهداً في سبيل الله ابتغاء مرضاتي ضمنت له إن رجعته أرجعه بما أصاب من أجر أو غنيمة، وإن قبضته غفرت له).

ومثل من استجمع في صدره وسلوكه سورة البقرة كمثل المجاهد المقبل غير المدبر الثابت غير الواجف أو المتردد، ولذلك عندما انجفل الطلقاء يوم حنين بالناس، ولم يثبت يومئذ مع الرسول صلى الله عليه وسلم إلا جماعة من أصحابه منهم: أبو بكر، وعمر، وعلي، والعباس، وأبو سفيان بن الحارث، جعل النبي يقول للعباس: ناد يا معشر الأنصار، يا أصحاب الشجرة، يا أصحاب سورة البقرة، فنادى وكان صيتا، فأقبلوا كأنهم الإبل إذا حنت إلى أولادها، يقولون: يا لبيك، فنظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى قتالهم، فقال: الآن حمي الوطيس، أنا النبي لا كذب، انا ابن عبد المطلب، ثم قال للعباس: ناولني الحصيات فناوله، فقال: { يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ } ورمى بها، وقال: { هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ } فقذف الله في قلوبهم الرعب فانهزموا.

وعندما (بَعَثَ رَسُولُ الله بَعْثاً وَهُمْ ذوو عَدَدٍ فَاسْتَقْرَأَهُمْ فَاسْتَقْرَأَ كُلَّ رَجُلٍ مِنْهُمْ -يَعْنِي مَا مَعَهُ مِنَ الْقُرْآنِ – فَأَتَى عَلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ مِنْ أَحْدَثهِمْ سِناً، فَقَالَ:(مَا مَعَكَ يَا فُلاَنُ؟) فَقَالَ: مَعِي كَذَا وَكَذَا وَسُورَةُ البَقَرَةِ، فَقَالَ:(أَمَعَكَ سُورَةُ البَقَرَةِ؟) فَقَالَ: نَعَمْ، قالَ:(فاذْهَبْ فَأَنْتَ أَمِيرُهُمْ)، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ أَشْرَافِهِمْ: وَالله يا رسول الله مَا مَنَعَنِي أَنْ أَتَعَلَّمَ سورة البَقَرَة إِلاَّ خَشْيَةَ أَنْ لاَ أَقُومَ بِهَا، فَقَالَ رَسُولُ الله:(تَعَلَّمُوا القُرْآنَ واقْرَأُوهُ فَإِنَّ مَثَلَ القُرْآنِ لِمَنْ تَعلمَهُ فَقَرَأَهُ وَقَامَ بِهِ كَمَثَلِ جِرَابٍ مَحْشُو مِسْكاً يَفُوحُ بريحه فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَمَثَلُ مَنْ تَعَلَّمَهُ فَيَرْقُدُ وَهُوَ فِي جَوْفِهِ كَمَثَلِ جِرَابٍ أُوكِي عَلَى مِسْكٍ). وفي رواية أخرى فقالوا: يا رسول الله هو أحْدَثُنا فقال:(معه سورة البقرة). وعن عثمان بن أبي العاص قال: استعملني رسول الله صلى الله عليه وسلّم، وأنا أصغر القوم الذين وفدوا عليه من ثقيف، وذلك أني كنت قرأت سورة البقرة.

ذلك أن سورة البقرة قد فصلت ما في الفاتحة من القرآن الكريم ومهدت لما يأتي بعدها من تفصيلات أخرى في ما يتلوها من السور، فكانت بذلك على تسنمها الذروة جسرا ومفتاحا لما أجمل قبلها وما استفيض فيه بعدها، وكان مستوعبها العامل بها ممسكا بالعروة الوثقى متمكنا من دينه تصورا عقديا وتشريعا ربانيا للفرد والمجتمع وفقها واعيا للنفس البشرية سعيا بين الناس و فهما للمبدأ والمعاد وطرق الضلالة ومناهج الرشاد.

يبدو هذا الترابط والتدرج والتسلسل بين سورة البقرة وما قبلها وما بعدها واضحا جليا في كثير من الآيات التي يضيق المجال عن إحصائها، من ذلك مثلا:

أن سورة البقرة تعد عقلا ومنطقا وهديا وتشريعا وإعجازا بلاغيا، امتدادا طبيعيا لسورة الفاتحة قبلها، وتمهيدا وشرحا وتفصيلا لما بعدها، يبدو ذلك من الارتباط الوثيق بين خاتمة هذه وبداية تلك، وما ورد فيما تلاهما، فعندما يسأل العبد ربه أشرف طرق الهداية ورفقة الذين أنعم الله عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين، بقوله في أم القرآن: { اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُستَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ الْمَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ }، يأتيه الجواب في مفتتح البقرة بقوله تعالى { ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ } البقرة: 2، والكتاب هو هدى الطريق المستقيم للمتقين، كما ورد في الأثر مرفوعا وموقوفا: (الصراط المستقيم كتاب الله). ثم يأتي البسط والإطناب في سورة آل عمران بقوله تعالى: { نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ } آل عمران4/3، وقوله: { هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألْبَابِ } آل عمران 7، ثم يتجلى الحكم بصورته الجلية في سورة النساء بقوله تعالى: { لَّكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أُوْلَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْراً عَظِيماً } النساء162.

ومن ذلك إجمال سورة الفاتحة لربوبية الله تعالى للعالمين بقوله: { رَبِّ الْعَالَمِينَ }، وجاء بسط الربوبية وأصناف العالمين من المخلوقات في سورة البقرة بقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} البقرة21، وقوله: { هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } البقرة 29 وقوله: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ} البقرة 30، ثم في سورة آل عمران زاد فبين أن في خلق هذه العوالم آيات يستبصر بها العقلاء معالم الحق ويهتدي بها أولو الألباب إلى معرفة خالقهم عز وجل، فقال: { وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللّهُ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ } آل عمران 189/190.

ومن ذلك أيضا أنه تعالى أوجز وصف الأمة الإسلامية إشارة بقوله تعالى: {الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ الْمَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ} ثم زاد الشرح في البقرة بقوله: { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً } البقرة 143 ثم زاد التوضيح بسطة في آل عمران بقوله: { كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ } آل عمران110.

هذا الترابط المتين بين سور القرآن الكريم في ترتيبه المصحفي يبين بما لا يدع مجالا للشك أو الريب أنه وحدة متكاملة بترتيب توقيفي منه تعالى عند تنزله الأول إلى اللوح المحفوظ { بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ } البروج21/ 22، ثم عند تنزله الثاني إلى بيت العزة في السماء الدنيا { إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ } الدخان 3، { إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ } القدر 1 وقام الأمين جبريل عليه السلام بإبلاغه منجما إلى الأمين المعصوم رسول الله صلى الله عليه وسلم، والإشراف على إقرائه وتبيينه والإرشاد إلى كيفية اتباعه وتطبيقه { لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ } القيامة 19/16. فكان التنزيل المنجم تدرجا منه عز وجل لإعداد الجيل الأول من بناة الإسلام في واقع الحياة، وتخريج الدفعة الأولى منهم تحت رعاية محمد بن عبد الله المشرف الرائد على معهد الإعداد القرآني، صلى الله عليه وسلم، { وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً } الإسراء 106، وكان الترتيب المصحفي أيضا وحيا منه تعالى، يعارض به جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة في السنة، وفي سنة وفاته عارضه به مرتين كما روى أحمد في مسنده (عَنِ الشَّعْبِيِّ عَنْ مَسْرُوقٍ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: أَقْبَلَتْ فَاطِمَةُ تَمْشِي كَأَنَّ مِشْيَتَهَا مِشْيَةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: مَرْحَبًا بِابْنَتِي، ثُمَّ أَجْلَسَهَا عَنْ يَمِينِهِ أَوْ عَنْ شِمَالِهِ، ثُمَّ إِنَّهُ أَسَرَّ إِلَيْهَا حَدِيثًا فَبَكَتْ، فَقُلْتُ لَهَا اسْتَخَصَّكِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَدِيثَهُ ثُمَّ تَبْكِينَ؟، ثُمَّ إِنَّهُ أَسَرَّ إِلَيْهَا حَدِيثًا فَضَحِكَتْ، فَقُلْتُ مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ فَرَحًا أَقْرَبَ مِنْ حُزْنٍ، فَسَأَلْتُهَا عَمَّا قَالَ، فَقَالَتْ: مَا كُنْتُ لِأُفْشِيَ سِرَّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حَتَّى إِذَا قُبِضَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَأَلْتُهَا، فَقَالَتْ: إِنَّهُ أَسَرَّ إِلَيَّ فَقَالَ: إِنَّ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَام كَانَ يُعَارِضُنِي بِالْقُرْآنِ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً وَإِنَّهُ عَارَضَنِي بِهِ الْعَامَ مَرَّتَيْنِ وَلَا أُرَاهُ إِلَّا قَدْ حَضَرَ أَجَلِي وَإِنَّكِ أَوَّلُ أَهْلِ بَيْتِي لُحُوقًا بِي وَنِعْمَ السَّلَفُ أَنَا لَكِ، فَبَكَيْتُ لِذَلِكَ، ثُمَّ قَالَ: أَلَا تَرْضَيْنَ أَنْ تَكُونِي سَيِّدَةَ نِسَاءِ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَوْ نِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ؟ قَالَتْ: فَضَحِكْتُ لِذَلِكَ).

على هذا الترتيب المصحفي ترك الرسول الكريم صلوات الله عليه صحابته الذين بلغوه لنا كما استلموه، والتحق بالرفيق الأعلى حال اكتمال الإعداد وتحول صناديد العرب إلى عباد للرحمن خلف نبيهم الكريم في مجتمع المرحمة والمودة والتضحية والفداء { مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً } الفتح: 29.

ومن ثم كان التنزيل منجما تثبيتا للرسول عليه الصلاة والسلام، وتربية للجيل القرآني الأول وتأسيسا للدعوة في النفوس والمجتمع، مبينا حكمة التنجيم ورادا على مُتَقَوِّلَةِ الكفار والمشركين في سورة الفرقان { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ

الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً } الفرقان 32، ومرشدا في سورة العلق إلى قراءة ما أنزل الله تعالى من الآيات وتدبر ما خلق من الكون اعتبارا وإيمانا وتسليما { اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ } العلق5/1، وفي سورة المدثر محذرا ومذكرا، وملوحا بالمغفرة لمن يعتبر { بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَى صُحُفاً مُّنَشَّرَةً كَلَّا بَل لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاء ذَكَرَهُ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ } المدّثر56/52.

هكذا استمر البناء والتشييد والإعداد لجيل الدعوة الأول، حتى إذا تم الأمر كان الترتيب المصحفي موازيا للترتيب النزولي، وتبينت حكمة الترتيب النزولي توقيفيا من رب العزة على المستوى الإنشائي الأول للدعوة تدرجا ورفقا، وحكمة الترتيب المصحفي توقيفيا من رب العزة أيضا على مستوى بناء الأمة والدولة ترشيدا وتأسيسا وتشريعا وتسييرا عبر الأجيال المتلاحقة إلى يوم القيامة، وشهد بذلك على المسلمين رسولهم المبلغ الصادق الأمين فقال:(لَقَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى مِثْلِ الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لاَ يَزِيغُ عَنْهَا إلاَّ هَالِك).

سورة البقرة

منهج دعوة ونظام دولة

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:"البَقَرَةُ سَنَامُ القُرْآنِ وَذُرْوَتُهُ، نَزَلَ مَعَ كُلِّ آيَةٍ مِنْهَا ثَمَانُونَ مَلَكاً، واسْتُخْرِجَتْ { الله لا إلَه إلاَّ هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ } منْ تَحْتِ العَرْشِ، فَوُصِلَتْ بِسُورَةِ البَقَرَةِ، وَ" يس " قَلْبُ القُرْآنِ لا يَقْرَؤُها أَحَدٌ يُرِيدُ الله وَالدَّارَ الآخِرَةَ إلاَّ غُفِرَ لَهُ فاقْرَؤُوهَا عَلى مَوْتَاكُمْ».

رواه أحمد، وفيه راو لم يسم، وبقية رجاله رجال الصحيح. ورواه الطبراني وأسقط المبهم.

الخطاب القرآني في مجمله موجه للأمة الإسلامية عن طريق نبيها صلى الله عليه وسلم، تصورا إيمانيا للألوهية والربوبية، وعالمي الملكوت والجبروت، والمبدأ والمعاد، ونداء ربانيا للبشرية أمرا ونهيا وضرب مثل، ودعوة للاعتبار بما خلق الله في

السماوات والأرض، وإرشادا إلى أسلوب مقارعة الكفار مشركين وأهل كتاب، كشفا لخفاياهم ونواياهم ومكرهم وخداعهم، وهو إذ يقول: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ } أو { يَا بَنِي آدَمَ }، فإنما الخطاب للناس كافة، عن طريق الرسول صلى الله عليه وسلم، وعندما يقول مدحا { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا } فإنما ذلك للمسلمين عن طريق نبيهم في حياته أولا ثم بعده مباشرة إلى يوم الدين ثانيا، وعندما يقول ذما { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا } أو { يَا أَهْلَ الْكِتَابِ } أو { يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ } فإنما المقصود تعليم المؤمنين كيف يخاطبون الكافرين أو أهل الكتاب أو بني إسرائيل إقامة للحجة وإنقاذا لمن كتب لهم الله الرشد والهداية من مستنقع الضلالة والخسران إلى رحابة الأمن والإيمان.

ولئن كان القرآن حجة على من سمعه من عموم الخلق، فإنه نزل للمؤمنين به نورا وهدى وبشرى: { قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ } فصلت 44، { قَدْ جَاءكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً } النساء174 { فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } الأعراف 157، كما أنه للمتمردين عليه نذارة من سوء العاقبة والخسران { سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ اللهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ } الأنعام 124، { سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } التوبة 90.

ولئن كانت الفاتحة موجزة لمعالم الإسلام ربوبية وألوهية، ومبدأ ومعادا وما بينهما، فإن سورة البقرة جمعت هذه المعاني كلها وتوسعت في شرحها وبسطت ما يحتاجه المؤمن في جهاده الدعوي، وأسهبت فيما الإسهاب فيه ضروري، وأوجزت ما يفصل فيما تلاها من السور، وكانت بذلك مفصلا رئيسا في التنزيل عقيدة وشريعة وتفاعلا مع واقع الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وتعاملا رشيدا مع مختلف الملل والنحل والأديان التي عرفتها وتعرفها الساحة البشرية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وكما كانت هذه السورة بمحتواها استهلالا لمرحلة تشريعية وحركية جديدة في حياة المسلمين، فإن بداية نزولها في المدينة كان كذلك عند مفصل هام وجديد من عمر الدعوة، إذ هاجر المسلمون بدينهم إلى المدينة، فرارا من شراسة مشركي قريش وحلفائهم، فتصدى لهم فيها أعداء جدد من المنافقين وأهل الكتاب. وكانت السورة بذلك خير زاد للمؤمنين تلقنهم تعاليم دينهم وتكشف لهم نوايا أعدائهم وأساليب جدلهم ومكرهم، وتعلمهم طرائق مخاطبتهم وأساليب معاملتهم وصيغ إقامة الحجة عليهم. كما كان استمرار نزول آياتها على مدار المرحلة المدنية خير زاد في الطريق للتثبت والاسترشاد والوعي والتفقه. قال القرطبي:" سورة البقرة مدنية، نزلت في مُدَد شتّى. وقيل: هي أوّل سورة نزلت بالمدينة، إلا قوله تعالى: { وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ } البقرة 281، فإنه آخر آية نزلت من السماء، ونزلت يوم النَّحْر في حِجّة الوَدَاع بِمِنًى؛ وآيات الربا أيضاً من أواخر ما نزل من القرآن".

إن سورة البقرة لأهميتها وشموليتها ونورانية توجيهاتها، كانت محط إشادة من الرسول الكريم صلى الله عليه وسلّم إذ قال فيما رواه مسلم:(اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ الْبَقَرَةَ وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا اقْرَءُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ وَلَا تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ)، وقال:(أُعْطِيتُ سُورَةَ البَقَرَةِ مِنَ الذِّكْرِ الأَوَّلِ، وَأُعْطِيتُ طه والطَّوَاسِينَ مِنْ أَلْوَاحِ مُوسَى، وَأُعْطِيتُ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ وَخَوَاتِمَ سُورَةِ البَقَرَةِ مِنْ تَحْتِ العَرْشِ) وقال: (لِكُلِّ شَيْءٍ سَنَامٌ، وَسَنَامُ القُرْآنِ سُورَةُ البَقَرَةِ فِيهَا آيَةٌ هِيَ سَيِّدَةُ آيِ القُرْآنِ، هي آيَةُ الكُرْسِيِّ)، وفي البخاريّ أنه صلى الله عليه وسلّم قال: (مَنْ قَرَأَ بِالآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ البَقَرَةِ فِي لَيْلَةٍ، كَفَتَاهُ)، وروى أبو هريرة عنه صلى الله عليه وسلّم أنه قال: (البَيْتُ الَّذِي تُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ البَقَرَةِ لاَ يَدْخُلُهُ الشيْطَانُ). وروى أحمد والطبراني أنه قال:(البَقَرَةُ سَنَامُ القُرْآنِ وَذُرْوَتُهُ، نَزَلَ مَعَ كُلِّ آيَةٍ مِنْهَا ثَمانُونَ مَلَكاً، واسْتُخْرِجَتْ { الله لا إِلهَ إلاَّ هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ } مِنْ تَحْتِ العَرْشِ، فَوُصِلَتْ بِسُورَةِ البَقَرَةِ، وَ" يس" قَلْبُ القُرْآنِ لا يَقْرَؤُها أَحَدٌ يُرِيدُ الله وَالدَّارَ الآخِرَةَ إِلاَّ غُفِرَ لَهُ فاقْرَؤُوها عَلى مَوْتَاكُمْ).

كما كانت هذه السورة المباركة مرجعا لاختياره – صلى الله عليه وسلم- قادة الجهاد، ومقياسا له في الشدائد استنصارا بذوي الحمية الإيمانية عند قتال أعدائه المحاربين، ويوم حنين عندما رأى في أصحابه تأخراً أمر من ينادي "يا أصحاب سورة البقرة".

وكما أن لكل مشروع ذي بال برنامجا يضع التصور ويفصل المراحل ويرسم المعالم ويهيئ أدوات البناء والتشييد، كذلك كانت سورة البقرة، إذ فصلت الأحكام وضربت الأمثال وأقامت الحجج وأوضحت الطريق ومهدت السبيل، مبتدأ ومنتهى، ولم تشتمل سورة على ما اشتملت عليه.

إن هذه السورة المباركة تمثل كيانا نورانيا حيا متكاملا يشد بعضه بعضا، تصورا إيمانيا وتحركا على جميع الصعد ميدانيا، غايته إقامة أمر الإسلام في النفوس والمجتمع، وإرشاد أمة العقيدة إلى منهج بناء صرحها الاستخلافي الذي بعثت له، ولذلك كانت محاور القرآن الكريم عامة ومحاور سورة البقرة خاصة تدور حول مركز الثقل الرئيس في النشاط الدعوي، وهو تأسيسُ الجماعة المؤمنة الأولى تمهيدا لإقامة دولة الإسلام الرائدة الراشدة عقيدة وشريعة، ووَضْعُ منهجٍ لاكتساح الساحة وحمايةِ البناء.

إن التصور الإيماني في هذه السورة ألوهية وربوبية وقيومية، شديد الوضوح لا يشوبه غموض أو يعتم عليه لبس أو يكتنفه غبش، إذ لا ريب في الكتاب الذي جاء به، وشرح غيبه وشهوده، وبين فيه مبدأ الخلق ومعاده، ورسالة الإنسان في الأرض ومآله، من يوم خلقه الله في الملأ الأعلى وواثقه بعهد العبادة والطاعة، وأنزله إلى الأرض مستخلفا لعمارتها عبادة و استصلاحا.

ورد التصور الإيماني في مقدمتها رابطا لها بخاتمة الفاتحة إذ يسأل العبد ربه الهداية إلى الصراط المستقيم صراط أهل الرضا والسعادة، فيأتيه الجواب والاستجابة بقوله تعالى { الم ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ } البقرة2/1، وغير خفي أن الإيمان بالغيب على النهج القرآني هو ركيزة التصور الإيماني وقاعدته، ما حل بالقلب إلا غشيته الرحمة وأشرق بالنور وتسامى في عالم الأرواح الطيبة يتنسم أريج الملكوت الأعلى، في أحضان اللطف الإلهي، بين عُبّاد السموات والأرض ملائكة وأنبياء وصديقين وشهداء. وفي ثنايا نفس السورة تتهادى سيدة آي القرآن جليلة رفيعة العماد ثابتة الأوتاد نيرة الأركان لينة المهاد، تملأ قلب المؤمن بنور الأنوار، فيشرف بها على مكامن الأسرار وحكمة الأقدار، { اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ } البقرة 255، وفي نهايتها تقبل الخواتم محفوفة بملكين كريمين جبريل عليه السلام ورفيق له من الملأ الأعلى لم ينزل قط قبلها إلى الأرض { آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ } البقرة285. فتمتلئ الجوانح رحابة وطمأنينة وتزهو الروح أمنا وسكينة، وينشرح القلب ثقة بالرب الكريم العظيم الرحمن الرحيم، ويلهج اللسان إيمانا واحتسابا واستسلاما { وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ } البقرة 286/285.

ولئن كانت تكاليف الإيمان ثقيلة، وفي أشد الحاجة إلى العون والتثبيت عليها، كما قال تعالى في سورة المزمل 9/5: { إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا } فقد كان لسورة البقرة اليد الطولى في مجال البناء النفسي للمؤمن وتقويته وشد أزره تذكيرا بالمعية الإلهية عونا واستجابة دعوة { وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ } البقرة 186، وتنبيها لطرق الاستعانة ومكامن القوة { وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ } البقرة 46/45، وتحبيبا للآخرة إلى النفوس تشويقا وترغيبا { وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } البقرة25.

حتى إذا امتلأت القلوب نورا وإيمانا واشرأبت الروح إلى ما عند الله تعالى من رضا ونعيم، كانت التكاليف الشرعية مفصلة ومبينة ومحددة، واجبات ومنهيات، فعلا وتركا، نظام حياة للفرد والمجتمع والدولة. كل ذلك ورد في سورة البقرة توسعا في بعضه وإيجازا في بعضه.

ورد نظام الاستخلاف بين الأجيال البشرية في عمارة الأرض وإقامة العدل بقوله تعالى: { وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً } البقرة 30، { يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ } البقرة 168.

وورد تشريع أركان الإسلام بعد التصور الإيماني الذي هو شهادة التوحيد، صلاة وزكاة وصياما وحجا: { وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } البقرة 110، { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } البقرة 183، { وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ } البقرة 196.

وورد التحذير من الشيطان مطلقا، وتحريم ما يزينه شركا وشرب خمر وكتمان علم وتقليدا لما كان عليه الآباء والأجداد، وتشريع أحكام النكاح والطلاق والعدة والرضاع والمحيض والإيلاء، والوصية ومصارف الإنفاق.

وورد تشريع التعايش بين الناس عدلا وإنصافا وقصاصا وتعافيا، واجتنابا للإضرار بالغير شيطنة أو سحرا، أو أكلا للأموال بالباطل غشا ورشوة ومراباة: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى } البقرة 178، { وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ}.. إلى قوله تعالى: { وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ} البقرة 102. { وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقاً مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ } البقرة188، { الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}، البقرة: 275، {فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ} البقرة 109.

وفي مجال الدفاع والمدافعة والحماية للأمة عقيدة ونظاما وأخلاقا وأمنا، كان التوجيه في سورة البقرة على أربع شعب:

أولاها التحذير من تقليد غير المسلمين في تعاملهم مع الوحي وما نزل به، وفي علاقتهم برسولهم صلى الله عليه وسلم والرسل قبله، في عدة آيات منها: { أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ

فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ } البقرة 108. { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ } البقرة 104.

وثانيتها ضرب المثل تقريرا وتوضيحا وتحذيرا، تحريضا على العمل الصالح والإنفاق في سبيل الله، وتنفيرا مما عليه المشركون وأهل الكتاب { وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ } البقرة 265، { مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ } البقرة 17.

وثالثتها التعريفُ بطبيعة الصراع العقدي بين الإيمان والكفر، وطبيعةِ ما يواجه حَمَلَةَ الدعوة من محن ومتاعب ومشاق، والتوضيحُ لمذاهب الخصوم والمعترضين ومكرهم، وأساليبهم ومناوراتهم وضلالاتهم، وطرق الرد عليهم وفل حججهم، وحماية المؤمنين من تأثير دعاياتهم وإشاعاتهم.

وكانت قصص الأنبياء مع أقوامهم في هذا المجال خيرَ تعريف بطبيعة المعركة بين الإيمان والكفر، وأقوى تنبيه لأولي البصائر والأبصار، وأبلغ عظة وعبرة للمؤمنين، إذ لم تكن هذه القصص مقصورة على الأمم التي وقعت فيها، ولكنها كانت تقريرا لسنة الله في عباده الذين خلوا من قبل، تقريرا خوطب به الرسول صلى الله عليه وسلم تثبيتا وحضا على التأسي بمن قبله من الأنبياء والرسل، وخوطبت به أمته من خلاله، تحذيرا لها من أن يقع فيها ما وقع لغيرها، أو يلحق بها ما لحق بأمم قبلها.

في هذا السياق وردت قصص القرآن الكريم، بكل واحدة منها علمٌ وعبرة وأسوة، في صور بلاغية رائعة شتى، إشارة وتصريحا، وإسهابا وإيجازا وتلميحا، وتنوعا في معاني الألفاظ والسياقات، وما يراد تبيانه من عبر وعظات، بما يناسب كل حالة، وينسجم مع كل ظرف، غايتها توضيح التصورات، أو رفع المعنويات، أو شرح الصدور، أو تقوية الأفئدة، أو التحذير من نتائج الأعمال والتصرفات، فكانت هذه القصص وحدها بحق مدرسة ربانية في المنارة المحمدية القرآنية لتخريج الدعاة. تتحدث في أول ما تتحدث عن رسل الله مبلغي دعوته وأمناء وحيه، مبينة إشراقات من سيرهم وأحوالهم، ومعقبة على أقوالهم وأعمالهم، وما يتفاضلون فيه عند الله وما به يتساوون { تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ } البقرة 253.

إبراهيم عليه السلام ولنا فيه قدوة وأسوة كما قال تعالى: { قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ } الممتحنة 4، على فضله لا يرث دعوته ظالم من ذريته، إذ لا تصح الإمامة مع الظلم، ولو كان الظالم من ذرية نبي هو أب الأنبياء وخليل الرحمن { وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي

الظَّالِمِينَ } البقرة 124، ولا يبقى من عمل المرء إلا ذرية صالحة أو علم يبثه في صدور الرجال أو صدقة جارية، كما أخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولذلك سأل إبراهيم ربه الذرية المسلمة { وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ } البقرة127/128.

والحق دائما منتصر، ولكن الذي ينهزم هو النفوس الخائرة، أما الأقوياء فيواجهون خصومهم بالحجة والبرهان ثقة بربهم وبالحق الذي معهم، وفي إبراهيم الأسوة المثلى { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } البقرة 258.

والأمم الهينة المتهافتة الخائرة سرعان ما تنقلب على عقبها إذا غاب راعيها، لأنها مجرورة إلى الإيمان من خارج قلوبها جرا ومدفوعة إليه دفعا، { وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } البقرة51/52، ولذلك حذر الله تعالى الأمة الإسلامية من هذا المصير بقوله: { وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللّهُ الشَّاكِرِينَ } آل عمران144، ويمضي سياق القصص القرآني على هذا المنوال تربية وترشيدا وأطرا للمؤمنين على طريق الحق والإيمان والثبات، مستعرضا حالَ بني إسرائيل الذين سألوا أن يروا الله جهرة، وجادلوا في ذبح البقرة، وحالَ الملأ منهم إذ سألوا أن يبعث الله لهم ملكا يقاتلون في سبيل الله، فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم.

ورابعتها الإعدادُ النفسي للصبر على المكاره وابتلاءات مراحل الطريق، ورفعُ معنويات المسلمين، بإثارة الاعتزاز بما لديهم من الحق الذي نزل عليهم، ولعل هذا من أهداف رفع التحدي في وجه الكفار بالقرآن في قوله تعالى { وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ } البقرة 23/24، وهذا في جوهره إعداد نفسي للدفاع القتالي وجهاد السيف تلافيا لغدر الخصوم وعدوانيتهم المسلحة، قال تعالى: { وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ } البقرة 154/155.

إن كل آية من سورة البقرة لبنة أساسية في صرح الإسلام الخالد، ومجتمعه الرائد، ودولته الراشدة، منذ إبراهيم عليه السلام { إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } البقرة131/132، وجعلها كلِمَة بَاقِيَةً في عقِبِه إلى مبعث رسولنا الكريم عليه صلوات الله

وسلامه، إذ كان هو اللبنة التي تم بها البنيان كما قال فيما رواه البخاري:(إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ، إِلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعْجَبُونَ لَهُ وَيَقُولُونَ: هَلَّا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ، قَالَ: فَأَنَا اللَّبِنَةُ وَأَنَا خَاتِمُ النَّبِيِّينَ).

آيات التقوى والفلاح

قال الله تعالى: { بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الم (1) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (2) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (3) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (4) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (5) }

إن هذا القرآن كنز أسرار، ومشكاة أنوار، وروض من الثمار والأزهار، وعلم لا يسعه مداد السموات والأرض، ولو جيء بمثله مددا، وليس من مفتاح لأسراره ومغاليقه إلا أن تؤمن موقنا بأنه من عند الله تعالى.

مفتاح واحد من القلب السليم، به ترفع الأستار، وتشرع الأبواب وتنكشف الأسرار، فتنشرح القلوب والأفئدة، ويعطي القرآن ما لديه من كريم الأحجار وعاطر الأزهار وساطع الأنوار، مرفرفا بصاحبه في عوالم الرحمة واللطف والسعادة بين أخيار الملكوت، وسادة عُبَّاد ذي العظمة والكبرياء والجبروت.

لذلك تعترض من يتدبره على مراحل، أسئلة للتذكير والتحذير، وكأنها تخاطبه: تذكر أيها القارئ، أنك تتلو كلام الله، فيه ما هو بمستطاعك فهمه لأنه تربية وتكليف تسأل عنه، وفيه ما هو فوق عقلك، يختبر به إيمانك ويقينك، أقبل وتابع مؤمنا مسلما، أو استمدد إيمانا إن كنت تستجلي أخبارا وأسرارا { هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ، وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ } آل عمران7.

لذلك عندما يسأل العبد في الفاتحة الهداية إلى صراط الله المستقيم، يعرض له مفتاح الجواب والاستجابة، إنه قوله تعالى: { الم }، يتناوله بعقل إيماني نير، وقلب سليم خير، وتسليم مطلق لرب العالمين، ولسان مفصح عما في الضمير من اليقين { آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا }، فيقبل عليه الجواب، وتَنْهَلُّ عليه الاستجابة { ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ }.

لقد حاول أكثر المفسرين الاجتهاد في شرح معنى هذه الآية { الم }، وذهبوا في ذلك مذاهب شتى، وصاغوا في بيانها مقولات كثيرة يضيق المقام عن استعراضها. من ذلك قولهم بأنها مع جميع الحروف المقطعة المشابهة لها أسماء للسور التي افتتحت بها، وقولهم إنها إشارة من الله إلى أن القرآن مؤلف من هذه الحروف التي يُنْطَق بها وتُصاغ بها الخطب الرنانة والشعر الرصين، ومع ذلك لا يستطيع أحد أن يصوغ بها قرآنا، وهو بذلك معجز لأنه كلام الله عز وجل.

ولكن الأكيد أن أحدا من الصحابة الكرام الذين تلقوا القرآن مباشرة من نبيهم صلى الله عليه وسلم لم يسألوا عن هذه الحروف، ولم يشغلوا عقولهم بمعانيها، لأنهم كانوا يتلقونها بقلوب خاشعة وأعين دامعة، ومعرفة يقينية بأنها من ربهم الكريم، ومن الثقة بالرحمن الرحيم والحياء من البارئ الحكيم ألا يسألوا، وإنما يتحفزون مستعدين لتنفيذ الأوامر واجتناب النواهي، احتسابا وإيمانا ومحبة وزلفى. وقد سُئِلَ أبو بكر الصديق رضي الله عنه عن قوله تعالى: { وَفَاكِهَةً وَأَبًّا } فقال: أي سماء تظلني وأي أرض تقلني إن قلتُ في كتاب الله ما لا أعلم، وقال أيضا: في كل كتاب سر وسر الله تعالى في القرآن أوائل السور، وقال الإمام علي كرم الله وجهه: لكل كتاب صفوة وصفوة هذا الكتاب حروف التهجي، وقال داود بن أبي هند: كنت أسأل الشعبي عن فواتح السور فقال: يا داود إن لكل كتاب سرا، وإن سر القرآن فواتح السور فدعها وسل عما سوى ذلك. وقرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه { عَبَسَ وَتَوَلَّى } فلما أتي على هذه الآية: { وَفَاكِهَةً وَأَبًّا } قال: عرفنا ما الفاكهة، فما الأب؟ ثم خاطب نفسه: لعمرك يا ابن الخطاب إن هذا لهو التكلف. وفي رواية أخرى أنه رضي الله عنه قرأ هذه الآية، فقال: كل هذا قد عرفناه، فما الأبُّ؟ ثم رفع عصاً كانت بيده، فقال: هذا لعَمْرُ الله التكلُّف، وما عليك يا ابن أم عمر ألاَّ تدري ما الأبُّ؟ ثم قال: اتبعوا ما تبين لكم وما لا فَلْتَدَعُوه.

لقد كان صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم يعدون { الم } وسائر حروف الهجاء في أوائل السور مما استأثر الله تعالى بعلمه فآمنوا بظاهرها ووكلوا العلم فيها إلى الله تعالى.

بهذا اليقين يسأل المؤمنون ربهم خاشعين قائلين: { اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ } الفاتحة 7/6، وبهذا اليقين أيضا يتلقون الإجابة من ربهم الفتاح العليم: { بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الم ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ } البقرة2/1.

ذلك القرآن لا ريب فيه، لا شك في إعجازه لفظا ومبنى ومعنى، ولا شك في مصدره وصدوره { ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ } البقرة 176، نزل به الروح الأمين جبريل عليه السلام من معارج الوحي، تلقاه كيف شاء ربه، وأداه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، كما أمر، جوهره الهدى ومخبره الهدى، وحقيقته وكيانه الهدى، لا ريب في تضمنه ما يهدي إلى الصراط المستقيم الذي سألتم ربكم معالمه ومراشده { ذَلِكَ هُدَى اللّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ } الأنعام 88، أو في اشتماله على ما يهبكم رفقة الأرضياء الأسوياء الأتقياء من الذين أنعم الله عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالينَ، فضلا منه عز وجل ورحمة { وذَلِكَ جَزَاء الْمُحْسِنِينَ } المائدة 85.

إن هداية القرآن الكريم مبنية على دعامة انتفاء الريب ومظنة الشك في مصدره وإعجازه، وأنه بما حواه ليس موضعا للريب أصلا، كما أن هدايته مختصة بفئة من خلق الله وعباده، هي زمرة المتقين، إذ الشاك لا ينتفع، وغير المتقي عن الحضيض لا يرتفع.

إن الريب فيه لا يحل إلا بقلوب الكفار والمشركين، وعقول المنافقين وضعاف الإيمان، لأن معناه التردد بين موقعي تهمة واضطراب، بحيث يتعذر على صاحبه الطمأنينة على أي منهما، يقول تعالى: { مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا } النساء 143، ولذلك شبه رسول الله صلى الله عليه وسلم المنافق بالشاة العائرة بين غنمين، فيما رواه مسلم: (مَثَلُ الْمُنَافِقِ كَمَثَلِ الشاةِ الْعَائِرَةِ بَيْنَ الْغَنَمَيْنِ. تَعِيرُ إِلَى هذِهِ مَرةً، وَإِلَى هذِهِ مَرةً). وفي رواية أحمد زيادة: (لا تدري أَهذِهِ تَتْبَعُ أَمْ هذِه؟).

لذلك كان لابد للاستهداء بالقرآن من تربة خصبة طيبة، هي تربة التقوى، التقوى التي هي مغرس الإيمان ومنبته، تتقدم الهدى وكل عبادة، وتسبق الفعل والترك وكل تصرف وعادة، لأنها فطرة تجعل المرء متوقفا عن اقتحام كل أمر لم يعلم حكم الله فيه، لشعوره بالعجز عن الاستبداد فيما لم يؤذن له به، وعلمه أنه غير مستغن بنفسه عن ربه، ذلك أن العبودية الحقة ليس لها من تربة تنبتها إلا التقوى والخوف من الله تعالى ومطالعة هيبته وجلاله، وبها كان عليه الصلاة والسلام يصلي وبصدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء، وقد سأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه أُبَيّاً عن التقوى؛ فقال: هل أخذت طريقاً ذا شوك؟ قال: نعم، قال: فما عملت فيه؟ قال: تشمَّرت وحذرت؛ قال: فذاك التقوى. وقال شهر بن حوشب: المتقي الذي يترك ما لا بأس به حذراً لما به بأس، ولهذا كله كانت التقوى وصية الله لعباده { وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ } المؤمنون 52، { ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ } الزمر 16.

ولئن اختص الله تعالى بهداية القرآن عبيده المتقين، فوالاهم بقوله: { وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ } الجاثية 19، ووالاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله:(إن أوليائي منكم المتقون)، فقد استبعد بمفهوم المخالفة غير المتقين من الكفار والمشركين وفسقة المنافقين، طائفتي المغضوب عليهم والضالين، استبعدوا عن الهداية وعن الولاية، لأن جبلتهم فاسدة، وتربتهم قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، ثم حدد صفات المتقين، فقرر ثلاثا منها هن أمهات التقوى، وأعمدة الإسلام في القلوب والجوارح. ورأس الأعمال وجُمَّاعُها، عمل قلبي هو الإيمان بكل ما أخبر به الله تعالى عن الغيب، وعمل بدني هو الصلاة وما يستتبعها، وعمل بذلي في سبيل الله هو الإنفاق.

الإيمان بالغيب أولى هذه الصفات {الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ}، ولكن ما الإيمان وما الغيب؟

أما الإيمان فحقيقته التصديق بالقلب، قال الله تعالى: { وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ } يوسف 17، أي بمصدق لنا، وفي الشريعة: الإيمان هو الاعتقاد بالقلب والإقرار باللسان والعمل بالأركان.

وأما الغيب فهو لغة واصطلاحا ما غاب عن المرء ولم تدركه الحواس، إلا أن وروده معرفا بالألف واللام إشارة واضحة إلى أنه غيب بمعنى مخصوص، دل عليه الكتاب والسنة. وإلا فالغيب بمعناه المطلق، متاهة شاسعة ومجال للتلبيس والخلط. لأن

ما لا تدركه الحواس تشاغب على حقيقته الأهواء والجهل والخرافة وأبالسة الجن والإنس، فاحتاج الأمر إلى أداة للمعرفة وقناة للتمييز. ولئن كان المحضن الدافئ للغيب هو القلب، لأن العقل لا يرتاد هذه المجاهل إلا في حدود ما رسم له خالقه، فإن القلب نفسه قد يضل أو يفرط أو يطغى.

لذلك أمدنا الله تعالى بميزان للقلب والعقل يضبط حركتيهما، ويرشد تصرفاتهما. فيبقى للغيب حرمته وحدوده وضوابطه، وللشهود قنواته وحقيقته وشريعته.

هذا الميزان هو العقيدة السوية التي تعد نواة تدور حولها حركتا القلب والعقل. العقيدة التي تمشي على الأرض تعاملا مع الواقع، سلوكا اجتماعيا، واقتصاديا، وسياسيا، في الأسرة، والمجتمع، والدولة، وساحة العمل وميدان البحث العلمي، واستخداما لقناتي القلب والعقل، أداتي المعرفة لدى الإنسان في تعامله مع الغيب والشهود، مع المادة والروح، مع الوجود الآني والوجود الموعود، مما يمثل منهجا متماسكا متكاملا متميزا.

وكما أن القمر والأرض يدوران حول الشمس، ويستمدان منها النور، كذلك القلب والعقل يدوران حول العقيدة ويستمدان منها النور والرشد والصواب.

وكما أن للقمر والأرض مدارين مرسومين حول الشمس، إن حادا عنهما كان الكسوف والخسوف، وحل الظلام { لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ } يس 40، كذلك القلب والعقل، لكل منهما مجال خاص به فإن حادا أو زاغا عن مداريهما الطبيعيين حول العقيدة فسد الإنسان، وارتكس في الظلام، ظلام الجهل و الضلال و الغواية...

إن ضبط حركتي القلب والعقل في مجالي الغيب والشهود بميزان العقيدة، قد أسقط جميع التصورات الغيبية لدى المناهج الوضعية البشرية وأديان أهل الكتاب المحرفة، بدءا بالمسيحية واليهودية اللتين تنسبان لله الأبناء كما في حال عزير وعيسى عليه السلام، ومرورا بالأديان البدائية والخرافية والوثنية التي استندت في تعاملها مع البيئة إنسانا وطبيعة إلى وجود أرواح وشياطين وآلهة، تتحكم في نفوس الناس وحركاتهم الجسمية وسلوكهم اليومي، والمناهج الميتافيزيقية الفلسفية التي وضعت بديلا للمناهج الخرافية في القرون المتأخرة والعصر الحديث؛ واعتمد فيها لتفسير طبيعة الكون وسلوك الإنسان على ما زعموه جوهرا وماهية وهيولى وصورة، وقوة فاعلة وطاقة حيوية وقوة كيميائية، وانتهاء بما سمي حديثا "المنهج العلمي" وقد اعتمد فيه على نظرية دارون والمادية الجدلية التي تختصرها الآية الكريمة { وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ } الجاثية 24.

إن القرآن الكريم والسنة المطهرة يدعوان إلى ضرورة توقير الغيب بحقائقه المتناهية في المطلق، التي لا يحيط بها العقل المجرد، وتناوله بالقلب السليم، المليء بالإيمان الذي لا يناقش ولا يجادل ولا يسأل:

- { الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ } البقرة 3
- { وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } الشورى 52
- { وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ } هود 123
- { وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ } آل عمران 179

وعندما سئل الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام عن الإيمان أوجز بأوفى تعبير وأوضح عبارة أمهات الغيب في الإسلام بقوله: (أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره).

إن الغيب الإسلامي مضبوط منضبط جوهرا وطرق معرفة وأداة تَلَقٍّ.

جوهره ما حدده الوحي قرآنا وسنة، وحقيقته ما عرفه به النبي صلى الله عليه وسلم وما عرفه سلفنا الصالح من الصحابة رضي الله عنهم وقد تلقوه مباشرة من نبيهم الكريم، أما أداة التلقي فهو القلب المنضبط بالكتاب والسنة وبالعقل الرباني التقي.

بالكتاب والسنة الثابتة ينجو التصور الغيبي من الانحراف العقدي والفكري والعبادي والسلوكي، لأنه يقتصر في تلقي الغيبيات والأحكام والعبادات على مصدرين وحيدين لا ثالث لهما. فكل ما لم يرد في القرآن الكريم ولم يرو صحيحا عن النبي صلى الله عليه وسلم لا يؤخذ به. وكل ما أفتى به شيخ أو رآه أو أمر به فقيه أو عالم من غير الكتاب والسنة الصحيحة لا يعتد به. وكل ما رئي في المنام، أو ألقي في أمنية امرئ مما دعي إشراقا، أو إلهاما، أو إضافة إلى التشريع أو العبادة أو ما شابه ذلك، ليس إلا تلبيسا وشيطنة وضلالا. وكل ما سكت عنه القرآن الكريم والسنة النبوية يكون الاحتكام فيه إلى العقل، ولكنه العقل الرباني الرشيد الذي ينظر بنور الشرع في حدود مجاله وطاقته، مؤثرا المصلحة العامة على الخاصة، وبقاء الأمة على بقاء الفرد، وعلو شأن الجماعة على علو شأن الأفراد والطوائف.

إننا بالقلب موجها بالكتاب والسنة والعقل الرباني، وبالعقل مضبوطا بالكتاب والسنة والقلب الحي، ننفي عن الإسلام وحركته الحضارية العالمية، وعقيدته الربانية السمحة، وشريعته الفذة العادلة، وتصوره للغيب والشهود، كل شائبة تشين نظامه ومناهجه. ونحمي مجتمعاتنا من مرضين يوهنان الصف ويخربان البلاد والعباد، هما الدروشة والشيطنة.

الدروشة وهي مآل من يلغي عقله، ويتخذ لتلقي الغيب وأحكام السلوك والعبادة مصادر غير الكتاب والسنة أو معهما؛ تبدأ أولا طيبة وصفاء وثقة عمياء في الناس والنصوص المروية، ثم تستفحل لتتحول إلى بلادة وغباء، ثم إلى خرافة وشعوذة، يشرف على توجيهها واستثمارها متشيطنون يوظفون كل غيبي لمصالحهم وأهدافهم...

أما الشيطنة فهي الثمرة الخبيثة لدى من يعتمد على العقل وحده بدون ضوابط من كتاب أو سنة، وهي مدرسة أسسها بنو إسرائيل فأتعبوا بها أنبياء الله وطاردوهم وقتلوهم وحرفوا كلامهم وشرائعهم كما هو مفصل في القرآن الكريم.

والصفة الثانية للمتقين المؤهلين للانتفاع بهدى القرآن هي إقامة الصلاة، الصلاة التي هي صلة الخلق بالخالق عز وجل، وعماد الدين وأفضل العبادات البدنية، إقامتها بالمداومة عليها والمحافظة على مواقيتها وأركانها وهيئاتها، وما تقتضيه من ورع وخشية وبر وعمل صالح واجتناب للفحشاء والمنكر، قال تعالى: { أَقِمِ الصَّلَاةَ } الإسراء 78، { وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ } الحج 35، { اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ } العنكبوت 45، ولما ذكر المصلّين المتهاونين بالصلاة قال: { فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ } الماعون5/4، ولم يقل: فويل للمقيمين الصلاة، لأن الغافل عن الصلاة والمتهاون فيها لا صلاة له، وما صلاته إلا مجرد مرتع للخواطر والهواجس والوساوس، وقراءته فيها مجرد أصوات لا يعيها وتصدية لا يفقهها، وليس للمرء من صلاته إلا ما وعى، ومن لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم تزده من الله إلا بعدا، ومن اتخذ الصلاة لعبا ولهوا أو مصيدة للدنيا واستغفالا للخلق فليس له من صلاته إلا وزر الخداع { يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ } البقرة 9.

ولأن الصلاة وفاء بعهد الإيمان والعبودية، فالمواظبة عليها والمداومة عليها تعهد للإيمان وترسيخ له في النفس، واستعانة بها على جميع التكاليف، ومن لم يدم على أدائها ضعف إيمانه واستبدت به الجرأة على المعصية، ونزعت من قلبه التقوى، والتقوى أصل الإيمان ومنبته، والصلاة هي الثمرة الظاهرة، لذلك كان التعبير عن إقامتها بصيغة الفعل المضارع { وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ }، لأن المضارع قد لا يلحظ فيه زمان معين من حال أو استقبال فيدل إذ ذاك على المداومة والاستمرار.

والصفة الثالثة للمتقين هي قوله تعالى: { وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ }. إنها الإنفاق والبذل في سبيل الله من طيب الرزق، تكافلا وتآزرا وتعاونا وإحسانا إلى خلق الله، بشرا وحيوانا، وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم كما روى مالك والبخاري ومسلم (يَا رَسُولَ اللَّهِ وَإِنَّ لَنَا فِي الْبَهَائِمِ لَأَجْرًا؟ فَقَالَ: فِي كُلِّ ذِي كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْر).

إن الصلاة صلة للعبد بربه ولكن تأثيرها في سلوك المرء وأخلاقه يجعل منها صلة بينه وبين الخلق، أما الإنفاق فهو صلة العبد بالخلق، ولكن القيام به على وجه القربى من الله استخلافا منه لعباده يجعله صلة بين العبد ومولاه { وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ } الحديد 7، ويجمع الصلاة والإنفاق ورود الأمر بهما والوعد بجزائهما من رب الغيب والشهود.

إن رزق المرء مخبوء في ضمير الغيب لأنه لا يطلع عليه قبل اكتسابه، { وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً } لقمان: 34، { إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ } الذاريات 58، والإنفاق في سبيل الله دليل الإيمان بالغيب، والثقة بالله، ووجه من وجوه الاستخلاف في الأرض، وشكل من أشكال العبادة التي خلقنا لها، فإن هو أحسن الاستخلاف في مال الله الذي أُعطِيَه فتحت له أبواب الرزق الكريم والخير العميم، وزكا ماله وولده وأجر عمله، وإذا بخل بما استخلف فيه كان ذلك منه ضعفا في الإيمان، وفقد صفة الاستخلاف أولا، وأضاع عبادة من أمهات العبادات ثانيا، وانغلق دونه باب الإمداد بخير الرزق وأطيبه ثالثا، وكان له في الآخرة ما أُنذِر به..

والفيصل في كل هذا إرادة الإنسان وما توجهت إليه، مريد الآخرة ينتقص من دنياه لآخرته ومريد الدنيا ينتقص من دينه لدنياه، { مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } هود 15/ 16، {مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ } الشورى 20.

ثم تأتي زبدة القول في الموضوع وخلاصته موجزة للصفات، ومبينة ثمارها بقوله تعالى: { وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ }.

لقد أنزل الله تعالى قبل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم كتبا، وأرسل نوحا وإبراهيم عليهما السلام { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ } الحديد26، ثم قفى على آثارهما بموسى وأنزل التوراة مستحفظا عليها أهلها فما حفظوها وما رعوها، وأجهزوا عليها كتمانا وتحريفا وإضافات مختلقة، جراءة منهم على الله تعالى بنسبة الولد إليه، ووصفه بما لا يليق به، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا { إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ } المائدة 44، { فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ } البقرة79.

ثم أنزل الإنجيل على سيدنا عيسى عليه السلام { وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ } المائدة 46، واستحفظ عليه أهله فاستبدلوا به تشريعات رهبان الكنائس والأديرة وهلوساتهم العقدية التي بلغت بهم حد الشرك بادعائهم لله الولد { وقَفَّيْنا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْناهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبانِيَّةً ابْتَدَعُوها ما كَتَبْناها عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغاءَ رِضْوانِ اللَّهِ فَما رَعَوْها حَقَّ رِعايَتِها فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُون } الحديد27، { وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُون } التوبة 30.

وبعد أن استنفذت هذه الكتب أغراضها، وأجهز عليها أهلها، كانت بعثة نبينا عليه الصلاة والسلام بالقرآن ناسخا لأحكام الكتب قبله، ومهيمنا عليها، تاركا لنا واجب الإيمان بها مع عدم العمل بأحكامها { وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ } المائدة 48.

لقد جمع الله تعالى في القرآن الكريم ما تفرق في الكتب قبله، من أمر الإسلام والإيمان والإحسان، وتكفل سبحانه بحفظه من كل تغيير أو تحريف، أوزيادة، أونقص، وجعله معجزاً مبايناً لكلام البشر { إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُون } الحجر 9.

إن الإيمان بما أنزل على الأنبياء من كتب قبل نبينا عليه وعليهم السلام إيمانا مجملا دون العمل بمحتواها ركن أساسي من العقيدة، غير قابل للإلغاء أو الحذف أو الاستبدال، ولكن العمل بأحكامها غير جائز، لأنها وصلتنا محرفة أولا، فيها من الحق ومن الباطل ومن الإيمان ومن الكفر، ولأن القرآن الكريم ثانيا نسخها فاستبدلنا خيرا منها أحكاما بلغت محفوظة واضحة ملزمة. وقد روى أحمد في مسنده (أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِكِتَابٍ أَصَابَهُ مِنْ بَعْضِ أَهْلِ الْكُتُبِ فَقَرَأَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَغَضِبَ فَقَالَ أَمُتَهَوِّكُونَ فِيهَا يَا ابْنَ الْخَطَّابِ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً، لَا تَسْأَلُوهُمْ عَنْ شَيْءٍ فَيُخْبِرُوكُمْ بِحَقٍّ فَتُكَذِّبُوا بِهِ، أَوْ بِبَاطِلٍ فَتُصَدِّقُوا بِهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ مُوسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِي).

كما أن الإيمان اليقيني بالآخرة بعثا ونشورا وحسابا عدلا وخلودا في نعيم أبدي أو عذاب مقيم، وما يتعلق بذلك كله من معتقدات بينها الكتاب والسنة، هو جُمَّاع العبادة عقيدة وشريعة، يقينا في القلب وعملا بالجوارح واتقاء لمحاذير المصير.

إن الإيمان بكل هذه المقومات التي ذكرت في هذه الآيات الكريمة من سورة البقرة يمثل كيانا حركيا حيا يسعى في الأرض، ونظاما للحياة كفيلا بتحقيق سعادة الدنيا والآخرة، بناء للمجتمع على الرخاء والأمن والتعاون والتآزر، وتكريسا للمحبة

بين البشر، بصفتهم أبناء لأب واحد وأم واحدة، وعبادا لرب واحد رحيم كريم حليم حكيم، هذا ما وعاه تلميذ المدرسة المحمدية الأول الإمام علي كرم الله وجهه، عندما سأله رجل قائلا:" يا أمير المؤمنين ما الإيمان أو كيف الإيمان؟" قال الإمام علي: "الإيمان على أربع دعائم: على الصبر واليقين والعدل والجهاد، والصبر على أربع شعب: على الشوق والشفّق والزهادة والترقب، فمن اشتاق إلى الجنة سَلِيَ عن الشهوات، ومن أشفق من النار رجع عن الحرمات، ومن زهد في الدنيا تهاون بالمصيبات، ومن ارتقب الموت سارع إلى الخيرات، واليقين على أربع شعاب: تبصرة الفطنة وتاويل الحكمة وموعظة العبرة وسنة الأولين، فمن تبصر الفطنة تأول الحكمة، ومن تأول الحكمة عرف العبرة، ومن عرف العبرة عرف السنة، ومن عرف السنة فكأنما كان في الأولين، والعدل على أربع شعب: على غائص الفهم وزهرة الحلم وروضة العلم وشرائع الحكم، فمن فهم جمع العلم، ومن حلم لم يضل في الحكم، ومن علم عرف شرائع الحكم، ومن حلم لم يفرط أمره، وعاش في الناس. والجهاد على أربع شعب: على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصدق في المواطن وشنآن الفاسقين، فمن أمر بالمعروف شد ظهر المؤمنين، ومن نهى عن المنكر أرغم آناف الفاسقين، ومن صدق في المواطن فقد قضى الذي عليه، ومن شَنِئَ المنافقين غضب لله وغضب الله له فأزلفه وأعلى مقامه "، فقام الرجل فقبل رأسه.

ثم لما أخبر تعالى بهذه الصفات، قرر ثمارها للمتصفين بها فقال: { أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ }، أولئك على هدى من ربهم، لأنهم اتبعوا الكتاب الذي أرشد إليه الخطاب الرباني عند افتتاح السورة بقوله تعالى { ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ }، فآمنوا بالغيب وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقهم الله، وآمنوا بما أنزل إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وإلى الأنبياء قبله عليهم السلام، وأيقنوا بالدار الآخرة فاستعدوا لها بالعمل الصالح وامتثال الأوامر واجتناب النواهي، وأولئك هم المفلحون في الدنيا والآخرة، لأنهم فازوا بالمغفرة والرضا والنعيم المقيم. لقد كانت خطواتهم في الدنيا على الهدى توفيقا من الله وتسديدا، وعاقبة أمرهم في الآخرة فلاحا ونجاحا { فَآَتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآَخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ } آل عمران148.

إن الإنسان لم يخلق عبثا ولم يهبط إلى الأرض دون هدف أو تقدير { أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا } المؤمنون 115، ولكن ليجتاز اختبار اللياقة والأهلية للنعيم الأبدي في رياض الرحمة واللطف الإلهي في الجنة، اختبار التدافع بين الخير والشر، بين الإيمان والكفر، بين الحق والباطل، وأنزل إليه الكتاب مبينا ما يحتاجه في معركته ضد الشيطان وأوليائه، فيه أقوى سلاح، سلاح الإيمان واليقين، وسلاح { إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ } الفاتحة 5، وسلاح الولاء للصف الرباني { مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ.. } الفتح 29، وسلاح البراء مما يغضب الله وممن يغضبونه، { وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا } النساء 119، فإن أخذ المرء هذه الأسلحة بقوة، ورفع عماد الحق في نفسه وأهله ومجتمعه بصدق، فاز وأفلح وأنجح، واقتحم العقبة على هدى من ربه إلى النعيم الأبدي { فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ وَمَا

أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ فَكُّ رَقَبَةٍ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ } البلد 18/11، { أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ }.

النِّذارةُ هِدايةٌ أو إقامةُ حُجَّةٍ

قال الله تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (6) خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (7) }
سورة البقرة

تمر بالمسلمين أفرادا وجماعات ودولا، ظروف سياسية وأحوال اجتماعية واقتصادية مختلفة أحيانا ومتناقضة أحيانا أخرى، فيكونون في أشد الحاجة إلى تبصرة القرآن وحكمة التنزيل، وعناية الفرقان، { وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا } الإسراء 82، كان هذا حالهم في مجتمعهم الأول والقرآنُ يتنزل منجما، وسيبقى أبد الدهر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، تمر بهم النوائب والمحن، ويحاصرهم الأعداء من كل حدب وصوب، فيجدون في القرآن الكريم مأمنهم المكين، وملجأهم الحصين، ومراشدهم النيرة.

في مجتمع مكة وقد قوطعوا وحوصروا وطوردوا وعذبوا، يبصرهم القرآن بطرائق معاملة المشركين من أم القرى وما حولها، ويقوي نفوسهم لتحمل الأذى وانتظار الفرج من ربهم، ويحذرهم من عاقبة الاستعجال، حينا بقوله تعالى لنبيه الكريم صلى الله عليه وسلم: { وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ } الأنعام 35/34. وحينا آخر بمخاطبته مشركي قريش بلطف وتحنن بقوله: { إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} التكوير 29/19.

حتى إذا كانت الهجرة إلى المدينة، وانبثق مجتمع الإيمان الجديد، وَذَرَّ قرن أعداء من صنف آخر، أهل كتاب ومنافقين، أقبلت آيات الذكر الحكيم، وانهَلَّتْ أنوار سورة البقرة، تضيء معالم الطريق، وتكشف خبايا المخاطر والكمائن في النفوس

والمجتمع، وتأخذ بيد المسلمين إلى أرشد أمرهم في التعامل مع الواقع الجديد، مع الخصوم والمتربصين، وخلفيات دوافعهم وأهدافهم وأساليب مكرهم، وطرق مكافحة عدوانيتهم ومناهضة كيدهم.

إن الناس في ميزان العقيدة منذ أهبطوا إلى الأرض وإلى يوم الدين، على صنفين، مؤمنين متقين، وكافرين معاندين، والكافرون على صنفين مجاهرين بإنكارهم، مشركين وأهلَ كتاب، ومخاتلين يضمرون الكفر ويظهرون الإيمان، ولئن كانت هذه الأحوال تخفى على المؤمنين أحيانا في غمرة الفتن وصخب الكدح والسعي اليومي، فإن الله تعالى تكفل لهم بالتوضيح والتذكير والتوعية والتحذير، وأنار لهم معالم واقعهم، وطبيعة البشر ممن يعايشونهم ويخالطونهم ويدعونهم إلى صراطه المستقيم، بآيات بينات يسترشدون بها، وتبقى لمن بعدهم مناراتِ هدى إلى يوم الدين.

ولئن كان المسلمون في عصرنا الحاضر، قد أعرض أكثرهم عن توجيهات القرآن فيما ينبغي أن تكون عليه معرفتهم بواقعهم الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والعقدي، وبطرق تعاملهم مع غيرهم من أصحاب الملل والنحل حولهم، فقد ارتكسوا بإعراضهم هذا في الذلة والصغار والاستضعاف بين أيدى أعدائهم أولا، وأدركهم ما أصاب الأمم قبلهم ثانيا، وأصبح مجتمعُهم أكثرَ شبها بمجتمعات من غضب الله عليهم ولعنهم ثالثا، وبلادهم ما بين سلْمٍ مُخْزٍ بخضوعهم لمن هب ودب، وحربٍ مستبيحةٍ للأموال والدماء والأعراض، مُجْلِيةٍ عن الأهل والأوطان، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال فيما رواه البخاري: (لَتَتْبَعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ شِبْرًا شِبْرًا وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ تَبِعْتُمُوهُمْ قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى قَالَ: فَمَنْ).

وكما كان إعراض كثير من المسلمين عن التصور القرآني للإيمان ومقتضياته، كان إعراضهم عن التصور القرآني للواقع البشري، فأثر ذلك في حياتهم كلها، حالا واستقبالا، بل أثر حتى في مصطلحاتهم ولغة خطابهم، فغابت المعاني الإيمانية عن حياتهم، واختفت معالم الحقيقة عن تصورهم للأولياء والأعداء، وتصورهم لمن يريد بهم شرا أو من يريد بهم خيرا، حتى رأينا فيهم من يسمي الكافر مسلما ومؤمنا بتأويلات ضالة مضلة، ويستجلبه لغزو الأوطان، ويستعين به على قتل أهل الإيمان. وليس من مخرج إن لم تكن توبة إلا بتنشئة أجيال قرآنية تستضيء بالكتاب والسنة، وتتعامل بوحيهما وتتحدث بلغتهما، وتؤسس لأمة مستعلية بإيمانها، واثقة بربها، مميزة بين صديقها وعدوها.

إن القرآن الكريم لا يكاد يتوقف عن توضيح واقع المسلمين ومن حولهم، في كل سورة من سوره، في سورة الفاتحة يبين حال الذين أنعم الله عليهم وحال غيرهم من الكفار مغضوبا عليهم وضالين، ثم يبادر في أول سورة البقرة بزيادة البيان والشرح والبسط والتنبيه والتحذير، لحال المتقين المسترشدين بالكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وحال من سواهم من كفرة المشركين ومردة أهل الكتاب الذين لا ينجع فيهم الهدى سواء أنذروا أم لم ينذروا، وعتاة المنافقين الذين يتلَوَّنونَ لكل حال بلون ويتزينون في كل مجلس بقول.

ولما كان الكفار فئتين، مجاهرين ومنافقين، والكفار المجاهرون المعاندون سيرتهم واضحة وخطرهم أقل، وأسلوب معالجة أمرهم بيّن، والمنافقون أكثر تغلغلا في مجتمع المسلمين، وأشد مكرا، واليهود أشد عداوة وغدرا، فقد أجمل الله تعالى حال الكفار بجميع أصنافهم في آيتين، لينبسط الشرح والتوضيح والكشف لمقاتل المنافقين في ثلاث عشرة آية بعدهما، ومفاسد اليهود فيما بعد ذلك، فقال: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُون خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} البقرة 7/6.

ولئن كان لفظ "الكفر" لغةً من أصل صحيح هو " ك. ف. ر"، فإنه يدل على معنى واحد هو الستر والتغطية, فيقال لمن غطى درعه بثوب قد كفر درعه، والكافر مجازا: الليل المظلم لأنه يستر كل شيء بظلمته، والنهر العظيم، والبحر، والزارع الذي يغطي البذور بالتراب، قال تعالى: {كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ} الحديد 20، والظالم الذي يحجب العدل ويغطيه بظلمه أو يجحد حق الأمة ويستره عنها ويغتصبه، ومن ترك الرمي بعدما تعلمه، وكذلك المعنى في كل أثر نبوي على هذا النحو يفيد جحودا لا يعد كفرا مخرجا من الملة، مثل ما روي عنه صلى الله عليه وسلم: (سِبابُ المسْلِمِ فُسُوق وَقِتالُهُ كُفْر)، (لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض)، (من حلف بغير الله فقد أشرك، أو كفر)، (اثنتان في الناس هما بهم كفر الطعن في النسب والنياحة على الميت)، (من نسي الرمي بعدما عُلِّمَه فقد كفر الذي عُلِّمَه)، (من ادعى إلى غير ابيه وهو يعلمه فقد كفر)، (من أُعْطِيَ عطاء فقدر أن يجزي به فليجز به ومن لم يقدر فليحسن الثناء فان لم يفعل فقد كفر النعمة)، (من ادعى إلى غير أبيه أو غير مواليه فقد كفر)، (من أبلى خيرا فليجاز عليه ومن لم يجد ما يجازي عليه فليشكره، من فعل فقد شكر ومن ترك فقد كفر)، ومنه أيضا ما روى البخاري وغيره من قوله عليه السلام في النساء من حديث الكسوف: (ورأيت النار فلم أر منظراً كاليوم قطّ أفظع ورأيت أكثر أهلها النساء) قيل: بِمَ يا رسول الله؟ قال: (بكفرهن)؛ قيل أيكفرن بالله؟ قال:(يكفرن العَشِير ويكفرن الإحسان، لو أحسنتَ إلى إحداهن الدهرَ كلّه ثم رأتْ منك شيئاً قالت: ما رأيت منك خيراً قط).

ذلك أن الكفر يأتي في بعض النصوص بمعنى جحود النعمة وكفرانها وترك أداء شكرها أو إخفائها، أو وصفا لبعض خصال الكفّار التي قد يرتكبها المسلم وهو مطمئن بالإيمان، وقد أَطلقه الشارع على بعض الذنوب على سبيل الزجر والتهديد، وإن كان لفظ "الكفران" أكثر استعمالا في هذا المعنى، كما قال تعالى: { فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ } الأنبياء 94.

وبهذا التعريف لا يعد كافرا كفرا مخرجا من الملة مذنبو الأمة الإسلامية بجحود نعمة أو بنسيان أو بسبق لسان، أو ارتكاب ذنوب والقلوب غير مستحلة للمعاصي، وقد ورد في الأثر: (لا تُكَفِّر أهْل قِبْلَتِك)، أي لا تصفهم بالكفر ولا تجعلهم كفارا بقولك أو تصرفك، ولكن هذا الأثر المنسوب للنبي صلى الله عليه وسلم ما بين ضعيف وَوَاهٍ.

أما الكفر المخرج من الملة، نقيض الإيمان، وصفة من لم يؤمن بالوحدانية، أو النبوة، أو الشريعة أو بثلاثتها، فيكون بالاعتقاد والقول والفعل، ويوجب الخلود في النار، ولفظه بالمصطلح القرآني: كَفَرَ بالله يَكْفُر كُفْراً وكُفُوراً وكُفْراناً، فهو كافر، إذا اعتقد الكفر، أو إذا أظهر الكفر لغير اضطرار شرعي، وإن لم يعتقد به، قال تعالى: { كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } البقرة 28، وقال: { مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } النحل106. وهو عند العلماء على ستة أنحاء، كفر إلحاد، وكفر شرك، وكفر إنكار، وكفر جحود، وكفر عناد، وكفر نفاق. فكفر الإلحاد هو موقف من ينفي وجود الله تعالى نظرا وعملا وينكر الأديان كلها، وكفر الشرك أن يجعل مع الله أو من دونه شريكا، وكفر الإنكار أن لا يعرف الله أصلا أو يشك في وجوده، أو في صدق الرسول صلى الله عليه وسلم، وكفر الجحود هو أن يعرف الحق بقلبه لكنه يرفض اتباعه أَشرا وبطرا واحتقارا له ولأهله ككفر إبليس لعنه الله، قال تعالى: " { فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ } البقرة 89، وقال: { وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا } النمل 14، وكفر العناد هو أن يعرف الحق بقلبه ويعترف بلسانه ولا يدين به حسداً وبغياً ككفر أَبي جهل وأَضرابه، وأما كفر النفاق فهو أن يقر باللسان ولا يعتقد بالقلب، كمنافقي الفترة المدنية، ومنافقي عصرنا هذا إذ جبهتهم الصحوة الإسلامية وهددت مكاسبهم، وجميع هذه الأنواع سواءٌ في أنها مخرجة من الملة، وأن من لقي الله تعالى بواحد منها لا يغفر له.

ولئن ذهب بعض المفسرين إلى أن هذه الآية { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ... } خاصة بالمجاهرين، فإنها في واقع سياقها وإطلاقها شاملة لجميع أنواع الكفر بالله تعالى، إنكارا وإلحادا، وجحودا وعنادا ومخاتلة ونفاقا، وإنما كان الإيجاز فيها توطئة للبسط فيما تلاها لأوصاف الفئات الكافرة الأشد خطورة، وهم المنافقون واليهود.

وسواء كان المقصود في هذه الآية كفار الفترة المكية أو المدنية أو الفترتين معا، فإنما يراد بها جنس كل من صمم على كفره تصميما لا يرعوي عنه، في كل زمان ومكان. ولئن ورد التعبير بصيغة الجمع معرفا، مما يفيد بظاهره العام استغراقَ جميع الكفار، وكان الخطاب القرآني يعبر بالعام أحيانا مع إرادته الخاص إذا توفرت القرينة الدالة على ذلك، وعلمنا أن كثيرا من الكفار أسلموا ويسلمون على مدار التاريخ، تأكد لنا أن الآية عامة ومعناها خاص بمن سبقت عليه كلمة العذاب، وهم كفار مخصوصون أصروا على الكفر وماتوا عليه، وقد علم الله كُفر من كَفَر ويكفر، كما علم إيمان من آمن ويؤمن، وأثبت علمه السابق في كتابه، وكل ميسر لما خلق له، قال تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ } يونس 96/ 97، وقال: { قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ } يونس101، وقال: { وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا

وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ } يوسف105، وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم كما روى عبد الله بن عمرو (يارسول الله إنا نقرأ من القرآن فنرجو ونقرأ من القرآن فنكاد أن نيأس فقال صلى الله عليه وسلم:(أفلا أخبركم عن أهل الجنة وأهل النار؟، قالوا: بلى يارسول الله، قال: { الم ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } هؤلاء أهل الجنة، قالوا: إنا نرجو أن نكون هؤلاء، ثم قال: { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } هؤلاء أهل النار، قالوا: لسنا هم يا رسول الله؟، قال: أجل).

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم، لشدة محبته للخلق يحرص على أن يؤمن جميع الناس، ويؤذيه إعراض بعضهم، ومناوأتهم له بالأذى، قولا أو عملا، فيقابل كل ذلك منهم بالصبر، وما يوم الطائف عنا بخفي، إذ دميت قدماه الشريفتان بحجارة المشركين وخيره ربه فيهم كما ذكرت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها فيما رواه مسلم عن عروة بن الزبير (أَنَّ عَائِشَةَ، زَوْجَ النَّبِيِّ حَدَّثَتْهُ أَنَّهَا قَالَتْ لِرَسُولِ اللهِ: يَا رَسُولَ اللهِ! هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ؟ فَقَالَ: لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ، وَكَانَ أَشَدُّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلاَلٍ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلاَّ بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ. فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ، فَنَادَانِي. فَقَالَ: إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ. قَالَ: فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ وَسَلَّمَ عَلَيَّ. ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ! إِنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَأَنَا مَلَكُ الْجِبَالِ، وَقَدْ بَعَثَنِي رَبُّكَ إِلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ. فَمَا شِئْتَ؟ إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ. فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلاَبِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ، لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً)، إلى غير ذلك من المواقف المؤثرة المثيرة، التي كان يواجهها عليه السلام بالمصابرة والمثابرة على الدعوة والإلحاح فيها، فأنزل الله تعالى عليه هذه الآية { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ... }، يخبره أنه لا يؤمن إلا من سبق له من علم الله السعادة، ولا يضل إلا من سبق له الشقاء، كما خاطبه بآيات أخرى بقوله: { أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآَهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ} فاطر8، { فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آَثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا } الكهف6، { لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ } الشعراء 3، مبينا عز وجل له أن هؤلاء قد غلب هواهم عقولَهم، وقهر جهلُهم علمَهم، فرأوا الباطل حقا والحق باطلا، والحسَنَ قبيحا والقبيح حسنا، فلا تهلك نفسك حسرة وحزنا بسبب غيهم وإصرارهم، ولا تغتمَّ لكفرهم وهلاكهم إن لم يؤمنوا، لأن أمرهم بيدي وإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب، وكذلك يقال للداعية في كل زمان ومكان، إذا رأى إدبار الخلق، ورفضهم معالم الحق، وعدم استجابتهم للنصح والإرشاد، فعليه أن يكتفِيَ بعلم الله فيهم، وألا يتأسّف على أحد

منهم، لأن التوفيق من الله تعالى، والقلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن، كما روى أحمد عن أنسٍ قالَ: كان رَسولُ الله يُكْثِرُ أنْ يقولَ:(يا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي على دِينِكَ)، فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ الله آمَنَّا بِكَ وَبِمَا جِئْتَ بِهِ فَهَلْ تَخَافُ عَلَيْنَا؟ قَالَ: (نَعَم، إِنَّ القُلُوبَ بَيْنَ أَصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الله يُقَلِّبُهَا كَيْفَ شَاءَ).

لقد خاطب الله تعالى نبيه الكريم عليه الصلاة والسلام في هذه الآية بلغة وظيفته الأولى التي بعث بها، وهي النِّذارَة، بقوله تعالى: { سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ}، لأنها هي أخطر مهمة تحملها، منذ خوطب في سورة المدثر بقوله عز وجل: { يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ } 10/1، منذ فجر البعثة إذ هبط من حراء فنُودي فنظر عن يمينه فلم ير شيئًا، ونظر عن شماله فلم ير شيئًا، ونظر أمامه فلم ير شيئًا، ونظر خلفه فلم ير شيئًا. فرفع رأسه فرأى جبريل بين السماء والأرض، فرعب وأتى خديجة فقال: دثروني وصبوا علي ماء باردا. فدثروه وصبوا عليه ماء باردا، فنزلت أول آيات وظيفته الجديدة أمرا بالإنذار فكان رسولا، بعد أن تلقى الأمر بالقراءة في سورة العلق فكان نبيا، فشمر عن ساعد الجد وساق العزم، وأنذر الناس يومهم العسير، ومآلهم غير اليسير، لقد كانت النِّذارَة أول ما أرسل به إلى الناس، ولذلك خاطبه ربه بلغتها إذ قال له: { سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ } .

لقد كان صلى الله عليه وسلم يعلم ثقل مسؤولية النِّذارة وخطورة شأنها، ولكن اللطف الإلهي يشمله دوما بعناية التثبيت، ويحضه على الصمود، مرة يلقنه أسلوب المخاطبة بالتحنن واللطف { قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ } الحج49، ومرة يرفع همته ويحرضه على الإنذار من موقف قوة وتحد { وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا } الفرقان 52/51، وتارة ينذره هو نفسه من عاقبة الركون إلى من أرسل إليهم من الكفار { وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا } الإسراء 75.

ولئن كانت النِّذارة أشد عناء في مجال الدعوة الإسلامية، لأن تخويف الناس من سوء المصير في الدنيا والآخرة، ولو أيقظ أنفسا حية فآمنت، يستعدي على الداعية غضب المصرين على الكفر من الجهلة والظلمة ويستفزهم، فإن رحمة الله تعالى قد خففت بهذه الآية عن الرسول صلى الله عليه وسلم من ثقل المسؤولية وعبء المؤونة، إذ بينت له أن من الناس من لن يؤمنوا، لما سبق في علم الله عنهم، وأن عليه أن يهدئ من روعه ويركن إلى حكمة ربه فلا يهلك نفسه غما وكمدا لإصرار الكافرين وإعراض الجاحدين.

إن نفوسا خلقها الله تعالى للجنة وأخرى خلقها للنار، قال تعالى: { وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ} هود 119، وقال صلى الله عليه وسلم: (إن الله عز وجل خلق آدم ثم أخذ الخلق من ظهره وقال: هؤلاء إلى

الجنة ولا أبالي وهؤلاء إلى النار ولا أبالي فقال قائل: يا رسول الله فعلى ماذا نعمل؟ قال: على مواقع القدر)، وليس على الرسول إلا البلاغ { وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ } العنكبوت18.

إن قلوبَ أهل الشِّقْوة منافذُ الهداية وقنواتُ تلقي الرشد فيها مقفلةٌ موصدةٌ، فلا أمل في تسلل الإيمان أو تسربه إلى نفوسهم، وقد ختم الله تعالى على أفئدتهم، لما رانَ عليها من تكبُّرٍ وتعالٍ على الحق، واستحبابٍ للعمى ورفْضٍ للتوبة إلى صراط الله المستقيم، فكان الجزاءُ الوفاق إركاسا في الضلالة وإغراقا لهم في العماية، قال تعالى: { فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ } الصف5.

لقد أساء الأدبَ قبلهم إبليس حسدا وكبرا { قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ } الأعراف12، فطرده الله تعالى وقال له: { اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا } الأعراف 18، وأساء الأدبَ قبلهم بنو إسرائيل فاعتدوا في السبت، واتخذوا عجلا له خوار، وقالوا لنبيهم: { فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ } المائدة24، فكان عاقبة أمرهم الخزي والذل والمسخ واللعنة { لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ } المائدة 79/78، وكذلك يطرد في كل زمان ومكان من أساء الأدب مع ربه بالإصرار على الكفر والجحود.

ولئن كان على قلوب هؤلاء الكفار أختامها وأقفالها، فإن أسماعهم أيضا مغلقة موصدة { وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ } الأعراف179، وأبصارهم التي عَشِيَتْ عن التمييز وعَمِيَتْ عن الهداية قد لَفَّتْها غشاوة الضلال { وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ }، { وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ } الأعراف198، { وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ } يونس43، { أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ } الجاثية23.

إن عقلية الأنعام التي تمسكوا بها وعكفوا عليها لم ترشدهم إلا إلى تصرفات الأنعام لذةَ طعامٍ وشرابٍ وتناسل، وزادوا على الأنعام أن عبدوا هذه اللذات، واتخذوها آلهة، ولذلك ختم الله على أسماعهم فلم يسمعوا الهدى، وعلى قلوبهم فلم تتشرب الهدى وجعل على أبصارهم غشاوة فلم تبصر الهدى، وهم لسفاهتهم هذه أحق بالعذاب العظيم الذي توعدهم به الرب عز وجل { وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ }.

يذكر المشتغلون بأسباب نزول القرآن أن هاتين الآيتين نزلتا في صناديد المشركين من قادة قريش، الذين قتلوا يوم بدر على الكفر، ولم يكن فيهم من مجيب أو مهتد أو ناج، ولم يؤمن منهم إلا رجلان هما أبو سفيان بن حَرْب، والحَكَم بن أبي

العاص بعد أن ذاقا مرارة الهزيمة وتجرعا علقم الإحباط، برؤية النصر المؤزر الذي أكرم الله تعالى به نبيه صلى الله عليه وسلم، بفتحه مكة وتحطيمه الأصنام، وعفوه عن المهزومين من موقف قوة وعز وتمكين، ولكن عموم الآيتين ينال المصرين على الكفر في كل زمان، لاشتمالهما على صفات وعلامات متى توفرت كان الإصرار والعناد والبعد عن الاهتداء.

ولئن كان العناد والإصرار صفة داخلية في النفس، فإن الآيتين بينتا للداعية علامات حسية ظاهرة، تدل على هذه النفسية المريضة، والعقلية المشوهة، أهم هذه العلامات أن تنصح للضال فلا يسمع، وأن تبصره فلا يبصر، وأن تتألف قلبه للحق فلا يقبل، وأن تستأنسه استدراجا للخير فلا يأنس، وأن تأخذه العزة بالإثم إذا أُنْذِرَ، ومن هذا طبْعُه على خطر عظيم، سواء كان من المسلمين أو من الكفار، لأنه يحمل بذور الختم على القلب بما ران عليه من عزة وشقاق واستكبار.

إن المسلم إذا كان طبعه العزة بما لديه، والاستهانة بالنصح الذي يوجه إليه، والإعراض عن الحق إذا يدعى إليه، والإصرار على هواه، يوشك أن يعمه الله بغضبه، فتنغلق في وجهه أبواب الرحمة والأوبة، وتفتح في وجهه أبواب الختم على القلب والسمع والتغشية على البصر، وما ذلك إلا لأن المعاصي ومشاعر الكبر والاستعلاء تتراكم على الأفئدة وتحف بها وتغلقها، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنّ المؤمنَ إذا أذنب ذنبًا كانت نُكْتة سوداءُ في قلبه، فإن تاب وَنزع واستغفر، صَقَلت قلبه، فإن زاد زادت حتى تُغْلق قلبه، فذلك الرَّانُ الذي قال عنه الله جل ثناؤه: { كَلا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } المطففين14. وقال مجاهد:" نبئت أن الذنوب على القلب تحف به من كل نواحيه حتى تلتقي عليه، فالتقاؤها عليه الطبع، والطبع الختم".

ويبقى تساؤل وجيه في مثل هذه الحالة، إن واجه الداعيةُ هذه النماذجَ من البشر مسلمين غافلين أو كفارا جاحدين، هل يعرض عن دعوتهم وتبصرتهم؟ أم يقتحم عليهم حصون الكبرياء والترفع والإصرار؟

إن لنا في القرآن الكريم وتوجيهات الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، نير البينات والتعاليم، ورشيد الأسوة الحسنة، فما فرط الكتاب إذ بين وأوضح، وما قصر الرسول إذ واظب على دعوة هذه النماذج البشرية إنذارا وتخويفا وبشارة وتأليفا، وصبر على أذاهم، موقنا أن له مهمتين في هذه الدنيا لايحيد عنهما، لا يقال عنهما ولا يستقيل: أن يهدي الناس للحق أولا { وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } الشورى52، وأن يقيم الحجة على المصرين ثانيا { رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ } النساء 165. وقد قام بالمهمتين خير قيام، وكذلك ورثة الأنبياء من العلماء والدعاة يهدون من كتب لهم الله الهداية، ويقيمون الحجة على من كتب لهم الشقاوة، وليس لهم من مكسب إلا رضا الله، { وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ } القصص68.

المنافقون:

أربعة محاور لشخصيتهم المريضة

قال الله تعالى: { وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ (8) يُخَادِعُونَ اللّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُم وَمَا يَشْعُرُونَ (9) فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (10) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (11) أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ (12) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُواْ أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاء أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاء وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ (13) وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُواْ إِنَّا مَعَكْمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (14) اللّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (15) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ (16) مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ (17) صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ (18) أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ واللّهُ مُحِيطٌ بِالْكافِرِينَ (19) يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاء لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّه عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (20) } سورة البقرة

بعد أن وصف الله تعالى حال المؤمنين الذين تواطأت قلوبهم وألسنتهم وأعمالهم على سمت واحد، إسلاما وإيمانا وإحسانا، عقب في آيتين موجزتين بحال المصرين على الكفر والجحود والعناد مشركين وأهل كتاب، من وافق سرهم علانيتهم في ذلك أو من تستر بنفاق ومخاتلة، ثم بسط في ثلاث عشرة آية حال طائفة من هؤلاء الكفار ممن أضمروا الكفر وأظهروا الإيمان، وهم المنافقون، لما لهذا الصنف من خطورة على المجتمع، تلبيسا في الدين، وتجسسا على المسلمين، وكشفا لعوراتهم وتعاونا مع أعدائهم.

ولعل من المفيد التذكير بأن المسلمين في الفترة المكية لم يعرفوا النفاق ولا أهله، فلم يكن إلا كافر مجاهر أو مؤمن مستضعَف، لا يُهاب جانبُه، ولا يضطر مشرك إلى منافقته، كما أن اللغة العربية لم تعرف لفظ النفاق بهذا المدلول إلا

بعد ظهور حركة النفاق في المدينة، وورود الكتاب والسنة به. واللفظ بذلك إسلامي بَحْتٌ نُقِل من أصل معناه اللغوي إلى معناه المصطلحي العقدي الجديد.

ذلك أن مادة" النون والفاء والقاف" في اللغة العربية أصلان صحيحان كما قال ابن فارس في مقاييس اللغة، يدل أحدهما على انقطاع شيء وذهابه، والآخرُ على إخفاء شيء وإغماضه، ومن الأصل الأول يقال: نَفَقَتِ الدابةُ إذا ماتت، ومن الأصل الثاني "النَّفَق" وهو جحر اليربوع وسَرَبُه، يتخذ له مخارج متعددة، أحدها يدعى النافقاء يغلقه بساتر ترابي رقيق، فإذا دهمه الخطر ضرب النافقاء برأسه فانتفق، أي خرج. قال تعالى: { وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ } الأنعام 35، ومنه اشتق لفظ النفاق الذي هو فعل المنافق، وقد اخْتُصَّ شرعا بالدخول في الإسلام من وجه والخروج عنه من آخر، كما يفعل اليربوع إذ يدخل نفقه من باب ويخرج من باب آخر.

وقد أطلق المصطلح الجديد أول الأمر قرآنيا على النفاق الاعتقادي المخرج من الملة، لأنه أول ما شاع في المجتمع عقب تنامي قوة المسلمين بانتصاراتهم السريعة في بدر وحنين وفتح مكة فأصبح يُخافُ جانبُهم وتُهابُ مكانتُهم، وأخذ ضعافُ الشخصية من المشركين وأهل الكتاب يعلنون الإيمان ويبطنون الكفر، كي يُحصِّنوا أموالهم ودماءهم.

بذلك ظهر في المجتمع الإسلامي ثلاثة أنواع من النفاق الاعتقادي: نفاق المعاندة، ونفاق الحيرة، ونفاق الجهالة.

فالمعاندون يضمرون الإصرار على ما ورثوه عن آبائهم من عقائد رافضين مراجعتها وعرضها للتمحيص والنقد، معرضين عن إخضاع ما لديهم للتحليل المنطقي والاستدلال العقلي.

والمتحيرون يضمرون التعلق بالمحسوسات والشك فيما عداها من المعقولات والغيبيات، وهم بذلك متحيرون فيما يلقى عليهم من أمر الدين بين ما لا تقبله حواسهم وبين ما يعرض على عقولهم وقلوبهم.

والجاهلون يضمرون اللامبالاة بالحال والمآل، وقد شغلهم اللهو والعبث والانكباب على الشهوات، عن التفكير في المحسوسات والمعقولات، أو التعصب لما ورثوا عن الآباء من عقائد وعادات.

ثم عندما انفرد المجتمع المسلم بالقوة والهيمنة وأصبح الكفار والمنافقون أقلية هينة، ظهرت بين بعض المسلمين تصرفات وخصال مخالفة لما أمر به الشرع، كالكذب وإخلاف الوعد وخيانة الأمانة والفجور عند الخصومة، مما حذر منه الرسول صلى الله عليه وسلم وسماه نفاقا زجرا عنه وتربية لأصحابه، فقال فيما رواه البخاري ومسلم وغيرهما: (أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ وَإِذَا حَدَّثَ

كَذَبَ وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ)، وقال الإمام علي رضي الله عنه: (لا تصحبِ المنافقَ، فإنه يزينُ لكَ فعلَه، ويَوَدُّ أن تكونَ مثلَه).

بذلك كان النفاق في الشرع نوعين: الأول نفاق اعتقادي مخرج من الملة، هو ما أبطن صاحبه الكفر وأظهر الإيمان بقوله وعمله، وما تقررت صفاته في مستهل سورة البقرة وفي سورة "المنافقون" و"الحشر" و"التوبة" و"النساء" وبث في سياقات أخرى كثيرة من القرآن الكريم، وعاقبته الخلود في النار إن لم تكن توبة، قال تعالى: { إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا } النساء145، والنوع الثاني من النفاق هو الأصغر، غير مخرج من الملة، متعلق بالسلوك والعمل والقلب محتفظ بالإيمان.

ولما كانت مهمةُ الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، ومهمةُ ورثتهم من العلماء والدعاة بعد التبليغ بشارةً ونذارةً، هي تنزيل الدين بأحكامه وتشريعاته وحركيته في المجتمع حيا يمشي على الأرض، فإن الله تعالى تكفل لنبيه صلى الله عليه وسلم بكشف ملابسات الواقع الذي يعمل فيه، بسلبياته وخلفياته، وفضح نشاط الأعداء المجاهرين والمتسترين، في آيات محكمات مجموعها يشكل قواعدَ لا تخطئ عند رصد حركة المتربصين بالعقيدة وأهلها في كل زمان ومكان، قواعدَ مرشدةً وهاديةً للأجيال المؤمنة المتعاقبة على حمل أمانة التبليغ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

لذلك كانت آيات سورة البقرة الخاصة بالمنافقين، مركزة على كشف تركيبتهم النفسية، وأسلوبِ مجادلتهم عن أنفسهم وتمويهِهِم على واقع انحرافهم، وطبيعةِ أمراضهم القلبية، وخبثِ طويتهم المعتلة، وهوانِ جِبِلَّتِهِم الخائرة الجبانة التي تحسب كل صيحة عليها.

ولئن أجملت الآيتان السابقتان { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ... } البقرة7/6 حالَ جميع أصناف الكفر بأبلغ عبارة وأشدها إيجازا وتوضيحا، فقد ثَنَّتِ الآياتُ بعدهما بكشف فئة من هؤلاء الكفار هم فئةُ المنافقين فقال تعالى: { وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آَمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ} البقرة 8.

إن من هؤلاء الكفار المعاندين الذين لا تفيد فيهم نِذارة ولا تنفعهم بشارة، طائفةً مختوما أيضا على قلوبها وأسماعها، وعلى أبصارها غشاوة، طائفةً حذر الله تعالى المؤمنين من أن يكونوا مثلهم فقال: { وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ } الأنفال 21، أي كالمنافقين الذين يظهرون الطاعة والإيمان ويُسِرُّون المعصيةَ والكفر، وجعلهم شَرَّ ما دَبَّ على وجه الأرض فقال: { إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ } الأنفال 22، أي المنافقون البُكْمُ عن قول الحق الصُّمُّ عن سماعه الجهلةُ لواقع كفرهم وعاقبة أمرهم، وهم لتمَيُّزِهم عن الكفار المجاهرين بالخبث والمخادعة والجبن والخور، أخطر على المجتمع المسلم من غيرهم، لاندساسِهم فيه ومعرفتِهم لأخباره وأسراره، وولائِهم السري لأعدائه

والمتربصين به، واستعدادِهم النفسي للمشاركة في أي مؤامرة عليه. ولئن قال تعالى عن عموم الكفار المعاندين: { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} البقرة6، فقد قال عن هؤلاء المنافقين: { سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ } المنافقون 6، وقال: { اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ } التوبة 80.

أول صفات هذا الصنف من الناس طبيعةُ الخنوثة فيهم، فلا هُمْ رجال بتمام رجولتهم، ولا إناث بكامل أنوثتهم، ومن الرجال عمر وخالد رضي الله عنهما، إذ جاهرا بالعداوة كفرا ثم جاهرا بالولاء للمسلمين إيمانا، ومن النساء زينب رضي الله عنها إذ واجهت الظلمة وأفحمتهم وهي أسيرة بين أيديهم، وغزالة التي دخلت الكوفة على الحجاج بن يوسف ففر من بين يديها وأغلق عليه قصره فقال فيه الشاعر:

أسدٌ علي وفي الحروب نعامةٌ ربداء تجفل من صفير الصافر

هلا برزت إلى غزالة في الوغى بل كان قلبك في جناحي طائر

صدعت غزالة قلبه بفوارسٍ تركت مدابره كأمس الدابر

أما المنافقون فهم خلق مشوه النفسية، لا يستطيعون أن يقفوا موقفا للرجال ولا موقفا للإناث، وتراهم يقولون آمنا جبنا وخوفا وخديعة وما هم بمؤمنين. هذه طبيعة المنافقين في كل عصر، خنوثةٌ في التركيبة النفسية، لا رجولةَ فيها ولا أنوثة، يتسللون لِواذاً من مجالس المؤمنين ليبلِّغوا أخبارَهم للظالمين وأعداء الدين، ويحللوا أعمالَهم وتصرفاتِهم وخفيَّ مقاصدهم ونواياهم لكل من يُغْدق العطاء ويملأ الدلو ويقرِّب الرِّشاء، فإذا انكشف أمرهم جادلوا عن أنفسهم بما لا يقبله عقل ولا يجيزه شرع. فإن كانت للظالمين جولة حمدوا شطارتهم وذكاءهم، وإن كان للمؤمنين نصر ادعوا مناصرتهم باندساسهم في محيط أعدائهم من الظالمين، فإن عوتبوا على ما يفعلون سموا نفاقهم سياسة ودهاء وشطارة وذكاء.

ولعل أبرز صفات الخنوثة فيهم أنهم لا يستقر لهم حال، مذبذبون في مواقفهم وأفكارهم، تنمو أجسادهم ولا تنمو عقولهم، رعاديد يحسبون كل صيحة عليهم، أفئدتهم كريشة في مهب الريح، لا يعول عليهم في حرب أو سلم، يخذلون الصديق ويسلمون الحليف و الرفيق، ولا ينصرون حتى أنفسهم في مواقف البلاء والضيق { ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آَمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ } المنافقون4/3، { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ

يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ } الحشر 12/11.

إن جِبِلَّةَ الخنوثة بما تتميز به من ميوعة هَيِّنَةٍ وخداع ذليل، باديةٌ حتى في أسلوب ادعائهم الإيمان بقولهم { آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ }، واقتصارِهم على ذكر الإيمان بالله واليوم الآخر مضمرين كيفية هذا الإيمان وصفته، ذلك أن إيمانهم في الحقيقة ليس كإيمان النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته، بل منهم من كان يضمر اليهودية أو النصرانية، وتصوره لله تعالى فاسد بالتجسيد ونسبة الولد له، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، ومنهم المنافقون من أصل الشرك متعلقون بالأوثان قربى وزلفى.

كذلك اقتصارُهم على ذكر الإيمان المجمَل بالله وباليوم الآخر، مجردُ تهرُّبٍ من ذكر الإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم وبالقرآن وما جاء به من تعاليم، ومحضُ تدليسٍ على المؤمنين بإيهامهم أن حيازة الإيمان بطرفيه، المبدأِ والمعادِ، كافيةٌ للتدليل على إيمانهم بما سوى ذلك، بل حتى لو قصدوا حقيقة الإيمان بالله واليوم والآخر لم يكن ذلك منهم كافيا لأنه لابد من الإقرار بما جاءت به الرسالة الخاتمة ونبيها صلى الله عليه وسلم، فكيف وما أعلنوه بأفواههم مجردُ خبث ومخادعة وتدليس وتلبيس.

من هذا التشوُّهِ النفسي للمنافقين تنبعث الانحرافاتُ الأخرى، وعلى رأسها الكذب، إذ الكذب صفة الضعيف الذي لا يطيق الصدق ولا يتحمله، لا يستطيع قوله ولا يستطيع سماعه، وهو من أخص صفات المنافقين، وعندما سئل الرسول صلى الله عليه وسلم هل يكذب المؤمن؟ قال:(إنما يفتري الكذبَ من لا يؤمن)، لذلك جاء القرآن بتكذيب دعواهم الإيمان ونفي مزاعمهم فيه بقوله تعالى { وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ }، كما أكذبهم في الآية الأولى من سورة "المنافقون" بقوله: { إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ }.

إن تكذيب الله تعالى لما ادَّعَوْهُ من الإيمان جاء على أبلغ صورة بيانية، إذ ورد بجملة اسمية منفية بقوله { وَمَا هُمْ...} ومؤكدة بالباء في قوله { بِمُؤْمِنِينَ }، فكشف خُلُوَّ قلوبهم من الإيمان على سبيل الإطلاق، سواء الإيمان بالله أو باليوم الآخر أو بالرسل أو الكتب أو الملائكة أو بغير ذلك مما جاءت به النبوة الخاتمة.

ثم بين سبحانه ما دفعهم لادعاء الإيمان فقال: { يُخَادِعُونَ الله والذين آمَنُوا}، والخداع صنو الكذب، من أمٍّ هي الخُنوثةُ وأبٍ هو النفاق. والخداع من أصل لغوي واحد معناه الإخفاء، من قولهم خَدَعَ الضبُّ إذا توارى في جحره ومَوَّهَ على صائده، والخَدْعُ أن يستر عنك وجهَ الصواب فيوقعك في مكروه، وخادَعَه مُخادَعة وخِداعاً، أي خَدَعه وأظهر له ما يوهِم السلامة والسداد، وأبطن ما يقتضي الإضرار به والتخلص منه.

وسواء كان لفظ"يخادعون" بمعنى يخدعون، أو بمعنى المفاعلة والمشاركة، وقد جلَّ الله عن المشاركة في المخادعة، وعن الخدع ابتداء وجزاء، وهو أعلى من أن يخادع المنافقين أو يخادعوه، أو يوقعوا في علمه خلاف ما يضمرونه، وهو يعلم سرهم ونجواهم وعلانيتهم ومدخلهم ومخرجهم ومشهدهم ومغيبهم، فإن المعنى في هذه الآية يشمل المخادعة والخدع، على اعتبار أن المنافقين لفساد تصورهم لله بما وقر في قلوبهم من تجسيد وتشبيه، يتوهمون أنه يجوز في حق الله ما يجوز في حق المخلوق، ويتخيلون إمكانية مخادعة الله وخداعه، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، وأن صيغة المفاعلة أيضا في أصلها للمبالغة، والفعل متى غولب فيه فاعله جاء أبلغ وأحكم منه إذا زاوله وحده، وصيغة "يُفاعِلُ" تقع كثيراً في اللغة للواحد نحو عاقَبْتُ اللِّصَّ وطارَقْت النعلَ.

على أن في الآية ما يعد مجازا بالحذف، بتقدير أن قوله تعالى: { يُخَادِعُونَ الله والذين آمَنُوا } معناه:" يخادعون رسول الله والذين آمنوا"، وقد ورد مثل هذا التعبير في القرآن كثيرا، مثل قوله تعالى: { إِنَّ الذين يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ الله } الفتح10، فذكر نفسه وأراد به رسوله، وقوله: { واعلموا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ } الأنفال41، فأضاف السهم الذي يأخذه الرسول إلى نفسه وهذا المعنى أقرب إلى التصور، على اعتبار أن المؤمنين بشر تجوز الخديعة عليهم، وتجوز في حقهم المخادعة، إلا أنهم أكرم من أن يخدعوا غيرهم، لأن ذلك مناف لأخلاق دينهم، وطبيعة رسالتهم واستعلاء نفوسهم عن حضيض الختل والخيانة، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (لا تخن من خانك).

ولعل من دقيق المعاني في هذه الآية الكريمة، إشارتها إلى الموالاة الراسخة بين الله تعالى وبين المؤمنين، إذ قرن اسمه الجليل بهم في قوله عز وجل: {...اللهَ والذينَ آمَنوا...}، فجعلهم في صفه، وجعل عدوهم عدوه، وحربهم حربه، ومعركتهم معركته، ونصرهم نصره، قال تعالى: { اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا } البقرة 257، { وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ } آل عمران68، { وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ } الجاثية 19، وفي الحديث القدسى الذي رواه البخاري: (إِنَّ اللَّهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ).

وإشارتان أخريان في الآية أولاهما للكفار والمنافقين فيها تهديد ووعيد ضمني بأن الله تعالى في صف المؤمنين حَرْبٌ على من يريد خداعهم أو ينوي الإضرار بهم، قال تعالى: { وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ } الأنفال62، فما ظنهم بقوم حسيبهم الله في مواجهة مكر الماكرين وغدر المخادعين؟.

والإشارة الثانية تطمين للمؤمنين بالمعية الإلهية والعون الرباني تقوية منه تعالى لنفوسهم، وتثبيتا لقلوبهم وتأكيدا للوثاق الذي واثقهم به على النصر في الدنيا تمكينا لهم وقهرا لأعدائهم، أو النصر استشهادا في سبيله وخلودا في الجنة مع الأنبياء والصديقين والشهداء.

لذلك عقب تعالى على محاولة المنافقين الخداع والمخادعة بتسفيه أحلامهم وتكذيب ظنونهم، وكشف خَطَل مكرهم وتفاهة كيدهم بقوله { وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ }.

وسواء قرئت "يخدعون " أو يخادعون" فالمعنى واحد والنتيجة واحدة هي أن وبال خداعهم يعود عليهم بافتضاح أمرهم في الدنيا واستيجابهم غضب الله في الدارين، والأنكى أنهم لا يشعرون بسوء ما يفعلون وخطورة ما ينتظرون. لا يشعرون بأن ما يمارسونه يوردهم العطب، ويجرعهم صاب العذاب وعلقم العقاب، ذلك أن المخادع يرتقب إحدى نتيجتين لخداعه، إما أن ينتج خيرا له ويحصل له ما يريد، وإما أن يَسْلَمَ لا له ولا عليه، وهؤلاء عاد خداعهم عليهم ضررا في الدنيا وعقوبة في الآخرة.

وهذه الآية تصريح واضح بَيِّنٌ بأن الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين معه لا يخدعون المنافقين ولا يخادعونهم، لأنها حصرت الخداع في المنافقين ابتداء وانتهاء مبادأة ومجازاة، فبينت أن مكرهم عائد عليهم {وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ} فاطر 43، وأشارت ضمنا إلى أن المؤمنين لهم مهمة واحدة هي صدق المناصحة للناس، وخلوص الرحمة لهم والشفقة عليهم والحرص على إنقاذهم.

ثم بَيَّن عز وجل أن سبب غباء عقولهم وتبَلُّد شعورهم وجهلهم بارتكاسهم في النفاق، وعمههم عن سبل النجاة، وعمائهم عما ينقذون به أنفسهم مما هم فيه من المخادعة التي ارتدت على وجوههم، هو فسادُ آلة الإدراك لديهم، إذ في قلوبهم مرض يعوق استخدامها فيما خلقت له، وفي تفكيرهم خلل يعوق عملية التمييز بين الصواب والخطأ وبين الحق والباطل، فقال سبحانه: { فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ }.

ولئن كان مرض القلب عادة يتضمن الشك في الحق، والشهوة للمحرمات، والضعف عن القيام بالواجبات، فإنه يعني في عمومه مرض جهل وخور وهوان وضَعَةٍ، أعقبهم أمراضا أخرى حسدا للمؤمنين وحقدا على الصادقين وكراهية للتائبين، وبغضا للثابتين على الصراط المستقيم، وولدت هذه الأمراض بدورها في نفوسهم عللا أخرى من الهم والغم والحزن والكمد والحيرة والخوف الدائم والهلع المقيم. مع ما يتبع ذلك في الآخرة من العذاب الأليم الموجع. جزاء وفاقا لما يمارسونه من كذب على الله وعلى المؤمنين، وتكذيب للرسول صلى الله عليه وسلم وما جاء به من الحق المبين.

ولئن كان الكفار المجاهرون قد حددوا موقفهم من الدين الجديد وأهله، بكل وضوح، فإن هؤلاء المنافقين تحولوا بأمراض قلوبهم وتشوه خلقتهم النفسية إلى آلة للفساد متحركةٍ في المجتمع بطرفيه المؤمنِ والكافرِ، تثبيتا للكفار على كفرهم، وتحريضا على محاربة المسلمين ومواجهتهم، وتشكيكا في العقيدة وتخذيلا لأهلها، وتجسسا على المؤمنين وكشفا لأخبارهم وأسرارهم، واستهزاء وسخرية بهم، وإشاعة للأكاذيب والأراجيف عنهم، وإصرارا على ما نذروا أنفسهم له من شر، حتى إنهم كانوا يرون فسادَهم عينَ الصلاح، فيناظرون عليه ويجادلون عنه بمختلف الشُّبَهِ، كما هو حال منافقي الصحوة المعاصرة الذين خانوها وانطلقوا يتكسبون بأسرارها ويرتزقون بأخبارها ويتهافتون على المناصب لدى الظالمين بمساعدتهم على محاولة إضعافها وتخريبها، ويزعمون أن ما يقومون به هو الإصلاح الحقيقي { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ }.

ولما كان بين المسلمين من قد يتأثر بشيطنة المنافقين ويغتر بشبهاتهم، لا سيما والمؤمن في بعض أحواله غرّ كريم والمنافق خِبّ لئيم، فقد حذر سبحانه من الركون إلى المنافقين، مثبتا فسادهم الكامل المتأصل فيهم، إثباتا قطعيا مؤكدا بحرف التوكيد" إن" والجملة الإسمية بعدها فقال: { أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ }، وما انعدامُ شعورهم بإفسادهم إلا لأن الفساد صار جزءا من تركيبتهم النفسية، وسجيةً في طبيعتهم السلوكية، لا يشعرون بأي غرابة له في خَلْقِهم وأخلاقهم.

ولئن نزلت هذه الآية في منافقي الفترة المدنية فإن المعول عليه في معناها هو عموم اللفظ، ولذلك ذكر ابن عباس أنها تعني المنافقين الذين كانوا يبررون مواقفهم بقولهم: "إنما نريد الإصلاحَ بين الفريقين من المؤمنين وأهل الكتاب"، في حين أن سلمان الفارسي قال عن المقصودين بها:" ما جاء هؤلاء بعدُ "، وكلا القولين يعكس وعيا حركيا وعقديا لدى صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم تفتقده الدعوة الإسلامية في كثير من عصورها، ولعلنا نتذكر كيف ينشق عن الركب المسلم من يتقرب إلى مختلف الطوائف الضالة مدعيا محاولة توحيد المسلمين تحت رايات عِمِّيَّةٍ، جامعةٍ كما يزعم، قوميةً أو وطنيةً أو ديمقراطية أو لبرالية أو اشتراكية. وما بهم من توحيد، إن يريدون إلا ارتزاقا ونصبا.

إن إصرار المنافقين على ادعاء الإصلاح وهم المفسدون لا يوازيه جهلا ونزقا إلا كبرياؤهم الزائفة وتعاليهم على المؤمنين، واحتقارهم لساداتهم من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولعل ناصحا مشفقا بهم قد يكون الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه وقد يكون غيره من المؤمنين، قد حاول ردهم عن غيهم واستدراجهم إلى الإيمان الصحيح المقبول، فعتوا وتكبروا واعتزوا بما لديهم من انحراف عقدي، وسوء خلق في الرد والرفض، فأنزل الله تعالى فيهم قوله { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ }. وهي آية في غاية الوضوح لما ينبغي أن يكون عليه الإيمان.

ذلك أن الناس المقْتَدَى بهم في الإيمان كما ورد في قوله تعالى: { كَمَا آمَنَ النَّاسُ} هم صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهم سلفنا الصالح الذين شهد الله لهم بالإيمان الحق وجعلهم قدوة فيه، لأن عقيدتهم صافية، لا تعطيل فيها ولا تشبيه ولا تجسيد، ولا قولا بغير علم، وأثنى على معيتهم لرسوله واتباعهم لسنته وهديه فقال: { مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا } الفتح29، وقال: {وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} التوبة100، وتوعد من لم يتبع سبيلهم بسوء المصير فقال: { وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا } النساء 115.

لقد كان إيمان المنافقين الحقيقي هو ما احتفظوا به من أصل ديانتهم الموروثة، شركيةً تتخذ الأوثان أربابا وواسطة، أو يهوديةً ونصرانيةً تتصور الله تعالى والغيب بكل مقوماته على غير ما ينبغي، لذلك أرشدهم الناصح لهم إلى نموذج حي للإيمان هم صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين يعايشونهم في بلدتهم ويتعاملون معهم في الحياة العامة.

وكان حريا بالمنافقين المبادرة إلى استيعاب هذه النصيحة الموجهة إليهم، بالتخلص من أمراض قلوبهم لتُمْلأَ بالإيمان الحق، وبتطهير ألسنتهم من الكذب لتنطق بالشهادتين صادقة، وبتزكية أعمالهم من الرجس ليقيموا أركان الإسلام في تصرفاتهم وعباداتهم ومعاملاتهم، إلا أن جهلهم غلب أحلامهم، وسَفَهَهُمْ غطى على معالم الرشد فيهم، فأخذتهم العزة بالإثم وطغى عليهم الحسد للصحابة والبغض لهم فكان ردهم الاعتباطي المزاجي المرتجل: {أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ؟}، وهو استفهام إنكاري قصدوا به التبرؤ من الإيمان على أبلغ وجه، والتعريض بصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبما نالهم من الأذى في سبيل الله هجرة عن الأوطان، ومفارقة للزوج والولد، وخسارة للأموال والمكاسب، ومعاداة للأهل والأقارب، واستشهادا في الجهاد، وهو ما قصدوه وسموا به الإيمان والبلاء فيه سفاهة. والكفر والنفاق تعقلا ورشدا، ولذلك رد رب العزة عليهم، وأخبر أنهم هم السفهاء على الحقيقة بقوله {أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ}.

ولئن كان الرشد وتمام العقل هو معرفة المرء بمصالحه القريبة والبعيدة الدنيوية والأخروية، وكان السفه والسفاهة والجهل والتصرف بمقتضى الهوى والمزاجية وردود الفعل الاعتباطية، وفساد البصيرة وخفة الأحلام هو ما تميز به المنافقون في أقوالهم وأعمالهم وردودهم، فإن حقيقة السفه منطبقة عليهم متلبسة بهم. إذ السفيه لغة وعرفا هو الجاهل ضعيف الرّأي قليل المعرفة بمواضع المصالح والمضار؛ ولهذا سمى الله عز وجل الصبيانَ والمجانين والمتخلفين عقليا والذين لا يحسنون التصرف في المال من النساء والرجال سفهاءَ بقوله: {وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا} النساء 5.

وبعد أن أثبت الله تعالى في حقهم السفاهة، عقب تقريرا لجهلهم المطبق بقوله (وَلَكِنْ لا يَعْلَمُونَ} أي أن من تمام سفههم أن جهلهم مركب، فهم ضلال ويجهلون أنهم ضلال، وهو أبلغ وصف لبعدهم عن الهداية. ولما كان الأمر في الآية السابقة بترك الفساد معطوفا عليه بوصفهم بانعدام الشعور {ولكن لايشعرون} لأن الفساد مدرك بالحواس المشتركة بين المنافقين والبهائم، فإنه تعالى في آية الأمر بالإيمان عقب بقوله {ولكن لا يعلمون}، لأن العلم نقيض الجهل، ولأن الإيمان من مدركات الفكر وإمعان النظر، وهو منفي عنهم للسفاهة المطبقة على عقولهم، فناسب ذلك وصفهم بقوله تعالى فيهم {ولكن لا يعلمون}.

ثم لما بين تعالى أقوالهم في الآية الأولى {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا...}، وفي الآية الثانية ردودهم على النصيحة بترك الفساد {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ...}، وفي الآية الثالثة ردودهم على دعوة الإيمان الحق {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ...}، انتقل من تبيان الأقوال إلى كشف سيرتهم في التصرفات والأعمال، فقال عز وجل: {وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ}، وتم بذلك الختم على القلوب، وأطبق الصمم على الأسماع والبكم على الألسن والغشاوة على الأبصار.

ودلت الآية على أن المنافقين لضعف نفوسهم وغباء عقولهم لم يكونوا إلا مؤتمرين بأسياد لهم في الكفر (شياطينهم) يخشونهم ويخافونهم، ويلجأون إليهم كل حين مؤكدين ولاءهم وتبعيتهم وذيليتهم، وذلك شأن المنافقين في كل زمان ومكان، لذلك تراهم مذبذبين بين أسيادهم من أئمة الكفر وصناديده، وبين المؤمنين بالله ورسوله، يطمئنون الكفار بثباتهم على الضلال وتشبثهم بالجحود وبقاء موقفهم معهم وولائهم لهم، بجملة اسمية مؤكدة بحرف النصب والتأكيد "إن"، ويبررون لهم ملاينتهم الشكلية للمسلمين بأنها مجرد استهزاء وسخرية بأهل الإيمان، ويتلافون انكشاف أمرهم لدى المؤمنين بقولهم لهم بصيغة الماضي غير المؤكد (آمَنَّا)، فهم في تعاقبهم بين الكفار والمسلمين كالشاة العائرة بين غنمين، كما وصفهم أبلغ وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: (مثل المنافق مثل الشاة العائرة بين الغنمين تَعير إلى هذه مرة وإلى هذه مرة، ولا تدري أيهما تتبع) وفي رواية (مثل المنافق مثل الشاة العائرة بين الغنمين إذا أتت هذه نطحتها وإذا أتت هذه نطحتها)، وكما ورد في شرح سنن النسائي: (العائرة: أَيْ الْمُتَرَدِّدَة بَيْن قَطِيعَيْنِ مِنْ الْغَنَم وَهِيَ الَّتِي تَطْلُب الْفَحْل فَتَتَرَدَّد بَيْن قَطِيعَيْنِ وَلَا تَسْتَقِرّ مَعَ أحدهما وَالْمُنَافِق مَعَ الْمُؤْمِنِينَ بِظَاهِرِهِ، وَمَعَ الْمُشْرِكِينَ بِبَاطِنِهِ تَبَعًا لِهَوَاهُ وعرضه الْفَاسِد فَصَارَ بِمَنْزِلَةِ تِلْكَ الشَّاة، وَفِيهِ سَلْب الرُّجُولِيَّة عَنْ الْمُنَافِقِين).

ولئن كان الاستهزاء لغة من فعل هَزَأَ منه، وبه، كمنع وسَمِعَ، هُزْءاً وهُزُؤاً ومَهْزَأَةً أي سَخِرَ، فإن اعتذار المنافقين لشياطينهم من الكفار جاء مطلقا بقولهم { إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ }، أي نستهزئ ونسخر من الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين معه، مما يبين طبيعة نفوسهم الهازلة الخائرة، التي لم تألف الجد والحزم في حياتها، فصار التهاون والتساخر سجية لازمة لهم

في جميع أمرهم، والغفلة عن الحال والمآل والمسير والمصير سمة ممارساتهم اليومية، ولذلك عندما عرض عليهم الإيمان حجبتهم غشاوة التساخر في قلوبهم عن أخذ الأمر بجد وواجهوه بالاستهزاء، فكان جزاء هذا الموقف الأحمق الأرعن منهم قوله تعالى في حقهم: { اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ }.

ولأن المكر والخداع والسخرية على وجه اللعب والعبث منتف عن الله عز وجل بالإجماع، فإن استهزاء الله بهم على وجهين:

الأول أن يكون المنافقون مهزأة في الدنيا والآخرة، في الدنيا إذ أخبر الله تعالى المؤمنين بحال المنافقين وأسرارهم ومخاتلتهم، وهم يظنون أن أمرهم مستور، وفي الآخرة في قوله تعالى: { يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ } الحديد: 13، وقوله تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ } 36/29.

والثاني باعتبار أن يكون معنى { اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ }: يجازيهم على هزئهم كما هو المختار عند أهل اللغة، أي يجازيهم جزاء استهزائهم، وقد سمى جزاء الذنب باسمه لأنه في مقابلته، كما قال أيضا: { وجزاءُ سَيِّئةٍ سَيِّئةٌ مِثلُها }، فالثانية ليست بِسَيِّئة في الحقيقة إنما سميت سيئة لازْدِواجِ الكلام. وهذا منه تعالى عين العدل، إذ شرحه بقوله { وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ } أي أنه تعالى يمهلهم {وَيَمُدُّهُمْ }، ويكلهم إلى ضلالهم وغلوهم وتطرفهم في الكفر { طُغْيانِهِم) الذي يتمسكون به، { يَعْمَهُونَ } يتحيرون عُمْيَ البصر والبصيرة. قال تعالى: { وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ } الأعراف183/182.

بهذه الآيات الكريمة الأربع: { وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا...} و { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا...) و { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ...} و { وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا....}، تُسْتَجْمَع المحاور الأربعة المكوِّنة لشخصية المنافق في كل زمان ومكان، وقد أوجزها رب العزة تعالى في أول سورة البقرة بأسلوب سهل ممتنع جامع مانع، ونثر في غيرها من السور الأخرى إضاءاتٍ لهذه المحاور ممارساتٍ للمنافقين وتصرفاتٍ وأعمالا، وسواء كان النفاقُ أكبرَ، مخرجا من الملة، أو أصغرَ، قاصرا على الأعمال، فإن هذه الآيات الكريمة ترسم ملامح أهل النفاق بصنفيه العقدي والسلوكي رسما معبرا رهيبا فاضحا، لأن النفوس إذا ما ألفت النفاق السلوكي وارتاضت عليه وألفت المجادلة عن الباطل بالشبه، ودفع الحق بالمتشابه، وصار ذلك فيها سجية وطبعا، كان انتقالها إلى النفاق الأكبر أسهل وأقرب.

وبعد أن تمت نعمة الله على المؤمنين بهتك أسرار النفاق وفضح مكره وكيده، شفى صدورهم وأذهب غيظ قلوبهم وكشف لهم عاقبة المنافقين ومآل أمرهم وأصدر في حقهم حكمه العادل الصارم، فقال: { أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ }.

لقد استخدم القرآن في هذه الآية الكريمة لغة التجارة، بيعا وشراء وربحا وخسارة، إشارة منه تعالى إلى طبيعة عمل المؤمن في الحياة الدنيا وهي كما قال عز وجل: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } الصف 11/10، وقال: { إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ } فاطر29، وقال صلى الله عليه وسلم:(النَّاسُ غَادِيَانِ فَمُبْتَاعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا وَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُوبِقُهَا)، وفي رواية أخرى:(النَّاسُ غَادِيَانِ فَغَادٍ بَائِعٌ نَفْسَهُ وَمُوبِقٌ رَقَبَتَهُ وَغَادٍ مُبْتَاعٌ نَفْسَهُ وَمُعْتِقٌ رَقَبَتَه)، أي أن الناس كالتجار في الدنيا، ما بين بائع نفسه للشيطان فمهلكها، ومشترٍ نجاته بالطاعة والإيمان والعمل الصالح فمعتقها من النار، وإذا كانت هذه هي التجارة الحقة المنقذة من ضلال الدنيا وعذاب الآخرة، فإن تجارة المنافقين بائرة خاسرة، لأنهم باعوا الهدى بالزهد فيه والإعراض عنه، واشتروا الضلالة واستحبوها وآثروها ظنا منهم أنها فلاح ونجاح وربح، فكانت محصلة تَجْرِهم، خسارة مزدوجة، خسارة للآخرة خلودا في النار، وخسارة في الدنيا بالهوان والذل والخروج من الجماعة إلى الفرقة، ومن الأمن إلى الخوف ومن نور البصيرة إلى عَمَهِ العقول والأبصار { وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ } الحج18.

وبعد أن استجمعت هذه الآيات محاور صفات المنافقين، كان الالتفات إلى أسلوب آخر تتم به المعاني وتتضح به المقاصد، هو أسلوب ضرب الأمثال، وهو نهج يعرفه العرب ويجيدونه، ولهم فيه مسار ومضمار، يجمعون فيه بين إيجاز اللفظ وحسن التشبيه وإصابة المعنى، ولذلك استخدمه القرآن الكريم والسنة النبوية، تربية وتعليما وتفهيما، لما للناس من اختلاف في مستويات الإدراك والوعي، قال تعالى: { وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ } العنكبوت 43، { وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُون } إبراهيم 25.

على هذا النهج ضرب الله تعالى للمنافقين مثلين في غاية الدقة والوضوح والصحة:

المثل الأول بقوله تعالى: { مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُون صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُون }، فشبههم إذ استجمعوا صفات النفاق واستحبوا الضلالة على الهدى وآل أمرهم إلى عَمَهِ الرأي وعمى البصر والبصيرة والصمم عن استماع الذكر، بالتائه في مجهل من الأرض، بليلة ظلماء، لا ضوء فيها للقمر المنير ولا للنجوم الهادية، يحاول الرجوع إلى موطنه، ولا يعرف لطريقه أعلاما أو معالم، فاستوقد نارا أضاءت له لحظة قصيرة، ما كاد فيها يرى ما حوله ويستدل على طريقه حتى فقد السمع والنطق والبصر، ووجد نفسه

فجأة في الظلام الحالك والسواد القاتم البهيم، عاجزا عن الاستفادة من ضوء النار ومعرفة الطريق، وعن الاستهداء بغيره سؤالا أو تلقي جواب نطقا أو إشارة، لفقده البصر الذي به يرى النور والإشارة، واللسان الذي به يسأل ويستفهم، والسمع الذي به يتلقى النصح والتوجيه والإرشاد. فملأت الصدمة قلبه خوفا وهلعا واضطرابا، وفقد أهم أدوات الإدراك، ولم يبق له قدرة على الرجوع إلى حاله الأول استيقادا للنار وطمأنينة بصر وإبصار، وعودة إلى الأهل والديار، وهو مثل يصف حال المنافقين أدق وصف، إذ جاءهم نور النبوة والوحي وبلغهم بالأدلة الكافية الشافية المقنعة، ولكنهم حرموا من نور البصيرة فعموا عن الهدى، وصموا عن الاستماع والاتباع، وخرست ألسنتهم عن الإجابة والاستجابة والنطق والتعبير، فتشوهت طباعهم، وفسدت نفوسهم، وسقطت هممهم، وتعذر عليهم الرجوع إلى الفطرة الأولى التي خلقهم الله تعالى عليها، الفطرة التي تستمع الذكر، صافية طيبة وثيقة الصلة بالغيب والشهود، مبصرة للحال والمآل متبصرة بمخاطر المورد وعاقبة الورود. { فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا } الروم 30.

أما المثل الثاني فقوله تعالى: { أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }، وكأن المنافقين في هذا المثل تائهون في مجهل أرض مضلة، بليل بهيم مظلم وشتاء قاسٍ كَلِبٍ، زاده انصباب المطر إظلاما، وتناوح الرياح رعبا، وهزيم الرعد هولا، وقاصف الصواعق إرهابا، وخاطف البرق تلجلجا واضطرابا، وارتقاب الهلاك ومظنة الموت بهذه المخاطر هلعا وخوفا، فجعلوا أصابعهم في آذانهم كي لا يسمعوا نذر الهلاك المحدق بهم.

وإذا كان المنافقون في المثل الأول قد ذهبت أبصارهم وأسماعهم شقاوة فلم يستفيدوا من الوحي، فإنهم في هذا المثل محتفظون بأسماعهم وأبصارهم وجميع حواسهم ليزدادوا عذابا وألما وتعاسة ورعبا، وشعورا بهول المتاهة والضلال، وهم لِمَا رَانَ على قلوبهم من ظلمات الريب والتردد، كلما قصفهم وعد الله بالجنة للمؤمنين ازدادوا غما وحسدا وغيظا وخوفا من أن يكون ذلك حقا، أو قرعت أعماقهم وصكت وجوههم وصفعت أقفاءهم قواصف الوعيد للمعرضين، وإحاطة الله الكاملة بالكافرين، ازدادوا محنة وحسرة واضطرابا وحيرة من احتمال أن يكون ذلك حقيقة، وهم عاجزون عن التحرر من قيود النفاق وأغلال الشك، مذبذبون بين القيام والقعود بين الهداية والضلالة، وعذابُ الله لا محالةَ بهم واقعٌ، ما له عنهم من دافع.

هذه هي المحاور الأربعة التي هي مفتاح شخصية المنافق أوجزها رب العزة بأبلغ عبارة وأسبغ عليها تلوينات معبرة من مثلين أضفيا عليها حركية حية تمشي بين الناس، وتسعى فيهم عبرة لمن يعتبر وتذكرة لمن يتذكر، سِمَتُها المخادعةُ بالكذب وإظهارُ غير ما يُبْطَن أولا، وقلب حقائق الأشياء بتسمية الفساد إصلاحا ثانيا، والاستعلاء على أهل الحق واحتقارهم

ثالثا، والاستهزاء بالمؤمنين مع الخنوع للشياطين من الأقوياء وأصحاب النفوذ والجاه رابعا، مع ما ينبعث من هذه السِّمَاتِ اضطرابا في السلوك والمعاملة والنوايا والأهداف والمقاصد، وهي صفات يشترك فيها منافقو الأمس واليوم والغد.

منافقو الأمس في عهد النبوة هم مؤسسو حركة النفاق والقدوة فيها وروادها السابقون، أما منافقو اليوم فهم التابعون لهم من الذين أعقبهم الله نفاقا في قلوبهم من حيث يدرون أو لا يدرون.

ولئن كان منافقو الأمس من أخطر العناصر على الدعوة الإسلامية في مرحلة النشوء والانتشار، فإن منافقي اليوم كذلك أسوأ وباءٍ يهدد الصحوة الإسلامية المعاصرة في مرحلة الإحياء والانبعاث، وقد دأب طواغيت العصر، كلما خفيت عنهم أسرارها ومقاتلها، على التلويح بالمال والمنصب، لضعاف الإيمان، وخائري الشخصية أمام حطام الدنيا من أعضائها، فينقلبون على أعقابهم تخريبا للدعوة ومحاربة للصادقين، والأمثالُ الحية لهذه الكائنات الطفيلية المنافقة أمام أعين الدعاة في كل قطر. وليس للمؤمنين إلا أن يطمئنوا لنصر الله، على رغم ما ينفقه الظالمون ويبذلون { فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ } الأنفال 36.

ولئن كان مرض النفاق السياسي المعاصر قد عصف بسلوك كثير من ضعاف الإيمان فإنه قد استدرج معتنقيه إلى مشارف النفاق العقدي وإن لم يقتحموه بعد، على أن ملامح المحاور الأربعة المكونة للشخصية المنافقة تتلاحم في ثنايا التصرفات والمواقف، وهم على خطر من أمر دينهم وعقيدتهم. أما النفاق العملي كبائرَ وآفاتٍ فمما لا ينكره مكابر أو يجحده مجادل.

ثم في ختام هذا الرسم البياني للنفاق وأهله، عقب تعالى على هذه اللوحة المعبرة في سورة البقرة تتميما لها وإحاطة رائعة بها، بتقرير حقيقة عقدية تملأ قلوب المؤمنين أملا وثقة بربهم، وقلوب المنافقين رعبا من المصير المحتوم فقال: { إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }، فليحذر المنافقون بأسه وسطوته وقدرته { إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ } المطففين16/15، وليعبد المؤمنون ربهم رهبا ورغبا وثقة { إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ } الأنبياء 90.

نداء واحد ومصيران مختلفان

قال الله تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (21) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (22) وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (23) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (24) وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (25) } سورة البقرة

هذه الآيات الكريمة امتداد لما سبقها في سورة الفاتحة وأوائل البقرة، ذلك أن الله تعالى عندما حض في الفاتحة على اتباع سبيل المنعم عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين، وزاد الأمر توضيحا في مستهل البقرة فبين صفات عباده المتقين، وصفات الكفار المجاهرين والمتسترين، من أهل الكتاب والمشركين، توجه بالخطاب إلى جميع المكلفين مؤمنين أتقياء، وكفارا معالنين ومنافقين، مستدعيا إصغاءهم بنوع من الالتفات البلاغي الجزل فقال: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ }.

وهذه التسوية في الخطاب بين الناس على اختلاف مواقفهم ومعتقداتهم، هي منه تعالى عين العدل والإحسان، قال تعالى: { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ } النحل 90.والعدل منه تعالى إنصاف، والإحسان تفضل.

العدلُ أنَّ الأمر موجه لجميعهم، لتكون المحاسبة يوم القيامة على قدر ما بلغهم حجةً عليهم، { قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ }، والجزاءُ على قدر استجابتهم للدعوة.

أما الإحسان منه تعالى فهو جمعه في الخطاب بين أوليائه المؤمنين، وبين عصاته الكافرين، وهذا منه إحسان للمؤمنين حماية لهم من الغرور والرياء والعجب، إذ لا يدخل أحد الجنة إلا برحمته تعالى، وإحسان لغير المؤمنين إن استجابوا، تنشيطا لهممهم ورفعا لمعنوياتهم وترغيبا لهم في التوبة والأوبة والطاعة، في طيه إقامة حجة عليهم إن عصوا وأعرضوا وتمادوا في الجحود.

ولعل من دقائق الرحمة الإلهية، في هذا الخطاب، ما روي عن ابن عباس ومجاهد وعلقمة أنهم قالوا:(كل شيء نزل فيه { يَا أَيُّهَا النَّاسُ } فهو مكي، و { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا } فهو مدني)، فكانت بذلك { يَا أَيُّهَا النَّاسُ } في مكة خطابا للمشركين من قريش، و { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا } خطابا للمؤمنين في المدينة، ولكن { يَا أَيُّهَا النَّاسُ } جاءت في أول سورة البقرة وهي مدنية، خطابا للجميع مؤمنين وكفارا، وهو عين العدل والإحسان منه تعالى للمؤمنين المطيعين، والكفار المتنطعين، كما جاءت في سور مدنية أخرى قريبا من نفس السياق وبإضافات تنبسط بها المعاني وتتضح، كما في قوله تعالى في سورتي النساء والحجرات وهما مدنيتان: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا } النساء1، { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ } الحجرات13.

ولقد ورد الخطاب للناس جميعا مرة أخرى في سورة البقرة نفسها، تعقيبا منه تعالى على تذكيره العباد بآيات خلقه السماواتِ والأرضَ والليلَ والنهارَ والفلكَ التي تجري في البحر وما أنزل من السماء من ماء، وتصريف الرياح والسحاب، وكشفِه لتنازع الأتباع والمتبوعين والأنداد يوم القيامة إذ يتبرؤون من بعضهم، فقال: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ } البقرة169/168، وهي آيات تضيف بسطا ضروريا وحركية حية، وبعدا جديدا لعواقب اتخاذ الأنداد، واتباع المخاليق بالباطل.

هذا الحشر لجميع المكلفين مؤمنين وغيرهم في خطاب واحد بقوله تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ}، على ما فيه من تلطف وإعذار، يذكر بموقف لهم جميعا على صعيد واحد سبق منه التحذير والإنذار، إنه يوم القيامة، يوم العرض والحساب، قبل أن يفرز السعداء من الأشقياء وأهل الجنة من أهل النار { يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ } غافر16، { وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا } الكهف49/48.

ولئن كانت هذه الآية الكريمة أولَ نداء رحماني في الترتيب المصحفي للقرآن، بمثابة عروة وثقى تلقى للإنسان فيستمسك بها السعداء وتكون حجة على الأشقياء، فإن مضمونها يشمل التصور الإسلامي متكاملا بجميع كلياته وجزئياته. لأن الأمر فيها ورد بعبادة رب العباد، تأسيا برسوله العبد الصادق صلى الله عليه وسلم واتباعا له، وهي إشارة واضحة إلى مفهوم الألوهية والربوبية والنبوة الخاتمة.

وإذا كانت الربوبية معترفا بها لدى المشركين وأهل الكتاب، لأنهم يعرفون أن الخالق هو الله تعالى، فإن كفرهم جاء من إعراضهم عن تخصيصه عز وجل بالعبادة نوايا وأعمالا، وريبهم في النبوة وما جاءت به من وحي، ولذلك كان الأمر بقوله تعالى { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ } مقرونا بتذكيرهم بمظاهر الربوبية التي يعترفون بها، وإشعارهم بالعجز عن معارضة ما جاءت به النبوة من كلام الله تعالى.

إن أهلَ الكتاب يعرفون أن الذي خلقهم هو الله تعالى، ولكن تصورهم له سبحانه متلبس بتحريف وعبادتهم مشوبة بضلال، والمشركون كذلك يعترفون بأن الله هو الخالق { وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ } العنكبوت61، ولكنهم يتقربون إليه بعبادة الأوثان { وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى } الزمر3، ولذلك خوطب الجميع بصفة الربوبية التي يعرفونها ويعترفون بها فقيل لهم { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ }، ربكم الذي أنشأكم ورعاكم بربوبيته. فالله عز وجل هو { الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ }، وُجودُكم بفضله وَوُجودُ آبائكم من خلقه، ووجودُ من يأتي بعدكم من صنعه، وكل ما يحيط بكم وتستعملونه لمعاشكم أوجده لكم وسخره لخدمتكم، وعبادتُكم له لعلها تكون صوابا، فتتقون بها غضبه وعذابه وتتفيأون بها ظلال فضله ونعمته، {ا لَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ }.

أرضه سبحانه جعلت لكم فراشا ومهادا ومستقرا { أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا } النبأ7/6، وسخر لكم ما فيها من النبات والأحياء مأكلا ومشربا واستطبابا واستخداما وانتفاعا { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ } الحج65، { أَمْ مَنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ } النمل61.

وسماؤه عز وجل سقف محفوظ، حافظ لكم من حركات الكائنات فوقكم أنواءً وكواكبَ وأشعةً { وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ } الأنبياء32، تستفيدون منها لمواقيتكم وتستهدون بنجومها في تنقلاتكم وأسفاركم { تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا } الفرقان61، { وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } النحل12، { وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ } النحل16، وتستسقون من مائها لحياتكم وحياة ما سخر لكم في الأرض من كائنات { وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا } البقرة 164، { وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } الأنعام99.

وإذا كانت هذه صفات ربكم، وكان هذا فضله عليكم، وكان وجودكم ومعاشكم ومبتدأكم ومنتهاكم منه وإليه سبحانه فهو إن عقلتم ورشدتم الذي يستحق العبادة وحده لاشريك له.

ولئن كانت العبادة والعبودية لله تعالى بمعنى إخلاص التوجه إليه بالطاعة والنوايا والأعمال، وقال عنها ابن عباس:(العبادة هي التوحيد)، أي توحيد الله ألوهية وربوبية وصفات، فإنها من حيث الأصل اللغوي من فعل " عبد يعبُد عبودة وعبادة " أي أطاع بخضوع وتذلل، ومنه التعبيد أي التذليل فيقال: طريق مُعبَّد إذا كان مذللا مستويا.

قال الأصبهاني في "مفردات القرآن": (العبودية: إظهار التذلل، والعبادة أبلغ منها؛ لأنها غاية التذلل، ولا يستحقها إلا من له غاية الإفضال، وهو الله تعالى)، وقال ابن تيمية: (العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة).

إلا أن العبادة التي تكون وقاية من غضب الله وعقابه، العبادة التي أشار إليها قوله تعالى { لَعَلَّكُمْ تَتَّقُون } أي تحترزون بها من سوء المصير لا بد أن تكون مشروعة بالكتاب والسنة لقوله صلى الله عليه وسلم (من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد)، وأن تكون منضبطة بما قدره الشرع كمية وكيفية وزمانا ومكانا، وبما ينبغي أن تكون عليه من إخلاص التوجه بها إليه تعالى وإفراده بها دعاء وخوفا ورجاء ومحبة وتوكلا ورغبة ورهبة وصلاة وصوما وغير ذلك، وهو معنى قوله تعالى: { وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ } الإسراء 23.

إن العبادة إذا توفرت فيها هذه الشروط كانت انقيادا تاما لله تعالى، يقينا في القلب وإقرارا باللسان وعملا بالجوارح، أمرا ونهيا وفعلا وتركا، وكانت حياة المرء بها في حال نومه ويقظته وصحته وسقمه عبادة.

إن تصرفات المرء في الحياة الدنيا بين أربعة أوصاف:

واجب ينبغي القيام به.

وحرام يتحتم اجتنابه.

ومشتبه يُتَّقَى.

ومباح إن شئت أتيت، وإن شئت تركت.

إلا أن ثمرة هذه التصرفات - إن لم تكن الفوز برضاه عز وجل - ليست إلا سرابا يحسبه الظمآن ماء.

ذلك لأن رضاه سبحانه هو المفتاح الوحيد للنعيم الأبدي في الآخرة بدخول جنة الخلد، وهذه الغاية لا تتحقق إلا بإيمان جوهره الإخلاص، وعمل مبني على الصدق، وقوام ذلك كله أن تنوي بما تعتقده وما تعمله وجه الله تعالى.

إن المرء يستطيع أن يقوم بالواجبات نوى بذلك وجه الله تعالى أو لم ينو.

ويستطيع أن يمتنع عن المحرمات تعففا، نوى بذلك وجه الله تعالى أو لم ينو.

ويستطيع أن يتنزه عن المشتبهات ترفعا، نوى بذلك وجه الله تعالى أو لم ينو.

ويستطيع أن يتمتع بالمباحات لا يسأل عنها ولا تحسب عليه.

ولكنه يستطيع أيضا أن يجعل ذلك كله خالصا لله، فيحسب له في سجل حسناته ويكسب رضا ربه ويدخل جنته.

إن قوما هم الخاسرون، الذين يقومون بالواجبات مكاء وتصدية، ويجتنبون المنهيات من غير أن ينووا بذلك عبادة.

وقوما آخرين أعلى رتبة وأقوم قيلا، هم المخلصون حقا، هم عباد الرحمن، العبيد العُبَّاد، الذين يفخرون بخطاب ربهم لهم بقوله: { يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ } العنكبوت56، الذين اتخذوا من كل خطرات قلوبهم وأعمال ليلهم ونهارهم عبادة خالصة لله، أولئك هم المهتدون بالكتاب والسنة، الملتزمون بأخلاق النبوة الخاتمة، القادرون بعون ربهم على انتشال أنفسهم من الغبن والضلال، وإنقاذ أمتهم من التخلف.

هؤلاء هم الربانيون في منامهم ويقظتهم، وقيامهم وقعودهم، ووقوفهم وممشاهم، وصمتهم ونطقهم، تناولهم الطعام عبادة، واستراحتهم من التعب قربى، ونومهم بالليل تهجد، وتمتعهم بالمباحات شكر، كل ما لديهم وما يعملون، من الله ولله وفي سبيل الله.

{ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ } الزمر 2.

{ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ } الزمر 11.

{ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي } الزمر 14.

{ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ } الأعراف 29.

{ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ } الأنعام 163/160.

إن إخلاص العبادة جزء من الأمانة والإيمان، وكون العمل موافقا للشريعة جزء من الأمانة والإيمان، أما إتقان العمل فهو كمال الأمانة والإيمان، بأن تستكمل العمل في طاعة الله، واجبا ومندوبا، وتتخذ من المباحات سبيلا إلى مرضاته عز

وجل، وتبتعد عن معاصي الله محرمات ومكروهات، وتتقي الشبهات استبراء لدينك وعرضك، كما قال صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخاري ومسلم:(إن الحلال بيّن، وإن الحرام بيّن، وبينهما أمور مشتبهات، لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه).

إن القيام بالواجب طاعة لله وامتثالا، واجتناب المحرم خوفا منه وحياء، والتمتع بالمباح شكرا له وحمدا، ومراقبته في السر والعلن، كل ذلك هو الإحسان الذي قال عنه صلى الله عليه وسلم: (الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)، وأهل هذه المرتبة هم السابقون المقربون بقوله تعالى: {وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ } الواقعة 10. وقوله: { فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ } الواقعة 88.

وبعد أن ذكَّر رب العزة عبادَه مطيعين وعصاةً، بفضل ربوبيته خلقا ورزقا وأمنا وتسخيرا للسماء والأرض، وبما عرفوا من ذلك وأقروا به، وأمرهم بصدق عبادته وإخلاص توجههم بها إليه، حذرهم من أخطر آفة تعصف بالعبادة وتمحق ثمارها، وهي الشرك ظاهرا وخفيا، فقال عز وجل: { فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ }، وهذا تحذير للمؤمنين من إفساد عقيدتهم بالشرك الخفي، وللكفار من الاستمرار على جحودهم وتمسكهم بباطل يعلمون فساده، وإعراضهم عن حق يعلمون صوابه. و"الأنداد" لغة جمع مفرده "ند"، وهو الشريك والنظير، والله تعالى لا شريك له ولا نظير {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} الشورى11.

إن أساس العبادة التوحيد، وأس التوحيد الولاء لله والبراء مما سواه أندادا وشركاء أتباعا ومتبوعين، أخفياء وظاهرين. ولذلك قال تعالى: { اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } البقرة257، وفي رواية للبخاري عن عبدِ اللَّهِ رضِيَ اللَّهُ عَنهُ قَال: (سَأَلْتُ أَوْ سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيُّ الذَّنْبِ عِنْدَ اللَّهِ أَكْبَرُ قَالَ أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ قُلْتُ ثُمَّ أَيٌّ قَالَ ثُمَّ أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ قُلْتُ ثُمَّ أَيٌّ قَالَ أَنْ تُزَانِيَ بِحَلِيلَةِ جَارِكَ). وفي الحديث الصحيح: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الشرك أخفى من دبيب الذر على الصفا في الليلة الظلماء وأدناه أن تحب على شيء من الجور وتبغض على شيء من العدل، وهل الدين إلا الحب والبغض، قال الله عز و جل: { قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ }، وعن ابن عباس في قوله تعالى: { فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا } قال: الأنداد هو الشرك، أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل، وهو أن يقول: والله وحياتك يا فلانة، وحياتي، ويقول: لولا كلبه هذا

لأتانا اللصوص، ولولا البط في الدار لأتى اللصوص، وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت، وقول الرجل: لولا الله وفلان، لا تجعل فيها فلانا؛ فإن هذا كله به شرك).

إن جميع الكائنات، سواء اتُّخِذَتْ أندادا أولم تُتَّخَذْ، لا تملك مثقال ذرة مع الله، وليس لها أدنى من حبة خرذل مشاركة له في السماوات والأرض، وليس لله معين منها لأنه غني عن العالمين، وليس لها أن تشفع عنده لأتباعها وأوليائها إلا بإذنه، وهي في نهاية المطاف تحت نير العبودية طوعا وكرها { وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآَصَالِ } الرعد15، { إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا } مريم93.

لقد أقام القرآن في هذه الآيات الدليل العقلي المشاهد المعترف به من قبل المشركين وكفار أهل الكتاب، على استحقاقه تعالى العبادة من دون غيره، ولم يبق للمعارضين إلا شبهة واحدة هي التصديق بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، والكتاب المنزل عليه، ولما كانت صدقية الرسالة مبنية على كون القرآن كلام الله وليس من كلام البشر، وهذا يقتضي استحالة معارضته، فقد كان خير وسيلة لإثبات ذلك أن يتحداهم بعجزهم عن الإتيان بمثله، وهم في ذلك بين موقفين: إن كانوا من ذوي البصائر الصافية والضمائر النيرة علموا بسمو معانيه وجلالة أساليبه وجزالة تراكيبه وأنه كلام رب العالمين وبادروا إلى امتثال ما أمر به والانتهاء عما نهى عنه، وإن كانوا في شك وريب من كونه منزلا من عند الله، فليحاولوا معارضته والإتيان بمثل سورة من سوره: {وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ}.

إن المشركين وكفار أهل الكتاب كانوا يعرفون أن النبي صلى الله عليه وسلم أمي، ولكنه ارتفع برسالته إلى مستوى سامق من العبودية الخاصة الخالصة لله تعالى بقوله {عَلَى عَبْدِنَا}، أما قوله تعالى {وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} أي أعوانكم من الأرباب والرؤساء والفصحاء والعلماء، إن كنتم صادقين في دعواكم الريب والشك في القرآن مضمونا ومصدرا، ادعوهم ليشهدوا على ما تُزَوِّرونه من مفتريات أو ليساعدوكم على صياغتها وتزويرها، فهذا أيضا يعد تحديا لهم ولساداتهم بعبده محمد الرسول الذي لا يقرأ ولا يكتب، وأتاهم بما لا يستطيعون مماثلته أو معارضته، أتاهم بالقرآن الكريم، كلام الله عز وجل، فهل يستطيعون الإتيان بمثله؟

لقد تحداهم القرآن الكريم بهذا في غير موضع من القرآن، تحداهم في المرحلة المكية، فقال في سورة القصص: {قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} القصص49، وقال في سورة الإسراء 88:(قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً}، وقال في سورة هود 13: {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}، وقال في سورة يونس38/37: {وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ }، ثم

تحداهم بذلك أيضًا في المرحلة المدنية، فقال في هذه الآية: {وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ} شك { مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا} محمد صلى الله عليه وسلم {فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ } أي من مثل هذا القرآن. فإن بلغ ما أتيتم به من الفصاحة إلى حد الإعجاز فهو كما زعمتم، وإن لم يكن الأمر كذلك فاعلموا أنكم على ضلال ومكابرة.

هذا التحدي بالإعجاز القرآني كما شمل في آيات سابقة مطالبتهم بمثل القرآن كله، شمل أيضا مطالبتهم بمثل عشر سور، ثم لما ظهر عجزهم واستبان خطلهم، رفع درجة التحدي إلى مجرد الإتيان بسورة واحدة من مثله، وكما يعني هذا التحدي سورة طويلة كسورة البقرة، يعني أيضا قصار السور من مثل سورة الكوثر والعصر والناس.

لقد بُعِثَ الرسول صلى الله عليه وسلم بين قوم أكثرُهم شعراء مفلقون وخطباء مُفَوَّهون، وحكماء مجربون، فتحداهم بصناعتهم في الكلام، وأثبت عجزهم عن المماثلة، وتأكد أن التفاوت بين كلام الله تعالى وبين ما يصوغون من شعر ونثر ليس تفاوتا معتادا، وأنه تفاوت معجز، لصدوره عن علم مطلق بالكون والكائنات، وما مضى وما هو حاضر أو آت، وهو ما شهد به رؤوس الكفار وقادتهم، فعندما قرأ النبي صلى الله عليه وسلم على الوليد بن المغيرة من سورة النحل قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} إلى آخرها، قال: يا ابن أخي أعِدْ، فلما أعاد الرسول صلى الله عليه وسلم، قال الوليد: والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أصله لمورق، وأعلاه لمثمر، وما هو بقول بشر، ثم انطلق إلى مجلس قومه بني مخزوم فقال: والله لقد سمعت من محمد آنفا كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وإنه ليعلو وما يعلى، فقالت قريش: صَبَأَ والله الوليد والله لَتَصْبَأَنَّ قريش كلهم، وقال أبو جهل تعقيبا على هذه الآية عندما سمعها: إن إلهه ليأمر بمكارم الأخلاق.

وفي رواية أخرى أن الوليد مر بالرسول صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ حم السجدة فلما وصل إلى قوله تعالى: {فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صاعقة مّثْلَ صاعقة عَادٍ وَثَمُودَ} فصلت13، نَشَدَهُ الوليد بالله وبالرحم أن يسكت، وهذا يدل على يقينه بصدق لهجة الرسول صلى الله عليه وسلم وخطورة ما ينذر به قومه من كفار قريش.

ثم لما ثبت عجزهم ودُحِضَ رَيْبُهُمْ وقُطِعَ عذرُهم ولم تبق لديهم شبهةٌ يتمسكون بها خاطبهم عز وجل إقرارا لعجزهم حالا واستقبالا عن معارضة القرآن، وإعذارا للمصرين منهم على التمرد والكفر والجحود، وتذكيرا لهم بالمصير السيء الذي ينتظرهم فقال: {فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ}، وليس لهم من وقاية من هذه النار التي يستوي لديها الناس والحجارة إلا بالإقلاع عن الضلال والكف عن المجادلة بالباطل، واتباع ما بلغهم به الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم.

لقد كان هذا النداء الإلهي في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ..} وما أفاض به على ما سبقه من وصفٍ لحالِ المتقين، وحالِ الكفار المجاهرين والمنافقين، بِجَمْعِهِم في خطاب واحد تسويةً لهم في استماع الهداية وإقامة الحجة، نموذجا رائعا ونادرا للعدل والإحسان والتلطف والبيان، أضيف إليه بالتحدي الذي تلاه، ضروبٌ من الإفحام والتعجيز، كشفتْ زيفَ الريب المدَّعَى والشك المزعوم الذي يتترسون به في مواجهة الحق.

ثم زيادةً في الإعذار كشف رب العزة من وراء حجب الغيب عن مصيرين محتومين أحدهما للعصاة المتجبرين، والثاني للأوابين المطيعين، بصورتين متقابلتين إحداهما شديدة القتامة والرعب، نارٌ توقد بالناس والحجارة، لا تُتَّقَى إلا باتباع العبد الرسول صلى الله عليه وسلم {فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ}، {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ} آل عمران10، {وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} الأنعام27.

أما الصورة الثانية فدار المقَامة من فضل الله لا يمس قاطنيها نصب ولا لغوب ولا هم أو حزن، جناتٌ لهم، خالصةٌ لهم من ربهم إذا آمنوا به وصدقوا رسوله وائتمروا بأمره وانتهوا عن نواهيه، وأخلصوا عبادته ظاهرا وباطنا، {وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ}، وفي هذه الآية الكريمة من لطيف البشارة وجزالة المعنى ووجيز اللفظ ما يفوق الوصف، فقد أجملت الوعدَ ومُبَلِّغَه، والموعودَ به وسببَ تحققه، بأبلغ عبارة وأوضح إشارة، البشارةُ بالجنة وعدٌ من الرحمن، ومُبَلِّغُها عبدٌ خالص للدَّيَّان، والإيمان والعمل الصالح سبيل الوصول إلى الجنان. وأحرى بمن نال شرف الوصول أن يقول: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ} فاطر 35/34.

ثم أخذ السياق القرآني في وصف هذه الجنان تأكيدا لنعيمها الدائم، وتشويقا للمخاطبين في كل زمان ومكان بقوله تعالى {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ}، عونا لهم على طلبها وإعانة لهم على اتقاء نقيضها، الذي هو النار وقودها الأبشار والأحجار.

ولئن كانت مَجَامِعُ اللذات هي المسكن والمطعم والزوجة الصالحة والأمن، فقد وفر الله تعالى لهم كل ذلك في مسكنهم الجديد الذي فيه المشرب {جنات تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الانهار} والمطعم {كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقاً قَالُواْ هذا الذى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ} والزوجة {وَلَهُمْ فِيهَا أزواج مُّطَهَّرَةٌ} والأمن من زوال هذا النعيم أو انقراضه {وَهُمْ فِيهَا خالدون}.

إلا أن مَجامِع اللذات في الجنة ليست كما يتصور أهل الدنيا، إن فيها ما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر بقلب بشر، وقد ورد في صحيح البخاري أن رَسُول اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (قَالَ اللَّهُ أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ فَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ " فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ").

كما أن أنهار الجنة وإن أشبهت أنهارَ الدنيا تسميةً فهي خيرٌ منها شكلا ومُحْتَوًى {مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آَسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى} محمد 15.

كذلك طعامها يختلف عن طعام الدنيا وثمارها وإن اشتبهت التسميات، ولذلك قال عنه ذو الجلال والإكرام: {كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا}، أي أن أهل الجنة كلما قُدِّم لهم ثمرُها ورأوا شكله ظنوا أنه يشبه ما طعموه في الدنيا، أو يشبه ما تناولوه في الجنة من قبل، ولكنهم عندما يتذوقونه يكتشفون أنه لا يشبه ثمار الدنيا ولا يشبه كذلك ما طعموه في الجنة، لأن لذة هذه الثمار تتجدد كل حين، لونها وشكلها واحد ولكن طعمها مختلف.

أما الأزواج في الجنة، فخيرات حسان، مطهرات الخَلْق والخُلُق من العيوب، ومن العوائق قذرا وأذى، ومن آفات السلوك قولا وعملا، ومما هو من طبيعة الخلقة الدنيوية، وقد أنشأهن الله تعالى حورا مقصوراتٍ في الخيام، قاصراتِ الطرف أبكارا عربا أترابا. {وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}، {لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ} الأنبياء103، {وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ} هود108.

صورتان متقابلتان لمصيرين مختلفين، إحداهما للجحيم الأبدي، وثانيتهما للنعيم الدائم، والعاقل من يُمَيِّز بين المصيرين، ويستحضر تعبَ العبادة في الدنيا وثَمرَتَه، وغفلةَ اللهو وعاقبتَه، ولئن كان كلٌّ مُيَسَّرًا لما خُلِق له، فما كُلُّ الخيل للسباق، وما كلُّ جرْوٍ لِأَسد، والمجاهدةُ حرْبٌ لا يصلح لها إلا بطل، ومن الناس من تَصْرِفه عن الآخرة شهوةٌ عابرة، ومنهم من لا يُغْرِيه قصرٌ مشيد، ومنهم من يظن نفْسَهُ يسعى إلى ربه، فإذا صادف منصبا أو مالا أو جاها اكتشف أن هذا هو ربُّه الذي يسعى إليه، فعكف عليه ساجدا راكعا، ومنهم من يسمع بإيمانه حفيفَ أشجار الجنة، وَوَقِيدَ أحجار النار، وصليلَ الرَّفْشِ في القبر، وفحيحَ الإبرة تخيط الكفن، فهو على استعداد دائم، طيورُ شوقه ترفرف على أغصان محبته ورجائه، وخلجات أنفاسه ترتعش من غضب ربه على العصاة من عباده، ومنهم من إذا نام لم يستيقظ، وإنْ لَهَا لم ينتفض، وإن وُعِظ لم يتَّعِظ، غفلتُه عن المصير مُرْدِية ومَتاهَتُه في مُضِلَّات الأماني مُعْشِية، وللجنة أهلُها السباقون، وللنار أهلُها الموبقون المحَرَّقون، ولاحول لا قوة إلا بالله العلي العظيم.

أمثال القرآن رحمة للمؤمنين
ونقمة على الفاسقين

قال الله تعالى: { إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آَمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (26) الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (27) كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (28) هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (29) } البقرة

الكلام صناعة العرب الأولى في الجاهلية وصدر الإسلام، بجيده يتفاخرون ويتمادحون ويتهاجون، كم رفيعٍ عندهم وضعه بيت شعر، أو مثل سائر، وكم وضيعٍ ارتفع ذكره فيهم بقريظ قيل فيه، أو حكمة بليغة نسبت إليه، لذلك كانت حساسيتهم لما يقال لهم أو عنهم شديدة، وإحساسهم بفنون القول لهم أو عليهم مرهفا، وردود فعلهم لها عنفوانية هوجاء.

وإذا كان انبهارهم بروعة البيان القرآني بلغ حد الاعتراف بسموه وعلو شأنه، والإقرار بالعجز عن معارضته، فإن أشد ما كان يؤذيهم منه وصفه البليغ لأحوالهم وتقريعه الصارم لتعنتهم وطغيانهم وجهالتهم وعنادهم، وأشد من ذلك أن يضرب بهم ولهم الأمثال فتسير بين الناس كما تسري النار في الهشيم، وهم يعرفون أثر ذلك في مجتمعهم الذي يخفض فيه المثل السائر أقواما ويرفع أقواما. ويرون كل يوم أفواج الذين يدخلون في دين الله من قومهم كلما طرقت أسماعهم آية تدعو إلى التفكر في الكون آفاقا ونواميس وخلائق، أو تكشف انحرافا عقديا وفكريا لدى المناوئين والمعرضين، برائع بيان أو بليغ مثل.

إن العربي الجاهلي لم يكن له من سلاح قبل سيفه وبعده إلا بيان لسانه، وهو على ثلاثة أضرب شعر ونثر ومثل، ولقد اعترفوا بهزيمتهم في ميدان الشعر والنثر إذ أقر كبراؤهم بتفوق القرآن على كلام الجن والإنس، وعجزوا عن الإتيان بمثله عندما تحداهم بذلك، وكانت للرسول صلى الله عليه وسلم الغلبة والنصر بالسيف عليهم في بدر، فما بال سلاح ضرب

المثل لديهم يفل، ويترك ساحة المعركة العقدية لأمثال القرآن تفعل فعلها في القلوب والعقول، فتقبل أفواجا على الدين الجديد؟

لقد ابتدأت معاناتهم مع أمثال القرآن الكريم من الفترة المكية والمسلمون مستضعفون يكاد الطير يتخطفهم، إذ ذاك شبه الوحي المكذبين بالكلب اللاهث في حالتي الراحة والتعب،، وشبه المشركين بالعبد فيه شركاء متشاكسون، وشبه الاحتماء بالأنداد باتخاذ بيت العنكبوت مأوى وحصنا، ونعى على المشركين عجز آلهتهم عن خلق ذبابة أو دفع أذاها، فقال عز وجل:

{ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُون } الأعراف 177/176.

{ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} الزمر29.

{مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} العنكبوت41.

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ} الحج73

وفي المرحلة المدنية وقد اشتد ساعد الكفر العلني بالنفاق، وشحذت أسلحة التشكيك والتخذيل والتشويه والأكاذيب ضد المؤمنين، استمرت حملة القرآن الكاشفة لأحوالهم، الفاضحة لمآزقهم الفكرية والسلوكية، بدعوتهم إلى الإيمان حينا، وتذكيرهم بالمبدأ والمآل حينا، وإرشادهم إلى الحق تصريحا وتلميحا وتعريضا وتلويحا وضرب مثل حينا آخر.

إلا أن أمثال هذه المرحلة كانت أكثر إيلاما وأشد وقعا، وما الظن بمن ضرب بهم مثل الذي استوقد النار فذهب الله بنوره، أو بمن حاصره صيب الأمطار وصواعق البرق والرعد والعواصف في المتاهة المظلمة، كما في المثلين السابقين، أو بمن شبهوا بالحجر الصفوان إذ يفاخرون بالإنفاق رياء وسمعة، أو بمن شبهوا بالذي يتخبطه الشيطان من المس إذ يأكلون الربا ويتاجرون بها، وهم يعرفون بطبيعتهم البدوية وشيمهم المتعالية شناعة هذا التشبيهات وقساوتها، وهي عليهم أشد من جميع قصائد الهجاء التي يخشونها ويشترون ألسنة الشعراء بنفيس الأموال تلافيا لها:

{ كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ } البقرة 264.

{ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا } البقرة 275.

ذكر المشتغلون بأسباب النزول أن المشركين عندما ذكر القرآن في أمثاله الذباب والعنكبوت قال بعضهم:" أرأيتم، أي شيء يصنع بهذا؟"، وقال آخرون:"ما يستحي رب محمد أن يضرب الأمثال بالذباب والعنكبوت"، أما اليهود فتضاحكوا وقالوا " ما يشبه أن يكون هذا كلام الله"، ثم لما هاجر المسلمون إلى المدينة وكثر عددهم وقويت شوكتهم وأنزل الله تعالى تشبيه المنافقين وعتاة الكفار في أول سورة البقرة بمستوقد النار الأصم الأبكم الأعمى في الفلاة، وبالمحاصر بصيب الأمطار وقواصف البرق والرعد في المتاهة، قال المنافقون:" الله تعالى أعلى وأعظم من أن يضرب الأمثال بمثل هذه الأشياء التي لا بال لها"، وكان ملجأ الطائفتين مشركين ومنافقين إلى اليهود يتلقون منهم صورا من الكيد والتشغيب والطعن في بلاغة القرآن الكريم، تشكيكا في مصدره وفي صدقية المرسل به، وصرفا للناس عن التأثر به وفهم مدلول آياته ومقاصد أمثاله ومراميه، فأنزل الله تعالى قوله: { إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا... } الآية.

ولئن اختلف المفسرون في معنى الاستحياء المنسوب إلى الله تعالى، في هذه الآية وفي غيرها قرآنا وآثارا نبوية، ما بين معطل ومؤول بالمجاز القريب ومجسد، وَوَكَلَ المحتاطون لدينهم أمرها إلى علام الغيوب، بتمريرها تنزيها لربهم تعالى عن المماثلة والمشابهة { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ } الشورى11، فإن تجاوز خصوص سبب النزول إلى عموم المعنى يجعل الصورة لدينا أوضح وأشمل، فالغاية من ضرب الأمثال التفهيم والتوعية والتنبيه، وقد استعملها الإنسان منذ وجد على الأرض، وخاطب بهاالأنبياء أقوامهم كما ورد في الآثار، والعرب أنفسهم لهم في ضربها قصب السبق والسهم النافذ، ولم يطلقوا حملتهم ضدها إلا لأنهم يعرفون وقعها.

أما المُمَثَّلُ به، بعوضة كان أو عنكبوتا أو غيرهما، فهو مخلوق من مخاليق الله تعالى تتجلى فيه مهما صغر أو كبر قدرة بديع السماوات والأرض، ولئن كان الكفار لا يقدُرون الله حق قدره، فإن العلم الحديث حاليا قد كشف من البعوضة ما تحار فيه الألباب، وللخالق جل جلاله أن يضرب المثل بأيٍّ من مخلوقاته لأنه يعلم ما خلق وكيف خلق وأسرار ما أَوْدَعَه في الخلق.

إلا أن العبرة ليست في المثل بقدر ما هي في أثره لدى المخاطبين به، وهم ما بين مؤمن يزداد إيمانه كلما خاطبه ربه، وربه لا يخاطبه إلا بالحق { فَأَمَّا الَّذِينَ آَمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ }، وهو يعلم أن الله لم يضرب المثل بالبعوضة وما دونها وما فوقها إلا لعلمه بها وبأسراره فيها.

وبين كافر جاحد أو منافق مخاتل شيمته التربص والكيد والشيطنة والمشاغبة على ركب الدعوة والإيمان، ودَيْدَنُه التشكيك والمغالطة والمدافعة بالباطل { وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا }.

والمثل القرآني بهذا الاعتبار مزيد هداية وتبصرة للمؤمنين، وأخذ لطيف بيد الباحثين عن الحق من غير المسلمين إلى صراط الله المستقيم، وهو في جانب آخر استفزاز لجهلة المصرين على الكفر والجحود، تأخذهم به العزة بالإثم فيزدادون عتوا وضلالا، وهو ما قرره عز وجل بقوله: { يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا }.

إلا أن أشد الناس ضلالا به، هم نَقَضَةُ العهود من الفاسقين، { وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ } الآية، وهوتعريض واضح باليهود الذين هم مرجع المنافقين والمشركين في الكيد والمكر، والذين شكلوا على مدار التاريخ رأس الحربة في خاصرة المسلمين، بما جبلوا عليه من غدر وخيانة ومروق وعصيان وإفساد.

وأصل الفسق لغة هو الخروج، يقال: فسقت الرُّطَبة وانفسقت إذا خرجت من قشرها ولهذا يقال للفأرة: "فويسقة" لخروجها من جُحْرها للفساد، ولفظ الفسق بالمفهوم القرآني الذي هو الخروج عن الطاعة، لم يسمع في الجاهلية، وإنما هو مصطلح إسلامي، قال الله تعالى: { فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ } أي خرج عن طاعته، إلا أنه في الحكم الشرعي منزلتان، فسق أكبر مخرج من الملة، كحال من استحل الحكم بغير ما أنزل الله تعالى صراحة وعمل به مختارا ودلت القرائن على أنه يفضله على حكم الشريعة، كما في قوله تعالى: { وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ } المائدة47، وهو المقصود في قوله تعالى: { وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ}، وفسق أصغر مع احتفاظ صاحبه بالإيمان، كحال من يرتكب الكبائر وهو يعتقد أنها محرمة وأنه عصى ربه بما فعل، وقد ورد في تفسير ابن أبي حاتم عن ابن جريج عن عطاء في قوله تعالى: { فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ } قال: " فسق دون فسق " وروي عن ابن طاوس مثل ذلك.

إن هؤلاء الكفرة الفاسقين الذين يزدادون ضلالا بما ينزله الله تعالى من أمثال القرآن الكريم الكاشفة لأحوالهم، ليسوا كفارا عاديين، ولكن لهم مواصفات خاصة، جعلتهم أشد الناس عداوة للمؤمنين.

أول صفاتهم أنهم { يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ }، والعهد آصرة متينة عليها بني التكليف، ومن أجلها أنزل الإنسان واستخلف في الأرض، وعلى أساسها يكون الجزاء يوم العرض، ولقد أُخِذَ علينا ونحن في ظهور أبينا آدم عليه السلام هذا الميثاق فأقررناه والتزمنا بمقتضاه، وهو لخطورة شأنه يستوعب جميع تكاليف الدنيا بلاء واختبارا، وينتظم كل جزاءات الآخرة جنة ونارا.

{ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا } الأحزاب 7.

إن العهد هو وصية الله للبشرية وصفقة المبايعة بينه وبينها { وَأَوْفُواْ بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ } البقرة 40، لذلك كان التعبير القرآني بلفظين دقيقي التركيب وافيين بالمعنى المطلوب، هما (العهد) و(الوفاء).

وحروف لفظ (العهد) الثلاثة (العين والهاء والدال) تدل لغة على الاحتفاظ بالشيء وتعهده وصيانته، يقال: تعهد ضيعته إذا رعاها ولم يغفل عنها، وتعهد أرحامه ومعارفه وأصحابه إذا أحسن إليهم ورعى حقوقهم وحُرَمَهم، كما أنها تدل على الوصية في قوله تعالى { أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ } يس 60، ومن ذلك العهد بمعنى الأمان والذمة كما في قوله تعالى { وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ } البقرة 124، وفي حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم (وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ)، والعهد رعاية حرمة الخلائق أقارب وأباعد بشرا وحيوانا وحجرا ونباتا والامتثال لأمر الله تعالى في التعامل معها وتعهدها.

إن العهد إذا عقد لزمت صيانته ورعايته، ولا يكون ذلك إلا بإتمامه وإكمال شروطه غير منقوصة أو مبتورة، لذلك ورد لفظ العهد في القرآن في أغلب سياقاته مقرونا بلفظ آخر يفيد الإتمام والإكمال هو لفظ (الوفاء) كما في قوله تعالى: { وَأَوْفُواْ بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُم }.

ذلك أن الحروف التي ركب منها لفظ الوفاء (الواو والفاء وحرف العلة) تدل مجتمعة على معنى الإكمال والإتمام، يقال: أوفيتك أو وفيتك حقك إذا قضيته وافيا، كما في قوله تعالى { وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ } آل عمران57.

من هذه المعاني عرف المجتمع الإسلامي النموذجي أخلاقا راقية سامية، وهجر في مقابل ذلك رذائل من سوء العهد والخيانة والغدر والتنكر لأخوة العقيدة والإنسانية والحياة المشتركة.

لقد أمر الله عز وجل أمرا مطلقا بالوفاء بالعهد ما لم يكن معصية، وجعل الوفاء بالعهد من صفاته فقال: { وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللّهِ } التوبة111، ثم جعله من صفات أنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام، على رأسهم إبراهيم عليه السلام فقال: { وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى } النجم 37، حين أتم تنفيذ أوامر ربه { وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ } البقرة 124، وحين لبَّى داعي ربه بتقديم فلذة كبده للذبح، وحين صبر واحتسب إذ ألقي في النار.

كما وصف بالوفاء مدحا وتعظيما أولياءه وأصفياءه أولي الألباب والأبصار فقال: { إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللّهِ وَلاَ يِنقُضُونَ الْمِيثَاقَ } الرعد 19-20.

إن في عاتق المؤمن صنفين من العهود ينبغي الوفاء بهما: عهدا مع الله عز وجل، وعهدا مع الخلائق بشرا وحيوانا وشجرا وحجرا، مصدره الأساس هو العهد مع الله.

ذلك أنه سبحانه إذ خلق آدم وذريته وأنزلهم إلى الأرض ابتلاء واختبارا، لم يتركهم هَمَلاً، بل أنزل معهم الكتاب والميزان وألزمهم بمواثيق في الاجتماع والمعاملة، في السر والعلن، في الرضا والسخط، في المحبة والمبغضة، وكل ذلك مبني على العهد مع الله مرتكز عليه. فإن نقض المرء عهده مع الله انتقض تبعا لذلك العهد مع الخلق، وإن انتقض عهده مع الخلق كان ذلك مؤشرا على خيانة عهد الله وميثاقه. ومن ثم وجب الوفاء بعهد الله وميثاقه قبل كل وفاء، كما ورد في حديث البخاري (فَاللَّهُ أَحَقُّ بِالْوَفَاءِ).

إن العهد الذي انتظم العلاقة مع الله تأسس في ضمير الغيب، والناس في ظهور آبائهم { وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ} الأعراف172.

ثم جدد هذا الميثاق ببعثة الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، عقيدة وعبادة وبرا وحسن رعاية ومودة { رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا } النساء165، { وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ } آل عمران81.

ثم أناط عز وجل مهمة التذكير بهذه المواثيق والعهود بورثة الأنبياء وهم صادقو علماء الأمة وفقهائها، فقال عز وجل: { وَإِذَ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ } آل عمران 187. وجعل من الوفاء بالعهد أداة لحفظ بيضة الدين والدفاع عن حماه، متخذا مع المجاهدين عهدا واثقهم به على الشهادة، وعقد معهم صفقة مربحة ومقايضة للأرواح بالجنة، مؤكدا تمام الوفاء منه سبحانه بوصفه نفسه في ختام عقد المبايعة هذا بقوله { وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ } فقال عز وجل: { إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } التوبة111. فصارت الجنة بمقتضى هذا العقد ملكا للشهداء، وصارت هذه الصفقة متاحة لكل الأولياء والأصفياء في كل مكان وزمان. قال شمر: (ما من مسلم إلا ولله عز وجل في عنقه بيعة وفى بها أو مات عليها، ثم تلا {إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ } الآية..

كما ندد عز وجل بالغدر والخيانة ونقض العهود متوعدا أربابها فقال عز وجل:

{ وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ اللهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ } الرعد25.

وقد أجمل تعالى صفات خونة العهود وناقضيها مبينا عاقبة أمرهم في الدنيا والآخرة قولا فصلا غير مردود فقال: { وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ } البقرة 27.

وثاني صفات الفاسقين قوله تعالى { يَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ }، وهي صفة عامة لتعطيل أوامر الله تعالى، بقطع العمل بها، أو عرقلتها، أو بالتنفير منها والتحريض على عصيانها، أو محاربة العاملين بها، سواء كانت هذه الأوامر متعلقة بالعقيدة أو بالشريعة أو بالمعاملة.

وثالث صفاتهم أنهم { يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ }، والفساد في الأرض كل ما خالف الصلاح شرعاً أو عقلاً، ورأسه الشرك والكفر وعبادة غير الله تعالى، أصناما وأوثانا، ومنه الظلم والطغيان، والإعانة عليهما، وكتمان العلم وحجبه عن الناس، ونشر الفاحشة والدعاية لها، كما في بلدان المسلمين حاليا تحت مسميات كثيرة سياحة وإعلاما واقتصادا، وحداثة مزيفة فاجرة وتطورا، والتعاون مع أعداء الله ضد الدين وأهله، والاستنصار بهم على الوصول إلى السلطة أو الاحتفاظ بها.

هذه الصفات التي وصم الله عز وجل بها الفاسقين الكفرة، كما ترى، مباينة لصفات المؤمنين، في قوله تعالى: { أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ } الرعد22/19، ولذلك دمغ المتربصين بالدعوة وأهلها بذكر عاقبة أمرهم ومآل كفرانهم وعصيانهم وقال: {أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ } الخاسرون في الدنيا والآخرة، كما قال عنهم في سياق آخر: { أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ } الرعد25. وهو خسران فظيع رهيب، إذ يخسر المرء به رحمة الله الواسعة التي قيضها عز وجل لعباده في الدارين.

ثم يلتفت القرآن الكريم بروعة بيان، من خطاب الغيبة إلى خطاب الحضور، فيوجه لهم سؤالا استنكاريا يوبخهم على كفرهم، والحال أن لديهم من الأدلة العقلية والمشاهدات اليومية ما يدعوهم إلى الإيمان، فيقول: { كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ }.

كيف تنصرفون عن الإيمان إلى الكفر، وأنتم تعلمون أن الله خلقكم من عدم، هو الموت الأول أو الموات الأصل { هَلْ أَتى عَلَى الإِنسانِ حِينٌ مِّنَ الدهرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً } الإنسان1، فأخرجكم للحياة من نطفة خلقها فيكم، وخلق

منها لكم وأمام أعينكم البنين والبنات، ونشأ من الفرد الواحد الأسرة ثم القبيلة ثم الشعب، وأمام أعينكم يموت من يموت، والذي أخرجهم أول مرة للحياة قادر على إعادتهم إليها بعثا ونشورا ومحاسبة ومجازاة { أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى } القيامة37/40، { أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } الأحقاف33.

إن لكم في أنفسكم أوضح دليل على قدرة ربكم وقد خلقكم من عدم، من الفراغ المحيط بكم خلق لكم الذرية، وخلق حولكم مختلف الكائنات الحية، ومن التراب الذي تسعون فوقه، خلق النخل والرمان والفواكه صنوان وغير صنوان، إن الخلق الجديد يتوالى أمام أعينكم كل لحظة، في الطائر يطير والحشرة تسير، والمرأة تنجب، والناقة تنتج، ورسل الموت بين ظهرانيكم يتوفون الأنفس في رحلة أخرى إلى عالم الغيب بعثا وحشرا ومساءلة، إنكم ترون غرة كل خلق جديد حولكم وتشهدون تمامه وختام أجله، فإن لم تهتدوا بهذا كله فأمامكم الكون الفسيح، وقد خلقه الله لكم أرضا وسماء، على علم منه وإحاطة بكل شيء { هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ }.

خلافة الإنسان في الأرض
بين الحقيقة القرآنية وبين غبش التصور

قال الله تعالى: { وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ } سورة البقرة 30.

يواصل القرآن الكريم مخاطبةَ طوائف الكفار، ممن علم الله فيهم خيرا يستدرجهم إلى الإيمان، وممن طبع على قلوبهم يقيم عليهم الحجة، بنوع من الاستفهام الاستنكاري لعَمَايَتِهم عن الحق، وضلالهم عن الهدى وقد تبينت لهم سُبُلُه، يدعوهم إلى التفكر فيما ذرأ البارئ عز وجل من أنفسهم وما أمات من أقوامهم، وما خلق في السموات والأرض، مما هو مشاهد لهم ودالٌّ على ربوبيته وألوهيته واستحقاقه العبادة وحده لا شريك له، وقبل ذلك بَيَّنَ عجزهم عن مماثلة سورة واحدة من سور القرآن، وهو دليل على صدق الرسالة التي ينكرونها، وصدقية المرْسَل بها الذي يناصبونه العداء.

وإذ ثبت كل هذا للعقلاء غير المكابرين، وتبين لهم مبدأ حياتهم ومنتهى مماتهم وبعثهم ونشورهم وما خلق لهم من السماء والأرض ذَكَّرهم بمبدأ خلق الإنسان وما تفضل به تعالى على أبيهم آدم إذ كرمه بإسجاد الملائكة له، في إشارة واضحة إلى أن تكريم الأصل تكريم أيضا لمن استقام من الذرية والنسل، في مشهد حي من مشاهد الغيب فقال: { وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً}.

من خلال هذا التذكير يخاطب رب العزة بني آدم في كل زمان ومكان، ينقل إليهم قصة خلقهم الأول من خلال محفل رهيب يحضره الملأ الأعلى وتتجلى فيه معالم الإيمان تختزل عالمي الغيب والشهود والعمل والجزاء والذنب والعقوبة، في لحظات حوار بين رب العزة تعالى وبين ملائكته الكرام من جهة، وبينه وبين زعيم شياطين الجن من جهة أخرى، وبينه وبين بني آدم عبر الحقب والقرون من خلال أبيهم وأمهم من جهة ثالثة، فتتجلى من خلال هذا الحوار ثلاث طوائف: طائفة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وطائفة شياطين وأبالسة متمردين حلت بهم لعنة أبدية، وطائفة منهم الصالحون ومنهم دون ذلك.

لقد اقتضت حكمة العلي القدير أن يخلق في الأرض لعمارتها والابتلاء بخيرها وشرها، خليفة هو آدم عليه السلام، وأجيال ذريته الذين يخلفونه إلى يوم القيامة، وأن يخبر بذلك ملائكته المقربين، وحين خاطبهم الرب الكريم بذلك { وَإِذْ

قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً }، كان ردهم { قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ }، فنبههم رب العزة إلى قصور علمهم ومحدوديته، مقارنة بعلمه المطلق { قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ }.

لقد أخبر رب العزة ملائكته، ليكونوا على بينة من الخلق الجديد في الأرض، لأنهم سيوكلون بتنفيذ أوامر الله تعالى فيه ومعه، إذ سيكون فيهم من يشهد على الأعمال، ومن يبلغ إليه الرسالات، ومن يتوفى الآجال، ومن يقمع أهل البغي والضلال...

ولئن كان من صفة الملائكة أنهم لا يسبقون ربهم بالقول ولا يسألونه شيئا لم يأذن لهم فيه، ويفعلون ما يؤمرون، { لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ } الأنبياء27، فإن جوابهم لم يكن كما قد يتوهمه البعض اعتراضا على إرادة الله تعالى، أو انفعالا بغيرة أو حسد للمرتبة التي أُحِلَّها الخلق الجديد، وهم منزهون عن مثل هذه المشاعر البشرية، وإنما كان سؤال استعلام واستكشاف عن حكمة إيجاده، وقد سبق لهم العلم من ربهم تعالى بأن من ذريته من يذنب ويفسد ويسفك الدماء.

لقد كان علمهم محصورا فيما علمهم الله تعالى كما اعتذروا به لربهم بقولهم: { قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ }، وهو معرفتهم حكمة خلق أمثالهم من الذين لا يعصون ربهم ويسبحونه ويقدسونه { لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ } الأنبياء20/19، وخفيت عنهم حكمة إيجاد خَلْقٍ جديد فيه من يفسد ويسفك ويذنب ويتمرد، لذلك نبههم رب العزة إلى حقيقة إيمانية مجملة تنتظم استفهامهم وتعجبهم وتكف استعجالية تطلعهم إلى حكمة ما جرى ويجرى حولهم، فقال لهم: { إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ }

لم يرد في سبب نزول هذه الآيات شيء، ولم يرو في تفسيرها أثر صحيح مرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وليس لشرحها إلا سياقها ولغتها، أما مناسبتها لما قبلها فخطاب الاستفهام الاستنكاري الموجه للمعرضين تذكيرا لهم بأسرار خلق الحياة والممات، وتسخير الأرض والسماوات، متبوعا بخبر بدء الخلق وتشريف الأب الأول وإسكانه الجنة وإسجاد الملائكة له، وطرد إبليس من رحمة الله إذ رفض السجود استعلاء واستكبارا، تمهيدا لإيراد قصة بني إسرائيل نموذجا واضح المعالم لتكريم رباني قوبل بالتمرد والاستعلاء والمماحكة والشيطنة الغبية الجاهلة. وهي صورة أخرى من صور استعلاء الشيطان الأول واستكباره وتمرده.

لقد اقتضت الحكمة الربانية أن يتخذ الله تعالى خليفة في الأرض، وذكر ذلك في سياقات كثيرة من القرآن الكريم، بما يفسر معنى الخلافة البشرية بمفهومها العقدي والعملي، ويعصم من أي غبش في التصور والفهم فقال عز وجل:

{ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ } الأنعام 165.

{ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ } فاطر 39.

{ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ } الأعراف169.

{ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ } الزخرف60.

{ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ } الأعراف 69.

ولئن ورد في القرآن الكريم لفظ"خليفة" بصيغ مختلفة وفي سياقات كثيرة، فإن المعنى اللغوي الأصل ينتظمها في اتجاه واحد، وقد ذكر ابن فارس في معجمه أن الخاء واللام والفاء أصول ثلاثة، أحدها أن يجيء شيء بعد شيء يقوم مقامه، ومنه قولهم هو خلف صدق من أبيه، وهؤلاء خلف سوء من قومهم، ومنه أيضا لفظ "خليفة" للذي يخلف من قبله، زيدت فيه تاء التأنيث فيجمع على خلائف مثل كريمة كرائم، ويجمع على خلفاء حتى لا يقع إلا على مذكر مثل ظريف وظرفاء. والأصل الثاني خلاف "قدام" فيقال: هذا خلفي وهذا قدامي، والأصل الثالث التغير، فيقال: خَلَفَ فوه إذا تغيرت رائحته، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم:(لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك). وهذه المعاني كلها تنتظم طبيعة الإنسان، لكون الأجيال منه يخلف بعضهم بعضا بالتناسل والوفاة المتعاقبين، ولقابليتهم التغير سلبا وإيجابا خيرا وشرا إيمانا وكفرا، عافية وسقما، موتا وتحللا في التراب.

ولئن كان تراكم الثقافات الوافدة على المجتمع الإسلامي قد أضفى على لفظ "خليفة" ظلالا ومعاني جديدة لا يحملها الأصل اللغوي أو يتحملها، فينبغي أن لا يغيب عنا أن هذه الآية الكريمة { إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً } تتحدث عن غيب لا سبيل لمعرفته إلا بالوحي قرآنا وسنة صحيحة، وعن مجال عقدي لا يستشهد فيه إلا بما بلغه المعصوم عن ربه وتواتر نقلا عنه، إلا أن هذا المنهج في تفسير كتاب الله لم يلتزم لدى بعض المفسرين، الذين لجأوا عند الشرح إلى الاستشهاد بالإسرائيليات وقد نُهينا عنها[15] ، وإلى الأقوال المنسوبة بغير سند صحيح إلى بعض صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، من أمثال ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهما، فكان الشطط في الفهم والغبش في التصور نتيجة منطقية لهذا التصرف.

15 – قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقال عمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم: " إنّا نسمع أحاديث من يهود تعجبنا، أفترى أن نكتب بعضها؟ " فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أمتهوّكون أنتم كما تهوّكت اليهود والنصارى؟ لقد جئتكم بها بيضاء نقية، ولو كان موسى حيّا ما وسعه إلا اتباعي" (مُتَهَوِّكون أي: متحيرون في دينكم)

إن هذا الاتجاه في تأويل الآية الكريمة، لم ينبثق أول الأمر من فقه أو تفسير أو شرح بالسياق أو بأصول اللغة، وإنما انطلق من محاولات بعض الشعراء التقرب من الملوك واحتلاب أموالهم وأعطياتهم، فأضفوا عليهم في قصائد المدح صفات الخلافة عن الله تعالى[16]، تأثرا منهم برواسب معتقدات دينية ضالة ترى الوجود مظهرا من مظاهر الألوهية كما لدى البوذية والبرهمية، أو تجسد الله تعالى في الإنسان، أو تزعم أنه خلق آدم على صورته، أو أن له ولدا كما لدى اليهودية والنصرانية، تعالى الله على ذلك علوا كبيرا، ثم عندما نشطت حركة التفسير في ظل هيمنة الإسرائيليات والنقل من الثقافات الوافدة والترجمة والقصص وعلم الكلام والفلسفة والجراءة على وضع الحديث وانتحاله، وشطحات مداحي الملوك والأمراء من الشعراء، ولم يجد المشتغلون بالتفسير نصوصا صحيحة يرجعون إليها واستبعدوا المعنى المتبادر لغويا، كان الجنوح إلى هذا الخطأ العقدي باعتبار الإنسان خليفة لله تعالى.

وكعادة كل خطأ، يبدأ صغيرا ثم يتسع، كانت مسيرة تناول هذه الآية بالفهم والشرح، إذ لم يتجاوز المفسرون فيها أول الأمر مجرد عرض الآراء والأخبار إلى المفاضلة بين الآراء والترجيح للأقوال وإصدار الأحكام الحاسمة؛ وهو ما فعله مفسرون مثل ابن الجوزي (508/597هـ) في كتابه "زاد المسير في علم التفسير"، حيث استعرض ما ورد في شرح الآية من أقوال ليس لها أصل في الوحي كتابا وسنة، فقال معلقا على خبر بأن آدم خلف ملائكة كانوا يعيشون في الأرض:(وفي هؤلاء الملائكة قولان: أحدهما جميع الملائكة، قاله السدي وأتباعه، والثاني أنّهم كانوا مع إبليس حين أهبط إلى الأرض، ذكره أبو صالح عن ابن عباس... ونقل أنّه كان في الأرض قبل آدم خلق، فأفسدوا فبعث الله إبليس في جماعة من الملائكة فأهلكوهم. والخليفة هو القائم مقام غيره، يقال: هذا خلف فلان وخليفته. وفي معنى خلافة آدم قولان أحدهما أنّه خليفة عن الله تعالى في إقامة شرعه ودلائل توحيده والحكم على خلقه، وهذا قول ابن مسعود ومجاهد، والثاني أنّه خلف من سلف في الأرض قبله، وهذا قول ابن عباس والحسن).

ثم ازدادت زاوية الخطأ انفراجا عند من جاء بعده، فأخذ بعض المفسرين يميلون إلى ترجيح رأي على رأي وتأويل على تأويل، كما هو واضح في" مجمع البيان " للطبرسي، الذي يعدّ من أكابر علماء الإمامية في القرن السادس الهجري إذ قال: { إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً } (أي خالق في الأرض خليفة؛ أراد بالخليفة آدم عليه السلام، فهو خليفة الله في

16 – مثل قول مسكين الدارمي في معاوية وابنه يزيد وبني أمية:

بني خلفاء الله مهلا فإنّما يبوئها الرحمن حيث يريد

إذا المنبر الغربي خلا ربّه فإنّ أمير المؤمنين يزيد

وقول حادي عبد الملك بن مروان:

يا أيّها البكر الذي أراكا عليك سهل الأرض في ممشاك

خليفة الله الذي امتطاكا لم يعل بكرا مثل ما علاكا

أرضه يحكم بالحق؛ إلاّ أنّه تعالى كان أعلم ملائكته أنّه جعل من ذريّته من يفسد فيها، عن ابن عباس وابن مسعود. وقيل: إنّما سمى الله تعالى آدم خليفة، لأنّه جعل آدم وذريّته خلفاء للملائكة، لأن الملائكة كانوا من سكان الأرض).

ثمّ بلغت زاوية الخطأ في تفسير هذه الآية مداها لدى القرطبي في القرن السابع الهجري، إذ استعرض في كتابه " الجامع لأحكام القرآن " مختلف التأويلات المتداولة في الموضوع، ولكنّه تبنى في النهاية نظرية " الخلافة عن الله " بقوله: (والمعنيُّ بالخلافة هنا في قول ابن مسعود وابن عباس وجميع أهل التأويل، آدم عليه السلام، وهو خليفة الله في إمضاء أحكامه وأوامره)، ثم لم يكتف بهذا القدر، بل وظف هذا التأويل أسوأ توظيف، بأن جعله قاعدة لنظام حكم استبدادي كهنوتي نُسب ظلما وعدوانا إلى الإسلام، فقال: (هذه الآية – وكان حريّا به أن يقول: هذا التأويل الفاسد للآية – أصل في نصب إمام وخليفة يسمع له ويطاع لتجتمع به الكلمة، وتنفذ به الأحكام، ولا خلاف في وجوب ذلك بين الأئمة إلا ما رُوي عن الأصم).

إن القرطبي – على فضله – تورط في هذا التأويل الذي لا أصل له، وليس هذا بمستغرب منه في تفسيره، فقد دأب على مجاراة عصره في النقل عن الإسرائيليات والاستشهاد بها، وعدم الدقة في المعلومات الكونية؛ من ذلك ما ذكره في قوله تعالى: { وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ } الحاقة17، من أنهم ثمانية أملاك على صورة أوعال، ثم زاد المفسرون بعده أنهم: "أنهم أوعال بين أظلافهن وركبهن مثل ما بين سماء إلى سماء"، ثم: "على ظهورهم العرش بين أسفله وأعلاه مثل ما بين سماء إلى سماء".

ثم تتابع المفسرون على الوتيرة نفسها، يحاولون تكريس هذا المعنى وتبريره، بعضهم لأهداف سياسية، وبعضهم بحسن نية تقليدا ومتابعة؛ مثل علاء الدين البغدادي الخازن في كتابه " لباب التأويل " حيث يقول: (والصحيح أنه سمي خليفة الله في أرضه لإقامة حدوده وتنفيذ قضائه).

ومثل أبي حيان الأندلسي (682- 749 هـ) في كتابه"البحر المحيط" وقد حاول بهرجة هذا التأويل، وتبريره وتعميمه على جميع البشر، فوضع بذلك اللبنة الأولى التي بنى عليها المحدثون من المفسرين ادعاءهم بأن الإنسان – مطلق الإنسان – خليفة لله في الأرض، وذلك بقوله:(... ومناسبتها أنه تعالى لما امتنّ عليهم بتشريف أبيهم وتكريمه وجعله خليفة وإسكانه دار كرامته وإسجاد الملائكة تعظيما لشأنه... ولا شكّ أن الإحسان إلى الأصل إحسان إلى الفرع، وشرف الفرع بشرف الأصل..).

ومثل أبي السعود في القرن العاشر وقد تردّد في الحسم، ولكنه حاول تبرير ما ذهب إليه غيره من خلافة آدم عليه السلام لله سبحانه وتعالى، فقال:(والمراد بالخلافة إمّا الخلافة من جهته سبحانه وتعالى في إجراء أحكامه وتنفيذ أوامره بين الناس

وسياسة الخلق، لكن لا لحاجة به تعالى إلى ذلك، بل لقصور استعداد المستخلف عليهم وعدم لياقتهم لقبول الفيض بالذات، فتختص بالخواص من بنيه، وإمّا الخلافة ممن كان في الأرض قبل ذلك فتعمّ حينئذ الجميع).

ومثل شهاب الدين الآلوسي البغدادي في القرن الثالث عشر الذي قرر أن (آدم خليفة لله في أرضه) ثم برر ذلك بقوله:(لا لحاجة به تعالى، ولكن لقصور المستخلف عليه، لما أنّه في غاية الكدورة والظلمة الجسمانية، وذاته تعالى في غاية التقديس).

وغير خفي ما في قولي أبي السعود والألوسي من تأثير للفلسفة اليونانية ونظرية الفيض التي عنى بها الفلاسفة أن الله تعالى – واجب الوجود كما يسمونه – لا يخلق الموجودات، ولكنها تفيض عنه وتنبثق منه بدون إرادته، أي تصدر منه وتتولد عنه بطريق الفيض بدون وعي منه أو إرادة. وهذا الفيض أو الصدور أو الخروج، في عقيدتهم، دائم وضروري وواجب. وكما تخرج الشجرة الثمرة ليس لها إلا ذلك، كذلك يصدر الوجود عن الله ليس له إلا ذلك، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، وهذه النظرية في أصلها تلفيق لهلوسات أفلوطين وفيلون والمعتقدات الوثنية والمجوسية التي تعتقد أن الموجود الأول الواحد لا يفيض عنه إلا واحد هو العقل الكلي، أو العقل الأول، أو العقل الفعال، تختلف التسميات والمقصود واحد. ومن هذا العقل الكلي تفيض النفس الكلية، وعن النفس الكلية تفيض الأشياء المادية. وكلما فاض شيء من شيء تعلق الفائض بمصدره وامتلأ منه نورا. فالعقل تعلق بالموجود الأول وتلقى منه النور، والنفس تعلقت بالعقل وتلقت منه النور، والموجودات المادية كذلك تعلقت بالنفس. والإنسان الذي يتلقى الفلسفة، يتحول إلى عقل متصل بالموجود الأول، يتلقى منه النور والحقيقة، ولذلك له حق التحكم فيمن سواه من البشر؛ لأنه هو الوحيد الذي يستطيع أن يبلغهم إلى السعادة، وهو المُلْهَمُ القادر، نبيا كان أو فيلسوفا أو ملكا.

لكن هذا الاتجاه في تفسير الآية وتأويلها بغير علم من كتاب أو سنة، لم يمنع بعض كبار الأئمة من التثبّت في الأخذ والتشبّث بالحق، مثلما هو حال الإمام الشوكاني الذي أهمل ما ذهب إليه عامة المفسرين واكتفى بقوله:(والخليفة هنا معناه الخالف لمن كان قبله من الملائكة، ويجوز أن يكون بمعنى المخلوف، أي يخلفه غيره).

والإمام ابن كثير الذي استعرض هذه التأويلات دون أن يأخذ بها، وإنما قرر حاسما في الأمر بقوله: { إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً }: أي قوما يخلف بعضهم بعضا قرنا بعد قرن، وجيلا بعد جيل، كما قال تعالى: { وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ } الأنعام 165، وقال: { وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ } النمل 62، وقال: { وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ} الزخرف 60، وقال: { فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ} الأعراف 169. ثم انتقل للرد على أصحاب التأويلات الأخرى بقوله:(وليس المراد هاهنا بالخليفة آدم عليه السلام فقط، كما يقوله طائفة من المفسرين،

وعزاه القرطبي إلى ابن عباس وابن مسعود وجميع أهل التأويل، وفي ذلك نظر، بل الخلاف في ذلك كثير حكاه الرازي في تفسيره وغيره).

من هذا الخطأ في التفسير تسلل الغبش إلى التصور الإيماني لدى بعض المسلمين، فدأبت بعض الأدبيات الإسلامية الحديثة، عند شرحها لهذه الآية الكريمة، على الزعم بأنّ الإنسان خليفة لله تكرمةً منه سبحانه لآدم وبنيه. ورد هذا التأويل لدى أغلب مفسّري العصر الحديث دون تبيّن أو تثبّت أو تمحيص، ومتابعة منهم لما ورد في بعض كتب التفسير القديمة ضعيفا وغير معتبر، أو ترجيحا اجتهاديا على غير قاعدة شرعية، وتأثّرا منهم بالتوجهات الفكرية الليبرالية الحديثة التي تدعي تكريم الإنسان وتقديسه، ومحاولة لوضع الإسلام في خط مواز أو مساو أو متجاوز لها.

ثمّ تلقف هذا التأويل بعض الدعاة المعاصرين، محاولين الاستفادة منه في مجال تأليف القلوب لما يثيره في النفس من أسباب الحبور والسعادة، وما يدغدغه فيها من كوامن التسامي والطموح إلى الكمال والتعالي على المخلوقات الأخرى غير البشرية.

إن ما ذُهِبَ إليه من الزعم بأن الإنسان خليفة لله في الأرض قد يؤدي إلى فساد العقيدة، لأن تصور إمكانية قيام مخلوق بالنيابة عن الله شرك صريح وإلحاد، وتصور لله على غير حقيقته، تجسيدا ومحدودية وغيابا عن أماكن ينوب عنه فيها غيره، وحضورا في أماكن يمنعه الحضور في غيرها، واحتمالا لوجود خلفاء آخرين له في كواكب وأكوان أخرى مادام له خليفة في الأرض، أو لدى أمم غير بشرية أخرى كالجن والحيوان مادام له خليفة لدى أمة البشر، وزعما بأن تقدس ذات الله سبحانه وتعالى يمنعه من تسيير أمر الإنسان مباشرة كما زعم الألوسي، وبأن خاصة من البشر دون عامتهم لهم القابلية واللياقة لقبول" الفيض بالذات " من الله تعالى، كما ذكر أبو السعود.

وقد نشأ عن هذه التصورات غير السليمة تفكك في المجتمع الإسلامي عبر التاريخ، ونشوء فرق ومذاهب وطرق صوفية مغرقة في الضلال، قالت بالحلول، والتناسخ، والاتحاد، والانتقال. وكانت نقطة انطلاقها دائما عقيدة التجسيد، تجسيد الله في الإنسان، كما يعتقد النصارى في المسيح، وكما تحوم حوله شروح بعض المفسرين وتأويلاتهم.

ولئن كان لهذا الانحراف العقدي جذور في عمق المسيرة الإنسانية الضالة، منذ كان طغاة الحكام يعدون أنفسهم آلهة كما في عهد الفراعنة، أو وكلاء للآلهة كما كان حال السومريين، أو أحرارا مقدسين من حقهم استعباد غيرهم كما كان لدى اليونانيين، فقد تسرب إلى عقيدة بعض المسلمين تحت مظلة الزعم بأن الإنسان خليفة لله تعالى، ثم بلغ الانحراف ذروته لدى من أوغلوا في الحلول والاتحاد وبلوغ الكمال المسقط للتكليف كما يزعمون، وهو ما يلتقون به مع الوجودية في اعتبارها الإنسان دائم السعي ليصير إلها، في حين أن العقيدة الإسلامية بعيدة كل البعد عن هذه الأضاليل، وليس لديها

أي جنوح نحو إخراج الإنسان عن إطاره البشري في أي اتجاه، سواء في اتجاه تحوله إلى إله، أو ملاك، أو جن، أو حيوان؛ إن الإنسان في الإسلام ينبغي أن يبقى إنسانا، يقوم وينام، ويصوم ويفطر، ويتزوج ويطلق، ويخطئ ويصيب، ويذنب ويتوب، ويتذكر وينسى، ويتعب ويستريح، إن الإسلام ليس فيه مثال مطلق يخرج الإنسان عن فطرته وطبيعته، والمثال المطلق الوحيد لديه هو التطبيق الممكن لتعاليمه، في حدود طاقة المرء العقلية والجسدية والتصرفية. والسعيُ اليوميُّ لبلوغ هذا " المثال الممكن " هو الذي يعدّ كمالا.

إن الزعم بأن الإنسان خليفة لله تصور مبتدع لم يرد به كتاب، ولم تتحدث به سنة، ولا يستسيغه عقل سليم، كما أن الصحابة رضي الله عنهم، وهم تلامذة النبي عليه الصلاة والسلام وأمناء الرسالة بعده، وأعرف بلغة القرآن، عالجوا مشاكلهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية بُعيد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم؛ فلم يتورط أحد منهم في هذا التصور، لا رواية لحديث صحيح، ولا احتجاجا في مواطن كانوا أحوج فيها إلى الدليل والبرهان والإقناع، ولا استشهادا بهذه الآية الكريمة من أجل تنصيب مرشح للإمارة أو استبعاد آخر منها. ويوم السقيفة خير شاهد على ذلك، فقد كانوا يطلقون على القائد المرتقب للأمة لفظ " أمير"، كما قال الأنصار، فلم يرد عليهم أبو بكر وعمر بأي نص قرآني دحضا لرأي، أو دعما لغيره؛ ثم ينفض اجتماع السقيفة عن اختيار أبي بكر لتسيير شؤون المسلمين، دون أن يتفقوا حتى على لقب يطلقونه على أميرهم الجديد، فيخاطبه بعض عامة المسلمين: يا خليفة الله، ولكن أبا بكر ينتفض لما في ذلك من خلل عقدي، ويرد عليه بما ذكره السيوطي في "تاريخ الخلفاء": وابن خلدون في " المقدمة ": (لست خليفة الله ولكنني خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم).

إن الله تعالى غني عن العالمين، لا يشغله شأن عن شأن، ويستحيل أن ينوب عنه مخلوق في تسيير خلقه، لأنه مالك كلّ شيء ومليكه وربّه ورازقه ونافعه وضاره ومحييه ومميته، وهو معهم أينما كانوا بغير حلول أو انتقال أو تجسيد أو تشبيه، يسمع دعاءهم ويجيب مضطرهم ويعلم سرّهم ونجواهم، بدون واسطة من جنّ أو إنس أو ملائكة أو غيرهم؛ والإنسان مخلوق من جملة مخلوقات الله، عبد من عبيده طوعا أو كرها، مقهور تحت قاهريّته المطلقة، مربوب تحت ربوبيته الشاملة، بقيوميته الكاملة.

والصلة بين الله والإنسان رسولا كان أو نبيا أو شخصا عاديا صلة عبودية خالصة ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ الذاريات56، على سبيل الحصر والتأكيد، الإنسان في التصوّر الإسلامي شيء مثل جميع المخلوقات الأخرى، والله سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء وهو السميع العليم.

هذا التصوّر الشامل عندما يختل، يختل تبعا لذلك الدين كلّه، عقيدة وعبادة وشريعة وعلاقات اجتماعية. فينشأ بين البشر من يزعم لنفسه أو لغيره من المخلوقات، بشرا أو جنّا أو ملائكة أو حجرا أو شجرا، صفاتٍ مميزةً وقدراتٍ خاصةً

لتلقي الإلهام أو الغيب أو الحكمة أو النور، فتفتح بذلك أبواب للضلال بالزيادة أو النقص، أو بإنشاء التكاليف أو إلغائها، أو بالشرك ظاهرا وخفيا.

ولعل معترضا على هذا المفهوم للفظ "خليفة" في هذه الآية الكريمة يستظهر بمخاطبة الله تعالى عبده داود عليه السلام وقوله له: { يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ } ص 26، ولكن هذا الخطاب لا يعني أنه خليفة لله، وإنما هو خليفة لمن سبقه من ملوك بني إسرائيل، ومخلوف من بعده بابنه سليمان عليه السلام، لإقامة شريعة موسى عليه السلام، ومنهاج اليهود من أهل الكتاب أن تسوسهم الأنبياء، والملك والنبوة عندهم يجتمعان في شخص واحد، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبي خلفه نبي وإنه لا نبي بعدي)، وقال تعالى: { وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا } المائدة 20، أما نحن المسلمين فمنهجنا غير منهج أهل الكتاب كما قال تعالى: { لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ } المائدة 48، والرسول صلى الله عليه وسلم أشرفُ ما خُوطِب به فعُرف البشر في وجهه، كما لم يعرف من قبل، حين كان يصفه الله تعالى في القرآن بالعبد، مثل قوله: { فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى } النجم10، وشرعتنا في هذا المجال، نظامَ حكم وخلافةً على منهاج النبوة، مرجعنا فيها من القرآن الكريم قوله تعالى: {وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ} الشورى 38، ومن التوجيه النبوي سنته العملية صلى الله عليه وسلم وقد جعل كافة المسلمين مسلطين على أمرهم الدنيوي تقريرا وتنفيذا ومحاسبة وانتفاعا، وسنته القولية فيما رواه أحمد والترمذي وصححه الألباني: (تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها؛ ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها؛ ثم تكون ملكا عاضا، فيكون ما شاء أن يكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها؛ ثم تكون ملكا جبرية فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها؛ ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، ثم سكت).

العلم أداة استعمار الأرض وعمرانها

قال الله تعالى: { وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (31) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (32) قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (33) } سورة البقرة

يَعْلَمُ الملائكةُ أن الله تعالى لم يخبرهم بخلق آدم واستخلافه في الأرض إلا لحكمة قد تتعلق بهم، ولذلك سألوا ربهم استيضاحا للحكمة من ذلك واستكشافا لطبيعة علاقتهم بهذا المخلوق الجديد الذي فيه من يفسد ويسفك ويعصي، فكان الجواب الإلهي لهم ذا شقين، شق تربوي إذ نبههم إلى حقيقة إيمانية مجملة بقوله {إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ } البقرة 30، وشق تعليمي عملي فيه زيادة بيان وتفصيل للحقيقة المجملة، إذ قدم لهم المثال الواضح على قصور علمهم، وهو أول تجربة لآدم عليه السلام بعد تمام خلقه فقال عز وجل: { وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ...}.

لقد كانت أول تجربة لآدم بعد نفخ الروح في جسده هي العلم، العلم الذي تميز به عن كثير من الخلائق غيره، ولذلك امتن الله به على بني آدم عبر حقب خلافتهم في الحياة الدنيا، فقال: { الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ} الرحمن 3/1، وكان أول وحيه إلى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في سورة العلق: { اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ } العلق 5/1، وخاطبه بقوله: {وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا } وامتن على الأمة الإسلامية بقوله: { هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ }، وجعل العلم أداة للاكتشاف والاستكشاف والاستنباط وتحقيق أمن المجتمع ووحدته فقال: { وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ }، ومقياسا للتفاضل بين الناس إذا اقترن بالتقوى فقال: { يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} المجادلة 11.

إلا أن تميز آدم عن الملائكة بهذا العلم لا يسمح لأحد بتفضيله على الملائكة، كما لايسمح تميز الملائكة عنه بالطاعة المطلقة والعبادة المسترسلة بتفضيلها على آدم، لأن لكل من الطرفين مجاله الخاص به، ولأن المفاضلة بينهما من الغيب الذي استأثر الله به، ومصدرنا الوحيد فيه هو الكتاب والسنة وقد سكتا عن هذا الأمر، فلا نتدخل فيه.

كل ما يعنينا من الموضوع بينه الله لنا، وما لا ضرورة عقدية لنا فيه استأثر به في الغيب المستور، ولقد علَّم الله تعالى آدم علما، ثم سأل الملائكة عن هذا العلم فجهلوه، ثم أمر آدم بعرض هذا العلم أمامهم، فوقفوا على مكمن جهلهم ومدى قصور معرفتهم، وتعلموا بالتجربة ألا يستعجلوا النتائج أو يستبطئوها، لأن الله العليم الحكيم يعلمهم ما يهمهم ويهديهم إلى مراشدهم في الوقت المناسب واللحظة المناسبة التي يقدرها هو ولا يقدرها غيره، وحين علموا ذلك { قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ }، هنالك أعاد رب العزة تذكيرهم بحقائق الإيمان الذي به تقوم السموات والأرض وما فيهن { قال أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ }.

إن لله تعالى في كل أمر حكمة، بين بعضها واستأثر ببعض، حكمة خلق السماوات والأرض، وحكمة خلق الملائكة والجن والإنس وخلق ما لا يعلمون، وحكمة خلق الموت والحياة والبعث والنشور والخلود في الجنة أو في النار، نتلقى من هذه الحكم ما اقتضى علم الله ومشيئته أن نتلقاه، ولا نسأل عما حجب عنا منها، امتثالا لأوامره، وثقة في حكمته، وحياء منه عز وجل.وتسليما يقينيا بأنه سبحان وتعالى { لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ } الأنبياء23.

ولئن علم الله تعالى آدم ما لم يعلمه الملائكة من قبل، فإنما ذلك تزويد له بأدوات استخلافه في عالم الأرض التي هي مجال تكليفه وابتلائه، وما دام الملائكة سيوكلون بمهامهم في هذه الساحة الآدمية فلا بد أن يخبرهم آدم بنفسه عن هذه الأسماء التي تعلمها من ربه والتي هي أدوات عمله الذي يسأل عنه وتشهد عليه الملائكة، ولذلك أمره ربه فقال له: { قَالَ يَا آَدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ }، وكأنما ذلك من آدم شهادة منه على نفسه في الملأ الأعلى بأنه تزود لساحة الابتلاء المقبلة بكل ما يحتاجه، وفي هذا المشهد العظيم من التربية والتعليم والترشيد للطرفين ملائكة وآدميين ما ينير القلوب ويهذب النفوس ويشرح الأفئدة ويهدي إلى معالم الإيمان والإحسان، ويعين على تحمل الأمانة وأدائها، فلقد علم الله تعالى آدم الأسماء كلها، ليعمل بها، ثم زود الملائكة بها للشهادة عليها ومراقبة التزام الآدميين بلوازم العبودية في العمل بها، وبذلك نال كل طرف ما يحتاجه، ولا عذر لأحد في التقصير أو التبذير أو التخسير.

لقد اختلف المفسرون في حقيقة الأسماء التي تعلمها آدم من ربه، فشرحها الراغب الأصفهاني في "مفردات ألفاظ القرآن الكريم" لغويا بأنها " الألفاظ والمعاني مفرداتها ومركباتها، وبيان ذلك أن الاسم يستعمل على ضربين: أحدهما بحسب الوضع الاصطلاحي، وذلك هو في المخبر عنه نحو رجل وفرس، والثاني: بحسب الوضع الأولي، ويقال ذلك للأنواع

الثلاثة المخبر عنه، والخبر عنه، والرابط بينهما المسمى بالحرف، وهذا هو المراد بالآية، لأن آدم عليه السلام كما علم الاسم علم الفعل، والحرف، ولا يعرف الإنسان الاسم فيكون عارفا لمسماه إذا عرض عليه المسمى، إلا إذا عرف ذاته. ألا ترى أنا لو علمنا أسامي أشياء بالهندية، أو بالرومية، ولم نعرف صورة ما له تلك الأسماء لم نعرف المسميات إذا شاهدناها بمعرفتنا الأسماء المجردة، بل كنا عارفين بأصوات مجردة، فثبت أن معرفة الأسماء لا تحصل إلا بمعرفة المسمى، وحصول صورته في الضمير، فإذن المراد بقوله: { وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا } الأنواع الثلاثة من الكلام وصور المسميات في ذواتها".

أما حقيقة هذه الأسماء فقد قال السدي عمن حدثه، عن ابن عباس: "عرض عليه أسماء ولده إنسانًا إنسانًا، والدواب، فقيل: هذا الحمار، هذا الجمل، هذا الفرس"، وقال الضحاك عن ابن عباس: " هي هذه الأسماء التي يتعارف بها الناس: إنسان، ودابة، وسماء، وأرض، وسهل، وبحر، وجمل، وحمار، وأشباه ذلك من الأمم وغيرها"، وقال مجاهد:" علمه اسم كل دابة، وكل طير، وكل شيء"، وروي عن سعيد بن جبير وقتادة وغيرهم من السلف: "أنه علمه أسماء كل شيء"، واختار ابن جرير "أنه علمه أسماء الملائكة وأسماء الذرية"، وهذه الأقوال كلها لا تستند إلى نص من كتاب أو حديث صحيح مرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ولذلك علق الإمام ابن كثير عليها وعلى إسنادها بقوله:" فهذا الإسناد إلى هؤلاء الصحابة مشهور في تفسير السُّدِّي ويقع فيه إسرائيليات كثيرة، فلعل بعضها مُدْرَج ليس من كلام الصحابة، أو أنهم أخذوه من بعض الكتب المتقدمة. والله أعلم".

ولئن كانت طريقة تعليم هذه الأسماء مشافهة ومخاطبة أو إلقاء في الروع والعقل مما استأثر الله بعلمه، على رغم أن بعض المفسرين حاولوا الخوض في ذلك بما لا يثبت بدليل شرعي، فإن أداة التعلم لدى آدم، وهي سلاح السعي في الحياة الدنيا، وقوام التكليف والمسؤولية فيها، هي الطاقة العقلية الهائلة التي ركبت فيه وورثتها عنه ذريته، وبها استوعب الأسماء كلها، أسماء ما هو كائن وما يكون في مدة استخلافه في الأرض، واستوعب طرائق العمل بها والاستفادة منها وتسخيرها والاستعمار بها، تطويرا واكتشافا واختراعا، عبادة منه لربه وقياما بما وكل إليه، عُلِمَ ذلك بقوله تعالى { إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } الرعد4، وقوله { أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ } الحج 46، وعلم ذلك أيضا من سياقات أخرى قرآنية وسنية وتشريعية كثيرة أخرى لا يتسع المقام للاستطراد بها.

إن العقل البشري المزود من خالقه بجميع ما تحتاجه الحياة الدنيا هو قناة تلقي الأوامر والنواهي، وأداة استيعاب التكاليف والقيام بمختلف الأعمال والتصاريف، ولئن كان الوجود المادي على الأرض وتحت السماء تسخيرا وإعمارا هو مجال الابتلاء كما قال تعالى: { لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا } هود 7، فإن العقل هو محراث التثوير والتطوير والتنوير في هذا

المجال، ولذلك علمه ربه الأسماء كلها. أما الوجود الغيبي وما يستتبعه من عقائد وتشريع وتكليف فقد تكفل القرآن والسنة بالهداية إليه وتوضيح محجته { لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ} ق37.

لقد دلت هذه الآية الكريمة على أن المعرفة هي أساس التكليف، وسبب الاصطفاء والتفضيل، وللمعرفة مجالان مادي وغيبي، وأداتان عقل وقلب، العقل للإدراك والتدبير، والقلب للإيمان بالغيب الذي يقصر العقل عن ارتياد آفاقه، والمؤمن ينبغي أن يزاوج بينهما بشكل متوازن ودقيق لا يرقى إليه الخلل، فيكونان لديه متوازيين مترافقين في حالات، ومستقلين عن بعضهما في مجالات، ومتعاونين أو متداخلين بنسب معينة أو مترادفين، يقف أحدهما حينا ليتابع الآخر المسيرة، كفرسي رهان، بينهما برزخ لا يبغيان.

ولئن دعا الوحي إلى ضرورة توقير الغيب وتناوله بالقلب السليم، المليء بالإيمان الذي لا يناقش ولا يجادل ولا يسأل، مؤكدا حقائق متناهية في المطلق، لا يحيط بها العقل المجرد فقال تعالى: { وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ } هود 123، وقال: { وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ } آل عمران 179، وقال: { لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ } الأنبياء 23، وقال: { عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا } الجن 26، فإنه في المقابل يدعو في مواطن أخرى إلى ضرورة استخدام العقل، وينعى على من جمد عقله وعطله، بلادته وغباءه وضلاله، قال تعالى: { إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ } الأنفال 22.

ولئن كان الكون المادي في الأرض وما حولها مسخرا للوافد الجديد، آدم وذريته، ذلولا معطاء للرزق، ميسرا قابلا للتفاعل مع جهد السعي والإنتاج، كما قال تعالى: { هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ } الملك15، وقال: { اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } الجاثية13، وكان الدين نفسه محتاجا إلى أداة لتنزيله على واقع هذا الكون المادي عبادة فردية وجماعية وإقامة أمة ربانية شاهدة تأمر نفسها وغيرها بالبر، فقال: { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ } آل عمران 110، وقال: { أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ } البقرة 44، وكان في الأنفس والآفاق حول الأرض آيات تدل على الواحد عز وجل، وتهدي إلى الحق وإلى صراط مستقيم، فقال عز وجل: { سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ } فصلت53، فإن الله تعالى قد جعل لكل ذلك في آدم وذريته جهازا هائلا ذا طاقة قوية متنامية تناسب كل عصر وكل حال، وتستثمر في كل مجال استخلافي على الأرض وما حولها، هذا الجهاز الضخم العجيب هو العقل بخصائصه وتلاوينه وما تبين لنا منه وما يتبين مع توالي التطور والتحضر والبحث والاستكشاف.

إن العقل أداة للتفكير، والتحليل، والملاحظة، والمقارنة، والتجريد، والتعميم، والتجربة، والاستدلال، والمحاجة، والمجادلة، والمحاكمات المنطقية، واستقراء الجزئي وصولا إلى الكلي، ومعالجة الخاص والمحدود والمقيد لاستكناه العام والمطلق، مجاله الكون المادي الفسيح اكتشافا واختراعا وتطويرا وتسخيرا، وميدانه المعاملات البشرية المتنوعة التي لم ينزل فيها الشرع أحكاما معينة... يعتبر بالأدلة، ويعتد بالمقابلات والمقارنات والنتائج والمقاصد والغايات، يحسن ويقبح فيما ترك له أمر تحسينه وتقبيحه، ويميز المواقف السلوكية المناسبة لأقدار الرجال وظروف الزمان والمكان... وإذا ما استخدم في مجاله وحدوده وطاقته، فهما و تدبيرا وتخطيطا وتنفيذا، لم يناقض معقوله المنقول، ولم يتلجلج في الجواب مسؤولٌ، وكان نورا وهداية وتوفيقا، كما كان خير طاقة تقوي القلوب وتشد أزرها وتطمئنها وتساعدها على الثبات ووضوح الرؤية، مثلما هو شأن إبراهيم عليه السلام في حواره مع نفسه أثناء تأمله السماء بعقله في لحظة صفاء قلبي وشفافية روحية: {فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يا قوم إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ} الأنعام 78/76. قال الباقلاني في الإنصاف: "...وقال عز وجل في الأمر باتباع حجة العقل: { وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ } الذاريات21، وقال: { أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ } الواقعة59/58، وقال: { إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ } آل عمران 190، وقال: { وضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ } يس79/78، وقال تعالى: { وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ } الروم 27، فأمرنا بالاعتبار والاستبصار ورد الشيء إلى مثله أو الحكم له بحسب نظيره، وهذا هو الحكم المعقول والتقاضي إلى أدلة العقول".

إلا أن هذا العقل وهو مسخر للاستخلاف على الأرض لا يرتاد وحده آفاق الغيب؛ لأنه محدود بالزمان والمكان، والمحدود لا يحيط بالمطلق، ولأن الدين الذي هو أهم قيمة لدى الإنسان مصدره الغيب، ومحضنه الدافئ القلب، ثم بعد ذلك يأتي العقل للدعم والتوجيه والترشيد. لذلك وجب أن يتترس في المجال الغيبي بالكتاب والسنة، فهما وتطبيقا، وبقناة أخرى وهبها الله للإنسان هي القلب الحي الرباني الذي به اليقين والإيمان والتسليم للغيب والإحسان. ولئن كان الدين طِبَّ الحياة ودواءَها في المجالين الغيبي والشهودي، فإن دور العقل محصور هنا في أن يأخذ رفيقا متأنيا مشفقا رحيما بيد المرء ويسلمه إلى طبيبه النِّطاسِيّ الحكيم الذي هو الدين.

إن الشطط في الاعتماد على العقل وحده يخرج عن دائرة السواء، ويجعل تصرفات العقول مصادمة لقواطع الشرع والمنقول، كما أن استخدامه بضوابط الكتاب والسنة يضمن السواء في جميع الميادين، ويجعل المرء على المحجة الواضحة والسبيل البين المستقيم، والعلم الطبيعي متطورا مزدهرا في خدمة الإنسانية ومن أجل سعادتها، ولقد حققت العقول

السوية عندما سخرت في مجالها وحدودها، ما نراه من تقدم وريادة وتطور في مختلف العلوم، صناعة، وزراعة، وطبا، وفلكا، وفضاء، وذرة، وتجلى بذلك في النشاط الدؤوب اليومي للإنسان ما أودعه خالقه في عقله من بيان، وما علّمه إياه من أسرار للنفس والأرض وما حولها في الآفاق والأكوان، كما تورطت العقول السائبة عندما تجاوزت حدودها وهي تعالج قضايا الغيب والشهود في متاهات من الأخطاء هبطت بها إلى مستوى تساؤلات الصبية والحمقى، دون أن تحقق أدنى نتيجة.

بهذا العقل النير الذي علمه ربه الأسماء كلها فاستوعبها، بين رب العزة للملائكة آية أخرى من آياته التي كانوا يجهلونها، ونبههم إلى حقائق إيمانية تربوا عليها وغابت عنهم في لحظة انبهار بالمعجزة الربانية الجديدة عليهم، معجزة الخلق الجديد الذي يتعلم ويستخلف، فيطور ما استخلف فيه من إعمار، ويكتشف ما أودع في خلافته من أسرار، ويعبد ذلك كله للواحد القهار، فخاطبهم بقوله: {قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ } البقرة 33/31.

لقد حاول الفقهاء من قبل البحث عن محل العقل من الإنسان، فذهب الشافعي إلى أنه القلب مستشهدا بقوله تعالى: { لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ } ق37، وقوله: { فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا } الحج 46، ولكن القلب في هاتين الآيتين الكريمتين أطلق على العقل.

وذهب آخرون منهم أبو حنيفة وأحمد وابن قيم الجوزية إلى أن محله الدماغ. وحاول الغزالي التوفيق بين الرأيين فقال: "وقول القائلين واختلافهم في محل العقل فمن قائل إن محله الدماغ، ومن قائل إن محله القلب كلام القاصرين عن درك حقيقة ذلك، واختلافهم في ذلك لعدم استقرار العقل على نسق واحد، وانجذابه إلى البارِّ تارة وإلى العاقِّ أخرى وللقلب والدماغ نسبة إلى البارّ والعاق، فإذا رئي في تدبير العاق قيل مسكنه الدماغ، وإذا رئي في تدبير البارّ قيل مسكنه القلب".

إلا أن أول محاولة علمية تجريبية في تاريخ العلم والطب كانت قيام الشيخ الرئيس ابن سينا بتشريح الدماغ ونشر نتائج عمله في كتابه " التشريح "، فكان أول من ربط بين العقل والدماغ في بعض المظاهر الحسية والفكرية، وأول من عين مناطق في الدماغ لبعض أوجه النشاط العقلي والحسي للإنسان.

واستمرت مسيرة البحث عن أسرار الدماغ بعد الشيخ الرئيس دهرا لم تتجاوز فيه ما حققه إلا بقليل، إلا أنه في القرن الثامن عشر الميلادي نشط الاهتمام العلمي بوظائف الدماغ نشاطا ملحوظا، وتطورت التجارب التشريحية بشكل أكثر دقة، وتأكد سريريا أن الدماغ هو المنظم لأكثر مظاهر نشاط الإنسان العقلي والفكري وقواه الإرادية والاختيارية، ولجميع

فعاليات جسمه غير الإرادية كحركة الرئتين والقلب والجهاز الهضمي وما سواه. وكشفت هذه الدراسات عن مدى طاقة الدماغ البشري التي بلغ ما عرف من خلاياها أكثر من اثني عشر مليار خلية، تستطيع اختزان أكثر من مائة وعشرين مليار وحدة معلومات. ومع ذلك بقي الشك لدى العلماء حول مقدار الطاقة التي يستخدمها في ممارسته نشاطه الفكري، ما بين من يزعم أنه يشتغل بكامل طاقته، وبين من يدعي أنه لا يشتغل إلا بنسبة 12 في المائة من طاقته المخزنة.

إلا أن هذه الدراسات والتجارب تغفل حقيقة علمية تعد نقطة الارتكاز في أي بحث علمي رصين، هي أنها تتعامل مع مخلوق متكامل مادة وغيبا، جسدا وروحا، أفعاله وتصرفاته وأفكاره تصاغ بقواه كلها مجتمعة، فيها من دماغه ومن قلبه وأعصابه وأحاسيسه وروحه وما ورث عن أصوله، وتأثيرات بيئته ومجتمعه، وفيها من عوامل الروح وأقدار الغيب ما لايحيط به الإدراك وما لا يظهر في مشارح الأطباء ومختبرات العلماء.

إن أيا كان لا يجوز أن يستخلص من اللبن الحليب مشتقاته جبنا أو زبدة وغيرهما ثم يدعي أن هذه المستخلصات هي اللبن ولو أعاد خلطها كلها مع بعضها، كذلك لا يجوز لمن يدرس الدماغ البشري أن يدعي أنه بذلك يعرف عقل الإنسان وإن اكتشف بعض أسراره ومكوناته وفعالياته، وهذا الأمر عام في كل المخلوقات الإلهية، لا يكفي معرفة جزء منها للزعم بأنها عرفت كلها. وهذا من أسرار وظيفة الاستخلاف في الأرض، ومحفزات الإنسان فيها لاستكناه أسرارها واكتشاف غوامضها وتطوير مرافقها، وتعبيد الحياة فيها لخالقها، ولذلك قطع رب العزة على نفسه أن يري الإنسان آياته تترى في النفس وفي الآفاق.

بذلك يبقى التساؤل عن عملية التعلم التي ارتاض بها آدم عليه السلام، وعن العقل الذي تلقى به الأسماء كلها، مما يلفه الغيب فلا تظهر لنا منه إلا آثاره ومعالمه، وطرق تسخيره في الأرض وما حولها، وفي العبادة التي خلقنا لها، والسعي الذي نرجو به الجنة ونحذر به من النار.

إن الله العلي القدير إذ اقتضت مشيئته أن يستخلف الإنسان في الأرض ويمكن له فيها ويسلمه زمام تعبيد الحياة فيها لربها، ومفاتيحَ اكتشاف مكنوناتها وأسرار ما أودع فيها وفي الآفاق حولها نجوما وكواكب ومجرات ودقائق موجودات وكائنات، قد زود هذا المخلوق العجيب الضعيف جسديا مقارنة بما حوله من طبيعة قاسية، جبال وأودية، وعواصف وأنواء، وحر صيف وبرد شتاء، وحيوانات ضارية مفترسة، وأمراض فتاكة مهلكة... زوده بمقومات نفسية وغرائز دفاعية وإرادة صلبة وإصرار قوي على القيام بمهمة هذا الاستخلاف المادي، فتكاملت هذه القوى مع العقل الجبار الذي ارتاض من أول يوم في الملأ الأعلى على استيعاب الأسماء كلها وعرضها على الملائكة والعمل بها وتحمل مسؤولية أمانتها كما

أخبر بذلك رب العزة فقال: { إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا } الأحزاب72.

إلا أن هذا العقل قد سلط عليه الشيطان وأولياؤه، اختبارا وامتحانا، والأهواء والشهوات استدراجا وفتنة، ولذلك قيل: " كيف ترجى نجاة العقل، والهوى والشهوة تكتنفانه، والشيطان يستولي عليه؟ "، غير أن له من ربه العصمة بالعقيدة الإسلامية، يستمد منها الرشد، يدور حولها مستنيرا بهديها، كما تدور الأرض حول الشمس وتستمد منها النور، فإن حاد عن مساره أو فسق عن مجاله حولها كان الضلال والفساد في الدنيا والخسران المبين في الآخرة. وإن انضبط في مساره ولزم جادة الإيمان، دار حالُه مع الحق وعَرِيَ علمُه من الجهل، وبرئ عملُه من الفساد وقولُه من الشُّبَهِ، وقُرِن سعيُه بالتوفيق وجهدُه بالصواب، وعبادتُه بحسن الثواب. وكان هذا العقل ميزانَه في علاقاته مع الخلق، وسياساتِه في تدبير الأمر، وهاديَه إلى حسن السلوك، ومرشدَه إلى إيثار الآجلة والعملِ لها. وصلتَه بالعروة الوثقى، كتابِ الله وسنةِ رسوله صلى الله عليه وسلم.

الإعداد للاستخلاف البشري

تربية وتأهيلا

قال الله تعالى: { وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (34) وَقُلْنَا يَا آَدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (35) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (36) فَتَلَقَّى آَدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (37) قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (38) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (39) } سورة البقرة.

لقد تم إعداد آدم عقليا بتعليمه الأسماء كلها وترويضه على مختلف العلوم التي يحتاجها عند قيامه بالخلافة الأرضية، ولكن العلم وحده غير كاف لما نيط به من مهام، والعالم غير الفعال ليس في جل حالاته إلا جهاز تسجيل آلي يردد ما به شُحِنَ، أما العلم المنتج النافع فيحتاج إلى قدرات خاصة يقظة غير خاملة أو متبلدة، يحتاج إلى عزيمة قوية تنشطه، وإرادة صلبة تطوره، وقلب حي لقيم الخير يسخره، وإلى فطنة تحميه من مزالق الضلال ومظان الفتنة ومكامن الاستغفال، وإلى نفس لوامة ترى الحق حقا وتسعى له وترى الباطل باطلا وتتجنبه أو تعود عنه، كل هذا من أدوات الاستخلاف في الأرض، وما كان الله برحمته التي وسعت كل شيء أن يكلف آدم بهذه المهمة الخطيرة ولا يزوده بوسائل القيام بها، فالله تعالى لا يريد شرا أو ظلما للعباد { وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ } غافر 31.

لذلك اقتضت حكمة العلي القدير أن يجتاز آدم تجربة التكريم فلا يغتر ولا يبطر، ويرى نموذجا للعصيان فيحتاط لنفسه ويحذر، ويشاهد بأم عينه رضا الله على ملائكته فيحرص على نواله، ويذوق نعيم الجنة فيسعى لها، ويذوق ثمرة الخطيئة المرة فيتجنبها قبل الوقوع فيها أو يندم ويعود عنها حال اقترافها، وفاكهة التوبة النصوح الطيبة فيتمسك بها ولا يحيد عنها، وإذا تلقى الهدى فهمه ووعاه واتبعه.

إن هذه الآيات الكريمة قد اشتملت على أصناف من التربية والإعداد النفسي والعقلي، وضروب من الإيحاءات الإيجابية الملهمة ما لو تمسك المرء بها نجا، هذا الإعداد الرباني توجزه كلمة واحدة هي التقوى، بمعناها اللغوي المشتق من الوقاية والاتقاء، ومعناها الإيماني الذي يختصره قوله تعالى: { وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آَمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ } الشورى 15، وقوله: { فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ } هود 112.

هكذا تمضي بنا الآيات القرآنية، تطلعنا على نماذج من هذا التأهيل، وتقدم للبشرية مشاهد من هذا الإعداد هي لها أيضا تربية وترشيد وعظة، وتبقى مشاهد أخرى منه في طي الغيب المستور لأن حاجتنا إليها منتفية في مجال الاستخلاف في الأرض، وتبقى أسئلة بعضنا عنها معلقة بدون جواب، لأن حكمة الله تعالى تعلمنا أن من العلم فضولا بالنسبة لمهمة الاستخلاف تُرْبِكُ، ومن العلم بذورا في المجال الأرضي لا تثمر.

تبدأ دورة الإعداد بأمر إلهي للملائكة بالسجود لآدم، المخلوق الجديد غير المعصوم الذي يخرج من نسله من يفسد ويسفك الدماء، فيبادرون بالطاعة والتنفيذ، لا يجدون في أنفسهم حرجا مما قضى الله وأمر، ويخرون سجدا لآدم، وهم المقربون من ربهم { لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ } الأنبياء 20/19.

يقول تعالى: { وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآَدَمَ فَسَجَدُوا } إلا أن السجود عبادةً لغير الله كفر، والله تعالى لا يأمر بالكفر، لذلك كان الاختلاف بين المفسرين حول السجود الوارد في هذه الآية وهو طاعة لله وعبادة، هل هو مجرد اتخاذ آدم قبلة كما نصلي للبيت الحرام اعتمادا على بعض معاني حرف الجر "اللام" في قوله تعالى: { اسْجُدوا لآدَمَ }، و"اللام" يفيد أحيانا معنى "عند" فيكون المعنى "اسجدوا عند آدم"، وهو تأويل مرجوح، كما يفيد أحيانا معنى"مع" فيكون أمر السجود موجها لجميع الحاضرين وآدم معهم، أي "اسجدوا مع آدم"، وهو أيضا باطل، لأن صريح القرآن يفيد أن السجود موجه لآدم خاصة بقوله تعالى: { وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا } الإسراء61.

أم هو لآدم سجود تحية وتكريم، ولله في نفس اللحظة سجود عبادة وطاعة وإعجاب بما فطر وأبدع، وهذا المعنى هو الصواب المأخوذ به، لأن سجود التحية كان مشروعا، وقد سجد إخوة يوسف تحية لأخيهم وتكريما، كما أخبر بذلك رب العزة فقال: { وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا } يوسف 100.

في هذا المشهد المهيب، تتجلى التربية الإلهية في ثلاثة أصناف من الخلق، ملائكة يسمعون ويطيعون ولا يستكبرون، وبشر يكرم بسجود مخلوقات نورانية فلا يصيبه أشر أو بطر أو كبر أو تعال، ومخلوق آخر هو إبليس أبى السجود

واستكبر، فكان جزاء الملائكة مزيد قرب ورضا من الرحمن، وجزاء آدم تكريما آخر في الجنان، وعقوبة المستكبر غضبا عليه وطردا من عالم الإيمان إلى جحيم الكفر والعصيان، قال تعالى: { وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ }.

ولئن كان سياق هذه الآية وصريح القرآن يبينان أن إبليس ليس من الملائكة، لأنهم معصومون إذ امتثلوا الأمر وهو غير معصوم إذ رفض واستكبر، ولقوله تعالى: { إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ } الكهف 5، فإن هذا يحسم أمر خلاف بعض المفسرين حول حقيقة إبليس بأنه ليس من الملائكة أولا، ويبين ثانيا أن حرف "إلا" في قوله تعالى: { إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى } لا تفيد الاستثناء، لأنه لا يستثنى من الشيء إلا بعضه، وإبليس ليس من الملائكة ليستثنى منهم، ولأن حرف "إلا" كما يكون للاستثناء يكون أيضا للاستدراك بمعنى "لكن"، وهو الحال في هذه الآية الكريمة، التي معناها: "لكن إبليس أبى..".

ورُبَّ معترض بأن الملائكة وحدهم أمروا بالسجود، فلم طولب به إبليس وهو ليس منهم؟، ويُجاب بأن المحفل الرباني كان يضم أشرافا هم الملائكة ويضم من هم دونهم، فإذا وجه الأمر بالسجود للأخيار كان موجها من باب أولى لمن دونهم، أي لإبليس، وقد فهم لعنه الله ذلك إذ سجد من هم أعلى منه رتبة فأخذته العزة والكبرياء بالإثم فنال من العقاب ما نال.

ثم تنتقل بنا الآيات الكريمة إلى مشهد آخر من مشاهد دورة إعداد آدم للحياة الدنيا، بتكريمه مرة أخرى تكريما في طيه التأهيل والاختبار، وذلك بإدخاله الجنة، وتدريبه على مسؤولية التكليف، وحمل الأمانة، واتقاء ما يضر بعلاقته مع ربه، وتعليمه حكمين شرعيين لا بد من فهمهما والعمل بهما، هما المباح والمحظور، فقال تعالى: { وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ }.

ولئن كان هذان الحكمان الشرعيان، أداة تدريب وترشيد لآدم عند خلقه في عالم الغيب، فلأنهما مفتاح الاستخلاف والفلاح ونيل رضا الرب بعد ذلك في عالم الشهود، إذ المباح ما أباحه الله لبني آدم من الأرض فقال: { اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } الجاثية 13/12، وقال: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ } المائدة 88/87.

أما المحظور فعله صريحا، وهو يتضمن الواجب تركه إشارة بمفهوم المخالفة، فمما يغضب الرب تعالى ارتكابه وتفتح به أبواب الفساد في الأرض، قال تعالى: {وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ

الْفَسَادَ } البقرة205، وقال: { قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ } الأعراف33.

إن لآدم وزوجه في الجنة أن يأكلا منها أكلا طيبا رغدا، ويعيشا فيها معيشة رغيدة واسعة، ولكن عليهما من ربهما واجبا ملزما يسألان عنه، هو أن يجتنبا الأكل من شجرة واحدة معينة، هي رمز المحظور فعله والواجب تركه، وهذا يقتضي منهما ذاكرة قوية لا تنسى الأمر، وإرادة صلبة تقويهما على الامتثال، وتصبرهما على الكف، ووعيا ويقظة بال يعصمانهما من الانخداع والاستغفال.

إن الظلم كل الظلم أن يعصيا ربهما بالأكل من الشجرة، لأنه ظلم لنفسيهما وظلم لذريتهما وظلم للسنن الكونية التي تقتضي لرب العزة الطاعة والامتثال، وهو { عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ } الرعد9، وليس لهما عذر الخطأ والزلل، لأنهما رأيا ما حل بإبليس إذ زل وعصى واستكبر عن السجود فطرد من رحمة الله، ولأن الأمر الإلهي الصريح الواضح بلغهما بقوله تعالى: { وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ }.

وفي الجنة تبدأ الدورة التدريبية الأخرى، ترويضا لذاكرة آدم وعزيمته، واستحياء لشيم الوفاء بالعهد والامتثال للرب في سجيته، وإيقاظا لما ركب فيه من إرادة، وتهذيبا لما جبل عليه من طموح، وقصرا لما في نفسه من حسن نية على الثقة بالله وحده، وتعويدا له على طلب الخير مقرونا برضا الله. تبدأ هذه الدورة التدريبية بمعركة بين الخليفة المرتقب في الأرض، الذي قال له ربه: { إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا } فاطر 6، وبين زعيم التمرد والشر والكبر والحسد، إبليس الذي آلى أن يتخذ آدم وذريته عدوا فقال: { قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا } الإسراء 62.

إن ميدان هذه المعركة هو الشجرة التي نهي عنها آدم وزوجه، وإن أسلوب إبليس دائما هو الوسوسة والمكر، وقد لجأ إلى هذه الأساليب بكل ما أوتي من قوة، وتجرأ على أن يقسم لهما استدراجا وخداعا، وإن نقطة الضعف في الإنسان هي الطموح السائب الأهوج، الطموح للمجد أو للخلود أو للتحول إلى مخلوق أرقى، وذلك ما لبس به الشيطان عليهما، قال تعالى: { وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ } الأعراف20/22، وهنا زحزحهما عن الطاعة وأزلهما عن الامتثال، ودلاهما بغرور إلى حضيض الذنب وأتون المعاصي.

لقد قضي الأمر وتمت التجربة، تجربة الخطيئة الأولى فراح آدم بالوزر والندم, وآب إبليس بفرح النصر الزائف الخداع، وما درى مآل الأعمال والأفعال، وغابت عنه حقائق الندم والتوبة التي نسيها فشقي وتذكرها آدم فاسترجع براءته وتبوأ

مكانته، وأهبط من ميدان التجربة والتأهيل والاختبار إلى مأوى الخلافة والانتشار، وقال له ربه: { وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ }.

إن لآدم وذريته في الأرض مهادا فيه يستقرون، ومتاعا به ينتفعون ويستلذون، ولكن لهم من أنفسهم ومن إبليس عدوا، إشارة منه تعالى إلى معركة الخير والشر والإيمان والكفر، والطاعة والعصيان، التي سوف تستعر في الحياة الدنيا { لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا } الملك 2.

لقد باء آدم بعد الذنب بالندم، والندم توبة كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم، ولعل المؤمن إذ يستشعر حال أبيه آدم وقد اشتد حزنه وتفطر قلبه ودمعت عيناه وحار لبه في البحث عن مخرج قريب وفرج رحيب، يعرف قدر الهم الذي غَشَّى روحه والغم الذي لف فؤاده وأخجل حاله، لكن رحلة العذاب هذه ما كانت رحمة الله تعالى لتكله إليها، فالغاية التجربة والإعداد، وقد تحققت بنجاح، أخطأ آدم وندم، فتاب وسلم، وهذا حصاد الدرس ونتاجه، وزاد رحلة الحياة الدنيا وعمادها. يقول تعالى مصورا حال آدم وزوجته في محنة هذه الخطيئة التي أعقبها ندم: { فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ } الأعراف 25/22، وفي رواية عن ابن عباس أن آدم لما ارتكب الخطيئة وبدت له سوأته انطلق في الجنة، فناداه ربه: يا آدم، أَمِنِّي تَفِرُّ؟ قال: لا ولكني استحييتك يا رب قال: أما كان لك فيما منحتك من الجنة وأبحتك منها مَنْدوحةٌ[17] عما حرمت عليك. قال: بلى يا رب، ولكن وعزتك ما حسبت أن أحدًا يحلف بك كاذبًا. قال: وهو قوله عز وجل: {وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ }.

إنه من الله تعالى عتاب البر الكريم الحليم، أشبه بعتاب الأم الحانية، على ولدها الذي ترجو له كل خير، وتخشى أن ينكسر جناحه في أول طير، لقد اجتباه الرحمن الرحيم للتوبة وهداه إلى طريقها وألقى إليه كلماتها { فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ }، وإنه من آدم وزوجه الاعتذار الحيي الخجول: { قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} الأعراف 23، ومن هنا كان النداء الرباني الأبدي { قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ } الزمر53، وكان الوعد الإلهي المستمر: { إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا }

---

[17] – مندوحة أي سعة، ومنه قولهم: ليس لي عن هذا الأمر مَنْدُوحَة ومُنْتَدَحٌ: أَي سَعَة

الفرقان70، ومن ثم كان ما رواه الرسول صلى الله عليه وسلم عن ربه أنه قال:(مَنْ لَقِيَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطِيئَةً لَا يُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَقِيتُهُ بِمِثْلِهَا مَغْفِرَةً) وقال: (يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ).

طويت الصحف ورفعت الأقلام وتحقق قضاء الله وقدره، فلينزل آدم إلى خلافته في الأرض، ليس له إلا ذاك، لقد تزود بحاجته وأدواته فيها، وأطلق له العنان في أركانها، وهدي إلى النجدين نجد الفلاح والنجاح، ونجد التيه والشقاء، وله كامل حرية السعي في أي اتجاه، متحملا نتائج عمله، وعاقبة سعيه { مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا } الإسراء 20/18.

لقد تاب آدم فتاب الله عليه، ولم تُوَرَّثْ ذريته خطيئَته، وتقررت خمس قواعد للعدل بين البشر، قاعدة أصل البراءة حتى تثبت الخطيئة، وقاعدة لا جريمة ولا عقاب إلا بشرع معلن معلوم، وقاعدة شخصية الذنب والجريمة، فلا تزر وازرة وزر أخرى، ولا تنتقل الخطيئة وراثة من جيل إلى جيل، وقاعدة قبول التوبة لمن تاب وأناب، قبولها من الرب الكريم رحمة ولطفا، وقبولها من المجتمع البشري حفظا لأمنه ووحدته وصلاح أمره، وقاعدة تكريم الإنسان واحترام حقوقه وتحريم امتهانه أو تعذيبه أو إذلاله أو سلبه حريته في الرأي والقول والتصرف، وقد خلقه ربه بيده، وصوره فأحسن صوره، وفضله على كثير ممن خلق تفضيلا، وألهمه رشده وعلمه، وأسجد الملائكة له، وأسكنه دار كرامته وعهد إليه بالخلافة، وسخر له الأرض وما عليها من كائنات، والشمس والقمر دائبين، وآتاه من كل ما سأل، وتاب عليه وغفر ذنبه، وجعل من ذريته عباده المكرمين، وناط أرفع درجات الإكرام بينهم بالتقوى { إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ } الحجرات 133، وجعل حرمة المؤمن عنده أعظم من حرمة البيت الحرام كما روي عن الرسول صلى الله عليه وسلم، فكانت هذه القواعد الخمس

أقوى ما أُقيمَ عليه المجتمع الإنساني، وأرقى ما حُفِظَتْ به الحقوق، وصِينَتْ به الكرامة، وانْتَصَفَ به الناس، وكُفَّ به التظالم، وعَمَّ به الأمن والرخاء.

لقد أمر الرب تعالى بأن يهبط آدم وزوجه ومعهما ذريتهما إلى الأرض، فقال مؤكدا حكمه الذي لارجعة فيه: { قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا }، وذلك بعد تحقق التوبة والمغفرة، ليُعْلَم أن الهبوط إلى الأرض لم يكن عقوبة على ذنب قد غُفِر، ولكنه لِوَعْد تَقدَّم وأمرٍ قد قُدِر، ثم هيأ النفوس لانتظار رأس الأمر في الدنيا وقبوله، وهو العبادة التي خلق لها الإنسان في نفسه وبيته وزوجه وذريته وماله وتعميره، {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ} الذاريات 57/56، فقال: { فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ }.

لقد طُرِد إبليس إلى الأرض مذموما يحمل حقده، وأُهبِط آدم وزوجه وذريته إليها للإعمار والاستعمار والخلافة والاختبار، ثم صدر الوعد من ربهم ببعث الرسالات والرسل والنبوات والأنبياء، بالهدى عقيدة وعبادة وشريعة، والناس في استقبال هذا الهدى وقبوله بين أمرين: اتِّباعٍ له أو إعراضٍ عنه، لهم حرية الاختيار، وعليهم تحمل نتائج هذا الاختيار.

الطريق إذن واضح وضوح الشمس، لقد ألهم اللهُ الإنسانَ فجورَه وتقواه، وهداه النجدين: نجدَ الخير حاضّاً عليه ونجدَ الشر محذِّرا منه { وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا } الشمس10/7، { أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ } البلد11/8، { فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى } الليل10/5.

إن اتِّباعَ الهدى له نتائجُه ومحامدُه، أولها أمن مطلق من الخوف والحزن، لا خوف ولا حزن في القبر ولا عند البعث ولا عند الحشر ولا عند تطاير الكتب ولا عند نصب الموازين ولا عند الصراط قال تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ } الأنبياء103/101.

كذلك للإعراض عن اتِّباع الهدى المنزَّل نتائجُه وعواقبُه، وكفاه خوفا وحزنا أن مقعد صاحبه من النار معروض عليه في قبره كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (إِذَا مَاتَ أَحَدُكُمْ فَإِنَّهُ يُعْرَضُ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ فَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَمِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ)، وكفاه حساب القبر وعذابه، وسوء المآل وعقابه { وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ }، { قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا

يَأْتِيَنَّكُم مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى} طه 124/123.

وإذ يُرَكِّزُ الوَحْيُ على الاتِّباع، فلأنَّ الهدى يثْبُت بإرسال الأنبياء والرسل، أما الاتباع فهو رهن بإرادة المرء وعوامل الغيب والشهود في نفسه، ولذلك نِيطَ الحسابُ باتِّباع الهدى في أحكامه الثابتة بالكتاب والسنة. إذ الأحكام محايدة وتنزيلها في واقع الحياة مسؤولية، والمرء لا تزول قدماه يوم القيامة حتى يسأل عن شبابه فيما أبلاه، وعن عمره فيما أفناه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وعن علمه ماذا عمل فيه.

ولئن كان عاقبةُ مُتَّبِعي الهدى أن يقولوا في الجنة: { الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ } فاطر35/34، فإن عاقبة المعرضين أنهم { أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ }، قال تعالى: { إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ} الزخرف 78/74.

بهذا القدر من سورة البقرة ننهي القسم الأول منها، وقد تضمن مشاهدَ من عالمي الغيب والشهود، وسماتٍ تميز الإيمان عن الكفر والنفاق، ونماذجَ من أهل التقوى ومآلهم، وأهل العصيان وجزائهم، ومعالم للإيمان والإحسان، لا يضل من اتبعها، ولا يشقى من تمسك بها، وآيات من الخلق والإبداع تهدي إلى الرشد وإلى صراط مستقيم.

ولئن كان الفارس المجلى في سباق هذا القسم من سورة البقرة هو آدم عليه السلام إذ طاف به الشيطان فتذكر وأبصر { إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ } الأعراف201، وكان الخاسر الأكبر فيه هو إبليس إذ طغى وتجبر، فإن ما نستقبله في القسم الثاني من هذه السورة المباركة يقدم لنا نموذجين من ذرية آدم في الأرض: نموذجا من أتباع إبليس، هم بنو إسرائيل في مسيرتهم الضالة الشقية { وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ } البقرة59/58، كما يقدم لنا نموذجا آخر من السعداء الذي استمعوا القول واتبعوا أحسنه ففازوا بالرحمة والمغفرة والرضا، وقال عنهم رب العزة: { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } البقرة62.

فإلى هذا القسم الثاني بإذن الله تعالى استقواء بعونه واستهداء بهديه، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

القسم الثاني من سورة البقرة

بنو إسرائيل: انحراف عن الجادة وعزل عن الإمامة وتمهيد للأمة الخاتمة

تقديم

بنو إسرائيل: انحراف عن الجادة وعزل عن الإمامة وتمهيد للأمة الخاتمة

العنوان العريض لهذا القسم، من الآية الأربعين في سورة البقرة إلى الآية الثالثة والعشرين بعد المائة، هو بنو إسرائيل وقد أخذ الله عليهم الميثاق وفضلهم على العالمين، فما ارتفعوا إلى مستوى المسؤولية، وما ارتقوا إلى مراقي العز والفضيلة التي انتدبوا لها، وما تحرروا من أغلال الهوى والأنانية وخبث الطوية والشك المفضي بأهله إلى الهلاك.

وتحت عنوان هذه المسيرة اليهودية، من إبراهيم وبنيه إسماعيل وإسحاق ويعقوب عليهم السلام، إلى مبعث نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، كان التعريج بالإشارة والعبارة، والتصريح والتلميح والتعريض، والتحذير والتذكير، للمسلمين من عاقبة اتباع خطواتهم، والسير على سيرهم، والتطبع بطباعهم، لأن ذلك مدعاة لورود موردهم غضبا من الله تعالى عليهم، وسوءَ عاقبة في الدنيا والآخرة.

لقد عُرِض شرفُ حملِ أمانة الاستخلاف وإمامة البشرية على بني إسرائيل، وآتاهم الله تعالى من الآيات ما به يهتدي مَن صَدَقَ بحثُه عن الحق وطلَبُه للهدى، إلا أن ما وقر في عقولهم من غباء، وما ران على قلوبهم من خبث وفساد، جعلهم لقمة سائغة للشيطان يفترسهم في كل زاوية من زوايا تاريخهم الطويل، وكانوا بحق كما قال تعالى: { وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ } 176/175.

لقد قال عنهم رب العزة تعالى: { وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ } الجاثية16، فلما عصوا وتجبروا كان مصيرهم قوله تعالى: { قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ } المائدة60، وقوله: { لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ } المائدة78/ 79.

والمصير نفسه هو مآل من يسير سيرتهم ويتيه تيههم ويجحد جحودهم، من كافة أمم الرسالة الإسلامية، ممن ذكر القرآن أخبارهم ومن لم يذكر، قال الله تعالى: { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ } غافر87. ولا شك أن المصير نفسه يتهدد أمة محمد صلى الله عليه وسلم فيما أؤتمنت عليه من رسالة التوحيد وما استخلفت فيه من إمامة البشرية وقيادتها، ولئن خاطبها رب العزة تعالى بقوله: { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ } آل عمران 110، فإنه تعالى حذرهم مصير بني إسرائيل بكل

وضوح فقال: { وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ } الحشر19، وقال: { وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ } محمد38، ونبيهم صلى الله عليه وسلم أعاد نفس التحذير مفصلا، فقال فيما أخرجه أبو داود عن عبد الله بن مسعود: (إِنَّ أَوَّلَ مَا دَخَلَ النَّقْصُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى الرَّجُلَ فَيَقُولُ يَا هَذَا اتَّقِ اللَّهَ وَدَعْ مَا تَصْنَعُ فَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ لَكَ، ثُمَّ يَلْقَاهُ مِنْ الْغَدِ فَلَا يَمْنَعُهُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ أَكِيلَهُ وَشَرِيبَهُ وَقَعِيدَهُ، فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ ضَرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ)، ثُمَّ قَالَ: { لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ... } إِلَى قَوْلِهِ تعالى: { فَاسِقُونَ }، ثُمَّ قَالَ:(كَلَّا وَاللَّهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنْ الْمُنْكَرِ وَلَتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدَيْ الظَّالِمِ وَلَتَأْطُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا وَلَتَقْصُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ قَصْرًا)، وزاد في رواية أخرى:(أَوْ لَيَضْرِبَنَّ اللَّهُ بِقُلُوبِ بَعْضِكُمْ عَلَى بَعْضٍ ثُمَّ لَيَلْعَنَنَّكُمْ كَمَا لَعَنَهُمْ).

لذلك كانت مسيرة بني إسرائيل في هذا القسم من سورة البقرة مدرسة تربوية وعقدية للمسلمين يستعرضون فيها نماذج نادرة من الانحراف، وأمثولات غريبة من المكر والكيد، وأفحوصات دقيقة لنفسيات مريضة لا تأمن و لا تؤمن، لا ترتاح ولا تريح، ويتخذون منها حوافز نيرة تقيهم مزالق الهوى ومكامن الضلال ومسارب الكفر والجحود، وكأنما هم يسمعون في كل لحظة، ويقرع آذانهم في كل حين قول الله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعًا } النساء 71، ولئن كانت هذه الآية الكريمة في مجال الجهاد الحربي، فإن ساحة الجهاد العقدي والاجتماعي والسياسي مدافعةً لمكر الماكرين، وفساد المفسدين، وكيد الكائدين، وتآمر المتآمرين، في أشد الحاجة أيضا إلى الحذر والاستنفار وشحذ الهمم والعزائم.

تذكير وتحذير

قال الله تعالى: { يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (40) وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ (41) } البقرة

في هذا القسم الثاني من سورة البقرة، يخاطب رب العزة بني إسرائيل، من يعاصر البعثة المحمدية الجديدة، ومن كان قبلهم، ومن يكون بعدهم على تعاقب الحقب والعصور، يذكرهم بمسيرتهم العصية المعاندة، وخصال الختل والمكر والخداع وسوء التأويل التي عاثت في قلوبهم وتصرفاتهم إفسادا، وفي مسيرتهم العقدية إرباكا وإضلالا، باعتبارهم أمة تجمعها جبلة فاسدة واحدة، وسلوك عصي منحرف على مدار مدة استخلافهم، وعقب عزلهم عن إمامة البشرية وإقصائهم وغضب الله عليهم، قال تعالى: { لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ } المائدة78.

والخطاب في كل هذا موجه للمسلمين تربية بأبناء من تقدمهم من الشعوب وتوعية، وتعليما بتجارب من سبقهم من أمم الرسالة وتأهيلا، من ضل من هذه الأمم ومن اهتدى، ومن رشد أو غوى، وتحذيرا من مزالق الفتن ومكامن الانحراف التي عصفت بأول أمة أنزل عليها التوراة، بعد صحف إبراهيم وزُبُرِ الأولين من الرسل، عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة وأزكى السلام، وتبيانا لأسباب عزلها عن الإمامة في الدين والاستخلاف الرَّضِيِّ في الأرض، بعد أن أسبل الله عليها نعمه ظاهرة وباطنة، فقست وكفرت، وتجبرت وطغت، واستعلت وبطرت، وكان عاقبة أمرها لعنة وشقاء وطردا من الرحمة، وهذا التنبيه منه تعالى للمسلمين كفيل باستنهاض هممهم للقيام بمهام إمامة الدين التي نقلت إليهم، وأمانة قيادة البشرية التي حملوها، فكانوا بصفاء إيمانهم وصلاح أعمالهم وصدق نواياهم أمة الرسالة والشهادة والعمران الرشيد، وأصبحوا بذلك خير أمة أخرجت للناس، قال تعالى: { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ } آل عمران 110، وقال: { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا } البقرة 143.

ولئن كانت سورة البقرة فسطاطا للقرآن، والفسطاط معناه المدينة الكبيرة، والخيمة الواسعة، فإن بهذا الفسطاط أجنحة عرضت فيها آيات الله تعالى في الخلق غيبا وشهودا، وآلاؤه كرما وجودا، ومواقف الثقلين طاعة وجحودا، وقد وَسِع هذا الفسطاط الرباني أجنحة، خصص قسمها الأول لبيانِ الصراط المستقيم الذي لا يزيغ عنه إلا ضال أو مغضوب عليه، وذكرِ مبدأ خلق آدمَ وزوجِه في الملأ الأعلى، وإعدادِهما لوظيفة الأرض تربيةً وتعليما وتجربة، وتعريفِهما بعدوهما الذي أقسم أن يُزِلَّهما ويَحْتَنِكَ ذريتَهما ويستأصلَها من ساحة الإيمان إضلالا وإغواء، وتقريرِ مبادئ الإيمان والطاعة، والندم والتوبة، وتوعيةِ المسلمين بكيد المشركين والمنافقين ومكرهم وخبث أساليبهم في محاربة ما جاء به النبي الأكرم محمد صلى الله عليه وسلم، ودعوةِ الناس جميعا إلى عبادة الله تعالى لما له من فضل الخلق والرزق والتسخير، وما يؤول إليه أمرهم في الآخرة من محاسبة وجزاء.

ولأن دين الله استخلافا في الأرض تعبيدا وتنفيذا، كان لا بد له من أمة تقوم به، وقد اختير بنو إسرائيل لهذه المهمة حكمة من الله وحسن تقدير، فقد خصص الجناح الثاني من فسطاط سورة البقرة، لعَرْضِ تجربة هذه الأمة، من يوم أسندت إليها القوامة في الأرض إلى أن انْتُزِعَتْ منها، وذِكْرِ مَنْ وَفَّى منها بعهد الله أو خان ولبَّس وكتم وحرَّف, ومَن التحق بركب الدعوة المحمدية بعد ذلك أو جحدها وعاداها وخاصمها ومكر بها.

لقد استوعب الحديثُ عن هذه التجربة الإسرائيلية أكثرَ من ثمانين آية، من الآية الأربعين في سورة البقرة بقوله تعالى: { يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ } البقرة 40، واستمر إلى الآية الثالثة والعشرين بعد المائة بقوله تعالى: { يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ} البقرة123/122، وعَرَض فيها مخازيَ هذه الأمة بسوء طويتها، وعدوانيتها وجراءتها على الأنبياء والرسل قتلا ومحاولة قتل، وتحريفا للشرائع ومحاولة تحريف، وخيانةً للعهود والتفافا عليها للتخلص من التزاماتها، ومقابلةً لكل نعمة ربانية بالكفر والجحود، قال تعالى: { لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ } المائدة 71/70، وكان الخطاب الإلهي في هذا العرض بأسلوب يتناول الأمةَ الإسلامية تلميحا بلطف الإشارة ورفقها، وفحوى الخطاب ولَحْنِه، تأكيدا لما ورد به صريحُ النِّذارة وحاسِمُها قرآنا وسنة، في قوله تعالى: { وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ } الأنعام153، وقوله: { وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا } الفتح 16، وقوله: { وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ } محمد38، وقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث المتفق عليه:(لَتَتَّبِعُنَّ سنن مَنْ قبلَكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جُحْرَ ضَبٍّ تبعتموهم)، قيل: يا رسول الله اليهود والنصارى؟، قال: (فَمَنْ؟)، وقال محذرا من سوء العاقبة: (إن

أول ما دخل النَّقْصُ على بنى إسرائيل كان الرجلُ يَلْقَى الرجلَ فيقول: يا هذا اتَّقِ اللهَ وَدَعْ ما تصنع فإنه لا يَحِلُّ لك، ثم يلقاه من الغد فلا يَمْنَعُه ذلك أن يكون أَكيلَه وشَرِيبَه وقَعِيدَه، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض، كلا والله لَتَأْمُرُنَّ بالمعروف ولَتَنْهَوُنَّ عن المنكر ولَتَأْخُذُنَّ على يَدَيِ الظالم ولتَأْطُرُنَّهُ على الحق أَطْرًا ولَتَقْصُرُنَّه على الحق قَصْرًا أو لَيَضْرِبَنَّ الله بقلوب بعضكم على بعض ثم يلعنكم كما لعنهم).

إن النفسية المريضةَ والجِبِلَّةَ المستعصيةَ على الهُدَى، هي ما استقبل به بنو إسرائيل أنبياءَهم عليهم السلام، إذ كذبوهم وقتلوا فريقا منهم وحاولوا قتل فريق، وهي ما واجهوا به دعوةَ ربهم إنكارا وجحودا مرة، وتحريفا وتلفيقا وقولا بغير علم مرات أخرى، ولئن كان منتظرا من يهود عصر البعثة أن يكونوا أولَ من يؤمن ويسلم، لِمَا عندهم في التوراة من أوصاف الرسول صلى الله عليه وسلم وخبرِ البشارةِ برسالته، فإن مواقفهم لم تستطع التحرر من طباع الاستعلاء والحسد والمكر والجحود، وغرائز الشيطنة والمراوغة والكيد الوضيع، لذلك كان من المناسب والمفيد عرضُ سيرتهم على الأمة الإسلامية الناشئة قرآنا يُتْلَى، تثبيتا لها على الحق، وتحصينا من دسائس الغدر ومحاولات توهين الصف وتمزيقه، وحماية لها من الأمراض العقدية والسلوكية التي عصفت ببني إسرائيل واستأصلتهم من ساحة الإمامة والاستخلاف.

إن الخطاب الإلهي في هذه الآيات الكريمة، تذكير للأمة الإسلامية بعواقب ما اقترفه بنو إسرائيل من خطايا وآثام، وهو في نفس الوقت نداء لطيف رحيم لمن يعاصر البعثة المحمدية من اليهود، ترغيبا لهم في التَّحَرُّرِ من تراث أحبارهم المخزي، وتناولِه بالنقد والتمحيص، واستشرافِ ما في مسيرتهم التاريخية من منارات رسل وأنبياء، أرشدتهم إلى صراط الله المستقيم، عقيدةً صافية وسلوكا طيبا رشيدا، وبَشَّرَتْهم بمن يأتي بعد نبيهم موسى، بالمسيح بن مريم ثم بمحمد بن عبد الله، عليهم وعلى جميع أنبياء الله أزكى الصلاة وأكرم السلام.

إن لكل أمة سلفا صالحا وآخر ضالا فاسدا، والعاقل من يمحص تاريخ آبائه ويميز السليم فيه من السقيم، والمنحرف فيه من المستقيم، وبنو إسرائيل كان في سلفهم الأنبياء والرسل، جاؤوهم بالحنيفية السمحة، التي هي ديانة إبراهيم قبلهم وديانة محمد صلى الله عليه وسلم بعدهم، وكان حريا بهم إذ عرض عليهم هذا الدين من جديد أن يتبعوه ويهجروا ما ورثوه من رعونات مرتزقة أحبارهم وأفاكي علمائهم.

ولئن خاطب الله تعالى يهود المدينة من ولد يعقوب عليه السلام بقوله: { يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ } فإنما ذلك تأليف لهم وتذكير بسيرة أبيهم إسرائيل الذي هو يعقوب عليه السلام وبوصيته لذريته، وهو العبد الصالح الذي لهم أن يفخروا به ويقتدوا بهديه، وقد أوصى بنيه عند موته بلزوم محجة الإسلام توحيدا وطاعة، قال تعالى: {أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} البقرة133.

لقد ورد تذكيرهم بهذا العبد الصالح – يعقوب عليه السلام – وخطابهم بنسبهم إليه في سورة البقرة ثلاث مرات، في هذه الآية التي بدئ بها في الترتيب المصحفي بقوله تعالى: { يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ } البقرة40، وفي قوله تعالى: { يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ } البقرة 48/47، وقوله تعالى ختاما لعرض سيرتهم: { يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ} البقرة123/122، فكان النداء الأول لهم أوامر بتصحيح النوايا والأعمال والوفاء بالعهود، والنداءان الآخران تحذيرا من سوء المصير يوم الحشر والعرض والحساب، وبذلك أقيمت الحجة عليهم، وأغلق في وجههم باب المجادلة عن أنفسهم أو الاعتذار بالجهل والغفلة وقصور النظر.

ولئن عرض القرآن الكريم علينا في القسم الأول من سورة البقرة ما آل إليه أمر إبليس إذ استكبر وعصى، فإننا في القسم الثاني نستقبل نموذجا لأولياء هذا الإبليس من قوم أسبل عليهم رداء الضلال، ونشر عليهم أجنحة الغواية والإصرار، وكان هاديهم إلى جهنم، وقال الله تعالى فيهم: { احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ } الصافات 24/22.

ولأن آفة العلم النسيان، وآفة العمل الغفلة، فقد كان خطابه تعالى لهم تذكيرا بنعمه عليهم وعلى آبائهم، عسى أن يستعيدوا وعيهم ويستنهضوا هممهم للشكر والامتثال، فقال: { يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ }.

إن النسيان آفة العلم حقا ولكن التذكير علاجه ودواؤه، لأنه استحضار لما طاله النسيان، وتنبيه لما غشيته الغفلة، ولئن ذكرهم الله تعالى في هذه الآية على لسان محمد صلى الله عليه وسلم، فقد ذكرهم من قبل على لسان نبيهم موسى عليه السلام، قال تعالى: { وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ } سوة المائدة 20، لذلك كان التذكير سنة الله تعالى في عباده، وسنة الأنبياء وورثتهم من العلماء في التربية والترشيد، قال تعالى: { وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ } الذاريات 55، وقال: { قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى } الأعلى 15/14، وقال: { وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ } الأنعام 70، وخاطب الأمة المحمدية بقوله: { وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ } المائدة7.

ونعمه تعالى عليهم على ضربين، نعم عامة لهم ولجميع بني آدم معهم، ونعم خصهم بها ابتلاء واختبارا، أما العامة فهي مشاعة للخلق كلهم، في أجسادهم وذرياتهم وأموالهم وأحوالهم، قال تعالى: { كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا } الإسراء20، ومواقف الخلق منها تختلف باختلاف مشاربهم ومشاعرهم وعقولهم وشفافية

أنفسهم، منهم من ترشده النعم إلى البارئ جل وعلا كحال موسى عليه السلام قبل بعثته إذ { قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ } القصص17، ومنهم من تغويه النعم وتوقعه في البغي والبطر، كحال قارون: { قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ } القصص78، فكان عاقبة أمره قوله تعالى: { فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ } القصص81، ومن الخلق طير يعرف النعم وحق واهبها عليه مثل الهدهد بفطرته السليمة إذ عجب من حال من يعبد غير خالق النعم وواهبها فقال لسليمان عليه السلام: { إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ } النمل26/23.

أما النعم التي خص الله تعالى بها بني إسرائيل فأكثر من أن تحصى, كاستنقاذهم من بلاء فرعون وقومه، وجعلهم أنبياء وملوكاً، وإنزال الكتب المعظمة فيهم، وتظليل الغمام عليهم، وإطعامهم المن والسلوى في التيه، وتفجير الماء لهم من الحجر وغير ذلك مما شرح في سياقات كثيرة من القرآن الكريم، ولئن كان القرآن قد أوجز هذه النعم بأبلغ عبارة بقوله: { وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ }، فإن هذا التفضيل لم يكن إلا بأن جعلهم بعقيدة الإسلام أئمة في الدين وورثة لملة إبراهيم، وهو ما تنكروا له وجحدوه، وكان حريا بهم أن يقتدوا في الشكر بمنارتين من أنبيائهم، داود وسليمان عليهما السلام إذ أوتيا علما { وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ } النمل15، وفي الوفاء بنبي المرحمة محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه المجاهدين الأوفياء إذ فرحوا بنعمة الإيمان والإسلام على ما أصابهم من قرح { يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ } آل عمران173/171.

لقد كان حريا بآبائهم وقد شهدوا النعم ألا يكفروا، وحريا بيهود البعثة النبوية إذ ذُكِّروا بها أن يؤمنوا ويشكروا، وليس الإيمان والشكر إلا الوفاء بالعهد الذي واثقهم به الله تعالى فقال: { وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ }، وعهد الله لهم ليس غريبا عنهم، إنه عهده لكل أمم الرسالة، عهده لآدم في الملأ الأعلى: { قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} البقرة38، وعهده لبني آدم جميعا إذ أخذهم من ظهور آبائهم: { وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ} الأعراف 173/172، وهو ما أوجزه القرآن الكريم بأبلغ عبارة في قوله تعالى: { وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ

اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ } المائدة12، وهو أيضا ما شرحه رسول الله صلى الله عليه وسلم بما أوتي من جوامع الكلم فيما رواه البخاري عن معاذ قال: (كُنْتُ رِدْفَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى حِمَارٍ يُقَالُ لَهُ عُفَيْرٌ، فَقَالَ: يَا مُعَاذُ هَلْ تَدْرِي حَقَّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ؟ قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: فَإِنَّ حَقَّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَحَقَّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلَا أُبَشِّرُ بِهِ النَّاسَ قَالَ لَا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا).

إن مقتضى عهد الله تعالى وهو حقه على العباد، أن يأمر فيطاع، ويُعبَدَ فلا يُشْرَك به، ويُذَكِّرَ عباده فيَذَّكَّروا، إلا أن قسوة القلوب وجفاءها وانحطاط الهمم ودناءتها تحجب العقول عن الفهم والتذكر والأوبة إلى الحق، وما يهتدي في الحقيقة إلا التائب الصادق الذي يسمع الخطاب ويستوعب التبصرة، قال تعالى: { تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ } ق8، وقال: { إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ } الزمر9، ثم بين مقتضيات التذكر والوفاء فقال: { إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ } الرعد 19/ 22.

لقد كان في تذكير المعاصرين للبعثة النبوية بنعم الله على الآباء، تعريض ضمني بمواقفهم العصية الجحودة التي أحلتهم دار البوار، وبما جبلوا عليه من نفعية مادية أرضية بدت واضحة في ما طلبوه من نبيهم موسى عليه السلام { وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ }. ولئن خاطب رب العزة أمة الإسلام بقوله { فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ } البقرة 152، وجعل ذكرها له متعلقا به وحده، فقد خاطب بني إسرائيل وهو يعلم سجاياهم المادية الصرفة بقوله { اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ }، ثم أعقبها لما عهد فيهم من عصيان، بأشد التخويف من قدرته عليهم والترهيب من سطوة عذابه لمن يخالفون أمره فقال: { وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ }، وشتان من همته متعلقة بالمنعم يدعونه محبة ورهبا ورغبا، ومن غاية همه النعم والخوف من النقم. وهو خطاب يذكرهم بما فضلهم الله تعالى به على أهل زمانهم قبل أن يكفروا وينقضوا العهد، ويفسدوا ويسفكوا دماء الأنبياء والرسل والمستضعفين من الخلق، كما يحذرهم من تكرار تجربة آبائهم بالكفر والعناد والجحود.

إن معرفةَ النعم حال حصولها أو تذكرها بعد نسيانها، كفيلةٌ لدى العقلاء الراشدين بأداء حق المنعم بها، وحقه الشكر، ولا شكر كالوفاء بالعهد الذي واثق به المرء ربه، ولئن كان عهدهم مع الله على مطلق الإيمان والطاعة ومخصوص الدين والشريعة، فإن الإشارة في هذه الآية وما تلاها بقوله تعالى: { وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ

} إلى نبوة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وما جاء به من القرآن، إذ هو مقتضى العهد المذكور في السياق، وهو المطلوب من يهود المدينة المعاصرين للبعثة، وقد بشرهم الكتاب المنزل عليهم بنبي يبعث من بني إسماعيل يغفر الله لمن اتبعه ويدخله الجنة.

إن الوفاء بالعهد له مُجْمَلاتُ شروط ومُفَصَّلات، ومُجملاتُها الإيمانُ برسالة الإسلام كاملا، يقينا في القلب وإقرارا باللسان وعملا بالأركان، وهو ما طُلِبَ من بني إسرائيل المعاصرين للبعثة النبوية، أما مُفَصَّلاتها فقد توالت بعد المجملات شرحا وتوضيحا، حتى لا يعتذر أحد بغموض أو سوء فهم أو غفلة وعدم تقدير، وقد سارع الوحي إلى تقرير رأس الأمر فيها، وهو الإيمان بالقرآن العظيم ونبيه الكريم، هديةِ الله للبشرية، وبشارةِ الأنبياء والرسل، قال تعالى: { وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ } المائدة 48، وقال: { وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ } الصف6.

وإن مقتضى وفاء العبد أن ينال من سيده ما جعله له من حسن الجزاء، وهو قوله تعالى: { أُوفِ بِعَهْدِكُمْ } جوابا للأمر بالوفاء الذي وجهه الخالق عز وجل لبني إسرائيل، ومن شروط هذا الموْثِق أن يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم كما قال تعالى: { فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } الأعراف156/157.

إن عهد الإيمان بالرسل كلهم قد أُخِذ على جميع أمم الرسالة الإسلامية، وكان أوفاها به أمة المسلمين الخاتمة الوارثة، بشهادة رب العزة لها في قوله: { آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ } البقرة285. أما بنو إسرائيل في تاريخهم الطويل فكانوا أسوأ نموذج للكفر وخيانة العهد، بل تجاوزوا ذلك إلى مطاردة الأنبياء وقتلهم وتحريف رسالاتهم، ولنا بمن عصوا موسى وخالفوه أول برهان، وبما فعلوه بزكرياء ويحيى خير مثال، وبما حاولوه في حق عيسى أوضح دليل، ولذلك بعد قول الله لهم: { وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ }، حذرهم من عاقبة خيانة العهد فقال: { وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ }، وهو انتقال بخطابهم من الترغيب إلى الترهيب، من الرغبة في قوله تعالى { أُوفِ بِعَهْدِكُمْ } إلى الرهبة والتخويف من سوء العقاب إن لم يرجعوا إلى الحق فيؤمنوا ويصدقوا القول والعمل.

كما أن الإيمان بجميع الكتب المنزلة عقيدةٌ ملزمةٌ في جميع الأديان التي ابْتُعِثَ بها الرسل، إلا أن إيمان المسلم بها بعد نزول الرسالة الخاتمة مقيدٌ بوجوب عدم العمل بها، لنسخها أولا بالقرآن، ولما نالها ثانيا من تحريف الأحبار وتغييرهم، ولذلك غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما رأى في يد عمر بن الخطاب صحيفة من التوراة وقال له:(إِنَّهُ وَاللهِ لَوْ كَانَ

مُوسَى حَيّاً بَيْنَ أظْهُرِكُمْ مَا حَلَّ لَهُ إلَّا أنْ يَتَّبِعَني)، وقال أيضا: (لَا تَسْأَلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ عَنْ شَيْءٍ فَإِنَّهُمْ لَنْ يَهْدُوكُمْ وَقَدْ ضَلُّوا فَإِنَّكُمْ إِمَّا أَنْ تُصَدِّقُوا بِبَاطِلٍ أَوْ تُكَذِّبُوا بِحَقٍّ فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ مُوسَى حَيًّا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ مَا حَلَّ لَهُ إِلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِي).

ولئن كان خطاب الله تعالى إذا وُجِّهَ إلى طائفة معينة، موجها بعمومه إلى جميع من سمعه، تذكرة وتحذيرا وتربية وتنويرا، فإن الأيقاظ ممن أنعم الله عليهم بالرشد يعرفون أنه تعالى يأمرهم أيضا بما أمر به بني إسرائيل، ويقول لهم: اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم ولا تنسوا فضلي عليكم واشكروا لي وحدي، وفاء بالعهد الذي واثقتكم به، فمن استجاب وفيت له بما وعدته مغفرةً وإحلالا في دار المقامة، وجنةً عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين، ومن أعرض كان حقا عليه أن يخاف غضبي ويذوق صابَ عذابي.

لقد كان يهود الجزيرة العربية لدى مشركي العرب في مقام العلماء بالدين وكانوا يستفتحون عليهم بقرب ظهور النبوة الخاتمة ولذلك حُذِّرُوا بقوله تعالى: {وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ }، من أن يَسُنُّوا سُنَّةَ كُفْرٍ يتبعهم فيها العامة بكتمان ما ورد في التوراة من خبر البعثة وصفات صاحبها عليه السلام، لاسيما وَوِزْرُ البادئ أعظم من وزر المقتدي، وإذا تركوا الإيمان بالقرآن مع علمهم بصحته كانوا في مقام أول من سارع إلى الكفر ولو سبقهم إليه غيرهم من المشركين ممن لا كتاب لهم، وهذا منه تعالى تبكيت قاس، وتعنيف شديد، أعقبه بتحذير آخر صريح يندد بإيثارهم الدنيا على الآخرة، وبعقليتم المادية المتاجرة، مالا ورئاسة ورُشىً على تحريف الأحكام والنصوص، فقال يحثهم على اتقاء غضبه وعذابه، واختيار الدين على المصالح الوهمية والأهواء المردية: { وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ}، أي لا تستبدلوا بالعقل جهلا، ولا بالحق باطلا، ولا بالإيمان كفرا، ولا بالآخرة ونعيمها حياة فانية مهما عظمت في أعينكم وازدهت في نفوسكم، فما الدنيا إلا متاع زائل، كثيرها قليل وكبيرها حقير.

إن الفرق بين اليَقِظِ والغافل أن الأول ينظر ويتأمل فيعتبر ويعلم، فإن شق عليه حصول العلم أعاد النظر وتأمل ثمار العمل ونتائجه، ومآله وعاقبته، فسهل عليه الإدراك، ورأى الحق منبلجا والباطل لجلجا، والغافلون { لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ } الأعراف179، ولو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء كما قال صلى الله عليه وسلم، قال الله تعالى: { وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} العنكبوت 64.

التلبيس رأس الانحراف والفسق

قال الله تعالى: { وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (42) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (43) أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (44) وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (45) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (46) } البقرة

في هذه الآيات الكريمة يتوالى عرض مفصلات شروط الوفاء بالوعد الذي خوطب به بنو إسرائيل، ومن خلالهم خوطب المؤمنون في كل عصر. وبعد أن بين الله تعالى رأس الأمر في هذه الشروط وهو الإيمان بالقرآن العظيم وبنبيه الكريم صلى الله عليه وسلم بقوله: { وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ...الآية} البقرة 41، انتقل إلى التحذير من رأس الانحراف عن الدين وهو التلبيس، فقال: { وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ }. فكانت الآيتان معا جُمَّاعا للإيمان المحصَّنِ من الكفر والنفاق، إذ في الإيمان بالقرآن والرسول صلى الله عليه وسلم تمام الوفاء علما وعملا، وفي اتقاء التلبيس تمامُ الحصانة ضد الانحراف عن الصراط المستقيم. ومن جمع بين الآيتين استكمل معالم التقوى.

إن التلبيس لغة معناه التخليط والتدليس والتمويه، مِن فِعل لَبَسَ عليه الأمرَ يَلْبِسُهُ، من باب ضرب، أي: خَلَطَهُ، وألْبَسَهُ: غَطَّاهُ، وأمرٌ مُلْبِسٌ و مُلْتَبِسٌ: مُشْتَبِهٌ، يقال: في رأيه أو علمه أو تصوره لَبْسٌ، أي: اخْتِلَاطٌ، والْتَبَسَ عليه الأَمرُ أَي اختلَطَ واشْتبَه، والتَّلبيسُ كالتَّدْليس والتَّخليط، شُدِّد للمبالغة، وفلان يُلَبِّس على نفسه أو غيره أي يموّه ويدلِّس، وفي الأمر لُبْسَةٌ بالضم أي شبهة يعني ليس بواضح، قال تعالى: { وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ } الأنعام9، أي لالتبس عليهم الأمر كما يَلْبِسون على أنفسهم في قبول الدين.

لقد كان التلبيس رأس كل فساد في مسيرة البشر منذ خلق أبوهم في الملأ الأعلى، لُبِّسَ على الشيطان أولا أمرُه، فأعرض عن السجود مغترا بأصله الناري ومفاضلا به: { قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ } ص76، غافلا عن مقياس التقوى الذي هو المقبول في التعامل مع رب العزة { إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ } الحجرات 13، ثم أدى به هذا التلبيس إلى جريمة أخرى أكبر هي الاستعلاء والاستكبار: { قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ } الحجر33، ثم تورط في الحسد والمحاربة: { قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا } الإسراء 62/61 وبذلك أهان نفسه من حيث أراد تكريمها، وحقرها من حيث ظن أنه

يعظمها، ووقع في المحظور طردا ولعنة، وجَيَّشَ أولياءَه وأتباعَه لمحاربة الله تعالى ورسله وأوليائه ومُشَاقَّتِهِم { وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ } الحشر4، { ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآَخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ } المائدة33.

نفس التلبيس توسَّل به إبليس لإغواء آدم وزوجه واستدراجهما للمعصية، قال تعالى: { فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آَدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى } طه 120، { وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ } الأعراف 21/20.

إن التلبيس يستهدف الحق دائما بالتمويه والتدليس، إما أن يلفه بالغموض والإخفاء فيختلط الحق بالباطل والصواب بالخطأ والعدل بالظلم، أو يناله بالنقص تحت مبرر التسامح والتيسير والتقريب، أو بالزيادة تحت غطاء التزهد والتحبب والقربى، أو بالإرجاء والمماطلة وطول الأمل قضاء للشهوة وطلبا للرئاسة وأمنا من مكر الله واستبعادا للأجل ويوم الحساب، وكل هذه المزالق تعرض للمرء تغريرا وتلبيسا من الشيطان وأوليائه، قال تعالى: { وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ } الأنعام137، فكان التلبيس على المشركين بتوهمهم أن في قتل أولادهم قربة إلى الأصنام، لذلك قال تعالى: { يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا } النساء120، وقال: { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا } الأنعام 112.

إن سلاح الشيطان في كل تلبيسه هو الكذبُ والافتراءُ والوسوسةُ والتمويهُ وتخليطُ الحق بالباطل، وتحبيبُ الشهوات والتغريرُ بضعاف النفوس الجاهلين للحق أو الغافلين عنه، والتسويفُ في التوبة والعمل الصالح، حتى إذا حل غضب الله بالمرء يوم القيامة أعلن براءته من أوليائه وضُلَّال أتباعه { وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } إبراهيم22.

إن قصة الشيطان مع بني آدم هي قصة التلبيس بأصنافه وتلاوينه وأساليبه، لقد خلق الله عباده على الفطرة السوية والحنيفية السمحة والإيمان به محبة وتوحيدا وطاعة، { لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ } التين4، ولكن الشيطان أركس كثيرا منهم في الدرك الأسفل من الضلال، وهو ما بينه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال:(إن الله جل وعلا أمرني أن أعلمكم مما علمني يومي هذا، وإنه قال لي: إني خلقت عبادي حنفاءَ كلهم، وإن كل ما أَنْحَلْتُ عبادي فهو لهم حلال، وإن الشياطين أَتَتْهم فاجْتَالَتْهم عن دينهم، وحرَّمت عليهم الذي أحلَلْتُ لهم، وأَمَرَتْهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا).

لقد كان التلبيس هو السوس الذي نخر أمم الرسالة على مدار الحياة في الأرض، من قوم هود وصالح وشعيب وموسى وعيسى ومحمد وغيرهم من الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام. وكان أشد الأقوام تمسكا به واستعمالا له أمة بني

إسرائيل، وإن لم تنج منه الأمة الإسلامية في جميع المجالات العقدية والعبادية والاجتماعية والسياسية، وكانت عاقبة تلبيس بني إسرائيل كفرا وغضبا من الله ولعنة، ومآل أمة الإسلام ما تعانيه حاليا من ذلة وصغار واستبداد واستضعاف من حكامها وأعدائها في سائر الأقطار.

ولئن لبس اليهود على أنفسهم فزعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه، وسألوا موسى أن يتخذ لهم إلها كما للوثنيين إله، وعبدوا العجل في غيابه، واستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير، فإن المسلمين أيضا قد وقعوا في شراك الشيطان على نفس النهج، فبرروا حكم القوانين الوضعية بالمصلحة المرسلة، وموهوا على الشورى بالديمقراطية، ودلسوا على الرزق الحلال بكسب السياحة ومهور البغايا والشواذ، وتقاعسوا عن إصلاح أنفسهم ومجتمعهم خوف الفتنة الموهومة، وعتموا على استعلاء الإيمان وعزة أمته بادعاء وحدة الإنسانية وانتحال جامعية الإيمان بين اليهودي والنصراني والمجوسي والوثني، ولبسوا على مقياس التقوى الذي يُتَفاضَل به عند الله والناس، بسنة شيطانية { أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ} الأعراف12، تفاخرا بالألوان والأعراق والأصول، وتغاليا في الأقدار كما يتغالى النخاسون في أسواق الجواري والعبيد، أو تجار الماشية في أسواق بهيمة الأنعام، ونسوا قول رسولهم صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَفَخْرَهَا بِالْآبَاءِ، مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ، أَنْتُمْ بَنُو آدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ، لَيَدَعَنَّ رِجَالٌ فَخْرَهُمْ بِأَقْوَامٍ إِنَّمَا هُمْ فَحْمٌ مِنْ فَحْمِ جَهَنَّمَ، أَوْ لَيَكُونُنَّ أَهْوَنَ عَلَى اللهِ مِنَ الْجِعْلَانِ الَّتِي تَدْفَعُ بِأَنْفِهَا النَّتَنَ)

إن التلبيس قائم على ثلاث ركائز، أولاها تشويه الحق والتشكيك فيه وتمييع معناه، وثانيتها تحسين الباطل تحت مسمى المصلحة أو البدعة الحسنة، وثالثتها محاولة الخلط بين الحق والباطل بدعوى تكاملهما وعدم تنافرهما أو تناقضهما، فَتَزَوَّرُ الحقائق الشرعية وتتغير باسم سماحة الإسلام ورفقِه ويسرِه ووسطيته والحكمةِ والموعظةِ الحسنةِ في الدعوة إليه، بهذه الركائز رُوِّجَ للباطل في صورة حق، فتمزق صف المسلمين وتناحروا واستعانوا على بعضهم بأعدائهم {بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ } الحشر14، وبها أيضا نشأت فرق النفاق العقدي كفرا وضلالا، والنفاق الاجتماعي ميوعة وفجورا وفسادا، والنفاق العرقي قوميات وقبليات، والنفاق السياسي متاجرة بالإسلام في سوق النخاسة السياسية أحزابا وتكتلات، والنفاق الاقتصادي معاملاتٍ ربويةً وكسبا حراما، والنفاق العلمي ارتزاقا بالدين على أبواب الحكام والسلاطين، قال تعالى: { وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ } آل عمران 78.

إن بني إسرائيل لم يكتفوا بالتلبيس على الحق وتمويهه، بل أضافوا مَثْلَبَةً أخرى هي كتمانه وإخفاؤه وقد علموه، ولذلك نصحهم رب العزة فقال: { وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ } بعد قوله: { وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ }، لأن اللبس قد لا يكون فيه كتمان، ولكن فيه تضليل، بأن تسأل شخصا عن شيء فلا يكتمك إياه، وإنما يضللك فيبديه لك ملتبساً يعسر معه التمييز أو يتعذر، ومعلوم أن الحق الذي كتمه المعاصرون منهم لنزول الوحي هو بعثة النبي صلى الله عليه وسلم

وصفاته والكتاب الذي أرسل به، متابعةً منهم وتقليدا لمن سبقهم من علماء اعتادوا التحريف والكتمان كلما غاب عنهم الأنبياء والرسل، قال تعالى: { أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ } الشعراء197.

وفي تعقيبه تعالى على النهي عن التلبيس والكتمان بقوله: { وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ } تنبيه إلى قبح المعصية من العالم وعظمها، وتوبيخ شديد لكل عالم يلبس أو يكتم في أي عصر وبين ظهراني أي أمة، قال تعالى: { وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ } آل عمران 187، ولئن نزلت هذه الآيات في حق أهل الكتاب توبيخا لكتمانهم أمْرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم وكفرهم برسالته، فإن فيها تحذيرا لعلماء هذه الأمة من أن يسلكوا مسلك أهل الكتاب فيصيبهم ما أصابهم، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي كُلُّ مُنَافِقٍ عَلِيمِ اللِّسَانِ)، وقال:(مَنْ كَتَمَ عِلْمًا مِمَّا يَنْفَعُ اللَّهُ بِهِ فِي أَمْرِ النَّاسِ أَمْرِ الدِّينِ أَلْجَمَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنَ النَّار)، وقال:(مَا مِنْ رَجُلٍ يَحْفَظُ عِلْمًا فَيَكْتُمُهُ إِلَّا أُتِيَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُلْجَمًا بِلِجَامٍ مِنَ النَّارِ).

ثم بعد تقريرِ معالم الوفاء بالعهد، والنهيِ عن مفسدات الإيمان كتمانا وتلبيسا، وأمْرِ أهل الكتاب بتصديقِ الهدى الذي جاء به القرآن الكريم واتباعِ النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا في التوراة والإنجيل، كان العطف بقوله تعالى: { وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ } لتذكيرهم بأوصاف المتقين المهتدين بالكتاب في أول سورة البقرة { فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ } البقرة3/2، وهي إشارة منه تعالى لهم بأن يستجمعوا أصول الدين إيمانا محصّنا ضد التلبيس والكتمان على نهج المتقين، ويقيموا أركان الإسلام صلاةً في جماعة المؤمنين، وتزكيةً للنفوس عملا صالحا، وللأموال صدقةً مُقدَّرةً ومُرْسَلةً، وهو استدراج لطيف وتدرج رحيم بهم في التربية والتعليم والترشيد، إذ عقِبَ الأمرِ بتحقيق العقيدة في القلوب بقوله تعالى: { وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ } وَرَد النهي عن مفسدات الإيمان تلبيسا وكتمانا، ثم انتقل بهم إلى أعظم القواعد الإسلامية بعد النطق بكلمة التوحيد فقال: { وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ }، لأن الإيمان وحده لا يُسْتَكْمَل به إسلام المرء، فقد يدعيه المنافق والمتجسس والمتربص، أما الصلاة والزكاة فثقيلتان على غير المسلم، لأن في الصلاة سجودا وركوعا وتعظيما لله تعالى، ونهيا عن الفحشاء والمنكر، وهي تكاليف لا يطيقها المشرك ولا الكتابي ولا المنافق، ولذلك كان التهاون بها والسهو عن أدائها في وقتها من صفات المنافقين، قال تعالى: { إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا } النساء142، كما أن الزكاة إنفاق للمال، والنفوسُ متعلقةٌ به، لا تجود به إلا مقابل منفعة مستجلبة، وإنفاقه في سبيل الله دليل على الإيمان باليوم الآخر وما يُوفَّ فيه من جزاء، ولذلك قرنهما الله تعالى في كثير من آيات القرآن الكريم، وجعل استثقالهما من سمات الكفر والنفاق فقال: { وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ

نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ } التوبة54، وقال: { فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ } الماعون7/4.

ولأن الصلاة والزكاة حَقُّ كلمةِ التوحيد وعلامةُ صدق الإيمان، قال صلى الله عليه وسلم: (العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر)، وأصرَّ أبو بكر رضي الله عنه على قتال مانعي الزكاة وعَدَّهم مرتدين، فلما راجعه عمر رضي الله عنه قائلا:" كيف تقاتلهم وقد قالوا "لا إله إلا الله" وقد قال رسول الله: (أُمِرْتُ أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها)؟، أجابه أبو بكر:" لأُقاتِلَنَّ من فَرَّق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال "

ثم انتقل التوجيه الرباني إلى الاستفهام الاستنكاري لأعمال النفاق التي اتسمت بها تصرفات علماء بني إسرائيل، وهم يظهرون للناس شعار الصالحين ويبطنون أخلاق الفاسقين، ويتزيون بزي الأولياء ويفعلون أفاعيل السفهاء ترويضا منهم للعامة على الطاعة العمياء وابتزازا لهم وتحكما في أموالهم وذرياتهم، فقال تعالى توبيخا لهم وتنديدا بتصرفاتهم: { أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ }.

إن آفة تناقض القول والعمل عندما تصيب العالم المقتدَى به، تعصف بثقة الناس به وبدعوته، فينفرون منه وتنعدم البركة من جهده، كحال غَشَشَةِ التجار والصناع عند تزيينهم بضاعتهم الفاسدة طلبا لربح مادي صرف، قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ } الصف3، أما الدعاة الصادقون { الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ } الأحزاب39، والذين لا تتناقض أقوالهم مع أعمالهم ويبذلون جهدهم ومالهم وعلمهم لتبليغ رسالة الإسلام وأطر الناس على الحق، فتثمر دعوتهم وتنمو { كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ } البقرة261.

لقد كان علماء بني إسرائيل في المدينة يتصنعون للناس بادعاء الورع والتقوى ويعظونهم ببعض مبادئ الأخلاق الواردة في التوراة، وإذا لقوا مسلما نصحوه بالتمسك بالإسلام خوفا من المسلمين ونفاقا وتقية، ولذلك وبخهم القرآن على هذا الصنيع، ونبههم إلى أن العقل يقتضي إصلاح النفس قبل محاولة إصلاح الغير، وأن على المرء أن يَبَرَّ نفسه قبل أن يَبَرَّ غيرَه، وليس ذلك إلا بالتخلي عن رعونات التصنع والرياء والتكلف والتزييف والتلبيس وكتمان الحق.

كما أن في الآية تحذيرا ضمنيا لهم من أن ينقلوا معهم هذه الأخلاق الذميمة إلى الصف المسلم حال اعتناقهم الإسلام، وإشارةً واضحةً إلى معنى ثانٍ للزكاة، متعلقٍ بتزكية النفوس وتطهيرها من أدران مجتمع الكفر والنفاق، وعلى من يغادر هذا المجتمعَ أن يزكيَ جسده نظافة وغسلا، ويزكيَ ماله صدقة وبذلا، ويزكيَ نفسه برا وعدلا، قبل أن ينتقل إلى تزكية الآخرين وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر. قال تعالى: { وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ} المدثر7/4، وفي الدعاء المأثور:(اللهم طهر قلبي من النفاق، وعملي من الرياء، ولساني من الكذب، وعيني من الخيانة،

فإنك تعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور)، والمرء مسؤول عن نفسه قبل أن يسأل عن غيره، قال صلى الله عليه وسلم: (لَا تَزُولُ قَدَمَا ابْنِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ خَمْسٍ: عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ، وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ، وَمَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ، وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَمَاذَا عَمِلَ فِيمَا عَلِمَ).

إن لَأَمْرِ الانتقال بالنفسية المريضة المنحرفة إلى السواء والاعتدال، ومن المجتمع الفاسد إلى مجتمع الطهر والصلاح، ومن الحياة البهيمية الشاذة إلى الحياة الإنسانية الراقية المسؤولة، تكاليفَ شاقةً وتبعاتٍ لا يطيقها إلا أولو العزم من الناس، من الذين لا تضنيهم طاعة، ولا تلهيهم عن الذكر شهوات، ولا تصرفهم عن طريق الله دنيا مُؤْثَرَةٌ، ولذلك دعا رب العزة أولياءه من المسلمين عامة ومن بني إسرائيل الذين أسلموا خاصة إلى وجوب الاستعانة على هذه التكاليف الشاقة بالصبر والصلاة فقال: { وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ }.

الاستعانة بالصبر في حالتي رغبة النفس ورهبتها، إقبالها ونفورها، شجاعتها وجبنها، بخلها وعطائها، حبها وبغضها، لذتها وألمها، لأن الحياة الدنيا دار ابتلاء، يبتلى المرء بالخير فيصبر على ما قد يستدرج إليه من طغيان النعمة وكفرانها، ويقابل ذلك بالشكر وأداء حقوق الله والناس، ويبتلى بالشر فيصبر ويحتسب، وفي الحالات كلها له بصبره أجر كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ)

أما الصلاة المستعان بها فللمرء فيها اقتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم، ومن هديه إذا حَزَبَه أمرٌ بادر بالصلاة، ومن سنته أن ينادِيَ بلالا رضي الله عنه ويقول:(يَا بِلَالُ أَقِمْ الصَّلَاةَ أَرِحْنَا بِهَا)، وذلك أن النفوس الطاهرة تطمئن بذكر الله، وتأنس في رحابه، لعودتها إلى فطرتها الأولى قبل أن تكدرها المعصية أو يتلبس بها الشيطان وأولياؤه، قال تعالى: { الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ } الرعد28، وقال: { وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ } آل عمران135/136.

ولئن كان الصبر والصلاة قوة للمؤمن وعونا له، فإن الصابرين والمصلين والمزكين بصدق نية وتمام إخلاص أولى الناس بالولاء والمحبة في حالات الرخاء واليسر والضيق والمشقة والمحن، إذ ولاء المؤمن للمؤمن تجسيد حي لما ينبغي أن يكون عليه صف المسلمين تناصرا وتعاونا ومحبة كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم، كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر).

ولذلك أثبت الله تعالى الولاء على سبيل الحصر والتوكيد للمؤمنين الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة بعد الولاء له سبحانه ولرسوله صلى الله عليه وسلم فقال: { إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ } المائدة54/55، وأوجز بأبلغ عبارة وأوفاها صفات البر المأمور به لدى الصادقين الذين لهم الولاء تبعا

لولائهم لله ولرسوله فقال: { وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ } البقرة177، فصارت هذه الصفاتُ علامةَ الصدق والإخلاص ووشيجةَ التقوى ورابطةَ الإيمان في مجتمع التناصر والمحبة والرضوان.

ولئن افتقد المؤمن أخاه في شدة فلم يجده، ولجأ إليه في ضائقة فلم يعنه، فذلك دليل على أن الصلاة والزكاة لم تفعلا فعلهما في النفوس، والإيمان لم يجد له مستقرا في القلوب، والأخوة ليس لها ثمر في الحياة أو بعد الممات، لأنها مبنية على المنفعة المادية رهبة ورغبة كما ورد في الأثر: (يَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ أَقْوَامٌ إِخْوَانُ الْعَلَانِيَةِ أَعْدَاءُ السَّرِيرَةِ فَقِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَكَيْفَ يَكُونُ ذَلِكَ؟ قَالَ ذَلِكَ بِرَغْبَةِ بَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ وَرَهْبَةِ بَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ)، وعندما كتب أبو عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل إلى عمر بن الخطاب ينصحانه وقد ولي الخلافة وذكراه قائلين:(...وإنا كنا نحدّث أن أمر هذه الأمة سيرجع إلى آخر زمانها، أن يكون إخوانُ العلانية أعداءَ السريرة...) رد عليهما كتابة بقوله:(من عمر بن الخطاب إلى أبي عبيدة ومعاذ بن جبل، سلام عليكما، أما بعد، فإنكما كتبتما إليَّ تَذْكُران أنكما عَهِدْتُماني وأمرُ نفسي لي مهم، وأني قد أصبحت وقد وليت أمرَ هذه الأمةِ أحمرِها وأسودِها، يجلس بين يديَّ الشريف والوضيع والعدو والصديق، ولكل حصة من ذلك، وكتبتما فانْظُرْ كيف أنت عند ذلك يا عمر، وأنه لا حول ولا قوة عند ذلك لعمرَ إلا بالله، وكتبتما تُحَذِّراني ما حُذِّرَتْ به الأممُ قبلنا، وقديما كان اختلاف الليل والنهار بآجال الناس، يقربان كلَّ بعيد ويُبْليان كلَّ جديد، ويأتيان بكل موعود، حتى يصيرَ الناس إلى منازلهم من الجنة والنار، كتبتما تَذْكُرَان أنكما كنتما تُحَدّثان أن أمرَ هذه الأمة سيرجع في آخر زمانها، أن يكون إخوانُ العلانية أعداءَ السريرة، ولَسْتُمْ بأولئك، ليس هذه بزمان ذلك، وإن ذلك زمانٌ تظهر فيه الرغبةُ والرهبة، تكون رغبةُ بعض الناس إلى بعضٍ لصلاح دنياهم، ورهبةُ بعض الناس من بعض، كتبتما به نصيحةً تَعِظَانِي بالله أن أُنْزِلَ كتابَكما سوى المنزل الذي نَزَل من قلوبكما، وأنكما كَتَبْتُما به وقد صَدَقْتُما، فلا تَدَعا الكتاب إليَّ، فإنه لا غِنى بي عنكما والسلام عليكما).

إن الصبر قياما بالواجبات وكفا عن المنهيات، والصلاة على نهجها الرَّضِيِّ، والزكاة بمعناها التطهري نفسا ومالا، من التكاليف الكبيرة الشاقة المطلوبة من المؤمن، لذلك كانت القدرة عليها معلقة بشرطين ينبغي توفرهما في القلب، أولهما الخشوع لله تعالى في السر والعلن، ومراقبتُه في الغدوة والروحة، وخشيتُه في الخلوة وبين الناس، وهو معنى قوله تعالى: { وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ }، ولئن كان معنى الخشوع قريبا من الخضوع، فإنه يعني تمام الاطمئنان والسكينة والحياء في القلب والصوت والبصر والبدن بين يدي الله، قال تعالى: { قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ } المؤمنون)2/1، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في دعائه: (اللهم إني أعوذ بك من الأربع، من علم لا ينفع، وقلب لا يخشع، ونفس لا تشبع، ودعاء لا يسمع)، قال أبو الدرداء:" الخشوع هو إخلاص المقال، وإعظام المقام،

واليقين التام، وجمع الاهتمام " وقال أيضا: تعوذوا بالله من خشوع النفاق، فقيل: يا أبا الدرداء وما خشوع النفاق؟ قال: أن ترى الجسد خاشعا والقلب ليس بخاشع " وقال حذيفة:" أول ما تفقدون من دينكم الخشوع وآخر ما تفقدون من دينكم الصلاة "، لذلك كان من يطمئن بين يدي غير الله عز وجل خاشعاً مضطربا، ويقف بين يدي الله عابثاً لاهيا، بعيدا عن مجالات الولاء الصادق، والصلاة والزكاة الحقيقيتين المقبولتين.

إن الخشوع أول مراتب الإحسان، (أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك)، وهو ثمرة الإيمان واليقين، ونتيجة معرفة المرء بربه، وخوفه منه، وتعظيمه ومحبته وإجلاله له، وهو حالة نفسية تعتري المؤمن كلما ذكر الله وتفكر في آلائه وآياته، أو وقف مصليا بين يديه { أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ } الحديد 16، { خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ } آل عمران 199.

أما الشرط الثاني فهو ما وصف به الله تعالى الخاشعين بقوله: { الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ}، والظن في هذه الآية ورد بمعنى العلم لأنه في أصله اللغوي من أسماء الأضداد، يطلق على الشك وعلى اليقين بحسب السياق الذي سيق له، وفي هذه الآية مزيد شرح وبيان للخشوع الحق الناشئ عن معرفة الله تعالى، والإيمان باليوم الآخر حشرا وعرضا وحسابا وجزاء، وفي صحيح مسلم أن الله تعالى يسأل العبد يوم القيامة:(أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِيَّ؟ فَيَقُولُ: لَا، فَيَقُولُ: فَإِنِّي أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي)، قال تعالى: { وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ } البقرة 232، وقال: { وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا } الكهف 49/48.

إن لتأدية الواجبات صلاةً وزكاةً وعضويةً فعالةً في مجتمع الراكعين، وللعلم المثمر في النفس والسلوك، مشاقَّ كبيرةً لا يُستعان عليها إلا بالصبر والصلاة، الصبر الإيجابي قياما بوظائف الواجبات، والصبر السلبي امتناعا عن المنهيات والمحرمات، والصلاة ركوعا وسجودا ودعاء, ومفتاح كل ذلك اليقين الراسخ بلقاء الله يوم العرض والحشر والمحاسبة، وهو ما يضفي على قلب المؤمن وتصرفاته خشوعا لربه وحياء من ترقب لقائه. وشوقا صادقا إلى ما شوّقه إليه، وخوفا شديدا مما حذّره منه.

ثلاث أمم في خطاب واحد

تصريحا وتعريضا

قال الله تعالى: { يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (47) وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (48) وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (49) وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (50)} سورة البقرة

للمرة الثانية في سورة البقرة يتكرر النداء لبني إسرائيل المعاصرين للبعثة النبوية تذكيرا لهم بالنعم ومنا عليهم بالتفضيل، وتحذيرا من عاقبة الكفر والجحود، وتنبيها إلى المقصود من الخطاب، وهو أن يتعظ الخلف من تجربة السلف، ويثبت من آمن على ما واثق به ربه. وقد جرت سنة القرآن الكريم أن يكرر الجمل المشتملة على ما يستوجب المزيد من العناية كما في حال ذكر النعم، أو التحذير من النقم، ليكون المعنى أتم، والكلام أشد تأثيرا وأرجى نفعا.

ولئن كان النداء الأول مجملا فإنما ذلك لتركيز انتباه المخاطبين حول الغاية من الخطاب، بأوجز لفظ وأتم تعبير، حتى إذا استيقظ العقل وانفتح القلب واسْتُجْمِع الفكرُ، كان النداء الثاني تفصيلا للنعم، قضاءً لحق المنعِم بذكر آلائه وفضله وربانيته، مما يستوجب له التحميد والتمجيد، وإقامة حجة على المنعَم عليهم وعلى من بلغه خبرهم، تستدعي الاعتبار والشكر، فقال تعالى: { يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ }.

والنعمة التي يراد من بني إسرائيل تذكرها وشكرها تعني جنس جميع النعم والآلاء، مما فصل القرآن أصنافها وما اكتفى بالإشارة إليها، ومنها على سبيل المثال اصطفاء الرسل منهم وإنزال الكتب عليهم واستنقاذهم من عبودية فرعون، وإطعامهم المن والسلوى وتفجير عيون الماء لهم من الحجر، والتمكين لهم في الأرض، وإن كانت كل هذه النعم العامة أقل درجة من نعمة الإسلام الذي هو رأسها ومنبعها ومصدرها، ولذلك امتن به تعالى على المسلمين بقوله: { يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } الحجرات17، وهذا التذكير منه تعالى للمسلمين بنعمة الإسلام نظير تذكير موسى عليه السلام لقومه بقوله: { وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ } المائدة 20.

أما التفضيل الذي اختص به الله تعالى بني إسرائيل بقوله: { وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ }، فنعمة خاصة ميزهم بها على غيرهم من معاصري رسالتهم، وعالمي زمانهم، لا على مطلق العالمين في كل زمان، والفضل والفضيلة لغة ضد النقص والنقيصة، أي الزيادة فوق العدل والاقتصاد، وهي الدرجة الرفيعة التي ميزهم الله بها على أهل زمانهم، ورقاهم إليها، إذ جعلهم أمة الرسالة والعقيدة، فكان التفضيل قرينا بمدة استخلافهم واختيارهم، وعلى قدر طاعتهم وامتثال أمر ربهم، ولذلك عندما عتوا وعصوا وجحدوا باؤوا بلعنة الله وغضبه، وقضى عليهم بالذلة والمسكنة والتشريد، وجعل منهم القردة والخنازير وقال عنهم: { قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ } المائدة60.

لقد ذكر الله تعالى في هذه الآيات الكريمة بني إسرائيل المعاصرين للبعثة النبوية بما كان من فضل لآبائهم الأولين كما يدل عليه السياق، تأليفا لقلوبهم واستدراجا لعقلائهم إلى انتهاز فرصة الدعوة المحمدية للعودة إلى ركب الإيمان، وموكب التفضيل المتجدد بقيادة النبي الخاتم محمد صلى الله عليه وسلم، ثم عقب على هذا الاستدراج اللطيف المتحنن إلى الإيمان والطاعة، بتحذيرهم من عاقبة النكوص والعصيان والجحود والكفران فقال: { وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ }، وهم بهذا الخطاب بين طاعتين، طاعة لسوابق النعم في الحياة الدنيا، وطاعة للواحق العقوبة والنقم في يوم عذاب عظيم { يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ } إبراهيم51/48، في يوم { لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا }، يوم عدل بدون ظلم وحق بدون باطل، وتناصف بالقسطاس، لا تزر فيه وازرة وزر أخرى، ولا يغني فيه والد عن ولده أو مولود له عن والده، ولا ينوب فيه عن نفس مثقلة بالأوزار غيرها، إذ كل فرد مشغول بحاله ومآله، وسوابقه وأفعاله، لأن المسؤولية فردية والحساب شخصي، والعدل الإلهي مطلق { يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ } الانفطار19، { الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ } غافر17.

{ وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ } والشفاعة هي السعي والوساطة في حصول نفع أو دفع ضر، أي أن يستعين المرء بغيره في تحصيل ما يطلب، من الشفع ضد الوتر، لأن صاحب الطلب يكون وحيدا، أي وترا، فيضم إليه شفيعا فيصير شفعا، والنفس الكافرة في هذا اليوم لا يقبل منها شفيع ولا شفاعة { فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ } المدثر48، وكما قال أهل النار: { فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ} الشعراء 101/100، وفي هذه الآية إشارة إلى ما يعتقده اليهود والنصارى من انتفاع بنسبهم إلى الأنبياء واحتماء بهم من عقاب الله، كما ذكر القرآن ذلك بقوله تعالى: { وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ } المائدة 18.

وهذه الآية الكريمة قد نفت قبول الشفاعة نفيا مطلقا، إلا أن آيات أخرى تثبتها لمن أذن له الرحمن مثل قوله تعالى: { مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ } البقرة 255، وقوله: { يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا } طه109، وللجمع بين هذه الآيات يحمل نفي الشفاعة مطلقا على أنه في حق النفوس الكافرة، وإثباتها على أنه وارد في شأن المؤمنين إذا أذن الله في ذلك، قال صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخاري ومسلم، واللفظ للبخاري:(أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ وَأُحِلَّتْ لِي الْمَغَانِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً)، وقال: (كُلُّ نَبِيٍّ سَأَلَ سُؤْلًا أَوْ قَالَ لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ قَدْ دَعَا بِهَا فَاسْتُجِيبَ فَجَعَلْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ).

أما قوله تعالى: { وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ }، فنظير قوله تعالى: { فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا } الحديد 15، والعدل في هذا السياق هو الفدية، أي لا تستطيع نفس كافرة أن تفتدي بمال أو أهل أو ولد للتجاوز عن كفرها وعصيانها، من قولك: عدل الشيء يعدله عدلا وعادله أي وازنه، وعادلت بين الشيئين، وعدلت فلانا بفلان إذا سويت بينهما، وتعديلك الشيء بالشيء من غير جنسه لتجعله له مثلا، والعدل والعديل هو المثل والنظير، قال تعالى: { أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا} المائدة 95، وقال: { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} المائدة 36.

وقد عبر القرآن بلفظ "نفس" نكرة غير موصوفة، زيادة في التعميم والإطلاق، لتعني جميع المعروضين على الله يوم القيامة، ولذلك ساغ أن ينصرف إلى خطاب الغيبة بالجمع في قوله: { وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ }، أي أن هذه النفوس لا يعصمها من الله عاصم، ولا ينصرها من الله ناصر، ولا ينجيها من عذابه مال أو أهل أو ولد أو ذو جاه وقوة، قال تعالى: { مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ } الصافات 26/25، وقال: { فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ } الأحقاف28.

ثم بعد أن أمرهم الله تعالى بالحذر من يوم القيامة حيث لا ينفع نفسا فدية ولا شفاعة ولا ناصر، وحثهم على اتقائه بالمبادرة بالإيمان واتباع النبي صلى الله عليه وسلم، عاد إلى تذكيرهم بنعمه على آبائهم توضيحا وتفصيلا، فبدأ بتنجيتهم من أول محنة حلت بهم، وكانوا تحت نير عبودية فرعون فقال: { وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ }.

ولئن كانت التنجية للأسلاف الماضين، فإنها أيضا تنجية غير مباشرة للخلف المعاصرين، إذ تخلص السابقون من نير السخرة والاستعباد واسترجعوا حريتهم وكرامتهم، فاستعاد اللاحقون حريتهم وكرامتهم وراثة عن آبائهم، وتمت بذلك نعمة الله ومنته على الأصول والفروع.

ولقب فرعون خص به ملوك مصر القدامى من القبط، كما خص ملوك فارس بلقب كسرى وملوك الروم بلقب قيصر وهرقل، أما لفظ "آل" فأصله "أهل" قلبت هاؤه همزة للتخفيف ليتوصل إلى تسهيل الهمزة مدا، والدليل على أن أصله "أهل" رجوع الهاء في التصغير فيقال"أهيل"، وآل فرعون هم أعوانه وأنصاره وجنوده، وإنما جعلت التنجية منهم لأنهم قوته وأدوات بطشه وطغيانه.

لقد كان مبدأ استقرار بني إسرائيل بمصر بدخول يوسف عليه السلام في ولاية عزيزها، ثم بالتحاق والده يعقوب عليه السلام مع أبنائه به، حين جعل على خزائن مصر ومكن الله له، مع ظهور العائلة الثامنة عشرة من حكام مصر الهكسوس، على اختلاف بين المؤرخين والقصاصين في تسمية فرعون ذلك العصر، واستمرت العلاقة طيبة بين بني إسرائيل وبين المصريين زمنا طويلا، حافظ فيها الإسرائيليون على دينهم ولغتهم وأعرافهم وعاداتهم، إلى أن ظهر في مصر فرعون الأكبر "رعمسيس" الثاني من العائلة التاسعة عشرة فتنكر الأقباط لبني إسرائيل لأسباب ذكر منها الأخباريون أن فرعون رأى رؤيا أولها له الكهنة بمولود يولد في بني إسرائيل يخرب ملكه، وذكر غيرهم أنه اطلع على خائنة منهم لمساعدة أعدائه، فأمر بقتل ذكور المواليد، واستعباد الرجال واستحياء النساء للخدمة والمتعة، وكلفهم أشق الأعمال وأخسها وسامهم الخسف والمهانة، لذلك وصف رب العزة حالهم بقوله: { وَفِي ذلكم بَلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ }، أي محنة واختبار، لأن أصل كلمة البلاء من الابتلاء وهو الاختبار والامتحان، قال تعالى: { وَنَبْلُوكُم بالشر والخير فِتْنَةً } الأنبياء35، وقد ابتلي بنو إسرائيل بالخير في زمن التمكين ليوسف عليه السلام ثم ابتلوا بالشر في زمن هذا الفرعون، وفي القرآن الكريم تفصيل لجهود النبي موسى عليه السلام من أجل تخليصهم وتنجيتهم، من يوم أرسل إلى الفرعون بقوله تعالى له: { اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى } طه24، وقول موسى لفرعون: { إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ } الأعراف 105/104، إلى أن أوحى الله تعالى له بالخروج بهم من مصر بقوله: { وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ } الشعراء52.

ثم يعقب القرآن بنعمة كبرى من نعم الله عليهم هي معجزة فرق البحر لخروجهم وإطباقه على فرعون وجنوده أمام أنظارهم شفاء لما في صدورهم من غم المحنة ومشقة البلاء. فقال تعالى: { وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنظُرُونَ }.

ذلك أن موسى عليه السلام عندما امتثل لأمر ربه بالخروج ببني إسرائيل من مصر اتبعهم فرعون وجنوده ليصدوهم عن الاسترسال في السير، { فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ} الشعراء 63/61، فلما جاوزه هو والذين معه تركه مفتوحا رهوا فلم يضربه بعصاه امتثالا لأمر ربه إذ قال له: { وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ } الدخان24،

ولما توغل فرعون وجنوده في اليبس الذي انشق من البحر تناولهم الموج من كل جهة فكانوا من المغرقين على مرأى من بني إسرائيل، وذلك يوم عاشوراء (العاشر من شهر محرم)، وهو يوم عيد لليهود، وقد روى البخاري في صحيحه (أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا قَدِمَ الْمَدِينَةَ وَجَدَهُمْ يَصُومُونَ يَوْمًا، يَعْنِي عَاشُورَاءَ، فَقَالُوا: هَذَا يَوْمٌ عَظِيمٌ وَهُوَ يَوْمٌ نَجَّى اللَّهُ فِيهِ مُوسَى وَأَغْرَقَ آلَ فِرْعَوْنَ فَصَامَ مُوسَى شُكْرًا لِلَّهِ، فَقَالَ: أَنَا أَوْلَى بِمُوسَى مِنْهُمْ، فَصَامَهُ وَأَمَرَ بِصِيَامِهِ).

وتنتهي هذه الآيات البينات على شدة إيجازها وقصرها وقد حوت من واضح المعاني والمرامي وخفي الإشارات والعبارات، ما خوطبت به ثلاث أمم، أولها أمة الرسالة الموسوية إذ تنكرت لعهدها وميثاقها فأهلكها بغيها وتمردها، ثم أمة بني إسرائيل المعاصرين للبعثة النبوية، وأمة الإسلام من مبدأ البعثة إلى يوم الدين تعريضا بمآل الأعمال، ونتائج التهاون بأمر الدين والإهمال.

والتعريض لغة هو ذكر شيء يفهم منه شيء آخر، بحيث يكون للكلام وجهان ظاهر وباطن، يقصد قائله الباطن ويظهر إرادة الظاهر، وهو أسلوب قرآني في التربية والتوجيه، فيه من لطف العبارة ولين الإشارة ما يشفي الصدور المؤمنة، ويطهر القلوب السليمة ويرفع همم النفوس العالية، وينير الطريق لمن يلقي السمع وهو شهيد، ولما كان الغالب على قلوب بني إسرائيل القسوة والمماحكة فقد كرر القرآن الكريم نداءه لهم في هذه الآيات الكريمة يذكرهم بنعم الله عليهم وتفضيله إياهم، في تعريض غير خفي بكفران سلفهم بالنعم التي أغدقت عليهم والإحسان الذي عوملوا به، وهو تقريع واضح وتهديد بسوء المصير لمن أصر على مسيرة الكفر والجحود فقال تعالى: { يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ }.

ولئن خوطب بنو إسرائيل المعاصرون للبعثة النبوية بهذه الآيات تذكيرا لهم بنعمة وتفضيل خص بهما أسلافهم ممن بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار، فإن في الآية أيضا تعريضا بالمسلمين وتهديدا بنفس المصير إن هم ساروا سيرة بني إسرائيل، فبدلوا تبديلهم وغيروا تغييرهم، وكذبوا على ربهم، وآذوا نبيهم، وهو صريح قوله تعالى: { وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ } الحشر 19، وقوله: { وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } التوبة61، وقوله: { أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ } البقرة 108.

لقد أفضت الأجيال الفاسدة من بني إسرائيل بما لعنت به إلى ما قدمت لنفسها { لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ } المائدة 80/78، ولم يبق للمسلمين من ذكراها إلا العظة بتجربتها المرة، استنقاذا لإيمانهم وأنفسهم من عذاب الله، وفوزا بسعادة الدنيا والآخرة.

ولئن كان الله تعالى قد امتن على بني إسرائيل بما أحسن به إليهم من نعم لا تحصى إذ نجاهم من فرعون وما يمارسه فيهم من تعذيب لرجالهم وتذبيح لأبنائهم واستحياء لنسائهم، وإذ أهلك عدوهم أمام أعينهم في اليم بعد أن سخر لهم البحر ففرقه لمرورهم، وبوأهم الدرجة العليا ورزقهم من الطيبات { وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ } يونس 93، فإنه تعالى قد أنعم على المسلمين بأكثر من ذلك إذ أنجاهم من بطش قريش، ومكر يهود، ونصرهم في بدر بالملائكة فقتلوا بأيديهم أشد أعدائهم عليهم، وخالفوا نبيهم في أحد فعفا عنهم وأنجاهم من الهزيمة، وشد أزرهم في حنين بعد أن أعجبتهم كثرتهم فانهزموا ثم نصروا، وكسر بهم عروش القياصرة والأكاسرة، ومد ملكهم على العالمين. فلم يبق لهم إلا أن يذكروا أيضا فعل الله تعالى بهم لطفا ونعمة وفعل بني إسرائيل بأنفسهم كفرا وجحودا، فيعتصموا بالحمد والشكر والامتثال والطاعة والوفاء بعهد الله وميثاقه، { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ } السجدة22.

ولئن اختار الله تعالى بني إسرائيل أمة للرسالة والخلافة لحكمة منه وعلى علم لديه، وفضلهم على عالمي عصرهم وقال: { وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ } الدخان 32/30، وقال: { وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ } الجاثية16، فإنه لكفرهم وجحودهم وقتلهم الأنبياء بغير حق قد لعنهم وعزلهم عن الرسالة والخلافة، واستخلف قوما آخرين هم أمة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، جعل بأيديهم قيادة البشرية في رحلتها الخاتمة إلى قيام الساعة، وقال فيهم: { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ } آل عمران 110، وربط خيريتها بالإيمان والعمل الصالح أمرا بالمعروف ونهيا عن المنكر، كي لا تسقط فيما سقط فيه بنو إسرائيل إذ ربطوا خيريتهم بعصبية العرق والدم، لأن التفضيل عند رب العزة لا يظهر أثره في الدنيا والآخرة إلا بالعمل، قال تعالى: {وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } التوبة105، وكان بذلك مفهوم الخطاب الإلهي لمعاصري البعثة المحمدية من بني إسرائيل، وللمسلمين على حد سواء، أن احذروا أن يصيبكم ما أصاب عصاة يهود من لعنة واستبعاد. وهو ما بينه قول الرسول صلى الله عليه وسلم:(إِنَّ أَوَّلَ مَا دَخَلَ النَّقْصُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى الرَّجُلَ فَيَقُولُ يَا هَذَا اتَّقِ اللَّهَ وَدَعْ مَا تَصْنَعُ فَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ لَكَ، ثُمَّ يَلْقَاهُ مِنْ الْغَدِ فَلَا يَمْنَعُهُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ أَكِيلَهُ وَشَرِيبَهُ وَقَعِيدَهُ، فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ ضَرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ، ثُمَّ قَالَ: { لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ... } إِلَى قَوْلِهِ: { فَاسِقُونَ } ثُمَّ قَالَ: (كَلَّا وَاللَّهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنْ الْمُنْكَرِ وَلَتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدَيْ الظَّالِمِ وَلَتَأْطُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا وَلَتَقْصُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ قَصْرًا)، وفي رواية ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم بنحوه وزاد: (أَوْ لَيَضْرِبَنَّ اللَّهُ بِقُلُوبِ بَعْضِكُمْ عَلَى بَعْضٍ ثُمَّ لَيَلْعَنَنَّكُمْ كَمَا لَعَنَهُم)، ولئن ضعف الألباني هذه الرواية فإن صريح القرآن يخاطب الأمة المسلمة بقوله تعالى: { وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ } محمد38، وقوله: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

مَنْ يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ } المائدة54.

عجل الذهب وعجل النفط

أيهما أشد فتنة...؟!

قال الله تعالى: {وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (51) ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (52) وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (53) وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (54) وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (55) ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (56) وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (57)} البقرة

يواصل القرآن الكريم التذكير بما أولى الله تعالى بني إسرائيل من عظيم النعم، وما ينبغي أن يقابلها به الطبعُ السليم والعقل النير والقلب الرَّضِيُّ من وفاء بالعهد، وإحسان للعمل، ولَهَجٍ بالشكر والحمد، ولئن كان فرْقُ البحر لمرورهم تنجيةً من موتتين غرقا في البحر أو بسيف الفرعون، وبعْثُ النبوة فيهم هدايةً لهم إلى طريق سعادة الدارين، فإن الأصل في النفوس السوية مهما قست، أن تقابل بليغ إحسان الرب إليها بفيض من الثقة والمحبة والطاعة والخشية، فما مثل كلام الله تأثيرا، وما مثله تذكيرا { لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ } الحشر 21، ولكنها قلوب بني إسرائيل المستعصية عن الصلاح والإصلاح، ونفوسهم المشوهة بذل السخرة والاستعطاء، لا ترعوي عن السفاسف ولا

ترتدع، ولا تسمو للمعالي ولا ترتفع، ولا تلين لذكر الله ولا تخشع، لذلك خاطبهم رب العزة بقوله { ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ } البقرة74،

لقد عاش بنو إسرائيل بعد يعقوب ويوسف عليهما السلام في مصر دهرا طويلا، وبَعُد عهدُهم بعزة العقيدة واستعلائها، لما عانوه من محن وذلة ومسكنة تحت سطوة الفراعنة وجبروتهم، فضعفت نفوسهم، وخارت عزائمهم، ولم يبق من الإيمان في قلوبهم إلا رسمه، ومن الدين إلا رقمه، ومن الرجولة إلا ذكورتها، وعندما أُرْسِل إليهم موسى عليه السلام وجد فيهم تعلقا بالدنيا شديدا، وحرصا على الحياة ذليلا، وأخلاقا مسخها طغيان الفرعون، و ألفى لديهم قلوبا جوفاء فارغة، وعقولا غبية بليدة، تكرست فيها طباع الرق والخزي، استخذاءً تحت السوط، وتمردا في غيابه، وبَطَرًا في حال النعمة والمقدرة، فلم يؤمر باستنهاض هممهم لمقاومة ضلال الفرعون وفساده، وإنما أُمِرَ مع أخيه هارون بأن يطلب استلامَهم من فرعون كما تُستَلَمُ البضاعة أو الرقيق، قال تعالى: { فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ } الشعراء17/16. ولقد لازمهم ما جُبِلوا عليه من ضعف الإيمان، وخور الإرادة، طيلة تجربتهم الاستخلافية، وطَبَعَ مسيرتَهم بالغش والخداع والجبن، وربط نفوسهم بالأهواء، وأضعف ثقتهم بالرسل والأنبياء، وجرَّأهم على الله تعالى وعلى خيانة عهوده ومواثيقه، فأدت بهم هذه الطباع إلى ارتكاب أعظم الخطايا والآثام.

عندما أُمِروا بالخروج مع موسى لم ينسوا طبعهم اللئيم وتعلقهم بفتنة المال والذهب، فاستعاروا حُليَّ الأُسَرِ القبطية الفرعونية وذهبوا بها، ولم يصُدَّهم عن هذا التصرف الدَّنِيء دينٌ أو مروءة أو تَمَيُّزٌ عن الظلم والظالمين، فكانت من أسباب فتنتهم كما يأتي لاحقا.

وعندما حاول موسى عليه السلام رفعَ عزائمهم وتقويةَ نفوسهم بقوله لهم إذ خافوا أن يدركم فرعون وجنوده: { اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ } الأعراف128، لم يكن ردُّهم إلا التذمر والشكوى والتبرم بِصَلَف ومكابرة، لِمَا غاب عنهم من حقائق اليقين والإيمان، وما ران على قلوبهم من رجس الجبن والعصيان، فلم يروا مِن عِزِّ الاستخلاف ورسالةِ الإسلام إلا بلايا حلَّتْ بهم قبل موسى ثم تجددت بقدومه ونزول رسالته: { قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا } الأعراف 129، فأجابهم موسى متغاضيا عن وقاحتهم ومستمرا في تهدئتهم وتنمية ثقتهم بربهم: { قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ } الأعراف129.

وعندما أنجاهم الله إلى الضفة الشرقية من البحر في سيناء، وجدوا قوما يعبدون الأوثان فتاقَتْ إلى عبادة الأصنام نفوسُهم لما وقر فيها من تأثر بالمجتمع الفرعوني الوثني الذي ألفوه، فنهرهم موسى وصَدَّهُم عن الضلالة: { وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ

الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آَلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } 139/138.

لقد كان إيمانهم هشا سريعَ الكسْر والعطب على مدى مسيرتهم الاستخلافية، لذلك بعد خروجهم من مصر كانوا أسرعَ إلى الفتنة والشرك الصريح، بمجرد ذهاب نبيهم لميقات ربه واستخلاف هارون عليهم.

إن أي دعوة دينية أو فكرية مهما كان محتواها، إذا حملها الموقنون بها لا يسرع إليها التحريف والفساد إلا بعد أمد كاف تُنْسَى فيه أو يُتَنَكَّرُ لها، ولكن قوم موسى عبدوا عجل الذهب قبل مرور مجرد أربعين ليلة من غيابه، وهو رقم قياسي في الإسراع إلى الضلال، لم نجد له مثيلا في تاريخ الأمم والشعوب.

هذا الحال العجيب هو ما يُذَكِّر الله به خَلَفَهم المعاصرين للبعثة المحمدية كي يتعظوا، ويضرب به المثلَ للمسلمين في كل عصر كي يعتبروا، ذلك أن بني إسرائيل لَمَّا دخلوا سيناء لم يكن لهم كتاب ولا شريعة ينتهون إليهما، فوعد الله موسى أن يُنَزِّل عليه التوراة، ودعاه لميقات معلوم، فقال موسى لقومه: إني ذاهب لميقات ربكم آتيكم بكتاب فيه بيان ما تأتون وما تذرون، وهو ما فصله القرآن الكريم في سياقاتٍ كثيرٍ من سوره. فقال في سورة البقرة: { وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ }، وقال في سورة الأعراف 142: {وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً }.

وليس من الضروري أن تكون المواعدة بين طرفين، كما يفهم من ظاهر قوله تعالى: { وَاعَدْنَا }، إذ قد تكون من طرف واحد كما في هذه الآية، كقولك سافر، وعالج، وعافاك الله، وقاتله الله، وعاقبت المذنب، لأنها وعد لموسى وأمر له بأن ينقطع لمناجاة ربه صوما ونسكا وتحنثا وعبادة، تمهيدا لتلقي كلامه وشريعته، لذلك قرأها أهل البصرة: { وَعَدْنَا } من الوعد.

كان مقدرا لغياب موسى عن قومه ألا يتجاوز أربعين ليلة كما ورد في القرآن الكريم، ومع ذلك خشي الفتنة على قومه لِمَا يعلم من هشاشة إيمانهم ونَزَق تصرفاتهم، وعدم سلامة صفهم من المفسدين، فاستخلف عليهم نبيا آخر هو أخوه هارون { وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ } الأعراف142، ثم لما رجع إلى قومه بالتوراة وجدهم استضعفوا خليفته هارون وعبدوا العجل { وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ } الأعراف 151.

لم يخرج بنو إسرائيل عن طبعهم وما جبلوا عليه، فعلى خلاف النفوس الأبية الواثقة بربها، المستعلية بإيمانها ومبادئها وقيمها، والهمم العالية التي تأنف الضيم وتبغض الظالمين وما ينسب لهم وما يُذَكِّر بهم، أسرع إليهم الفساد فأضلهم

السامري وصنعوا بإشرافه وتوجيهه من حلي آل فرعون التي استعاروها واحتفظوا بها، عجلا ذهبيا عبدوه بُعَيْد غياب نبيهم، قال تعالى: { وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ } الأعراف148، وهو ما أوحى الله به إلى موسى في الميقات: { قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ } طه85.

وعلى خلاف بين المفسرين والمؤرخين حول حقيقة السامري، وهل هو من قوم موسى، أو من القبط الذين اتبعوهم، أو من الكنعانيين، مما لا تفيد معرفته ولا يضر الجهل به، فإن الراجح أنهم اتخذوا العجل تشبهاً بالكنعانيين سكانِ الشام وفلسطين، وقد كانوا يعبدون الأوثان، وكان العجل مقدساً عندهم يسمونه بَعْلا، ويمثل أعظم آلهتهم، يصنعونه على صورة إنسان من نحاس له رأس عجل، وقد مر بهم بنو إسرائيل عقِب تجاوزهم البحر فقالوا لموسى: { اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ } الأعراف 138، فوبخهم موسى وانتهرهم، ثم لما غاب لميقات ربه، وظنوا أنه قد هلك ولن يعود، استضعفوا هارون خليفته، وعبدوا العجل الذي اشتاقت نفوسهم لعبادته من قبل.

لا شك أن عبادة العجل شرك أكبر صريح واضح لا شبهة فيه، صادف هوى في أنفسهم فارتكسوا فيه عقب ذهاب نبيهم للقاء ربه مباشرة، وليس بعد الشرك معصية تضاهيه أو تتجاوزه { إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } لقمان13، لذلك وصمهم الله تعالى بالظلم في قوله: { ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ }، ومع ذلك بادرهم تعالى بالعفو استدراجا لهم إلى التوبة والشكر إذ علم من بعضهم ندما وشعورا بالإثم وتساؤلا عن طريق لتجاوز ما ارتكسوا فيه، فقال: { ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ }، إلا أن العفو غير المغفرة، لأن العفو رفع للعقوبة دون رفع ذكر الذنب والتذكير به، أما المغفرة فهي محو الذنب مطلقا ورفع عقوبته، ولأن من الذنوب المغتفرة أحيانا ما تبدل فيها السيئات حسنات، ولذلك كان التعبير بلفظ العفو ترقبا لتكرار المخالفة كما هي طبيعة بني إسرائيل.

ثم عاد القرآن للتذكير بنعمة أخرى عليهم بعد نعمة العفو عن أعظم الظلم الذي ارتكبوه وهو الشرك الصريح، فقال: { وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ }، والكتاب في هذه الآية الكريمة هو التوراة موصوفا بالفرقان، لكونه جامعا بين كونه كتاباً منزلاً، وكونه فرقاناً يفرق بين الحق والباطل، وليكون حالُ المخاطبين به حالَ مَنْ تُرْجَى هدايَتُهم { لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ }، فيغلب حلمُهم جهلَهم، وعقلُهم شهوتَهم، وشكرُهم جحودَهم، ونحوه قوله تعالى: { وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ } الأنبياء48، يعني التوراة الجامع بين كونه الفرقان والضياء والذكر. وهو ما أوحى به الله تعالى إلى موسى عندما ذهب لمناجاته في جبل الطور، كما ورد في القرآن الكريم { وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى

النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ } الأعراف143/145.

لقد تفرق بنو إسرائيل من بعد موسى في غيبته فريقين، فريق ثبت على دينه مع هارون في استضعاف، وفريق عبد العجل، وتساءل بعضهم عن التوبة بعد عودة نبيهم وقد عرفوا أنهم ضلوا، فقال لهم موسى وقد أُوحِيَ إليه شرطُ قبولِ توبتهم: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ }.

إنه شرط قاس، ولكنه في مستوى الشرك الأكبر الصريح الذي ارْتُكِب، فلا بد أن يتطهر الصف المسلم من المفسدين، وينتصر الصادقون فيه لربهم، ويرتدع من في قلبه مرض، إنه القتل، أن يقتل الصالحُ فيهم المفسدَ، وهو ما تم إذ نهض مؤمنو الصف المسلم للتخلص من المفسدين، وقد تهاونوا من قبل في أمر انحرافهم وسكتوا عنه، ولا ظلم يوازي الشرك إلا مهادنته والركون إليه، حينئذ تاب الله عليهم وغفر ذنب سكوتهم وركونهم إلى السلامة والاستضعاف في غيبة نبيهم.

ولئن ظن البعض أن هذا الشرط قاس ومؤلم، فإنما ذلك منهم عدم فهم لطبيعة الصراع بين الحق والباطل في الدين الذي نزل على أنبياء الله منذ عهد إبراهيم عليه السلام، إذ من تعاليم هذا الدين الأبدية أن لا تنبت فسيلة الخير بجانب الأعشاب الضارة إلا هزيلة هشة متهالكة، وعلاجها أن تُستأصَل طفلياتُ الأعشاب لِتنموَ بذور الخير والأمن والعدل والإيمان في القلوب والمجتمع رخية رطبة، وفي القرآن الكريم إشارات وتصريحات وتشريعات لهذا المبدأ لا تكاد تحصى، وفي الحديث النبوي مثل ذلك، قال صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح:(إن السيف محاء للخطايا).

ويستمر القرآن الكريم في التذكير بأنعم الله تعالى على بني إسرائيل، كلما تعثرت مسيرتهم الإيمانية فنجوا من ورطة جهل وغباء، ليرتكسوا في أخرى أكبر منها أو توازيها، نشأت بعد عقاب على سوء طبع وجفاء.

ذلك أن موسى اختار لميقات ربه سبعين رجلا، هم المعبر عنهم في التوراة بالكهنة وشيوخ بني إسرائيل، قال تعالى: { وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا }، فسأله بنو إسرائيل كلهم، أو السبعون من شيوخهم - على خلاف بين المفسرين- أن يروا الله تعالى جهرة كي يؤمنوا له ويصدقوه، سألوا ذلك وموسى كليم الله نفسه لم يستطيع رؤيته كما قرر القرآن ذلك في قوله تعالى: {وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ } الأعراف 143.

لقد أخذت الصاعقة بني إسرائيل لكفرهم وعجرفتهم وعدم اكتراثهم بما أوتوا من النعم، وما شاهدوه من المعجزات، حتى اشترطوا أن يروا الله جهرة كي يصدقوا موسى ويؤمنوا برسالته قال تعالى: { وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ

جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ }، وكانت هذه الصاعقة لهم عقوبة دنيوية ماتوا بها قليلا ثم أحياهم الله، أما محل النعمة فيما وقع لهم فقوله تعالى: { ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ }، عبر عنه بإيجازٍ بديع ووصفٍ دقيق لمعجزة إلهية خارقة، امتن الله بها على بني إسرائيل مرة أخرى، استدراجا لهم إلى الشكر وتثبيتا لهم على الإيمان.

لقد رأى بنو إسرائيل في هذه الحادثة الموتَ بأعينهم، وشاهدوا إحياءَ الله تعالى الأمواتَ في أنفسهم، كما رأوا ذلك مرات أخرى في مسيرتهم مع العقيدة التي أنزلت لهم، مما أوردت سورة البقرة أربعة نماذج منه شهدها بنو إسرائيل ولم تَطْهُرْ بها قلوبُهم ولم يَصْفُ بها إيمانُهم:

من ذلك الموتُ بالصاعقة في هذه الآية الكريمة.

ومن ذلك قتلُهم نفسا فأحياها الله في قوله تعالى: { وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } البقرة72/73.

ومن ذلك إماتةُ ألوفٍ منهم خافوا الموت شكّاً منهم في الآجال المقَدَّرة، قال تعالى: { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ } البقرة 243.

ومن ذلك إماتةُ رجلٍ منهم مائةَ عام ثم بعثه كما قال تعالى: { أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } البقرة259.

كل هذه الخوارق المعجزة الدالة على قدرة الله تعالى شاهدها بنو إسرائيل، فلم تَجْتَثَّ العجلَ من قلوبهم، ولا الشكَّ والريبَ والعصيانَ من نفوسهم، وواصلوا مسيرةَ الانحرافِ وكتمانِ الحق، وتحريفِ الشرائع، وقتلِ الأنبياء، والتقاعسِ عن الجهاد... على رغم ما مَنَّ الله به عليهم، إنقاذا من بطش فرعون وجبروته، ومشاهدةً لآلائه، خوارقَ طبيعة ومعجزات خلْقٍ، وقبولَ توبةٍ مرةً تلوَ أخرى.

ثم تُتَوِّجُ هذه الآياتُ الكريمة بذكر نعمة أخرى هي إنقاذهم في التيه من الهلاك، بتظليل الغمام لهم من حرارة الشمس، وإنقاذهم من الجوع بإنزال المن والسلوى عليهم، وإتاحة الطيبات من الرزق لهم مأكلا ومشربا فقال تعالى: {وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ }، وزاد التفصيل أكثر في سورة الأعراف162 فقال: { وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ }، ثم أضاف بالتفات بليغ موجز، وتلميح عقدي رصين، تعقيبا على كفرهم المتوالي وجحودهم المسترسل، وتقريعا شديدا واضحا لاستعصاء نفوسهم

عن الصلاح، وارتكاسها الدائم في الضلال بقوله: { وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ }، إشارة إلى حقيقة إيمانية راسخة هي أن الله عز وجل لا تنفعه طاعة ولا تضره معصية، وأنه غني عن العالمين، وأن أكبر ظلم للنفس وأخطره هو الشرك الأكبر خفيا وظاهرا، قال تعالى: { الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ } الأنعام82، والرسول صلى الله عليه وسلم عندما سأله الصحابة رضي الله عنهم عن هذه الآية فقالوا: وأينا يا رسول الله لم يلبس إيمانه بظلم؟، قال لهم: (ذلك الشرك، ألم تسمعوا قول العبد الصالح: { إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ }).

إن أخطر داء فتك بإيمان بني إسرائيل وأفرغ قلوبهم من الثقة بأنبياء الله وما نزل عليهم من الوحي، وبما أُخْبِروا به من أمر الآخرة والبعث والنشور، هو تعلُّقهم بالدنيا وحرصُهم على الحياة { وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ } البقرة96، ولا شيءَ يُركِس الإنسان في حضيض الكفر والشرك إلا الشك في الآخرة وحسابها تعذيبا أو تنعيما، ولا شيء يرفع المرء عن حضيض البهائمية إلا الإيمان الصادق بالله واليوم الآخر.

لذلك توالى في القرآن الكريم والسنة المطهرة تحذير المسلمين من الركونِ إلى الدنيا والحرصِ على ما زُيِّنَ فيها من ذهب وفضة وأموال ومتع، حمايةً لهم مما يستتبع ذلك من ضعف في الإيمان، وركون إلى ضَعَةِ الحرص وذلة عبودية الدرهم والدينار، قال تعالى: { اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآَخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ } الحديد20، وقال: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآَخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآَخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ } التوبة38، وقال صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخاري ومسلم: (وَاللَّهِ مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ وَلَكِنِّي أَخْشَى أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمْ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ)، وقال فيما أخبر به من الغيب ورواه مسلم والبخاري واللفظ لمسلم:(يُوشِكُ الْفُرَاتُ أَنْ يَحْسِرَ عَنْ جَبَلٍ مِنْ ذَهَبٍ فَإِذَا سَمِعَ بِهِ النَّاسُ سَارُوا إِلَيْهِ فَيَقُولُ مَنْ عِنْدَهُ لَئِنْ تَرَكْنَا النَّاسَ يَأْخُذُونَ مِنْهُ لَيُذْهَبَنَّ بِهِ كُلِّهِ، قَالَ: فَيَقْتَتِلُونَ عَلَيْهِ فَيُقْتَلُ مِنْ كُلِّ مِائَةٍ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ).

ولقد حسرت بلدان المسلمين في مشارقها ومغاربها عن أنهار من ذهب أسود هو النفط، ودفائن جبالِ ذَهَبٍ، ما استخرج منها وما لم يستخرج، وقديما أُشْرِبَ بنو إسرائيل في قلوبهم عجل الذهب فأضلهم، وقرائنُ أحوال المسلمين تنبئ أنهم كذلك أُشْرِبوا عجلَ النفط والذهب أو كادوا، فنسوا الآخرة وتعلقوا بالدنيا، وألغوا أخوةَ الإسلام وأحلُّوا محلَّها أخوةَ العِرْق والدم والثروة، وركنوا إلى الأقوياء من أعدائهم احتماءً بهم، واستعانةً بهم على تأمين ما لديهم من مال وجاه وسلطة، واستقواءً بهم على فقراء الأمة المسلمة، وحرصا على السلامة واستئثارا بالخيرات، مُقْسمين ألا يدخلَنَّ عليهم في حقول نفطهم مسكين من أبناء دينهم، أو مستضعف من بني ملتهم، إلا دخولَ العبد الذليل الفاقد لإنسانيته وكرامته

وحقوقه، وكأني بهم وقد سُلبوا النعمة، وسُلِّط عليهم العذاب والقهر والخزي من قبل أعدائهم، مجوسِ الهند، ويهودِ الشتات، ووثنيي الزنج، ونصارى الروم، مما بدأت نُذُره تتراءى في كثير من أقطارهم، وكأني بهم لم يتعظوا بأصحاب الجنة التي أصبحت كالصريم وقال عنهم تعالى: { إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ وَلَا يَسْتَثْنُونَ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ } القلم 25/17، وكأني بهم نائمون وطائف يطوف عليهم يحرق الأخضر واليابس، في العراق وأفغانستان والسودان وفلسطين... لتصبح أموالهم وأوطانهم وذرياتهم كالصريم.

وبعد، فهذا حال بني إسرائيل مع عجل الذهب، وحال مسلمي اليوم مع عجل النفط، فأي العجلين أشد فتنة وأكثر إضلالا، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول فيما رواه البخاري ومسلم: (لَتَتْبَعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ شِبْرًا شِبْرًا وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ تَبِعْتُمُوهُمْ، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى؟، قَالَ: فَمَنْ؟)، والقرآن الكريم يحذر: { وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ } الحشر 19.

وحدة المؤمنين عبر التاريخ
لا يفصمها كفر كافر أو انحراف منحرف

قال الله تعالى: { وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (58) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (59) وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (60) وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ

فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (61) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (62) } سورة البقرة

من حكمة الله تعالى أن جعل للحياة الدنيا سننا للتغيير والتغير، رقيا أو انحطاطا، سلبا أو إيجابا، ونصب في الطريق معالم قيم ومنارات مبادئ، يتبارى الخلق إليها ومنها، كل حسب ما جبل عليه وخلق له، وما هداه إليه عقله وحفزه إليه طموحه، قال تعالى: { إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ } الرعد11،وقال: { وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا } الشمس7/10، نفوس عالية وثابة لها الصدر والمقام الأعلى، تؤثر العلقم على أن ترتضع ثدي الضعة والذل والمهانة، وتتحمل أشد المشاق وأقسى المحن، في سبيل مراميها وأهدافها وعزتها. وأخرى هابطة مفككة لا تفكر في حال أو مآل، همها أن تَسلَم لحظتُها ولو في الحضيض، وتأمن معيشتُها ولو تبنا وحَشَفا، وتُعفَى في حياتها من تكاليف الكرامة وضريبة الحرية والمقام المحمود، ولئن قدم لنا القرآن نماذج من الصنف الأول وكانت مسيرة محمد صلى الله عليه وسلم زاخرة بهم فقال تعالى: {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا} الأحزاب23، وقال: { مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ } الفتح 29، فإنه يواصل في سورة البقرة تقديم نماذج من تصرفات الصنف الثاني، وقد حاز بنو إسرائيل عبر أجيالهم قصب السبق في مضماره، وباؤوا على تعاقب حقبهم بأوخم ضروب الهوان والخزي في مساره، فيقول: { وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ }.

إلا أن هذا الجيل الذي أشارت الآية الكريمة إليه، لم يكن جيل أصحاب موسى الذين تجاوزوا البحر إلى سيناء، وإنما هو من جاء بعدهم وخلفهم في السعي إلى الأرض المقدسة، وكان على رأسه نبي الله يوشع، في إشارة واضحة منه تعالى إلى أن طبيعة بني إسرائيل تفلتا وعصيانا وشقاوة راسخة، لا تتبدل أو تتغير، طبيعة غير قابلة للتطور والتحسن، في عهد موسى وما بعده، وفي عهد البعثة النبوية وما بعدها.

ذلك أن الأمر بدخول الأرض المقدسة وجه إلى بني إسرائيل مرتين، أولاهما في حياة نبيهم موسى عليه السلام، بعد نجاتهم من فرعون، إلى سيناء، كما قال تعالى: { يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ } المائدة،21، وهو أمر لهم بالجهاد مقرونا بوعد بالنصر في آن واحد، والأصل في الأوامر الإلهية الوجوب، إلا أنهم جبنوا ونكلوا عن القتال،: { قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ } المائدة22، ثم لما اشتد الإلحاح عليهم في أن يدخلوا الأرض المقدسة فاتحين واثقين بنصر الله متوكلين عليه، وخاطبهم رجلان منهم يخافان الله أمراهم بقتال الجبارين: { قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } المائدة23، ازداد بنو إسرائيل صلفا ووقاحة ومكابرة وعتوا وقالوا: { يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ } 24. فجمعوا بهذه التصرفات الرعناء بين عصيان أمر الجهاد، ورفض دخول الأرض المقدسة، وإساءة الأدب صفاقةَ وجهٍ ووقاحةَ خطاب وسخرية ردود على أوامر الله تعالى وتوجيهات نبيه الكريم، مما اقتضى معاقبتهم بالتيه أربعين سنة. توفي فيها موسى وهارون عليهما السلام، ولم يبق من بني إسرائيل إلا ذرية نشأت بعيدة عن حياة الذل والمسكنة التي عرفها الآباء في عهد فرعون.

أما الأمر الثاني الذي وجه إلى بني إسرائيل بدخول القرية، وهو أيضا للوجوب لأنه مقرون بعبادة هي السجودُ – أي الركوع والخشوع والتواضع – وطلبُ المغفرة وحطِّ الذنوب من الرب تعالى { وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ}، فقد كان على أرجح الأقوال بعد انقضاء أربعينية التيه، وفتح الأرض المقدسة لهم بقيادة النبي الذي استخلف عليهم عقب وفاة موسى وهارون عليهما السلام، وهو يوشع عليه السلام، إذ خاطبهم بقول الله لهم: { وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ }.

ولئن كانت الأوامر الإلهية في العهد الموسوي ثلاثة، أمرا بالجهاد وأمرا بالدخول وأمرا بالثبات وعدم الارتداد أو التولي عن الزحف، وكانت عاقبة النكول والعصيان تيها وشتات أمر في الصحراء، فإن الله تعالى في المرة الثانية وقد فتح لهم، علق دخولهم بشرطين يسيرين لا تعب فيهما ولا مشقة، أن يدخلوا متواضعين خاشعين { سُجَّدًا } شكرًا لله تعالى على ما أنعم به عليهم من الفتح والنصر والإنقاذ من التيه والضلال، وإنجاز الوعد الذي أعطاه لآبائهم بدخول الأرض المقدسة، وأن يستغفروا لذنوبهم حطا لها وتطهرا منها، فيفوزوا بالمغفرة ويفوز محسنوهم بأكثر منها.

إلا أن همم بني إسرائيل قَصُرَت حتى عن الوفاء بهذين الشرطين، ودعتهم طبيعتهم الهازلة الهابطة إلى أن يبدل سفهاؤهم قولا غير الذي أمروا به وهو الاستغفار، وعملا غير الذي طلب منهم وهو دخول التواضع والخشوع والتذلل والخضوع، فأنزل الله تعالى على المستهزئين منهم والظالمين بما فسقوا عن الطاعة، واستكبروا عن السجود والاستغفار، رجزا من السماء، والرجز غضب الله وعذابه، قال ابن عباس: (كل شيء في كتاب الله من الرجز يعني به العذاب)، وروى مالك

في الموطأ أن أسامة بن زيد رضي الله عنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:(الطَّاعُونُ رِجْزٌ أُرْسِلَ عَلَى طَائِفَةٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَوْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَإِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِ وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ)، قال تعالى: { فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ }. وقال أيضا: {وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ} الأعراف161/162.

ولئن اختلف المؤرخون والمفسرون في تحديد الأرض التي أمروا بدخولها مجاهدين، والقرية التي فتحت لهم وجعلت تحت تصرفهم وأبيحت لهم سكنا وخيرات، فقيل هي بيت المقدس، وقيل هي الشام وفلسطين، وقيل أريحا، واشتط بعضهم فقال هي مصر، فإن التحديد في هذا الأمر بالقول إنها أرض دون أرض وقرية دون قرية، لا يدرك إلا بالخبر الصحيح، ولا خبر لدينا بذلك، إنما هو حدس المفسرين وتخمينهم وما ورد ضعيفا أو من الإسرائيليات، غير أن المجمع عليه أن الأرض المقدسة التي وعدها الله بني إسرائيل داخل أرض كنعان ومركزها بيت المقدس، وما الأمر بدخول "القرية" إلا أمرا بدخول ما حولها أيضا، من قبيل ذكر البعض وإرادة الكل. فيكون المراد واحدا بالقرية في قوله تعالى في سورة البقرة { ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ } بعد وفاة موسى وهارون وفتح بيت المقدس، وبالأرض المقدسة في قوله في سورة المائدة { ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ } في حياة موسى وهارون قبيل التيه.

وإذ يُذَكِّر الله تعالى بهذه الآيات الكريمة بني إسرائيل المعاصرين للبعثة النبوية ومعهم كافة المسلمين في كل عصر بانحرافات جيلين إسرائيليين، من كان مع موسى ومن كان مع يوشع، فإنما ذلك تحذير من عاقبة كفران النعمة الإلهية وجحود الإحسان الرباني، وعدم التأدب مع الأنبياء والرسل، والجراءة والوقاحة في مخاطبة رب العزة تعالى.

ولئن أُمِر بنو إسرائيل بالخضوع فتمردوا، وبالاستغفار فأصروا، وبالشكر فجحدوا، وبالخشوع والإخبات فوَقُحُوا وسخروا واستهزؤوا وتجرؤوا على القبائح فلم يبالوا بها، فإن محمدا صلى الله عليه وأصحابه، قد استوعبوا تجربة بني إسرائيل، وسلكوا غير نهجهم وتخلقوا بغير أخلاقهم فاستحقوا الخلافة في الأرض إلى أن يرثها الله ومن عليها. وقد كان صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة داخلا إليها من الثنية العليا، وإنَّه لخاضع لربه حتى إن عُثْنونه ليمس مَوْرِك رحله، يشكر الله على ذلك. فلما دخل البلد ضُحىً اغتسل وصلى ثماني ركعات كما روى البخاري ومسلم ومالك وأصحاب السنن، فقال بعضهم: هذه صلاة الضحى، وقال آخرون: بل هي صلاة الفتح، وقد ورد في القصة ما يدل على أنها بسبب الفتح شكرا لله عليه، لأن أم هانئ قالت: "ما رأيته صلاها قبلها ولا بعدها"، فاستحبوا للإمام ولأمير الجيش إذا فتح بلدًا أن يصلي فيه ثماني ركعات عند أول دخوله، كما فعل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه لما دخل إيوان كسرى وصلى فيه ثماني ركعات.

ولئن اتسم سلوك بني إسرائيل على مر التاريخ بعصيان أنبيائهم وخذلانهم والتخلي عنهم في ساعات العسرة حتى قالوا لنبيهم: { فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ } المائدة24، فإن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كانوا أشد وفاء لنبيهم وأعز نصرة وفداء، فعن أبي سعيد الخدري، قال: سرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا كان من آخر الليل، أجَزْنا في ثنية يقال لها "ذات الحنظل"، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما مثل هذه الثنية الليلة إلا كمثل الباب الذي قال الله لبني إسرائيل: { ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ })، فلما نزل "الغميم" خطب الناس فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: (أما بعد فإن قريشا قد جمعت لكم أحابيشها تطعمها الخزير، يريدون أن يصدونا عن البيت، فأشيروا علي بما ترون؟ أن تعمدوا إلى الرأس – يعني أهل مكة -، أم ترون أن تعمدوا إلى الذين أعانوهم فتخالفوهم إلى نسائهم وصبيانهم، فإن جلسوا جلسوا موتورين مهزومين، وإن طلبونا طلبونا طلبا متداريا ضعيفا، فأخزاهم الله)، فقال أبو بكر: يا رسول الله! أن تعمد إلى الرأس فإن الله معينك وإن الله ناصرك وإن الله مظهرك، وقال المقداد بن الأسود وهو في رحله: إنا والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لنبيها: { فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ } المائدة24، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون.

وبعد أن عرَّج القرآن الكريم على نموذج من تصرفات الجيل الثاني بعد موسى، ليوضح أن الكفر والعصيان راسخ في الطبيعة اليهودية جيلا بعد جيل، رجع بنا إلى الجيل المؤسس لمثل هذا السلوك، جيل التيه الذي كان مع موسى عليه السلام، ليُذَكِّر معاصري البعثة النبوية ومن بعدهم، بما أنعم الله به على الأسلاف، وما قابل به الأسلاف نعم الله عليهم من ظلم وجحود, فقال: { وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ } وهو نظير قوله تعالى في المرحلة المكية من الدعوة في الآية 160 من سورة الأعراف: { وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ }.

أي أن الحق عز وجل يقول: اذكروا إذ اشتد العطش بآبائكم في التيه، فسألوا موسى أن يستقي لهم فقال له الله عزوجل: { اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ } فانفجر الحجر عن اثني عشر منبعا للماء (عينا) بعدد أسباط بني إسرائيل، لكل سبط منهم مشرب معلوم { قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ }، وهذا منه تعالى تذكير بأربع نعم في أمر واحد، الإنقاذ بالري من الهلاك عطشا، وكون السقي وقع في مظنة عدم وجود الماء كرامة لنبيهم وإظهارا لقدرة ربهم، وكون العيون ثنتي عشرة ليستقل كل سبط بمشربه فيرتفع التنازع والتدافع من بينهم. وكون الماء سيق لهم من غير سعي منهم ولا كد ولا تعب.

ثم عقب عز وجل على هذه النعم المتاحة لبني إسرائيل بقوله: { كُلُوا } من طيبات المن والسلوى، { وَاشْرَبُوا } من الماء الذي أخرج لكم من الحجر، {وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ }، والعُثُوّ لغةً أشدُّ الفساد، من فِعْل" عَثَا يعثو، وعَثِيَ يعثَى، وعَثَى يعثِي "، كل ذلك معناه أفسد أشد الإفساد، أي لا تطغوا بهذه النعم فتفتنكم عن دينكم وتستدرجكم إلى

البطر والظلم والمعاصي والآثام، قال تعالى: {وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا} القصص 58، وقال: { كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى } العلق7/6. وَوَجْهُ المنِّ عليهم في هذه النصيحة تذكيرُهم رحمة منه تعالى ولطفا، بأن النعمة قد تنسي المرء حاجته إلى ربه فيخلع ربقة الشرائع في سياسته أمْرَ نفسه وأمْرَ علاقاته فيكون الفساد والإفساد.

لقد استسقى لهم نبيهم وقد أشرفوا على الهلاك عطشا، فدعا ربه متوسلا خاشعا متضرعا، واستجاب تعالى الدعاء فأمدهم بحاجتهم إلى الماء، وهذه نعمة كفيلة بتثبيت قلوبهم على الإيمان، وتقوية معرفتهم بقدرته تعالى ورعايته للخلق، ولئن كانت النفوس السوية أسرع إلى المبادرة بالحمد والشكر والاعتراف بالإحسان والفضل، والنعم لا تدوم إلا بالشكر، فإن بني إسرائيل كانوا على عكس قاعدة السواء وأصل الفطرة، أسرع إلى استصغار نعمة الله واحتقارها والتضجر منها، إذ بمجرد زوال عطشهم وجوعهم عادوا إلى ما نهوا عنه كفرا وجحودا وسوء أدب مع نبيهم وربهم، قال تعالى: { وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا } .

لقد كانوا بموقفهم هذا في منتهى الصفاقة والوقاحة وسوء الأدب، فهم لم يكتفوا باستصغار نعمة الله واحتقارها وقد جاءتهم طيبة بدون تعب أو مشقة، أو باعتبارها طعاما واحدا وهي ثلاثة قابلة للتعدد والتنوع إن تدخلت يد الإنسان بضروب الطهي والإعداد، المنّ والسلوى والماء النمير، بل أضافوا إلى ذلك التهديدَ بأنهم لن يصبروا على هذا الطعام مستقبلا، مفضلين عليه البقل والثوم والقثاء والعدس والبصل، مَنّاً ودلالاً على موسى بالإيمان والاتباع والتصديق، في تعريض واضح باحتمال ارتدادهم عنه ومفارقتهم إياه إن لم يحقق رغبتهم ويُلَبِّ طلبهم. وبلغوا أقصى درجات سوء الأدب والجراءة عندما خاطبوا نبي الله بقولهم { فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ }، كأنما موسى مجرد مولى من مواليهم، وكأن الله تعالى رب له وحده وليس ربا لهم وللعالمين. مما يكشف بوضوح طوية أنفسهم ومكنون قلوبهم ومدى هشاشة إيمانهم.

لقد بلغوا في الجحود أبعد المدى، إذ بدلوا نعمة الله كفرا، وأحلوا أنفسهم دار البوار، وباؤوا بغضب الله، واستووا مع البهائم إذ استبدلوا ما تنبت الأرض من بقول وقثاء وفول وعدس وثوم وبصل بالخير الدائم الذي لا يزول، تمكينا وعزا ورفعة في الدنيا، ونعيما دائما في الآخرة، لذلك كان جواب موسى لهم بما أوحى إليه ربه عز وجل: { قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى } أخس وأردأ { بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ } أشرف وأفضل وأدوم، { اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ}، وقد ورد لفظ "مصراً " منونا ومصروفا، وهو قراءة الجمهور، للدلالة على أنه لا يعني القطر المصري، وإنما كل بلدة ذات خيرات، والمعنى أن موسى قال لهم: إن ما سألتموه موجود في أي مصرٍ من الأمصار، ليس عزيزا أو نادرا، ولا يساوي في دناءته أن أسأل الله تعالى فيه، ومن الغباء والجهل والشقاوة أن تستبدلوه بخيري الدنيا والآخرة.

لا جرم إذ لم يشكر بنو إسرائيل النعمة ولم يقدروها حق قدرها أن تُنْتزَع منهم ويُسْلَبوها، ويُعَوَّضوا عنها بضد ما وُعِدوا به، وهو الذلة مقابل العز، والمسكنة مقابل النصر والتمكين، وسخطُ الله وبغضُه بدل الرضى والمحبة والولاء، إذ كل من لم

يشكر نعمة الله جدير بأن يُسلبها، قال تعالى: { فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ } سبأ17/16، ولذلك أنزل بهم الله تعالى جزاء كفرانهم وجحودهم نقمته وغضبه فقال: { وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ }. أي فرض عليهم الذل والصغار، ثم عقب على ذلك بذكر الأسباب موجزة ومختصرة بأبلغ عبارة وأوضح بيان فقال: { ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ }.

ولئن كان جحود آيات الله كفر صريح بالله ورسله واليوم الآخر، فإن قتلهم الأنبياء وهم أصفياء الله ورسله إلى الخلق ومبلغو رسالاته (زكرياء وأشعياء ويحي وغيرهم)، إعلان له بالمحاربة وتجاوز لكل الحدود، قال تعالى: { إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ } المائدة33، وقال: { إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ } المجادلة5.

وكعادة القرآن الكريم إذا ذكر وعداً أو وعيداً أردفه بما يضاده ليكون الكلام تاماً والمعنى شاملا، فإنه إذ بين ما أنزله على بني إسرائيل من عقوبة الغضب وضرب الذلة والمسكنة، أخبر بما للمؤمنين في كل الأديان التي أنزلها الله إلى عباده من الأجر العظيم والثواب الكريم إن هم جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، بأسلوب في غاية الروعة واللطف، دفع به توهم هلاك ما سوى مسلمي البعثة النبوية ومن اتبعهم، وكرس به أخوة ركب أولياء الله على مدار التاريخ البشري من آدم عليه السلام إلى قيام الساعة فقال: { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ }، فشملت رحمة الله تعالى وأخوة الإيمان والمصير المشترك السعيد في الآخرة، أربعَ طوائف اتبعت أنبياء الله الذين أرسلوا إليها، آمنت بهم وسارت على نهجهم في العمل الصالح، وهي:

الطائفة الأولى تشمل أتباع محمد صلى الله عليه وسلم ممن جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح وفارقوا ما كانوا عليه من أديان آبائهم مشركين وأهل كتاب.

والطائفة الثانية هم اليهود الذين اتبعوا موسى عليه السلام بصدق وإخلاص نية، وجمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، قبل أن تنسخ ديانتهم ببعثة عيسى عليه السلام.

والطائفة الثالثة هم النصارى الذين اتبعوا عيسى عليه السلام وجمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، قبل نسخ ديانته ببعثة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم،.

والطائفة الرابعة هم الصابئون، ولئن اختلف المفسرون في تحديد دينهم ونبيهم، فقيل هم من أتباع نوح عليه السلام، وقيل من بقايا الحنيفية أتباع إبراهيم عليه السلام، وقيل هم فرقة من أهل الكتاب يقرؤون الزبور، فإن الراجح أنهم في الأصل

كانوا من أتباع ديانة سماوية صحيحة ونبي مرسل قبل أن يضلوا وتضيع معالم هذه الديانة وتنسخ، فالذين كانوا منهم على الإسلام الذي بُلِّغوه صحيحا قبل نسخه وجمعوا بين الإيمان والعمل الصالح هم المعنيون في هذه الآية.

قال السدي: نزلت هذه الآية في أصحاب سلمان الفارسي، بينا هو يحدث النبي صلى الله عليه وسلم إذْ ذكر أصحابه، فأخبره خبرهم، فقال: كانوا يصومون ويصلون ويؤمنون بك، ويشهدون أنك ستبعث نبيًا، فلما فرغ سلمان من ثنائه عليهم، قال له نبي الله صلى الله عليه وسلم: (يا سلمان، هم من أهل النار). فاشتد ذلك على سلمان، فأنزل الله هذه الآية، فكان إيمان اليهود أنه من تمسك بالتوراة وسنة موسى عليه السلام؛ حتى جاء عيسى. فلما جاء عيسى كان هالكا من تمسك بالتوراة وأخذ بسنة موسى فلم يدعها ولم يتبع عيسى. وإيمان النصارى أن من تمسك بالإنجيل منهم وشرائع عيسى كان مؤمنًا مقبولا منه حتى جاء محمد صلى الله عليه وسلم، فمن لم يتبعْ محمدًا صلى الله عليه وسلم منهم ويَدَعْ ما كان عليه من سنة عيسى والإنجيل كان هالكا.

وقوام الأمر أن البعثة النبوية المحمدية قد نسخت الأديان قبلها، وأن الشرائع السماوية السابقة كلها ردت إلى شريعة الإسلام المهيمنة عليها والناسخة لها، قال تعالى: { وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآَخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ } آل عمران85، وأن كُلّ الذين اتبعوا الرسول النبي الأمي صلى الله عليه وسلم وجمعوا بين الإيمان والعمل الصالح فلهم السعادة الأبدية، ولا خوف عليهم يوم القيامة، ولا هُمْ يحزنون، قال تعالى: { أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } يونس62، وقال: { إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآَخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ } 32/30.

بذلك انتظمت مسيرة الإيمان والإحسان من عهد آدم عليه السلام في موكب النور، أخوة صادقة، وتعاونا على البر والتقوى، وجسدا واحدا، وجنسية واحدة، هي جنسية العقيدة، لا فرق بين عربي أو أعجمي، أسود أو أبيض إلا بالتقوى، جيلا بعد جيل يستغفر اللاحق منهم للسابق. لقد ربى الله تعالى المؤمنين بجيل هو خير الأجيال، جيل المهاجرين والأنصار والذين جاؤوا من بعدهم {يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آَمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ } الحشر10.

عوائق قيام الأمة الشاهدة

قال الله تعالى: { وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (63) ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (64) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (65) فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (66) وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (67) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ (68) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (69) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (70) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ (71) وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (72) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (73) ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (74) }

ليس كتحليل القرآن الكريم لنفسية بني إسرائيل الموتورة وضوحا، وليس كتشخيصه لأدوائها ودوائها وخلفيات تصرفاتها ومراميها دقة، بما فيه من موضوعية تُشْرَح فيها الآيةُ بأختها، ويُبَيَّن فيها المجملُ بالمفصل، ويَتَّضح فيها العامُ بالخاص، ويُمَيَّز فيها الطيبُ بذكر الخبيث، ويَتَّعظ فيها الحاضر والآتي بأخبار الغائب والذاهب، ويَعْتبر فيها المقبلُ بالمعْرِض، والتقيُّ بالفاجر، والبصيرُ بالأعمى، والمشْفِقُ بالمصِرِّ، والسعيد بالشقيّ.

ولئن اتخذ القرآن من بني إسرائيل مجالا واسعا مستفيضا في حملته على تهافت تصرفاتهم، وغباء تفكيرهم، وتوالي خياناتهم ومكايدهم ودسهم لأنبيائهم ولبعضهم، في سورة البقرة وفي كثير من السور الأخرى، فإنما ذلك منه تربيةٌ للصف المسلم ومن التحق به من أهل الكتاب والمشركين، وتحذيرٌ للمسلمين من مكامن الفساد الذى أطاح بمن سبقهم وسلبهم كرامة الاستخلاف، وشرف حمل الأمانة، وعز قيادة الإنسانية إلى سعادة الدنيا وحسن ثواب الآخرة. ذلك أن الأمر جد لا

هزل فيه، والتكليف الذي طُوِّقُوه مسؤوليةٌ ثقيلة، ووثاقٌ لا فِكاكَ له، وليس لهم إلا أن يوفوا فيفوزوا، أو يُوَلُّوا وينْكُلوا فيكونوا من الخاسرين في الدنيا والآخرة، وما يوم رفع الطور فوق رؤوس ناكثي العهد ببعيد.

إن الله تعالى إذ يرسل رسله إلى عباده، لا يريد منهم إيمانا ميتا رخوا هزيلا ذليلا، أو تكوين أمة عجفاء مستكينة، فالأرض له تعالى، والاستخلاف منه عز وجل، والعزة له ولرسله وللمؤمنين، والولاية في الدنيا على العباد لأوليائه، منه يستمدون القوة، وبنوره يستهدون إلى الحق، لذلك لا يرضى أن تؤخذ تعاليمه بغير الحزم والعزم والجدية واستشعار المسؤولية، وقد استنهض في مستهل البعثة همة محمد صلى الله عليه وسلم لذلك، فقال له: { يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ } المدثر7/1، وقال: { يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا } 5/1 فكان نصيب امتثاله وما أخذ به الكتابَ أن مدحه ومدح أصحابه بقوله عز وجل: { مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ..} الفتح 29، وخاطب من قبل نبيَّه يحي عليه السلام فقال له: { يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ } مريم12.

وكذلك كان موسى عليه السلام مضاءَ عزيمةٍ وجديةَ التزام وقوةَ حزمٍ وامتثالا لأوامر الله تعالى، إلا أنه ابْتُلِيَ بشعب خائر هابط نفسا وسلوكا، لا يكاد يخرج من ذنب أُخِذَ به أو عُفِيَ عنه إلا انزلق لأخطر منه، ولا يُسْتَنْقَذ من إساءة أدب أو تصرف إلا تورط في أشد منها أو مثلها.

إن المعالي لا يرتفع لآفاقها إلا أحرار الرجال من ذوي القوة والعزم، ولا معالي في الحياة إلا حمل رسالة التوحيد ونيل حرث الآخرة بالعمل لها، لذلك واصل تعالى في هذه الآيات الكريمة تذكيرنا بأخطر مفاصل الانحراف العقدي لدى كل من آمن أو ادعى الإيمان، وهي الضعف النفسي والرخاوة في أخذ المسؤولية وتحمل الأمانة، ذلك أن تكاليف العقيدة ثقيلة { إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا }، والنُّكول عن أدائها بعد حملها أو ادعاء حملها منذر بالعواقب الوخيمة، وما وقع لبني إسرائيل خير مثال لذلك. إذ رفع الجبل فوق رؤوسهم غضبا من الله تعالى، لتقاعسهم عن حمل الأمانة وتخاذلهم عن أداء تكاليفها، قال تعالى: { وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ }.

فما المخالفة الجديدة التي تحرك لها الجبل وارتفع؟!

أما انتسابهم إلى نبي الله يعقوب (إسرائيل) فمما يعرفونه ويفخرون به.

وأما الديانة اليهودية فمما ينتحلونه.

وأما اتباعهم موسى والتصديق به وبتعاليمه فمما يدعونه..

فما المخالفة التي أخذوا بها هذه المرة؟

لقد سألوا نبيهم أن يكون لهم مرجع عقدي في حياتهم يتحاكمون إليه، ولبى الله تعالى طلبهم فأرسل إليهم التوراة عند مناجاته موسى في الميقات، ولما رجع إليهم بألواح الكتاب وجدهم عبدوا العجل، ثم بعد أن تابوا وطهروا صفهم من

المفسدين طلبوا أن يروا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة فماتوا بها، ثم بعثوا بعد موتهم لعلهم يشكرون. فما جريرتهم هذه المرة حتى رفع الجبل فوق رؤوسهم؟

لقد كان الخلل في كثير من مخالفاتهم راجعا إلى غبش في تصورهم الإيماني، تصوروا لله على غير حقيقته، أو للنبوة على غير طبيعتها، أما في هذه الحالةالجديدة، فالأمر مختلف، إنه نقض صارخ لميثاقهم مع ربهم إذ واثقهم، وخيانة بينة للعهد الذي عاهدوه، وما التثاقل الذي أخذوا به أمرهم والتقاعس الذي بدا في تصرفاتهم وأقوالهم إلا عرض من أعراض الداء الذي استقر في نفوسهم.

والميثاق لغة من فعل "وَثِقَ به يثِق" كورِث يرِث أي ائتمنه وسكن إليه، والوثيق الشيء المحكم، جمع وثاق، والميثاق عقد مؤكد بيمين وعهد، قال الله عز وجل: { وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ } آل عمران81، وقال: { وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا } الأحزاب7.

ولئن كان الميثاق الرباني المأخوذ على بني آدم وهم في ظهور آبائهم عاما مطلقا على توحيد الألوهية والربوبية، والعبادة والطاعة كما قال تعالى: { وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آَدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آَبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ } الأعراف173/172، فإن ميثاقه عز وجل لبني إسرائيل كان أكثر خصوصية وتفصيلا، إذ شمل جوهر العقيدة إيمانا وتصورا في القلب، وتفعيلا للطاعة تحملا للتكاليف، وقوةً في القيام بها وأدائها وتبليغها، فلما بلغهم التوراة وفيه تفصيل شروط الميثاق بآصاره وأثقاله، وتبيان واجباته ومحرماته وأوامره ونواهيه، استثقلوا الأمانة وكبُرَ عليهم حملها وأبَوْا أن يقبلوا بأحكامها، وتقاعسوا عن الامتثال لأوامرها وتعليماتها والعمل بها، فرفع الجبل على رؤوسهم ليُقِرُّوا بما عاهدوا الله عليه، ويأخذوه بقوة وحزم وهمة عالية، وهو ما ورد أيضا في الآية 171من سورة الأعراف بقوله تعالى: { وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ }

والجبل الذي رفع فوقهم تخويفا من غضب الله هو الطور كما ذهب إليه أغلب المفسرين وكما يشير إليه قوله تعالى: { ونَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا } مريم52، وقوله: { ويَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ } طه 80. إلا أن هذا التخويف منه تعالى لهم أربَك بعض المذاهب في تفسير الآية، فأثيرت قضية عقدية متعلقة بالإكراه على الإيمان ومدى صحة التكليف بالقَسْرِ والإلْجاءِ، لاسيما والله تعالى يقول: { لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ } البقرة 256، ويقول: { وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ } الكهف 28. إلا أن رفع الجبل فوق رؤوس بني إسرائيل لم يكن لحملهم على الإيمان، لأنهم منتسبون لفئة المؤمنين منذ تركهم جدهم يعقوب عليه السلام (إسرائيل) على ملة إبراهيم عليه السلام، قال تعالى: {أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا

وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ } البقرة133، وإنما كان التخويف من أجل أن يستشعروا مسؤولية اختيارهم فيعملوا بمقتضاه، وما داموا يعلنون الإيمان حقا أو زعما، فعليهم أن يقبلوا بنتائج ما يعلنون، إذ الرضا بالشيء رضا بنتائجه، وإلا فالأمر لهو واستهزاء وتعابث .

هذا هو المفصل العقدي الذي رُفِع بسببه الجبل، فلا إكراه في الدين حقا، وعلى المرء أن يختار بكل حرية، وأن يتحمل نتائج اختياره الحر، وما سوى ذلك لعب وسخرية بالأمر والآمر. وما الأمر الذي تثاقل له بنو إسرائيل إلا أن يأخذوا التوراة بقوة إرادة في التطبيق، ومضاء عزيمة في التنفيذ، فيواظبوا على تلاوتها ودراستها وتدبر توجيهاتها والعمل بأحكامها وعدم نسيانها، ليكون لهم ذلك وقاية ونجاة بين يدي الله تعالى: { خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ }. وهي إشارة واضحة إلى أن الإيمان المجْمَل المشُوب بغَبَش الرؤية وغموض الهدف وشَغَب الهوى ليس بمنج يوم القيامة، وإنما المنجي هو التصور الإيماني الواضح والعمل بتفاصيل ما ورد به الميثاق في الكتاب.

ولئن عاد لبني إسرائيل رشدُهم بفعل الرَّجَّة النفسية التي أحدثها رفع الجبل واطلعوا بها على مدى غضب الله عليهم، مع عظيم قدرته وشديد سطوته، فقبلوا أخذ التوراة بشرطها، فإنهم لم يمتثلوا أوامرها ونواهيها إلا فترة قصيرة كما يبدو من سياق قوله تعالى: { ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ }، والتولي لغة هو الإدبار والإعراض عن الشيء بالجسم، ثم استعمل مجازا في الإعراض عن الآراء والأفكار والمعتقدات والعهود والمواثيق، وفي العصيان وترك الطاعة، فيقال:" تولى فلان عن طاعة فلان أو عن موالاته"، ومنه قوله تعالى { فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ } التوبة76. وقد علم من سياق الآية أن بني إسرائيل بعد قبولهم التوراة عقب رفع الطور على رؤوسهم، امتثلوا الأمر مدة وجيزة ثم تركوه، كما علم من أخبارهم في سور من القرآن أخرى أنهم حرفوا التوراة وقتلوا الأنبياء وكفروا بهم وعصوا أمرهم، من ذلك ما فعله أوائلهم وما ارتكبه متأخروهم، وكانت رحمة الله تتداركهم بالتوبة عقب ما يرتكبون، لذلك عقب تعالى بقوله: { فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ}، أي لولا حلم الله وإمهاله لكم ترغيبا لكم في التوبة وتذليلا لطريقكم إليها لعاجلكم بعقابه فخسرتم الدنيا والآخرة.

ثم لما ذكرهم بنعمة هذا العفو المتوالي الذي نجاهم به من الخسران، قَرَعَهم عز وجل بقصة المعتدين في السبت إذ خالفوا أمرا واحدا من أوامر الله استخفوها وتحايلوا عليها، فأنزل بهم عقوبة لم يسبق أن عوقب بها أحد من الناس، فقال عاطفاً على ما تقديره: لقد علمتم ما سبق من مخالفاتكم وما عوقبتم به لأجلها، وما أسبغ عليكم من نعمة الرحمة واللطف والتوبة والمغفرة والعفو، فتذكروا ما تعلمون أيضا من أمر قوم كانت عقوبتهم أشد وأنكى لمخالفتهم أمرا واحدا من أوامر الله تعالى: { وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ }. وقد شرحت تفاصيل ما حدث لهؤلاء القوم من بني إسرائيل، في سورة الأعراف بقوله تعالى: { وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ

لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ} الأعراف163/166 .

يخاطب الله اليهود المعاصرين للبعثة النبوية بقوله: { وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ } إحالة لهم إلى ما يعلمونه عن طريق أحبارهم وعلمائهم بالتواتر من أمر هؤلاء المعتدين في السبت، وقد كانوا في " أيلة " زمن النبي داود على أرجح الأقوال، ولذلك لم تذكر قصتهم في أسفارهم القديمة، فأطلع الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم عليها في معجزة غيبية أخرى من معجزاته عليه الصلاة والسلام، وأمره أن يذكرهم بسؤالهم عنها مسندا الأمر لعلمهم، تأكيدا لوقوعها حقيقة، فقال في سورة البقرة { وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ...} وفي سورة الأعراف { وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ...}، وتَتَامَّتْ قصتهم في السورتين لتكون عبرةً وعِظَةً للمسلمين ومعاصري البعثة النبوية من بني إسرائيل .

لقد كان هؤلاء القوم يحتالون على انتهاك محارم الله، بما يتعاطوا من الأسباب المباحة في الظاهر، المؤدية في الباطن إلى تعاطي الحرام، تحايلا على الشريعة، ففاجأتهم نقمته عز وجل على صنيعهم واعتدائهم باتخاذهم المباحَ ذريعةً إلى الحرام، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم في ما رواه ابن بطة عن أحمد بن محمد بن مسلم عن أبي هريرة بإسناد جيد، وثّق فيه الخطيب في تاريخه ابنَ مسلم وباقي رجاله مشهورون ثقات: (لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود، فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل).

والقصة وردت مفصلة في سورة الأعراف، وأشير إليها في الآية 124 من سورة النحل بقوله تعالى: { إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ }، والآية 154 من سورة النساء بقوله: { وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا }، وفصل أحداثها المفسرون بما ذكروه من أن أهل قرية من بني إسرائيل وقد حرم عليهم الاكتساب يوم السبت ليتفرغوا فيه للعبادة، وأراد الله أن يختبر استعدادهم للوفاء بعهودهم، فابتلاهم بتكاثر الحيتان يوم السبت دون غيره، فكانت تتراءى لهم على الساحل في ذلك اليوم – وقد خلا من الصيادين – قريبة المأخذ سهلة الاصطياد، فقال بعضهم: لو حفرنا لها حياضاً وشرعنا إليها جداول يوم الجمعة فتمسك الحياض الحوت إلى يوم الأحد فنصطادها، وفعلوا ذلك فغضب الله تعالى عليهم لتحايلهم على الأمر الإلهي بتعظيم يوم السبت والتفرغ فيه للعبادة. وكانت منهم طائفة أخرى استنكرت المخالفة ونصحتهم بالكف عنها، وطائفة اعتزلت وسكتت فلم تفعل وقالت للمنكرة: { لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا }؟، أي لم تنهون هؤلاء، وقد علمتم أنهم هلكوا واستحقوا العقوبة من الله؟ فلا فائدة في نهيكم إياهم. فقالت لهم المنكرة: { مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ } أي: لقد كان إنكارنا اعتذارا إلى الله مما يفعل سفهاؤنا، وأملا في أن يتقي المخالفون غضب الله وعاقبة أمرهم فتكون منهم توبة ورجوع عما يفعلون.

فلما أصر الفاعلون على فعلهم ونسوا ما ذكروا به من تحريم، أنجى الله الطائفة المنكرة بلسانها والطائفة المنكرة بقلبها، وأهلك الطائفة الثالثة التي وقعت في الحرام، قال تعالى: { فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ } الأعراف 165.

لقد كان هذا العذاب الذي حاق بهم نوعا لم تعرفه البشرية من قبل، لشدته ونُدْرَتِه، إذ صدر عن الله تعالى في حقهم أمر تحويل وتكوين، قال تعالى: { فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ }، مسخوا قردة مبعدين مطرودين من الرحمة، من الخسأ وهو الطرد والإبعاد، يقال:" خسأته فخسأ وانخسأ "، أي طردته فانطرد ذليلا صاغرا. وكان هذا العقاب القاسي منه تعالى نكالا، أي قيداً مانعا، وعقوبةً زاجرة، وتحذيرا لمن عاصروا الحادثة { فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا }، وعبرة لمن يأتي بعدهم من الشعوب والأقوام { وَمَا خَلْفَهَا }، وَعِظَةً للذين يخافون الله ويتقون غضبه وعذابه { وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ }.

ولئن أثار بعض المفسرين تساؤلات لا فائدة فيها ولا عبرة، عن كيفية مسخ هذه الطائفة قردةً، وهل مسخت نفوسهم وبقيت أجسادهم على ما خلقت عليه، أم مسخت الأجساد نفسها، وهل كانوا بعد مسخهم يأكلون ويشربون ويتناسلون أم لا، وهل طالت أعمارهم أم عاشوا بعد المسخ زمنا قصيرا، واعتمدوا فيما ذهبوا إليه على تأويلات وأخبار لا تصح، فإن ظاهر الآية الكريمة لا يفيد إلا إفادة مجملة بمسخهم قردة، وقدرة الله تعالى تسع كل ما يريد، وليس لنا أن نتمحل ونتكلف ما ليس لنا به علم، وقد قيل لهم كونوا قردة خاسئين فكانوا، وهذا مبلغ علمنا.

ثم أجمل القرآن كل تصرفات بني إسرائيل المنحرفة بأن أورد قصة حادثة البقرة وقد سميت السورة بها، مما يشير إلى أهمية موقعها من سياقها العام، فقال تعالى: { وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً }، والخطاب موجه إلى يهود البعثة النبوية يقول لهم: " واذكروا إذ قال موسى لقومكم السابقين إن الله يأمركم بذبح بقرة "، وكان هذا الأمر عقب العثور على قتيل من بني إسرائيل لم يعرف قاتله، فتنازعوا وأخذ كل منهم يدفع التهمة عن نفسه ويرمي بها غيره، فسألهم موسى عليه السلام فجحدوا، وسألوه أن يدعو الله ليبين لهم القاتلَ الحقيقيَّ، فدعا موسى ربه فأوحى إليه أن يذبحوا بقرة، فقال لهم موسى: { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً }، فدَهِشُوا وقالوا بسفاهة وحماقة: { أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً } أي أتجعلنا موضع سخريتك؟ فأجابهم مستعيذا بالله من أن يكون جاهلا يخبر عن ربه بما لم يأمره به: { قَالَ أَعُوذُ بالله أَنْ أَكُونَ مِنَ الجاهلين } وغير خفي ما في جواب موسى من تعريض بسوء أدب قومه في مخاطبتهم إياه، وفي حديثهم عن ربهم، إذ هو بصفته نبيا معصومٌ من الهزء في تبليغ أوامر الله، وما بدا منهم لا يليق أن يصدر من عقلاء العامة فضلا عن سراتهم وحكمائهم .

لكنهم لخواء عقولهم وجهالة طبعهم وبلادة حسهم لم يرتدعوا عما نهوا عنه، بل تمادوا فيما جبلوا عليه: { قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ }، أي اسأل ربك يبين لنا صفات البقرة ومميزاتها، وسؤالهم هذا يكشف مكنون قلوبهم وقاحةً وجراءةً فاجرة وقد دأبوا كلما جَدَّت لهم حاجة على مخاطبة نبيهم بقولهم له: {ادْعُ لَنَا رَبَّكَ }، كأنما الله إِلَهٌ لَهُ وحده، إلا

أن الرسول الكريم تغاضى عما بدر منهم وأعرض عن سفاهتهم قائلا: { قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ }، أي إن ربكم يقول لكم: إن البقرة التي أمرتم بذبحها ليست هَرِمَة مُسِنَّةً ولا بِكْرا صغيرةً لم يَلْحَقْها الفحل، بل عَوَانٌ نَصَفٌ، بين الكِبَرِ والصِّغَر، فاتركوا الإلحاح في الأسئلة، وسارعوا إلى الامتثال.

ومع أن الاعتراض على من ثبتت نبوته بالأدلة والمعجزات كفر، فإنهم لم يمتثلوا ولم يفعلوا، بل عادوا للسؤال تماديا في الجفاء وسوء الظن { قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا }، فأجابهم موسى مرة أخرى متغاضيا عن جهالتهم: { قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ }، أي أن لونها شديد الصفرة ناصعها، وهو لصفائه وحسنه يسر الناظرين، إلا أن هذه الأوصاف التي ذكرت لهم لم تَرْوِ شغفهم إلى الجدال والمماحكة فعادوا لسؤال نبيهم مرة أخرى بنفس ما عُهِد فيهم من صفاقة: { قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ }، فأجابهم موسى بما عهد من أخلاق الأنبياء: { قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا } أي إن البقرة مُسَلَّمَة من العيوب مطلقا، وليست مُذَلّ͏ّلَة بالعمل إثارةً للأرض أو سَقْياً للحرث، لأن الاستعمال عادة يظهر في البهيمة النقص أو العيب، كما أن لونها لم تَشُبْهُ سِمَةٌ أو علامة أو لون مغاير { لَا شِيَةَ فِيهَا }، من الوشي وهو تطريز الثوب أو نسجه بأكثر من لون واحد. وهنا فقط أبدوا تصديقهم لموسى ولكن بنفس التثاقل المعهود في خطابهم للأنبياء: { قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ }.

ثم بعد تنفيذ الأمر تبدأ معهم قضية أخرى، قضية قتيلهم الذي لم يعرف قاتله، وهي الغاية التي من أجلها ورد الأمر بذبح البقرة، فيُساق الخطاب فيها أيضا على نحو الخطاب في الآيات السابقة، بتنزيل المخاطبين من يهود عصر البعثة منزلةَ أسلافهم، تقريرا لقاعدة سريان طباع السلف وأخلاقهم إلى الخلف، لما للبيئة والتربية من تأثير، فقال تعالى: { وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا }.

وقد ورد في الآثار روايات مختلفة عن ظروف هذه الجريمة وملابساتها، أقْرَبُها إلى الصحة أنه كان في بني إسرائيل رجل غني، وله ابن عم فقير لا وارث له سواه، فلما طال عليه موته قتله ليرثه، وحمله إلى قرية أخرى فألقاه فيها، ثم أصبح يطلب ثأره، فكان الوحي من الله تعالى لموسى أن يذبحوا بقرة ويضربوا القتيل بأي جزء من أعضائها، ففعلوا فعادت إليه الحياة وأخبر عن قاتله .

ثم يعقب تعالى على حادثة الإحياء هذه بقوله: { كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ }، لينبه إلى حقيقة عقدية هي مفتاح سر الحياة والممات، والعلامة الفارقة بين السعادة والشقاء، إذ بمثل هذا الإحياء الذي شاهدوه عيانا يحيي الله تعالى الموتى ليوم الحساب، وبمثله يبين لخلقه آياته ودلائل قدرته وواسع علمه تنويرا للعقول وتوضيحا للحال والمآل، وإقامة للحجة { أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ } الأعراف172.

وجمهور المفسرين على أن جريمة قتل النفس كانت قبل الأمر بذبح البقرة، إلا أن السياق القرآني قدم نبأ قوم موسى في عصيانهم أوامر نبيهم ومجادلتهم إياه وجراءتهم على التعريض به والشك في ما يبلغه لهم عن ربه، لأن مجرى الكلام تعديدُ جنايات بني إسرائيل وعرضُ سوء طباعهم وضعف إيمانهم واضطراب مواقفهم، ولذلك أخر عرض حادثة القتيل ليبتدئ بأشرف القصدين، إذ الجانب العقدي أس بناء الجانب التشريعي ومقدم عليه، وإن كانت القصتان معا مسوقتان للتقريع، تقريع على ضعف الإيمان والاستهزاء وسوء القصد والتأويل وضعف الثقة بواحد من أولي العزم من الرسل، وترك المسارعة إلى طاعته والامتثال لأمره، وتقريع على العدوان وقتل النفس المحرمة وما تلاها من تدارئهم وتكاذبهم وتقاذفهم الذنب على بعضهم.

وتختم القصة بوصف دقيق لنفسية بني إسرائيل التي انكشفت ميدانيا، بعد معرفة القاتل، وجراءته على أن يقسم بالله مدعيا البراءة من الجريمة المرتكبة، كما ورد عن ابن مسعود رضي الله عنه، فقال تعالى: { ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُون }.

لقد صارت قلوبهم بكثرة المعاصي وتوالي التجرؤ على البارئ عز وجل محجوبة عن الحق، كثيفة الطبع أشد قسوة من الحجارة، لما جبلوا عليه من الجفاء والفظاظة، وجفاف الأرواح والأفئدة والأعين من الحياء والأمانة والوفاء، وما طبعوا عليه من سوء الأدب والتمرد على الطاعة والمماطلة في الانصياع، والجبن عن الجهاد والخوف من غير الله، وكتمان الحق وتحريف الدين والمتاجرة فيه، والإلحاف في السؤال والتنطع في مجادلة الرسل والأنبياء، والاعتداء عليهم بالقتل والمطاردة وحملات التشويه والافتراء. وهم بعد كل هذه الآثام المرتكبة لاهون وفي الغفلة سادرون { وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ }.

لقد جسد سلوك بني إسرائيل في حادثة البقرة كل عوائق الإيمان والعمل الصالح، وجميع موانع قيام الأمة الشاهدة، وإن جديرا بالأمة الجديدة الناشئة بين شعاب مكة المكرمة ولأبتي المدينة المنورة (حرتيها)، أن تنأى عن هذه المثالب والخطايا والآثام التي عصفت بأمة سبقت إلى القوامة على دين الله وقيادة البشرية في الأرض ثم سلبتها.

لذلك سميت السورة كلها " سورة البقرة " أو " السورة التي تذكر فيه البقرة "، كما ورد في الأثر، لما لها من مكانة محورية فيها، ولما كشفته من رذائل أخلاق أطاحت بأمة أؤتمنت فخانت، وسادت ثم بادت، ولن تقوم للأمة البديل- أمة محمد صلى الله عليه وسلم- قائمة إن لم تجتنب تلك المزالق المردية والمسالك المهلكة. ولذلك حرص القرآن على الإطناب في التحذير منها والتنديد بها وكشف خلفياتها وأسبابها ونتائجها وعواقب مرتكبيها.

أصلان راسخان للعدل في الدنيا والآخرة

قال الله تعالى: { أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (75) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (76) أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (77) وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (78) فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (79) وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (80) بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (81) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (82) } البقرة

إن المرء ليعجب من شدة استعصاء بني إسرائيل على الصلاح والتوبة، ورسوخ ما اتصفوا به، أسلافا وأخلافا في تاريخهم الطويل، من صفات خبيثة وتصرفات دنيئة، لا تنحو للتحسن والتطهر، ومغادرةِ كهوفِ الفساد والخيانة والمكر، ومعاداةِ قِيَمِ الخير والفضيلة والإيمان، صفاتٍ لا تخرج عن نطاق الظلم والعدوان والفسق والعتو عن أمر الله، وتبديلِ كلامه وأحكامه، والاستهزاءِ بالوحي ومعاداةِ حَمَلَتِه إليهم رسلا وملائكة، والاستخفافِ بالعقوبة دنيويةً وأخرويةًًًًٌ، والاستهانةِ بكرم العفو والمغفرة، والتحايلِ على الحرام ليرتكبوه تحت مظلة المباح، يتوارثون هذه الأخلاق عن علم وتعلم جيلا بعد جيل.

لذلك بعد أن بين رب العزة في الآيات السابقة كوامنَ الفساد في النفسية اليهودية، وصواعقَ العقاب الذي أنزله بهم، رفعا للطور فوق رؤوسهم، ومسخا للمعتدين منهم في السبت قردةً خاسئين، التفت إلى الصف المسلم في عهد البعثة النبوية، تنزيلا للسكينة على قلوبهم، وتخفيفا عنهم من حرقة الحرص على أن يؤمن بنو إسرائيل، ويلتحقوا بالصف المسلم، مُذَكِّرا بِمَا سلف من تنطع أسلافهم وترديهم في الكفر والعصيان، على مدى تاريخهم الطويل من عهد موسى عليه السلام، منبها إلى أن يهود البعثة متمسكون بأخلاق أجدادهم، وما وَرِثوه عنهم من خصال ورذائل ومفاسد، فقال تعالى: { أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ }.

لقد علم الله تعالى أن أخطر عدو سيواجهه المسلمون في مسيرتهم الجديدة، وعلى تعاقب الحقب والأجيال بعدها، هم بنو إسرائيل، ولذلك أخذ الوحي ينزل فيهم أوائل الفترة المدنية، كشفا لأساليبهم الملتوية، وتهيئة نفسية لوعي المسلمين بالمعركة العقدية التي تنتظرهم في هجرتهم إلى المدينة، واليهود بها لهم شأن وقوة ومال وحلفاء في أكبر القبائل، الأوس والخزرج، أو التي سيخوضونها في العصر الحديث، وإسرائيل لها فيه قوة ومال وحلفاء ومصالح مشتركة مع جميع قوى الشر المعاصرة، فقال تعالى في حقهم: { فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ } الأعراف 169. وهو ما يتجدد في كل جيل، إذ تتوالى أخلافهم فتسير بسيرة الآباء والأجداد، يرثون ما حرف من التوراة ويحاولون تحريف ما لدى عدوهم التاريخي من القرآن.

يبدأ القرآن الكريم حملة التوعية بمكرهم وأساليبهم الملتوية منذ بداية الفترة المدنية، ملتزما في نفس الوقت بالعدل والإنصاف في حق الصالحين منهم وقد كانوا قلة يعدون على رؤوس الأصابع، منهم عبد الله بن سلام، وثعلبة بن أسعد، وأسيد بن سعية، وأسد بن عبيد، آمنوا فقالت أحبار اليهود عنهم: ما آمن لمحمد إلا شرارنا، ولو كانوا من أخيارنا لما تركوا دين آبائهم، فأنزل الله تعالى: { لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ } آل عمران 113، و: { وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ } آل عمران 199.

وتستمر خلال الفترة المدنية عامة، وفي سورة البقرة بوجه خاص، حملةُ التوعية مركَّزةً قوية في مواجهة الهجوم اليهودي الشرس الظالم على الدعوة الناشئة، وقد استعملوا فيه أخس الأساليب والوسائل والأسلحة، افتراء وتلفيقا ومحاولة اغتيال وتسميم، وسحرا وشيطنة، وبلغ بهم الحقد والضغينة أن نصروا أصنام قريش على عقيدة التوحيد التي أتى بها نبيهم موسى وبشر بها محمد عليهما الصلاة والسلام، إذ جاء حيي بن أخطب وكعب بن الأشرف إلى أهل مكة، فقالوا لهما: أنتم أهل الكتاب وأهل العلم، فأخبرونا عنا وعن محمد، فقالا: ما أنتم وما محمد؟ فقالوا: نحن نصل الأرحام، وننحر الكَوْمَاء (الناقة السمينة العظيمة)، ونسقي الماء على اللبن، ونفك العُنَاة، ونسقي الحجيج، ومحمد صنبور (أي أبتر لا ولد له ولا أخ)، قطع أرحامنا، واتبعه سُرَّاقُ الحجيج بنو غفار، فنحن خير أم هو؟ فقالوا: أنتم خير وأهدى سبيلا، فأنزل الله: { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا } النساء51، وماكانت شهادة الزور هذه من يهود لأصنام قريش إلا ليستنصروا بالمشركين ويستميلوهم إلى محاربة المسلمين معهم، فأجابوهم وجاؤوا معهم يوم الأحزاب إذ حفر الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه الخندق حول المدينة، وكفاه الله شرهم كما قال تعالى: { وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ

قَوِيًّا عَزِيزًا وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا } 27/25.

لقد كان القرآن الكريم ولا يزال سلاح الدعوة الذي لا يفل، ومعجزة الدهر بيانا وتشريعا وعظة ونظاما للحياة وطِبّاً للقلوب، تعجز عن الإتيان بمثله الجن والإنس ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا، وكان ديدن اليهود على مدار التاريخ أن يحرفوا كلام الله تعالى، تنصلا من تعاليمه، ومتاجرة فيه، فبخسوا التوراة قدرها وحرفوها نقصا وزيادة وتأويلا، وحاربوا الإنجيل ودسوا فيه وكذبوا على نبيه وحاولوا قتله، ثم لما ظهر القرآن الكريم { مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ } المائدة 48، شحذوا أسلحة التزوير والتحريف والافتراء والتشكيك كما هي عادتهم { يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ } التوبة32. وما زالت مستمرة في عصرنا هذا محاولاتُهم التخلصَ من القرآن بنشر طبعات محرفة له، والضغط على بعض حكومات المسلمين الخانعة كي تحذف من مناهج التعليم في مدارسها آيات تتعلق بعبادة الجهاد أو بصفات بني إسرائيل في القرآن، وهدفهم دائما هو تحريف الوحي عما جاء به من العقيدة والشريعة. من أجل ذلك نبه رب العزة المسلمين إلى الغاية القصوى لجهود بني إسرائيل على مدار التاريخ وهي محو الإسلام من الوجود والقرآن من القلوب، فقال: { وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَق } البقرة 109، وقال: { مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ } البقرة105.

ولذلك أنزل الله تعالى قوله: { أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ } لطفا بالمسلمين وتخفيفا عنهم، وطمأنةً لقلوبهم، وتيئيسا لهم من إيمان غالب يهود عصر البعثة وجمهرتهم، أي:إن ارتقابكم إسلامهم وقد علمتم قسوة قلوبهم على ما شاهدوه من البينات، يثير التعجب، وكذلك طمعكم أن يُسْلِسُوا لكم القياد والاتباع ويَصْدُقوكم القولَ ويُصَدِّقوا بما أُنْزِل إليكم من الوحي، لأن المشيئة الإلهية سبقت لهم بالخذلان، والحكمة الربانية اختارت لهم الحرمان، وللجنة أهلها وللنار أهلها { إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ } القصص56، وما تبليغ رسالة الإسلام إلى من علم الله إصرارهم إلا إقامة للحجة عليهم في الدنيا عند إجراء أحكام الكفر عليهم، وفي الآخرة عند الشهادة عليهم.

إن انتظاركم إسلام هؤلاء وأمثالهم ينبغي أن يثير عجبكم واستغرابكم أنتم أنفسكم إذا ما تذكرتم ما فعلوه بكتابهم " التوراة "، وقد كانوا يحرفونه عمدا وبسبق إصرار بعد أن استوعبوه وفهموه وعقلوه { وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ }. فليَهُنْ عليكم وعلى نبيكم الكريم ما تجدونه من عنادهم وإعراضهم وكيدهم وتحريفهم، لقد تجرؤوا على تحريف ما نزل عليهم بخاصة، فكيف لا يتجرؤون على ما سوى ذلك؟!، وإذا كانت هذه أفعالهم فيما بينهم ومعاملاتهم مع نبيهم الذي أعزهم الله به وأنقذهم من الرق بسببه، فمن باب أولى ما يُعَامِل بها

أخلاقُهم الرسالةَ الجديدةَ، وإن قوماً توارثوا هذه الصفات لا يُطْمَعُ في إيمانهم، وما السابقون منهم إلا آباء وأجدادا وإخوانا وبني عمومة للاحقين، والغالب أن يكون خُلُقهم واحداً وطباعُهم متقاربة، كما قال نوح عليه السلام: { وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا } نوح27.

لقد كان اليهود في مواجهة البعثة النبوية ثلاثة أفراق:

فريق يحرف الكلام بعد أن يسمعه ويعقله ويفهمه ويعرف أنه الحق من الله، وهم علماء بني إسرائيل وأحبارهم الذين أشارت إليهم هذه الآية الكريمة.

والفريق الثاني هو فريق المنافقين من اليهود الذين أعلنوا الإسلام واحتفظوا بالكفر، وهؤلاء كان هدفهم تخريب الدعوة الإسلامية من داخلها، ببث الشكوك والتفرقة والنزاع وتسقط أخبار النبي صلى الله عليه وسلم وتبليغها إلى قومهم، وكانوا إذا لقوا المؤمنين قالوا لهم: آمنا بالذي آمنتم به ونشهد أن صاحبكم صادق وأن قوله حق ونجده بنعته وصفته في كتابنا، وإذا خلا بعضهم إلى بعض قال الرؤساء لهم: أتحدثونهم بما علمتم في التوراة { بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ } من نعته وصفته ليحاجوكم به عند ربكم؟، ولا حجة أقوى من اعترافكم لهم بشهادة التوراة على نبوة صاحبهم، قال تعالى: { وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آَمَنُوا قَالُوا آَمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ }.

إن خشيتهم من محاجة المسلمين لهم يوم القيامة بما فتح الله عليهم في التوراة من صفات النبي صلى الله عليه وسلم، تشي بما في تصورهم الإيماني عن الله واليوم الآخر من غبش وفساد، لأن هذه الصفات المذكورة في التوراة نزلت منه تعالى، هو عالم بها وبما في نفوس الخلق أجمعين، { أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ }، وما قولهم ذاك إلا انعكاسا لما جبلوا عليه من ميل للتحايل، وعزم على المراوغة حتى بين يدي علام الغيوب يوم الدين.

أما عن محاولات هذا الفريق تخريب وحدة المسلمين وتمزيق صفهم، فأكثر من أن تحصى في هذه المجال، ومنها ما رواه ابن إسحاق قال:(مَرّ شَأْسُ بْنُ قَيْسٍ، وَكَانَ شَيْخًا قَدْ عَسَا، عَظِيمَ الْكُفْرِ شَدِيدَ الضّغْنِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ شَدِيدَ الْحَسَدِ لَهُمْ عَلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ مِنْ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ، فِي مَجْلِسٍ قَدْ جَمَعَهُمْ يَتَحَدّثُونَ فِيهِ، فَغَاظَهُ مَا رَأَى مِنْ أُلْفَتِهِمْ وَجَمَاعَتِهِمْ وَصَلَاحِ ذَاتِ بَيْنِهِمْ عَلَى الْإِسْلَامِ بَعْدَ الّذِي كَانَ بَيْنَهُمْ مِنْ الْعَدَاوَةِ فِي الْجَاهِلِيّةِ، فَقَالَ: قَدْ اجْتَمَعَ مَلَأُ بَنِي قَيْلَةَ بِهَذِهِ الْبِلَادِ، لَا وَاَللّهِ مَا لَنَا مَعَهُمْ إذَا اجْتَمَعَ مَلَؤُهُمْ بِهَا مِنْ قَرَارٍ. فَأَمَرَ فَتًى شَابّا مِنْ يَهُودَ كَانَ مَعَهُمْ فَقَالَ اعْمِدْ إلَيْهِمْ فَاجْلِسْ مَعَهُمْ، ثُمّ اُذْكُرْ يَوْمَ بُعَاثٍ وَمَا كَانَ قَبْلَهُ وَأَنْشِدْهُمْ بَعْضَ مَا كَانُوا تَقَاوَلُوا فِيهِ مِنْ الْأَشْعَارِ. قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ: فَفَعَلَ، فَتَكَلّمَ الْقَوْمُ عِنْدَ ذَلِكَ وَتَنَازَعُوا وَتَفَاخَرُوا حَتّى تَوَاثَبَ رَجُلَانِ مِنْ الْحَيّيْنِ عَلَى الرّكَبِ أَوْسُ بْنُ قَيْظِيّ أَحَدُ بَنِي حَارِثَةَ بْنِ الْحَارِثِ مِنْ الْأَوْسِ، وَجَبّارُ بْنُ صَخْرٍ، أَحَدُ بَنِي سَلِمَةَ مِنْ الْخَزْرَجِ، فَتَقَاوَلَا ثُمّ قَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ إنْ شِئْتُمْ رَدَدْنَاهَا الْآنَ جَذَعَةً، فَغَضِبَ الْفَرِيقَانِ جَمِيعًا، وَقَالُوا: قَدْ فَعَلْنَا، مَوْعِدُكُمْ الظّاهِرَةَ - وَالظّاهِرَةُ الْحَرّةُ - السّلَاحَ

السّلَاحَ. فَخَرَجُوا إِلَيْهَا، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ فِيمَنْ مَعَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ الْمُهَاجِرِينَ حَتّى جَاءَهُمْ فَقَالَ: (يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ اللهَ اللهَ، أَبِدَعْوَى الْجَاهِلِيّةِ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ بَعْدَ أَنْ هَدَاكُمْ اللهُ لِلْإِسْلَامِ، وَأَكْرَمَكُمْ بِهِ، وَقَطَعَ بِهِ عَنْكُمْ أَمْرَ الْجَاهِلِيّةِ، وَاسْتَنْقَذَكُمْ بِهِ مِنْ الْكُفْرِ، وَأَلّفَ بِهِ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ؟)، فَعَرَفَ الْقَوْمُ أَنّهَا نَزْغَةٌ مِنْ الشّيْطَانِ وَكَيْدٌ مِنْ عَدُوّهِمْ، فَبَكَوْا وَعَانَقَ الرّجَالُ مِنْ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، ثُمّ انْصَرَفُوا مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ سَامِعِينَ مُطِيعِينَ، قَدْ أَطْفَأَ اللهُ عَنْهُمْ كَيْدَ عَدُوّ اللهِ شَأْسِ بْنِ قَيْسٍ. فَأَنْزَلَ اللّهُ تَعَالَى فِي شَأْسِ بْنِ قَيْسٍ وَمَا صَنَعَ: { قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَاللهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمّا تَعْمَلُونَ }، وَأَنْزَلَ اللّهُ فِي أَوْسِ بْنِ قَيْظِيّ وَجَبّارِ بْنِ صَخْرٍ وَمَنْ كَانَ مَعَهُمَا مِنْ قَوْمِهِمَا الّذِينَ صَنَعُوا مَا صَنَعُوا عَمّا أَدْخَلَ عَلَيْهِمْ شَأْسُ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيّةِ: { يَا أَيّهَا الّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ يَا أَيّهَا الّذِينَ آمَنُوا اتّقُوا اللهَ حَقّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنّ إِلّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } إلَى قَوْلِهِ تَعَالَى { وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ }.

أما الفريق الثالث فهو المعني بقوله تعالى بعد ذلك: { وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ }، وهم العوام والسِّفْلة من بني إسرائيل، الهَمَج الرَّعَاع، أتباع كل ناعق، الذين لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجأوا إلى ركن وثيق، كما يقول الإمام علي كرم الله وجهه، الأغبياء من الكَتَبَةِ وغير الكتبة، الأميون عقلا والأميون قراءة وكتابة، وليس لهم مما يطلعون عليه سماعا أو قراءة إلا الحدس والظن والتقول وادعاء العلم وهو منهم براء، وهذا الصنف من العوام أشد كفرا وأعتى تسلطا، لأن العالم يرجى من الحوار معه إقناع أو اقتناع، وهؤلاء يتجارى بهم الجهل كما يتجارى بالكلب المسعور سعارُه.

إنهم فريق ميزة أفراده أنهم { أُمِّيُّونَ }، جهلة لم يشحد أذهانهم العلم، { لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ } لا يعلمون التوراة إلا علماً مختلطاً حاصلاً مما يسمعونه، { إِلَّا أَمَانِيَّ} أي أن مدى علمهم بالكتاب تمنياتٌ وتخرُّصات وأكاذيبٌ وتقديرات، والأمانيُّ على وزن أفاعيل، جمع أُمْنِيَّة كأُضحية، أفْعُولة، مشتقة من مَنَى بمعنى قدَّر الأمرَ، وفي حديث عثمان رضي الله عنه " ما تَمَنَّيْتُ منذ أسلمت " أي ما كَذَبْت، والتَّمنِّي الكَذِب، لأن الكاذب يُقدِّر في نفسه الحديث ثم يقوله. ولذلك قيل: تمنى بمعنى تَكَلَّفَ تقديرَ حصولِ شيءٍ متعذرٍ أو مُتَعَسِّر، ومنّاه أي جعله مَانياً أي مقدّراً ما يحصل وما لا يحصل، كناية عن الوعد الكاذب لأنه ينقل الموعود من تقدير حصول الشيء اليومَ إلى تقدير حصوله غداً، وأماني هذا الفريق لا تتجاوز ما لُقِّنُوه من أخبار ملفقة وأكاذيب عن الصف المسلم ونبيه صلى الله عليه وسلم، أو ما سمعوه من رهبانهم، أو قرؤوه دون فهم، أوظنوه ظنا من أن الله يعفو عنهم ويرحمهم ولا يؤاخذهم بخطاياهم، وأن آباءهم الأنبياء يشفعون لهم. { وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ} أي أن كل ما لديهم من الكتاب مجرد تخيلات ومعان مختلطة لا ترقى إلى الجزم واليقين. وقوام ما

تشير إليه هذه الآية الكريمة أن يهود عصر البعثة النبوية قد بلغوا من العتو والإعراض مبلغا لا مطمع معه في هدايتهم، لأن علماءهم محرفون لكتاب الله، وعوامهم حشيت عقولهم وأفئدتهم بالأكاذيب والأساطير والأوهام، وكل أمة كان شأن علمائها وعوامها على هذا النحو فقد تُوُدِّعَ منها.

ثم عقب تعالى على موقف علماء بني إسرائيل من عوامهم تضليلا وتجهيلا، وعلاقتهم بالوحي المنزل تحريفا وتزويرا وتبديلا، بحكم صارم مطلق توعدهم به فقال: { فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ }. وكان تعبير الآية الكريمة بالفعل المضارع { يَكْتُبُونَ } إشارة إلى وقوع هذا الفعل منهم بصفة مستمرة، ماضيا وحاضرا ومستقبلا، ولقد دأبوا على كتابة الكتب والفتاوى حسب هوى مستفتيهم من العامة، نظير رشى من أموال وهدايا، واستمر هذا حالهم على مدى التاريخ، وبلغ بهم التزوير والافتراء حدا كتبوا به في عصورهم المتأخرة ما دعوه " التلمود "، وزعموا أنه صنو للتوراة المكتوبة، أوحى به الله لموسى شفويا.

يتوعدهم الله سبحانه في هذه الآية الكريمة بالويل، وهو العذاب والخزي مطلقا، لِمَا كتبوا بأيديهم من أراجيف وأباطيل { فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ... }، ثم ينسبونه إلى الله زورا وبهتانا { ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ }، متاجرةً منهم في الدين ومحاربة لأولياء الله من الأنبياء والمرسلين وأتباعهم الصادقين، ليحصلوا على عرض دنيوي قليل مهما تكاثر وتعاظم، مالا أو رئاسة أو جاها أو لفتا للوجوه ورياء وسمعة { لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا }، وكل ذلك لا يساوي جناح بعوضة، قياسا بما حُرِموه من نعيم الآخرة، وما ينتظرهم من العذاب لما اكتسبوه من الإثم { فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ }

روى البخاري عن عبد الله بن عباس قال: (يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ كَيْفَ تَسْأَلُونَ أَهْلَ الْكِتَابِ وَكِتَابُكُمْ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحْدَثُ الْأَخْبَارِ بِاللَّهِ تَقْرَءُونَهُ لَمْ يُشَبْ، وَقَدْ حَدَّثَكُمْ اللَّهُ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ بَدَّلُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ وَغَيَّرُوا بِأَيْدِيهِمْ الْكِتَابَ فَقَالُوا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ { لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا } أَفَلَا يَنْهَاكُمْ مَا جَاءَكُمْ مِنْ الْعِلْمِ عَنْ مُسَاءَلَتِهِمْ؟ وَلَا وَاللَّهِ مَا رَأَيْنَا مِنْهُمْ رَجُلًا قَطُّ يَسْأَلُكُمْ عَنْ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ)

ولئن كانت هذه الآيات الكريمة متعلقة باليهود الذين كتموا أمر النبي صلى الله عليه وسلم وكتموا نعته، وكفروا به، وتاجروا بدينهم واشتروا به ثمنا قليلا، فإنها تعم علماء المسلمين أيضا، خاصة منهم الذين انتسبوا للعلم ظاهرا، وعدموا الإخلاص باطنا، ممن تدعوهم نزوات الشهوة للمال والجاه واللذة فيستجيبون، وتناديهم هواتف الحق والصدق والرجولة فينكُلون ويَتَوَلَّوْن، وهم ثلاثة أصناف: علماءُ السلاطين بتزلفهم وإعانتهم للباطل على الحق، وعلماءُ الأحكام الشرعية إذ يتورطون في مجاراة أهواء المستفتين من العامة والخاصة نظير رُشىً ماديةٍ أو معنويةٍ، والقضاةُ إذا كيفوا أحكامهم بما يجاري أهواء المتقاضين خوفا أوطمعا. قال الله تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ

فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلعَنُهُمُ اللّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ، إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ }: البقرة 160/159

ويدخل تحت هذه اللعنة كل العلماء الذين يكتمون الحق أو يحرفونه، وكل فرد مسلم يعرف آية أو حديثا أو حكما ويكتمه، كما ينال الحكم (اللعنة) كل ساكت عن الحق، أو محرف له، أو كاتم له بسبب الخوف من حصول مضرة أو ضياع منفعة أو رغبة أو رهبة. وهذا المعنى أكده قوله تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ، أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ } البقرة 174. وقوله: { وَإِذَ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاء ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْاْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ } آل عمران 187.

قال الحسن وقتادة: هي في كل من أوتي علم شيء من الكتاب، فمن علم شيئا فليعلمه، وإياكم وكتمان العلم، فإنه هلكة. و قال محمد بن كعب: لا يحل للعالم أن يسكت على علمه ولا للجاهل أن يسكت على جهله. قال القرطبي: وهذه الآية وإن كانت خاصة ببني إسرائيل فهي تتناول من فعل فعلهم، فمن أخذ رشوة على تغيير الحق أو إبطاله أو امتنع عن تعليم ما وجب عليه أو أداء ما علمه وقد تعين عليه حتى يأخذ عليه أجرا دخل في مقتضى الآية.

وما جَرَّأَ هذه الفرقَ من بني إسرائيل على هذه المواقف، إلا ما وَقَرَ في عقيدتهم من فساد تصورهم الإيماني عن الله تعالى واليوم الآخر. لقد التبس عليهم أمرهم ونسوا أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون، وأن الحساب يوم القيامة بالقسطاس المستقيم عدلا وتناصفا، وأن التقول على الله دون علم ليس من ورائه أملُ نجاة، ولذلك عقب تعالى على هذه التصرفات المنحرفة بتشخيص الداء الذي ينخر قلوبهم وعقولهم وهو فساد التصور الإيماني لديهم، بقوله: { وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ }، والمسُّ كاللّمْس، وهو اتصال جسمين على وجه إحساس أحدهما بالآخر، والمراد من النار نار الآخرة، { إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً مَعْدُودَةً } أي قليلة محصورة العدد، { قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ } أي: قل يا محمد لهم: إن اتخذتم عند الله وعدا بما تزعمون فلن يخلف وعده، وهو استفهام ينكر عليهم ما يدعونه من نجاة بين يدي الله من النار، ليلجئهم إلى الاعتراف بضلالهم، أردفه بتقرير جهلهم بما عند الله من الغيب { أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ }، وقوله تعالى بعدها: { بَلَى } إبطال لقولهم: { لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً }، أي لَتَمَسَّنَّكُم على خلاف ما زعمتموه.

ومناسبة الآية من الحديث النبوي ما رواه البخاري أن الرسول صلى الله عليه وسلم سأل يهودا حاولوا تسميمه: (مَنْ أَهْلُ النَّارِ؟ قَالُوا: نَكُونُ فِيهَا يَسِيرًا ثُمَّ تَخْلُفُونَا فِيهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اخْسَئُوا فِيهَا وَاللَّهِ لَا نَخْلُفُكُمْ فِيهَا أَبَدًا).

ثم عقب تعالى على مزاعمهم ومزاعم كل ضال في كل زمان ومكان، بقاعدتين كليتين، هما ميزان العدل المطلق بين الناس، أولاهما قوله تعالى سندا وتفصيلا لقوله {بَلَى}: { مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ }، فمن كسب السوء في قلبه أو جوارحه، في تصوره الإيماني أو عمله، { وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ } حاصرته خطيئاته، وأحدقت به آثامه في الاعتقاد والعمل، فلم تترك له منفذا للهداية والتوبة { فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ }، وهذا منه تعالى تقرير بأن المسلم لا يخلد في النار، لأنه لا يخلو من عمل صالح، فلا تحيط به خطيئاته، وحسبه من ذلك سلامة قلبه من الكفر وسلامة لسانه من النطق به.

والقاعدة الثانية قوله تعالى: { وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } فاشترط للخلود في الجنة اقترانَ الإيمان بصفاته وشروطه المعتبرة شرعا، بالعمل الصالح تحت حاكمية الكتاب والسنة.

وهاتان القاعدتان أصلان راسخان، في الحياة الدنيا سعيا وكسبا ونشاطا، وفي الآخرة حسابا شديدا ودعوة ثبور وخسران، أو حسابا يسيرا وانقلابا إلى الجنة سرورا لا تشوبه الأحزان { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا } الكهف107/108.

أمة يهودية نقضت عهدها
وأمة مسلمة على الطريق

قال الله تعالى: { وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ (83) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (84) ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (85) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (86)} /البقرة

عهد واحد أخذه الله تعالى على جميع الأمم الخالية، وإنما يعرض علينا في القرآن الكريم مواقفها من عهودها وفاء أو خيانة، للتذكير والتحذير والعظة والاعتبار واستلهام الرشد، فنثبت على الحق ونوفي بما في ذمتنا من عهود، ولا نجحد كما جحدوا فنهلك كما هلكوا.

ولئن توالى فيما سبق من سورة البقرة تذكير بني إسرائيل المعاصرين للبعثة النبوية تلميحا موجزا أو تصريحا مجملا بمثالب تصرفات آبائهم وهم يتلقون الوحي من أنبيائهم عليهم السلام، ترغيبا وترهيبا فيما يشبه العتاب واللوم والاستدراج للخير وصدق الإيمان والالتزام، فإن الوحي في هذه الآيات الكريمة يتخذ منحى جديدا، تفصيلا للتكاليف والواجبات المهدرة، وكشفا لخطورة المخالفات المرتكبة، وشدة العقوبات المقدرة، المبنية على حيثيات لا يرقى إليها الخلل بأسلوب توبيخي قوي شديد، ينم عن بلوغهم غاية التمرد والعصيان، واستحقاقهم ما قرره العدل الإلهي في حقهم { وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } آل عمران117.

لقد عاملهم الله تعالى بكرمه وعفوه على مدى لا يعلمه إلا هو، لكنهم اشتطوا في الاستهانة وأوغلوا في التطاول، ولئن لجوا من لؤمهم في عتو ونفور، فإن الكريم عز وجل إذا استُهين بتعاليمه واستُهزئ برسله ورسالته غضب، وإذا غضب أخذ، وإذا أخذ فلا حد لسطوته، ولا راد لما أعد للمغضوب عليهم من الخزي والعذاب { وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ

جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ } الملك8/6.

ينهال التقريع على بني إسرائيل في هذه الآيات مرعدا متوعدا، وينصب فوق رؤوسهم حمما وصواعق ترميهم بالشرر، لنكثهم عهد الله تعالى، ونقضهم ميثاقه الغليظ، وما أُخِذ عليهم بشهادة نبيين كريمين، والطورُ يكاد يطحنهم من فوق رؤوسهم، وبعد أن ارتكبوا ما لم ترتكبه الأمم قبلهم، فأنعم الله عليهم بعفو قوبل بكفران، ومغفرة أعقبها إصرار، وتوبة تبعها تَرَدٍّ وانحدار.

وكما هو شأن الخطاب الحازم الحاسم من عليٍّ مقتدر، لسافلٍ وقح متلاعب، يبدأ أولا بذكر أم التكاليف ورأس المخالفات، لتتوالى بعد ذلك الأوامر الفرعية المستهان بها، وما أعقبها من عصيان وإنكار، وما تلاها من توعد ووعيد وتقريع وتوبيخ، تبيانا لقاعدة العدل الإلهي التي سبق ذكرها بقوله تعالى: { بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُون }، إشارة إلى أن بني إسرائيل قد أحاطت بهم سيئاتهم، لما أجملته حيثيات الحكم عليهم بالبوار والخسران في هذه الآيات الكريمة، فقال تعالى متوعدا عصاة السابقين، مذكرا من سار على نهجهم من اللاحقين: { وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ}.

لقد ورد التذكير بالميثاق الذي واثق الله تعالى به عباده في سياقات كثيرة من الكتاب والسنة، لا تخرج عن معنى واحد هو العهد المحكم الموثق الذي لا بد له من وفاء. قال تعالى:

- { وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا } الأحزاب 7.
- { وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ } الحديد 8.
- { وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا } المائدة 7.
- { وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً } الإسراء 34.

والأصل اللغوي لهذا اللفظ من فعل "وَثِق به" يَثِق كورِث يرِثُ ثِقَةً ومَوْثِقاً ووِثاقَة كوِراثَة وُثوقاً: أي ائْتَمَنَه وسَكَن إليه واعتمد عليه، والوَثيقُ: الشيءُ المحْكَم. والميثاق والمَوْثِقُ كمَجْلِس: العَقْد المؤَكَّد بيمين، ومنه قوله تعالَى: { وإذْ أخذ اللهُ ميثاقَ النَّبيّين }، وقوله: { حتّى تؤْتونِ مَوْثِقاً منَ الله } أي: ميثاقاً ج: مَواثيقُ ومَياثيقُ، والمواثقة المعاهدة، وأوثقته: شددته، والوثاق قيد يشد به الأسير أو الدابة، قال تعالى: { فشُدُّوا الوَثاقَ }.

إن الميثاق آصرة متينة عليها بني التكليف، ومن أجلها أنزل الإنسان واستخلف في الأرض، وعلى أساسها يكون الجزاء يوم العرض، ولقد أُخِذ علينا ونحن في ظهور أبينا آدم هذا الميثاق فأقررناه والتزمنا مقتضاه: { وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ

مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ } الأعراف172، وتتابع التذكير به واستنهاض الهمم للوفاء به بواسطة الأنبياء والمرسلين.

إنه لخطورة شأنه يستوعب جميع تكاليف الدنيا بلاء واختبارا، وينتظم كل جزاءات الآخرة جنة ونارا، لأنه وصية الله للبشرية وصفقة المبايعة بينه وبينها {وَأَوْفُواْ بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ } البقرة 40، ومحتوى الأمانة التي حملها الإنسان بمحض اختياره ولا سبيل للتحرر من تبعاتها إلا بالوفاء { إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا } الأحزاب72. ولقد جعله الله تعالى مقياس العدل المطلق يوم الحساب، وما الرضا منه تعالى إلا للمتمسكين به العاملين بنصوصه وأحكامه { الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ } الرعد 20. وما النقمة والجحيم والعذاب المقيم إلا للذين يتولون عنه ويعرضون.

إن الميثاق مع الله تعالى إذا عقد لزمت صيانته ورعايته، وتنفيذ مقتضياته كاملة، والوفاء بشروطه غير منقوصة، وإكمال ما فرضه تاما غير مبتور، لذلك اقترن ورود لفظ الميثاق وما يفيد معناه عهدا وعقدا، في أغلب سياقات القرآن الكريم بلفظ آخر يفيد الإتمام والإكمال هو لفظ " الوفاء "، قال تعالى:

- { الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ } الرعد20.
- { وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } الأنعام152.
- { وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا } الإسراء34 .
- { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ } المائدة 1.
- { وَأَوْفُواْ بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ } البقرة40.

ذلك أن الحروف التي ركب منها لفظ الوفاء (الواو والفاء وحرف العلة) تدل مجتمعة على معنى الإكمال والإتمام، يقال: وفى بعهده يفي وفاء، وأوفى: إذا تمم العهد ولم ينقض حفظه. وأوفيتك أو وفيتك الشيء إذا قضيته وافيا، كما في قوله تعالى: { وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ } آل عمران 57، وتوفيت الشيء واستوفيته إذا أخذته كله، ومنه يقال للميت: توفاه الله، وأوفى الكيل إذا أتمه، وكل شيء بلغ تمام الكمال فقد وفى، والوافي الذي بلغ التمام. ومنه قوله تعالى { إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ } الزمر 10، إشارة منه عز وجل إلى الصبر الذي هو أشد تكاليف الميثاق وصفقة المبايعة لربهم شراء ناجزا بشراء ناجز { إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } التوبة111،

إلا أن النفوس البشرية ليست كلها مؤهلة للوفاء لله تعالى أو لخلقه، إذ لابد من توفر خصال وسجايا تمهد الأرضية الصلبة التي تتحمل تكاليف الميثاق وأثقاله، ولئن كان مجرد الوعد بالتحمل والوفاء قد تسخو به النفس، إذ لا مشقة في

ذلك ما دامت المؤونة خفيفة، فإنه حين يجد الجد وتُبتلى العزائم، وتتخطف المرءَ ضروبُ البلاء والفتن، وتتزين شهوات الأمن والركون للسلامة، تظهر معادن الرجال وتبلو كل نفس قدرتها ومدى صدقها وثباتها. ذلك أن الوفاء مركب من خصال بدونها تُنْقَض المواثيق، ويُتَنَكَّر للرفيق والصديق، خصالٍ قوامها صدق في النية والقول والعمل، وشهامةٌ لا ترضى ذلة التولي وخسة النكول، وعدل يقي المرء خزي الظلم والعدوان. وفهم ثاقب لمآلات الحياة، فيتجلد المرء لما يتوقعه من عاقبة الوفاء في الدنيا، بالشوق إلى ثماره في الآخرة.

من أجل ذلك وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على مصعب بن عمير وقد سقط على وجهه يوم أحد شهيداً وكان صاحب لواء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأ عليه السلام قوله تعالى: { مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا } الأحزاب23. كما روي عن أنس أن عمه أنس بن النضر لم يشهد بدراً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فشق ذلك على قلبه وقال: أول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم غبت عنه، أما والله لئن أراني الله مشهداً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لَيَرَيَنَّ اللهُ ما أصنع!، قال: فشهد أحداً في العام القابل فاستقبله سعد بن معاذ فقال: يا أبا عمرو إلى أين؟ فقال: واها لريح الجنة! إني أجد ريحها دون أحد. فقاتل حتى قتل، فوجد في جسده بضع وثمانون ما بين رمية وضربة وطعنة، فقالت أخته بنت النضر: ما عرفت أخي إلا بثيابه، فنزلت هذه الآية { مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ }

بمثل هذه النفوس القوية الصادقة الوثابة السخية، الواعية المتأهبة لمشاق المسير، وحلاوة ثمار الصبر والمصير، قامت الأمة الشاهدة، وفاءً من رسولها صلى الله عليه وسلم وصحابته الأبرار، وطائفتهم المنصورة على تعاقب الليل والنهار، كما قال عليه الصلاة والسلام فيما رواه مسلم والبخاري:(لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ). وإذ خلت نفوس بني إسرائيل من هذه الصفات انحل ما عقدوا وانفك ما أبرموا وخاب ما أملوا، وأُقْصُوا من إمامة البشرية التي لم يصبروا لتكاليفها وجبنت أنفسهم عن أداء ضريبتها { فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ } البقرة90.

ولئن كان لكل ميثاق مضمون لازم هو مبناه، ومقتضى هو الوفاء به، فإن مضمون ميثاق الله هو العبادة الخالصة له وحده لا شريك له، العبادة جوهر وموضوع، والوفاء تحمل ونتيجة، وهو ما أوجزه قوله تعالى: { وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ }.

لقد بدأت هذه الآية الكريمة بالركن الركين من الميثاق وهو العبادة، لأنها تشمل كل نشاط للإنسان، نوايا وأعمالا وعلاقات وأهدافا، ثم ثنت بأهم ما تشتمل عليه العبادة تفصيلا وتبيانا وتوضيحا، على أرضية واقع الحياة والمجتمع، بأسلوب تربوي دقيق يبدأ بتقرير الكلي لينتهي إلى التطبيق على الجزئي بتفاصيله ومتماثله ومتعارضه .

إن العبادة بصفتها كلية الكليات في الميثاق معناها غاية الطاعة والتذلل المقرونين بالرضا بما يفعل الرب تعالى، عرفها ابن تيمية رحمه الله بأنها اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة، وهي لغةً من فعل: عَبَدَ يعبُد عِبادةً، وتعبَّد يتعبّد تعبّداً. والمتعبِّد هو المتفرِّد بالعبادة، ولا يقال إلاّ لمن يعبُد اللهَ تعالى. وهي ضربان عبادة تسخير بالفطرة كما قال تعالى: { تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ } الإسراء 44، وعبادة بالتكليف امتثالا من العبد واختيارا وقربى، قال تعالى:

- { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ} الأنبياء25
- { وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولا أَنِ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} النحل36.
- { إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ } الزمر 2
- { قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ } الزمر 11.
- { قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي } الزمر 14.
- { قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ } الأنعام 160-163.

وفي كل الأحوال للعبادة شقان متكاملان لا يقوم أحدهما إلا بقيام الثاني، وهما التوحيد الاعتقادي والتوحيد العملي.

التوحيد الاعتقادي هو إفراد الله عز وجل وحده بالعبادة لا شريك له، وأركانه ثلاثة:

1 – توحيد الربوبية أي الإقرار بأن لا رب لجميع الخلق إلا الله تعالى، وأنه سبحانه الخالق الرازق المالك المدبر المحيي المميت، وحده لا شريك له ..

2 – توحيد الألوهية، أي إفراد الله عز وجل بجميع أنواع العبادة التي أمر بها، دعاء وخوفا ورجاء وتوكلا ورهبة ورغبة وخشوعا وخشية، وإنابة واستعانة واستغاثة ونسكا ونذرا .

3 – توحيد الأسماء والصفات، وهو الإيمان بأن الله تعالى ليس كمثله شيء، وأنه لا يوصف إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به نبيه صلى الله عليه وسلم، وطريق معرفة ذلك الوحي قرآنا وسنة ثابتة .

أما التوحيد العملي فهو كل ما يحبه الله تعالى ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة كالصلاة والزكاة وصدق الحديث وأداء الأمانة وبر الوالدين وصلة الأرحام والوفاء بالعهود وشكر النعم والرضاء بالقضاء والقدر، وهو العبادة التي أوجزها قوله تعالى: { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ } الذاريات 56، وقوله: { وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا } النساء36.

لقد ابتدأت الآية الكريمة { لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ } بأعلى الحقوق وأعظمها وهو حق الله تعالى عليهم، وحقه على بني إسرائيل أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا، وكل عهد أخذ عليهم وعلى الأمم قبلهم بالتوحيد والعبادة يؤخذ مثله على الأمة المحمدية، وهذه حكمة ذكر قصصهم لنا وسرد مساوئهم علينا، لنحذر الوقوع فيما وقعوا فيه، فينالنا ما نالهم.

ثم ثنت ببيان حقوق الناس فبدأت بأحقهم بالإحسان وهما الوالدان لما لهما من فضل الولادة والعطف والتربية قال تعالى: { وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا }، وقال: { وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا } لقمان 15/14، وقال: { وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا } 24/23. وقال الرسول صلى الله عليه وسلم: (الوالد أوسط أبواب الجنة فإن شئت فأَضِعْ ذلك البابَ أو احفظه)، وسأله رجل: من أولى الناس بحسن الصحبة مني؟ قال:(أمك) مرتين، قال: ثم من؟ قال: (أبوك).

والإحسان إلى الوالدين هو رعايتهما والإنفاق عليهما وتلبية حاجاتهما وعدم الإساءة إليهما بالقول والعمل والإشارة والتعريض، والدعاء لهما حيين وميتين، ودعوتهما إلى الإيمان والعمل الصالح بالرفق والتؤدة إن كانا فاسقين، ومعاشرتهما بالمعروف إن كانا كافرين.

أما ذوو القربى في قوله تعالى { وَذِي الْقُرْبَى } فهم القرابة من الأب والأم أصولا وفروعا، والأصهار من جهة الذكور والإناث، قال تعالى: { وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا } الفرقان54، وعن عبد الملك بن ميسرة قال: (سَمِعْتُ طَاوُسًا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ قَوْلِهِ { إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى } فَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: قُرْبَى آلِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: عَجِلْتَ، إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَكُنْ بَطْنٌ مِنْ قُرَيْشٍ إِلَّا كَانَ لَهُ فِيهِمْ قَرَابَةٌ، فَقَالَ: إِلَّا أَنْ تَصِلُوا مَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ مِنَ الْقَرَابَةِ)، وعن عمرو بن عبسة قال:(أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في أول ما بعث وهو بمكة وهو حينئذ مستخف، فقلت: ما أنت؟ قال: أنا نبي، قلت: وما النبي؟ قال: رسول الله، قلت: بما أرسلك؟ قال: بأن يعبد الله وتكسر الأوثان وتوصل الأرحام بالبر والصلة).

والإحسان إلى ذوي القربى يكون بوصلهم وعدم قطيعتهم، وإعانة محتاجهم وعيادة مريضهم والفرح لفرحهم والحزن لحزنهم، والمسارعة إلى قضاء حوائجهم وتفريج كربهم، ودعوتهم إلى مكارم الدين والأخلاق بالحسنى.

ثم يأتي بعد ذلك أو معه حق اليتامى والمساكين والفقراء والمستضعفين في الإحسان والبر والرعاية والإرشاد { وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ }.

ثم حق الناس كلهم في القول الحسن والمعاملة الحسنة { وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا }، إذ القول الحسن ثمرة للمعاملة الحسنة، وإلا كان القول نفاقا ورياء، قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ } الصف2.

بهذه التوجيهات الربانية يعم إحسان المؤمن جميع مناشط حياته، على دوائر تتسع باتساع التكاليف الشرعية التي تضمنها الميثاق:

- دائرة العبادة لله وحده لا شريك له، وهو ما قرره رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال:(الْإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ).
- ودائرة الوالدين { وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا } .
- ودائرة القربى { وَذِي الْقُرْبَى } .
- ودائرة اليتامى والمساكين { وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ }
- ودائرة الناس جميعا { وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا } .

كما وسَّعَت النصوصُ الشرعية دائرة الإحسان لتشمل كل ذي كبد رطبة فيما رواه مالك في الموطأ (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ إِذْ اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ فَوَجَدَ بِئْرًا فَنَزَلَ فِيهَا فَشَرِبَ وَخَرَجَ فَإِذَا كَلْبٌ يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثَّرَى مِنْ الْعَطَشِ فَقَالَ: الرَّجُلُ لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الْكَلْبَ مِنْ الْعَطَشِ مِثْلُ الَّذِي بَلَغَ مِنِّي فَنَزَلَ الْبِئْرَ فَمَلَأَ خُفَّهُ ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ حَتَّى رَقِيَ فَسَقَى الْكَلْبَ فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَإِنَّ لَنَا فِي الْبَهَائِمِ لَأَجْرًا؟ فَقَالَ: فِي كُلِّ ذِي كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ)، ليكون الإحسان في نهاية المطاف هو القاعدة الراسخة التي بنيت عليها العبادة في كل دين أرسل به أنبياء الله، قال تعالى: { وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ } البقرة195، وقال: { وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى }، وقال صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ).

ثم أردف مراتب الإحسان هذه بأمر إقامة الصلاة وفيها بعد حَقّ الله في العبادة حقٌّ للخلق في الانتهاء عن الفحشاء والمنكر، وإيتاء الزكاة وهي حق ذوي الحاجات من الفقراء والمساكين، قال تعالى: { وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ } .

هذا فصل من بنود ميثاق بني إسرائيل الذي واثقهم به الله تعالى، فكيف كان وفاؤهم به؟

أما إحسان التوحيد والعبادة فالعجل شاهد على شركهم الصريح.

وأما الإحسان إلى الوالدين فينبئك عنه ما وصموا به آباءهم الأنبياء إبراهيم ويعقوب وداود وغيرهم من تهم بالفواحش التي يندى لها الجبين، مما حشوا به زورا وبهتانا كتبهم بدءا من التوراة المحرفة، وانتهاء بتلمودهم المنتحل المزور.

وأما اليتامى والفقراء والمساكين فقد ضيعوهم وسخروهم في محاربة الدعوات الصادقة والتشهير بأهل الحق نظير رشى سموها صدقات.

وأما القول الحسن للناس فقد عبروا عنه بقولهم: { لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ } آل عمران75.

وأما الصلاة والزكاة فقد وظفوهما لاستغفال العامة وابتزازهم.

لقد كان ميثاق بني إسرائيل لهم إرشادا قيما يعينهم على أن يحسنوا صلتهم بالخالق والمخلوق، عبادة خالصة لله تعالى، أداء للصلاة والزكاة يفعم حياتهم بشذا الأمن وعبق الإيمان، ومعاملة بين الناس تنشر المحبة والمودة والتعاون على البر، وتكافلا اجتماعيا يحقق الكفاية والرخاء، وكان عليهم أن ينتفعوا بهذه التشريعات الربانية، لكنهم عموا وصموا وعصوا، شركا وعقوقا وإساءة للأقارب وخذلانا لليتامى والمساكين، وفحشا في معاملة الخلق، وتركا للصلاة ومنعا للزكاة، وقطعا لما أمر الله به أن يوصل، فكان لابد من صدور الحكم الإلهي العادل عليهم مستثنيا من أسلم منهم صادقا في زمني موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، وهم قلة قليلة، قال تعالى: { ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ }، في إشارة واضحة إلى أن إعراضهم عن الحق عادة متأصلة فيهم لا يرجى لهم منها شفاء، وأن وجود عدد قليل من المخلصين في الأمة لا يمنع نزول العقاب بها متى فشا المنكر في الأكثرين. قال صلى الله عليه وسلم: (أوحى الله عز وجل إلى جبريل عليه السلام: أن اقلب مدينة كذا وكذا بأهلها، قال: يارب إن فيهم عبدك فلانا لم يعصك طرفة عين، قال: اقلبها عليه وعليهم فإن وجهه لم يَتَمَعَّر في ساعةً قطّ) أي لم يتلوّنْ وَجْهُه غَضَبا لله.

هذه بعض بنود الميثاق المأخوذ على بني إسرائيل، توحيدا اعتقاديا وعمليا، في القلب والبدن والمال، بصفتهم أفرادا في أسرة واحدة، إلا أنه كان لابد من بنود أخرى تحفظ وحدتهم وتقي صفهم شر التمزق والتخاذل، وتأخذ بيدهم إلى الهدف الأسمى الذي ابتعثوا له، بصفتهم أمة الرسالة والاستخلاف وقيادة البشرية، لذلك حرم الله تعالى عليهم في التوراة سفك دماء بعضهم ظلما وعدوانا، وإخراج بعضهم من ديارهم أو طردهم من بين أهلهم وتشريدهم بغير الحق. وهو ما يذكرهم به رب العزة تعالى، تعدادا لجرائمهم وكبائر آثامهم بقوله: { وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ }، أي اذكروا إذ حرم عليكم ميثاقكم أن يقتل بعضكم بعضا، أو أن يريق بعضكم دماء بعض، أو يطرد بعضكم بعضا من ديارهم، بصفتكم أهل ملة واحدة وبمثابة نفس واحدة، تسيرون لهدف واحد هو عبادة الله ونشر دينه بين عباده، وإذ اعترفتم بهذا الميثاق وتلوتم نصوصه في التوراة يوم رفع الطور فوق رؤوسكم { ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ }، وورثتم تشريعاته كما ورثتها أمم الرسالة من يوم هبوط آدم عليه السلام إلى قيام الساعة، كلها كالكتيبة الواحدة المتماسكة سوقا وتعبئة، تكافلا وتراحما وتعاونا على البر والتقوى، قال عليه الصلاة والسلام:(مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى). وبدلا من أن تحفظوا وحدتكم وتحقنوا دماءكم وتوفروا الأمن لأمتكم في الأنفس والديار والأموال والأعراض، وتؤدوا ما نيط بكم من تكاليف العبادة والدعوة إلى التوحيد، وتكونوا يدا واحدة على من سواكم من المشركين وعبدة الأوثان، ها أنتم تعينون عدوكم بالإثم والعدوان والمعصية والظلم على أهل ملتكم، وتساهمون معه في سفك دماء إخوانكم، وتشريدهم وهتك أعراضهم وسبي أبنائهم وبناتهم وزوجاتهم وإخراجهم من بيوتهم { ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ }، ثم تبالغون في السخرية بالميثاق والاستهانة بتعاليمه والتلاعب بتوجيهاته فتتصنعون

الامتثال للدين بتذكر أسرى عدوانكم وظلمكم لتفدوهم من آسريهم بالمال { وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ }، متغافلين عن أن قتلهم وإخراجهم من بيوتهم محرم عليكم ابتداء { وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ }.

ولئن كان الخطاب في هذه الآيات الكريمة موجها إلى عموم بني إسرائيل وقد سقطوا في هذه الموبقات عبر مسيرتهم الطويلة، فإنها تعني مباشرة يهود المدينة في علاقتهم مع بعضهم وعلاقتهم مع حلفائهم الوثنيين من الأوس والخزج، وكان يهود بني قريظة حلفاء للأوس، ويهود بني النضير وبني قينقاع حلفاء للخزرج، فلما قامت في الجاهلية حرب" سُمَيْر" وكانت بين الأوس والخزرج أعان بنو قريظة حلفاءهم من الأوس، وبنو قينقاع وبنو النضير حلفاءهم من الخزرج، وقتل بذلك اليهود من الطرفين، وخربت ديارهم وشردوا من بيوتهم، وأسر لدى الأوس منهم فريق ولدى الخزرج منهم فريق، ثم لما انتهت الحرب، جمع اليهود الأموال لفداء الأسرى لدى الطرفين المتحاربين، فعيرتهم العرب وقالوا لهم: تقاتلونهم وتفدونهم؟!، فقال اليهود: قد أمرنا أن نفديهم وحُرم علينا قتالهم، قالوا: فلم تقاتلونهم؟ قالوا: إنا نستحي أن يُذَل حلفاؤنا.

وهذا القول منهم مجرد تبرير وغطاء لسياستهم الذليلة الخائرة التي تمسك دائما العصا من وسطها فيكونون مع الشيء وضده والخصم وخصمه، مندسين في هؤلاء وأولئك متخذين من الطرفين المتعادين والمعسكرات المتطاحنة مجالا للمناورة والمكر والكسب الحرام والحفاظ على المصالح الخاصة، وهي مزاجية اليهود في التعامل مع الحق دائما، خطة من لا يثق بالله، ولا يعتمد على نصره، ولا يركن إلا إلى الدهاء والمكر والمناورة.

لذلك وبخهم رب العزة تعالى على ذلك فقال: { أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ } وهو وجوب فداء الأسرى، { وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ } وهو تحريم قتل إخوانكم وإخراجهم من بيوتهم، { فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ } أي: ذل وهوان { فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا }، وهو ما أوقعه المسلمون بيهود المدينة قاطبة من سبي وقتل وهزيمة وجزية وجلاء.

ودفعا لما قد يتوهمونه من أن عذابهم في الدنيا كفارة لذنوبهم أو سبب للتخفيف عنهم في الآخرة بَيَّنَ عز وجل أن ما ينتظرهم يوم القيامة أشدُّ وأنكى فقال: { وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ }، وهو عز وجل لهم بالمرصاد فيما يستقبل من أعمالهم في الحياة الدنيا { وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ }.

ثم في نهاية المطاف يكشف رب العزة في التفات واضح للأمة الإسلامية تقريرا وتحذيرا، أصل الداء في النفسية اليهودية التي تنقض العهود والمواثيق، وتتاجر بدماء أبنائها وأمنهم وأعراضهم واستقرارهم في سوق النخاسة السياسية بتحالفاتها مع أعداء ملتها من الوثنيين والمشركين فيقول: { أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآَخِرَةِ }، إنه حب الدنيا وإيثارها على الآخرة، بيعهم الآخرة وشراؤهم الدنيا، إعراضهم عن الخير الدائم، وإقبالهم على الزخرف الزائل { فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ } الموعودون به في الدنيا والآخرة { وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ } وليس لهم ناصر أو شفيع ينقذهم مما يصب فوق رؤوسهم يوم القيامة من العذاب.

ليس لنا أن نطيل فنقارن ما اقترفه اليهود في حق دينهم وأمتهم وميثاقهم، بما تقترفه الأمة الإسلامية في هذا العصر، وقد قاتل مسلمون تحت راية صهيونية مسلمين آخرين يقاتلون تحت راية شيوعية، وتذابح مسلمون من أعوان الصليب مع مسلمين موالين للمعسكر الشيوعي، وسَلَّمَ مسلمون من الطرفين خِيارَ أبنائهم لأعدائهم بدل أن يُفادوهم، أما بنود الميثاق مع الله فما المسلمون في هذا العصر بأقل استهانة بها من اليهود !.

ويبقى السؤال المطروح... هل يسير المسلمون في عصرهم هذا على نهج بني إسرائيل شبرا بشبر وذراعا بذراع حذو القُذَّةِ بالقُذَّةِ؟، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لَيَحْمِلَنَّ شِرَارُ هَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى سَنَنِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلِ الْكِتَابِ حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّة)، وقال: (لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَن كَانَ قَبلَكُم شِبرا بِشِبر وذراعا بذراع وَباعاً بِبَاع حتى لو أن أحدهم دخل جُحرَ ضَبٍّ دَخلتُم)، وقال أيضا:(لَيَكُونَنَّ مِنْ أُمَّتِي أَقْوَامٌ يَسْتَحِلُّونَ الْحِرَ (أي الزنا) وَالْحَرِيرَ وَالْخَمْرَ وَالْمَعَازِفَ، وَلَيَنْزِلَنَّ أَقْوَامٌ إِلَى جَنْبِ عَلَمٍ (جبل) يَرُوحُ عَلَيْهِمْ بِسَارِحَةٍ لَهُمْ (ماشية ترعى)، يَأْتِيهِمْ (يَعْنِي الْفَقِيرِ) لِحَاجَةٍ، فَيَقُولُونَ: ارْجِعْ إِلَيْنَا غَدًا، فَيُبَيِّتُهُم اللَّهُ (أي يهلكهم) وَيَضَعُ الْعَلَمَ (الجبل عليهم) وَيَمْسَخُ آخَرِينَ قِرَدَةً وَخَنَازِيرَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ).

أم أن المسلمين سبقوا بني إسرائيل إلى مصير بَدَتْ معالِمُه في العراق وفلسطين وأفغانستان والسودان...وغيرِ ذلك من بلدان المسلمين الراتعةِ في الذل والمهانة والاستضعاف والفساد؟ هل نحن على خُطَى بني إسرائيل أم نافسناهم على الضلال وسبقناهم إليه؟!

الحسد مرض يهودي
ورثه المنافقون في كل عصر

قال الله تعالى: { وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ (87) وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ (88) وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (89) بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (90) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (91) وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (92) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (93) } سورة البقرة

يستمر السياق القرآني في تعداد آثام بني إسرائيل التي استحقوا بها الحكم الصارم بخلودهم في النار كما ورد في الآيات السابقة في قوله تعالى: { أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ }، فيخبر الله تعالى بأن تصرفاتهم وقد أحاطت بهم خطيئتهم واستحقوا الخلود في النار، لم تكن انحرافا طارئا أو جهلا غالبا، أو عنادا مزاجيا عابرا، بل لفساد متأصل في نفوسهم منعهم الاستقامة وحرمهم الصدق في الإيمان والوفاء للميثاق الذي في ذمتهم، ولطالما كبا بهم السير وتعثرت خطواتهم وسبقتهم شقوتهم، فكانت رحمة الله تعالى وعفوه ومغفرته بلسما لآثامهم، وعلاجا لأخطائهم، إلا أن ما بلغه انحدارهم في دركات الكفر والمعصية برهان على أن قلوبهم قد ختم عليها، وحيل بينها وبين الهداية، لذلك أخذ الوحي يعدد في هذه الآيات الكريمة ما قدمه الله لهم من معالم الهداية والرشد، ونفحات العناية الربانية في كل جيل، تثبيتا لهم على الحق، وتجديدا لإيمانهم في كل عصر، بإنزال الكتب وإرسال الرسل، ويرد على أباطيل

أقوالهم وحججهم، ليتضح للعقلاء منهم ومن غيرهم أن ما حاق بهم من لعنة ووعيد بالخلود في النار عدل صرف لا ظلم فيه.

ولمَّا كانوا يَدَّعون أنهم متمسكون بكتابهم عاملون به وهو حسبهم، فقد أكذبهم القرآن الكريم وأخذ يبين بعضا آخر من جناياتهم وما جرى به سابق عاداتهم، وقد أمروا بأشياء ونهوا عن أشياء، فخالفوا أمر الله ونهيه، موضحا أن التوراة التي يزعمون العمل بها لم تأمرهم بعصيان الرسل وقتل الأنبياء، وقال معقبا على هذه الدعوى: { وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ }، وهو التوراة فيه هدى ونور كما قال تعالى: { إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُور } المائدة 44، وكان عليهم أن يتدارسوه ويعملوا به، لأنه نعمة لهم فيه أحكامهم وشرائعهم، ومعالم طريق هدايتهم، ثم لم يَدَعْهُم عز وجل هَمَلاً بعد موسى، بل قفَّى من بعده بالرسل متابعة وتجديدا لأمر دينهم، وتأكيدا للميثاق الذي في أعناقهم، فقال: { وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ } قفينا أي أَتْبَعْنا، من قفوت الأثر إذا اتبعته، وقفوت الرجل إذا سرت في أثره، والأصل أن يجيء الإنسان تابعاً لِقَفَا الذي اتَّبعه، ثم تُوُسِّعَ في استعمال اللفظ حتى صار لمطلق الاتِّباع وإن بعُدَ زمان المتبوع من زمان التابع، والمعنى أنه تعالى أردف لهم من بعد موسى على سبيل التواتر والتتابع برسل مرشدين وهادين ومعلمين، منهم يوشع وداود، وسليمان، وإلياس، ويونس، وزكريا، ويحي، وغيرهم. ثم جاءكم عيسى بالمعجزات الباهرة والآيات الواضحة التي لا مِرْيَةَ فيها لذي عقل، دلالة على صدقه وصحة نبوته، كالإنجيل وإبراء الأمراض المستعصية وإحياء الموتى، والإخبار ببعض المغيبات، وخلقه من الطين كهيئة الطير ثم ينفخ فيه فيكون طائرا بإذن الله { وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ}، مؤيدا من الله { وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ }، والتأييد التقوية والنصر، بإظهار حجته ومعجزاته، ودفع أذى بني إسرائيل عنه إذ أرادوا قتله، والقدس لغة هو الطهر، ومنه قيل للجنة " حظيرة القدس "كما ورد في مسند أحمد من قوله صلى الله عليه وسلم عن ربه عز وجل في تحريم الخمر:(....وَلَا يَدَعُهَا عَبْدٌ مِنْ عَبِيدِي مِنْ مَخَافَتِي إِلَّا سَقَيْتُهَا إِيَّاهُ مِنْ حَظِيرَةِ الْقُدُسِ)، والتقديس اصطلاحا هو تنزيه الله تعالى، ومنه ما ورد في القرآن الكريم: { وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ } البقرة 30.

ولئن ذهب بعض المفسرين إلى القول بأن روح القدس في هذه الآية تعني الإنجيل، وهو روح من أمر الله مثل القرآن الكريم في قوله تعالى: { وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا } الشورى52. فإن أرجح الأقوال أنه جبريل عليه السلام لقوله تعالى قبل نزول الإنجيل: { إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلا } المائدة 110، وجبريل عليه السلام طاهر وينزل بالقدس من الله قرآنا وحكمة يطهر بهما النفوس والأفئدة، كما في قوله تعالى: { قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ } النحل 102، وقوله: { نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ } الشعراء 194/193، وفي حديث

مرسل عن شهر بن حوشب أن اليهود سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الروح، قالوا: فأخبرنا عن الروح، قال: (أنشدكم بالله وبآياته عند بني إسرائيل، هل تعلمون أنه جبريل، وهو الذي يأتيني؟) قالوا: نعم، ولكنه لنا عدو.

ثم التفت الخطاب القرآني إلى يهود عصر البعثة النبوية توبيخا وتقريعا لما يتمسكون به من أخلاق آبائهم تعنتا واستكبارا وتكذيبا وعدوانا، إشارة إلى أنهم استكبروا عن تلقي القرآن والإيمان به، وكذبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحاولوا قتله بالسم مرة وبالحجارة من فوق بعض السطوح مرة أخرى، فقال سبحانه وتعالى: { أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ }، وقد وردت هذه الآية الكريمة بأسلوب استفهام تعجبي من ضلال مواقفهم، إنكاري لسوء تصرفاتهم، للدلالة على أن شمول تكذيبهم لجميع الرسل وعدوانهم عليهم، عام في جميع الأزمنة والأمكنة ومع جميع الرسالات السماوية. وما تكذيبهم إلا عن هوى طائش يمنيهم بأن يكون الوحي تبعا لرغباتهم وتحت حاكميتهم، وإعجابٍ بالنفس أوهمهم أنهم أعلى من أن يطيعوا الرسل أو يكونوا أتباعاً لهم، وغرورٍ زائفٍ بتفضيل سابق استبدلوا به لعنة وطردا. وكلما جاء الأمر على خلاف ما يهوون ويرجون وانكشف زيف ما يؤملون، انطلقت مزاجيتهم الرعناء عدوانا آثما على الأنبياء والرسل، بدءا بالتكذيب والسخرية والاستهزاء وحملات التشويه والافتراء، وانتهاء بالمطاردة والقتل.

وبعد أن بَيَّن القرآن وجهين لاستكبارهم، هما التكذيب والتقتيل، التفت بأسلوب الغياب يبين وجها ثالثا لاستكبارهم، بنوع من الازدراء لتهافت عقولهم وأقوالهم ومحاولتهم التنصل من مسؤولية رسالة القرآن الذى بلغهم، فقال مخاطبا المؤمنين مجريا على اليهود ضمير الغيبة: { وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ }، والغُلْف جمع أغْلَف، مشتق من فعل" غَلَّف الشيء " إذا جعل له غِلافاً، وهو الوعاء الحافظ له، ومنه غلفت الكتب أو القارورة: إذا جعلت لها غلافا، والقلب الأغلف ما كان عليه غشاء عن سماع الحق وقبوله، ويحتمل قولهم هذا معنيين: الأول يؤكد استكبارهم المشار إليه سابقا، وهو أن قلوبهم أوعية امتلأت علما بحيث لم تعد في حاجة إلى مزيد تعلم من الرسول صلى الله عليه وسلم أو من غيره، والمعنى الثاني تعريض بالرسول عليه الصلاة والسلام وتحد له وإغاظة، وردٌّ على وصفه قلب الكافر بالأغلف، إذ قال فيما رواه البخاري: (الْقُلُوبُ أَرْبَعَةٌ: قَلْبٌ أَجْرَدُ فِيهِ مِثْلُ السِّرَاجِ يُزْهِرُ، وَقَلْبٌ أَغْلَفُ مَرْبُوطٌ عَلَى غِلَافِهِ، وَقَلْبٌ مَنْكُوسٌ، وَقَلْبٌ مُصْفَحٌ. فَأَمَّا الْقَلْبُ الْأَجْرَدُ فَقَلْبُ الْمُؤْمِنِ سِرَاجُهُ فِيهِ نُورُهُ، وَأَمَّا الْقَلْبُ الْأَغْلَفُ فَقَلْبُ الْكَافِرِ، وَأَمَّا الْقَلْبُ الْمَنْكُوسُ فَقَلْبُ الْمُنَافِقِ عَرَفَ ثُمَّ أَنْكَرَ، وَأَمَّا الْقَلْبُ الْمُصْفَحُ فَقَلْبٌ فِيهِ إِيمَانٌ وَنِفَاقٌ، فَمَثَلُ الْإِيمَانِ فِيهِ كَمَثَلِ الْبَقْلَةِ يَمُدُّهَا الْمَاءُ الطَّيِّبُ، وَمَثَلُ النِّفَاقِ فِيهِ كَمَثَلِ الْقُرْحَةِ يَمُدُّهَا الْقَيْحُ وَالدَّمُ، فَأَيُّ الْمَدَّتَيْنِ غَلَبَتْ عَلَى الْأُخْرَى غَلَبَتْ عَلَيْهِ)، وكأنهم يردون عليه بقولهم: إننا كما وصفت، قلوبنا غلف، فانصرف عنا ولا حاجة لنا بدعوتك. وما قصدوا بذلك إلا التهكم بالمسلمين وتيئيسهم من إسلامهم كقول المشركين: { وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ } فصلت5، ولذلك عقب تعالى بنفي ادعائهم وتسفيه استكبارهم فقال: { بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ }، أي أن ما يحول

بينهم وبين الإيمان ليس إلا لعنة الله التي حلت بهم وأبعدتهم عن الرحمة والخير، عقابا على تمسكهم بالكفر وإصرارهم على الجحود، وجراءتهم على العدوان وقتل الأنبياء والرسل ونقض المواثيق. اللعنة التي أفقدتهم التبصر والفهم وأبعدتهم عن التوفيق والسداد، ومنعتهم الإيمان ﴿ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ ﴾ إذ القلة لغةً تُستعمَل في معنى النفي على لغة قوم من العرب، يقولون: قلما رأيت مثل هذا الرجل، وهم يريدون: ما رأيت مثله، وكما تقول" فلان قليل الحياء " أي عديمه، وإلى ذلك ذهب الزمخشري في تفسير قوله تعالى: ﴿ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴾ النمل62، وقد تكون الآية إشارة إلى قول المنافقين من يهود في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آَمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آَمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آَخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ آل عمران72، أو إلى إيمانهم ببعض الكتاب وكفرهم ببعض كما في قوله تعالى: ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾. ومجمل المعنى أنهم بادؤوا الله بالإصرار على الكفر والجحود والعصيان والعدوان، فكان جزاؤهم الطرد والحيلولة بينهم وبين الانتفاع بالهدى.

ولئن آتى عز وجل بني إسرائيل الكتاب وبعث فيهم موسى وقفى على إثره بالرسل فعموا وصموا ثم زاغوا وطغوا فلعنوا، فإن فهم غير المنطوق من المنطوق بسياق الكلام ومقصوده، يقتضي ألا ننسى أن كل أمة تعمل بعمل بني إسرائيل ينالها ما نالهم، وأنه تعالى تحت طائلة نفس التذكير والتحذير، بعث أيضا في المسلمين محمدا صلى الله عليه وسلم، وآتاهم القرآن، وقفى عليه بالعلماء الصادقين في كل عصر، يتدارسونه ويُثَوِّرونه ويهتدون بهديه، والدعاة إلى الله لا ينقطعون ما دام الدين قائماً، قال تعالى: ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ التوبة122، وقال عليه الصلاة والسلام:(يحمل هذا العلمَ من كل خَلَفٍ عُدُولُه يَنْفُون عنه تحريفَ الغالِين وانتحالَ المُبْطلين وتأويلَ الجاهلين)، وقال:(يبعث الله على رأس كل مائةٍ مَنْ يجدد لهذه الأمة أمرَ دينها).

وبعد أن بين الوحي نهجهم في التعامل مع كتابهم " التوراة "، أخذ يشرح صنفا آخر من أمراضهم النفسية والخلقية، أنانية وحسدا جعلاهم يتميزون من الغيظ إذ رأوا نعمة الإمامة وكرامة النبوة تساق لغيرهم من بني إسماعيل عليه السلام، ويعرضون عن الإيمان بالحق الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، وبشرتهم به التوراة من قبل فعرفوه حق المعرفة وتنكروا له أيما تنكر، قال الله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ وهو القرآن الكريم، وفي التأكيد بأنه من عند الله حث على وجوب تلقيه بالقبول وحسن الطاعة لأنه صادر من الحكيم الخبير، ﴿ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ ﴾ موافق ومؤيد لما في التوراة من أصول الدين توحيدا خالصا وإن كان مخالفا لأحكامه الشرعية العملية، ومن البشارة بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم. وما كفرهم بالقرآن الكريم إلا كفر بكتابهم نفسه لو كانوا يعقلون.

أما قوله تعالى: ﴿ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾، فإن الاستفتاح معناه طلب الفتح وفصل القضاء كما في قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا افتح بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بالحق ﴾، كما يفيد معنى النصر في قوله تعالى: ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ الفتح ﴾ أي: إن تستنصروا فقد جاءكم النصر، وذلك أن بني

إسرائيل كانوا قبل البعثة النبوية يستنصرون على مشركي العرب إذا نازعوهم، بنبي يبعث قريبا، يجدون نعته وصفته في التوراة، { فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ } جاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفس النعوت والصفات المذكورة في التوراة فعرفوه حق المعرفة، إلا أن ما جبلوا عليه من الحسد والغيظ وما ملأ قلوبهم من الخوف على الرئاسة والأموال والمنزلة بين العامة، حال بينهم وبين الإيمان وأركسهم في المحاربة والعصيان، فطردوا من رحمة الله ولعنوا بقوله تعالى فيهم: { فَلَعْنَةُ الله عَلَى الكافرين }.

وقد روى المفسرون في سبب نزول هذه الآية آثارا متعددة، من ذلك ما جاء عن عاصم بن عمرو بن قتادة الأنصاري عن رجال من قومه قالوا: مما دعانا إلى الإسلام مع رحمة الله وهداه، أنا كنا نسمع من رجال يهود حين كنا أهل شرك وكانوا أهل كتاب عندهم علم ليس عندنا، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور، فكنا إذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا: قد تقارب زمان نبي يبعث الآن، نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم، فلما بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم رسولا من عند الله أجبنا حين دعانا إلى الله وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به فبادرناهم إليه، فآمنا به وكفروا به، ففينا وفيهم نزل قوله تعالى: { ولَمَّا جَآءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ الله...الآية }

وعن ابن عباس أن يَهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه. فلما بعثه الله من العرب كفروا به، وجحدوا ما كانوا يقولون فيه. فقال لهم معاذ بن جبل، وبشر بن البراء بن مَعْرُور، أخو بني سلمة: يا معشر يهود، اتقوا الله وأسلموا، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد صلى الله عليه وسلم ونحن أهل شرك، وتخبروننا بأنه مبعوث، وتصفُونه لنا بصفته. فقال سَلام بن مِشْكم أخو بني النضير: ما جاءنا بشيء نعرفه، وما هو بالذي كنا نذكر لكم، فأنزل الله في ذلك من قولهم: { وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ }.

وعن سلمة بن سلامة بن وقش، وكان من أهل بدر قال: كان لنا جار يهودي في بني عبد الأشهل، فخرج علينا يومًا من بيته قبل مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بيسير، حتى وقف على مجلس بني عبد الأشهل. قال سلمة: وأنا يومئذ أحدث من فيهم سنًّا على بردة مضطجعًا فيها، فذكر البعث والقيامة والحسنات والميزان والجنة والنار، قال: ذلك لأهل شرك، أصحاب أوثان لا يرون بعثًا كائنًا بعد الموت، فقالوا له: ويحك يا فلان، ترى هذا كائنا، أن الناس يبعثون بعد موتهم إلى دار فيها جنة ونار، يجزون فيها بأعمالهم؟ فقال: نعم، والذي يحلف به، لَوَدَّ أن له بحظه من تلك النار أعظم تنور في الدنيا يحمونه ثم يدخلونه إياه فيطبق به عليه، وأن ينجو من تلك النار غدًا. قالوا له: ويحك وما آية ذلك؟ قال: نبي يبعث من نحو هذه البلاد، وأشار بيده نحو مكة واليمن. قالوا: ومتى نراه؟ قال: فنظر إليّ وأنا من أحدثهم سنًّا، فقال: إن يستنفذ هذا الغلام عمره يدركه. قال سلمة: فوالله ما ذهب الليل والنهار حتى بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم وهو بين أظهرنا، فآمنا به وكفر به بغيًا وحسدًا، فقلنا: ويلك يا فلان، ألست بالذي قلت لنا؟ قال: بلى وليس به.

ثم عقب تعالى بحكمه على موقفهم من الرسالة الجديدة فقال: { بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ } ولفظ شرى واشترى من أفعال الأضداد تفيد حسب السياق معنى البيع كما في قوله تعالى: { فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ } النساء 74، كما تفيد معنى الشراء كما في قوله تعالى: { إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ } التوبة 111.ثم فصل طبيعة صفقة البيع هذه بقوله تعالى: { أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ } أي أنهم باعوا أنفسهم للكفر وبالكفر في صفقة خاسرة بئيسة، كان الكفر فيها هو المشتري وهو الثمن، هو التاجر الذي تَمَلَّكَهم بالشراء, وهو القيمة المعادلة لهم، وصفقة هذه مواصفاتها لعمري أبخس الصفقات وأكثرها خسارا. لقد باع بنو إسرائيل أنفسهم للضلال، واستساغوا الركون إلى الكفر على علم بالحق وأهله قرآنا ونبوة خاتمة، فبئست الصفقة مبناها على الحسد، وخاب البيع مرتكزه على البغي، ودافعه كراهة أن ينزل الله فضل النبوة على غيرهم من ولد إسماعيل عليه السلام.

إنه الحسد، عقيدة بني إسرائيل على مر الدهور، عبادة النفس المقنعة بعبادة الله، وخلق الأثرة التي تضيق بكل خير يناله غيرها، وأخلاق مرضى القلوب من المنافقين وضعاف الإيمان والواهين بحب المنصب والمال والجاه والقرب من الظالمين، يحسدون الصادقين على صدقهم والصامدين على صمودهم، والثابتين على الحق على ثباتهم، والشهداء على شهادتهم، فيفعلون بهم ما فعل بنو إسرائيل بالأنبياء والرسل والشهداء والصديقين، وشايةً عند الحكام، وتشويها للسمعة لدى العامة، ووصما بالتهور والاندفاع وحب الظهور والرياء، وما ذلك منهم إلا لحسد ملأ صدورهم وغيظ حقن أفئدتهم، وخوف من أن يفضح صمود أولئك تهاوي هولاء، وشجاعة أولئك جبن هؤلاء، وحرص أولئك على الآخرة حرص هؤلاء على الدنيا.

وكما هو شأن اليهود إذ قال عنهم رب العزة: { وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقّ } البقرة 109، يود المنافقون في كل عصر أن يردوا المؤمنين الصادقين عن صدق إيمانهم، فينهار الصامدون مثل انهيارهم، ويخونوا مثل خيانتهم، ويتملقوا طلبا للدنيا مثل تملقهم، فلا تبقى في الساحة نماذج حية تفضح حالهم ونفاقهم، أو رجال شم وقلوب قوية واثقة بربها وحده متجهة إليه بالعبادة خوفا ورجاء وتوكلا وخشية ومحبة، غير مبالية بما تلقى في الدنيا من فتن وبلاء لأن حبها لله ملأ المهج منها نورا، فأقام خطوها على الطريق وأفئدتها على الصراط.

لذلك عقب تعالى بذكر مصير المتصفين بهذه الأخلاق الذميمة الدنيئة في كل زمان ومكان بقوله: { فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ }، أي رجعوا متلبسين بغضب الله المضاعف، واحتملوا عقوبتهم المستحقة المقدرة المعادلة لكفرهم، عذابا مهينا مذلا في جهنم، من فعل"باء يبوء" أي رجع، واحتمل، وعادل، إذ ليس لكفرهم معادل إلا الخلود في النار، كما يقال: باءَ دمُ فلان بدم فلان، إذا عَدَلَه وقُتِل به وصار دمُه بدمِه.

وكعادة المنافقين في كل عصر إذ ينكرون الحق الذي عند المحقين، ويتظاهرون بالمعرفة والدين، ويعتزون بما لديهم من الإثم والباطل عن علم وهم شاهدون، كان بنو إسرائيل إذا خوطبوا بالقرآن وقد أنزل من الله للبشر كافة، مصدقا ومؤيدا لما في التوراة والإنجيل، تذرعوا بمعاذير كاذبة، وتترسوا بادعاء أن دينهم أمرهم ألا يؤمنوا إلا بكتابهم التوراة، وأن يكتفوا به وحده، ويكفروا بما جاء بعده ولو كان مصدقا للتوراة شاهدا بصحتها، قال تعالى: { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آَمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ }، لذلك رد القرآن عليهم حجتهم المزيفة بفضح ادعائهم الإيمان بالتوراة ونعى عليهم تناقض عملهم وما يزعمون أنهم مؤمنون به، وأحصى عليهم ثلاث نقائض صارخة تنفي إيمانهم بالتوراة:

أولها قوله تعالى: { قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ }، أي قل يا محمد لهم إن التوراة التي تزعمون الإيمان بها والاكتفاء بها تحرم عليكم قتل النفس البشرية مطلقا وقد خاطبكم التوراة بما أخبرنا به القرآن الكريم من قوله تعالى: { مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا }، وأنتم اجترأتم على قتل أشرف النفوس وأكرمها عند الله، نفوس الأنبياء والمرسلين، فمن أين لكم استباحة الدماء عامة ودماء الرسل بخاصة؟

وثانية نقائض بني إسرائيل وتناقضاتهم الفاضحة تذكيره تعالى بما سلف من كفر آبائهم وعودتهم إلى الوثنية بمجرد غياب نبيهم موسى لميقات ربه، وهو تصرف لا يشي بثبات الإيمان في قلوبهم أو رسوخه في أفئدتهم، قال تعالى: { وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ }، فهل التوراة التي تزعمون الإيمان بها هي التي أمرتكم بعبادة العجل؟

وثالثة الأثافي عندما سألوا موسى أن يأتيهم بكتاب من ربهم يكون لهم مرجعا في أمر دينهم ودنياهم، ثم جاءهم به فاستثقلوا تكاليفه وأعرضوا عنه، ثم عادوا لقبوله بقولهم: { سَمِعْنَا } خوفا من الطور المرفوع فوق رؤوسهم، فلما خلصوا إلى الأمن عصوا فلم يطبقوا تعاليم التوراة وأحكامه، وقالوا بأعمالهم وتصرفاتهم: { عَصَيْنَا}، وهو الحجة الثالثة على عدم إيمانهم إيمانا صحيحا بكتابهم الذي يتترسون به، في مواجهة الحق الذي أتاهم به النبي صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: { وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آَتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا } وما كفرهم وجحودهم ورفضهم دعوة الحق إلا لما ركب في طباعهم من حب للدنيا أشربته قلوبهم وكفر بالآخرة أعمى أبصارهم { وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ }، أي أن حب عجل الذهب (المال والدنيا) ملأ قلوبهم وأغلق منافذها، فلا تنفذ إليها دعوة الحق، ولا تتسلل إليها، وهذا ديدن يهود في كل عصر منذ سرقوا حلي الأقباط في مصر وصنعوا منها عجلهم، إلى عصرنا هذا وهم يمارسون كل أنواع الغش التجاري معاملات مغشوشة، وربويات مالية هابطة، وفنونا من السرقة لأموال الأمم والشعوب لا تخطر إلا على الأبالسة والشياطين. لذلك عقب تعالى على هذه التصرفات الدنيئة بقوله: { قُلْ بِئْسَمَا

يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ }، وهوخطاب جمع بين ذمهم بما وضع لغةً لمجامع الذم وهو لفظ " بئس "، وبين التهكم بهم لتناقض أعمالهم مع ما جاءت به توراتهم، وبين التشكيك في ما يزعمون من إيمان، وهم لذلك إما كاذبون في دعواهم، وإما أشد جهلا إذ يعملون ما يتعارض مع تعاليم الدين ولا يشعرون. خطاب يؤمر فيه الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يقول لليهود: إن كان إيمانكم هو الذي أمركم بما ترتكبون من آثام فبئس الإيمان إيمانكم، لأنه لا علاقة له بشريعة التوراة وأوامرها ونواهيها، ولكنه إيمان دنيوي شيطاني تلبستم به وتترستهم به في مواجهة الحق الذي جاء به موسى فعصيتموه وجاء به محمد فكذبتموه. وهو ما يقال أيضا في كل عصر لمن يتاجرون بالعلم أو بالدعوة الإسلامية على أبواب أصحاب النفوذ والجاه والسلطة، أو في أسواق النخاسة السياسية، تجسسا على الصادقين، ووشاية بأولياء الله المخلصين، من الذين نذروا أنفسهم لتبليغ الرسالة غير مبتورة أو محرفة: بئس ما يأمركم به علمكم ودعوتكم إن كنتم دعاة أو علماء.

الولاء الحق محبة واتباع ونصرة

قال الله تعالى: { قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآَخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (94) وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (95) وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (96) قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (97) مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ (98) وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ (99) أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (100)} سورة البقرة

بعد أن كشف القرآن الكريم تعارض أعمال بني إسرائيل الظاهرة وتصرفاتهم المعلنة مع ما يَدَّعون من إيمان بالتوراة وتمسك بها وتشدد في تطبيق تعاليمها بقولهم: { نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا }، ومع ما يعلنون من اطمئنان للآخرة واستئثارهم وحدهم بالجنة إذ قالوا: { لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً } البقرة 80، وقالوا: { نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ } المائدة 18، استكبارا بالإثم، وزعزعة لثقة المسلمين بوعود القرآن لهم بالجنة، وزعما أنها لليهود وحدهم لأنهم شعب الله المختار، انتقل إلى استدراجهم لكشف ما في قلوبهم من معرفة بأنفسهم، وفضح حقيقة اطمئنانهم بمآلهم عند ربهم، ومدى اقتناعهم

بتطابق تصرفاتهم مع مقتضيات الإيمان وشرائعه، وهو انتقال من كشف المنظور إلى كشف المستور، ومن بيان انحراف الأقوال إلى تعرية ما أكنت قلوب الجهلة منهم والضُّلّالِ، ومن إبطال دعواهم الإيمان في مجال أعمال الجوارح إلى إبطال دعواهم الإيمان في ما أضمرت الأفئدة والجوانح، وما تجيش به النفوس من محفزات للشر وكوابح عن الخير، فقال تعالى: { قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآَخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ }، ذلك أن الموقف من الموت مسبار للقلوب لا يخطئ، ومعيار لقياس التصور الإيماني صحة ووضوحا، أو غبشا واضطرابا وإلحادا وشركا وكفرا، إذ الإيمان علم وعمل يهديان للآخرة، علم وقر في القلب وصدقه العمل به فأخذ بيد صاحبه إلى النجاة، وشرف العلم والعالم سلوك ينير طريق الآخرة ويشوق إلى لقاء الله، وكلما اشتاق المرء إلى ربه وأحب لقاءه تيسرت له الأسباب، وأعين على تجاوز العوائق والأتعاب، وقد أخرج الشيخان (عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ، فَقُلْت يَا نَبِيَّ اللَّهِ أَمَّا كَرَاهَةُ الْمَوْتِ فَكُلُّنَا نَكْرَهُ الْمَوْتَ، فَقَالَ لَيْسَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا بُشِّرَ بِرَحْمَةِ اللَّهِ وَرِضْوَانِهِ وَجَنَّتِهِ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ فَأَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا بُشِّرَ بِعَذَابِ اللَّهِ وَسَخَطِهِ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ وَكَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَه)، ولا بشرى للمؤمن بما ينتظره عند ربه من رضا ونعيم، أشد وضوحا من صدق إيمان وصالح عمل، وعلامة ذلك ما يملأ صدره من صدق في المعاملة مع الغيب والشهود، وإخلاص في السر والعلانية، ورضا بما يختاره الله ويقدره، وخوف منه عز وجل ورجاء فيه، وولاء لمن يواليه وبراء ممن يعاديه، فإذا طَهُرت القلوب واستقامت الأعمال كان حب لقاء الله أقرب إلى النوال، قال سفيان الثوري: " ليس من علامات الهدى شيء أبين من حب لقاء الله فإذا أحب العبد لقاء الله فقد تناهى في البر". لذلك دأب رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته على حب لقاء الله والعمل بما يبلغهم إياه، فلم تقبض روحه عليه السلام إلا وقد خُيِّر فاختار الرفيق الأعلى وأوصى بأن يحسن الظن بالله، فيما رواه مسلم عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: (سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبْلَ مَوْتِهِ بِثَلَاثَةِ أَيَّامٍ يَقُولُ: لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ). وكان صحابته رضي الله عنهم نماذج تحتذى في الاستهانة بالموت والإقبال على الاستشهاد، كما هو حال الصحابي الذي أعطاه رسول الله نصيبه من الغنيمة فرفضها وقال له:(مَا عَلَى هَذَا اتَّبَعْتُكَ، وَلَكِنِّي اتَّبَعْتُكَ عَلَى أَنْ أُرْمَى إِلَى هَاهُنَا، وَأَشَارَ إِلَى حَلْقِهِ بِسَهْمٍ، فَأَمُوتَ فَأَدْخُلَ الْجَنَّةَ، فَقَالَ: إِنْ تَصْدُقِ اللَّهَ يَصْدُقْكَ، فَلَبِثُوا قَلِيلًا ثُمَّ نَهَضُوا فِي قِتَالِ الْعَدُوِّ، فَأُتِيَ بِهِ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحْمَلُ قَدْ أَصَابَهُ سَهْمٌ حَيْثُ أَشَارَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَهُوَ هُوَ؟ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: صَدَقَ اللَّهَ فَصَدَقَهُ، ثُمَّ كَفَّنَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي جُبَّةٍ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ قَدَّمَهُ فَصَلَّى عَلَيْهِ، فَكَانَ فِيمَا ظَهَرَ مِنْ صَلَاتِهِ: اللَّهُمَّ هَذَا عَبْدُكَ خَرَجَ مُهَاجِرًا فِي سَبِيلِكَ فَقُتِلَ شَهِيدًا، أَنَا شَهِيدٌ عَلَى ذَلِكَ). وكما فعل الإمام علي كرم الله وجهه إذ كان يطوف بين الصفين بغِلالة، فقال له ابنه الحسن: ما هذا بزيّ المحاربين، فقال: يا بنيّ لا يبالي أبوك أعلى

الموت سقط أم عليه سقط الموت، وهو أيضا حال حذيفة رضي الله عنه إذ كان يتمنّى الشهادة، فلما حضره الموت قال: " حبيب جاء على فاقة لا أفلح من ندم " أي لا ربح من ندم على تمني الموت.

ذلك أن من كان متحققا من حسن حاله مع الله علم أن الموت باب من أبواب الجنة، به يتوصل إليها، ولو لم تكن موت لم تكن جنة، وقد عدها عز وجل نعمة امتن بها على المؤمنين وجعلها لهم طريقا إلى النعيم الأبدي فقال: { كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } البقرة 28، كما جعلها لعصاته من الكفرة بابا من أبواب جهنم وطريقا يساقون منه إليها، وهو ما فهمه كفرة بني إسرائيل إذ تحداهم القرآن الكريم بأن يسألوا الله الموت إن كانوا متحققين من حسن حالهم مع ربهم، عقيدة وأعمالا، إلا أنهم سارعوا إلى الشهادة على أنفسم بسوء حالهم، فلم يمتثلوا جزعا وخيفة، ولم يستجيبوا للتحدي المرفوع في وجههم، ولو كانوا موقنين بأن الدار الآخرة (الجنة) لهم وحدهم مختصة بهم وسالمة لهم، لا يدخلها إلا من كان هودا، لسألوا الله الموت، لأن من أحب شيئا اشتاق إليه، قال تعالى: { قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآَخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ } أي إن كان حالكم إيمانا وعملا، مرضيا عند الله يدخلكم به الجنة { فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ }.

ولقد ذهب المفسرون فريقين في معنى تمني الموت دعاء بها أو مباهلة:

فريق التزم بظاهر الآية وليس فيها تصريح بالمباهلة، وقصر المعنى على أن يسألوا الله الموت إن كانوا صادقين في دعواهم، وهو أسلوب قرآني مستعمل في مجالات التناكر وتعارض المزاعم، كما في آية اللعان بقوله تعالى: { وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ } النور 9/8.

وفريق رأى أن التمني يفيد معنى المباهلة، بأن يدعو الفريقان بالموت على الكاذب منهما، كما وقع عندما دعا الرسول صلى الله عليه وسلم إليها نصارى نجران إذ أمره الله تعالى بقوله: { فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ العلم فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ الله عَلَى الكاذبين }، وقد روي عن ابن عباس أن المباهلة تكون (بأن يحضروا مع المؤمنين في صعيد واحد، ثم يدعو الفريقان بالموت على الكاذب منهما، وأن اليهود أبوا ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم)، وفي هذا التحدي الذي رفع في وجههم إنصاف للطرفين وعدالة في الفصل بينهما، إذ الأنبياء معصومون من الكذب مطلقا، والمباهلة إن كانت مع نبي استؤصل الطرف المعادي للنبوة دائما، قال ابن جرير في تفسيره: " وبلغنا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ولرأوا مقاعدهم من النار، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجعوا لا يجدون أهلا ولا مالا)". واحتجوا لدفع معنى تمني الموت بسؤالها من الله دون مباهلة، بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما أخرجه الشيخان: (لَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ مِنْ ضُرٍّ أَصَابَهُ فَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ فَاعِلًا فَلْيَقُلْ اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتْ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتْ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي). إلا أن الحديث يفيد النهي عن تمني الموت جزعا من البلاء، أما تمنيه حبا في لقاء الله

وشوقا إلى الجنة وحسنَ ظنٍّ بالله للصادقين من المؤمنين فمما ورد به الأثر الصحيح، وقد أخرج أحمد في مسنده عن جابر بن عبد الله قال:(سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ إِذَا ذُكِرَ أَصْحَابُ أُحُدٍ أَمَا وَاللَّهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي غُودِرْتُ مَعَ أَصْحَابِ نُحْصِ الْجَبَلِ، يَعْنِي سَفْحَ الْجَبَلِ)

ولئن كان التمني في هذه الآية الكريمة، وهو الدعاء على النفس بالشر، يعد بتأويل قريب نوعا من المباهلة بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتحديا لعنادهم واستكبارهم بأحد أمرين، إما أن يؤمنوا بالله ورسوله، وإما أن يباهلوا بأمر يسير هو أن يسألوا الله الموت لأنفسهم إن كانوا صادقين، فإنه لا تعارض جوهري بين ما ذهب إليه الفريقان في تفسير الآية الكريمة.

ونظرا لما يعلم اليهود من حالهم، وما يعلمه الله تعالى من سرهم وعلانيتهم، عقب القرآن على دعوة التحدي هذه بقوله تعالى { وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ } أي أنهم لن يتمنوا الموت أبدا ولن يباهلوا حالا أو استقبالا، خشية أن يستجيب الله فيأخذهم، لأنهم يعلمون أنهم كاذبون، وأن ما قدموه من عمل لا يجعل لهم نصيبا في الآخرة، ولما عرفوه في التوراة من صفات النبي صلى الله عليه وسلم ونعته وصدقه، وما علمه الله تعالى من تمرسهم على ظلم أولياء الله من الأنبياء والمرسلين وعموم المؤمنين، ولو سألوا الموت يومئذ (ما بقي على الأرض يهودي إلا مات) كما قال ابن عباس وغيره، ونظير هذه الآية قوله تعالى: { قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } الجمعة 6-8.

لقد أكد رب العزة نفي قبولهم المباهلة حالا واستقبالا بأقوى تعبير وأبلغه في الآيتين فقال في الأولى: { وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا}، وقال في الثانية: { وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا}، وهو من معجزات الإخبار بالغيب التي أتى بها القرآن الكريم، إذ ثبت تاريخيا أنه لم يجرؤ أحد منهم على ذلك في زمن النبي صلى الله عليه وسلم إلى حين وفاته.

ثم لَمَّا بَيَّنَ خوفهم الشديد من الموت وسوء المنقلب، كشف الداعيَ النفسي الباطني إلى موقفهم هذا، وهو التمسك بالحياة على أي صفة كانت، ذلا أو عزا، فقرا أو غنى، سعادة أو شقاء، عسرا أو يسرا، المهم لديهم هو ألا يموتوا، فقال تعالى: { وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ } أي لَتَعْلَمَنَّهم أكثرَ الناس تمسكا بالحياة، لأن فعل "وجد" إذا كان متعديا لمفعولين أدى معنى "علم".

إن حب الدنيا يلهي عن الآخرة، ولكن الأسوأ منه هو حب البقاء فيها، وهذا حال اليهود وهم أشد حرصا من جميع الأقوام والأجناس على حياة متطاولة، بل أحرص عليها حتى من المشركين { وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا } الذين لا يعرفون إلا الدنيا ولا يؤمنون بآخرة أو بعث أو نشور، يرجو الواحد من اليهود أن يتطاول به العمر ولو تجاوز الحد المعقول للأعمار البشرية { يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ } أي لو يعيش دائما، لأن عدد الألف عند العرب كانت تعني نهاية العدد، {

وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ } ولن ينجيه تعميره المتطاول من العذاب الذي ينتظره، لأنه لابد من الموت، والمصير إلى الله، والله تعالى قادر عليهم، موفيهم عقوبتهم المستحقة، بصير بأحوالهم ما ظهر منها وما خفي { وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ }.

إن الموقف من الموت مقياس دقيق للنفس البشرية، وميزان صحيح توزن به النوايا والأحوال والأعمال، وهو ما تؤديه الإشارة في هذه الآية الكريمة، إذ كل حياة يهدمها الموت، وكل حال مآله الفناء، مُدَّعِي محبةِ الله تبلو الموتُ دعواه، وتكشف سره ونجواه، والناس في هذا ما بين امرئ أبصر واعتبر ففاز وظَفِر، وآخر اتخذ إلهه هواه فخاب وخسِر، كما هو حال اليهود إذ خافوا الموت بما قدمت أيديهم، وراموا البقاء في الدنيا بما لا ينفعهم ولا ينجيهم.

ثم يتخذ القرآن الكريم من موقف اليهود من جبريل عليه السلام وعداوتهم له، مدخلا لأخطر أبواب العقيدة التي اختلت لديهم، وهو باب الولاء والبراء الذي به يحب المرء لقاء ربه أو يكرهه، فقال: { قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ }، ذلك أن اليهود كانوا يعدون جبرائيل عليه السلام عدوهم كما ورد في الأثر، وقد ناظروا النبي صلى الله عليه وسلم في أمر النبوة، فقالوا له: يا أَبَا القَاسم أَخْبِرْنَا عن خمسة أَشياءَ فَإِن أَنبَأْتَنا بها عَرَفْنَا أَنَّكَ نَبِيٌّ وَاتّبَعْنَاك، فَأَخذ النَّبِيُّ عَلَيهِمِ المِيثَاقَ إِذْ قَالَ:(وَاللهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ). ثم قَال لَهُمْ: هَاتُوا، فَسَألُوهُ أَسْئِلَةً أَرْبَعَةً أَجَابَهُمْ عَلَيْها، ثُمَّ قَالُوا لَهُ: لَيْس مِنْ نَبِيٍّ إِلاَ وَلَهُ مَلَكٌ يَأْتِيهِ بِالخَبَرِ، فَأَخْبِرْنَا مَنْ صَاحِبُكَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ: (صَاحِبِي جِبْرِيلُ عَلَيهِ السَّلامُ)، قَالُوا: جِبْرِيلُ ذَاكَ الذِي يَنْزِلُ بِالحَرْبِ وَالقِتَالِ وَالعَذَابِ عَدُوُّنَا، وَإِنَّهُ أَنْذَرَ اليَهُودَ بِخَرَابِ بَيْتِ المَقْدِسِ فَكَانَ مَا أَنْذَرَ بِهِ، لَوْ قُلْتَ إِنَّ صَاحِبَكَ مِيكَائِيلُ لاتَّبَعْنَاكَ، لأَنَّهُ المَلَكُ الذِي يَنْزِلُ بِالرَّحْمَةِ وَالغَيْث. فَأَنزَلَ اللهُ تَعَالَى هذِهِ الآيَةَ الكَرِيمَةَ { قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ... }، أي من كان يعادي جبريل، وهم اليهود { فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ } فإن جبريل هو الذي نزل بالقرآن على قلب الرسول صلى الله عليه وسلم، وما هو إلا رسول من ربه ينزل بما أُمِر، ليس له أن يبدل أو يغير { مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ } وهو القرآن الكريم، مصدقا لما سبقه من الكتب المنزلة من عند الله، { وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ } ولئن كان ينزل بالعذاب والشدة والحرب على الكفار كما يقول اليهود، فإنه ينزل بالهداية إلى الصراط المستقيم والبشارة للمؤمنين بسعادة الدارين.

ثم عقب بأخطر ميزان عقدي للتمييز بين المؤمنين وبين غيرهم من الكفار والمنافقين كما ورد في سورة الفاتحة وأول سورة البقرة إذ نص الذكر الحكيم على صفات المؤمنين، وكشف صفات غيرهم من طائفتي المغضوب عليهم والضالين، وهو ميزان الحب والبغض، الموالاة والمعاداة، الولاء والبراء، فقال تعالى: { مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ }. أي من كان معرضا عن تعاليم الله تعالى، كافرا بما تأتي به ملائكته ورسله من الهدى والحق، مبغضا لعباده وأوليائه مواليا لأعدائه ومحاربي دينه ومنهاج شريعته، فإنه عز وجل يجازيه بنظير ما فعل، إعراضا عنه وإبعادا من الرحمة وإركاسا في العذاب.

إن الله تعالى لا يريد من الناس عبادات جافة لا روح فيها، أو حركات جسدية يابسة لا تَني تكرر نفسها، ولكن يريد قلوبا يانعة ملئت محبة لله ورسوله وملائكته وخيار خلقه المؤمنين، وشعائرَ رطبةً بالمودة والنصرة والغيرة لِحُرَم الله في تعاليم كتبه وأعراض أوليائه، فمن أحبهم فهو حبيب الله، ومن عاداهم فهو عدو لله. وما الإيمان الحق إلا (أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْقَدَرِ كُلِّهِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ) وما المحبة الصادقة إلا أن تحب ما يحبه الله ورسوله وتبغض ما يبغضه الله ورسوله.

الدين محبة لله ولأوليائه، واتباع لأوامره ونواهيه، ونصرة لدينه وللمؤمنين، ومن فقد المحبة والاتباع والنصرة فقد الدين كله.

يقول تعالى { قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } آل عمران31.

وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله، ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار)، وفي الترمذي وغيره: (أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله، ومن أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان)، وفي الطبراني والسيوطي وغيرهما: (أوثق عرى الإيمان الموالاة في الله و المعاداة في الله و الحب في الله و البغض في الله).

إن محبة الله بصدق وإخلاص هي أصل التوحيد ومبناه، تسبق كل محبة وتغلبها، ومما يتفرع عنها المحبة في الله، وهي محبةُ أولياء الله من كرام خلقه، ملائكة وأنبياء ورسلا ومؤمنين من الجن والإنس، وإيثارُ ما يحبه الله من الأعمال والمشاعر والطاعات، ولا تكتمل المحبة في الله إلا بما تثمره في القلب من بغضٍ في الله، بغضٍ للكفر والنفاق وأوليائهما، ودعاتهما ومناصريهما، إذ الحب والولاءُ للمؤمنين، والبغضُ للمشركينَ والكفار والبراءةُ منهم من أصول عقيدة المؤمن، قال الله تعالى: { وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ } التوبة71، وقال: { لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ } آل عمران 28.

كما لا تكتمل محبة الله وتبلغ غايتها ما لم تثمر نصرةً لدينه وأوليائه، إذ النصرة علامة فارقة بين صدق المحبة وزيفها، قال تعالى: { فَالَّذِينَ آَمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } الأعراف157، وقال: { إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آَوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ } الأنفال 72، وقال: { وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ } الأنفال 72، وقال: { وَالَّذِينَ آَوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا } الأنفال 74.

وقال صلى الله عليه وسلم: (انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا نَنْصُرُهُ مَظْلُومًا فَكَيْفَ نَنْصُرُهُ ظَالِمًا؟ قَالَ: تَأْخُذُ فَوْقَ يَدَيْهِ)، وقال: (مَا مِنْ امْرِئٍ يَخْذُلُ امْرَأً مُسْلِمًا فِي مَوْضِعٍ تُنْتَهَكُ فِيهِ حُرْمَتُهُ وَيُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِرْضِهِ إِلَّا خَذَلَهُ اللَّهُ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ فِيهِ نُصْرَتَهُ، وَمَا مِنْ امْرِئٍ يَنْصُرُ مُسْلِمًا فِي مَوْضِعٍ يُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِرْضِهِ وَيُنْتَهَكُ فِيهِ مِنْ حُرْمَتِهِ

إِلَّا نَصَرَهُ اللَّهُ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ نُصْرَتَه)، وقال: (المسلم أخو المسلم لا يخونه و لا يكذبه و لا يخذله، كل المسلم على المسلم حرام عرضه و ماله و دمه، التقوى هاهنا – و أشار إلى القلب –، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم)

واليهود لبغضِهم جبريل، وخذلانِهم لدعوتي موسى ومحمد عليهما وعلى جميع ملائكة الرحمن وأنبيائه ورسله الصلاة والسلام، برهنوا على أنهم لا يحبون الله تعالى ولا يوالونه ولا ينصرونه، لأن من أحب الله ووالاه ونصره أحب أولياءه ونصرهم، وأبغض أعداءه وخذلهم، قال تعالى: { بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا } النساء138/ 139،وقال: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا } النساء144، وقال: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} المائدة51.

لقد اسْتَبْطَنَتْ هذه الآية الكريمة أعماقَ شخصية اليهودي على مدار التاريخ، وكشفت فساد عقيدة الولاء والبراء لديه، بغضا لأولياء الله وأحبابه ورسله، كما تَسْتَبْطِن على مدار التاريخ المتطاول حقيقةَ إيمان المسلمين أيضا، وتَسْبُرُ مدى محبتهم أولياءَ الله من الدعاة الصادقين والمجاهدين الصامدين، ومقدارَ نصرتهم للحق ودعاته وأعوانه في ساعات العسرة وهي كثيرة، ومضايق المحنة وهي مُطْبِقة، وإن كان كثيرون في عصرنا هذا لا يحبون إلا رغبة أو رهبة، ولا ينصرون إلا طمعا في دنيا يصيبونها، ولا يوالون إلا من كان من حزبهم، وسار بسيرة طائفتهم، فأشبهوا بني إسرائيل إذ زعموا محبة ميكائيل، وأعلنوا بغض جبريل، والأصل أن يحبوا وينصروا لله وحده، لا للحزب أو الفريق أو الطائفة أو النحلة أو القوم أو المصلحة، قال صلى الله عليه وسلم فيما رواه أحمد: (يَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ أَقْوَامٌ إِخْوَانُ الْعَلَانِيَةِ أَعْدَاءُ السَّرِيرَةِ فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَكَيْفَ يَكُونُ ذَلِكَ؟ قَالَ: ذَلِكَ بِرَغْبَةِ بَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ وَرَهْبَةِ بَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ).

لقد نزلت الآيات البينات بهذه العقيدة، عقيدة الحب في الله والبغض في الله، الموالاة للحق ومعسكره، والمفاصلة مع الباطل وأضاليله، فآمن بها من اجتباه الله للخير، ولا يكفر بها ويعرض عنها أبد الدهر إلا من فسق عن أمر ربه وخلع ربقة الطاعة، ونزعت محبة الحق وأوليائه من قلبه، كما تبين بها أن الجنة خالصة للمؤمنين من الأتباع الصادقين للأنبياء والمرسلين والذين يدركون دعوة محمد صلى الله عليه وسلم فيؤمنون بها، حرام على كفرة بني إسرائيل لفساد عقيدتهم واختلال ولائهم، وإحاطة خطيئتهم بهم، لذلك عقب رب العزة بقوله: { وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آَيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ }.

ولئن كان الفسق هو مطلق الكفر والعصيان، فإنه في هذه الآية أُرْدِف بما يشرح المخصوص منه، وهو ما ألفوه من نكث العهود ونقض المواثيق، قال تعالى: { أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ }، تعجيب وإنكار وتوبيخ لكثرة معاهداتهم وعدم صبرهم على الوفاء بها، ولفظ " كلما " يفيد التكرار، أي كلما أخذ الله الميثاق منهم ومن

آبائهم نقضوه، وكلما عاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يفوا { الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ } الأنفال56، والنبذ إلقاء الشيء من اليد استخفافا به وازدراء، وهو هنا استعارة لنقض العهود وعدم الوفاء بها والعمل بمقتضاها، شُبِّهَتْ خيانةُ العهد بالشيء كان ممسوكاً باليد ثم طُرِح منها، كما سُمِّيَتْ المحافظةُ على العهد تمسُّكاً به، وما رسوخ النقض والخيانة توارثا في أجيالهم المتعاقبة، إلا لانعدام الإيمان الحق في قلوب أكثرهم { بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ }. وما آمن حق الإيمان لموسى والأنبياء من بعده عليهم السلام إلا قليل.

لقد علم الله تعالى من قلوب بني إسرائيل ضعفا وخورا، فقال لموسى وهارون عليهما السلام: { فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ } الشعراء17/16 كما علم من إيمان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم محبة للحق وأهله، واتباعا لتعاليمه ومراشده، ونصرة لصفه ودعاته، فقال عنهم: { مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا } الفتح29

فهل ترى يؤوب حاضر الأمة إلى سابق ما أسسته المحبة الصادقة، وبناه الاتّباع الرشيد، وحصنته النصرة الصلبة الصادمة؟ ذلك ما لا يطيقه صغارُ الذَّرِّ والحَشَرِ، والبُغاثُ إن خلا الجو لها اسْتَنْسَرَتْ، وذاك مرتقى لا يسمو إليه إلا عتاق الطير من العقبان والصقور، وأمُّ الصقر عادة مِقْلاةٌ نَزورُ.

سَحَرَةُ الأمِس واليوم في مواجهة دعوة التوحيد

قال الله تعالى: { وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (101) وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (102) وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ

(103) { سورة البقرة

الحياة الإنسانية في جميع أوجهها الروحية والمادية، الاجتماعية والسلوكية، لا تقبل الفراغ، كلما اختفت فضيلة حلت محلها رذيلة، إن تخلى المرء عن الصدق كان الكذب، أو عن الأمانة كانت الخيانة، أو عن الوفاء كان الغدر، أو عن السنة كانت البدعة، أو عن الرشد كان السفه.

هذا واقع بني إسرائيل كما حكاه عنهم القرآن الكريم بقوله تعالى: { وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ }، أي لما جاءهم الرسول صلى الله عليه وسلم بالقرآن الكريم ووجدوه مصدقا لما جاء به نبيهم موسى عليه السلام من عقيدة التوحيد ومقتضياته، وصفات النبوة الخاتمة وصاحبها محمد صلى الله عليه وسلم اطَّرحوا التوراة وتجاهلوا تعاليمها، { نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ }، نبذه فريق منهم هو أكثرهم عددا كما قال تعالى في الآية السابقة: { بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ } البقرة 100، وقد ورد في حديث حسن صحيح أخرجه الترمذي (أن يهوديا قال لصاحبه: اذهب بنا إلى هذا النبي، فقال صاحبه: لا تقل نبي إنه لو سمعك كان له أربعة أعين، فَأَتَيَا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فسألاه عن تسع آيات بينات، فقال لهم: لا تشركوا بالله شيئا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا تمشوا ببريء إلى ذي سلطان ليقتله، ولا تسحروا، ولا تأكلوا الربا، ولا تقذفوا محصنة، ولا تولوا الفرار يوم الزحف، وعليكم خاصة اليهود أن لا تعتدوا في السبت، قال: فقبلوا يده ورجله فقالا: نشهد أنك نبي، قال: فما يمنعكم أن تتبعوني؟ قالوا: إن داود دعا ربه أن لا يزال في ذريته نبي، وإنا نخاف إن تبعناك أن تقتلنا اليهود).

لقد عرف يهود البعثة النبوية الحق، ولكن ما ركب في أنفسهم من الحسد والحقد والبغضاء حال بينهم وبين الإيمان، فنبذوا توراتهم نبذ النواة، إذ صارت حجة عليهم، أخفوا منها ما لا يساير هواهم، ورفضوا دعوة القرآن وجحدوها وكذبوا صاحبها فأصبحت قلوبهم وعقولهم خاوية يتلاعب بها الهوى وتتقاذفها الشياطين.

وكما هي طبيعة الحياة التي لا تقبل الفراغ، كان البديل لديهم اتباع عقيدة السحر وأعماله، يتوسلون بها لصرف الناس عن الإسلام وصاحبه، ويحاولون بها التخلص من رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقتل تسميما وسحرا.

لقد نبذوا وراء ظهورهم العقيدة الربانية الصحيحة، فزادهم الله تعالى خذلانا بأن أحيوا بدعة شيطانية من السحر الذي هوكفر، قال تعالى: { وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ }، اتبعوا ما لا ينبغي اتباعه، قراءة وتلاوة وتحديثا ورواية وعملا بما افترته شياطين الجن والإنس من السحر على عهد سليمان عليه السلام وزمن ملكه، وبلغ بهم الجهل والحقد والحرص على تكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم أن اتهموا سليمان نفسه بالسحر عندما نزل القرآن فعده فيمن عده من المرسلين، فقالوا: ألا تعجبون من محمد، يزعم أن ابن داود كان نبيًا، والله ما كان إلا ساحرًا، فأنزل الله تعالى: {

وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا... }. وفي الآية الكريمة رد عليهم صريح, شهادة من الله على نبوة سليمان وتنزهه عن السحر الذي هو كفر بنصوص شريعتي موسى ومحمد عليهما السلام، وتأكيد على كفر معلمي السحر ومتعلميه والمشتغلين به { وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا }.

لقد ورد في تفسير هذه الآيات الكريمة الخاصة بالسحر ومصدره وطرق تعلمه وانتشاره روايات كثيرة نسبت لصحابة وتابعين ما بين ضعيفة وموضوعة ومضطربة، يجمعها رابطان أحدهما أنها كلها غير مرفوعة للرسول صلى الله عليه وسلم بسند صحيح، والثاني أن في الأخذ بها متاهة من الخرافة والتناقض ومزاعم الإسرائيليات والقصاصين. ولئن جاءت الآيات مجملة فلم تورد إلا ما ينفع الناس من العظة بها والاعتبار، وهو ما يتسق مع القرآن الكريم وكونه ليس كتاب تأريخ إلا بما يحقق الهدف العقدي والتربوي من الأحداث، فإنه لم يبق للمفسر إلا قواعد اللغة العربية، وما يؤيد مداليلها في الكتاب والسنة عن السحر والسحرة.

قال ابن فارس في معنى السحر: (السين والحاء والراء أصول متباينة، أحدها عضو من الأعضاء هو ما لصق بالحلقوم والمريء من أعلى البطن، والآخر خَدْعٌ وشِبْهُه، والثاني وقت من الأوقات). وقال الراغب في مفردات القرآن: (السحر يقال على معان: الأول: الخدْع وتخييلات لا حقيقة لها، نحو ما يفعله المشعبذ بصرف الأبصار عما يفعله لخفة يد، وما يفعله النمام بقول مزخرف عائق للأسماع)، وعلى ذلك قوله تعالى: { فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ } الأعراف116، وقوله: { فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى } طه 66، وقوله: { وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى } طه 69.

والسحر المقصود في هذه الآية الكريمة من:" سَحَرَه يَسْحَرُه سَحْراً وسِحْراً وسَحَّرَه " ومعناه الخدع وصرف الأشياء عن حقيقتها تخييلا وتوهما، سواء في المعاملات الاجتماعية أو النفسية أوالحسية أو غيرها، قام بذلك السحرة بنوع من الذكاء الخبيث، أو بنوع من السعي بالوشاية والنميمة والتلصص والتجسس والإفساد بين الناس، أو مواطأة مع أعوان لهم، أو استعانة بخصائص معادن وأعشاب وأحجار وأجهزة إلكترونية كما هو في العصر الحديث، والأصل في كل ذلك الكذب والغش والإفك والافتراء، كما قال تعالى: { هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ } الشعراء 223/221}. وهو بذلك صورة مقلوبة ومزيفة للحقائق والأوضاع والعلاقات، كان ولا يزال مرتعا لطلاب الربح السريع وتحصيل ما ليس مباحا من المكاسب والفوائد.

ولئن كان متعذرا علينا معرفة نشأة السحر تاريخيا بدقة، فإن ما يستطيع المرء معرفته لا يخرج عن أمرين:

أحدهما أن السحر عرفته البشرية منذ زمن موغل في القدم، وفي مختلف الشعوب والأقوام، ومارسه الملوك والعامة، الخدم والمخدومون على السواء، كل على ما يهوى وما يريد.

والثاني أن بضاعة السحر تنشط وتَنْفُقُ وتروج عادة كلما عم الجهل وابتعد الناس عن الهداية، واستحكمت النزعة المادية والذاتية والاستهلاكية، وغرائزية إشباع الرغبات والنزوات، وغابت معالم الدين، وهيمن الفراغ الروحي بأمراضه النفسية اكتئابا وقنوطا وفشلا وانهزامية وإحباطا، فتساقط الناس في براثن أبالسة الإنس، مشعوذين وسحرةً ورجالَ دين مرتزقة، وحكاما مردة جبابرة. وتحولت معالم الدين كهنوتية عجماء صماء عمياء لطمس معالم العقل والرشد، وترويض الناس على الطاعة والاستسلام والخنوع والركوع للطغيان.

وتكسد وتبور كلما ظهرت النبوة، واستنارت القلوب بالعقيدة الصافية، وامتلأت الأفئدة بالإيمان، وأُنْشِطَت الألباب من عقالها، والبصائر من أغلالها وقيودها، فتحررت من أضاليل الشيطان، واستضاءت بنور الرحمن، واطَّرَحت عبوديةَ العبيد، مستظلة بحرية العبادة لرب العباد. والسحر وعقيدة التوحيد بذلك على طرفي نقيض لا يلتقيان إلا في ساحة الوغى، وميدان التنافر والتدافع والتنافي.

عرفت البشرية السحر منذ عرفت الضلال والكفر، كانت تتوسل بربها وتستعين به، فلما نسيت الله استعانت بالخرافة وتوسلت بها، منذ نوح وما قبل نوح عليه السلام، وعلى عهد إبراهيم ومن جاء بعده من الأنبياء والمرسلين، موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام، كلما جاء رسول رماه السحرة بتهمة السحر، فأبطل الله دعواهم وفضح كيدهم ومكرهم، قال تعالى: { كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ } الذاريات52/53، وأنزل الأحكام الشرعية الزاجرة عنه، وَعَدَّ السحر كفرا يمحو نصيبَ المرء من رحمة الله ونعيم جنته، سواء كان نفثا أو عرافة أو كهانة أو تنجيما أو توسلا بغير الله، غيبياتٍ فاسدةً أو قبوريةً وثنية أو تمائمَ خرافيةً، فقال: { إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى } طه69، ولا يُنْفَى الفلاحُ عن المرء في جميع أمره { حَيْثُ أَتَى} إلا إذا كان كافرا، وعدّه النبي صلى الله عليه وسلم من السبع الموبقات المهلكات فقال:(اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: الشِّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ). وكما حرم الشرع الاشتغال به حرم الاستشفاء به، فقال صلى الله عليه وسلم: (إن الله لم يجعل شفاءكم في حرام)، و قال أبو هريرة: (نَهَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ الدَّوَاءِ الْخَبِيثِ).

كذلك فعل الأنبياء والمرسلون من قبل، حرموا السحر ونهوا عنه وحاربوا السحرة من كل صنف، وأنزلت شرائع تكفيرهم وتفسيقهم والتحذير منهم على كل نبي، نوح وإبراهيم وعيسى وموسى وغيرهم، وابتعث الملكان هاروت وماروت لمحاربة السحر في بابل على عهد إدريس عليه السلام، كما ورد في بعض الروايات، وكانت بابل مرتعا للسحر يُرَوَّض به الخلق، ويُعَبَّدون به لغير الله من الحكام والأباطرة والجبابرة، ثم كان عهد سليمان عليه السلام فحارب السحرة وصادر كتبهم وطلاسمهم وتمائمهم واستباح دماءهم، وبعد وفاته نقب ضُلَّالُ بني إسرائيل عن تراث بابل وعهد سليمان من السحر

فاستحيوه وأعادوا نشره واستخدامه، وتوارثوه جيلا بعد جيل حتى صار السحر علامة مميزة لدينهم وأداة لمحاربة الرسول صلى الله عليه وسلم عند بعثته. وهو ما عابه القرآن عليهم إذ نبذوا تعاليم التوراة المبشرة برسالة الإسلام وصفات نبيه الكريم، وكفروا بالقرآن الذي جاء مصدقا لما بين يديه من الكتب قبله، قال تعالى: { وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا } فنعى عليهم استبدالهم الخبيث بالطيب، اتباعهم ما تتلوه الشياطين وإعراضهم عن كتاب رب العالمين، ونفى عن سليمان عليه السلام ما رموه به من السحر، وأثبت كفر السحرة، وبين أن مصدر السحر لدى اليهود هو ما ورثوه عن سحرة زمن سليمان عليه السلام، وسحرة العصر البابلي قبلهم فقال: { يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ }، أي أنهم هم الذين يعلمون الناس السحر، أما الملكان ببابل فلم ينزل { وَمَا أُنْزِلَ } السحر عليهما، ولكن أمرا بالتحذير منه.

وكلمة بابل تعني في اللغة الأكادية "باب الإله"، وهي مدينة قديمة في العراق أول ساكنيها السومريون، تقع على ضفتي نهر الفرات قريبا من مدينة الحلة حاليا، ثم صارت على يد حمورابي قاعدة للإمبراطورية البابلية حوالي سنة 2100 ق. م. وكانت السيطرة فيها والقوة للحاكم، ومِنْ بعده للكهنة والأثرياء من التجار وملاكي الأرض، وما سواهم عبيد وعمال زراعة وحرف يدوية. وتميزت هذه المدينة بإنزال الملكين إليها، لما سادها من ظلم وفساد وأباطيل على يد سحرة الطبقة الحاكمة، الذين كثروا حتى ادعى بعضهم النبوة، وجعلوا السحر أداة لتسخير أبدان العامة وعقولهم ومكاسبهم، وإجبارهم على الطاعة الخانعة الذليلة وعبادة الأصنام والكواكب، فأمر الله تعالى هاروت وماروت أن يكشفا للناس حقيقة السحر وأباطيله، بتعليمهم ما يميزونه به، وكيف يحذرونه ويجتنبونه ويعودون إلى عبادة الله وحده، وهو أسلوب قرآني في التبليغ وإقامة الحجة بشارة ونذارة قال تعالى: { أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ } البلد 10/8، وقال: { إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا } الإنسان3، وقال: { وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ } الأنعام55، وقال حذيفة رضي الله عنه: (كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ الْخَيْرِ وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنْ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ فَجَاءَنَا اللَّهُ بِهَذَا الْخَيْرِ فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: نَعَمْ، قُلْتُ: وَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ؟ قَالَ: نَعَمْ وَفِيهِ دَخَنٌ، قُلْتُ: وَمَا دَخَنُهُ؟ قَالَ: قَوْمٌ يَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ، قُلْتُ: فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: نَعَمْ دُعَاةٌ إِلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ صِفْهُمْ لَنَا، فَقَالَ: هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا، قُلْتُ: فَمَا تَأْمُرُنِي إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ؟ قَالَ: تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ، قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلَا إِمَامٌ؟ قَالَ: فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرَقَ كُلَّهَا، وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ)، وقال الإمام علي كرم الله وجهه مبينا ما كان يفعله الملكان: (كانا يعلمان تعليم إنذار لا تعليم دعاء إليه)، أي كمن يسأل عن حقيقة الخمر فيقال له:" إنه من عنب عُصِر وتُرِك مدة حتى تخمر وصار مسكرا وهو حرام فلا تشربه ".

لقد كان الملكان يقولان للناس: " هذه حقيقة السحر فلا تقربوه أو تمارسوه أو يمارس لكم فإنما هو فتنة عن دين الله وكفر" { وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ}، أي إن ما نبينه لكم من حقيقة السحر ومخاطره فتنة واختبار لكم، يحذران من يستمع إليهما من شيئين، الفتنةِ بالسحر والكفرِ بسببه. الفتنة بأن تستدرجهم أهواؤهم إلى استعماله رجاء الانتفاع الزائف به، والكفر بنسبة القدرة والتصرف في الكون لغير الله تعالى.

إلا أن بعض ذوي الضمائر الميتة والنفوس الخبيثة لم تكن لهم مناعة من الفتنة والكفر، فسخروا الجانب السلبي من تعليم الملكين للإضرار بالناس وإفساد المجتمع وتشتيت الأسر والتفريق بين الأزواج، قال تعالى: { فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ }، وقد عبر بالفعل المضارع (يتعلمون) عن عملية التعلم، للإشارة إلى أن ذلك مستمر للحال والاستقبال، تعلما مباشرا كما كان أولا، وتعلما بالتوارث رواية وتلاوة في كتب السحر والمشعوذين من كل عصر.

ثم أردف مبينا خطورة السحر على الساحر والمسحور، والمجتمع الذي يمارس فيه، فقال: { وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ}. ذلك أن الفساد إذا انتشر في المجتمع تضرر به الجميع، ساحرا ومسحورا له وعاملا على نشره وساكتا عليه، يتسلل إلى أقاربهم وعائلاتهم وأسرهم فيفسدها أولا، ثم يحاسبون به في الآخرة ثانيا. وما ذلك الإضرار إلا بإذن الله تعالى، أي بسننه التي وضعها لكل تجمع بشري، قال تعالى مبينا سنته في ظهور الفساد في الأرض: { ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } الروم41، وقال: { ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } الأنفال53، وقال: { إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ } الرعد11. وقال: { سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا } الأحزاب62.

لقد حرَّمتْ جميعُ الشرائع التي أتى بها الأنبياء والرسل عليهم السلام تَعَلُّمَ السحر وممارستَه، وعَلِمَ بنو إسرائيل ذلك التحريمَ كما عَلِمه غيرهم من النصارى والمسلمين، علموا أن الذين يمارسونه أو يُمارَسُ لهم كفارٌ يفقدون كل نصيب في الآخرة من رحمة الله { وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ }، باعوا أنفسهم للشيطان واشتروا بثمنها مكاسب من السحر زهيدةً حقيرة في الدنيا باهظةَ التكاليف في الآخرة، قال تعالى: { وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ } أي ساء ما باعوا به أنفسهم لو كانت لهم عقول نيرة يعرفون بها نتائج أعمالهم وعواقبها، لأن فعل "شرى يشري" من أفعال الأضداد، ولفظ الشراء في { اشْتَرَاهُ} الأولى بمعنى ابتاعه، أي اشتروا السحر واكتسبوه، وفي الثانية { شَرَوْا بِهِ} بمعنى البيع، أي باعوا أنفسهم.

إن السحر وما يتفرع عنه من ضلالات، لم يقتصر أمر تسخيره على محاربة الإسلام في أول نشأته، بل أضحى في كل عصر من العصور المتلاحقة وسيلة لمحاربة الدين وأتباعه، ينشر به الباطل بديلا عن الحق، ويتقوى به الظلم على العدل، ويُرَكَّع به المستضعفون للاستبداد، وينزوي به الناس في تكايا الذل والخنوع والاستسلام.

لقد جدد السحر أساليبه وطرائقه وأدواته وأهدافه، فاستعمل الوسائط العلمية حاسوبا وشبكات عنكبوتية وقنوات فضائية وأجهزة استراق للسمع وتسجيل، واتخذ الحكام من السحرة بطانات لفك طلاسم مجتمعاتهم، والاطلاع على أحوال الناس وخفاياهم، كلما ظهرت تباشير وعي إسلامي رشيد انطلق سعار عبيد مصالحهم، يسحرون الناس سحرَ تجسس، وسحرَ وشاية ونميمة، وسحرَ تحريض ومكر، وسحرَ قبورية وخرافية وشعوذة، وسحرَ تسلل إلى دعاة الحق لقلب حقائق الأشياء لديهم، وتخريب صفوفهم، وتخذيل تآزرهم وفصم عرى وحدتهم.

لقد استبدلوا الضلال بالهدى، فنبذوا كتاب الله وراء ظهورهم، واشتغلوا بخدمة الظالمين تحت غطاء خرافة زعموها علما، وارتضاع سم ثدي ظنوه لبنا، كما استبدل بنو إسرائيل الذي هو أدنى بالذي هو خير، واشتغلوا بالسحر المركب، سحر عهدي بابل وسليمان، وسحر الغيبة والنميمة والتلصص والبهتان ومكر الليل والنهار، وما دفع القدامى والمحدثين لذلك إلا ما ركب في نفوسهم من حقد على الثابتين الصامدين، وبغضاء وحسد لأولياء الله الصالحين، وطمع في رشى أولي السطوة من النافذين، وحرص على الجاه والسيادة والمنزلة والرئاسة، فعميت أبصارهم وصمت آذانهم، وغابت عنهم مصالحهم الحقيقية التي هي الإيمان والتقوى وثواب الله ورضاه { وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ }.

لقد حلق الحسد والبغضاء والحقد والطمع والحرص دين الطائفتين من السحرة، السابقة واللاحقة، المنقرضة والمعاصرة، كما ورد في الحديث النبوي: (دب إليكم داء الأمم قبلكم البغضاء والحسد، والبغضاء هي الحالقة ليس حالقة الشعر ولكن حالقة الدين)، (وإن من الذنب المسخوط به على صاحبه الحقد والحسد)، فغاب عن أذهانهم مقدار ما خسروه وقيمة ما ضاع منهم في الدنيا والآخرة. ولو حكَّموا عقولهم واستمعوا للناصحين من أولي العلم لفازوا وظفروا { وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ } النساء 83، { وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ } القصص80. كذلك مآل الحَسَدَة للمؤمنين، والمبغضين للصادقين الصامدين، والحاقدين على المسكين بالجمر في كل عصر ومصر { وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } يوسف21.

تميز الشخصية المسلمة

قال الله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (104) مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (105) مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى

كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (106) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (107) أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (108) وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (109) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (110) } سورة البقرة

امتد نزول سورة البقرة عشر سنوات منذ خرج عبد الله بن جحش في سرية إلى بطن نخلة لرصد قافلة قريش في آخر يوم من شهر رجب للسنة الأولى للهجرة النبوية، وقد أشكل عليهم آخر الشهر الحرام مع الأول من شعبان، فأقدموا على القتال فيه، فعيرتهم قريش بأنهم استباحوا الشهر الحرام، ونزل قوله تعالى: { يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } البقرة218/217، وكانت آخر آية منها نزلت ببضع ليال، ثلاث أو سبع أو ثمان، قبيل وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، هي قوله تعالى: { وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ } البقرة281. وبذلك تكون هذه السورة قد غطت المرحلة المدنية كلها، أي ما يقارب نصف زمن البعثة النبوية، مما يجعلها شكلا ومضمونا تمثل الشخصية الإسلامية المتكاملة، التي أسندت إليها إمامة البشرية في مسيرتها الربانية الخاتمة.

إلا أن عملية تأسيس هذه الشخصية المتميزة القيادية، كانت تعترضها عوائق طبيعية من رواسب المجتمع الجاهلي الذي لم يكن قد استؤصل بعد، وعوائق مصطنعة من الأعداء الذين لا يكنون لها إلا الحقد والضغينة والحسد وتربص المقاتل وتصيد المهالك، فكانت بين الفينة والفينة تتسلل إلى المجتمع الإسلامي الناشئ عادات قولية وتصرفية مصدرها تسريب مقصود من أعدائهم اليهود أو غير مقصود بمعاشرتهم قومهم الذين لم يسلموا بعد، وكما هي سنة الله في الخلق كائنا حيا أو غيره إذ لابد لمن يغرس شجرة من أن يرعاها بالسقي والتهذيب والتشذيب والحماية من الأنواء والعواصف وتقلبات الطقس، تولى القرآن والسنة معالجة هذه الحالات، بكل تؤدة وحكمة وتلطف، وبما يحقق لأمة الرسالة شروط القوامة التي بعثت لها وكلفت بها.

أما العوائق الطبيعية فقد كانت آيات القرآن الكريم وتوجيهات الرسول صلى الله عليه وسلم القولية والعملية، تطهر نواياهم وأفعالهم وأقوالهم وتصرفاتهم منها، أمرا ونهيا ووعظا وإرشادا وإعادة تربية وتأهيل، وقدوة حسنة تمشي على الأرض متجلية في نبيهم الكريم.

وأما العوائق المصطنعة وكان مصدر أكثرها اليهود، لما يضمرونه للدعوة ونبيها وأهلها من حقد وبغضاء، وما يبيتونه لهم من مكر وكيد، فقد كان القرآن يتولى كشفها مبينا حقيقتها ومصدرها والدوافع إليها، وأهداف أصحابها وطرق الوقاية منها، بأسلوب حكيم غايته تعميق التوعية السياسية والحركية لدى المسلمين ورفع مناعتهم لمواجهتها ومواجهة ما تتفتق عنه أذهان أعدائهم من إفك وافتراء.

لذلك بعد أن أيأس القرآن الكريم المسلمين في الآيات السابقة من إيمان اليهود، وعرض من كفرهم وجحودهم ما أفقدهم إمامة البشرية وأركسهم في النار، التفت بمنتهى الرحمة واللطف إلى الأمة الجديدة التي تسنمت صهوة المجد باختيارها خير أمة أخرجت للناس، التفت إليها مشذبا شجرتها، مطهرا ساحتها مما يتسرب إليها عن طريق خصومها، فقال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ }، أي يا أيها الذين استجابوا لله تعالى بالإيمان، كفوا عن التأثر باليهود في طرائق حديثهم، فإنها محشوة باللمز والغض من المؤمنين، والتعريض بهم، وقد جعلوا أول أهدافهم النيل بخطابهم المريض من نبيكم الكريم، والتنقيص من شأنه.

لقد كان المسلمون إذا ألقى النبي إليهم شيئا من العلم قالوا له " راعنا " أي أمهلنا حتى نحفظ ما علمتنا، من المراعاة لمقصد الخير وخفض الجناح، وهو تعبير سليم لغةً وصياغة، دأب على استعماله العرب مسلمهم وكافرهم، وقد روي " أن رجلا أتى عبد الله بن مسعود، فقال: اِعْهَدْ إِلَيَّ، فقال: إذا سمعت الله يقول { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا } فأَرْعِها سَمْعَك، فإنه خير يأمر به أو شر ينهى عنه ". إلا أن اليهود لِمَا يتحينونه للصف المسلم وقائده من فرص الإساءة بالتورية الخبيثة والتنقيص الخفي، لم يروا في هذا التعبير إلا تقاربا لغويا مع معنى قبيح في لغتهم العبرية، لاسيما إذا نطق بطريقة تقربه من لفظ الرعونة أو الرعي، فكانوا يأتون الرسول صلى الله عليه وسلم فيقولون: " راعنا يا محمد " ويضحكون فيما بينهم، ويقولون "كنا نسب محمداً سراً فأعلنوا له الآن بالشتم "، وكان سعد بن معاذ رضي الله عنه يعرف لغتهم ففطن لما يعنونه بقولهم " راعنا "، فقال لهم: " عليكم لعنة الله، والذي نفسي بيده يا معشر اليهود لئن سمعتها من رجل منكم يقولها لرسول الله صلى الله عليه وسلم لأضربن عنقه "، فقالوا:" أولستم تقولونها؟ "، فأنزل الله تعالى: { يَاأَيُّهَا الذين آمَنُواْ لاَ تَقُولُواْ رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا }، أبقى المعنى الذي يقصده المسلمون، وصرف اللفظ الذي يستعمله اليهود، لئلا يتخذ سبيلا إلى شتم الرسول صلى الله عليه وسلم والاستهزاء بالمؤمنين، نهاهم عن قول " راعنا " وأمرهم بما هو في معناها وخير منها، وهو { انْظُرْنَا } أي انتظرنا وتَأَنَّ معنا حتى نفهم عنك، وأمهلنا حتى نحفظ، من نَظَر بمعنى انتظر، تقول نظرت الرجل انظره إذا انتظرته وارتقبته، كما ورد في قوله تعالى: { انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُم } أي: انتظرونا نقتبس من نوركم،

وحثهم على أن يحسنوا سماع ما يلقيه عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وما يكلمهم به، بآذان واعيَة وأذهان حاضرة فقال لهم: { وَاسْمَعُوا }، ثم هدأ من فورة غضبهم على اليهود ورغبتهم في الانتقام منهم، فذكر ما ينتظر الكافرين في الآخرة بقوله عز وجل: { وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ }، وهو أسلوب حكيم في التربية على ضبط النفس وكبح جماح الانفعال والعنفوانية، واجتناب التأثر بأخلاق اليهود في عامة الأقوال والأفعال والتصرفات، والالتزام بمقومات الشخصية المتميزة التي تبنيها فيهم عقيدتهم وتعاليم نبيهم. شخصية الصدق وتطابق النوايا بالأقوال والأفعال، لا شخصية اليهود التي يضرب بعضها بعضا تنافيا وتناقضا واضطرابا، يسمعون القول بآذانهم فتفهمه قلوبهم معكوسا وتعبر عنه ألستنهم مقلوبا وينعكس في أعمالهم مكرا وكيدا غدرا وخيانة { مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا } النساء46.

لقد كان اليهود لحقدهم على المسلمين وعجزهم عن المواجهة يستعملون لتنفيس غيظهم القولَ الملتوي السيء والخطاب المحرف الذي باطنه الخبث واللؤم، من ذلك ما أخرجه البخاري عن أنس بن مالك قال: (مر يهودي برسول الله صلى الله عليه وسلم فقال السام عليك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: وعليك، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه: أتدرون ما يقول؟ قالوا: لا، قال: يقول: السام عليك، قالوا يا رسول الله: ألا نقتله، قال: لا، إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا وعليكم). وأخرج الشيخان عن عائشة رضي الله عنها قالت: (دخل رهط من اليهود على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: السام عليك، قالت عائشة: ففهمتها فقلت: عليكم السام واللعنة، قالت: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مهلا يا عائشة إن الله يحب الرفق في الأمر كله، فقلت يا رسول الله ألم تسمع ما قالوا؟ قال: لقد قلت وعليكم).

لقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم حرصا منه على بناء الشخصية الإسلامية المتميزة المتكاملة، ينهى المسلمين عن مبارزة اليهود بالردود الجافة أو المقذعة، ويحثهم على الرفق والتزام حسن الخطاب، وقواعد الآداب ولطيف المعاملة، وعدم مجاراة السفهاء بسفههم حتى في حال صدور الإساءة منهم مبادأة، كما في قول اليهود " راعنا "، أو دعائهم على المسلمين بالسَّام وهو الموت.

وحرصا منه تعالى على أن يكون امتثال المسلمين عن وعي بالواقع وبصيرة بخلفيات الأقوال والأعمال أسبابا ونتائج، دوافع وأهدافا، قال عز وجل: { مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ } فبين علتين، إحداهما علة عدوانية أهل الكتاب يهودا ونصارى ومشركين بجميع أصناف شركهم، وهي كراهيتهم أن ينزل الله خيرا على المسلمين، ولا خير أعظم من تحميلهم أمانة إمامة البشرية وإقامة الخلافة في الأرض، وهو فضل ورحمة يختص بهما الله تعالى من يشاء من عباده، أما ثانيتهما فعِلَّةُ الأمرِ

بإجادة استماع المؤمنين لتوجيهات الرسول صلى الله عليه وسلم، وهي ما يتلقونه منه عن ربهم إيمانا وعملا صالحا، وجزيل ما يوعدون به في الدنيا والآخرة، مع ما في ذلك من إغاظة لعدوهم بمخالفته والترفع عن سفاهاته ورعوناته وسفاسف تصرفاته.

ولما حرم سبحانه على المسلمين قول " راعنا " ونسخها من ألسنتهم وأبدلهم خيرا منها: أن يقولوا " انظرنا "، وأن يجيدوا الاستماع لنبيهم حين مخاطبته لهم تعليما وترشيدا، بين لهم جوهر حكمته في تغيير بعض الأحكام من شريعة إلى شريعة، ومن آية إلى آية ومن حكم إلى حكم. لا سيما واليهود يعيبون على النبي صلى الله عليه وسلم، تغيير بعض الأحكام التي جاء بها كتغيير القبلة من بيت المقدس إلى البيت الحرام، محاولة منهم المشاغبة وإثارة الفتنة في الصف المسلم قائلين:(ألا ترون إلى محمد يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه فما كان هذا القرآن إلا من جهته ولذلك يخالف بعضه بعضاً)، ويَدَّعُون التمسكَ بالتوراة والمحافظة عليها بقولهم: { قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا } البقرة 91، ويزعمون أنها لا تنسخ بتشريع جديد من خارجها، أو كتاب آخر يأتي بعدها، محتجين بأن محمدا صلى الله عليه وسلم يؤمن بها والقرآن مصدق لها، فنفى الله تعالى عنهم حقيقة الإيمان وكشف تناقض أعمالهم ومعتقداتهم مع ما جاء في التوراة بقوله: { وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آَتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } البقرة 93، ثم رد على ما زعموه من عدم جواز النسخ في الأحكام بقوله: { مَا نَنْسَخْ مِنْ آَيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا }. أي لا ينمحي أثر آية كونية بالتقادم والنسيان إلا أتى الله بآية مثلها أو خير منها للتذكير والتحذير، كانفلاق البحر لموسى عليه السلام في قوله تعالى: { أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ } الشعراء63، أتى الله بخير منه وأشد وضوحا، وهو شق القمر للرسول صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى: { اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ وَإِنْ يَرَوْا آَيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ } القمر2/1، وكآية نزول التوراة على بني إسرائيل فلما نسوا أحكامه وغيروه كانت آية نزول الإنجيل، فلما تقاذفه أهله بالنسيان والتحريف كانت آية نزول القرآن الكريم خيرا مما تقدمها من آيات ومعجزات، وتكفل عز وجل بحفظها إلى قيام الساعة فقال: { إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } الحجر9، و هذه القاعدة نفسها تنطبق على المجال التشريعي، فلا ينسخ أو يلغى حكم شرعي في آية قرآنية أو سنة نبوية، إلا أتى الله تعالى ببديل مماثل ومناسب لما استجد من أحوال الناس، أو بآخر خير منه وأكثر نفعا للعباد.

والنسخ في اللغة معناه الإبطال والإزالة، يقال: نسخت الشمس الظل تنسخه إذا أذهبته وأبطلته، وفي المصطلح الشرعي هو بيان انتهاء مدة الحكم بخطاب لولاه لاستمر الحكم السابق على مشروعيته بمقتضى النص الذي تقرر به أولا، أو بيان مدة الحكم الذي كان في توهمنا وتقديرنا جواز بقائه، فتبين لنا أن ذلك الحكم مدته إلى هذه الغاية، وأنه لم يكن قط مرادا بعدها، كما قال صاحب "الفصول في الأصول"، وكما هو مفصل في كتب أصول الفقه. مثل قوله صلى الله عليه وسلم

وكان قد نهى عن زيارة القبور:(كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها فإنها ترق القلب و تدمع العين و تذكر الآخرة و لا تقولوا هجرا). فقد كان ظرف يقتضي المنع من زيارة القبور لتكريس المفاصلة مع طقوس جاهلية كانت مألوفة، وللحفاظ على صفاء الإيمان الجديد في القلوب، فلما استقر في الأفئدة التصور الإيماني السليم نسخ المنع وأبيحت الزيارة بأدبها وأحكامها. كما هو حال الطبيب يستعمل الحمية والتدرج في وصف الأدوية للمريض حسب مراحل شفائه، والنسخ بذلك لا يعدو أن يكون انتهاء أمد مصلحة مقدرة في حكم شرعي لحالة معينة، واقتضاء حكمة الله تعالى أن يبدله للناس بخير منه أو مثله مناسب للحال المستجد.

والمراد تبيانه مجملا أن الله تعالى أكد وقوع النسخ حكمة واختيارا منه لعباده، وهو العليم بما يصلحهم ويصلح لهم، القادر فوقهم، لا معقب لحكمه، فعال لما يريد، لا يسأل عما يفعل وما سواه يسأل، ولذلك عقب على إثباته النسخ بقوله عز وجل: { أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ }.

لقد وقع النسخ للكتب السماوية فَنُسِخ التوراة بالإنجيل، ونُسِخ كلاهما بالقرآن الكريم، ووقع النسخ في شريعة اليهود فأمروا بدخول بيت المقدس ثم نسخ الأمر بالتيه أربعين سنة بعد أن خافوا وجبنوا. ونسخت بعض الأحكام الشرعية في الإسلام، غيرت بما فيه المصلحة والنفع، وما على المؤمنين حقا إلا أن يقولوا سمعنا وأطعنا { فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا } النساء65.

ثم انتقل القرآن الكريم إلى مثلبة أخرى من مثالب بني إسرائيل قد يقلدهم المسلمون فيها، فنبه إليها ونهى عن الإتيان بمثلها، بسؤال استنكاري صريح، فقال: { أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ }.

وحرف (أم) التي استهلت به الآية، حرف عطف مختص بالاستفهام وما في معناه، يفيد في هذه الآية الإنكار على من تورط من المسلمين في مثل أسئلة اليهود، والتحذير من معاملة الرسول صلى الله عليه وسلم بمثل ما عومل به موسى، مبينا أن ذلك كفر وضلال فقال: { وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ }. أي من اختار الكفر فقلد اليهود في معاملتهم لأنبيائهم بدلا من الإيمان الذي من مقتضاه الثقة المطلقة في الرسول صلى الله عليه وسلم واتباعه وطاعته، فقد خرج عن طريق الحق وانحرف عن الصراط المستقيم، كما قال تعالى: { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ } إبراهيم29/28،

لقد نزل هذا التحذير من اتّباع نهج اليهود في التشغيب والجدل بعد أن بدأت حملتهم التشكيكية تتسلل إلى بعض القلوب الضعيفة، فقال بعضهم للرسول صلى الله عليه وسلم:" يا محمد ائتنا بكتاب ينزَّل علينا من السماء، أو فجِّر لنا أنهاراً نتَّبعك ونصدقك "، وقال ابن عباس: " إن رجلا من المسلمين قال للرسول صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله، لو كانت كفارتنا ككفارات بني إسرائيل، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (اللهم لا نبغيها – ثلاثا –، ما أعطاكم الله خير

مما أعطى بني إسرائيل، كانت بنو إسرائيل إذا أصاب أحدهم الخطيئة وجدها مكتوبة على بابه وكفارتها، فإن كفَّرها كانت له خزيا في الدنيا، وإن لم يكفِّرها كانت له خزيا في الآخرة، فما أعطاكم الله خير مما أعطى بني إسرائيل، قال: { وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا } النساء 110)، وقال صلى الله عليه وسلم: (الصلوات الخمس من الجمعة إلى الجمعة كفارات لما بينهن)، وقال: (من هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب عليه، وإن عملها كتبت واحدة، ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة واحدة، وإن عملها كتبت له عشر أمثالها، ولا يهلك على الله إلا هالك، فأنزل الله عز وجل: { أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ } ".

وقد وردت نَوَاهٍ من الكتاب والسنة عن المبالغة في سؤال الرسول صلى الله عليه وسلم، فقال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ } المائدة 102/101، وقال صلى الله عليه وسلم:(ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ فَإِنَّمَا أُهْلِكَ أَهْلُ الْكِتَابِ قَبْلَكُمْ، أَوْ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، بِكَثْرَةِ اخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ وَكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ، فَانْظُرُوا مَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَاتَّبِعُوهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَمَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَدَعُوهُ أَوْ ذَرُوهُ)، وقال: (إن أعظم المسلمين جُرْمًا من سأل عن شيء لم يحرم، فحرم من أجل مسألته).

ولم يترك القرآن فرصة للنهي عن هذه التصرفات المتسللة إلى المجتمع الإسلامي الناشئ من غير أن يشفعها بمزيد توعية وترشيد للصف المسلم وتعريفه بخصومه العقديين الذين يتربصون به الدوائر ويعملون على تخريبه والقضاء عليه، فعقب بقوله تعالى: { وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ }، وكشف بذلك النوايا الدفينة لأهل الكتاب وأهدافهم الرامية إلى أن يرتد المسلمون عن دينهم، والأسباب الداعية إلى هذه الرغبة الخبيثة، وهي معرفتهم للحق الذي آثر رب العزة به المسلمين، والحسد الذي سكن نفوسهم بذلك.

وقد روي في سبب النزول أن نفراً من اليهود قالوا لحذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر بعد وقعة أحد: ألم تروا ما أصابكم؟ ولو كنتم على الحق ما هزمتم، فارجعوا إلى ديننا فهو خير لكم وأفضل ونحن أهدى منكم سبيلاً، فقال عمار: كيف نقض العهد فيكم؟ قالوا: شديد. قال: فإني قد عاهدت أن لا أكفر بمحمد ما عشت. فقالت اليهود: أما هذا فقد صبأ. وقال حذيفة: وأما أنا فقد رضيت بالله رباً وبمحمد نبياً وبالإسلام ديناً وبالقرآن إماماً، وبالكعبة قبلة، وبالمؤمنين إخواناً. ثم أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبراه فقال: (أصبتما خيراً وأفلحتما)، فنزلت.

ثم لم يكتف القرآن بالترشيد العقدي والتوعية بحقيقة صراع المبادئ والقيم حتى عرج على الجانب الأخلاقي والعبادي للصف المسلم وعمل على تثبيت أركانه كيلا يعصف به تشغيب يهود والاشتغال بالرد عليهم، فقال: { فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ }، أمر المسلمين بمقابلة إساءة أعدائهم بالعفو والصفح، و ترقب أمر الله الذي هو الهدف الأصيل

لوجودهم في الأرض، الأمة الشاهدة التي تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله، وتقيم أمر الإسلام ظاهرا على الدين كله، وما ذلك على الله بعزيز { إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }.

وحيث إن للمسلمين ربا تكفل بالدفاع عنهم، وهدفا أكبر مما يحاول أعداؤهم أن يستدرجوهم إليه ويشغلوهم به، وقلوبا ينبغي ألا تتكدر بسفاسف الجدل والمراء، فإنه تعالى أمرهم أن يفوضوا الأمر إليه، وأن ينصرفوا عن المعارك الهامشية إعراضا واستعلاء، بالعفو والصفح عن الخصوم، وأن يلتفتوا إلى ما ينفعهم في الدنيا والآخرة، ويشتغلوا بالخير الأرجى عند الله تعالى، وهو إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والعمل الصالح، فقال عز وجل: { وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ }، بصير بجميع أعمال العباد، خيرها وشرها، يدخرها لهم عنده { يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا } آل عمران 30، ولن تضيع أعمالهم أبدا { لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ } هود115، لا يُخْذَل من التجأ إليه، ولا يخيب من اعتمد عليه، ولا يذل من احتمى بحماه.

هكذا يمضي القرآن الكريم في تأسيس الشخصية الإسلامية المؤهلة لحمل أخطر أمانة في الدنيا، أمانة الاستخلاف والإمامة، وإقامة الحجة في الحياة تبليغا وهداية، وبشارة ونذارة { إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ } الأحزاب 72، وأمانة الشهادة في الآخرة، تحت نظر نبيهم صلى الله عليه وسلم، وسمعه وشهادته { لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا } البقرة143، وبناء النموذج القرآني في تكامله وتميزه، إيمانا صادقا، وتصورا عقديا للكون وعلاقته بربه، وخلقا عاليا مترفعا عن الضغائن، متعاليا عن الصغائر، وتفكيرا حيا متحركا واقعيا يفقه حقيقة التصرفات وخلفياتها ودوافعها ونتائجها سلبا وإيجابا، وورعا يعصم من العدوى أو التأثر بأمراض النفوس وعلل الأخلاق وسيئ العادات والأعراف والتقاليد، ووعيا سياسيا واجتماعيا يقي المرءَ مكرَ الماكرين وكيد الكائدين، ودسائس الحاسدين والحاقدين.

التصور الإيماني السليم
وهجوم ملل الكفر المتحدة

قال الله تعالى { وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (111) بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (113) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (114) وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (115) وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (116) بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (117) وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (118)} سورة البقرة

بلغت مدرسة الشيطنة التي أسسها بنو إسرائيل ذروة نشاطها الإعلامي للتشكيك في الدين الإسلامي وثوابته العقدية والعبادية، وجندت معها النصارى والمشركين، وتلاقحت عقول هذه الطوائف جميعا لتلفيق الادعاءات، ونسج الأباطيل، وترديد الأقاويل المتهافتة، والاعتراضات التي لا تقوم على أساس، كي ينشغل المسلمون عن فهم دينهم والتفقه فيه، ويتيهوا في الردود على ما يحشو به اليهود عقول البسطاء من العامة، ولم يكن القرآن الكريم ليدع هذه الحملة الشرسة تؤتي أكلها، أو تثمر ثمارها المرّة في الصف المسلم، بل كان يتصدى لها منافحا عن الحق مبينا طريقه، كاشفا إفك الأفاكين وافتراء المفترين، وما ران على قلوب الضالين والمغرضين، لاسيما عندما يتعلق الأمر بمحاولة طمس معالم التصور الإيماني السليم لدى المؤمنين، بالتلبيس على معرفتهم بالخالق والمخلوق والعلاقة بينهما، أو التمويه على قاعدة الجزاء يوم الدين التي فهموها من كتاب ربهم وتوجيهات نبيهم، أو على مقاييس تمييز المصلح من المفسد، وأهل الجنة من أهل النار. وهو ما كان التركيز على تخريبه والمشاغبة عليه من طرف أعدائهم.

ولئن تبين للمسلمين في الآيات السابقة مقدار ما يكنه اليهود للمسلمين من حسد وبغضاء، بقوله تعالى: { وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ } البقرة 109، فإن القرآن الكريم هنا يبين دوافع هذا الحسد وخلفيته، وهي معرفتهم الجازمة بصواب ما جاء به الإسلام، وأهلية أتباعه لدخول الجنة، ويعرض نماذج مما أخذوا يخترعونه من أباطيل، لتشكيك المسلمين في عقيدتهم، وحرفهم عن دينهم، وتخريب صفهم، وكان مما زعموه في هذا المجال ادعاء الاستئثار بالجنة وحدهم، مما أثار حفيظة النصارى فنافسوهم وادعوا كذلك أنها خاصة بهم وسالمة لهم من دون العالمين، وهو ما حكاه القرآن في قوله تعالى: { وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى }، أي قالت اليهود لن يدخل الجنة إلا اليهود وقالت النصارى لن يدخل الجنة إلا النصارى، إلا أن إيثار الإيجاز في التعبير القرآني، وما عرف عن الفريقين من التنافي والعداوة، وما يفهم من السياق بداهة، أدى إلى الاكتفاء بجملة واحدة عند الإخبار بمزاعم الفريقين، كما قال تعالى في آية أخرى: { وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا } البقرة 135، أي قالت اليهود كونوا هودا تهتدوا، وقالت النصارى كونوا نصارى تهتدوا، وقد جمع القرآن قولي الطائفتين فيما صدر عن كل منهما من نفي دخول الجنة على الآخر، ثم قسم القولين بحرف العطف "أو" لِيُرْجِع السامعُ كلَّ قول إلى قائله، مبتدئا بما زعمه اليهود في الاستئثار بالجنة، لأنهم رأس الحربة في الحملة على المسلمين والأسبق إليها، ولأن هذا السلوك نزعة فيهم راسخة على مدار تاريخهم في التمرد والاستعلاء، كثيرا ما تستفز الطائفية وتثير ردود فعلها، فتندلع الحروب والفتن بين الملل، وتنغلق العقول والقلوب عن رؤية الحق اعتزازا بالباطل، معاندة وضرارا، وهو ما تسرب للنصارى فأعلنوا مكايدة لليهود والمسلمين معا، أن الجنة خاصة بهم، وهو أيضا ما تسرب إلى المسلمين في عصور التخلف والجهل والانحطاط، بعد تفرقهم مللا ونحلا ومذاهب وشيعا، فأخذ كل فريق منهم يمهد الأمل لنفسه، ويظن النجاة خاصة به، يكفر من يشاء ويؤسلم من يريد، ويوزع مفاتيح الجنة حسب هواه.

ولهؤلاء جميعا على مدار وجود الإنسان في الأرض قال رب العزة سبحانه وتعالى: { تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ } أي تلك أوهامهم وتخيلاتهم وتشهياتهم غير المؤسسة على حق أو حقيقة، وقد عبر بصيغة الجمع (أماني)، لأن الآية جواب على ثلاث أمنيات كاذبة لأهل الكتاب، أولاها أمنية أن لا ينزل على المؤمنين خير من ربهم كما قال تعالى: { مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُم } البقرة 105، وثانيتها أمنية أن يرتد المسلمون عن دينهم { وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقّ } البقرة 109، وثالثتها أمنيتهم في هذه الآية الكريمة، وهي ألا يدخل غيرهم الجنة، فَسَفَّهَ القرآن الكريم أمانيَّهم كلَّها بقوله تعالى: { تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ }.

ثم عقب تعالى على ذلك بأمره الرسول صلى الله عليه وسلم أن يستفز عقولهم الراكدة ويستثير معرفتهم بكتبهم التي بين أيديهم، فقال: { قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ }، وهو طلب تعجيزي لهم، إذ ما دامت الجنة وأمر دخولها من

الغيب الذي استأثر الله تعالى به، لا يُعْلَم إلا بالوحي إلى الأنبياء والرسل، واستئثار اليهود أو النصارى بالجنة لم يرد في توراة أو إنجيل، فمن أين لهم البرهان على ما زعموا، وما هم في ذلك إلا كَذَبَة على الله تعالى، يقولون ما لا يعلمون. وفي الآية أيضا إشارة واضحة إلى أن قضايا الدين غيبا وشهودا لا يحتج فيها بالهوى والمزاعم، وكل قول فيها لا دليل عليه باطل، والدليل الشرعي خبر صحيح عن الله تعالى.

ثم بَيَّن رب العزة من يدخل الجنة، ومقياسَ دخولها، وهو طبعا مقياس غير طائفي أو فئوي، بل عقدي عادل يسع الناس جميعا، فقال: { بَلَىٰ } أي ليس الأمر كما تزعمون، بل يدخلها غيركم من الذين استجمعوا شروط دخولها وهم: { مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ }.

أول شروط دخول الجنة إسلام الوجه لله تعالى، وقد عبر بالجزء عن الكل، بالوجه عن الروح والقلب والجسد، أي الطاعة الكاملة والاستسلام التام لدين الله تعالى وتعاليمه، كما عبر عن العقيدة المنجية بقوله { أَسْلَمَ }، إشارةً إلى دين أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام، الحنيفية التي جددها الوحي على يد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وتلميحاً إلى الاستجابة الطوعية المسارعة من إبراهيم لأمر ربه عز وجل { إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } البقرة 132/130، وهو رد غير مباشر على مزاعم اليهود والنصارى وتعريض بشركهم المانع لهم من دخول الجنة، كما قال تعالى: { مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } آل عمران67.

والشرط الثاني لدخول الجنة أن يكون الإسلام على درجة مقبولة من الإحسان، يجمع بين يقين القلب وعمل الجوارح، وصدق التوجه، ولئن كان الإسلام الظاهر للملأ هو قيام الجوارح بوظائف الأحكام، والإيمان بين الجوانح أن يؤمن المرء بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره، فإن الإحسان أن يعبد الله كأنه يراه فإن لم يكن يرى الله فإن الله يراه، وهو ما فصله حديث جبريل عليه السلام إذ جاء النبيَّ صلى الله عليه وسلم، فيما رواه الإمام البخاري عن أبي هريرة، والإمام مسلم عن عبد الله بن عمر عن أبيه.

هذان الشرطان مفتاح دخول الجنة، لليهود جميعا قبل أن ينسخ دينهم على يد عيسى عليه السلام، وللنصارى كلهم قبل أن ينسخ دينهم ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم. والمقياس بذلك ليس فئويا أو طائفيا، وإنما هو فردي خاص بكل امرئ على حدة { كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ } الطور21، جوهره ما وقر في القلب وعبر عنه اللسان وصدقه العمل، ومن كان كذلك { فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } لن يضيع أجر عمله عند الله تعالى يوم القيامة، وله الجنة لا خوف فيها ولا حزن، وإنما سرور وسعادة دائمة ما دامت السموات والأرض: { إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ

الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ } الأنبياء 103/101، { وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ } هود108.

ولما أبطل عز وجل في هذه الآية الكريمة دعوى اختصاصهم بالجنة وأثبتها للمحسنين، عطف عليها بآية أخرى لزيادة بيان طبيعة أهل الكتاب المنحرفة، في تنابزهم بالباطل واعتزازهم بالضلال، وغفلتهم عما جاء في كتبهم، فقال: { وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ }، وكشف للمسلمين بذلك مدى تباغضهم وتعاديهم وتعاندهم وتناقض مزاعمهم، وقد ذكر ابن إسحاق سبب نزول الآية روايةً عن ابن عباس قال: " لما قدم أهل نجران من النصارى على رسول الله صلى الله عليه وسلم، أتتهم أحبار يهود، فتنازعوا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال رافع بن حُرَيْملة: ما أنتم على شيء، وكفر بعيسى وبالإنجيل، وقال رجل من أهل نجران من النصارى لليهود: ما أنتم على شيء، وجحد نبوة موسى وكفر بالتوراة، فأنزل الله في ذلك من قولهما { وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ } ".

لقد كان لليهود كتاب يقرؤونه هو التوراة، وللنصارى كتاب يقرؤونه هو الإنجيل، وحق الذين حُمِّلوهما ألا يكفِّرا بعضهما، لأن كل واحد من الكتابين مصدق للثاني، وكذلك جميع ما أنزل الله تعالى على الأنبياء من كتب، كلها متواردة على تصديق بعضها البعض.

وهذا القول من يهود زمن البعثة النبوية ونصاراه، وإن جاء على سبيل الذم لهم، فإنه يقتضي أنهم صادقون في تسفيه بعضهم، على رغم ما بين أيديهم من التوراة والإنجيل، لأن اليهود كانوا على شيء ثم بدلوا وغيروا وكفروا، والنصارى كانوا أيضا على شيء ثم ابتدعوا وحرفوا وأشركوا، وما تجاحدهم بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا مجرد عناد ومكابرة وكفر ومقابلة للمزاعم الفاسدة ببعضها.

وزيادة في التشنيع علي الطائفتين والسخرية بجهلهما لما في كتابيهما وتجاهلهما لما في شريعتيهما، شبههما بالمشركين الذين لا كتاب لهم ولا علم، فقال: { كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ }، أي إذا كان هذا قول قوم هم أهل كتاب فلا عجب إذا طابقت أقوال المشركين الجهلة أقوالهم، وشابه تعاندُهم تعاندَهم. فهم وعبدة الأوثان من قريش سواسية في الإعراض عن الإسلام، والاعتزاز بالكفر والشرك، والتلهي عن المصير المحتوم بالتمني الكاذب والأمل الزائف، لذلك ذكرهم رب العزة تهديدا ووعيدا، بميعادهم يوم الحساب العسير والحكم العادل، فقال: { فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ }، يوم يعرضون على الله تعالى يهودا ونصارى وعباد أصنام، فيفصل فيما كانوا يعتنقونه من مزاعم وأباطيل مختلفة متخالفة، ويوفي كلا منهم جزاء كفره وجحوده وعناده. وهذا منه تعالى صرف غير مباشر للمسلمين عن الدخول في متاهة الجدل حول باطل أقوالهم وتفاهة أحكامهم ومعارفهم، لأن لهم يوما يعرفون ما فيه وما وراءه، قال تعالى: { قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ }

سبأ 26/25، وقال: { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ } الحج17.

وبعد أن عرض القرآن تشكيك أهل الكتاب في ثوابت عقيدة المسلمين وما وعدوا به من الجنة، انتقل إلى تحالف مشركي قريش معهم في حملتهم على ثوابت العبادة، فقال تعالى: { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا }، ولئن كانت هذه الآية الكريمة عامة في جميع من يسعى لخراب المساجد ومنع الناس من العبادة فيها، فإنها حسب السياق الذي وردت فيه تعني أيضا مشركي قريش إذ عملوا على خراب المسجد الحرام، وسعوا في إفراغه من العابدين والذاكرين والركع السجود، وتركوه مرتعا للأصنام وعراة المشركين الطائفين حوله، ولا خراب له أشد من ذلك، ومنعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلاة فيه عند الكعبة، وحالوا يوم الحديبية بينه وبين أن يدخل مكة لأداء العمرة، حتى نحر هديه بذي طُوًى وهادنهم، وقال لهم: ما كان أحد يَصُد عن هذا البيت، وقد كان الرجل يلقى قاتل أبيه وأخيه فلا يصده، فقالوا: لا يدخل علينا مَنْ قتل آباءنا يوم بدر وفينا باق.

ثم أخذ القرآن الكريم كعادته في التدرج عند إصدار الأحكام الشرعية، يمهد لتحريم دخول الكفار بيت الله الحرام، ومكة كلها حرم، فقال معقبا على ظلم قريش إذ استعمروه بالأصنام والأوثان وحرموا المسلمين منه بالتهجير إلى المدينة، ومنعوهم من أداء العمرة: { أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ } وجمع للمشركين بين خزي الدنيا ذلا وهوانا، وعذاب الآخرة في جهنم خذلانا وخسرانا، وهي بشارة ضمنية منه عز وجل للمسلمين بأنهم سيفتحون مكة فتكون لهم القوامة على المسجد الحرام وعلى كافة المساجد غيره، وأمْرٌ لهم إذا ما كان ذلك بأن يمنعوا المشركين دخوله إلا دخول الذل والصغار والخوف، وقد تحقق ذلك بفضل الله تعالى عندما دخل المسلمون مكة فاتحين في شهر رمضان سنة ثمان للهجرة، فانخلعت قلوب المشركين فَرَقاً ورعبا، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم:(مَنْ دَخَلَ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ فَهُوَ آمِنٌ)، فهُرِعوا إلى بيت الله خائفين مذعورين يطلبون الأمن والأمان، ثم نودي في العام القابل سنة تسع للهجرة برحاب منى: (ألا لا يَحُجَّن بعد العام مشرك، ولا يطوفن بالبيت عُريان، ومن كان له أجل فأجله إلى مدته)، عملا بقوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا } التوبة28. وبذلك تأكدت عمليا للمسجد حرمته على مدار التاريخ، ثم زاد الله من فضله على المسلمين فجعل لهم الأرض مسجدا وطهورا، إذا افتقدوا الماء تطهروا تيمما بالتراب، وإذا لم يكن مسجد صلوا أينما كانوا، قال صلى الله عليه وسلم: (أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لِي الْمَغَانِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً).

ثم طور اليهود حملتهم على ثوابت العبادة إلى محاولة التشكيك في صلاة المسلمين، فتناولوها من حيث قبلتها، إذ كانت أول الأمر إلى بيت المقدس في حالة الإقامة، وإلى أي اتجاه في حالة السفر تطوعا، أو حالة الخوف والحرب فرضا، فشنَّع اليهود عليهم ذلك وسخروا منهم وقالوا: (ما درى محمد وأصحابه أين قبلتهم حتى هديناهم)، فأنزل الله تعالى قوله: { وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}.

عن عبد الله بن عامر بن ربيعة، عن أبيه قال:"كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في ليلة سوداء مظلمة، فنزلنا منزلا فجعل الرجل يأخذ الأحجار فيعمل مسجدا يصلي فيه، فلما أصبحنا، إذا نحن قد صلينا على غير القبلة، فقلنا: يا رسول الله لقد صلينا ليلتنا هذه لغير القبلة، فأنزل الله عز وجل: { وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ }، أي أن التوجه في حقيقته هو لله تعالى سواء كان للمشرق أو للمغرب، كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (ما بين المشرق والمغرب قبلة)، ولئن روي عن سبب نزولها روايات مختلفة، واختلف في كونها منسوخة أو غير منسوخة، فإنها جاءت عامة في صياغتها، خاصة في معناها بحالة عدم القدرة على معرفة القبلة أو التوجه إليها، لظروف قاهرة، لعجز أو مرض، وفي صلاة التطوع سفرا، وصلاة الخوف في الحرب وغيرها.

ثم ينتقل القرآن الكريم بعد ذلك إلى الرد على أخطر ما يُرَوِّجه النصارى والمشركون بين المسلمين من فساد عقيدة وضلال تصور إيماني، فقال: { وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ }، حكاية عن اليهود حسب السياق، لأنهم قالوا عزير ابن الله { وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ } التوبة 30، إلا أن مقالتهم هذه منصبة بعمومها على النصارى والمشركين أيضا، لمساواتهم اليهود فيها، قال تعالى: { وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ } الأنعام 100، وقد ادعى النصارى للرحمن الولد { وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ } التوبة 30، وزعم المشركون أن الملائكة بنات الله كما قال تعالى عنهم: { وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ } النحل 57، قال مجاهد: قال المشركون: الملائكةُ بناتُ الله. فسأل أبو بكر رضي الله عنه – مستهزئا بمزاعمهم-: فمن أمهاتهن !؟ قالوا: بنات سَرَوات الجن.

لقد وحد هذا الهجوم الشرس على عقيدة المسلمين في زمن البعثة النبوية، كلا من اليهود رأسِ الحربة فيه، والنصارى والمشركين، والكفرُ ملةٌ واحدةٌ كما قال عمر رضي الله عنه، وهو اتحادٌ ظل العمل به ساريا على امتداد التاريخ، وقد تزامن من قبلُ الغزوُ الصليبي مع الاكتساح الوثني المغولي لبلاد المسلمين قاطبة، ثم تبعه في ثلاثة قرون متوالية – الثامن عشر والتاسع عشر والعشرين – اقتسامُ بلاد المسلمين كلها من طرف نصارى أروبا، وملاحدة الاتحاد السوفياتي، وشراذم يهود العالم، ثم هم حاليا وقد استقدمتهم على أكثر من سبعين راية، بوذيين ونصارى ويهودا، طائفية بعض الشيعة وخيانة بعض حكام السنة، عربا وعجما، لغزو بلاد المسلمين في باكستان وأفغانستان والعراق وفلسطين والسودان...

كل هذه الحملات قديمها وحديثها تروم في أول أهدافها قبل الاستحواذ على أي ثروة، إفسادَ عقيدة المسلمين في تصورهم الإيماني لله ربوبية وألوهية وأسماء وصفات، وللخلق عبودية خالصة وطاعة خاضعة وقنوتا خاشعا، وما جيوش

المبشرين والصهاينة المرافقة لهذا الغزو الصليبي حاليا في ربوع المسلمين، تحت سمع حكامهم وبصرهم وعجزهم، بخافية على أحد.

لقد كان هذا الزعم الباطل باتخاذ الله الولد وقد أجمعت عليه طوائف الكفر، منتهى الإفك والضلال والفساد كما قال تعالى: { وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا } مريم 91/88، ولذلك تصدى القرآن الكريم لتسفيهه ودحضه والرد عليه فيه، فقال: { سُبْحَانَهُ} وسبحانه: مصدر لفعل سبح بمعنى نزه، أي تنزه تعالى عن كل نقص، ومن النقص أن يتخذ الولد، ومن الكفر أن يُدْعى له الولد، لما في ذلك من تشبيه وحدوث وافتقار، وفي الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:(لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله، إنهم يجعلون له ولداً، وهو يرزقهم ويعافيهم)

ثم بعد أن أكد تنزيه الله تعالى عن اتخاذ الولد عقّب تصحيحا وتوضيحا وتبيانا لحقيقة علاقته عز وجل بالكون ومالكيته له وقيوميته عليه فقال: { بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } أي كل ما في الكون مملوك له يتصرف فيه كيف يشاء، وهو غني عن اتخاذ الولد، إذ التوالد والتناسل علامة الفقر والضعف، وسبيل إلى طلب العون والمحافظة على النوع، والله تعالى منزه عن كل هذا، واحد في ذاته وصفاته، قوي قادر { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ } الشورى11. والعلاقة بينه وبين الكائنات علاقة رب بعباده: { كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ }، أي عابدون مطيعون خاضعون منقادون، والقنوت معناه الخشوع والإقرار بالعبودية ولزوم الطاعة مع الخضوع، وهو العلاقة الثابتة الدائمة بين الله تعالى وبين خلقه { إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا } مريم93. وما سوى ذلك من مزاعم طوائف الكفر والشرك إفك وضلال.

وبعد أن نزه القرآن الله تعالى عن اتخاذ الولد، وبين ملكيته للكائنات، ووضح علاقة العبودية التي بينه وبين خلقه، انتقل إلى إتمام عناصر التصور الإيماني السليم بتوضيح أمرين:

أولهما جميل صنعه وإبداعه فيما خلق من السموات والأرض، فقال: { بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ }، أي منشئهما وموجدهما دقة وجمالا وإتقانا، على غير مثال ولا أصل، مما هو شاهد على واسع قدرته وعلمه { الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ } الملك3.

وثانيهما طريقة الخلق فقال: { وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ }، أي إذا أراد سبحانه وتعالى حدوث أمر حدث فورا، والتعبير عن أمره بالحدوث بكلمتي { كُنْ فَيَكُونُ } كناية عن سرعة الاقتدار، وليست إرادته تعالى محتاجة إليهما إن أراد قضاءَ أمرٍ أو إحداثَ جديدٍ، قال تعالى: { وَمَا أَمْرُنَا إلا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ } القمر 50.

بذلك يتم الرد الإلهي قرآنيا على ما تحاول طوائف الشرك تسريبه إلى معتقدات المسلمين، من فساد تصور، وضلال عقيدة، وهو أيضا ما كان الرسول صلى الله عليه وسلم يحرص على مواجهته وتحذير صحابته منه، وقد قال له عمر يوما:

" إنّا نسمع أحاديث من يهود تعجبنا، أفترى أن نكتب بعضها؟ " فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(أمتهوّكون أنتم كما تهوّكت اليهود والنصارى؟ لقد جئتكم بها بيضاء نقية، ولو كان موسى حيّا ما وسعه إلا اتباعي)[18]

لقد كانت هذه التوضيحات القرآنية والتحذيرات النبوية للحفاظ على استمرارية صفاء الإسلام ونقائه وسلامته من الشرك في المعتقد والممارسة والتطبيق. ذلك أن أيّ خلل يصيب التصوّر الاعتقادي لطبيعة العلاقة بين الله وخلقه، ينشأ عنه خلل في العبادة واضطراب في السلوك، وتصدع في العلاقات بين الناس فيما بينهم، وبين الناس وبين غيرهم من المخلوقات التي تعيش معهم في هذا الكون الفسيح. فالله سبحانه وتعالى هو خالق كلّ شيء، ومالكه وربّه ورازقه ونافعه وضاره ومحييه ومميته، وهو معهم أينما كانوا بغير حلول أو انتقال أو تجسيد أو تشبيه، يسمع دعاءهم ويجيب مضطرهم ويعلم سرّهم ونجواهم، بدون واسطة من جنّ أو إنس أو ملائكة أو غيرهم؛ والإنسان مخلوق من جملة مخلوقات الله، عبد من عبيده طوعا أو كرها، مقهور تحت قاهريّته المطلقة، مربوب تحت ربوبيته الشاملة، بقيوميته الكاملة.

والصلة بين الله والإنسان رسولا كان أو نبيا أو شخصا عاديا، صلة عبودية خالصة { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ } الذاريات 56، على سبيل الحصر والتأكيد. والاتّصال بين الله والإنسان في الدنيا لا يكون إلاّ وحيا أو من وراء حجاب { وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ } الشورى 51.

الإنسان في التصوّر الإسلامي شيء مثل جميع المخلوقات الأخرى. والله سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء وهو السميع العليم.

هذا التصوّر الشامل عندما يختل، يختل تبعا لذلك الدين كلّه، عقيدة وعبادة وشريعة وعلاقات اجتماعية. فينشأ بين البشر من يزعم لنفسه أو لغيره من المخلوقات، بشرا أو جنّا أو ملائكة أو حجرا أو شجرا، صفات مميزة وقدرات خاصة لتلقي الإلهام أو الغيب أو الحكمة أو النور.

وبذلك تفتح أبواب للضلال بالزيادة أو النقص، أو بإنشاء التكاليف أو إلغائها، أو بعبادة الملائكة أو الجنّ أو الأنبياء والرسل والصالحين.

هذا التصور الإيماني الصافي السليم هو الذي يحفظ للأمة وحدتها وتميزها وإمامتها في الدنيا، وهو أس الولاء الحق الذي ينبغي أن يحل في قلب المؤمن ويظهر في سلوكه، لأن لِمُيُوعة الولاء وهشاشته أثرا بَيّناً لدى صاحبه، يميل به مع الرياح حيث تميل، وتختل لديه بمخالطة المنحرفين المقاييس، قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ

[18] – متهوكون أي متحيرون في دينكم

} آل عمران 118، وهو ما تجلى في تصرفات المشركين إذ جمعتهم العداوة للمسلمين مع اليهود فتأثروا بمعتقداتهم الضالة وأخذوا يرددون للرسول صلى الله عليه وسلم مطالب اليهود لموسى عليه السلام فقالوا: { وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ }، وما هذه المقولة من المشركين إلا بتلقين من اليهود وتأثر بهم، وعناد وعتو وكفر أشربته قلوبهم، قال تعالى: { يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ } النساء153، وقال تعالى: {وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ } الإسراء90/93.

لقد شابَهَتْ قلوبُ المشركين في عنادهم وكفرهم وجحودهم قلوبَ اليهود والنصارى قَبْلَهم { تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ }، وبيان الله لهم فيما قالوه هو بيانه لمن سبقهم، فمن أيقن وصدق فقد فاز، ومن ختم الله على قلبه بالضلالة فقد شقي وخسر { قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ }.

نهاية أمة وابتعاث أخرى

قال الله تعالى: { إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ (119) وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (120) الَّذِينَ آَتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (121) يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (122) وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (123)} سورة البقرة

اتخذ القرآن الكريم من بني إسرائيل نموذجا صارخا لتعثر البشرية في مسيرتها الإيمانية واضطراب علاقتها بربها وبالكون من حولها، ما بين مبعث إبراهيم عليه السلام وإرسال محمد صلى الله عليه وسلم، وقد عرفت خلالها لمحات إيمانية ناصعة، وانتكاسات عقدية فظيعة.

كان مبدأ الأمر مع إبراهيم وبنيه هداية نيرة، وربانية صادقة، منذ استضاء قلبه بنور الحق فصاح في قومه ثائرا على ضلالهم، حريصا على هدايتهم وإنقاذهم: { يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ } الأنعام 79/78، وكان بذلك القدوة في التمسك بالحق ونشره والتحرك به

والصبر على الأذى في سبيله { قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ } الممتحنة 4، واستمرت مسيرة الحق بعده في ولديه اسماعيل واسحاق، وأوصى به حفيدُه يعقوبُ بنيه إذ حضره الموت { إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ } البقرة 133.

ثم عرفت مسيرة الحق هذه بعد ذلك عثرات غابت بها معالمه وتبلبلت بها مفاهيمه، إلى أن بعث موسى عليه السلام لتجديده وإعادة بلورته، فكانت معاناته ومعاناة الأنبياء بعده مع بني إسرائيل وعنادهم وتعنتهم وعتوهم وتداولهم على تكذيب رسل الله وقتلهم ومطاردتهم، مما بينته بتفصيل سورة البقرة فيما سبق مما شرح آنفا.

وكان لابد وقد ضلت البشرية وبلغت حضيض الانحراف، من حركة إبراهيمية جديدة، تعيد للحق صفاءه وقوته وحاكميته، تجلت في بعثة محمد صلى الله عليه وسلم بالقرآن الكريم، يجلو به عن الدين ما عراه من صدأ قوم مشركين ابتداء، وآخرين من يهود ونصارى بدلوا وغيروا فسقطوا في الشرك انتهاء.

لذلك بعد أن بين الله تعالى فيما سبق من سورة البقرة ضلال القوم وتكذيبهم، وأصدر حكمه الصارم العادل فيهم لعنة وخلودا في النار، التفت إلى نبيه صلى الله عليه وسلم يصرفه والمؤمنين معه، عن مزيد الانشغال بمكر خصوم الدين أو الاهتمام بكيدهم وانحرافهم إلا بقدر ما يحفظ للصف المؤمن وحدته وصفاء معتقده، وما عليه من الحق، فقال له: { إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ }.

والإرسال بالحق أو إليه معناه التحرك به وإليه، حاملا له وقاصدا له، وما دام المرسِل هو رب العالمين، فما على الرسول إلا الامتثال المطلق والفطانة والفهم في التلقي، والصدق والأمانة في الأداء، وهو ما طبع حياته صلى الله عليه وسلم منذ خوطب بقوله تعالى: { اِقْرَأْ } وأمِرَ { يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ } 2/1، فلم ينم من الليل إلا قليلا، ولم يأكل من الطعام إلا شعيرا، ولم يكسب من المال درهما أو قطميرا، وكان بذلك نعم المجدد للحنيفية السمحة، الوارث للحق، والقدوة الحسنة في نصرته والتحرك به والجهاد في سبيله. ولئن اهتدى إلى الحق على يده ثلة تمسكت به ونصرته ونشرته في مشارق الأرض ومغاربها، فإن نوره مازال يسطع في الربوع لا يخبو، وسراجه يتلألأ في سماء البشرية لا ينطفئ، قال صلى الله عليه وسلم:(لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ)، وقال مشتاقا إلى من يحمل الحق ممن يأتون بعده من هذه الطائفة المنصورة:(وَدِدْتُ أَنِّي لَقِيتُ إِخْوَانِي الَّذِينَ آمَنُوا بِي وَلَمْ يَرَوْنِي).

إن الحق الذي أرسل به الرسول صلى الله عليه وسلم هو الدين الصحيح الكامل عقيدة صافية وتصورا إيمانيا واضحا، وأحكاما شرعية رشيدة، ونظام حياة للفرد والمجتمع والدولة، وهو الإسلام، مفتاح سعادة الدنيا والآخرة، لا يقبل من أحد غيره، قال تعالى: { إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ } آل عمران19، وقال: { وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ } آل عمران 85.

والحق بذلك حقيقة يقينية تستقر أولا في القلب تصورا إيمانيا لله تعالى، وتصورا للإنسان سببَ وجودٍ وغايةَ خلقٍ، ولعلاقته بربه وبالكون من حوله، ولما هو صائر إليه ومقبل عليه. ثم تتجلى ثانيا هذه الحقيقة في حياة المرء عبادة وطاعة ومحبة وولاء لله وللرسول صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين.

هذه الحقيقة اليقينية التي تسري في الروح والعقل والجسد، تعيد صياغة المرء، فيثور على نفسه وعاداته وما ألف في عهد التسيب والقلق والاضطراب والبلبلة وعبادة الهوى، ويرسل نفسه اقتداء بنبيه إلى تحرير غيره من أوهام الجهل وأغلال الضلال، وكأنما لم يُبَلَّغْه إلا لحظته قوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ } المدثر 2/1.

وما تأثير هذه الحقيقة اليقينية في الإنسان إلا لأنها ربانية، من الرب الخالق، الذي يعرف ما خلق وما يصلح لمن خلق، أرسلت إلى البشرية مع الصادق الأمين محمد صلى الله عليه وسلم، لم يزد فيها ولم ينقص، بلغها كما ألقيت عليه، نزل بها على قلبه الروح الأمين جبريل عليه السلام، قال تعالى:

- {وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ} الشعراء192/194.
- { يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ} المائدة 67.
- { إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ} الحاقة 46/40.

من هذه الحقيقة اليقينية تنبثق الأفكار والنظم والتصرفات والعلاقات، بها يُهتدَى من الضلال، ويُتَخَلَّص من الفتن، وعلى أساسها تتغير النفوس والمجتمعات وتتهذب الأهواء والنزعات، إنها تُغَيِّر ولا تتغير، تُبدِّل ولا تتبدل، لأنها من خالق الكون ومدبره، العليم بأسراره وديناميةِ تغييره وسنن تطويره.

هذه الحقيقة اليقينية كانت تلقى في قلوب الرسل والأنبياء فينطلقون في الآفاق منافحين عن الحق ناشرين دعوته، وهي على مر الأجيال، لها رجالها المقتدون بالأنبياء والرسل، من عباد الله الذين استناروا بهدي القرآن، فانطلقوا بدورهم، لا يثنيهم سخط الساخطين ولا بغضاء المبغضين، ولا مكر الماكرين، ولا التهديد بالسجن أو الوقوع فيه، أو التلويح بالقتل أو التنفيذ له، ولا التهجير عن الوطن والتغريب في غيره. إنهم الرجالُ لا كأشباه الرجال، والقممُ لا الوهاد والقيعان.

إن وظيفتهم هي وظيفة الأنبياء والرسل، يبشرون بهذه الحقيقة اليقينية، حقيقة التوحيد إيمانا في القلب والجنان، وإعلانا متحديا للكفر وأهله باللسان، وعملا سديدا بالأركان، وإقامة للأمة الشاهدة على الناس في الدنيا والآخرة، إذ الخطاب لنبيهم صلى الله عليه وسلم خطاب لهم، وأمره أمر لهم من خلاله { إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ }، والبشارة عادة في مصطلح أهل الإيمان والإحسان نبأ سار بقبول رب العزة الأعمال والورود في الآخرة على خير مآل، ومن وجهت إليه النذارة فهو على خطر عظيم، متأرجح بين ضرورة الأوبة إلى ربه، أو الارتكاس في ذنبه. وفي كل الأحوال إذا ما قام المؤمن بواجب التبليغ بشارة ونذارة فقد برئت ذمته، لا يسأل عمن أعرض وضل،

لأن أحداً لا يسأل عن ذنب غيره ولا يؤاخذ بما اجترمه من سواه، قال تعالى: { وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى } الأنعام 164، وقال: { وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ } آل عمران20، وقال: { أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآَهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ } فاطر8.

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حريصا على أن يبادر أهل الكتاب إلى الإيمان قبل غيرهم لما في كتبهم من بقية حق مخلوط بباطل أضافوه إليها، ولذلك ضاق صدره وكبر عليه تعنتهم وإعراضهم، فقطع الله تعالى رجاءه في إسلامهم، وأيأسه من إيمانهم، إذ علق رضاهم عنه بما هو مستحيل في حقه، وبين له أن اليهود والنصارى لن يرضوا عنه إلا إذا اتبع ملتهم { وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ }، لذلك عليه أن يتابع مسيرة دعوته ويعملَ لما بُعث من أجله، ويُجابِهَ ملل الكفر كلها بالحقيقة الإيمانية التي هي الهدى من الله تعالى، وهي الدين الصحيح، والتصور الإيماني الواضح الوضاء { قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى }، وما مداراة الكفار ومداهنتهم رجاء استمالتهم إلا إضاعة للوقت والجهد، تشاغب على صفاء الإيمان ووضاءة العقيدة { فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ } القلم 9/8، والخطاب في هذه الآية موجه للأمة من خلال نبيها { وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ } أو اتبعه أحد من أمتك فرضا وتقديرا { بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ } حقيقةً يقينيةً ودينا قيما ومنهاجا رشيدا، { مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ } كانت العاقبة نزع ولاية الله ونصرته، إذ لا ولي ولا ناصر إلا الله تعالى.

ذلك أن مداهنة الأعداء إما أن تكون لتقاعس عن نصرة الدين، أو تكون عن ركون إليهم ومحبة، أو تكون عن ضعف ووهن، فإن كانت عن تقاعسٍ فلِسقوط الهمم ودناءة الأصلِ والأَرُومَةِ، وخمول النفوس وبلادة العقول، وإن كانت عن ركون للكفر وموالاة لأهله فعن ظلامية التصور الإيماني في القلوب، وإن كانت عن ضعف ووهن فعلاج ذلك الانصراف إلى إعداد القوة للدفاع والمدافعة، وفي كل الأحوال، ركونا أو تقاعسا أو ضعفا، تكون نتيجة المداهنة واحدة، تبدأ بما يزعمونه تسامحا من الطرفين في تطبيق بعض مقتضيات الدين، ثم يتدرج الأمر إلى محاولة ضغط القوي على الضعيف للتنازل عن مبادئه، والقوي عادة في عصرنا هذا وعصور الانحطاط التي تقدمته هم نصارى الغرب وصهاينته. ولنا من تاريخنا شواهد وشواهد. من ذلك الدولة الحفصية في تونس، إذ استمرت دهرا كما هو حال دولنا المسلمة المعاصرة بين مد وجزر، ووحدة وانقسام، واضطراب وتنازع على السلطان، مع غيرها أحياناً، وبين أعيانها ورجالاتها أحياناً أخرى، خضعوا للمرينيين فترة، وللإسبان فترة، وحاربوا في صفوف الصليبيين فترات، واضطروا لإعطاء الجزية إلى ملك صقلية (شارل دانجو)، اتقاءً لاعتداءاته على شواطئهم وتهديده لبلادهم، بل إن السلطان الحفصي " المستنصر " أخذ يتودد إلى رهابنة النصارى حتى ظن لويس التاسع أنه يميل لاعتناق النصرانية، مما شجعه على غزو تونس في 26 ذي الحجة سنة 668 للهجرة (1270م)، إلا أن المستنصر ضاعف جزيته لهم فتراجعت الحملة الصليبية عنه، ولم ينقذ تونس من

النفوذ الصليبي إلا الأتراك العثمانيون، الذين أبادوا دولة الحفصيين وضموها إلى خلافتهم، على يد الوالي العثماني في الجزائر سنة 1569م بعد أن فَرَّ السلطان الحفصي مع الإسبان.

واليومَ في عصرنا هذا وأموال المسلمين وأعراضهم مباحة مستباحة، وأراضيهم ترتع فيها جيوش الشواذ والشاذات بدعوى التسامح والسياحة، أو تستعمرها أرتال المجندين والمجندات لحماية أقزام استقدموها على خنوع وذلة وصغار، فقد تجاوز المسلمون حالة المداهنة التي كانوا يزعمونها دهاء وحكمة إلى حالة التخلي عن ثوابت الدين والعرض والأرض ﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ الشورى44.

إن الله تعالى يخاطب المسلمين في كل عصر يحذرهم من مداهنة الكفار أو الركون إليهم أو التخلي عن الاستعلاء بالإيمان والدين، مبينا لهم أن اليهود والنصارى لن يرضوا عنهم إلا إذا ارتدوا وكفروا، وأن خيرا لهم في الدنيا والآخرة أن يَدَعُوا محاولةَ استرضائهم ومداهنتهم ﴿ وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾، وأن يُقبِلوا على الدعوة إلى الحق الذي بين أيديهم لأنه هو الهدى الحق ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى ﴾، وهو الدين القيم المنقذ من خزي الدنيا وعذاب الآخرة ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآَخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ آل عمران85، وما سواه تيه وضلال ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ﴾ يونس 32.

ولما كان جوهر دعوة الحق بشارة ونذارة ﴿ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾، عقب عز وجل بذكر أهل البشارة والنذارة فقال: ﴿ الَّذِينَ آَتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ ﴾، والكتاب في هذه الآية الكريمة هو القرآن الكريم مُجمَّع الحقائق الإيمانية، والتلاوة هي الاتباع كما في قوله تعالى: ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴾ الشمس 2/1، والاتباع الحق للقرآن هو تطبيقه والعمل به في النفس والأهل والولد والشارع والمكتب والمدرسة والمعمل، وفي الأمة نظام دولة اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا.

هذه الأمة الساعية بالإسلام بين الأمم، وهؤلاء الأشخاص الساعون به بين الناس هم المؤمنون حقا ﴿ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾، هم الذين يستحقون بشارة ربهم بالرضا والقبول والجنة. أما الذين يعرضون عن القرآن كله أو يؤمنون ببعضه ويجادلون في بعضه تشكيكا وترددا، أو الذين اتخذوه عضين، فقد خسروا أنفسهم، وساء ما يلقون من ربهم ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾، هؤلاء ليست لهم إلا النذارة بما ينتظرهم عند ربهم من خزي وعذاب وخسران، قال تعالى: ﴿ كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ 93/90، وقال: ﴿ وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ ﴾ الشورى45.

ثم يختم القرآن الكريم هذا القسم المتعلق بأمة عُزِلَتْ عن إمامة البشرية، هي أمة بني إسرائيل، أمة فشلت في المحافظة على صفاء العقيدة وعجزت عن تجسيد دين الله في الحياة، وجعلت استعلاءَ الإيمان اعتزازا بالعرق والسلالة، وتَمَيُّزَ الحق تميزا

بالباطل والإثم، فخاطبها وطوي ملفّها بما ينتظرها قائلا: { يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ }، مذكرا بواسع ما أنعم به عليهم، وشنيع ما قابلوا به النعم من كفر وعتو وجحود وتمرد، وفظيع ما ينتظرهم يوم العرض والحساب، حيث لا تنوب فيه نفس عن نفس ولا يحمل فيه أحد وزر أحد، ولا يقبل فيه فداء (عدل)، ولا تنفعهم شفاعة ولا ينصرون.

وهذا الخطاب لليهود إعلان واضح بِطَيِّ ملفهم على الكفر والعزل، وتمهيد للحديث فيما بقي من سورة البقرة عن الأمة البديل، أمة محمد صلى الله عليه وسلم التي نصبت لهذه المهمة الخطيرة، إمامة البشرية وقيادتها فيما بقي من أدوار الحياة والممات، لذلك خاطب رب العزة من قبلُ نبيّه صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى: { إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا }، ومهد بعد ذلك للحديث عن أمة الخلافة الراشدة بذكر أبي الأنبياء وجد دوحة الرسالة الغراء، إبراهيم عليه السلام، فقال: { وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ } البقرة124، وما محمد عليه الصلاة والسلام إلا خير من جدد دعوته، عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قلتُ يا رسول الله ما كان بَدْءُ أول أمرِك؟ قال: (دَعْوَةُ إِبْرَاهِيمَ وَبُشْرَى عِيْسَى، وَرَأَتْ أُمِّي أَنَّهُ يَخْرُجُ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ مِنْهُ قُصُورُ الشَّامِ)[19].

فإلى القسم الثالث من سورة البقرة بإذن الله تعالى، حيث أريج النبوة الطاهر وفوح الاتّباع العاطر، مدرسة خاتم الأنبياء والرسل محمد صلى الله عليه وسلم والذين معه { رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } المجادلة22.

---

19 – رواه أحمد وإسناده حسن وله شواهد تقويه.

القسم الثالث

من سورة البقرة

الأمة الإسلامية: قرآن لا يَمَّحِي وسنة لا تبلى وطائفة منصورة أبدا

تمهيد

الأمة الإسلامية: قرآن لا يُمَّحِي وسنة لا تبلى وطائفة منصورة أبدا

منذ أهبط آدم وذريته إلى الأرض وخاطبهم الله تعالى: { قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } البقرة39/38، والبشرية متأرجحة بين الإيمان والكفر، تلتزم جادة الحق فترة ثم تنسى منهجها الرباني فترات، فتفقد الصلة بربها وترتكس في حمأة البدائية والجاهلية، وتتشبث بأوهام الخرافة والأساطير، تملأ بها فراغ الأرواح والعقول، وتحاول بها تسكين القلوب مما راعها، وطمأنة الأفئدة مما أفزعها، والاستئناس بما تجهله من ظواهر الطبيعية والكائنات حولها، وهواجس الغيبيات الغامضة الغائبة عن وعيها، فيجثم عليها بذلك ركام ضخم من التصورات المنحرفة والمعتقدات الضالة، تنسج به على مر السنين أديانا ومللا ونحلا لا تزيدها إلا شقاء وضنكا وبعدا عن الله تعالى. وفي كل فترة من فترات الضلال هذه، تتدخل الرحمة الإلهية بعثا للأنبياء والرسل، وإنزالا للكتب والشرائع، فيعم الأمن والسلام والرشد والهداية زمنا يعقبه النسيان والغواية.

هكذا توالت الرسالات الإلهية عبر الحقب والأجيال، إلى عصر البعثة النبوية الشريفة، والبشرية في ظلام دامس وتَدَيُّنٍ ضال فاسد، من يهودية نسبت لله تعالى عزيرا ولدا، ونصرانية زعمت أن الله ثالث ثلاثة، ومشركين جعلوا لله تعالى الملائكة بناتا، وطوائف تعبد البقر، وأخرى تعبد الكواكب أو تؤله النار والحجر... تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

في هذه الفترة كاد الرجس يحل بالبشرية فيهلكها جميعا، لولا قلة من أهل الكتاب بقيت على التوحيد، مثل ورقة بن نوفل الذي عرف من أمر النبي ما عرف، والراهب "بحيرا " في بصرى بالشام[20]، وعداس في الطائف[21]، ولولا أن

---

20 – جاء في "عيون الأثر" 63/1 عن رؤية بحيرا للرسول صلى الله عليه وسلم في سفره صغيرا مع عمه أبي طالب إلى الشام: (... فلما رآه بحيرا جعل يلحظه لحظا شديدا وينظر إلى أشياء من جسده قد كان يجدها عنده من صفته، حتى إذا فرغ القوم من طعامهم وتفرقوا قام إليه بحيرا فقال له: يا غلام أسألك بحق اللات والعزى إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه، وإنما قال له بحيرا ذلك لأنه سمع قومه يحلفون بهما، فزعموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لا تسألني باللات والعزى شيئا فو الله ما أبغضت شيئا قط بغضهما، فقال له بحيرا: فبالله إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه، فقال له: سَلْني عما بدا لك، فجعل يسأله عن أشياء من حاله من نومه وهيئته وأموره، ويخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم فيوافق ذلك ما عند بحيرا من صفته، ثم نظر إلى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضعه من صفته التي عنده، فلما فرغ أقبل على عمه أبي طالب فقال: ما هذا الغلام منك؟ قال: ابني، قال: ما هو بابنك وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حيا، قال: فإنه ابن أخي، قال: فما فعل أبوه؟ قال: مات وأمه حبلى به، قال: صدقت فارجع بابن أخيك إلى بلده واحذر عليه يهود،

الحكمة الإلهية اقتضت بعثة محمد صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين، كما ورد فيما رواه مسلم وأحمد من خطبة للنبي عليه الصلاة والسلام قال فيها: (إِنَّ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي فِي يَوْمِي هَذَا، كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عِبَادِي حَلَالٌ، وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَأَضَلَّتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ عَجَمِيَّهُمْ وَعَرَبِيَّهُمْ إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَقَالَ: إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لِأَبْتَلِيَكَ وَأَبْتَلِيَ بِكَ، وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لَا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ تَقْرَؤُهُ نَائِمًا وَيَقْظَانًا).

ولئن ضمت سورة الفاتحة معالم هذا الدين الخاتم موجزة، منهجَ عقيدة وشريعة وأصنافَ مهتدين ومغضوب عليهم وضالين، وأضافت أوائلُ سورة البقرة تفصيلا أكثر لصفات المتقين والكفار مشركين ومنافقين، ثم قامت بتوعية المسلمين عقديا وحركيا وسياسيا وتعريفهم بمكر أعدائهم اليهود، الذين اختارهم الله من ذرية إسحاق بن إبراهيم عليهما السلام، وجعلهم أئمة وقادة للبشرية، بشرط الوفاء بالعهد، والقيام بمقتضيات الميثاق المأخوذ عليهم، فكانوا نموذج الخيانة والتمرد والكفر والجحود، مما أحلهم دار البوار وجرعهم مرارة العزل عن الإمامة مقرونا باللعنة والخلود في العذاب المهين، فإن الله

فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفتُ لَيَبْغُنَّهُ شرا، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم، فأسْرِعْ به إلى بلاده، فخرج به عمه أبو طالب سريعا حتى أقدمه مكة حين فرغ من تجارته بالشام، فزعموا أن نفرا من أهل الكتاب قد كانوا رأوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل ما رأى بحيرا في ذلك السفر الذي كان فيه مع عمه أبي طالب، فأرادوه (أي بسوء)، فردهم عنه بحيرا في ذلك، وذكَّرهم اللهَ تعالى وما يجدون في الكتاب من ذكره وصفاته، وأنهم إن أجمعوا لِمَا أرادوا لم يخلصوا إليه، حتى عرفوا ما قال لهم وصدقوه بما قال، فتركوه وانصرفوا عنه).

21 – جاء في عيون الأثر 178/1 عما وقع لرسول الله صلى الله عليه وسلم عندما آذاه أهل الطائف فآوى مكروبا موجعا إلى جدار: (... فلما رآه ابنا ربيعة وما لقي، تحركت له رحمهما فَدَعَوَا غلاما لهما نصرانيا يقال له عداس، فقالا له: خذ قطفا من هذا العنب فضعه في هذا الطبق ثم اذهب به إلى ذلك الرجل فقل له يأكل منه، ففعل عداس ثم أقبل به حتى وضعه بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال له: كل، فلما وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده قال: بسم الله ثم أكل، فنظر عداس في وجهه ثم قال: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: ومن أي البلاد أنت يا عداس وما دينك؟ قال: نصراني وأنا من أهل نينوى، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: من أهل قرية الرجل الصالح يونس بن متى، قال له عداس: وما يدريك ما يونس بن متى؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ذاك أخي كان نبيا وأنا نبي، فأكب عداس على رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل رأسه ويديه وقدميه، فلما جاءهما عداس قالا له: ويلك ما لك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟ قال: يا سيدي ما في الارض شيء خير من هذا، لقد أعلمني بأمر لا يعلمه إلا نبي، قالا: ويحك يا عداس لا يصرفنك عن دينك فإن دينك خير من دينه).

تعالى وقد اختار لإمامة البشرية أمة أخرى نبيها صلى الله عليه وسلم من نفس الدوحة الإبراهيمية من ولد إسماعيل عليه السلام، قد خصص ما بقي من سورة البقرة ابتداء من الآية 124 للتعريف بهذه الأمة المستخلفة وطبيعة تكوينها عقيدة وشريعة ومسؤولية وأمانة تبليغ وتربية وهداية وشهادة ومدافعة. ممهدا لذلك بالحديث عن جذورها ونسبها إلى الدوحة الإبراهيمية وشجرة الأنبياء عليهم السلام، وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول: (أنا دعوة أبي إبراهيم وبشارة أخي عيسى)، لأن إبراهيم عليه السلام دعا ربه بذلك قائلا: { رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } البقرة 129، وعيسى عليه السلام قال: { وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ } الصف 6.

ولقد حققت أمة الإمامة هذه، أمة محمد صلى الله عليه وسلم، في نفسها صفاءَ عقيدة وثباتَ جنان على الحق، وصمودا في مواجهة الباطل ومدافعته، مقوماتِ الخلافة والقيادة والريادة، وشهد لها ربها تعالى بذلك فقال: { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ } آل عمران 110، وقال: { آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ } البقرة285. وكانت بذلك دائمة التجدد عبر الحقب، لها من قرآنها الذي لا يغسله الماء، ولا يمحوه تعاقب الليل والنهار، وسنة نبيها التي لا تبلى، وطائفتها المنصورة التي لا يضرها من خذلها، وعلمائها الذين لا يخافون في الحق لومة لائم، ما يعصمها من الامحاء والاندثار، ويجدد لها كل حين، شبابها الغض ونضارتها الوضيئة ومجدها التليد.

جذور العقيدة وعبرة التاريخ

قال تعالى: { وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (124) وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (125) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (126) وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (127) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (128) } / البقرة

البلاء، حكمة الخالق عز وجل وإرادته، وقدر الإنسان وسر خلقه ووجوده، بلاء بخير يُشْكَر أو يُكْفَر، وبِشَرٍّ يُقابَل بالصبر أو الضجر، وبلاء بكلمات أمر ونهي يُمْتَثَل لها أو تُنْكَر، ليس للإنسان في حياته إلا ذاك، لا يستطيع أن ينفذ من أقطار السماوات والأرض، لأنه تحت الحاكمية المطلقة لرب السماوات والأرض، ليس له إلا الله ربه، الفعال لما يريد، وليس له إلا ملكوت ربه لا يستطيع مغادرته إلا إلى جنة أو نار.

لم يستثن رب العزة من البلاء أحدا، من آدم الذي كان أول من ابتلي { وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آَدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا } طه 115، ثم تداركته رحمة ربه { فَتَلَقَّى آَدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ } البقرة 37، إلى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم إذ خاطبه ربه تعالى كما ورد في حديثي مسلم وأحمد: (إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لِأَبْتَلِيَكَ وَأَبْتَلِيَ بِكَ).

لقد كانت كلمة الله تعالى في الابتلاء مِحَكّاً لطاعة الخلق ومقياسا لدرجة قربهم من رب العزة تعالى: { ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ } فصلت11.

وكانت كلمته مفتاح عهد من النبوة الخاتمة الشاهدة في الدنيا والآخرة ناله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وامتدحه رب العزة به فقال: { فَآَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} الأعراف158.

وكانت كلمته تعالى ابتلاء ودعوة إلى وحدة البشرية في ظل التوحيد الحق الخالص الذي لايشوبه شرك { قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ} آل عمران 64.

وكانت كلمته تعالى بشرى بنصر مؤزر مقدر في ضمير الغيب لجند الله في كل عصر ومصر فقال: { وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ} الصافات 173/171.

وكانت كلمته نعمة ورحمة للمؤمنين وخلودا في الجنة جزاء السمع والطاعة والامتثال { وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ } ق 35/31.

وكانت كلمته عدلا صارما شديدا على الذين طغوا وتجبروا وعصوا واستكبروا، قال تعالى: { كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ } يونس33، وقال: { أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ } الزمر19.

ولئن كانت كلمة الله تعالى اختبارا بالأمر والنهي، وجزاء للطاعة والامتثال، فإنها في نفس الوقت اختبار دنيوي بالمحن والشدائد، قال تعالى: { وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ } البقرة 155، وقال: { وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ } الأنبياء35، وقال: { وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ } الفرقان 20.

كلمة الله تعالى أمرا ونهيا، ورحمة ونقمة، واختبارا للصبر والشكر،، { وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا} التوبة 40، بها يتميز الخلق ويتفاضلون، وبها يصطفون قربا أو بعدا، يمينا أو شمالا، ضُلالا أو مهتدين يوم القيامة: { فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ } الواقعة95/88.

لقد ألقيت كلمة الله تعالى على أنبيائه عليهم السلام، فكانوا أهلا لاستماعها وطاعتها والوفاء بها ولها، شهدوا بها وامتثلوا أمرها وبلغوها، وتفاضلوا فيها عند ربهم بها { تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ } البقرة 253، إلا أن رتبة عَلِيَّة فيهم، رتبةَ الخُلَّة، التي هي أعلى درجات المحبة وأتمها، لم ينل شرف تَسَنُّمِها إلا اثنان منهم هما إبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام، قال تعالى: { وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا } النساء125، وقال صلى الله عليه وسلم فيما رواه مسلم: (إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اللَّهِ أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا). واستحق بذلك الأول منهما أن يكون أبا الأنبياء الذي سمانا مسلمين، وأن يكون الأسوة والقدوة للمؤمنين كافة { قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ

اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ } الممتحنة4، لأن له فضل السبق اهتداء وثباتا وولاء وبراء وصبرا واحتسابا، وشهد له رب العزة بذلك فقال: { وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى } النجم37. وسار الثاني – محمد صلى الله عليه وسلم – على خطاه وسَمْتِهِ وهدْيِه، مجددا عقيدته متأسيا بوفائه وإتمامه كلمات ربه فاستحق أن يكون صاحب الرسالة الخاتمة والشفاعة المباركة والسيادة المؤزرة، كما قال عن نفسه فيما رواه مسلم: (أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ وَأَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ)، وقال عنه رب العزة: { لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا } الأحزاب21.

لذلك يدعو الله تعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم وأمته إلى اتباع ملة أبيهم إبراهيم عليه السلام فيقول: { مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ } الحج78، كما يُعَبِّدهم حجا وصلاة ونسكا بحجه وصلاته ونسكه، ويربيهم بيقينه وثباته وصبره على حرق النار وجحيم الهجرة والغربة، ويذكرهم بمواقفه الخالدة ووفائه التام النادر العجيب، فيقول: { وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ }، أي اذكر يا محمد ولْتَذْكُرْ أمتك معك، كيف اختبر الله تعالى إبراهيم بكلمات البلاء توحيدا وتعبيدا ومحنا، فوفى بها إخلاصا وبراءة من الشرك وطاعة وصبرا وشكرا، كما ذكرتم من قبل كيف ابتلَى بني إسرائيل وهم من ذريته فخانوا وجحدوا وعتوا وتجبروا، فانقطعت بينهم وبينه علاقة القربى إذ انبتت وشائج العقيدة، وتلك سنة الله في الولاء والبراء.

لقد كانت كلمات الله التي اختُبِرَ بها إبراهيم عليه السلام تامة، عقيدة وعبادة وثقة في الله تعالى ومحبة، كما كانت كلماتُ ابتلاءِ صبره وشكره واحتسابه وثباته شاملةً لجميع أحواله جسدا ونفسا وأسرة ووطنا، فارتقى بوفائه أعلى مراتب الخُلَّة لربه وسُمِّيَ لذلك خليلَ الرحمن.

ولئن كان الكون كلمة مفتوحة منظورة شاهدة على أن له خالقا فردا صمدا، فإن إبراهيم كان في قومه أول من تلقاها وقرأها، فوفاها حقها فهما واسترشادا واستهداء. اقتبس منها دونهم وحي الله المنشور في كتابه المنظور وكونه المعمور، لم يكن في الأرض معه مؤمن من البشر غيره { إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } النحل120.

لقد رأى كلمة ربه في كوكب ليست له صفة الخالق فكفر بالكوكب وهو معبود قومه، ثم رآها في القمر المنير فلم يُلْفِه إلا على صفة المخلوق الفاني، والتمسها في الشمس الساطعة، فكان أفولها دليل عجزها ومخلوقيتها، وإذا بكلمات الكون المفتوح تأخذ بيده إلى خالقه وتفتح له أبواب مناجاته وتَلَقِّي وَحْيِه، فينطلق لا يلوي على شيء مما سوى ربه، داعيا إليه هاديا إلى سبيله، قال تعالى: { لَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا

رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} الأنعام 79/76.

من هنا كان نهوض إبراهيم يدعو قومه للتوحيد ونبذ الشرك، قياما بحق كلمات ربه في الدين والعقيدة والتبليغ، وفيا بها حقَّ الوفاء، ممتثلا لها عاملا بها وقدوة فيها، فكان لابد من كلمات أخرى اختبارا في النفس والأهل والولد تحقيقا لقوله تعالى: { وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ } محمد31، وقوله: { أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ} العنكبوت 3/2،

هدده الطاغية بالتحريق فلم يبال بالنار، وأُلْقِيَ فيها فما انكسر ولا خار، ولم يستعصم إلا بالعزيز الجبار، وأُمِر بترك زوجته ورضيعها بواد غير ذي زرع فما تردد، وبذبح الولد فاستعد وأعد، وطوَّحت به الهجرة في أرجاء الأرض يذرع فضاءها ويتجرع مرارة لأوائها، وأبْلَتْهُ غربةُ آفاقٍ استضعفه الظالمون فيها فقواه ربه ونصره، ورام الطغاة بِهَا عرضَه فصانه تعالى ووفَّره ووقَّره، ولا أشدَّ من غربةِ دينٍ بين كفار، وغربة إنسانيةٍ بين همج أشرار، وغربة أسرةٍ أهلاً وولداً بين فجار. يأبى يقينه الراسخ إلا أن يتجشم كدح الطاعة المطلقة لأوامر ربه، مضطلعا بمقارعة الشرك والكفر، مبشرا بعقيدة التوحيد، مستنيرا بهديها، ممسكا بجمرها، ناشرا لها مبشرا بها. قائما بكلماتها فرائض ونوافل وسنن فطرة، راكعا ساجدا رافعا قواعد البيت العتيق، ملبيا طائفا مؤذنا في الناس بالحج، غيرمقصر في أمر ربه أو تربية أهله وولده، أوالدعاء لعقبه وذريته هداية ورزقا وولدا.

لقد وفى عليه السلام بميثاق ربه وأتم كلماته، ونزلت الشهادة له بذلك وحيا من فوق سبع سموات، قال تعالى: { وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى } النجم37، وقال: { سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ} 109 /111 الصافات، فنال بذلك جائزة ربه في الدنيا أبوة برة للأنبياء والمسلمين بعده، {مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ} الحج 78، وجائزةً أكبرَ وأشرفَ وأعلى، أن جعله عز وجل إماما للناس بعد أن أتم كلمات ربه، قال تعالى: { وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا} أي مُصَيِّرُك إماما للناس.

والإمام على وزن "فِعَال" من صيغ الآلة سماعاً كالعِمَاد والنقاب والإزار والرداء، من فعل " أَمَّ " القوم وأمَّ بهم إذا تقدمهم وصار لهم إماما، سواء إلى صراط مستقيم أو إلى ضلالة، قال تعالى: { وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا} الأنبياء 73، {وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ} القصص 41، وأمَّه يؤمه أمّاً: قصده وتوجه إليه.

وفي حديث ابن عمر لما ذُكِرَ لرسول الله صلى الله عليه وسلّم رجال يَنْصَبون في العبادة من أصحابه نَصَباً شديداً، قال: (تلك ضراوة الإسلام وشِرَّتُه، ولكل ضراوة[22] شِرَّة[23]، ولكل شِرَّةٍ فَتْرة[24] فمن كانت فترته إلى الكتاب والسنّة فلِأُمّ ما هو)، أي نِعم ما قصد، وفي رواية: (فمن كانت فترته إلى سنتي فقد اهتدى، ومن كانت فترته إلى غير ذلك فقد هلك).

والإمام كل من ائتم به القوم أو اتبعوه، رئيس القوم أمّهم، والعَلَم الذي يتبعه الجيش أمّ.

والمراد بالإمامة في هذه الآية الكريمة الرسالة والنبوة، لأنهما أكمل أنواع الإمامة، أي: إنه تعالى جعل إبراهيم عليه السلام إماما في الدين، تلقيا للرسالة، وقياما بأحكامها، وتبليغا لها، وقدوة وأسوة فيها للناس كافة على مر الحقب والأجيال، إذ لم يُبْعَث بعده من رسول إلا كان من ذريته، مأمورا باتباعه والاقتداء به، قال تعالى مخاطبا نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم: { ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} النحل123، وخاطب المسلمين جميعا فقال: { وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى} البقرة125، وقال: { مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ} الحج 78، وقال: {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ} الممتحنة 4.

وكما عهد في إبراهيم من حلم وحب للخير وحرص على الدعاء لذريته به، أجاب ربه: {قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي}، سأل أن يكون بعض من ذريته أئمة، ولم يقل ذريتي كلها، وهذا منه منتهى الحكمة والأدب مع ربه، إذ لم يسأل ما هو غير مألوف لأنه يعلم أن حكمة الله في الدنيا لم تجر بأن يكون جميع نسل المرء ممن يصلحون للإمامة. وسرعان ما استجاب الله تعالى دعوته، منبها إلى شرط أساسي فيمن ينالهم عهد الله بالإمامة تبعا لأبيهم إبراهيم { قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}.

لقد وعده الله تعالى بالإمامة، فوفى له وعهد إليه بها، ولكن هذه الإمامة حرام على الظالمين ولوكانوا من ذرية الأنبياء والمرسلين، بذلك وضعت قاعدة أزلية تُحَرِّم الظلم وتجعله مانعا أبديا من إمامة الناس في الدين والدنيا، وتُوَثّق تشريعا أبديا يربط العلاقات والوشائج بالعقيدة قبل ربطها بالعرق واللون والنسب، فمن لم يتبع ملة إبراهيم فقد سفه نفسه وظلمها وخسرها، وقطع العلاقة به في الدنيا والآخرة، ومن قبل انْبَتَّتْ علاقة الأبوة بين نوح وابنه إذ انبتت روابط العقيدة، قال تعالى: { وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ} هود45، فكان الجواب: { قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ

---

[22] – الضَّرَاوَةُ: العادة يقال ضَرِيَ الشيءُ بالشيء إذا اعْتاده فلا يَكادُ يَصْبرُ عنه.

[23] – شِرَّةً: بِكَسْرِ الشِّينِ الْمُعْجَمَةِ وَتَشْدِيدِ الرَّاءِ أَيْ حِرْصًا عَلَى الشَّيْءِ وَنَشَاطًا وَرَغْبَةً فِي الْخَيْرِ أَوْ الشَّرِّ.

[24] – فَتْرَةً: بِفَتْحِ الْفَاءِ وَسُكُونِ التَّاءِ أَيْ وَهَنًا وَضَعْفًا وَسُكُونًا.

الجَاهِلِينَ} هود46. كما انقطعت بين إبراهيم وأبيه، قال تعالى: { وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ } الزخرف 26، وقال: {فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ} التوبة114.

إن الظُّلم لغة ضد العدل، وهو الجَوْرُ ووَضْع الشيء في غير موضِعه، ومُجاوَزَة الحَدِّ، ومنه قول الرسول صلى الله عليه وسلم (هَكَذَا الْوُضُوءُ فَمَنْ زَادَ عَلَى هَذَا أَوْ نَقَصَ فَقَدْ أَسَاءَ وَظَلَم) أي أَساءَ الأدبَ بتَرْكِه السُّنَّةَ وظَلَمَ نفْسه بما أضاع من الثواب. ومنه الظلام والظلمة: سواد الليل وحلكته، ومن المجاز يقال:"يوم مظلم" أي شديد شرُّه، و"أمر مظلم" لا يُدْرَى من أين يُؤْتَى، قال الراغب في مفردات القرآن:"الظلم عند أهل اللغة وكثير من العلماء: وضع الشيء في غير موضعه المختص به؛ إما بنقصان أو بزيادة، وإما بعدول عن وقته أو مكانه، ومن هذا يقال: ظلمت الأرض: حفرتها ولم تكن موضعا للحفر، وتلك الأرض يقال لها: المظلومة، والتراب الذي يخرج منها: ظليم. والظلم يقال في مجاوزة الحق الذي يجري مجرى نقطة الدائرة، ويقال فيما يكثر وفيما يقل من التجاوز، ولهذا يستعمل في الذنب الكبير، وفي الذنب الصغير". ولئن كان للظلم في اللغة معان متقاربة ومتداخلة، تدور حول الجور أو مجاوزة الحد أو وضع الشيء في غير موضعه، أو السواد أو التمويه؛ فإنها لا تبتعد كثيرا عن المعنى الفقهي الذي هو مجاوزة حدود الله تعالى في أي صورة من الصور، شركا أو إلحادا أو جحودا، أو إنكارا لما هو معلوم من الدين بالضرورة، أو استحلالا لما حرم الله أو تحريما لما أحل، أو بما هو دون ذلك من المعاصي والسيئات كبيرها وصغيرها، ظاهرها وباطنها، وهذا ما يؤكده قوله تعالى: { وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَه } الطلاق1.

إن للظلم دوائر كثيرة بعضها أخص من بعض، ودرجات متباينة بعضها أخطر من بعض، وكلما كانت الدائرة أقرب إلى مجال الاعتقاد وما يرتبط به من تصورات، كان الأمر أدعى إلى الاهتمام به وبخطورة ما يترتب عليه من نتائج، وكلما كان الظلم المرتكب أكثر شمولا وأعمق تأثيرا كانت تداعياته أكثر ضررا.

الشرك بالله أكبر دوائر الظلم { إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } لقمان13، لأنه كذب شنيع وافتراء عظيم على الله عز وجل، وقلب للحقائق ووضع للأشياء في غير موضعها، وهو أصل الظلم وحقيقته، فمن أشرك بالله أو عدل به غيره أو اتخذ له ندا فقد ارتكب الظلم الأعظم وخلع ربقة الإسلام. وإذا كان أعظم الظلم للنفس هو الإشراك بالله تعالى، فإن له علاجا ناجعا هو التعجيل بالتوبة وتصحيح العقيدة والاستغفار، قال تعالى: { قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ } الزمر53،

إلا أن هناك ظلما أقل درجة من الشرك الذي يتخلص منه المرء بمجرد التوبة النصوح والتوحيد الخالص؛ هذا الظلم هو ظلم العباد. وهو وإن كان أقل درجة من الشرك، فإن التوبة منه معلقة برد المظالم لأهلها، مما يجعل أمر التحلل منه أشد عسرا، لا سيما لدى من يتصدى لإمامة الناس وقيادتهم وتولي أمر دينهم ودنياهم، قال عليه الصلاة والسلام فيما رواه

البخاري: (مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ مِنْ عِرْضِهِ أَوْ شَيْءٍ فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ قَبْلَ أَنْ لَا يَكُونَ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ)

هذا الظلم يتمثل في صور شتى، منها الظلم في الحكم والقضاء والفصل بين الناس، وظلم الأرحام والأقارب، وظلم المسلمين بعدم النصح لهم، وظلم الإنسانية بالتقصير في واجب تبليغ العقيدة أوفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كل أصناف الظلم هذه يُسأل عنها يوم القيامة ما لم تكن توبة، وكلها مانعة من الإمامة في الدنيا كما بين عز وجل لإبراهيم عليه السلام في الآية السابقة، ومهلكة في الآخرة كما قال تعالى: { مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ } غافر18، وقال: { احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ } الصافات22/23.

ولئن كانت الإمامة السوية للناس في أمر الدين تقتضي أن يكون المرء قدوة وأسوة حسنة فيه، فإنها في أمر الدنيا تقتضي أن لا يظلم الإمام الأمة باغتصاب حقها في اتخاذ قراراتها وتنفيذها ومراقبتها والمحاسبة عليها، أو باحتكاره في بطانته وأعوانه، أو بالإخلال بواجب الشورى العامة التي هي قوام أمر المسلمين. كما تقتضي أن تكون إمامته باختيار المسلمين رضية بها نفوسهم، ولذلك شدد صلى الله عليه وسلم الإنكار على مَنْ أَمّ قوماً وهم له كارهون فقال:(ثلاثة لا يقبل الله لهم صلاة: إمام قوم وهم له كارهون وامرأة باتت وزوجها عليها غضبان وأخوان متصارمان)، وفي رواية أنس: (لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة: رجل أَمّ قوماً وهم له كارهون، وامرأة باتت وزوجها عليها ساخط، ورجل سمع "حي على الفلاح" ثم لم يجب)، والمعنى نفسه ورد فيما أخرجه أبو داود عن عبد الله بن عمر في الثلاثة الذين لا تقبل منهم صلاة، وأولهم من تقدم قوما وهم له كارهون، وما رواه ابن ماجة عن عبد الله بن عباس، في الثلاثة الذين لا ترتفع صلاتهم فوق رؤوسهم شبراً، وأولهم رجل أَمّ قوماً وهم له كارهون، وعن عبد الله بن عمرو في الرجل يؤم القوم وهم له كارهون.

لقد بشر الله تعالى عبده إبراهيم عليه السلام، بالإمامة، واستجاب دعاءه في أن يجعلها في الصالحين من ذريته وحرمها على الظالمين، ولئن كان إمام القوم يقدمهم إلى الصراط المستقيم، وكان من الحكمة أن تُتَّخذ لهم قبلة توجههم إلى ربهم في كل زمان ومكان، رمزا لوحدة الدين والعقيدة والصف، فقد خوطب المسلمون عقب تذكيرهم بمكانة إبراهيم فيهم، ببيان مكانة البيت الحرام من أمر دينهم ودنياهم فقال تعالى: { وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً وَأَمْنًا}، إبراهيم عليه السلام إمام، والبيت مثابة وقبلة وأمن.

والمراد بالبيت في هذه الآية الكريمة بيت الله الحرام، ويشمل الكعبة والحرم المكي كله، لأنه وصفه بالأمن، وهذه صفة الحرم كله لقوله تعالى: { وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا} إبراهيم 35، وقوله: { هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ } المائدة 95, والهدي لا يذبح في الكعبة، ولا في المسجد الحرام، وإنما في ربوع مكة المكرمة.

ولفظ "مثابة " من فعل: ثاب يثوب ثوبا وثوبانا، أي رجع بعد ذهاب، يقال: ثاب فلان إلى الله وتاب، بالتاء والثاء، أي رجع إلى طاعته، والمثابة: المرجع الذي يثاب إليه ويُرْجَع مرة بعد أخرى، شوقا إليه وتعلقا به، والمعاذ الذي يعاذ بالله فيه، ويضاعف ثواب الأعمال في كنفه حجا وعمرة وصلاة وبرا.

أما كون البيت أمنا، فلأهله من تسلط الحكام والجبابرة، ولمن دخله من الخائفين والعائذين والحجاج والمعتمرين والعاكفين، وهو استجابة من الله تعالى لدعوة إبراهيم له، قال تعالى: { وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ } إبراهيم35، وقال: { أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ } العنكبوت 68، وقال: { أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا } القصص 57، وقال: { فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا } آل عمران 97، وقال صلى الله عليه وسلم يوم الفتح فيما رواه البخاري:(إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ مَكَّةَ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فَهِيَ حَرَامٌ بِحَرَامِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي وَلَا تَحِلُّ لِأَحَدٍ بَعْدِي وَلَمْ تَحْلِلْ لِي قَطُّ إِلَّا سَاعَةً مِنْ الدَّهْرِ لَا يُنَفَّرُ صَيْدُهَا وَلَا يُعْضَدُ شَوْكُهَا وَلَا يُخْتَلَى خَلَاهَا[25] وَلَا تَحِلُّ لُقَطَتُهَا إِلَّا لِمُنْشِدٍ) فَقَالَ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ:"إِلَّا الْإِذْخِرَ[26]يَا رَسُولَ اللَّهِ فَإِنَّهُ لَا بُدَّ مِنْهُ لِلْقَيْنِ[27] وَالْبُيُوتِ" فَسَكَتَ ثُمَّ قَالَ: (إِلَّا الْإِذْخِرَ فَإِنَّهُ حَلَالٌ).

وآية ذلك أن البيت الحرام لم يعرف في تاريخه الطويل سلطة مركزية ممثلة في ملك أو رئيس أو حاكم، لأنها مظنة الظلم والخوف والاستبداد، وعندما حاول القيصر تتويج عثمان بن الحويرث ملكا على مكة أنف أهلها أن يدينوا لملك، وصاح الأسود بن أسد بن عبد العزى على أحفل ما كانت قريش في الطواف:" ياالعباد الله، ملك بتهامة!؟ ألا إن مكة حي لقاح لا تدين لملك" فقالوا:"صدق واللات والعزى ما كان بتهامة ملك"، فلم يتم مراد عثمان وفشلت مساعي القيصر.

ولما كانت وظيفة الإمامة ومسؤوليتها تعبيد الناس لخالقهم، فإن من مقتضياتها أن يمهد الإمام لرعيته سبل العبادة وأدواتها ووسائلها، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، لذلك بين تعالى لإبراهيم ما ينبغي القيام به من ذلك أولا بأول، وأوله مكان الصلاة من البيت، وهو مقام إبراهيم، فقال: { وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى}، أي اجعلوا منه مكانا للصلاة.

ولئن اختلفت الأخبار والروايات حول تحديد المقصود من المقام المتَّخَذِ مُصَلًّى، فإن أرجح الأقوال هو مكان قيام إبراهيم عليه السلام عند بناء الكعبة مع ولده إسماعيل، ومقامه عندها للصلاة والتعبد، وهو المعروف حاليا في المسجد الحرام،

---

25 – الخلى: الرطب أو اليابس من النبات، واختلاؤه قطعه واحتشاشه.

26 – الإذخر: حشيش طيب الريح

27 – القين: الحداد، كل ذي صناعة يعالجها بنفسه.

وإن كانت الصلاة فرضا ونفلا في المسجد الحرام كله أكثر ثوابا من الصلاة في غيره كما قال صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخاري: (صلاةٌ في مسجدِي هذا خيرٌ من ألفِ صلاةٍ فيما سِواه إلاّ المسجدَ الحرامَ).

وإذا كان الأصل في صيغة الأمر في الكتاب والسنة هو الوجوب فإن قوله تعالى { وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى} } يفيد وجوب الصلاة في مقام إبراهيم، مع أن الصلاة يجزئ القيام بها في بقاع الأرض كلها، مقاما وغير مقام، كما قال صلى الله عليه وسلم:(وجُعِلَتْ لِيَ الأرضُ مَسجِداً وطَهوراً فأيُّما رَجُلٍ من أُمَّتي أدرَكَتْهُ الصلاةُ فلْيُصَلّ)، لذلك أتت السنة النبوية تشرح ما أشكل من معنى اتخاذ المقام مصلى دون سائر المسجد، فيما رواه جابر عن صفة حجه صلى الله عليه وسلم، قال:(.. فاستلم نبيّ الله صلى الله عليه وسلّم الحجر الأسود، ثم رمل ثلاثة ومشى أربعة، حتى إذا فرغ عمد إلى مقام إبراهيم فصلى خلفه ركعتين، ثم قرأ: { وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى}، وما أخرجه النسائي عن عبد الله بن عمر: (لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَكَّةَ طَافَ بِالْبَيْتِ سَبْعًا ثُمَّ صَلَّى عِنْدَ الْمَقَامِ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الصَّفَا مِنْ الْبَابِ الَّذِي يَخْرُجُ إِلَيْهِ فَطَافَ بِالصَّفَا وَالْمَرْوَةِ)، فتبين من ذلك أن أداء عموم الصلاة في أركان الأرض كلها مباح وإن اختلفت درجات أجرها كما ورد به النص، أما صلاة ركعتي الطواف ففي مقام إبراهيم وجوبا أو سنة مؤكدة، على خلاف بين الفقهاء، واجبة عند المالكية والحنفية، سنة عند الشافعية والحنابلة، قال المواق في "مواهب الجليل في شرح مختصر الشيخ خليل [28]:(وَفِي سُنِّيَّةِ رَكْعَتَيْ الطَّوَافِ أَوْ وُجُوبِهِمَا تَرَدُّدٌ: ابْنُ يُونُسَ: رَكْعَتَا الطَّوَافِ الْوَاجِبِ سُنَّةٌ مُؤَكَّدَةٌ يُسْتَحَبُّ أَنْ يَقْرَأَ فِيهِمَا بِقُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ، وَقُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ. الْقَرَافِيُّ: مِنْ شُرُوطِ الطَّوَافِ اتِّصَالُ رَكْعَتَيْنِ بِهِ. قَالَ أَبُو الْوَلِيدِ: الْأَظْهَرُ وُجُوبُهُمَا فِي الطَّوَافِ الْوَاجِبِ، وَيَجِبَانِ بِالدُّخُولِ فِي التَّطَوُّعِ. وَقَالَ سَنَدٌ: لَا خِلَافَ أَنَّهُمَا لَيْسَتَا رُكْنًا وَالْمَذْهَبُ أَنَّهُمَا وَاجِبَتَانِ يُجْبَرَانِ بِالدَّمِ، وَنُدِبَا كَالْإِحْرَامِ بِالْكَافِرُونَ وَالْإِخْلَاصِ).

ثم لما بين عز وجل مكان صلاة ركعتي الطواف للحجاج والمعتمرين، أمر إمامهم إبراهيم وولده إسماعيل بإعداد قبلتهم طاهرة طهارة مادية ومعنوية فقال: { وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ} العاكفين: أي المقيمين المجاورين للبيت بقصد الإكثار من العبادة في المسجد الحرام، والركع جمع راكع، والسجود: جَمْعٌ سَمَاعِيٌّ مفرده ساجد، ومنه شاهد وشهود وهاجع وهجوع.

وقوله تعالى: { وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ }: أي وصينا وأوحينا وأمرنا إبراهيم وإسماعيل بأن يبنيا البيت مطهرا بصدق نية وإخلاص عمل، على تقوى من الله ورضوان، كما قال تعالى: { أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ} التوبة109، وبصيانته من كل ما لا يليق به من الأدناس المادية والمعنوية، أمرا بالمعروف ونهيا عن المنكر، وتطهيرا من الأرجاس والأوساخ والأوثان، ومن كل آثار الشرك ومظانه. وتهيئته

---

28 – مواهب الجليل في شرح مختصر الشيخ خليل، للشيخ محمد بن يوسف الأندلسي الغرناطي الشهير بالمواق 452/3

طيبا مريحا للحجاج والمصلين والمتعبدين، بما يعينهم على أداء مناسكهم وتقوية الإيمان في قلوبهم. ولما كان إبراهيم بِجَعْلٍ من ربه إماما للناس كافة، و الإمام راع ومسؤول عن رعيته، ووظيفة الإمام أن يهدي الناس للحق والخير ويعينهم عليه، قال تعالى: { وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ } الأنبياء73، فإن إبراهيم وولده إسماعيل بدآ مهمتهما بما يبدأ به المؤمن، وهو الاستعانة بالله على ما كلفا به والدعاء للمؤمنين في وادي مكة بالأمن وكفاية الرزق { وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ }، أي أسبغ على أهل هذا الوادي الذي نبني فيه بيتك الأمن وكفاية الحاجات من الثمرات، وكأنما منعهما الحياء من الله أن يشركا مَنْ كفر في هذا الدعاء، فعقب تعالى عليه: { قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ}، مبينا قاعدة عدل في الدارين، أن الرزق في الدنيا للبر والفاجر، وأن الآخرة لمن آمن واتقى، وهو تعالى يمتع الكافر قليلا، إذ (لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء) كما قال صلى الله عليه وسلم، ثم يلجئه بعد ذلك إلى أسوأ مصير وهو عذاب الآخرة في جهنم { إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً } الفرقان 66.

وامتثالا لأمر الله لهما بتطهير البيت وتحلية بنائه بالصدق والإخلاص، يتوجهان بالدعاء إلى الله تعالى وهما يرفعان قواعد الكعبة بناء وتعلية، وهو سميع لهما عليم بسرهما وعلنهما وجهرهما ونجواهما، يسألانه استقواء به واستعانة، أن يتقبل عملهما { وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}، وأن يثبتهما على الإسلام الذي ارتضاه لهما، ويجعل من ذريتهما أمة مسلمة له، خاضعة منقادة لتعاليمه، ممتثلة أمره مجتنبة نهيه، وأن يتولاهما وذريتهما بالهداية إلى شرائع الدين، والتوبة النصوح إلى الحق في كل حين { رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ}، {وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا } أي علمنا ما فرضت علينا من الشرائع والمتعبدات، لأن أصل النسك العبادة، { وَتُبْ عَلَيْنَا} أي تجاوز عنا، {إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} قابل توبة التوابين واسع الرحمة بالأوابين.

لقد كان إبراهيم عليه السلام قدوة في الإمامة، اقتدى به الأنبياء بعده، ويقتدي به الأئمة الأبرار في كل عصر، ولئن افتقدت صفاته في أئمة زماننا وقد هدموا قواعد الدين بدل رفعها، وأركان الإيمان بدل تثبيتها، وفسطاط الإحسان بدل نشره، فلأنهم أفسدوا نواياهم وأعمالهم بالشرك ظاهرا أو خفيا، وعمروا قلوبهم بحب الدنيا وزينتها، وأخلوها من حب الآخرة والعمل لها، وهم بذلك أئمة جور وظلم وفساد، قال تعالى: {احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ } الصافات24/22، وقال: { وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ} القصص 42/41.

التضامن العقدي بين الأجيال

سنة إبراهيم وعهدته

قال الله تعالى: { رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ (129) وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (130) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (131) وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (132) أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (133) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (134) وَقَالُواْ كُونُواْ هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُواْ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (135)} / البقرة

تمثل الأمة الإسلامية كيانا واحدا متماسكا من آدم عليه السلام إلى آخر مسلم على الأرض، كيانا لا تفرقه الأعراق أو الأقطار أو الألوان، ولا يمزقه بريق المصالح الآنية المتقلبة أو بهرج الأطماع الدنيوية العارضة، لأن له دينا واحدا على اختلاف الأعصر وفي كل أمة، وعلى لسان كل نبي، دينا جوهره التوحيد ومبناه الاستسلام لله تعالى، والإذعان لما أتى به الوحي، دينا سداه الاتباع الرشيد ولحمته المحبة الصادقة، قال تعالى: { إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ } آل عمران 19، وقال: { وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآَخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} آل عمران85، وقال صلى الله عليه وسلم:(مثل المؤمنين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر).

هذه الوحدة الرشيدة الرضية، تجلت في حياة المسلمين على اختلاف مراتبهم في شجرة الإيمان والإسلام، تضامنا وتكافلا وتعاونا وتعاطفا وتراحما، لا يشعرون بفارق زمن بين سلف وخلف، أو فارق مكان بين شرق وغرب أو شمال وجنوب، أو فارق لون بين أحمر أو أصفر أو أبيض أو أسود، تجلى هذا الشعور التضامني بين الأجيال واضحا بينا في إبراهيم عليه السلام، وقد سكنه هَمُّ نفسه وذريته فدعا: { رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ}، وشغله أمر الأجيال بعده فجأر بالدعاء لها برسول يستنقذها من الجهل والجهالة والشرك والغواية: { رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ}.

لقد تجرد إبراهيم للتوحيد والعبادة، فلم يشرك بالله شيئا، وتبرأ من كل معبود سواه، ومن كل ولاء لغيره، وخالف قومه فألقوه في النار، وطاردوه في الآفاق فما نال ذلك من يقينه وما أثر في عزيمته، وبلغ به البراء مما سوى أولياء الله أن تبرأ من

أبيه وقومه، ولكنه لم ينس الطائفة المسلمة التي تأتي من بعده على مر الحقب والدهور، فدعا لها بما ينجيها ويحييها ويزكيها ويعلمها.

إنها وحدة قلوب المؤمنين إلى يوم الدين، شعارها التكافل، يسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم، هاجس كل منهم أن يهتدي ويهتدي معه الناس، ينجو وينجو معه المؤمنون، من جيله والأجيال بعده، لأنه يعرف قيمة الإيمان والطاعة ويحرص على أن يُسْبَغا على من يأتي بعده، ويعرف عقبى الاستغفار لنفسه ولمن سبقه والدعاء لذريته ولمن يلحق به من المسلمين، وتلك مزية إبراهيم وابنه إسماعيل وسابقتهما في الفضل، ومنزلتهما في عالي الدرجات { وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ} الواقعة11/10، إذ باليقين والأعمال الصالحة والإيثار ومحبة الخير للناس جميعا يتفاضل الخلق في الدنيا والآخرة، وبالعقل والعلم والحكمة يبلغ المرء قمة رشده وهدايته، لذلك دعوَا ربهما لعقبهما ولمن يأتي بعدهما بألا يُخْلِيَهم من رسول وشرع وهداية وحكمة وقالا: { رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ} هو محمد صلى الله عليه وسلم، بعث إلى الناس كافة، في قومه العرب من ذرية إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، { يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ} يبلغهم آيات الله تعالى قرآنا مبينا بالسنة والقدوة، فيتناولونه بالتلاوة والدرس والبحث واستقصاء المعاني والمرامي، ويعلمهم الحكمة صوابا في القول والعمل وتعقلا وحلما وحسن تصرف في الحال والمآل، ومعرفة بأسرار الدين ومقاصده، وسنن الله في الخلق والتغيير والتغير، ويكشف لهم سبل الصالحين والمصلحين فيسلكونها، وسبل المجرمين والمفسدين فيجتنبونها، {وَيُزَكِّيهِمْ } يطهرهم من الشرك وأرجاسه، ومن منكرات النوايا والأقوال والأعمال والأهواء، ويصلحهم أفرادا ومجتمعا بما يحفظ طهارتهم النفسية والسلوكية، تخلية من كافة الشرور وتحلية بكل بر رشيد نير، ويستديم صفاء قلوبهم فيكسبها حظها من النماء وارتقاء درجات اليقين والإحسان والقرب، ثم ختما دعاءهما بالثناء على الله تعالى تأدبا وتقربا وتبركا باسمين من أسمائه الحسنى وصفاته العليا فقالا: { إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ} الذي لا يعجزه شيء، القادر المقتدر الغالب في حكمه وسلطانه {الحَكِيمُ} في صنعه وإتقانه وأفعاله وأقواله علما وحكمة وعدلا.

وقد وافقت هذه الدعوة المستجابة قَدَرَ الله السابق كما قال صلى الله عليه وسلم: (إني عند الله مكتوب خاتم النبيين، وإن آدم لمجندل في طينته، وسأخبركم بأول أمري، أنا دعوة إبراهيم وبشارة عيسى ورؤيا أمي التي رأت حين وضعتني وقد خرج منها نور أضاءت لها منه قصور الشام)

لقد كانت سنة التضامن بين الأجيال المسلمة المتعاقبة من صنيع إبراهيم عليه السلام، بها وبغيرها استحق أن يكون أبا للمسلمين وقدوة لهم في العقيدة والولاء لربه وللمؤمنين، والبراء من الشرك والمشركين { مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ} الحج 78، ولئن دعا نوح عليه السلام على قومه إذ عصوه فقال: { رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا} نوح 27/26، فإن إبراهيم الأواه الحليم قال: { رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} إبراهيم36، بهذه السنة الإبراهيمية،

سنة تضامن أجيال المسلمين بشر موسى وعيسى عليها السلام بمحمد صلى الله عليه وسلم { الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ} الأعراف 157، وبها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ إِلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعْجَبُونَ لَهُ وَيَقُولُونَ هَلَّا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ قَالَ فَأَنَا اللَّبِنَةُ وَأَنَا خَاتِمُ النَّبِيِّينَ)، وبها أُمِرْنا بعد التوحيد أن نستغفر لأنفسنا وللمؤمنين، قال تعالى: { فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ} محمد 19، وبها يدعو الخلف الصالح للسلف الرشيد: { وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} الحشر10، وفي الحديث: (رب اغفر لي ولوالدي وارحمهما كما ربياني صغيرا واغفر للمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات). وكان بذلك على المسلم أن يقتدي بالصالحين ممن سبقه على هدي الكتاب والسنة، ويستغفر لهم، وأن يؤسس القدوة الصالحة لمن يعاصرونه أو يأتون بعده ويدعو لهم.

إن سنة تضامن أجيال المسلمين تكافلا وتعاونا وتناصحا ووحدةَ صفٍّ وقلوبٍ وهدفٍ، وقايةٌ من الفساد وترسُ مدافعةٍ لصد الشر عن مجتمع المسلمين في كل عصر، وأداةٌ لتحقيق ريادتهم وقيادتهم للناس، وما انفراط هذه السنة وامحاؤها فيهم واندثارها في علاقاتهم إلا نذير انكسار شوكتهم، وذهاب ريحهم وزوال إمامتهم، قال تعالى: { وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا}، وقال: { أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ} الأنعام 65، وقال: { وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ} الأنفال 46، وقال: {وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ} الروم32/31، وفي الحديث: (وَإِذَا تَسَابَّتْ أُمَّتِي سَقَطَتْ مِنْ عَيْنِ اللَّهِ)، (إذا لَعَنَ آخِرُ هذه الأمة أوّلَها، فمَنْ كتم حديثاً فقد كَتَم ما أنزلَ الله عز وجل).

هذه عقيدة إبراهيم عليه السلام، وهذه طريقته ومنهجه، براءة من الشرك وأهله، وانشغال بال بأمر الخلق وهدايته، ومحبة للخير يعم الناس جميعا، فأين منه من يدّعون الانتسابَ إليه واتباعَه من طائفتي اليهود والنصارى المعاصرين للبعثة النبوية؟ أين منه المتفاخرون بأبوته لهم من مشركي قريش والعرب قاطبة؟ أين هم منه وقد تلبسوا بكل قبيح في الاعتقاد والقول والعمل، وامتلأت قلوبهم برديء المشاعر حسدا وبغضاء وكراهية واستئثارا؟ أين هم وقد رغبوا عن ملته وأعرضوا عن دينه؟ لذلك بعد أن بين القرآن دين إبراهيم ومنهجه وإمامته وفضله، عرَّض بمن يدعون الانتساب إليه وانتحال وراثته من اليهود والنصارى ومشركي العرب، فقال: { وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ }، لا ينحرف عن الإسلام الذي هو دين إبراهيم وملته إلا من سفه نفسه، أي امتهنها واستخف بها وظلمها بسوء رأيه وجهله وخفة عقله، ولا اهتداء إذا حل الجهل ولا رشد إذا افتقد العقل والحلم.

يقال: رغب في الشيء إذا أراده، ورغب عنه إذا كرهه وأعرض عنه وزهد فيه وانصرف عنه، والملة في الأصل الطريقة والنهج، غلب إطلاقها على أصول الدين، قال الراغب في "مفردات القرآن": (الملة كالدين، وهو اسم لما شرع الله تعالى لعباده على لسان الأنبياء ليتوصلوا به إلى جوار الله، والفرق بينها وبين الدين أن الملة لا تضاف إلا إلى النبي عليه الصلاة والسلام الذي تسند إليه نحو: { فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } آل عمران95، { وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آَبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ } يوسف 38).

وأصل لفظ " المِلَّة " من: فعل مَلَّ الشيءَ في الجمْر يَمُلُّه مَلّاً أي: شواه، يقال: ملَّ اللحمَ فتَمَلَّلَ أي شواه فانشوى، ومَلَّ القَوْسَ أوالسهمَ أوالرمح في النار: عالجها به، والمِلَّة: الرَّماد الحارُّ والجمْر، والحفرة التي فيها النار، والموضع الذي يشوى فيه الشيء أو يختبز فيبقى عليه أثره وطريقه، وتملَّلَ وامْتَلَّ إذا دخل في مِلَّة، ومنه لفظ " المِلَّة " بمعنى السنة والطريق والمنهج والشريعة، إشارةً إلى ارتباط بين التدين وبين المحن في غالب الأحيان.

وقد بين القرآن الكريم بوضوح كامل معنى ملة إبراهيم فقال تعالى: { قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ} الأنعام163/161، وقال: { ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} النحل123.

ثم بين تعالى بعد أن أشاد بإبراهيم وملته ودينه وإمامته، أن هذا الفضل الذي أسبغه عليه اصطفاءٌ منه عز وجل، مؤكدا بحرف التوكيد"اللام"، ومحققا بحرف التحقيق"قد"، فقال: {وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا} من "صفا يصفو صفاء"، والصفاء نقيض الكدر، وصفوة كل شيء خالصه، والاصطفاء: الاختيار والاجتباء، على وزن "افتعال"، أصله: الاصتفاء، قلبت تاء الافتعال فيه "طاء" لقرب مخرجها من مخرج الصاد، أي: اخترناه للرسالة والإمامة والإسوة الحسنة وأبوة الأنبياء من بعده وللمسلمين إلى يوم الدين في الدنيا، ثم عقب تعالى على هذا الاختيار مؤكدا بحرفي التوكيد "إن" و"اللام" فقال: {وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ) أي مع الصالحين أنبياء ورسلا في الجنة، وقد جرت سنة الله في خلقه أن يصطفي من عباده من يشاء للنبوة والرسالة في الدنيا ولنعيم الجنة في الآخرة، منةً إلهية منه عز وجل، لحكمة يبينها في مجالات ويستأثر بها في مجالات أخرى حسب مشيئته، وما كان لأحد من عباده الخِيَرَة، قال تعالى: { لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ} الأنبياء23، وقال: { وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ} القصص 68، وقال: { اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ} الحج 75، وقال: { إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آَدَمَ وَنُوحًا وَآَلَ إِبْرَاهِيمَ وَآَلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ} آل عمران33.

وفي إشارة واضحة إلى جميل صنع الله وحكمته في الاختيار والاصطفاء بين عز وجل فضيلة أخرى من فضائل إبراهيم عليه السلام، هي سرعة مبادرته إلى الطاعة والانقياد بدون تردد أو اضطراب فقال: {إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ

لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، أُمِرَ بالاستقامة على الإسلام فأسرع إلى الامتثال، وبالثبات عليه فشمر عن ساعد الجد، وبإخلاص العبودية فكان العبد الصابر المحتسب، ونودي إلى الاصطفاف في ركب الإيمان بعد منة الاصطفاء والإحسان، وإلى السُّرَى في عتمة الجاهلية ورمضاء الكفر والجحود، فكان سابق القوم ورائدهم إلى الصف الأول إذ نطق بكلمة الإخلاص: ﴿ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وفي الحديث الصحيح عندما سئل الرسول صلى الله عليه وسلم:" ما آيات الإسلام؟ "، قال: (أن تقول: أسلمت وجهي إلى الله عز وجل وتخلَّيْتُ) أي تَبَرَّأْتُ من الشرك. وقال: (لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي النِّدَاءِ وَالصَّفِّ الْأَوَّلِ ثُمَّ لَمْ يَجِدُوا إِلَّا أَنْ يَسْتَهِمُوا عَلَيْهِ لَاسْتَهَمُوا، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي التَّهْجِيرِ لَاسْتَبَقُوا إِلَيْهِ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي الْعَتَمَةِ وَالصُّبْحِ لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا)،

لقد تمسك إبراهيم عليه السلام بكلمة الإخلاص هذه، ودعا لها ونشرها وأوذي في سبيلها، وأوصى بها ﴿ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾ وكانت وصيته ووصية حفيده يعقوب لذريتهما: ﴿ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ اصطفى لكم الدين: أي ارتضى لكم الإسلام وشرعه لعبادتكم فاثبتوا عليه وتمسكوا به إلى أن يدرككم الموت وأنتم عليه، وهذا كقوله تعالى: ﴿ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا ﴾ المائدة 3، وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (جاءني جبريل عليه السلام فقال: إن الله ارتضى هذا الدين لنفسه...) وكما روي عن الإمام علي كرم الله وجهه أنه سئل: (يَا أَمِيرَ الْمؤمنِينَ أَخْبِرْنَا عَنِ الإيمانِ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، إِنَّ اللَّهَ ابْتَدَأَ الأمُورَ فَاصْطَفَى لِنَفْسِهِ مَا شَاءَ، وَاسْتَخْلَصَ مَا أَحَبَّ، فَكَانَ مِمَّا أَحَبَّ أَنَّهُ ارْتَضَى الإِسْلامَ، وَاشْتَقَّهُ مِنِ اسْمِهِ فَنَحَلَهُ مَنْ أَحَبَّ مِنْ خَلْقِهِ، ثُمَّ شَقَّهُ فَسَهَّلَ شَرَائِعَهُ لِمَنْ وَرَدَهُ وَعَزَّزَ أَرْكَانَهُ عَلَى مَنْ حَارَبَهُ، هَيْهَاتَ مِنْ أَنْ يَصْطَلِمَهُ مُصْطَلِمٌ جَعَلَهُ سَلْماً لِمَنْ دَخَلَهُ، وَنُوراً لِمَنِ اسْتَضَاءَ بِهِ، وَبُرْهَاناً لِمَنْ تَمَسَّكَ بِهِ، وَدِيناً لِمَنِ انْتَحَلَهُ، وَشَرَفاً لِمَنْ عَرَفَهُ، وَحُجَّةً لِمَنْ خَاصَمَ بِهِ، وَعِلْماً لِمَنْ رَوَاهُ، وَحِكْمَةً لِمَنْ نَطَقَ بِهِ، وَحَبْلاً وَثِيقاً لِمَنْ تَعَلَّقَ بِهِ، وَنَجَاةً لِمَنْ آمَنَ بِهِ...).

لقد صارت وصية إبراهيم لأبنائه وحفدته وكافة المؤمنين بعدهم، عهدة في ذمتهم يتوارثونها، وسنة يتبعونها ويوصون بها كلما حضر أحدهم الموت، وقد أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم في خطبة له فقال:(أَمَّا بَعْدُ أَلَا أَيُّهَا النَّاسُ فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَ رَسُولُ رَبِّي فَأُجِيبَ وَأَنَا تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ أَوَّلُهُمَا كِتَابُ اللَّهِ فِيهِ الْهُدَى وَالنُّورُ فَخُذُوا بِكِتَابِ اللَّهِ وَاسْتَمْسِكُوا بِهِ، فَحَثَّ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ وَرَغَّبَ فِيهِ، ثُمَّ قَالَ وَأَهْلُ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمْ اللَّهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمْ اللَّهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمْ اللَّهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي). وقال: (خَلَّفْتُ فِيكُمْ شَيْئَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُمَا كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّتِي وَلَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ)، وعن جابر بن عبد الله الأنصاري قال:(سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبْلَ مَوْتِهِ بِثَلَاثَةِ أَيَّامٍ يَقُولُ لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ).

وبعد أن ذكَّر القرآن بإسلام إبراهيم ووصيته لذريته، التفت للرد على مزاعم يهود عصر البعثة باستفهام إنكاري لأباطيلهم وادعائهم ما لا قبل لهم بعلمه من أمر دين أبي الأنبياء: ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءِ﴾ هل كنتم شهودا حاضرين؟ ﴿ إِذْ حَضَرَ

يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي؟} سألهم سؤال تذكيرٍ بما ينبغي أن يثبتوا عليه من الدين، وليطلع على خالص طويتهم ومقدار تمسكهم بعقيدة التوحيد بعد وفاته، فأجابوه بما يدل على رسوخ إيمانهم: {قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ}.

لقد كان يهود عصر البعثة يفترون على يعقوب ويزعمون أنه على اليهودية، كما روي أنهم قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم:" ألست تعلم أن يعقوب أوصى بنيه باليهودية؟"، فنزلت هذه الآية الكريمة تفضح تناقضهم، وتبين أنهم لا يصلحون للشهادة على يعقوب وقد كان قبلهم بأجيال وأجيال، واليهودية نفسها لم تعرف إلا بعد موسى عليه السلام.

وأن الدين عند الله تعالى هو الإسلام كما أقر به أبناء يعقوب بقولهم: { نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهاً وَاحِداً}. الإسلام هو دين الأنبياء والرسل جميعا من آدم إلى محمد عليهم الصلاة والسلام، لقد قال نوح لقومه: { وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ } يونس72، وقال موسى لقومه: { فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ} يونس84، وقال الحواريون لعيسى: { وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} آل عمران 52، وقال بعض أهل الكتاب لما سمعوا القرآن: { آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ } القصص 53.

ولئن كان إسلام جميع الأنبياء والرسل واحدا فيما يخص أصول الدين وكلياته توحيدا للربوبية والألوهية وإيمانا باليوم الآخر والبعث والحساب وبالنبوة وحَمَلَتِها، ومكارم الأخلاق ومحاسنها، فإن تشريعات العبادة وأحكام المعاملات والحلال والحرام تختلف من رسول إلى رسول بوجه عام، قال تعالى: { لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا} المائدة 48، ولذلك جاءت الشريعة المحمدية بما لم يكن موجوداً في الشرائع السابقة، أحلت كل الطيبات وحرمت كل الخبائث ووضعت عن الناس إصرهم والأغلال التي كانت عليهم وشرعت لهم ما فيه اليسر والتخفيف. قال تعالى: { الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ} الأعراف 157.

ثم عقب تعالى على إخلاص إبراهيم وبنيه، وصدق تمسكهم بالدين، وعلو مرتبتهم عند رب العالمين، بتنبيه اليهود والنصارى، وكانوا يفاخرون بنسبهم الإبراهيمي، يظنون أنه ينجيهم بين يدي الله، محذرا من الاتكال على رابطة الدم والعرق بصالحي الآباء والأجداد فقال: {تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ} تلك أمة إبراهيم وبنيه وقد مضت وأفضت إلى ما قدمت، {لَهَا مَا كَسَبَتْ} من أعمال خير أو شر، {وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ} من أعمال تسألون عنها وتحاسبون بها، { وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ} لا تحاسبون بأعمالهم سلبية كانت أو إيجابية، وهذه قاعدة العدل الإلهي المطلق، لكل نفس ثواب ما تعمل من خير، وعليها وحدها وزر ما ترتكب من شر. قال تعالى: { فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ} المؤمنون 104/101.

إن ما يردده اليهود والنصارى من مزاعم نجاتهم بيهوديتهم أو نصرانيتهم، مجرد أماني كاذبة { وَقَالُواْ كُونُواْ هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُواْ} ادعى اليهود أنهم وحدهم المهتدون، كما ادعى النصارى نفس الدعوى، إلا أن كلا الديانتين شابهما الشرك، شرك في التصور العقدي وشرك في العبادة، وشرك في العلاقات، فلم تبق لهم بالدين عند الله تعالى وشيجة، ولا بإبراهيم خليله نسب، ولا بملته الحنيفية الموحدة آصرة انتماء، {قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}، وما الهداية والنجاة إلا بملة إبراهيم، الحنيف (المائل) عن الباطل إلى الحق، المبارئ للشرك والمشركين، المهتدي إلى الصراط المستقيم

وحدة الدين أم وحدة الأديان؟ أنى يؤفكون؟!

قال تعالى: { قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (136) فَإِنْ آمَنُواْ بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (137) صِبْغَةَ اللّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدونَ (138) قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي اللّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ (139) أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطَ كَانُواْ هُوداً أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللّهِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (140) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (141)} البقرة

الأصل في جميع المخلوقات أن تعرف خالقها عز وجل وتعبده، {وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ} 44الإسراء، {وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآَصَالِ} الرعد15، { وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا} آل عمران83، الكائنات كلها منقادة لربها خاضعة له طوعا وكرها، لأنها تحت حاكميته وقيوميته، مسبحة بحمده معترفة بفضله إن بلسان الحال أو لسان المقال، إلا أن صنفا من هذه المخلوقات هم البشر، خلقوا أسوياء في أحسن تقويم، مسبحين كسائر المخلوقات، وابتلوا بالإهباط إلى الأرض والهداية إلى نجدي الخير والشر اختبارا وامتحانا، فاجتالت بعضهم الشياطين، أغوتهم وزينت لهم طريق الضلال فنسوا سواءهم وركنوا إلى انحرافهم وجحودهم وتمردهم، وكان منهم في عصر البعثة ثلاثة أصناف من الكفار يفاخرون كلهم بنسبهم الإبراهيمي، يهود يدعون عبادة الله وما يعبدون إلا مصالحهم وعجول ذهبهم، منتحلين إيمانا ينسب لربهم عزيرا ولدا،

ونصارى أفسدوا تسبيحهم بشركي التثليث وحاكمية الأحبار والرهبان، وكفار من مشركي العرب يعبدون أوثانا وأهواء علها تقربهم إلى الله زلفى، هذه الملل من الكفر كان يجمعها محور واحد هو المعاداة للدعوة التوحيدية الناشئة المنبعثة فيهم، وتكذيب ما جاء به رسولها صلى الله عليه وسلم. لذلك بعد أن أيأسهم الوحي في الآيات السابقة مما كانوا يؤملونه من الانتفاع بالصالحين من الآباء والأجداد أنبياء ورسلا، وبين لهم أن الرابطة المعتبرة شرعا هي رابطة العقيدة لا رابطة الدم والعرق والنسب، فقال: {وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} البقرة135، خوطبوا بدعوتهم إلى كلمة جامعة وفاصلة، تشرح لهم معنى الملة الحنيفية الأَحق بالاتباع، وهي التي جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم وكان عليها إبراهيم عليه السلام، والتي تختزل مجادلاتهم ومشاكساتهم ومعاركهم المصطنعة، وتوفر جهد المسلمين ووقتهم، وتمهد للمفاصلة بين فريقي الإيمان والكفر، كلمة تربطهم بكل الصالحين قبلهم وبعدهم، وتكون لهم نجاة في الدنيا والآخرة، قال تعالى: { قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ}.

والأمر بإعلان الإيمان في قوله تعالى: { قُولُواْ } موجه لليهود والنصارى والمشركين، كما هو موجه أيضا للمسلمين، وللثقلين من الجن والإنس في كل عصر على امتداد الحياة الدنيا، لأن الشهادة القولية المعلنة شرط في الإسلام الذي هو عقد بالقلب وقول باللسان وعمل بالأركان، ولأن علامة صدق الإيمان بالله تعالى التعجيل بالتوبة والمسارعة إلى الامتثال والإذعان والاستقامة على نهجه وطريقه، قال تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } الأحقاف13، وقال أولو الألباب الذين عرفوا الله وسارعوا إلى الإذعان والطاعة والإيمان كما ورد في سورة آل عمران193: { رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا }، وقال صلى الله عليه وسلم: (قل آمنت بالله ثم استقم). وما تقديم الأمر بالإيمان بالله في قوله تعالى: { قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ } إلا لكونه رأس الأمر وقوامه، لا يختلف باختلاف شرائع الأنبياء والرسل، به تتعلق النوايا والأقوال والأعمال، وكل خلل في التصور الإيماني ينعكس سلبا على الأمة أفرادا ومجتمعا، حالا ومآلا، قال تعالى: { وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } الأعراف96.

ولأن من لوازم الإيمان بالله تصديق ما يأتي منه عز وجل، أرشد تعالى إلى وجوب الإيمان بالكتب التي أنزلها على الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، فقدم القرآن الكريم بقوله: { وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا } لأنه الكتاب الملزم تعليمه الخاتم شرعه، المصدق لما قبله، الناسخ لما تقدمه من الشرائع، ثم عطف بما أنزل قبله من كتب وصحف على الأنبياء والرسل عليهم السلام، فقال: { وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ }، ففصل أعيان بعضهم { إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى} وأجمل بقيتهم بقوله تعالى: { وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ }، وبين أن عدم التفريق بين الأنبياء شرط في صحة الإيمان والإسلام:

{ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ }، وأشار إلى الذين اتبعوهم تأليفا لقلوب التابعين بإحسان في كل زمان، بذكر الأسباط وهم أبناء يعقوب وفيهم أخوهم يوسف النبي عليه وعلى سائر الأنبياء السلام، لِمَا بلغهم عن طريق أبيهم، ولما تعهدوا به له إذ سألهم { مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ } البقرة133، وكان بذلك الإيمان بجميع الأنبياء والرسل ركنا ركينا من العقيدة الإسلامية بدونه تختل ولا تعطي ثمارها، قال تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا} النساء151/150.

لقد لخصت هذه الآية الكريمة الدين الإسلامي عقيدة وشريعة خير تلخيص وأوفاه، إذ الإيمان بالله تعالى مفتاح الأمر كله، وليكون كذلك لابد أن ينضبط بما أنزله الله على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، وهو قوله تعالى: { وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا} كتابا وسنة، قال تعالى: { قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} آل عمران64، وفي رواية الإمام مسلم عندما سأل جبريل عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإيمان قال: (أَنْ تُؤْمِنَ بِالله، وَمَلاَئِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ)، وفي الصحيح عن محمد بن سيرين عن ابن الديلمي قال: كنا ثلاثة نخدم معاذ بن جبل، فلما حُضِرَ قلنا له: يرحمك الله، إنما صحبناك وانقطعنا إليك واتبعناك لمثل هذا اليوم، فحدثنا بحديث سمعته من الرسول صلى الله عليه وسلم قال: نعم وما ساعة الكذب هذه، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (من مات وهو يوقن بثلاث إن الله حق وإن الساعة قائمة وإن الله يبعث من في القبور، قال ابن سيرين: فأنا نسيت، إما قال: دخل الجنة، وإما قال: نجا من النار).

ولئن كان الإيمان واحدا لدى جميع الأنبياء والرسل، فإن الشريعة الإسلامية في القرآن الكريم ناسخة لكل الشرائع السابقة التي كانت حقا في زمانها ثم حُرفت ونُسخت بما نزل بعدها، قال تعالى: { الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ } الأعراف 157، وقال: { لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً } المائدة 48، وقال صلى الله عليه وسلم: (لَوْ كَانَ مُوسَى حَيّاً بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ ما حَلَّ لَهُ إلاّ أَنْ يَتْبَعَنِي).

لذلك كان الإيمان بالأنبياء والرسل السابقين كلهم مجملا لا يبيح لنا اتباع شرائعهم، وكان الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم مفصلا وملزما، وهو لمن بلغته دعوته المدخل الوحيد إلى الحق والنجاة وسعادة الدنيا والآخرة، قال تعالى: { قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } آل عمران31.

هذه الدعوة المباركة التي أُمِرَ الرسولُ صلى الله عليه وسلم والمؤمنون بأن يوجهوها لغيرهم من الكفار، هي الفيصل بين الحق والباطل، بين الهدى والضلال، والمخاطبون بها بين أمرين: قبول أورفض، قبول ينضمون به إلى ركب الإيمان وأمة الإحسان، أو رفض يركسهم في الضلال والهلاك: {فَإِنْ آمَنُواْ بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَواْ} فإن آمنوا مثل إيمانكم وصدقوا مثل تصديقكم فقد اهتدوا ورشدوا، { وَّإِن تَوَلَّوْاْ} إن أعرضوا عن دعوة الإيمان التي وجهت لهم { فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ} فذلك دليل اختيارهم الكفر والمحاربة والكيد، وإصرارهم على الشقاق، والشقاق لغة هو غلبة العداوةِ والمخالفة، من فعل "شاقَّهُ مُشاقَّةً وشِقاقاً": خالفه وعاداه ونازعه، كما قال تعالى: { ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} الأنفال13، وهم في معاداتهم وإصرارهم على الكفر والمخالفة، لن ينالوا من الرسول صلى الله عليه وسلم ودعوته وقد قال له ربه عز وجل: { فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللّهُ}، سيكفيه شرهم جميعا، يهودا ونصارى ومشركين، وينصره عليهم ويُظْفِرُه بهم، {وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}، سميع لأقوال معسكري الإيمان والكفر في السر والعلن، عليم بأحوالهم ومآل تصرفاتهم، وهذه الآية الكريمة تثبيت للنبي صلى الله عليه وسلم، وصرف له عن الاهتمام بأمر من تولى، إلى ما هو أجدى وأرضى.

ثم عقب تعالى على هذه الدعوة للاجتماع حول عقيدة التوحيد الإبراهيمي المحمدي بوصف جامع مانع فقال: { صِبْغَةَ اللّهِ}، أي أن هذا الدين هو السواء الذي خلق عليه الإنسان فليلزمه، والتقويم الأحسن الذي برأه الله عليه فليحافظ عليه، والفطرة الأولى التي أنشئ عليها فليتمسك بها، والصباغ الأول الذي صبغ به فؤاده، واللون الأصلي الذي أعطيته روحه، قبل أن تجتاله الشياطين وتستدرجه للشر ودركات الكفر، ومهاوي السافلين الهالكين قال تعالى: { لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ} التين5/4، وقال: { وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ} النور21، لقد خلق الله الإنسان على أحسن تقويم وأجمل فطرة وأسلم صبغة { وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ صِبْغَةً} لا يستطيع أحد الإتيان بمثلها أو أحسن منها، لأنها من الخالق الواحد القادر المقتدر، وهي العبادة المقبولة التي من أجلها خلق الإنسان {وَنَحْنُ لَهُ عَابِدونَ}، إن صبغة الله تعالى هي ملة إبراهيم ودين محمد عليهما الصلاة والسلام، هي سلامة الاعتقاد وحسن العمل: { قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ}، { الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ} الرعد29.

لقد تميز بهده الآيات الكريمة معسكران، معسكر لا كفر فيه لمن اعتصم بالإيمان شرائط وأركانا، واختار ولاية الله على ولاية غيره، ومعسكر كفر شاق الله واختار ولاية أعدائه، فتمت بذلك المفاصلة العقدية بما يستتبعها من معاملات وما ينتج عنها من حقوق وواجبات، ولهذا المعنى نظائر في آيات كثيرة من القرآن الكريم، قال تعالى: { اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ

هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} البقرة 257، وقال: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ} الممتحنة1، وقال: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} التوبة، وقال: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا} النساء 144.

لكن هذا الولاء المخصوص لله ورسوله والمؤمنين لا يبيح إهمال شأن معسكر الكفر وترك دعوته إلى الحق بما تقتضيه الحكمة والكلمة الطيبة والمصابرة الهادئة اللينة، قال تعالى: { ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} النحل125.

إلا أن نجاح هذا الأسلوب في الإرشاد والدعوة واستنقاذ الناس من الضلال رهن بما يتوفر في الداعية من صفات. وأولى هذه الصفات بعد العلم وقبله، الولاء الحق لله تعالى وحده لا شريك له، واستقلال القلب والعقل والجيب، لأن المرء إذا تحكم في عقله وقلبه وجيبه غير الله، أثر ذلك في أعماله وتصرفاته وأقواله فكَيَّفَ دعوته بما لا يُغضب مَنْ مَلَك عقلَه أو قلبه أو جيبه، لذلك لم يفلح موظفو الحكومات الإسلامية في العالم الإسلامي أئمة ووعاظا ودعاة إلا في خدمة الأجهزة الرسمية، وتنفيذ التعليمات.

وثاني شروط نجاح الدعوة استعلاء الداعية بإيمانه من غير غرور أو استكبار، ولا يكون ذلك إلا بأن يخاطب الناس من موقع قوة، اعتزازا بدينه واستغناء بربه وثقة به، إذ حاله عند ممارسة الدعوة أبلغ من مقاله، وخطابه الحر المتميز أزكى من ماله ونواله، وانعدام هذا الشرط هو ما يعيب نشاطا رسميا لبعض حكومات المسلمين في عصرنا أسموه حوارا للأديان، وظفوه من موقع ضعف وتمزق صف، لخدمة أهداف سياسية تافهة، متسولين بأبواب الدول القوية الطاغية، وفي ردهات بيعها وكنائسها، تلفح وجوههم نار الذلة والمسكنة، فلم يكسبوا من نشاطهم هذا مقدار ما ضاع من مروءتهم ودينهم.

إن أسلوب استعراض محاسن الإسلام وما يماثلها في الأديان الأخرى يهودية ونصرانية ووثنية، تزلفاً من موقع ضعف وتسولِ ودٍّ وقربى، ومداهنةً للملل المنحرفة واسترضاءً ومماكسةً لها بتقليم الأحكام الشرعية وبترها وإساءة تأويلها، وسعيا لكسب صداقة مراكز القوة العالمية الكافرة والأمن من عدوانيتها، بدل بناء القوة الذاتية والاحتماء بها، ومخاطبة الغير من خلالها، لم يكن في يوم من الأيام أو سنة من السنن مما أرشدنا إليه الوحي، أو عمل به الراشدون من الصحابة والتابعين، أو العلماء الأسوياء الحكماء من كل عصر ومصر، ولم يكن كذلك غراسا يرجى له ثمر، أو حرثا للدنيا أو الآخرة يؤمل منه خير أو يقضى به وطر.

لقد عرفت الساحة الإسلامية هذا الأسلوب الخائر منذ تهاوت حصون الأمة تحت ضربات الغزو الاستعماري عسكريا وثقافيا، واستنبتت في مختلف أقطارها محاضن فساد عقدي وإفساد أخلاقي، تحت شعار مموه ظاهره اللطف وباطنه المكر الخبيث، شعار وحدة الإنسانية بتوحيد الأديان، وإزالة الخلاف العقدي بين الناس، و إسقاط الفوارق بين المجتمعات،

على أساس الاعتراف بعقائدهم وصحتها، وأنشئت لذلك في مجتمعات المسلمين جمعيات ومنظمات سرية وعلنية، ماسونية وبهائية ونوادي فنية وأدبية وترفيهية، استدرج لها سذاجة وغفلة نخب من أعيان المجتمع المسلم وعلمائه، فألقت هذه النبتة الخبيثة بجذورها وأنشبت اظفارها، وعاثت في المسلمين فسادا.

وفي عصرنا هذا وقد انبعثت الأمة الإسلامية من سباتها وسعت لاستعادة مناعتها، تطورت دعوة توحيد الأديان فصارت دعوة لحوار الاديان بين حكومات مسلمة ضعيفة خائرة همها البقاء في السلطة، وديدان قراء همهم بطونهم وجيوبهم، وبين حكومات استعمارية طاغية، غايتها السيطرة على عقول الأمة وقلوبها وثرواتها، واستحدثت لهذه الغاية مؤتمرات إقليمية وعالمية، وندوات مفتوحة ومغلقة، فلم تثمر إلا مزيد ذل للمسلمين، واستكانة وانبطاح لحكامهم.

إن منظمات حوار الأديان التي استحدثت، حتى لو رأى البعض ضرورة المساهمة فيها، ينبغي ألا تكون مشاركة المسلم فيها إلا من خلال مبادئ دينه، والدعوة إلى الكتاب والسنة عقيدة وشريعة ونهج حياة، هذا هو الأسلوب الجائز شرعا، المستساغ عقلا وحكمة، المنتج لآثاره في الدنيا والآخرة، وما سوى ذلك إضاعة جهد ومال وكرامة.

ولئن أُمِر المسلمون بالدعوة إلى سبيل الله وصراطه المستقيم بالحكمة والموعظة الحسنة، ومجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن، فإن هذا الأمر لا يقتضي أن نساوم على ديننا ونماكس في تعاليمه وأحكامه ونقلم أظافره ونوهن مراكز القوة فيه، فما عندنا هو الحق الذي ندعو له، وما عند الكفار هو الباطل الذي ننهى عنه، والحكمة والرفق واللين مما يتميز به نهجنا في إخراج الناس من الظلمات إلى النور، ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم القدوة الحسنة، وحواره مع الملل والنحل والأديان محفوظ ومدون، ذكرت كتب السيرة نماذج منه واضحة الدلالة، نورد منها مثلين:

أولهما حواره صلى الله عليه وسلم مع وفد نصارى نجران، وقد زاروه بعد الهجرة في ستين راكباً، دخلوا المسجد النبوي، عليهم خيار الملابس، وفي أيديهم خواتم الذهب، ومعهم هدية هي بسط فيها تماثيل ومسوح، فصار الناس ينظرون للتماثيل فقال صلى الله عليه وسلم: أما هذه البسط فلا حاجة لي فيها، وأما هذه المسوح فإن تعطونيها آخذها، فقالوا نعم: نعطيكها. ولما رأى فقراء المسلمين ما عليه هؤلاء من الزينة والزي الحسن تشوقت نفوسهم إلى الدنيا، فأنزل الله تعالى: { قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ} آل عمران 15، وأرادوا أن يصلوا بالمسجد بعد أن حان وقت صلاتهم وذلك بعد العصر، فأراد الناس منعهم، فقال صلى الله عليه وسلم: (دعوهم)، فاستقبلوا المشرق فصلوا صلاتهم، فعرض عليهم الإسلام، تلا عليهم القرآن فامتنعوا، وقالوا: قد كنا مسلمين قبلك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: (كذبتم، يمنعكم من الإسلام ثلاث: عبادتكم الصليب، وأكلكم لحم الخنزير، وزعمكم أن لله ولداً)، أي لأن أحدهم قال له: المسيح عليه الصلاة والسلام ابن الله لأنه لا أب له. وقال له آخر: المسيح هو الله لأنه أحيا الموتى، وأخبر عن الغيوب، وأبرأ من الأدواء كلها، وخلق من الطين طيراً. وقال له أفضلهم: فعلام تشتمه وتزعم أنه عبد؟ فقال صلى الله عليه وسلم:

(هو عبد الله { وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ} النساء171)، فغضبوا، وقالوا: إنما يرضينا أن تقول إنه إله، وقالوا له: إن كنت صادقاً فأرنا عبداً لله يحيي الموتى ويشفي الأكمه والأبرص ويخلق من الطين طيراً فينفخ فيها فتطير؟ فسكت عنهم، فنزل الوحي بقوله تعالى: {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ} وقوله تعالى: { إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} آل عمران59، ثم قال لهم: (إن الله أمرني إن لم تنقادوا للإسلام أن أباهلكم)، أي ندعو ونجتهد في الدعاء باللعنة على الكاذب، وهو قوله تعالى: { فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ} آل عمران61، فقالوا له: يا أبا القاسم نرجع فننظر في أمرنا ثم نأتيك، فخلا بعضهم ببعض، فقال بعضهم: والله علمتم أن الرجل نبيّ مرسل، وما لاعن قوم قط إلا استؤصلوا: أي أخذوا عن آخرهم، وإن أنتم أبيتم إلا دينكم فوادعوه وصالحوه وارجعوا إلى بلادكم.

ونموذج آخر في حواره صلى الله عليه وسلم مع وفد ثقيف، وقد ذكر مفصلا في زاد المعاد: (قَدِمَ وَفْدُهُمْ وَفِيهِمْ كِنَانَةُ بْنُ عَبْدِ ياليل وَهُوَ رَأْسُهُمْ يَوْمَئِذٍ وَفِيهِمْ عُثْمَانُ بْنُ أَبِي الْعَاصِ وَهُوَ أَصْغَرُ الْوَفْدِ فَقَالَ الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ: يَا رَسُولَ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ أَنْزِلْ قَوْمِي عَلَيّ فَأُكْرِمُهُمْ فَإِنّي حَدِيثُ الْجُرْحِ فِيهِمْ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ: (لَا أَمْنَعُكَ أَنْ تُكْرِمَ قَوْمَك، وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ حَيْثُ يَسْمَعُونَ الْقُرْآنَ)، وَكَانَ مِنْ جُرْحِ الْمُغِيرَةِ فِي قَوْمِهِ أَنّهُ كَانَ أَجِيرًا لِثَقِيفٍ، وَأَنّهُمْ أَقْبَلُوا مِنْ مُضَرَ حَتّى إذَا كَانُوا بِبَعْضِ الطّرِيقِ عَدَا عَلَيْهِمْ وَهُمْ نِيَامٌ، فَقَتَلَهُمْ ثُمّ أَقْبَلَ بِأَمْوَالِهِمْ حَتّى أَتَى رَسُولَ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ، فَقَالَ: رَسُولُ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ:(أَمّا الْإِسْلَامُ فَنَقْبَلُ، وَأَمّا الْمَالُ فَلَا، فَإِنّا لَا نَغْدِرُ)، وَأَبَى أَنْ يُخَمّسَ مَا مَعَهُ، وَأَنْزَلَ رَسُولُ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَفْدَ ثَقِيفٍ فِي الْمَسْجِدِ وَبَنَى لَهُمْ خِيَامًا لِكَيْ يَسْمَعُوا الْقُرْآنَ وَيَرَوْا النّاسَ إذَا صَلّوْا، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ إذَا خَطَبَ لَا يَذْكُرُ نَفْسَهُ، فَلَمّا سَمِعَهُ وَفْدُ ثَقِيفٍ قَالُوا: يَأْمُرُنَا أَنْ نَشْهَدَ أَنّهُ رَسُولُ اللهِ وَلَا يَشْهَدُ بِهِ فِي خُطْبَتِهِ، فَلَمّا بَلَغَهُ قَوْلُهُمْ قَالَ: (فَإِنّي أَوّلُ مَنْ شَهِدَ أَنّي رَسُولُ اللهِ). وَكَانُوا يَغْدُونَ إلَى رَسُولِ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ كُلّ يَوْمٍ وَيُخَلّفُونَ عُثْمَانَ بْنَ أَبِي الْعَاصِ عَلَى رِحَالِهِمْ لِأَنّهُ أَصْغَرُهُمْ، فَكَانَ عُثْمَانُ كُلّمَا رَجَعَ الْوَفْدُ إلَيْهِ وَقَالُوا بِالْهَاجِرَةِ، عَمَدَ إلَى رَسُولِ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فَسَأَلَهُ عَنْ الدّينِ وَاسْتَقْرَأَهُ الْقُرْآنَ، فَاخْتَلَفَ إلَيْهِ عُثْمَانُ مِرَارًا حَتّى فَقِهَ فِي الدّينِ وَعَلِمَ، وَكَانَ إذَا وَجَدَ رَسُولَ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ نَائِمًا عَمَدَ إلَى أَبِي بَكْرٍ، وَكَانَ يَكْتُمُ ذَلِكَ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَأَعْجَبَ ذَلِكَ رَسُولَ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَأَحَبّهُ، فَمَكَثَ الْوَفْدُ يَخْتَلِفُونَ إلَى رَسُولِ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إلَى الْإِسْلَامِ فَأَسْلَمُوا، فَقَالَ كِنَانَةُ بْنُ عَبْدِ ياليل: هَلْ أَنْتَ مُقَاضِينَا حَتّى نَرْجِعَ إلَى قَوْمِنَا؟ قَالَ:" بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ " . قَالَ: أَفَرَأَيْت الزّنَى فَإِنّا قَوْمٌ نَغْتَرِبُ وَلَا بُدّ لَنَا مِنْهُ؟ قَالَ: هُوَ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ فَإِنّ اللهَ عَزّ وَجَلّ يَقُولُ: { وَلَا تَقْرَبُوا الزّنَا إِنّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا } الْإِسْرَاءُ32، قَالُوا: أَفَرَأَيْت الرّبَا فَإِنّهُ أَمْوَالُنَا كُلّهَا؟ قَالَ: لَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ، إنّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ: { يَا أَيّهَا الّذِينَ آمَنُوا اتّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } الْبَقَرَةُ 278. قَالُوا: أَفَرَأَيْت الْخَمْرَ

فَإِنَّهُ عَصِيرُ أَرْضِنَا لَا بُدّ لَنَا مِنْهَا؟ قَالَ: إِنّ اللهَ قَدْ حَرّمَهَا، وَقَرَأَ { يَا أَيّهَا الّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلّكُمْ تُفْلِحُونَ } الْمَائِدَةُ 90، فَارْتَفَعَ الْقَوْمُ فَخَلَا بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ فَقَالُوا: وَيْحَكُمْ إنّا نَخَافُ إنْ خَالَفْنَاهُ يَوْمًا كَيَوْمِ مَكّةَ، انْطَلِقُوا نُكَاتِبُهُ عَلَى مَا سَأَلْنَاهُ، فَأَتَوْا رَسُولَ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فَقَالُوا: نَعَمْ لَكَ مَا سَأَلْت، أَرَأَيْت الرَّبَّةَ مَاذَا نَصْنَعُ فِيهَا؟ قَالَ: اهْدِمُوهَا. قَالُوا: هَيْهَاتَ لَوْ تَعْلَمُ الرّبّةُ أَنّك تُرِيدُ هَدْمَهَا لَقَتَلْت أَهْلَهَا، فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطّابِ: وَيْحَك يَا ابْنَ عَبْدِ ياليل مَا أَجْهَلَك إنّمَا الرّبّةُ حَجَرٌ. فَقَالُوا: إنّا لَمْ نَأْتِك يَا ابْنَ الْخَطّابِ، وَقَالُوا لِرَسُولِ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ: تَوَلّ أَنْتَ هَدْمَهَا فَأَمّا نَحْنُ فَإِنّا لَا نَهْدِمُهَا أَبَدًا، قَالَ: فَسَأَبْعَثُ إلَيْكُمْ مَنْ يَكْفِيكُمْ هَدْمَهَا، فَكَاتَبُوهُ، فَقَالَ كِنَانَةُ بْنُ عَبْدِ ياليل: ائْذَنْ لَنَا قَبْلَ رَسُولِك، ثُمّ ابْعَثْ فِي آثَارِنَا فَإِنّا أَعْلَمُ بِقَوْمِنَا، فَأَذِنَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَأَكْرَمَهُمْ وَحَبَاهُمْ، وَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ أَمّرْ عَلَيْنَا رَجُلًا يُؤَمّنَا مِنْ قَوْمِنَا، فَأَمّرَ عَلَيْهِمْ عُثْمَانَ بْنَ أَبِي الْعَاصِ لِمَا رَأَى مِنْ حِرْصِهِ عَلَى الْإِسْلَامِ، وَكَانَ قَدْ تَعَلّمَ سُوَرًا مِنْ الْقُرْآنِ قَبْلَ أَنْ يَخْرُجَ)

هذا قبس من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم في حواره ودعوته، أما بدعة "حوار الأديان" التي جاءت بها أمم الغزو الاستعماري لأوطان المسلمين فليست إلا مسايرة ومصانعة من باب قوله تعالى: { وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ } القلم 9، وقد فصل في أمرها الكتاب والسنة، فقال الله تعالى:

- { وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ } البقرة 120،
- { قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ } الأعراف 158.

وقال صلى الله عليه وسلم:

- (والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به، إلا كان من أصحاب النار) رواه مسلم.
- (أعطيت خمسا لم يُعْطَهُنَّ أحد قبلي: نُصرت بالرعب مسيرة شهر، وجُعِلَت لي الأرض مسجدا وطهورا، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأُحِلَّت لي المغانم ولم تَحِلَّ لأحد قبلي، وأُعْطِيتُ الشفاعة، وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصة، وبُعِثْتُ إلى الناس عامة) رواه البخاري ومسلم.
- (فضلت على الأنبياء بست: أُعطيتُ جوامعَ الكلم، ونُصرت بالرعب، وأُحِلَّت لي الغنائم، وجُعلت لي الأرض طهوراً ومسجداً، وأُرْسِلْتُ إلى الخلق كافة، وخُتِمَ بي النبيون) رواه مسلم.

على هذا النهج في محاورة الأديان كلها يأمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بالرد على دعاوى اليهود والنصارى والمشركين بقوله: { قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ } أي قل لمن يدعون عبادة الله وهم على الضلال والشرك، كيف تخاصموننا

وتجادلوننا في حقيقة توحيدنا لله وإخلاصنا العبودية له، والحال أنه لا وجه للمجادلة أصلاً، لأنه عز وجل إلهنا وإلهكم وربنا وربكم، يعلم من أمرنا وأمركم ما لا يعلمه غيره { وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ}، نحن برآء منكم ومن أعمالكم، وأنتم بُرَآء منا ومن أعمالنا { وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ} لنا عبادتنا نتمسك بها ونواظب عليها، ولكم أعمالك تصرون عليها، وسوف يجزي الله تعالى كلا منا بما يستحقه، ونحن في سائر أحوالنا موادعةً بيننا وبينكم أو محاجحةً ومجادلةً، لا نحيد عن التوحيد والإخلاص { وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ}، قال تعالى: {وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَاْ بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ } يونس 41.

وفي صيغة استفهامية توبيخية على مباهتة اليهود والنصارى بالباطل والكذب، وإصرارهم على الادعاء أن إبراهيم وبنيه وحفدته كانوا يهودا أو نصارى والحال أن اليهودية والنصرانية لم تنشأ إلا من بعدهم، يقول تعالى: { أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطَ كَانُواْ هُوداً أَوْ نَصَارَى}، إن هذا الزعم منهم على خلاف ما يعلمه الله تعالى وقد أخبر في كتابه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه بأنهم كانوا مسلمين، والتوراة والإنجيل لم ينزلا إلا بعدهم، هذا ما أخبر به الله تعالى فهل هم أعلم أم الله؟ { قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللّهُ}.

إن الأوْلَى بهؤلاء المجادلين بالباطل وبما لا ينفعهم في حالهم ومآلهم، أن يؤوبوا إلى الحق ويعلنوا ما في التوراة والإنجيل من صفات الرسول صلى الله عليه وسلم التي أخفوها عن أتباعهم، وينضموا إلى أمة التوحيد والإخلاص، وما كتمانهم ذلك إلا ظلم شديد لأنفسهم ولأتباعهم { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللّهِ}، ولئن أصروا على ما هم عليه من جدال بالباطل وكتمان للحق واتباع للهوى فإن حالهم ليس غائبا أو خفيا عن الله تعالى، لابد لهم من المحاسبة بين يديه { وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ}، أما إضاعة الجهد والوقت في محاولة إنكار إسلام إبراهيم وبنيه وحفدته، فليس وراءه أي فائدة لهم، فتلك أمة قد خلت وغادرت الحياة الدنيا إلى الآخرة، أعمالها لها وحدها، لا يسأل عنها اليهود والنصارى ولا يجازون بها، وليس لهم إلا أعمالهم التي كسبوا، فلينظروا ما جدواها وما جزاؤها { تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ}.

تحويل القبلة:

تميز في الشخصية وإعداد للفتح والانتشار

قال الله تعالى: { سَيَقُولُ السُّفَهَاء مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا قُل لِّلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (142) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللّهُ وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ (143) قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاء فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوِهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ

أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (144) وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ (145) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (146) الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (147) وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُواْ الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُواْ يَأْتِ بِكُمُ اللهُ جَمِيعاً إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (148) } سورة البقرة

من أعماق الجاهلية في الجزيرة العربية انبثقت بأمر الله تعالى أمة الإسلام، ومن موات الغفلة والتيه والضلال في الليل البهيم انبعثت حياة اليقظة والهداية والإيمان والإحسان،، ومن قرار رحم جاف يَبَس ولدت خير الأمم، وكما يُخرِج الله تعالى الرطب من اليابس، والنور من الظلمة والحي من الميت، ومن الطين أحسنَ تقويم، انبجست بواد غير ذي زرع عين ثرة مدرارة أنبتت شجرة طيبة وارفة الظلال مثمرة الأغصان، أصلها ثابت وفرعها في السماء، أنجبت أمة هي خير الأمم تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله وتقيم الشهادة بين يديه، فكان ميلادها آية أخرى من آيات الخلق الإلهي وإنشاء رائعا من صنع بديع السمواوات والأرض.

وكما هي سنته عز وجل، ينفصل الجنين عن محضنه في رحم الأم، ثم ينمو ويتكامل وتتميز ملامحه وتستقل شخصيته، فإذا هو خلق جديد، كذلك أمة الإسلام، كان لابد لها وقد بعثت أن تتكامل وتستقل عن المحضن الذي نشأت فيه وأن تتميز في ظاهر أمرها وباطنه، في حياتها ومعيشتها وطقوسها وأخلاقها وعلاقاتها كما تميزت في عقيدتها وتصوراتها وغاياتها وأهدافها، وهي في ذلك أشبه بالإنسان إذ نشأ من طين ثم من نطفة في قرار مكين ثم استوى خلقا آخر في أحسن تقويم {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ} المؤمنون14/12.

هذه الأمة وقد خرجت من رحم الجفاء القرشي والغلظة البدوية بعد مخاض شاق عسير إلى رحابة الهجرة في المدينة، وأخذت معالم كيانها تنمو وتتكامل وتتميز، بما يتنزل عليها من القرآن الكريم بعامة وسورة البقرة منه بخاصة، كان من الطبيعي أن تخطو نحو الاستقلال التام والتميز الكامل عن محيطها الحالي ومنبتها السابق. كي تستطيع أن تقوم بمهمتها من موقع حصين ومنطلق سليم.

على هذا النحو سارت تشريعات المرحلة المدنية في بناء الحياة المادية الظاهرة للأمة طقوسا وعبادات ومعاملات، بعد أن شيدت المرحلة المكية صرح بنائها النفسي والعقدي، فكانت عملية تحويل قبلة الصلاة من بيت المقدس إلى البيت الحرام في مكة أول معلم بارز في هذا المسار. وكانت تبعا لذلك الرجة في صفوف ضعاف الإيمان من المسلمين، والغيظ في قلوب اليهود والمشركين، وانبرى السفهاء من جميع الطوائف الضالة، في لغطهم المعهود يشككون ويشاغبون، مما أخبر به

رب العزة تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم قبل وقوعه بقوله: { سَيَقُولُ السُّفَهَاء مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا }، فكان إخباره بما سيصدر عن خصوم الدعوة من سفاهات جاهلة وتساؤلات فجة تافهة جزءا من الإعداد النفسي للجماعة المسلمة، تتبلور به ثقتها بربها وطاعتها لقيادتها الرشيدة، وامتثالها لتعاليم قرآنها وسنة نبيها صلى الله عليه وسلم، وتتميز به شخصيتها وخصائصها ومناهجها، بصفتها أمة الاستخلاف والشهادة والريادة، ولتكون على تمام الأهبة لمواجهة الدسائس الرخيصة والكيد الخبيث، والأساليب الملتوية المستخدمة للتشكيك وبلبلة الأفكار والمعتقد وإضعاف الصف المؤمن.

لقد كان الأحب للنبي صلى الله عليه وسلم من أول أمره أن يستقبل في صلاته الكعبة، وهي أول بناء للعبادة وضع للناس في الأرض { إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ } آل عمران96، وهي ميراث إبراهيم عليه السلام، وقد ورث محمد صلى الله عليه وسلم ملته وقبلته، وأحيا عقيدته وسنته، إلا أن الكعبة أصبحت على يد مشركي قريش مليئة بالأصنام، والدعوة ما زالت في طورها الأول، تخطو خطواتها الوئيدة لتثبيت العقيدة وتطهير القلوب من الأوثان قبل تطهير المباني والجدران، لذلك كان التوجه في المرحلة المكية بأمر من الله تعالى نحو بيت المقدس، وهو قبلة اليهود، تجنبا لما في الكعبة من أصنام لم تحن بعد مرحلة تحطيمها، فكان صلى الله عليه وسلم يصلي وهو بمكة نحو بيت المقدس حينا والكعبة بين يديه، كما روى الإمام أحمد عن ابن عباس، وحينا يجعل الكعبة خلف ظهره أو بينه وبين بيت المقدس كما حكى الزهري، على إيثار قلبي منه صلى الله عليه وسلم لقبلة إبراهيم عليه السلام.

ثم لما هاجر مع أصحابه إلى المدينة ظل تعلقهم جميعا بمكة وهي الموطن الأول الذي أخرجوا منه قسرا، والبيت الأول الذي هو حق لهم ميراثا عقديا وأمنا روحيا ومعبدا، من مسؤوليتهم تحريره وتطهيره، فاشتد بهم الحنين والشوق، وأرهقتهم ظروف الهجرة، روى البخاري عن عائشة أنها قالت: لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وعك أبو بكر وبلال [29]، قالت فدخلت عليهما فقلت: يا أبت كيف تجدك؟ ويا بلال كيف تجدك؟ قالت: وكان أبو بكر إذا أخذته الحمى يقول:

كل امرئ مصبح في أهله والموت أدنى من شراك نعله

وكان بلال إذا أقلعت عنه الحمى يرفع عقيرته ويقول:

ألا ليت شعرى هل أَبِيتَنَّ ليلةً بوادٍ وحَوْلي إذخِرٌ وجَليل

وهل أرِدَنْ يوما مياهَ مَجَنَّةٍ وهل يَبْدُوَنْ لى شامةٌ وطَفِيلُ

---

29 – كان هذا قبل أن يضرب الحجاب على النساء

قالت عائشة: فجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته فقال:(اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد، وصححها وبارك لنا في صاعها ومدها، وانقل حماها فاجعلها بالجحفة). ولما قدم أُصَيْل الغفاري من مكة سأله رسول الله صلى الله عليه وسلم:" كَيْفَ تَرَكْت مَكّةَ يَا أُصَيْلُ؟" فَقَالَ:" تَرَكْتها حِينَ ابْيَضّتْ أَبَاطِحُها [30] وَأَحْجَن ثُمَامُهَا[31] وَأَغْدَق إِذْخِرُهَا[32] وَأَمْشَرَ سَلَمُهَا[33]، فَاغْرَوْرَقَتْ عَيْنَا رَسُولِ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَقَالَ: (وَيْها يا أُصَيل، دَعِ القلوبَ تَقَرّ قَرارَها).

وظل الحنين والشوق إلى مكة وكعبتها مكينين في قلب الرسول صلى الله عليه وسلم إلى يوم الفتح إذ سمعه عمرو بن عدي يقول وهو بالحَزْوَرَة: (وَاَللهِ إنّك لَخَيْرُ أَرْضِ اللهِ وَأَحَبّ أَرْضِ اللهِ إلَيّ وَلَوْلَا أَنّي أُخْرِجْت مِنْك مَا خَرَجْت) وفي رواية (لَوْلَا أَنّ أَهْلَك أَخَرَجُونِي مَا خَرَجْت).

لقد مكث صلى الله عليه وسلم في المدينة على هذا الحال يصلي نحو بيت المقدس، مشتاقا إلى أن يأذن له ربه باستقبال ما ترضاه نفسه، لاسيما واليهود قالوا:"خالفنا محمد ويتبع قبلتنا"، فيقول لجبريل عليه السلام: (وددت أن الله عز وجل صرفني عن قبلة يهود إلى غيرها)، فيجيبه جبريل عليه السلام:(إنما أنا عبد ملك لا أملك لك شيئا إلا ما أمرت به، فادع الله تعالى)، فكان صلى الله عليه وسلم يدعو الله تعالى ويكثر النظر إلى السماء ينتظر أمره، إلى أن جاءته البشرى وحيا ثلاثية الأبعاد، ترضية له بما تهواه نفسه في أمر القبلة، وإذنا له بالتحول إلى الكعبة في الصلاة، وإخبارا له بتكثير أتباعه ونشرهم في كل بقاع الأرض، وهو ما ذكره مالك في الموطأ (عن سعيد بن المسيب أنه قال: صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن قدم المدينة ستة عشر شهراً نحو بيت المقدس، ثم حولت القبلة قبل بدر بشهرين، ولما بشره سبحانه

---

30 – الأبطح أَثَرُ السَّيل واسعاً كان أو ضيّقاً، مَسيلُ الوَادِي، والبطحاءُ هو التَّرابُ السَّهْلُ اللين في بُطونِ الأودية ممَّا قد جَرَّته السُّيولُ، يقال: أَتَيْنا أَبْطَحَ الوَادِي فنِمْنَا عليه، ج أَباطِحُ وبِطَاحٌ وبَطائِحُ. ومنه الحديث " أَنّه صَلَّى بالأَبْطَحِ " يَعنِي أَبطح مَكَّة، وهو مَسيل وَادِيها

31 – الثُّمام نبات شبيه بالأَسَل ضعيف تُتَّخذ منه المكانِس وتُظَلَّل به القربة فيُبَرِّد الماء، وتتخذ منه الحصر، وأَحْجَنَ الثُّمامُ خرجت حُجْنَتُه وهي خوصه.

32 – الإِذْخِرُ حشيش طيب الريح، يستخدم لتطييب الموتى، وتسقف به البيوت فوق الخشب، ويطحن فيدخل في الطّيب، أغدق الإذخر أخصب.

33 – السَّلَمُ شجر يدبغ بورقه وقشره، يسمى ورقه القَرظَ، له زهرة صفراء فيها حبة خضراء طيبة الرائحة تَخْضَر في الصيف وتؤكل في الشتاء، أمشر السلم أي خرج ورقه واكتسى به.

بالتحويل أولاً وأوقع المبشر به ثانياً أشار إلى بشارة ثالثة بتكثير أمته ونشرهم في أقطار الأرض فجمعهم إليه في قوله: { وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ } أي من جهات الأرض التي أورثكم إياها { فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ } بتوجيه قلوبكم إليّ).

وبغض النظر عن اختلاف الروايات حول مدة استقباله صلى الله عليه وسلم بيت المقدس في المدينة ما بين ستة عشر شهرا أو سبعة عشر أو ثمانية عشر، فإن الصحيح أن التحول عنه إلى الكعبة كان عند صلاة العصر في السنة الثانية للهجرة قبيل غزوة بدر بحوالي شهرين، وهو ما رواه البخاري عن البراء بن عازب أنه صلى الله عليه وسلم (صَلَّى أَوَّلَ صَلاةٍ صَلاّها صَلاةَ العَصْرِ، وَصَلَّى مَعَهُ قَوْمٌ، فَخَرَجَ رَجُلٌ مِمَّنْ صَلَّى مَعَهُ، فَمَر عَلَى أَهلِ مَسْجِدٍ وَهُم راكِعونَ فقال: أشهَدُ باللهِ لَقدْ صَلَّيْتُ معَ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلّم قِبَلَ مَكَّة، فَداروُا –كما هُم – قِبَلَ البيتِ. وكانت اليَهودُ قدْ أعْجَبَهُم إذْ كانَ يُصَلِّي قِبَلَ بَيتِ المِقْدِسِ، وأهلُ الكِتابِ، فلما وَلَّى وَجْهَهُ قِبَلَ البيتِ أنْكَرُوا ذلكَ).

ولئن اختلفت الروايات حول الصلاة التي حولت فيها القبلة ما بين الظهر والعصر، والشهر الذي كان فيه التحول ما بين رجب وشعبان، فإنها لم تختلف في أن التحول كان في صلاة رباعية الركعات، ولما صلى النبي عليه الصلاة والسلام ركعتين نزل جبريل فأشار إليه أن صل إلى البيت، وصلى جبريل إلى البيت، فاستدار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الكعبة، فسمي ذلك المسجد مسجد القبلتين، وكانت الصلاة يومئذ أربعا: اثنتان إلى بيت المقدس واثنتان إلى الكعبة، وخرج عباد بن بشر رضي الله عنه، وكان صلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمر على قوم من الأنصار ببني حارثة وهم راكعون، فقال:" أشهد بالله لقد صليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل البيت"، فاستداروا. وكانت هذه الحادثة مظهرا رائعا من مظاهر الإيمان والطاعة والتسليم، كما ورد عن نويلة بنت مسلم، قالت:" صلينا الظهر– أو العصر– في مسجد بني حارثة، فاستقبلنا مسجد إيلياء – أي بيت المقدس – فصلينا ركعتين، ثم جاء من يحدثنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد استقبل البيت الحرام، فتحول النساء مكان الرجال والرجال مكان النساء، فصلينا السجدتين الباقيتين ونحن مستقبلون البيت الحرام، فحدثني رجل من بني حارثة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "أولئك رجال يؤمنون بالغيب ".

ولما تم تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة بأمر الله تعالى، بقي حائط القبلة الأولى في مؤخر المسجد النبوي، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم به فَظُلِّلَ أو سُقِف وأُطلِق عليه اسم الصُّفَّة وهي الظُّلة التي كان يأوي إليها المساكين والغرباء ممن لا مأوى لهم ولا أهل، وإليها ينسب أهل الصفة.

لقد كان تحويل القبلة إلى الكعبة حدا فاصلا بين مرحلة الاستضعاف ومرحلة القوة والانتشار، ولئن كان لهذا الإجراء مغزاه التربوي تميزا للمسلمين عن أهل الكتاب وعودة إلى أصل ملة إبراهيم، وتجريدا للطاعة المطلقة لأوامر الله تعالى، وانتزاعا للقلوب من التعلق بالكعبة وقد أحبوها على الشرك، بتوجيههم إلى بيت المقدس أولا، ثم ردهم إليها ثانيا بعد أن غمر الإيمان القلوب فصفت عقيدتها وتعلقت بربها واتجهت إلى بارئها، فقد كانت له قيمته الاستراتيجية بإشارته إلى ما

ينبغي الاستعداد له، من ضرورة استخلاص القبلة الإبراهيمية وتحريرها من الأوثان وعبدتها، وبتمهيده لحركية جديدة تنبعث في المجتمع الإسلامي الناشئ، هي حركية المواجهة والتصدي، التي أقحموا بها في غزوة بدر الكبرى بعد ذلك مباشرة، وهو أسلوب قرآني مألوف في التربية والإعداد، يأتي أحيانا إشارة عابرة وومضة خاطفة، كما في هذه الحادثة، وأحيانا واضحا صريحا كما في قوله تعالى قبل فتح مكة: {لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آَمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا} الفتح27، وقوله تعالى حين صد المشركون الرسول صلى الله عليه وسلم عن الوصول إلى المسجد الحرام ليقضي عمرته، وحالوا بينه وبين ذلك: { إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا} الفتح1، وقبل ذلك حين أُخرِجَ الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة فنزل قوله تعالى: {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَق} الحج 40/39، فقال أبو بكر رضي الله عنه:" فعرفت أنه سيكون قتال".

وكما هو دأب خصوم الدعوة في الترصد للمسلمين والتشكيك في كل ما يبدر منهم، فقد عاب اليهود أولا توجه المسلمين نحو بيت المقدس فقالوا:" يخالفنا محمد ويصلي لقبلتنا"، ثم لما تحول بأمر الله نحو الكعبة قالوا: {مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا}، وقال حيي بن أخطب وجماعة من اليهود للمسلمين: أخبرونا عن صلاتكم إلى بيت المقدس إن كانت على هدى لقد تحولتم عنه، وإن كانت على ضلالة فقد عبدتم الله بها مدة، ومن مات عليها فقد مات على ضلالة، فقال المسلمون: إنما الهدى فيما أمر الله تعالى والضلالة فيما نهى الله عنه، فقالوا: فما شهادتكم على من مات منكم على قبلتنا؟، وكان قد مات من المسلمين جماعة قبل تحويل القبلة، منهم أسعد بن زرارة من بني النجار، والبراء بن معرور من بني سلمة، فانطلقوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا: يا رسول الله، كيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس؟ فأنزل الله تعالى: { وَمَا كَانَ الله لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ الله بالناس لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ }، وأتى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم جماعةٌ من اليهود فيهم كعب بن الأشرف يريدون الفتنة فقالوا:" يا محمد، ما ولاك عن قبلتك التي كنت عليها، وأنت تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه، ارجع إلى قبلتك التي كنت عليها نتبعك ونصدقك "، وتوجهوا إلى مشركي مكة مستهزئين بالرسول صلى الله عليه وسلم فقالوا لهم:" قد تردد على محمد أمره فاشتاق إلى مولده وقد توجه نحو بلدكم وهو راجع إلى دينكم".

لقد علم الله تعالى وقوع هذا الشغب من سفهاء القوم فأخبر به نبيه صلى الله عليه وسلم والمسلمين قبل وقوعه، ولقنهم ما يفحمون به خصومهم، تطمينا لأفئدتهم وتوطينا لأنفسهم على مواجهة سفاهة السفهاء ومكر الماكرين، فقال: { قُل لِّلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}، وهو جواب يرد الحق إلى نصابه، إذ الجهات كلها لله تعالى، لا تتميز عن بعضها إلا بما يميزها به ربها ويخصها به، وهو فعال لما يريد، لا معقب لحكمه، لا يسأل عما يفعل، المشرق والمغرب والشمال والجنوب كلها له عز وجل، والتوجه في الصلاة توجه له خالص له خاص به، وإذا اختار للمسلمين قبلة

فلا خيار لهم في غيرها، لأنه الهادي إلى الصراط المستقيم { وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ} الأحزاب 36.

ولئن سُعِرَ الكفار مشركين وأهلَ كتاب من هذا التحول الجديد في الاستراتيجية الإسلامية فإنما لما فهموه منه وما رأوه فيه من قرائن بزوغ مجتمع متكامل متميز في قبلته وعلاقاته، مجتمع يثور على كل ما لدى الجاهلية من معتقدات وأعراف وتقاليد وانحرافات، فيخالفها في معتقداتها وتصوراتها، وفي توجهها وقبلتها، وينهى عن التشبه بأهلها في سلوكهم وأخلاقهم وتقاليدهم، ويتنزه عن الانغماس في خوضهم الباطل، واكتفائهم بدنياهم عن آخرتهم، مما هو مبدأ عام في عملية بناء الشخصية الإسلامية ورد به الكتاب والسنة في جميع المجالات، عقائد وعادات وعبادات، قال تعالى: { فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ } التوبة69، وقال عليه الصلاة والسلام:(لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا في جحر ضب لاتبعتموهم) وقال: (لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله)، وقال: (انتعلوا و تخففوا و خالفوا أهل الكتاب)، وقال: (خالِفوا الْمشركِين وَفِرُوا اللِّحى وَأَحْفُوا الشَّوارب) وقال: (خالفُوا الْيهود فإنهم لَا يُصلّونَ فِي نِعَالِهِم ولا خِفافِهِم) وقال: (خالفوا أولياء الشيطان كلما استطعتم).

إن لهذا المجتمع الجديد الناشئ في تكامله وتميزه واستغنائه عن غيره بما يأتيه عن ربه تعالى بواسطة نبيه صلى الله عليه وسلم، واهتدائه إلى الصراط المستقيم، وإلى القبلة التي ضل عنها غيره، مهمة خطيرة بينها تعالى مباشرة بعد هدايته أمة الإسلام إلى القبلة الإبراهيمية بقوله { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً}

أي كما هديناكم أيّها المؤمنون بمحمد عليه الصلاة والسلام وبما جاءكم به من عند الله، وخصصناكم بالتوفيق لملة إبراهيم التي حرفها أهل الكتاب والمشركون، ولقِبلته التي ضلوا عنها، وفضلناكم بذلك على من سواكم، كذلك آثرناكم بفضل آخر بأن جعلناكم أمة وسطًا، وقد شرح رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الوسطية بما رواه أبوسعيد الخدري عنه قال: (الْوَسَطُ: الْعَدْلُ، { جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا })، وفي رواية أبي هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ({ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا }: عدولا).

فكانت منه تعالى للمسلمين هدايتان، توحيدا لصفهم بالتوجه إلى قبلة واحدة تزيدهم على تباعد الأوطان والأمصار واختلاف الألوان والألسن والأعراق شعورا بالوحدة والقوة، وتحديدا واضحا جليا لوظيفتهم في الدنيا والآخرة:

في الدنيا بأن تؤدي إلى الناس الأمانة التي حملتها، فتبلغهم رسالة الإسلام، تأمرهم بالمعروف وتنهاهم عن المنكر، وتضع لهم القيم والموازين، وتنشر بينهم الفضيلة، وتكون لهم مصدرا للخير والسعادة والأمن، وقدوة ونبراسا للتعاون والتكافل، وتشهد عليهم بالعدل، فتقيم الحجة على من أعرض ورفض، وتنير معالم الطريق لمن أقبل ورضي، قال تعالى: { وَالَّذِينَ

هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ} المعارج33/32، وقال: {وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ} البقرة 283. وقال صلى الله عليه وسلم: (أنتم شهداء الله في الأرض)، وقال أيضا: (المؤمنون شهداء الله في الأرض)، وهي شهادة عينية واجبة حسب القدرة والوسع على كل فرد من المسلمين {الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا} الأحزاب39.

أما في الآخرة فبأن تشهد على غيرها من الأمم، كما قال صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخاري: (يَجِيءُ نُوحٌ وَأُمَّتُهُ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى هَلْ بَلَّغْتَ فَيَقُولُ نَعَمْ أَيْ رَبِّ فَيَقُولُ لِأُمَّتِهِ هَلْ بَلَّغَكُمْ فَيَقُولُونَ لَا مَا جَاءَنَا مِنْ نَبِيٍّ فَيَقُولُ لِنُوحٍ مَنْ يَشْهَدُ لَكَ فَيَقُولُ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأُمَّتُهُ فَنَشْهَدُ أَنَّهُ قَدْ بَلَّغَ، وَهُوَ قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ } وَالْوَسَطُ الْعَدْلُ). وفي مسند أحمد: (قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَجِيءُ النَّبِيُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالنَّبِيُّ وَمَعَهُ الرَّجُلَانِ وَأَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ فَيُدْعَى قَوْمُهُ فَيُقَالُ لَهُمْ هَلْ بَلَّغَكُمْ هَذَا فَيَقُولُونَ لَا فَيُقَالُ لَهُ هَلْ بَلَّغْتَ قَوْمَكَ فَيَقُولُ نَعَمْ فَيُقَالُ لَهُ مَنْ يَشْهَدُ لَكَ فَيَقُولُ مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ فَيُدْعَى مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ فَيُقَالُ لَهُمْ هَلْ بَلَّغَ هَذَا قَوْمَهُ فَيَقُولُونَ نَعَمْ فَيُقَالُ وَمَا عِلْمُكُمْ فَيَقُولُونَ جَاءَنَا نَبِيُّنَا فَأَخْبَرَنَا أَنَّ الرُّسُلَ قَدْ بَلَّغُوا فَذَلِكَ قَوْلُهُ { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا }).

ذلك أن يوم العرض بين يدي الله تعالى، هو يوم الشهادة، إذ يسأل الناس جميعا، ويقوم الأشهاد عليهم من أبدانهم ومعارفهم والأرض التي كانوا عليها { يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} النور24، { حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ} فصلت21/20، وهو يوم الشهادة الكبرى، شهادة الأمة الإسلامية على جميع الأمم { لِّتَكُونُواْ شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ}، وفوقها شهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمته { وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً}، إذ يُسْأَلُ صلى الله عليه وآله وسلم عن حال أمته فيزكيها ويشهد بأنه بلغها فآمنت وصدقت، وهو قوله تعالى: { وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ} النحل89.

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يترك شرح هذه الآية الكريمة لغيره، فتولى بنفسه تبيان معناها، وهو كما ورد في الأحاديث الصحيحة قيام الأمة بشهادة العدل في الدنيا والآخرة، إلا أن كثيرا من المفسرين رغبة منهم في التيسير والتوسعة على الناس ركزوا على المعنى اللغوي للفظ" وسط" في الآية الكريمة، ويعني النقطة المتوسطة بين طرفين متعادلين، فاستفاضوا في التأويل، واستدرجوا إلى التفريط والتلبيس، ووقعوا في المحظور.، مع أن من نظر بعين البصيرة لم يجد فيها سوى ما شرحها به رسول الله صلى الله عليه وسلم.

بدأت مسيرة تأويل "الوسطية " عندهم بتقرير صفة توسط الأمة الإسلامية بين غلو النصارى في الترهب وتأليههم عيسى عليه السلام، وبين تقصير اليهود بتبديلهم كتاب الله وكذبهم على الأنبياء، وهي صفة حق، لكن معناها من نصوص أخرى غير قوله تعالى: { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا}، من هذه النصوص قوله تعالى: { يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ}، وقوله صلى الله عليه وسلم وقد قال له رجل: محمد يا سيدنا وابن سيدنا، وخيرنا وابن خيرنا. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يا أيها الناس، عليكم بقولكم، ولا يَسْتَهْوِيَنَّكُمُ الشيطانُ، أنا محمدُ بنُ عبد الله، عبد الله ورسوله، والله ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني اللَّهُ عز وجل).

وزاد بعضهم أن الناس من غير المسلمين فئتان، فئة مادية لا هم لها إلا تحقيق شهوات النفس، وفئة طغت عليها النزعة الروحية والتزهد وترك الدنيا فجاء الإسلام ليكون وسطا بين هؤلاء وهؤلاء، يحقق مطالب الجسد بلا إسراف ومطالب الروح بلا إفراط، وشاهدا على الماديين بما فرطوا، وعلى غلاة الروحانيين بما أفرطوا. وهذه معاني جميلة قد تفهم من نصوص أخرى غير هذه الآية الكريمة التي نحن بصددها.

واحتج بعضهم بهذه الآية للدلالة على أن إجماع الأمة علماء وعامة في أمر الدين حجة، لما أخبر به الله عن عدالتها وخيريتها، وهذا لا يكون إلا فيما طريقه النقل وما يعبر عنه بالتواتر، أما الإجماع في القضايا الدنيوية التي لا نص فيها ولا سبيل إلى حمل على النص، فدليله من آية الشورى {وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ} الشورى 38، لا من قوله تعالى: { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا}.

أما الطامة الكبرى فما ابتدعه المعاصرون في أمر هذه الوسطية، وهو جعلهم الإسلام بتعاليمه كتابا وسنة، عقيدة وعبادة وأخلاقا ومعاملة في طرف، والكفر البواح عقيدة وعبادة وأخلاقا ومعاملة في الطرف الثاني المقابل، واتخذوا بينهما موقعا وسطا سموه الإسلام المعتدل، يأخذ من الإسلام ومن الكفر، فيباح بهذه الوسطية المحدثة الحرام وتنتهك الأعراض ويكفر بالله واليوم الآخر جهارا، تحت مسمى حرية الدين والمعتقد، والمساواة بين الناس، وعدالة تحقيق مطالب لذات الجسد، وتبعا لهذا المفهوم الجديد للوسطية صار الدين ثلاثة أديان، دين المشركين ملاحدة وأهل كتاب يعدون عند الوسطيين مؤمنين أيضا، ودين النخب الحاكمة من العلمانيين والانتفاعيين ومتملقة أصحاب السلطة والثروة، هو أقرب إلى الكفر منه إلى الإيمان لما اختلط فيه تحت مسمى الوسطية من عقائد وتشريعات وأخلاق قوم آخرين، ودين الإسلام الذي أتى به النبي صلى الله عليه وسلم كتابا وسنة، طورد الملتزمون به وسجنوا ونفوا من الأرض وقتلوا في الشوارع والأزقة، بتهمة الغلو والإفراط.

لم تكتف هذه الوسطية الضالة بتكييف الشأن الداخلي للأمة، بل هيمنت حتى على المواقف السياسية في التعامل مع الشأن الخارجي وعلاقات الدول الإسلامية بغيرها، فنشأت تكتلات رسمية تحت مسمى "معسكر الاعتدال"، وما هي إلا "حظائر للاعتلال"، خنعت للأجنبي وأسلمته زمام أمرها، عادت من عاداه ووالت من والاه، وحاربت تحت رايته، فتم

بذلك الإطباق على الإسلام وأهله، وتداعت على قصعته أمم الأرض، تماما كما أخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال: (يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق كما تداعى الأكلة إلى قصعتها قيل: يا رسول الله، فمن قلة يومئذ؟ قال: لا، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، يجعل الوهن في قلوبكم، وينزع الرعب من قلوب عدوكم لحبكم الدنيا وكراهيتكم الموت).

لقد كان تشريع تحويل القبلة إلى الكعبة، وتشريع جعل الأمة الإسلامية شاهدا عدلا على الناس في الدنيا والآخرة أخطر نقلة عاشها المسلمون بعد الهجرة إلى المدينة، تطهر بها صفهم، واتضحت بها أهدافهم واتسعت بها آفاق رؤيتهم، وتحددت بها أبعاد دورهم في الحياة، تاريخيا بصفتهم ورثة ملة إبراهيم عليه السلام ورواد تحرير البشرية من قيودها وأغلالها، ودعاة تعبيدها لربها الواحد الأحد، وعقديا بصفتهم أمناء التوحيد الحق والعقيدة الصافية، وحملة منار السبيل، والهداة إلى صراط الله المستقيم، وحركيا بصفتهم روادا لمرحلة جديدة في التاريخ البشري، وعنوانا لصراع مواجهة بين الحق والباطل، يُتَّخَذ فيه التميزُ والمفاصلة شعارا والجهادُ أداةً ووسيلة. لذلك عقب عز وجل توعية بأبعاد هذه الخطوة وتثبيتا عليها وإعدادا لما بعدها، بذكر علة هذين التشريعين وحكمتهما فقال: { وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ}. ولئن كان رب العزة عالما بما كان وما سيكون، علمه تعالى مطلق، يعلم السر في السماوات والأرض، فإنه في هذه الآية الكريمة شاء أن يكون معلومه الغيبي مشاهداً في العيان، لتقوم به الحجة على الخلق، ويترتب عليه الثواب والعقاب. والمعنى أنه تعالى لم يحول القبلة التي كان عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهي الصخرة في بيت المقدس إلى الكعبة في البيت الحرام، إلا اختبارا للأمة يظهر من يتبع الرسول صلى الله عليه وسلم ويطيعه ويتجه حيثما اتجه، دون شك أو ريب، فيميزه عن الذين يسارعون إلى الكفر والردة منقلبين على أعقابهم، وقد عبر عن الردة بالانقلاب على العقبين، والعقب لغة هو مؤخر القدم، والانقلاب على العقبين مستعار للعودة إلى الكفر والرجوع عن الدين الحق الى الباطل.

لقد كان هذا التحول إلى القبلة الجديدة شاقا وعسيرا على نفوس كثير من المسلمين إذ لم يفهموا حكمته أولا، فكبر عليهم مواجهة حملات التشكيك والسخرية التي شُنَّتْ، ثم ما لبثوا أن اطمأنت قلوبهم ثقة بقيادتهم وطاعة لها، ولئن آلمهم انكشاف أمر بعضٍ منهم ظنوا بهم خيرا، ففضح الله نفاقهم وضعف إيمانهم، فإن الفرح بتطهير الصف تغلب على نزعة الأسى والحزن، وهو ما بينه عز وجل تعقيبا على الرجة التي حدثت عقب تحويل القبلة بقوله: {وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللّهُ} أي إن هذه النقلة من قبلة إلى قبلة، بما وظفه اليهود والمنافقون منها للتشكيك والتشهير والسخرية، وبما فضحت من ضعاف الإيمان والمنافقين والمندسين، كانت كبيرة وشاقة إلا على من وفقهم الله تعالى للطاعة والامتثال، وهداهم لمعرفة حكمتها وفائدتها وما يعود بها من خير على الصف المسلم.

ولما أشفق بعض المسلمين من أن يضيع أجر صلاتهم إلى القبلة الأولى ببيت المقدس طمأنهم الله تعالى بقوله: {وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ} أي أن الله تعالى لن يضيع أجر إيمانهم، وسمى الصلاة إيمانا، إشارة منه عز وجل إلى أن الإيمان اعتقاد وقول وعمل، ثم بين علة ثبات أجر العاملين فقال: { إِنَّ اللّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ }. وهذه الآية جواب على سؤال لبعض المؤمنين إذ بلغ بهم الإشفاق في الطاعة والمسارعة إليها أن خافوا على من مات وهو يصلي نحو بيت المقدس قبل تحويل القبلة، فقالوا: يا رسول الله فكيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يصلون نحو بيت المقدس؟ فأنزل الله عز وجل: { وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ }.

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (لا يحسدوننا على شيء كما يحسدوننا على يوم الجمعة التي هدانا الله و ضلوا عنها و على القبلة التي هدانا الله لها و ضلوا عنها)، وذلك لأن أول بيت وضع للناس هو الكعبة، وقد رفع قواعدها وجددها إبراهيم أبو الأنبياء عليهم صلاة الله وسلامه، فكان الحق أن تكون قبلة للجميع، هذا الشعور كان يتملك وجدان الرسول صلى الله عليه وسلم بما له من شفافية نورانية وصلة فطرية خفية بحقائق الأشياء أهلته للنبوة الخاتمة، ولذلك كان عليه السلام مشتاقا للعودة إلى الاتجاه الأحق في الصلاة، يقلب وجهه في السماء انتظارا للوحي، فوعده ربه جل جلاله بقوله: { قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاء فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا }، ثم نزل الأمر مباشرة بالتوجه إلى القبلة الأولى للبشرية، إنجازا لهذا الوعد، فقال تعالى: { فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ }، وصحبت هذا الإنجاز بشارة عظيمة، ومضة نور من غيب، ولمحة إشراق تضيء مستقبل الانتشار العقدي في الأرض، فقال تعالى: { وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ}، شطره أي قِبَله، بحيث يكون وجه المصلي ونظره للأمام كما ذهب إليه المالكية خلافا لغيرهم ممن يرون أن نظر المصلي يكون إلى موضع سجوده مستشهدين بما رواه البيهقي والحاكم وصححه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم (كان إذا صلى طأطأ رأسه ورمى ببصره نحو الأرض)، وأنه صلى الله عليه وسلم (دخل الكعبة ما خلف بصره موضع سجوده حتى خرج منها). ولعل في شرح مختصر خليل للخرشي ما يزيد رأي المالكية بيانا، قال:" (قَوْلُهُ وَيُكْرَهُ أَنْ يَضَعَ بَصَرَهُ فِي مَوْضِعِ سُجُودِهِ فَقَطْ) خِلَافًا لِمَنْ يَقُولُ يَضَعُ بَصَرَهُ مَوْضِعَ سُجُودِهِ فَقَطْ، قَالَ مَالِكٌ: يَنْظُرُ أَمَامَهُ فَإِنَّهُ إذَا أَحْنَى رَأْسَهُ ذَهَبَ بَعْضُ الْقِيَامِ الْمَفْرُوضِ عَلَيْهِ فِي الرَّأْسِ وَهُوَ أَشْرَفُ الْأَعْضَاءِ، وَإِنْ أَقَامَ رَأْسَهُ وَتَكَلَّفَ النَّظَرَ بِبَعْضِ بَصَرِهِ إلَى الْأَرْضِ فَتِلْكَ مَشَقَّةٌ عَظِيمَةٌ وَحَرَجٌ، وَإِنَّمَا أُمِرْنَا أَنْ نَسْتَقْبِلَ جِهَةَ الْكَعْبَةِ، وَخَالَفَ فِي ذَلِكَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ فَقَالَ قَالَ الْعُلَمَاءُ: إنَّ الْمُصَلِّيَ يَجْعَلُ بَصَرَهُ إلَى مَوْضِعِ سُجُودِهِ، وَبِهِ قَالَ الشَّافِعِيُّ وَالصُّوفِيَّةُ بِأَسْرِهِمْ، فَإِنَّهُ أَحْضَرُ لِلْقَلْبِ وَأَجْمَعُ لِلْفِكْرِ".

وفي هذه الآية الكريمة إشارة لذوي البصائر من المسلمين وهم حينئذ في المدينة لا يكادون يتجاوزونها، إلى أن الإسلام ستبلغ دعوته الآفاق، يملأها المؤمنون به ويتوجهون للكعبة حيث ما كانوا، وهو ما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: (إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي)، وقوله: (لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الْأَمْرُ

مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَلَا يَتْرُكُ اللَّهُ بَيْتَ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللَّهُ هَذَا الدِّينَ بِعِزِّ عَزِيزٍ أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ عِزًّا يُعِزُّ اللَّهُ بِهِ الْإِسْلَامَ وَذُلًّا يُذِلُّ اللَّهُ بِهِ الْكُفْرَ}.

إن الذين يشاغبون على اتخاذ الكعبة قبلة وهي أول بيت للعبادة وضع للناس مباركا في الأرض، يعلمون أن توجه المسلمين لها هو الحق، لما يجدونه في كتبهم عن إبراهيم وما رفع من قواعد البيت، ولكن أهواءهم وعزتهم بالضلال وكبرياءهم المتعجرفة تمنعهم من الاعتراف بالحق واتباعه {وَإِنَّ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ} أي: الحق الذي فرض على إبراهيم وذريته باستقبال الكعبة في الصلاة، والله تعالى يعلم من بدل وغير في أحكام الدين من اليهود والنصارى، ليس بغافل عنهم وحسابهم عنده: { وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ}.

إن أهل الكتاب يهودا ونصارى قد اتخذوا إلههم هواهم، ومن هذا شأنه يتعذر رجوعه إلى الحق، لما يطغى على مواقفه من مزاجية وتعصب وعزة بالإثم، وما مطالبتهم رسول الله بالآيات وقد جاءهم بكثير منها إلا معاندة ومشاقة ومراوغة عن تقبل الحق، وهم مصرون على ضلالهم، لن يؤمنوا ولن يتبعوا قبلته وقبلة أبي الأنبياء قبله، كما لن يتبع بعضهم قبلة بعض {وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ}، والقبلة الإبراهيمية ثابتة لن تتغير إلى يوم القيامة، لن يحيد عنها المسلمون أبدا، قال تعالى: { وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ}.

إن أهل الكتاب عبيد لأهوائهم ورهبانهم، فاليهود تركوا قبلة أبيهم إبراهيم وتوجهوا نحو بيت المقدس، والنصارى جعلوا قبلتهم تبعا لهوى أحبارهم، يتوجهون مرة نحو المشرق بزعم أن ربهم يعود منه، وتارة نحو صورة زعموها صورة للمسيح عليه السلام، وأخرى نحو صليب مجسم أو مرسوم، أو نحو كرسي لراعي الكنيسة التي يصلون فيها، هذا مآل كل من يتبع هواه، بعد أن يبلغه العلم وحيا من ربه، يظلم نفسه ويوردها موارد الهلاك، {وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ}، وهوخطاب تحذيري موجه للمسلمين جميعا في شخص نبيهم صلى الله عليه وسلم، من أن يركب أحدهم أو جمعهم الهوى، فتزل قدم بعد ثبوتها ويذوقوا السوء ويبوؤوا بالخسار والبوار.

ولئن تجاهل بعض علماء أهل الكتاب الحق الذي أنزل على الرسول صلى الله عليه وسلم وكتموه، فإن ذلك منهم مجرد حسد وعناد وضلال وهوى، لأنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، وجدوه مكتوبا في التوراة والإنجيل { الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}، هذا هو الحق من الله تعالى، إنهم يكفرون به وقد وجدوه في كتبهم، يعرفونه حق المعرفة، فلا يكن أحد من المسلمين ممتريا شاكا فيما أخبر الله به نبيه عليه السلام من أمرهم { الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ}. وإنما كل ميسر لما خلق له { وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا}، من اختار اللهَ ورسولَه اتَّجَهَ إلى القبلة التي وجه اللهُ إليها عبادَه، ومن اختار الهوى فأينما توجهه لا يأت بخير. {مَن يَشَأِ اللّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} الأنعام39، وما على المؤمنين إلا أن يبادروا بالأعمال الصالحة

ويستبقوها ويتنافسوا فيها، إعدادا واستعدادا ليوم حساب يأتي الله فيه بالجميع، مؤمنين وكفارا، وهو القادر القاهر فوق عباده، الفعال لما يريد { فَاسْتَبِقُواْ الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُواْ يَأْتِ بِكُمُ اللّهُ جَمِيعاً إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}.

بهذه الآيات الكريمة تُختَم مرحلةٌ هي من توابع المرحلة المكية مسالمةً لأهل الكتاب والمشركين، وقد أوغلوا في المحاربة والمكر، لتبدأ مرحلة الإعداد للمقاومة والرد بالمثل على كل عدوان، وقد انطلقت بعملية تحويل القبلة إلى الكعبة، مفاصلة وتميزا ورصا للصف وتماسكا، وتطهيرا للجماعة من المنافقين والمدسوسين وضعاف الإيمان، ومن عجب أن تبدأ هذه الخطوة الإستراتيجية الحاسمة بأوسط آيات سورة البقرة تعدادا، الآية الثانية والأربعين، والآية الثالثة والأربعين، والآية الرابعة والأربعين بعد المائة (142- 143 - 144)، وعدد آيات سورة البقرة ست وثمانون ومائتان. وبعد هذه الآيات الوسطى مباشرة يبدأ التأهيل الصريح للجهاد، حديثا عن أداء للصلاة علانية ولو في بلاد العدو، وعن الخشية من الله وحده دون غيره، وعن حياة الشهداء بعد استشهادهم، وعن الصبر في مواطن البلاء والنقص في الأنفس والأموال والثمرات...

التربية الجهادية مبادئ وقيم

قال الله تعالى: { وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (149) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (150) كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ (151) فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ (152) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (153) وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبيلِ اللّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاء وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ (154) وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (155) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ (156) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (157)} سورة البقرة

كانت السنتان الأوليان من الهجرة النبوية في المدينة المنورة قاعدة الانطلاق الواعي لبناء الأمة الإسلامية نظاما تشريعيا واجتماعيا وسياسيا واقتصاديا وعسكريا، بعد أن تم البناء العقدي في المرحلة المكية، وكانت خطوات الرسول صلى الله عليه وسلم تتحرك في مشارع الطريق لا تضطرب، وعينه على الهدف لا تحيد، لم تفتر له همة ولم تهن له عزيمة ولم تَعْشَ له عين، إلا أنه كان لا يتعجل النتائج قبل أوانها، ولا يستجيب لضغوط الواقع، سواء كان هذا الواقع استعجالا من المؤمنين، أو تحديا لمكابرة المشركين وعدوانيتهم، وقد لحق بالمسلمين في مكة أذى شديد، إذ كانوا يأتونه ما بين مضروب ومشجوج يتظلمون إليه، فيقول لهم:(اصبروا فإني لم أومَر بالقتال)، وعندما بايع أهلُ يثرب ليلة العقبة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانوا نيفا وثمانين، قالوا: يا رسول الله، ألا نميل على أهل الوادي – يعنون أهل مِنَى- ليالي مِنى فنقتلهم؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إني لم أومر بهذا).

ثم لما حل بالمدينة مهاجرا لثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول، بادر بحزم إلى بناء الأمة والدولة بما يناسب أهدافها ووسائلها، كل ذلك بوحي من ربه تعالى، فكان بناء المسجد النبوي مركز العبادة واتخاذ قرار الشأن العام شوروياً، وكان تشريع الصلوات الخمس في عدد ركعاتها النهائي ثنائية الصبح رباعية الظهر والعصر والعشاء ثلاثية المغرب، وكانت أول صلاة للجمعة في الإسلام مؤتمرا أسبوعيا للتلقي والتوجيه والعبادة، ثم اتجه صلوات الله عليه وسلامه إلى تحصين الجبهة الداخلية، فآخى بين المهاجرين والأنصار، ونظم العلاقات الاجتماعية والحقوق الفردية والقبلية والدينية لكل طائفة بما دونه في وثيقة رسمية، وادع فيها أيضا اليهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم واشترط عليهم وشرط لهم، وبعث إلى الأعراب حول المدينة وكان يخاف عدوانيتهم، سرايا تنذرهم قوة المسلمين وتحجزهم عن الغدر والأذى، وتهيئ الصف

المسلم للمرحلة المقبلة، وتعده لها تعبئة نفسية وسوقا عسكريا. كل ذلك والوحي يتقدمه تنزيلا قرآنيا بقوله تعالى عقب الهجرة مباشرة: { أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ} الحج39، وقوله صلى الله عليه وسلم في أول خطبة له لأول جمعة صلاها بالمدينة: (فأحسنوا كما أحسن الله إليكم، وعادوا أعداءه، وجاهدوا في الله حق جهاده، هو اجتباكم وسماكم المسلمين ليهلك من هلك عن بينة ويحيي من حيي عن بينة ولا قوة إلا بالله..).

بهذا الوضوح في الهدف وهذه الشفافية في الإعداد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسوس المجتمع الأول للمسلمين، وفي هذا الإطار بعد أن تتامت الصلوات المفروضة وشرع الأذان لإعلانها والإعلام بها، تحولت القبلة إلى أصلها الإبراهيمي بالبيت الحرام، تميزا في المضمون العقدي والشعار المرفوع، وتحديا للمشركين وأهل الكتاب، بقوله تعالى: {فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ} البقرة 144.

ولأن المرحلة كانت تقتضي بناء نفسيا للمسلمين يشعرهم بقوتهم ويوثق صلتهم بربهم، ويرقى باستعلائهم الإيماني إلى مصاف الجهاد والشهادة، وكانوا يخشون إعلان دينهم في أسفارهم وعند ارتيادهم مضارب الأعداء خارج المدينة، والصلاة في اتجاه البيت الحرام كاشفة لهويتهم الدينية، فقد خطا بهم الوحي خطوة متقدمة أخرى، وأمرهم بأن يؤدوا صلواتهم متجهين للكعبة أنى كانوا وحيثما كانوا، لا يخشون أحدا إلا الله، فقال تعالى مؤكدا التوجه الجديد والبقاء عليه: { وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ}، ومن ثم لم يعد لهم التخفي بدينهم، لأن ما لديهم هو الحق من ربهم، وقد وعدهم عزَّ وجل بالنصر عقب إخراجهم من بيوتهم في مكة فقال: { وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ} الحج39، ومن ثم أيضا صار كل مسلم أنى حل وارتحل قرآنا يسعى في الأرض، يهدي الناس إلى صراط مستقيم ويقيم عليهم الحجة بصلاته المتميزة ودينه الجديد المعلن، ولذلك كرر تعالى الأمر بالتوجه إلى القبلة عبر الآفاق مرفقا بعلته فقال: { وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ }، أي لئلا يحتج الكفار عليكم يوم القيامة بعدم التبليغ، وذلك لأن الصلاة عماد للدين وحجة عملية على من بلغه أمرها، وشهادة عليه يوم القيامة، فلا يسعه إنكار علمه برسالة الإسلام وبعثة الرسول صلى الله عليه وسلم، ولا تكون له على المسلمين حجة بادعاء عدم التبليغ يوم القيامة، والأمة الإسلامية شاهدة على الناس، وهو قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (بَلِّغوا عنِ اللهِ، فمَنْ بَلَغَتْه آيةٌ منْ كتابِ اللهِ فَقَدْ بَلَغَهُ أَمْرُهُ تعالى) وقوله: (وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ). والصلاة عماد الدين وركن الإسلام وآية من كتاب الله، من رآها تقام فقد بلغته الدعوة وبلغه أمر صاحبها عليه الصلاة والسلام، وأقيمت عليه الحجة.

ولأن الناس من غير المسلمين تختلف ردود فعلهم عندما تبلغهم الدعوة، ويعرفون أهلها والمبعوث بها، منهم المسارع إلى الإيمان، ومنهم المصر على الكفر من غير عدوان، ومنهم العدوانيون الظالمون الذين يتصيدون فرص الغدر والإيذاء، فقد

استثنى تعالى هذه الطائفة الحاقدة من أحكام الموادعة والمسالمة معاملة لأهلها بالمثل، وحرض على عدم الخوف منهم أو إيلائهم أي اعتبار، فقال عز وجل: { إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي}، أي لا تخشوا بأس الظالمين العدوانيين من الذين تبلغهم دعوتكم أو يرون صلاتكم فتستفزهم للانقضاض عليكم، لأن الله وحده أحق أن تخشوه، بيده حمايتكم ونصركم وهزيمة عدوكم؛ خشيتكم الله تعالى وحده، وإقامتكم الحجة على الناس بتبليغهم رسالة الإسلام، هي طريق هدايتكم إلى النجاة ووسيلة إتمام نعمته عليكم بخيري الدنيا والآخرة، { وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}، لقد ورد الأمر بالتوجه إلى الكعبة في هذه الآيات الكريمة أربع مرات متتابعات، الأولى لبيان فرضيتها بقوله تعالى: { فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ} والثانية لتقرير علم أهل الكتاب بها وجحودهم إياها بقوله عز وجل: { وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ}، والثالثة لبيان أحقيتها بأن تكون قبلة واستدامة توجه المسلمين إليها بقوله سبحانه: { فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ}، والرابعة لتطهير القلوب من الخشية مما سوى الله، وتبليغ الدعوة إلى الناس وإقامة الحجة والشهادة عليهم يوم القيامة فقال: { وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي}.

ولعل اختلاف كثير من المفسرين في شرح حكمة تكرار الوحي لهذه الآيات الكريمة، واضطراب تأويلات بعضهم لها، راجع إلى أنهم لم يضعوها ضمن السياق القرآني الواردة فيه، وهو نهاية مرحلة الاستضعاف وموادعة المعتدين، وبداية الإعداد للقوة تشريعا متميزا ومواقف متحدية ونفسيات مستعلية بالإيمان، وتحفيزا لمكامن القوة لدى المسلمين، وتهيئة للجهاد في سبيل الله تعالى، لاسيما وتحويل القبلة كان قبيل فرض الصيام بحوالي شهر، وقبيل غزوة بدر بأقل من شهرين، أي في رجب أو شعبان من السنة الثانية للهجرة، وفرض رمضان كان بعده في شعبان، وغزوة بدر الكبرى كانت بعدهما في رمضان من نفس السنة.

بهذا الإيمان العميق والإعداد العقدي والانضباط الحركي تجلى الوفاء بالوعد الإلهي للمسلمين إذ قال عز وجل عقب إخراجهم من مكة: { أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ} الحج39، وتمت نعمته تعالى عليهم بقوله: { وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُم }، وذلك بالنصر المؤزر في غزوة بدر الكبرى، وقد غشاهم النعاس أمنة منه تعالى وأمطرت عليهم السماء تثبيتا لأقدامهم وقلل عز وجل المشركين في أعينهم تشجيعا لهم على القتال، وأمدهم بجند من السماء، وأخبر رسولَه صلى الله عليه وسلم بمصارع القوم حتى قال لأصحابه قبل القتال:(هذا مصرع فلان غدا إن شاء الله، وهذا مصرع فلان غدا إن شاء الله..)، فرأى المسلمون ذلك على ما أشار إليه صلى الله عليه وسلم وذكره، وقد روي عن أنس رضي الله عنه أنه قال: (أنشأ عمر بن الخطاب يحدثنا عن أهل بدر فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يرينا مصارع أهل بدر بالأمس من بدر، يقول: هذا مصرع فلان غدا إن شاء الله، قال عمر: فوالذى بعثه بالحق ما أخطؤا

الحدود التي حدها رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى انتهى إليهم فقال: يا فلان بن فلان ويا فلان بن فلان هل وجدتم ما وعدكم الله ورسوله حقا فإني وجدت ما وعدني الله حقا؟ فقال عمر: يا رسول الله كيف تكلم أجسادا لا أرواح فيها؟ فقال: ما أنتم بأسمع لما أقول منهم غير أنهم لا يستطيعون أن يردوا شيئا). قال تعالى: { إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ } الأنفال 12/11.

هذه النعم الإلهية، نعم هداية المسلمين إلى قبلة إبراهيم، وإنقاذهم من جبروت قريش، وحمايتهم من مكر أهل الكتاب، والتمكين لهم في المدينة، وتأليف قلوبهم على أخوة العقيدة جسدا واحدا، وبنيانا مرصوصا، كما أنها حلقة من حلقات نصر الله تجلت واقعا ملموسا حيا في بدر {وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ} آل عمران 123، فهي أيضا ثمرة لنعمة أكبر هي أم النعم، وإتمام لفضل من الله أعظم هو مصدر النجاح والتوفيق، تجلى في استنقاذهم من الظلمات إلى النور، ومن الجهل إلى العلم، ومن دناءة النفوس والأخلاق إلى طهارة الأرواح والأجساد والسلوك، ببعثة رسول منهم وفيهم، أرسله الله تعالى إلى العالمين وامتن به عليهم، وأناط به القيام بما يصلحهم تربية وتزكية وتعليما وهداية فقال: {كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ}.

إن أعظم النعم على المؤمن هي الهداية إلى صراط الله المستقيم، لأنها المؤدية إلى رضاه عز وجل، والسبيل إلى الجنة وسعادة الدارين، ولا مطمع فيها إلا باتباع الرسول صلى الله عليه وسلم، لذلك كانت بعثته وإرساله فاتحة النعم ورأسها، وقد جعله الله تعالى رحمة بهم وتأليفا لقلوبهم وتحبيبا للخير إليهم وزيادة في التفضل عليهم، من ذرية أبيهم إبراهيم عليه السلام رافع قواعد كعبتهم، واستجابةً لدعوته الله تعالى لهم بقوله: { رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } البقرة 129. إنه رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم يبلغهم القرآن ويتلو عليهم آياته { يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا }، ويطهرهم من شرك المعتقد وأدناس الأرواح والأبدان، وينميهم بالخيرات والبركات الحسان، ويرفع درجتهم بالأخلاق الحميدة والأوصاف الزكية والعقيدة السوية { وَيُزَكِّيكُمْ }، ويعلمهم أحكام القرآن قراءة ومعاني وشرائع وعظات وتجارب أقوام وسنن كون في النفس والمجتمع والمبدأ والمعاد { وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ }، وينمي بسنته القولية والعملية والتقريرية مداركهم في الفهم والاستيعاب ومعرفة دوافع الأقوال والأعمال ومقاصدها ومآلاتها { وَالْحِكْمَةَ }، كما يعلمهم من آداب التلقي والأداء تعلما وتعليما، ومراشد التفكير استقراء وتحليلا واستنباطا، وقوانين التغيير والتغير، والترقي والتخلف، وسنن الله في الخلق والنشوء والاندثار ما لم يكونوا يعلمون { وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ }.

وبما أن العاقل يعرف هذه النعم الإلهية فلا بد أن يستشعر مسؤوليتها وواجب شكرها، وهو المفتقر إلى ربه في كل أمره، لذلك يخاطب عز وجل في كل مسلم عقله وحكمته التي تلقاها من نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله: { فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ }.

إن إحسان النعمة لا يوازيها عند العقلاء إلا إحسان الشكر، لذلك يستحث الله تعالى عباده على أن يحسنوا شكر نعمه بذكرهم له في سرهم وعلانيتهم وأقوالهم وأعمالهم، وسائر تصرفاتهم. يذكرون بره وإحسانه، إذ أرسل إليهم من أنفسهم رسولا معلما، وهداهم إلى قبلة ابي الأنبياء، وأسبغ عليهم من النصر والتمكين ما لم يكن لهم على ضعفهم وقلة عددهم، واختارهم من بين أمم الأرض حملة للرسالة الخاتمة والشهادة على الناس في الدنيا والآخرة، يذكرونه بطاعة أوامره ونواهيه في الكتاب والسنة، قال صلى الله عليه وسلم: (لو أن رجلا خَرَّ على وجهه من يوم ولد إلى يوم يموت هرما في طاعة الله عز وجل لَحَقَرَه ذلك اليوم، وَلَوَدَّ أنه رُدَّ إلى الدنيا كيما يزداد من الأجر والثواب)، و قال أبوبكر رضي الله عنه:" كفَى بالتوحيدِ عبَادةً، وكَفَى بالجنةِ ثَواباً "، يذكرونه بالتوحيد والإيمان واللسان والجنان، في الخلوة وبين الأهل والخلان، يذكرونه في خلوتهم فتفيض أعينهم من محبته وخشيته، ويذكرونه في الناس فتغشاهم الرحمة والطمأنينة والسكينة، ويذكرونه في تصرفاتهم وأعمالهم فيجعلونها خالصة لوجهه الكريم، وعند مقارفة المعاصي والشبهات فيتركونها ويعرضون عنها حياء منه عز وجل، يذكرونه إذا بدا لهم أمر من الدنيا فيه مقال يرضيه فلم يكتموه، وظهر لهم الحق فلم يخافوا إلا الله وجهروا به، ووجب عليهم الجهاد فلم يترددوا ولم يولوا الدبر، قال صلى الله عليه وسلم: (لِيَتَّخِذْ أحدُكم قلباً شاكراً ولساناً ذاكراً)، وقال رواية عن ربه تعالى أنه قال: (أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً)، وقال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} الأنفال45، وقال: { الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ} آل عمران 191.

إن الله تعالى غني عن العالمين، لا تنفعه طاعتهم أو ذكرهم، ولا تضره معصيتهم، وإنما كلفهم لمنافعهم، فإن أحسنوا كانوا محسنين لأنفسهم، وإن أخلُّوا بما وجب عليهم لم يضروا إلا أنفسهم، من حيث حرموا الثواب واستحقوا العقاب، ولئن خلقهم عز وجل ليعبدوه ويوحدوه ويسبحوه بكرة وأصيلا، فإنه لا يبالي ولا يكترث بمن لا يعبده { قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ} الفرقان 77، أي لولا عبادتكم، قال صلى الله عليه وسلم: (الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ)، لذلك علق إحسانَه للناس بإحسانهم عبادته، وذِكْرَه لهم بذكرهم له فقال: { فَاذْكُرُونِي } أمرهم بالذكر الذي هو إدراك لفضل الله ونعمه مسبوق بالنسيان، متلو بالتوبة والإيمان والإحسان، وجواب الأمر قوله تعالى: { أَذْكُرْكُمْ} أي أُثِبْكم وأَجْزِكم أجرَكم بأحسن ما عملتم، وسَمَّى الإثابة ذكرا على سبيل المجاز للجوار والمقابلة، إذ هو عز وجل منزه عن النسيان، والثواب نتيجة لذكر المؤمنين ربهم، قال تعالى: { لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ }، ثم شرح أمره لهم بالذكر فقال: {

وَاشْكُرُواْ لِي } والشكر هو الاعتراف بحق المنعم والثناء عليه، ولا يكون ذلك لله إلا بإحسان العبادة طاعةً مطلقة للأوامر والنواهي واتخاذا للحياة سبيلا لمرضاته وتوحيده مُعْتقَدا وعملا، ولأن كفر النعم مضادَّ لشكرها أعاد أمرَ الذكر والشكر مؤكدا بالنهي صراحة عن ضدهما، وهو الكفر مطلقا، كفر النعم وكفر المنعم فقال: { وَلاَ تَكْفُرُونِ }. وهو مثل قوله تعالى أيضا: { وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيم } النملُ (40).

إن بناء الأمة الإسلامية إنسانا ودولة شاهدة ليس بالأمر اليسير، والتضحيات على قدر الأهداف، والبذل على قدر الهمم، والإعداد على قدر المشقة المرتقبة وبعد السير والمسير، ولئن كان الإيمان نقطة الانطلاق إلى الدار الآخرة، وكانت أجساد المؤمنين هي الركوبة في الطريق، وأرواحهم هي طاقة الاندفاع فيها والاستماتة عليها، والجهاد رأس سنام إقامة أمرها وأعز سبل تسنم ريادتها، فإن الله تعالى تكفل بهداية أهل الإيمان إلى سنن الإعداد ووسائل النصر، فأمر بتطهير القلوب من خشية غيره بالغيب، وتوخي الاستعانة بالصبر والصلاة في عالم الشهود، وقال: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ}. ولا شك أن افتتاح هذه الآية الكريمة بحرف النداء، تنبيه لأهمية ما تشير إليه من ضرورة إعداد القوة وتهيئة النفوس للثبات على الحق والبذل في سبيل الله والإقبال على الشهادة.

إن المؤمن وقد اختار طريق الجنة على مشقته لابد أن يوطن نفسه على الصبر، الصبر على ترك المحرمات والنفوس تشتهيها، والصبر على أداء الواجبات وهي ثقيلة، والصبر على تحمل الأذى ثباتا على العقيدة ودفاعا عنها وذبا عن أهلها، وقوة في مواجهة فتن تخذيل الصف المؤمن ومحاولات تمزيقه ومكايدته. وإن الصلاة وهي عماد الدين، بأركانها وخشوعها وصدق توجهها واستمدادها العون والهداية منه تعالى خير زاد للمؤمن في الحياة الدنيا وخير مفتاح للجنة في الآخرة، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر صلى، فإن تحقق هذا الصبر في الصف المؤمن المحافظ على الصلاة بطقوسها وروحانيتها وما تؤدي إليه، كانت المعية الإلهية بالنصر المؤزر، والتمكين العزيز بقوله تعالى { إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ}، ولا يكون صبر إلا بطاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، ووحدة صف أهل الإيمان قلوبا ومعاملة وقبلة ومواجهة عدو، قال تعالى: {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} الأنفال46.

لقد جمع عز وجل في هذه الآيات الكريمة للمؤمن أهم مصادر القوة والمنعة، الذكر والشكر والصبر والصلاة والمعية الإلهية، إعدادا للصف المسلم للجهاد في سبيل الله، الذكر اصطحاب للمبدأ والمعاد في السر والعلن يقوي زخم الاندفاع في نحر العدو، والشكر استزادة لفضل الله تعالى وبركاته في الأقوال والأعمال، والصبر تثبيت على الحق واستمطار للقوة من مصدرها الرباني، والصلاة عبادة واستعانة واستهداء للصراط المستقيم، والمعية الإلهية تتولى ذلك كله تسديدا وتوفيقا ونصرا واستعلاء إيمان، قال تعالى: { فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ } محمد35. وقد آتى هذا الإعدادُ الرباني أكلَه مباشرة، وحَقّقَ أولَ ثمار الذكر والشكر والصبر والصلاة بعون الله وفضله، في غزوة بدر

الكبرى، إذ هُزِمَ الكفار شر هزيمة، ولم يفقد المسلمون فيها إلا أربعة عشر رجلا: ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار، ولما أصبح الناس يقولون: مات فلان ومات فلان، نزل الوحي يتمم تربيتهم وتأهيلهم، ويفسح لقلوبهم وبصائرهم بابا من الغيب لا يراه إلا المؤمنون، ويعلمهم منهج الإسلام في التعامل مع ظاهرة الاستشهاد حقيقة ومآلا، فقال تعالى: { وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاء وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ}.

لقد أعطت التعبئة العقدية الروحية والوجدانية نتائجها المرجوة في غزوة بدر، فلم يبق إلا تصحيح بعض المفاهيم والموازين، وتوضيح قيم وحقائق مصدرها الغيب ومرجعها إلى رب الغيب والشهود، إن الرؤية المادية الجافة المحدودة التي تعتمد على مظاهر الأشياء وتعمى عن حقيقتها وخلفياتها ومآلاتها لا ترى إلا عالم المادة المنبتر عن الوجود الحق، فتعد قتلى الجهاد موتى، ولكن الرؤية الإيمانية التي تنظر بنور الله تعالى، وتربط الحال بالمآل وعالم الشهادة بعالم الغيب، وتتلقى القيم والموازين من خالقها دون سواه، ينبغي ألا تقول لقتلى الجهاد "أموات"، وألا ترى في قتلهم إلا الحياة النورانية الكريمة الطاهرة الزكية، لأنهم في ميزان الله تعالى أحياء، وإن عميت عن هذه الحقيقة الأعين وعشيت الأبصار، إن هؤلاء الشهداء هم خير قتلى أهل الأرض، لقد فازوا بفضل القتل في سبيل الله ولكنهم لم يموتوا، إذ الموت في حقيقته من أمر الله تعالى يقرره لمن شاء، وقد شاء لهم بواسع فضله الحياة، الحياة الحقيقية التي لايعرفها الجاحدون ولا يتصورها المحجوبون، على هذا النهج ينبغي للمسلمين أن يتعاملوا مع شهدائهم الأبرار الذين قتلوا ويقتلون في معارك الحق ضد الباطل والإيمان ضد الكفر، إنهم الشهداء وإنهم الأحياء، ولا شك أنهم في الآخرة يشعرون بالحياة الكريمة التي احتضنتهم حال قتلهم، قال تعالى: { وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ} الحديد 19، وقال صلى الله عليه وسلم: (مَا أَحَدٌ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ يُحِبُّ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا وَلَهُ مَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا الشَّهِيدُ يَتَمَنَّى أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا فَيُقْتَلَ عَشْرَ مَرَّاتٍ لِمَا يَرَى مِنْ الْكَرَامَةِ).

إنهم الأحياء حقا، بدمائهم تُرْوَى شجرة الدين والعقيدة والأمة، والأطهار حقا، يُدفنون بدمائهم فلا يغسلون، ومن كان منهم في حاجة إلى غسل غسلته الملائكة إكراما من ربهم لهم، ولما قتل حنظلة بن أبي عامر غسيل الملائكة (قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ: إنّ صَاحِبَكُمْ – يَعْنِي حَنْظَلَةَ – لَتُغَسّلُهُ الْمَلَائِكَةُ. فَسَأَلُوا أَهْلَهُ مِنْ شَأْنِهِ؟ فَسُئِلَتْ صَاحِبَتُهُ عَنْهُ، فَقَالَتْ: خَرَجَ وَهُوَ جُنُبٌ حِينَ سَمِعَ الْهَاتِفَةَ)، ويُدَثَّرون بدل تكفينهم بملابسهم المدَمَّاةِ التي قتلوا بها لا تُنزَع عنهم، لأنها تيجان العز وفوح العطر لهم يوم القيامة، قال صلى الله عليه وسلم: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُكْلَمُ أَحَدٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِهِ إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَجُرْحُهُ يَثْعَبُ دَمًا، اللَّوْنُ لَوْنُ دَمٍ وَالرِّيحُ رِيحُ الْمِسْكِ)، وقال: (إن أرواح الشهداء في طير خضر، ترعى في رياض الجنة، ثم يكون مأواها قناديل معلقة بالعرش، فيقول الرب لهم: هل تعلمون كرامة أكرم من كرامة أكرمتكموها؟ فيقولون: لا، إلا أنا وددنا أنك أعدت أرواحنا في أجسادنا حتى نقاتل مرة أخرى فنقتل في سبيلك)، وقال: (غَدْوَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ رَوْحَةٌ خَيْرٌ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَلَقَابُ قَوْسِ أَحَدِكُمْ أَوْ مَوْضِعُ قَدَمٍ مِنْ

الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَلَوْ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ اطَّلَعَتْ إِلَى الْأَرْضِ لَأَضَاءَتْ مَا بَيْنَهُمَا وَلَمَلَأَتْ مَا بَيْنَهُمَا رِيحًا، وَلَنَصِيفُهَا يَعْنِي الْخِمَارَ خَيْرٌ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا)، وعَنْ أَنَسٍ قَالَ:(بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بُسَيْسَةَ عَيْنًا يَنْظُرُ مَا فَعَلَتْ عِيرُ أَبِي سُفْيَانَ، فَجَاءَ وَمَا فِي الْبَيْتِ أَحَدٌ غَيْرِي وَغَيْرُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ لَا أَدْرِي مَا اسْتَثْنَى بَعْضَ نِسَائِهِ فَحَدَّثَهُ الْحَدِيثَ، قَالَ: فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَتَكَلَّمَ فَقَالَ: إِنَّ لَنَا طَلِبَةً فَمَنْ كَانَ ظَهْرُهُ حَاضِرًا فَلْيَرْكَبْ مَعَنَا، فَجَعَلَ رِجَالٌ يَسْتَأْذِنُونَهُ فِي ظُهْرٍ لَهُمْ فِي عُلْوِ الْمَدِينَةِ، قَالَ: لَا إِلَّا مَنْ كَانَ ظَهْرُهُ حَاضِرًا، فَانْطَلَقَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابُهُ حَتَّى سَبَقُوا الْمُشْرِكِينَ إِلَى بَدْرٍ، وَجَاءَ الْمُشْرِكُونَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَا يَتَقَدَّمَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِلَى شَيْءٍ حَتَّى أَكُونَ أَنَا أُؤْذِنُهُ، فَدَنَا الْمُشْرِكُونَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ، قَالَ: يَقُولُ عُمَيْرُ بْنُ الْحُمَامِ الْأَنْصَارِيُّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ جَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ؟، قَالَ: نَعَمْ، فَقَالَ: بَخٍ بَخٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا يَحْمِلُكَ عَلَى قَوْلِكَ بَخٍ بَخٍ؟ قَالَ: لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِلَّا رَجَاءَ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِهَا، قَالَ: فَإِنَّكَ مِنْ أَهْلِهَا، قَالَ: فَأَخْرَجَ تَمَرَاتٍ مِنْ قَرَنِهِ فَجَعَلَ يَأْكُلُ مِنْهُنَّ، ثُمَّ قَالَ: لَئِنْ أَنَا حَيِيتُ حَتَّى آكُلَ تَمَرَاتِي هَذِهِ إِنَّهَا لَحَيَاةٌ طَوِيلَةٌ، قَالَ: ثُمَّ رَمَى بِمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ التَّمْرِ ثُمَّ قَاتَلَهُمْ حَتَّى قُتِلَ).

إن الشهيد يعطي لربه أغلى ماعنده، ويفتدي دينه بأعز ما يملك، بنفسه التي اشتراها منه ربه فأغلى ثمنها، في عبادة هي ذروة سنام الإسلام، كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (ذروة سنام الإسلام الجهاد في سبيل الله)، ولا عجب أن تكون له هذه المنزلة الرفيعة، فقد قال تعالى: { إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } التوبة111.

إلا أن مقياس الشهادة في الإسلام ليس مائعا يندرج تحته أي قتل أو أي موت، إن للجهاد خصائصه، وللشهادة صفاتها، وإن الشهيد الذي كرمه الله تعالى هذا التكريم وجعله مع الأنبياء والصديقين هو من قاتل في سبيل الله تعالى وحده لا شريك له، في سبيل أن تكون كلمة الله هي العليا، لا يشوب نيته هدف آخر أو شعار دخيل أو سبيل ضال، من عِرْق أو لون أو قوم، فلا شهادة لمن يقاتل في سبيل عروبة أو أمازيغية أو كردية أو فارسية أو غيرها من الأعراق والأقوام والألوان، إذ كل هذه السبل غير ذات قيمة في ميزان الإسلام، وليست مدخلا إلى الجنة أبدا.

إن الإسلام ينكر الشهادة على من يقتل في سبيل عصبية العرق أو اللون أو الطبقة وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لَيْسَ مِنَّا مَنْ دَعَا إِلَى عَصَبِيَّةٍ وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ قَاتَلَ عَلَى عَصَبِيَّةٍ وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ مَاتَ عَلَى عَصَبِيَّةٍ) ومن كان يشرك في قلبه سرا أو علانية بين الإسلام وبين إحدى هذه العصبيات فليراجع عقيدته، لأنها لا تجتمع والعقيدة الصافية في قلب المؤمن أبدا.

وإن الإسلام ينكر الشهادة على من يقاتل حمية أو لترى شجاعته أو ليشتهر بين الناس، وقد (جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: الرَّجُلُ يُقَاتِلُ حَمِيَّةً وَيُقَاتِلُ شَجَاعَةً وَيُقَاتِلُ رِيَاءً فَأَيُّ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟، قَالَ: مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ).

كما لا يقر الشهادة لمن نيته مغنم دنيوي أو جاه أو مجد وذكر، وقد (جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: "الرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلْمَغْنَمِ وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلذِّكْرِ وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِيُرَى مَكَانُهُ فَمَنْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟" قَالَ: "مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ"). وسئل صلى الله عليه وسلم: "أَرَأَيْتَ رَجُلاً غَزَا يَلْتَمِسُ الأَجْرَ وَالذِّكْرَ مَا لَهُ؟" فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: "لاَ شَيْءَ لَهُ" فَأَعَادَهَا ثَلاَثَ مَرَّاتٍ يَقُولُ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ: "لاَ شَيْءَ لَهُ" ثُمَّ قَالَ: "إِنَّ اللَّهَ لاَ يَقْبَلُ مِنَ الْعَمَلِ إِلاَّ مَا كَانَ لَهُ خَالِصا وَابْتُغِيَ بِهِ وَجْهُهُ")

إنه الجهاد في سبيل الله تعالى وحده، لا شريك له من هوى نفس، ولا تعتيم عليه من شعار دنيوي، ولا غبش فيه من مصلحة لا يقرها الدين، أو شعور بعزة غير عزة الإيمان، هو المعتبر في ميزان الإسلام وقيم العقيدة، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: (تَكَفَّلَ اللَّهُ لِمَنْ جَاهَدَ فِي سَبِيلِهِ لَا يُخْرِجُهُ مِنْ بَيْتِهِ إِلَّا جِهَادٌ فِي سَبِيلِهِ وَتَصْدِيقُ كَلِمَتِهِ بِأَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ أَوْ يَرْجِعَهُ إِلَى مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ مَعَ مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ).

وإنه الجهاد القتالي فقط، وما دعوى تصنيفه إلى جهاد أكبر وأصغر إلا من التلبيس الذي هو صرف عن مراد الله بالجهاد والشهادة في سبيله، وكل ما نسب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا التصنيف ما بين منكر لم يروه أحد من أهل العلم كحديث:(رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر)، أو ضعيف الإسناد كحديث:(قدمتم خير مقدم قدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر مجاهدة العبد هواه) وحديث:(قدمتم خير مقدم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، قالوا: وما الجهاد الأكبر؟، قال: مجاهدة العبد هواه). وقد استنكر ابن تيمية ما دعي بالجهاد الأصغر مطلقا، لأن جهاد الكفار من أعظم الأعمال وأفضل القربات، قال تعالى: { أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ، الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ } التوبة20، وقال: { فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا} النساء74.

وقد روى مسلم عن أبي هريرة قال: (قِيلَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا يَعْدِلُ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؟ قَالَ: (لَا تَسْتَطِيعُونَهُ) قَالَ: فَأَعَادُوا عَلَيْهِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا كُلُّ ذَلِكَ يَقُولُ:(لَا تَسْتَطِيعُونَه)، وَقَالَ فِي الثَّالِثَةِ: (مَثَلُ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ الصَّائِمِ الْقَائِمِ الْقَانِتِ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَفْتُرُ مِنْ صِيَامٍ وَلَا صَلَاةٍ حَتَّى يَرْجِعَ الْمُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى)

إن من قتل في سبيل الله قد استوفى أجله في الدنيا ولحق بالحياة الحقة الكريمة والنعيم الأبدي، لكن ما حال المؤمنين الذين لم ينالوا شرف الشهادة بعد؟ هؤلاء يخاطبهم الله تعالى عقب ذكره مآل الشهداء مباشرة بقوله: { وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ} أي: لنختبرنكم ونمتحننكم بأنواع من البلاء تجلو مكنون أنفسكم ونواياكم وتخرجه من غيب يعلمه الله تعالى إلى شهود يكون حجة لكم أو عليكم يوم العرض والحساب.

إن حال المؤمن في اختبار دائم وبلاء مستجد، لأن الدنيا كما أرادها خالقها عز وجل دار عمل ولا جزاء والآخرة دار جزاء ولا عمل، { وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ } آل عمران185. والنجاة كما قررها تعالى في سننه لمن شحذ همته وقوى عزيمته وأخذ دينه بقوةٍ لا ضعْفَ فيها، وجِدٍّ لا عبَثَ فيه، ويقظةٍ لا غفلةَ فيها.

إن الابتلاء سنة جارية في الناس كلهم، يُبْتلَوْن بإرسال الرسل والرسالات، فيتميز المؤمن من الكافر، ويُبتلى الناس في النفس والمال والأهل والولد فيفرز الصابر المحتسب من الجزوع الضعيف، والبَرّ الصادق من الكاذب المفتري والمنافق، ويُبتلى الصالحون فيُرَتَّبون في درجات عند ربهم، ويبتلى الأنبياء فيُفضّل الله بعضهم على بعض، قال تعالى: { الم أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ } العنكبوت3/1، وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: (قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً؟ قَالَ: الْأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الصَّالِحُونَ ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ مِنْ النَّاسِ، يُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صَلَابَةٌ زِيدَ فِي بَلَائِهِ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ خُفِّفَ عَنْهُ، وَمَا يَزَالُ الْبَلَاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَمْشِيَ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ لَيْسَ عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ)، ولقد أوذي رسول الله صلى الله عليه وسلم ووقع عليه وعلى الجيل الأول من المسلمين بلاء شديد فصبروا وصابروا حتى أتاهم النصر والتأييد وخاطبهم رب العزة فقال: { أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آَمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ} البقرة214. هكذا نشأ الجيل الأول من رجال الإسلام، وقد رباهم القرآن الكريم والسنة النبوية على البلاء، فعن خباب بن الأرت قال: (شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ, قُلْنَا لَهُ: أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا أَلَا تَدْعُو اللَّهَ لَنَا؟ قَالَ: كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهِ فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللَّهِ لَيُتِمَّنَّ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ أَوْ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ).

إن لله تعالى في سنة الابتلاء حِكَماً باطنها الرحمة واللطف بالمؤمنين، فهي وسيلة تُعَرِّفهم قدْرَ دعوتهم وخطورتها وعلو شأنها عند الله، وهي تربية لهم على الصبر والصمود والقوة عند لقاء العدو، وتعويد على أداء الأمانة في حالَيْ الاستضعاف والتمكين، وأداة لا تخطئ لتطهير الصف من المنافقين والمتخاذلين والانتهازيين والوصوليين والمدسوسين،

وهي كذلك تكفير للسيئات ورفع للدرجات. ولو كان أحد أولى بأن يعفى من البلاء لكان الأنبياء والرسل، ولكنهم كلهم مروا من بوتقة المحنة واخْتُبِرَ معدنُهم في نارها قبل أن يمكن الله تعالى لهم، وعندما اشتد الأمر برسول الله صلى الله عليه وسلم لِمَا ناله من أذى قومه خاطبه رب العزة قائلا: { قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ } 35/33. ولذلك بين رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الابتلاء صفة لازمة لا يعفى منها نبي أو رسول، فعن أبي سعيد الخدري قال:(دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يوعك، فوضعت يدي عليه فوجدت حره بين يدي فوق اللحاف، فقلت: يا رسول الله ما أشدها عليك، قال: إنا كذلك يُضَعَّف لنا البلاء ويُضَعَّف لنا الأجر، قلت: يا رسول الله أي الناس أشد بلاء؟ قال: الأنبياء، قلت: يا رسول الله ثم من؟ قال: ثم الصالحون، إن كان أحدهم ليبتلى بالفقر حتى ما يجد أحدهم إلا العباءة يحويها، وإن كان أحدهم ليفرح بالبلاء كما يفرح أحدكم بالرخاء)، وقال صلى الله عليه وسلم يصف حال المؤمن في الدنيا: (مثل المؤمن كمثل الزرع لاتزال الريح تميله، ولايزال المؤمن يصيبه البلاء، ومثل المنافق كمثل شجرة الأرز لا تهتز حتى تُسْتَحْصَد).

وبعد أن يصهر معدن المؤمن بالمحنة فيصبر ويلجأ إلى الله، ويثبت على الحق لا تأخذه فيه لومة لائم، وتزداد القيم والموازين الإيمانية في قلبه وعقله وضوحا واتساقا، مسترشدا بما هداه إليه ربه من حقائق الغيب والشهود، موقنا بأن القوة لله وحده والنصر منه وحده، والرجوع إليه وحده لا شريك له، ينطق حاله ومقاله استرجاعا يقينيا بالبلسم الرباني الذي لا يغادر سقما أو ريبا، أو هما أو حزنا، قائلا: { إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ}، فتأتيه البشرى بما هو أكبر وأعظم من النصر ومن الجنة، لثباته واحتسابه عند مواجهة لَأْوَاءِ { الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ}، تأتيه البشرى وحيا يتنزل صَيِّباً مِدْرارا، بتكريم ما بعده تكريم، وإنعام ما بعده إنعام، بصلوات من ربه ورحمة، وهداية إلى النعيم الأبدي، قال تعالى: {وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ}، وقال: { هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا } الأحزاب 43. وصلاة الله على عباده هي إقباله عليهم ورضاه عنهم وثناؤه عليهم وإخراجه لهم من الظلمات إلى النور، أما صلاة الملائكة فاستغفارهم للمؤمنين ودعاؤهم لهم بالخير والمثوبة.

وتختم هذه الآيات الكريمة وقد قَرَّرَتْ سنةَ الله تعالى في التربية الجهادية وإعدادِ القوة، وحدةَ صفٍّ وتَوَجُّهٍ، وخشيةً من الله تعالى وحده دون سواه، وعلما بالكتاب والسنة والحكمة النبوية مصحوبا بالعمل، وأداءً للأمانة التي حُمِّلها المؤمنون، ووفاءً

بالعهد الذي واثقوا به ربهم في السر والعلن، واستعانةً بالصلاة والصبر، مصحوبة بالذكر والشكر، مقرونة بالبراءة من الجحود والكفر.

إنها لعمرى سبيل المؤمنين المجاهدين والشهداء الصابرين، إلى الحياة الحقيقية { مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا } النساء 70/69، مُتَوَّجين بفضل أكبر وأعظم، هو صلاته عز وجل عليهم إذ قال: { أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ } هدوا في الدنيا {إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ} الحج 24، وفي الآخرة إلى لحياة الحقيقية والفوز بصلوات الله عليهم، وهم بهذه الصلاة أقرب إلى سيد ولد آدم محمد عليه الصلاة والسلام، وقد صلى عليه ربه وأمر بالصلاة عليه فقال: { إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} الأحزاب56. اللّهمَّ صَلِّ على محمدٍ وعَلَى آلِ محمدٍ كما صلَّيتَ على إبراهيمَ وعلى آلِ إبراهيمَ إنكَ حَميدٌ مجيد، اللّهمَّ بارك على محمدٍ وعلى آلِ محمدٍ كما باركتَ على إبراهيم وعلى آلِ إبراهيمَ إنَّكَ حَميدٌ مجيد.

الإيمان والتوحيد كلية الدين وقوام الأمر

قال الله تعالى: { إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ (158) إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ (159) إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (160) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (161) خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ (162) وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (163) إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (164) وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لِّلّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (165) إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ (166) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّؤُواْ مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (167)} سورة البقرة

تختلف معادن الناس وطبائعهم باختلاف ما نُشِّئَتْ عليه فطرتهم صلابةً وشفافية وصدق التزام، أو هشاشةً وغبشَ تصورٍ وخورَ همةٍ وميوعةَ مواقف، لذلك قال صلى الله عليه وسلم: (تَجِدُونَ النَّاسَ مَعَادِنَ فَخِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقِهُوا، وَتَجِدُونَ مِنْ خَيْرِ النَّاسِ فِي هَذَا الْأَمْرِ أَكْرَهَهُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ يَقَعَ فِيهِ)، هذا حال الجيل القرآني الأول، خيار في الجاهلية آمنوا وصدقوا، وتولتهم التربية النبوية على الكتاب والسنة، فكانوا خيارا قبل إسلامهم رجولة وشهامة ثم تلامذة خيارا مجاهدين وقد فقهوا، وشهد بخيريتهم الرسول صلى الله عليه وسلم فقال: (خَيْرُكُمْ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ)، إنهم جيل الصدق والوفاء والتضحية والبناء، أنارت قلوبهم مشكاةٌ من نور ربهم، فهجروا جاهليتهم وتنكروا لماضيهم، وتحولوا {خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ} المؤمنون14، خلقا ينفر من ضلالة ماضيه، وتفاهة سابق معتقداته, ويكره أن يعود إلى الكفر كما يكره أن يقذف به في النار. رجالا إذا ذكروا جاهليتهم سخروا من حالهم فيها، أو بكوا أشد البكاء لما اقترفوا فيها، من هؤلاء مثلا عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقد كان في مجلس فإذا به يضحك فجأة، ثم يسكن لحظة ينخرط بعدها في بكاء شديد، فلما سئل عما أضحكه وما أبكاه قال:" لقد تذكرت حينما كنت فى الجاهلية ولم يكن يصحبني فى سفر لي سوى إله مصنوع من التمر، ولما اشتد بي الجوع ونفد الزاد وبحثت حولي فلم أجد سوى هذا الإله، نظرت إليه واستغفرته وقمت بالتهامه، تذكرت ذلك فأثار ضحكي وسخريتي مما كنت

أؤمن به، وكنت فى الجاهلية وقد رزقت بولد " أنثى" ولم تنقض بضعة شهور حتى أخذني الخوف من العار بأنثى فأخذت معولي بيد وحملت الأنثى بالأخرى صاعداً قمة تل وهممت بالحفر بالمعول والأنثى بيدى الأخرى، وتصبب وجهي عرقا، فنظرت إلى الأنثى ورأيتها تنظر إلى عيني وتبتسم وقامت بمد يدها الصغيرة إلى جبهتى لتزيل ما تصبب من العرق، فلم تأخذني بها شفقة ولا رحمة وأكملت ما شرعت فيه من وأد للأنثى ووضعتها والحياة تنبض فيها فيما أعددته من حفرة وأهلت فوقها الرمال، وأكمل عمر بن الخطاب روايته بقوله إنه بتذكره لتلك الواقعة غلبته الدموع، وأجهش عمر فى البكاء ثانية...

كان هذا حال الجيل الأول من المسلمين وقد أضاء نور الإيمان قلوبهم، وطهرت العقيدة ضمائرهم ومشاعرهم وسكنت التقوى قلوبهم فأخذوا احتياطا لدينهم يحذرون شُبَهَ الوقوع في الشرك ظاهرا وباطنا، ويخضعون كل تصرفاتهم لموازين الشريعة وقيمها ومقاييسها، وينبذون كل عمل لهم في الجاهلية تساورهم في شأنه الظنون، من ذلك أن بعض المسلمين كانوا في جاهليتهم يسعون بين الصفا والمروة وعلى قمة كل منهما صنم[34] فلما جاء الإسلام وكسر الرسول صلى الله عليه وسلم الأصنام وطهر البيت الحرام منها جميعا، أنِفوا السعي بينهما وقالوا:" إن طوافنا بين هذين الحجرين من أمر الجاهلية "، وقال آخرون من الأنصار:" إنما أمرنا بالطواف بالبيت، ولم نؤمر بالطواف بين الصفا والمروة "، فأنزل الله تعالى: { إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ }. وفي صحيح مسلم من حديث طويل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فرغ من طوافه بالبيت، عاد إلى الركن فاستلمه، ثم خرج من باب الصفا وهو يقول: (أَبْدَأُ بِمَا بَدَأَ اللَّهُ بِهِ فَبَدَأَ بِالصَّفَا فَرَقِيَ عَلَيْهِ حَتَّى رَأَى الْبَيْتَ فَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ فَوَحَّدَ اللَّهَ وَكَبَّرَهُ وَقَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ أَنْجَزَ وَعْدَهُ وَنَصَرَ عَبْدَهُ وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ ثُمَّ دَعَا بَيْنَ ذَلِكَ قَالَ مِثْلَ هَذَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ثُمَّ نَزَلَ إِلَى الْمَرْوَةِ حَتَّى إِذَا انْصَبَّتْ قَدَمَاهُ فِي بَطْنِ الْوَادِي سَعَى حَتَّى إِذَا صَعِدَتَا مَشَى حَتَّى أَتَى الْمَرْوَةَ فَفَعَلَ عَلَى الْمَرْوَةِ كَمَا فَعَلَ عَلَى الصَّفَا).

وروى الإمام مالك في الموطأ (عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ قَالَ قُلْتُ لِعَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ وَأَنَا يَوْمَئِذٍ حَدِيثُ السِّنِّ، أَرَأَيْتِ قَوْلَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى { إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا }، فَمَا عَلَى الرَّجُلِ شَيْءٌ أَنْ لَا يَطَّوَّفَ بِهِمَا، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: كَلَّا لَوْ كَانَ كَمَا تَقُولُ لَكَانَتْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ لَا يَطَّوَّفَ بِهِمَا، إِنَّمَا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي الْأَنْصَارِ كَانُوا يُهِلُّونَ لِمَنَاةَ، وَكَانَتْ مَنَاةُ حَذْوَ قُدَيْدٍ، وَكَانُوا يَتَحَرَّجُونَ أَنْ يَطُوفُوا بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، فَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ ذَلِكَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: { إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا }.

---

34 – هما إساف ونائلة نسجت حولهما قصص وأساطير لا صحة لها.

والصفا لغة من "الصفاء" وهو خلوص الشيء من الشوب، مأخوذ من صفا يصفو إذا خلص، ومنه قيل للحجارة الصافية الملساء: صفا، واحدتها صفاة، مثل حصى وحصاة ونوى ونواة. أما المرْو فحجارة بيضٌ برَّاقة تُقْدَح منها النار، واحدتها مَرْوَةٌ، وهما جبلان كانا قريبين من المسجد الحرام اتصلا به عند توسعته.

أما لفظ" شعائر " فمأخوذ من فعل" شَعَرَ به وشعُر " أي عَلِمَ، وشعائر الحج وشِعارُه هي مناسكه وعلاماته وآثاره وأَعماله، من الإشعار بمعنى الإعلام، جمع شَعيرَة، أي كل معالمه الظاهرة للحواس التي جعلها الله أعلاما لطاعته كالوقوف والطواف والسعي والرمي والذبح وغير ذلك، لكونها علامات على الخضوع والطاعة والتسليم، ومنه قول رسول الله صلى الله عليه وسلّم:(جاءني جبريل عليه السلام فقال: يا محمد، مر أصحابك فليرفعوا أصواتهم بالتلبية، فإنها من شعائر الحج).

والحج في اللغة القصد للزيارة مطلقا، وفي الشرع زيارة بيت الله الحرام في أيام معدودات إقامة لنسكه وشعائره.

والعمرة من فعل "اعتمر" أي زار من "العمارة"، كأن الزائر يعمر البيت الحرام بزيارته، وفي الشريعة هي زيارة بيت الله الحرام والقيام بشعائر مخصوصة هي الإحرام والطواف والسعي بين الصفا والمروة.

وقوله تعالى { فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا } موجه للمسلمين الذين ساورتهم الهواجس من شبهة الشرك بالسعي بين جبلين كان على رأس كل منهما صنم، يبين لهم به تعالى أن لا جناح عليهم أي لا إثم ولا حرج في قيامهم بشعيرة التطوف بينهما بعد أن تطهرا من الأوثان، وقد فسر الرسول صلى الله عليه وسلم الطواف بالنسبة للكعبة بالدوران حولها سبعة أشواط. وفسره بالنسبة للصفا والمروة بالسعي بينهما سبعة أشواط كذلك. وقد كان هذا السعي من شعائر ملة إبراهيم عليه السلام وأقره الإسلام، أصله من تطواف هاجر وقد تركت في البيت الحرام مع رضيعها إسماعيل عليه السلام وحيدين كما روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس قالَ: (جَاءَ بِهَا إِبْرَاهِيمُ وَبِابْنِهَا إِسْمَاعِيلَ وَهِيَ تُرْضِعُهُ حَتَّى وَضَعَهُمَا عِنْدَ الْبَيْتِ عِنْدَ دَوْحَةٍ فَوْقَ زَمْزَمَ فِي أَعْلَى الْمَسْجِدِ وَلَيْسَ بِمَكَّةَ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ وَلَيْسَ بِهَا مَاءٌ فَوَضَعَهُمَا هُنَالِكَ وَوَضَعَ عِنْدَهُمَا جِرَابًا فِيهِ تَمْرٌ وَسِقَاءً فِيهِ مَاءٌ ثُمَّ قَفَّى إِبْرَاهِيمُ مُنْطَلِقًا فَتَبِعَتْهُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ فَقَالَتْ يَا إِبْرَاهِيمُ أَيْنَ تَذْهَبُ وَتَتْرُكُنَا بِهَذَا الْوَادِي الَّذِي لَيْسَ فِيهِ إِنْسٌ وَلَا شَيْءٌ فَقَالَتْ لَهُ ذَلِكَ مِرَارًا وَجَعَلَ لَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا فَقَالَتْ لَهُ أَاللَّهُ الَّذِي أَمَرَكَ بِهَذَا قَالَ نَعَمْ قَالَتْ إِذَنْ لَا يُضَيِّعُنَا ثُمَّ رَجَعَتْ فَانْطَلَقَ إِبْرَاهِيمُ حَتَّى إِذَا كَانَ عِنْدَ الثَّنِيَّةِ حَيْثُ لَا يَرَوْنَهُ اسْتَقْبَلَ بِوَجْهِهِ الْبَيْتَ ثُمَّ دَعَا بِهَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ وَرَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ: { رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ} إبراهيم37، وَجَعَلَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ تُرْضِعُ إِسْمَاعِيلَ وَتَشْرَبُ مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ حَتَّى إِذَا نَفِدَ مَا فِي السِّقَاءِ عَطِشَتْ وَعَطِشَ ابْنُهَا وَجَعَلَتْ تَنْظُرُ إِلَيْهِ يَتَلَوَّى أَوْ قَالَ يَتَلَبَّطُ فَانْطَلَقَتْ كَرَاهِيَةَ أَنْ تَنْظُرَ إِلَيْهِ فَوَجَدَتْ الصَّفَا أَقْرَبَ جَبَلٍ فِي الْأَرْضِ يَلِيهَا فَقَامَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ اسْتَقْبَلَتْ الْوَادِيَ تَنْظُرُ هَلْ تَرَى أَحَدًا فَلَمْ تَرَ أَحَدًا فَهَبَطَتْ مِنْ الصَّفَا حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ الْوَادِيَ رَفَعَتْ طَرَفَ دِرْعِهَا ثُمَّ سَعَتْ سَعْيَ الْإِنْسَانِ

الْمَجْهُودِ حَتَّى جَاوَزَتْ الْوَادِيَ ثُمَّ أَتَتْ الْمَرْوَةَ فَقَامَتْ عَلَيْهَا وَنَظَرَتْ هَلْ تَرَى أَحَدًا فَلَمْ تَرَ أَحَدًا فَفَعَلَتْ ذَلِكَ سَبْعَ مَرَّاتٍ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَذَلِكَ سَعْيُ النَّاسِ بَيْنَهُمَا، فَلَمَّا أَشْرَفَتْ عَلَى الْمَرْوَةِ سَمِعَتْ صَوْتًا فَقَالَتْ صَهٍ تُرِيدُ نَفْسَهَا ثُمَّ تَسَمَّعَتْ فَسَمِعَتْ أَيْضًا فَقَالَتْ: قَدْ أَسْمَعْتَ إِنْ كَانَ عِنْدَكَ غِوَاثٌ فَإِذَا هِيَ بِالْمَلَكِ عِنْدَ مَوْضِعِ زَمْزَمَ فَبَحَثَ بِعَقِبِهِ أَوْ قَالَ بِجَنَاحِهِ حَتَّى ظَهَرَ الْمَاءُ فَجَعَلَتْ تُحَوِّضُهُ وَتَقُولُ بِيَدِهَا هَكَذَا وَجَعَلَتْ تَغْرِفُ مِنْ الْمَاءِ فِي سِقَائِهَا وَهُوَ يَفُورُ بَعْدَ مَا تَغْرِفُ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَرْحَمُ اللَّهُ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ لَوْ تَرَكَتْ زَمْزَمَ أَوْ قَالَ لَوْ لَمْ تَغْرِفْ مِنْ الْمَاءِ لَكَانَتْ زَمْزَمُ عَيْنًا مَعِينًا، قَالَ: فَشَرِبَتْ وَأَرْضَعَتْ وَلَدَهَا فَقَالَ لَهَا الْمَلَكُ: لَا تَخَافُوا الضَّيْعَةَ فَإِنَّ هَا هُنَا بَيْتَ اللَّهِ يَبْنِي هَذَا الْغُلَامُ وَأَبُوهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَهْلَهُ)

لقد شُرِعَ السعيُ بين الصفا والمروة والبيتُ الحرام على الملة الإبراهيمية طاهر من الأصنام[35]، وما أدخل فيه منها كسر وأزيل بعد فتح مكة، لذلك لا ينبغي أن تبقى هاجسا يشاغب على القلوب، في عبادة إسلامية أصيلة أقرها الوحي وحث عليها الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله: (اسعَوا، فإن الله كتب عليكم السعي)، عبادة هي عنوان عريض بارز للإيمان والإحسان والتوحيد الذي لا يشوبه شرك أو عصيان، يمجد بها المؤمن ربه ويشكره على نعمه وفضله، ويستحضر بها حاجته إليه في هداية قلبه وصلاح حاله وغفران ذنبه.

بهذه الآية الكريمة وما شرحت به من السنة القولية والعملية للرسول صلى الله عليه وسلم كان السعي ركنا من أركان الحج والعمرة لدى جمهور العلماء، مالكية وشافعية وفي إحدى الروايتين عن أحمد، والأركان لا تنجبر بدم، وواجبا ينجبر بدم عند أبي حنيفة والثوري، ولا عبرة بما زعم أنه سنة لا يجب بتركه شيء لأن الروايات فيه مضطربة مرجوحة.

أما التطوع نفلا بالحج بعد أداء الفريضة وبالعمرة والسعي وكل أعمال البر، فمن الخيرات التي لا يضيع أجرها عند الله تعالى، قال تعالى: {وَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ} يعلمها الله تعالى ويشكرها أي يثيب عليها، يعلم قدر العمل وقدر الجزاء ولا يبخس أحدا أجر عمله، يثيب على القليل بالكثير { لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا } النساء 40.

لقد اعتبر الأنصار ما خالج نفوسهم من أمر السعي بين جبلين كان على رأس كل منهما صنم أمرا خطيرا لا يقبل التهاون، لأنه متعلق بالعقيدة التي بها يتقرر مصير المرء في الدنيا والآخرة، والتقيُّ لا يتساهل في معالجة أي غبش يطرأ

---

35 – دخلت الأصنام إلى البيت الحرام أول ما دخلت على يد رجل يدعى عمرو بن لحي، كان ذا مال وشرف ومنعة، سافر يوما إلى الشام فرأى القوم يعبدون الأصنام فقال لهم ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون؟ قالوا: هذه أصنام نعبدها فنستمطرها فتمطرنا ونستنصرها فتنصرنا، فقال: ألا تعطوني منها صنما فأسير به إلى أرض العرب فيعبدونه؟ فأعطوه صنما يقال له هبل فقدم به مكة فنصبه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه.

على قلبه فيها، وإنما يعالجه بسؤال أهل الذكر من العلماء، وهو ما فعلوه إذ سألوا رسولهم صلى الله عليه وسلم. هذا هو الموقف السليم للمؤمن في كل عصر، لا يمنعه الحياء ولا التكبر عن معرفة أحكام دينه عقيدة وشريعة وسلوكا ومنهاجا، فدواء الجهل السؤال، وواجب العالم الرباني أن يبين، لا تأخذه في الحق لومة لائم، لذلك عقب عز وجل بإشارة واضحة إلى العلماء وواجبهم في التربية والتعليم والتبليغ والتبيين فقال: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ}. والكتمان يكون بإخفاء الحق لفظا أو حكما، أو بتبديل غيره أو تفسيره بغير معناه، أو تلبيسه والتمويه عليه وإساءة تأويله جريا مع الأهواء، أو توظيفه للمصالح الخاصة، أو تسخيره لذوي النفوذ والجاه والسلطة، وقد نزلت هذه الآية عندما سأل معاذ بن جبل وسعد بن معاذ وخارجة بن زيد نفرا من أحبار اليهود عن بعض ما فى التوراة، فكتموا، وقيل نزلت فى الكاتمين من اليهود والنصارى مطلقا، إلا أن خصوص السبب لا يدفع عموم الحكم، فالآية تعم كذلك من كتم من المسلمين علما من الدين مع مسيسِ الحاجة إليه وتحقُّقِ الداعي إلى إظهاره، قال أبو هريرة: لولا هذه الآية ما حدثت أحدا بشيء، وعنه صلى الله عليه وسلم: (من سئل عن علم فكتمه جاء يوم القيامة ملجما بلجام من نار)، وهو ما بينه قوله تعالى: {أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ} أي يبعدهم عن رحمته ويذيقهم العذاب، { وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعِنُونَ } أي الخلائق كلها يدعون بإبعادهم عن رحمة الله تعالى.

إن حكم هذه الآية يشمل كل من كتم الحق فلم يبينه للناس، سواء كان هذا الحق أمرا بمعروف أو نهيا عن منكر أو إقامة حجة على حاكم أو محكوم، كما يشمل من يرى حرمات الله تنتهك، والدين يداس ويتلاعب به جهارا ثم لا ينتصر لدين الله ولا يغضب لحرماته فينكر ويغير، قال صلى الله عليه وسلم: (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان).

إلا أن رحمة الله الواسعة وقد فتحت أبواب التوبة للعصاة من الجن والإنس استثنت من حكم اللعنة كل من يراجع نفسه ويعود عن غيه وأخطائه ليصلح ما أفسده كتمانه فيجهر بالحق ويقيم أركانه، ويبين أحكام الدين في ما يرى وما يسمع وما يَبْلغه وما يُسْأل عنه، وذلك بقوله تعالى: { إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}، وجعل بذلك رب العزة لتوبة العلماء ثلاثة شروط هي:

الندم على ما أذنبوا في حق الشريعة من تغيير وكتمان، والتخلص من أخلاق فسقة العلماء نفاقا ورياء ومتاجرة بالدين وأهله، مع العزم على عدم العودة.

إصلاح ما أفسده كتمانهم بإعلان مكامن الخطأ والتحريف في أقوالهم وأفعالهم وتصرفاتهم وتوضيح مظان التصحيح الشرعي لما أفسدوا.

بيان وجه الحق في كل ما اؤتمنوا عليه من العلم، وإقامة شهادة الحق في كل ما يعرض لهم أو يسألون عنه، دون خوف إلا من الله عز وجل.

وقد بلغنا من أخبار السلف الصالح أن الواحد منهم كان إذا أخطأ في أي فتوى أمر مناديا ينادي في الأسواق معلنا خطأ فتواه، ووجه الصواب فيما أفتى به، إلا أننا في عصرنا الحالي رأينا أعاجيب من توبة شيطانية لبعض المحسوبين على العلم، إذ يجندون ألسنتهم في الإعلام المرئي والمسموع والمكتوب يعلنون توبتهم عن الحق الذي كانوا عليه، أو تشكيكهم في الدعاة إلى الحق والعلماء المجاهدين في سبيله والبراءة منهم، أو تشهيرهم بالحق الذي تحاربه الصهيونية العالمية والصليبية الحاقدة، أو تشويههم لأصحاب الحق الذين لا ترضى عنهم الأنظمة الظالمة. فما أبعدهم عن التوبة، وما أصبرهم على غضب الله.

وفي تعريضٍ واضحٍ بَيّنٍ بمن يموت على الكفر الصريح، أو الكفر بكتمان الدين والتلاعب به والاستهانة به، وإشادةٍ خفية بالمسلمين الذين احتاطوا لدينهم فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أمر السعي بين الصفا والمروة حرصا على سلامة عباداتهم من الشوائب، وصفاء عقيدتهم من الشرك ظاهرا وخفيا، عقب رب العزة تعالى بقوله: { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ }، كل هؤلاء ليس لهم عند الله إلا الإبعاد من رحمته، لعنة منه تعالى عليهم، ودعاء باللعنة عليهم من الملائكة والناس أجمعين، يلعنهم المؤمنون في الدنيا إن ماتوا على الكفر، ويلعنهم الكفار أمثالهم أيضا في الآخرة، قال تعالى: { ثُمَّ يَوْمَ القيامة يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً} العنكبوت 25، ومأواهم جهنم { خَالِدِينَ فِيهَا} تتبعهم اللعنة فيها وتصاحبهم، لا يخفف عنهم العذاب لحظة ولا يفتر {لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ}، لا يُمْهلون ولا يُؤَجَّلون، بل عذاب متواصل دائم غير منقطع {وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ}

وبعد أن بين عز وجل وجه الحق في أمر السعي بين الصفا والمروة، وتوعد كَتَمَةَ العلماء باللعنة المخلدة في النار، واستثنى التوابين الذين يصلحون ما أفسدوا، وقرر مصير الذين يموتون على الكفر، عطف بتقرير الحقيقة الأزلية التي هي جوهر الوجود وسر الحياة، فقال: {وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ }. وقد ورد في سبب نزول هذه الآية أن كفار قريش قالوا: يا محمد صف لنا ربك وانسبه، فأنزل الله تعالى هذه الآية وسورة الإخلاص، وفي الحديث عن شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد بن السكن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين: { وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ } و { الم اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ } آل عمران 2/1.

بهذه الآية الكريمة أوجز عز وجل معالم التوحيد الحق الخالص، بأركانه الثلاثة:

توحيدا للألوهية إفرادا لله تعالى بجميع أنواع العبادة التي أمر بها، دعاء وخوفا ورجاء وتوكلا ورهبة ورغبة وخشوعا وخشية، وإنابة واستعانة واستغاثة ونسكا ونذرا، قال تعالى: { وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً} الجن18.

وتوحيدا للربوبية، إقرارا بأن لا رب لجميع الخلق إلا الله تعالى، وأنه سبحانه الخالق الرازق المالك المدبر المحيي المميت، وحده لا شريك له.

وتوحيدا للصفات، إيمانا بأنه تعالى ليس كمثله شئ، وأنه لا يوصف إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به نبيه صلى الله عليه وسلم، وطريق معرفة ذلك الوحي قرآنا وسنة صحيحة.

ولئن كان الإسلام هو الانقياد لشرع الله والقيام بأركانه وواجباته واجتناب نواهيه، والتخلق بأخلاقه فإن له مدخلا واحدا ووحيدا، هو التوحيد الحق على النهج القرآني النبوي، يقينا في القلب وإعلانا باللسان وظهورا في العمل والتصرف، من حققه دون ريب أو شك أو اضطراب أو تردد هو المؤمن وهو المسلم، وهو الأخ الكريم، وهو اللبنة الصلبة في البناء الإسلامي المتماسك.

والآية بذلك أيضا بما تحمله من صفات رحمة الله تعالى بالخلق ورحمانيته دعاءٌ لأهل الشرك إلى الأوبة عن ضلالهم والإنابة من كفرهم، بما تلاها من دلائل الألوهية والربوبية التي لا تغيب عن ذوي الألباب، وقد ورد أن الكفار عندما نزل قوله تعالى: { وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ } قالوا: إن محمدا يقول إن إلهكم إله واحد فليأتنا بآية إن كان من الصادقين فأنزل الله عز وجل ما تلاها وهو قوله تعالى: { إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ }، وعن عطاء قال: نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة: { وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ } فقال كفار قريش بمكة: كيف يسع الناس إله واحد؟ فأنزل الله تعالى: { إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ... } إلى قوله: { لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ }.

وقد تضمنت الآية الكريمة جوابا واضحا بينا على هذين المطلبين، مطلب الدليل على الوحدانية ومطلب الحجة على شمولية قيومية الله تعالى للخلق أجمعين، بدعوتهم إلى تدبر ما يشاهدونه من بديع خلق ربهم عز وجل، أرضا وسماوات وحركة للشمس والقمر يتعاقب بها الليل والنهار، { لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ } يس40، وإلى التفكر في عجيب أمر البحر المسخر لمنافع الناس بما فيه من سفن جارية, وبما حواه من ثروات حيوانية ومعدنية وطاقات يكتشفها العلم على مر العصور وتطور العقول، وما يرونه من آثار رحمة الله إذ يحيي الأرض بعد موتها بتصريف الرياح اللواقح وتسخير السحاب الممطر، { أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ } الرعد17

يعرض الحق تعالى دلائل وحدانيته وقيوميته مؤكدة بحرف التوكيد "إن" بقوله: { إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ... }، ويختمها أيضا مؤكدة بلام التوكيد قائلا: { لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ }،للدلالة على أهمية العقل وحسن النظر في تلمس طريق الهداية إلى الحق، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ويل لمن قرأ هذه الآية فَمَجَّ بها) أي قذفها من فمه فلم يعتبر بها ولم تلهمه معرفة ربه ومطلق قدرته وشامل قيوميته وواسع رحمته وجزيل فضله.

إن التفكر في هذا الكتاب الكوني المفتوح المشهود، أرضا وسماء وأفلاكا وشمسا وقمرا ونجوما وسحابا ممطرا ورياحا مسخرة، وما بث فيه من الكائنات الحية تمشي وتزحف وتسبح وتطير، هو سبيل العقلاء لمعرفة الله وتوحيده، وما مثال إيمان إبراهيم عليه السلام بخفي، إذ تأمل الكون المنظور فآمن واهتدى { فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} الأنعام76/ 79.

وحري بمن يعرف ربه حق المعرفة، ألا يشرك به شيئا، إذ المعرفة الحقة تورث الولاء والمحبة والاستغراق في العبادة والطاعة، ولا يشرك بالله إلا الذين عطلوا عقولهم، واتخذوا مما سواه عز وجل أو معه آلهة زيف ومعابيد باطل، تصرفهم عن الهدى إلى الضلالة، فتعْمَى أبصارهم عن تأمل آية الكون المنظور وتعشى بصائرُهم عن استيعاب آيات الوحي المسطور، يحبون من لا يستحق المحبة ويوالون من يقودهم إلى غضب الله وعذابه، قال تعالى: { وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً} والأنداد هي الأمثال والنظراء، مفردها ند، { يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ} يعبدونهم معه ويحبونهم كحبه، وذلك صريح الشرك وأعظمه كما ورد عنه صلى الله عليه وسلم عندما سئل: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ فقال:(أن تجعل لله ندًا وهو خلَقَك).

ولئن كان هؤلاء المشركون يعبدون الأنداد من الجن والإنس، والأحجار والأوثان والرؤساء والحكام والملوك، يحبونهم ويضفون عليهم من صفات الألوهية والربوبية ما لا يقره عقل أو دين، فإن لله تعالى أولياء، عرفوه سبحانه ببديع حكمته وبالغ حجته، وسعة رحمته، وعدالة أحكامه، وعزة سلطانه، وتفرده بالكمال المطلق، فأحبوه أشد الحب صادقين، واهتدوا بنوره راشدين، عبدوه وحده فسعدوا، ووالوه دون سواه فنجوا {وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لِّلّهِ}، إنهم أولياء لربهم عز وجل، شعارهم المحبة، ومحياهم ومماتهم المحبة، يحبون الرسول صلى الله عليه وسلم بحب الله فيتبعونه { قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ } 31 آل عمران، ويحبون المؤمنين في الله، فتقوم بهم أمة الشهادة في الدنيا والآخرة، قال الله تعالى فيما يرويه عنه الرسول صلى الله عليه وسلم: (حَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَوَاصِلِينَ فِيَّ).

أولياء غمرت قلوبهم محبة الله فأحبهم، ودغدغ أفئدتهم الشوقُ إلى موعوده إذ قال: { فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ } المائدة54، وقرع آذانَهم الخوفُ من وعيده إذ قال: {قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} التوبة24، وهم في محبتهم بين خوف

ورجاء وعمل واتقاء، مشفقون خائفون، إلى أن يلقوا ما وعدهم به من المغفرة والثناء والوفاء قال تعالى: { وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ} المؤمنون 61/60،

وإذ يجد أحباب الله ما وعدوا به حقا { وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ} الزمر74/73، يرد المشركون مواردَ الهلاك في الآخرة بما ظلموا، فيعرفون حق المعرفة أن أندادهم هباء، وأن الذي يستحق العبادة والمحبة وحده هو الله تعالى، وأن القوة جميعها له عز وجل وأن عذابهم يومئذ شديد {وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ}، فيعضون أصابع الندم أتباعا ومتبوعين، يتبرأ بعضهم من بعض ويلعن بعضهم بعضا، { إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ }، والتبرؤ هو التخلص والتنصل والتباعد من الشيء، والمراد بالذين اتُبِعوا (المتبوعون) الذين يحلون الحرام ويحرمون الحلال ويأمرون بالفساد من العلماء والحكام وكافة الأنداد. أما المراد بالأتباع فالأشياع والأعوان والخانعون والراضون بتنفيذ الأوامر الضالة وإطاعة أئمة الشرك والكفر والفساد.

لقد رأوا عذاب ربهم وعرفوا مصيرهم فانقطع ما كان بينهم في الدنيا من مودة وولاء، وتقطعت بهم سبل الخلاص وأسبابه {وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ}، ولم يجدوا مفرا من النار، { وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً } عودة إلى الدنيا، { فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّؤُواْ مِنَّا } كي يتبرؤوا من شركهم وأندادهم، ويفردوا الله تعالى بالمحبة والعبادة، قال تعالى: {وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ} السجدة 12، ولكن سنة الله تعالى قضت بعدم العودة إلى الدنيا، وعلمه سبق بأنهم لو ردوا لعادوا لسابق الإثم والمعصية، قال تعالى: { وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} الأنعام 28.

هكذا يكون عذابهم، يريهم الله تعالى ما ارتكبوه من شرك وفساد مجسدا في عواقبه عذابا شديدا ومنعكسا في نفوسهم ندامة وحزنا وحسرة، حتى إذا علموا مقدار جهلهم وجهالتهم ويئسوا من الخلاص أقحموا في النار لا يخرجون منها، قال تعالى: { كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ} يتعاوون في جنباتها يتحاجون فيما بينهم، نادمين على ما فرطوا في جنب الله تعالى: { وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ} غافر50/47.

كلية حلال المطعم وحرامه
في اليسر والعسر

قال الله تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّباً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (168) إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاء وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ (169) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ (170) وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ (171) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُواْ لِلّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (172) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (173) إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (174) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ (175) ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (176)} سورة البقرة

توحيد الخالق عز وجل سر الوجود وركن الحياة الركين، به قامت السماوات والأرض، وعلى أساسه يفرق بين الحق والباطل، والهدى والضلالة، وقد جعل الله له معالم في الكون لا تخفى على بصير، شمسا وقمرا ونجوما وأفلاكا وفي الأنفس، وأرسل النبوات تترى بين الناس تعلمهم حقائقه ومقتضياته، من آدم إلى صاحب الرسالة الخاتمة عليه وعلى سائر الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه.

إلا أن التوحيد ليس مجرد عقيدة في خيال المرء أو عقله أو قلبه، فلابد له من أن يستقر واقعا مرئيا وحالا ملموسا في الحياة، واقعا في تصرفات الإنسان عبادة ومعاملة وعلاقات، مأكلا ومشربا ونظام أسرة واجتماع، لذلك أنزل تعالى الشريعة مصدقة لما وقر في القلب من عقيدة التوحيد وكاشفة لما في النوايا من إخلاص العبودية وصدق الطاعة. والتوحيد والشريعة بذلك وجهان لدين واحد هو الإسلام. وهذا ما يشير إليه سياق آيات الحلقة السابقة في تمهيدها لما نحن بصدده في هذه الحلقة.

فبعد أن بين عز وجل أن مجرد التفكير السوي في الخلق إنسانا وكونا يؤدي إلى التوحيد الخالص، كما هو شأن إبراهيم عليه السلام، وأن تَلَقِّيَ النبوة بقلب سليم ينير الطريق إليه، وأن حريا بمن يعرف ربه ألا يشرك به، لأن المعرفة الحقة تورث الولاء والمحبة والطاعة لمن بيده ملكوت السماوات والأرض، لمن يخلق ويرزق لا معقب لحكمه، أخذ في هذه الآيات

الكريمة يبين أوجه ظهور توحيده تشريعا في أخص خصائص الإنسان وهو طعامه وشرابه الذي به قوام حياته، فقال: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّباً} وأباح لهم بذلك على سبيل الامتنان ما في الأرض حلالا خالصا، طاهرا طيبا في نفسه وفي مفعوله، مستلذا غير مستكره المذاق ولا ضار، ولم يقيد هذه الإباحة المطلقة في المطعومات إلا بشرطين: أن تكون حلالا لا شبهة حرام فيها، وأن تكون طيبة الكسب مستساغة غير ضارة، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: {يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا} المؤمنون 51، وقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ} البقرة 172، ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء: يا رب يا رب، ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام فأنى يستجاب لذلك؟).

وهذا الحلال الطيب في المطعم والمشرب ليس إلا تفريعا من تسخيره عز وجل ما في الأر ض جميعا للإنسان بقوله: { اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} الجاثية 13/12، لذلك كان الأصل أن ما في الأرض مسخر للإنسان بما وضع له الشرع من ضوابط، على تفصيل في الإباحة والحظر { هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا} البقرة 29، وإنما تثبت الحُرْمة بعارضِ نصٍّ من قرآن أو سنة، وما لم يوجد النص كانت الإباحة قائمة، كما في المطعومات وهي على أصل الإباحة إلا ما ورد فيه التحريم، ولا يستثنى من قاعدة أصل الإباحة هذه إلا ثلاثة مواطن الأصل فيها الحظر إلا ما أباحه النص، وهي:

ما يمس بضرورة حفظ النوع والنسل والأعراض والأصل فيه الحُرمة؛ كما في الإضرار بالغير والضرر يزال لأنه حرام أصلا.

وفي الفروج وهي لا تحل إلا بعقد شرعي صحيح، فلا تستباح بالشبهات أو بالضرورة.

وفي الدماء وهي معصومة ولو للضرورة، فلا تستباح بالظن أو المصلحة المرسلة، ولا تهدر إلا في الحدود التي يثبت موجبها خاليا من الشبهة.

ويبقى التسخير قائما فيما ينفع الناس ولا يضرهم، وهو مجال واسع للبحث العلمي، تفكيرا وتحليلا وتركيبا وتجربة وفحصا لجميع الكائنات، مادية أو حيوية، مباحة أو محرمة أو مسكوتا عنها، بغية اكتشاف أوجه تسخيرها لما خلقت له، فيما لا يتعارض مع الشرع.

لذلك قيد الله تعالى الإباحة في قوله { كُلُوا} بوجوب الإعراض عن طاعة الشيطان وأعماله وعدم السير في طريقه أو اتباع خطواته فقال: { وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ}، وهو نظير قوله تعالى: {وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ} النحل116، لأن تشريع الحلال والحرام خاص بالله وحده عز وجل، هو الخالق للطاعم والمطعوم والمالك لهما أولا، ولأن اتباع غير الله شرك صريح

يحبط الأعمال ويركس في الضلالة ثانيا، ولأن الشيطان ثالثا عدو للإنسان { إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ}، عدو مظهر عداوته معلن بها، من فعل "أبان" بمعنى أظهر، وعداوته للإنسان منذ أبى السجود لآدم في الملأ الأعلى لا تخفى على عاقل، يأمر بالشر والفحشاء والمنكر، ويُجَرِّئُ أتباعه على الإفك والزور والافتراء على الله والقول في دينه بما ليس لهم به علم { إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاء وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ}.

وسواء نزلت هذه الآية الكريمة كما ورد بروايات مختلفة، في المشركين من ثقيف وخزاعة وعامر بن صعصعة وبني مدلج لما حرموا على أنفسهم من التمر والأقط[36] والحرث[37] والأنعام[38] والبحيرة[39] والسائبة[40] والوصيلة[41]والحام[42]، أو في بعض من أسلم من اليهود وحرموا على أنفسهم لحم الإبل وقد كان حراماً في ديانتهم السابقة، فإن حكمها فيمن يُحَرِّم ما أباح الله تعالى أو يُبيح ما حرم، عامٌّ في عصر النبوة وفيما يتلوه من أعصر، وهو أن الحلال ما أحله الشرع والحرام ما حرمه الشرع، والكتاب والسنة مرجع ذلك كله. والإعراض عن الأحكام الشرعية ضلال واتباع لخطوات الشيطان وأوليائه، مهما التُمِسَ لتبريره من أعذار، أو مُوِّهَ عليه بسننٍ مزعومةٍ للآباء والأجداد.

---

36 – الأقِطُ والإِقْطُ والأَقْطُ والأُقْطُ يتخذ من اللبن المِخيض يطبخ ثم يترك حتى يَمْثُر والقِطعةُ منه أَقِطةٌ.

37 – كانوا إذا حرثوا حرثًا، أو كانت لهم ثمرة، جعلوا لله منه جزءًا وللوثن جزءًا، فما كان من نصيب الأوثان حفظوه وأحصوه. وإن سقط منه شيء ردوه إلى ما جعلوه للوثن. وإن سقط شيء من الثمرة والحرث الذي جعلوه لله لم يردوه إلى ما جعلوه لله.

38 – كل شيء جعلوه لله من الأنعام يذبحونه، لا يأكلونه أبدا حتى يذكروا معه أسماء الآلهة. وما كان للآلهة لم يذكروا اسم الله معه.

39 – البحيرة هي الناقة إذا نتجت خمسة أبْطُن نظروا إلى الخامس، فإن كان ذكرًا ذبحوه، فأكله الرجال دون النساء. وإن كان أنثى جدعوا آذانها، فقالوا: هذه بحيرة.

40 – السائبة: هي الناقة إذا ولدت عشر إناث من الولد ليس بينهن ذكر، سُيِّبت فلم تركب، ولم يُجَزّ وبرها، ولم يحلب لبنها إلا الضيف. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إني لأعرف أول من سيب السوائب، وأول من غير دين إبراهيم عليه السلام". قالوا: من هو يا رسول الله؟ قال: "عمرو بن لُحَيّ أخو بني كعب، لقد رأيته يجر قُصْبَه في النار، يُؤذي ريحه أهل النار. وإني لأعرف أول من بحر البحائر". قالوا: من هو يا رسول الله؟ قال: "رجل من بني مُدْلِج، كانت له ناقتان، فجدع آذانهما، وحرم ألبانهما، ثم شرب ألبانهما بعد ذلك، فلقد رأيته في النار وهما يعضّانه بأفواههما ويخبطانه بأخفافهما".

41 – الوصيلة هي الشاة إذا نتجت سبعة أبطن نظروا إلى السابع، فإن كان ذكرًا أو أنثى وهو ميت اشترك فيه الرجال دون النساء، وإن كان أنثى استحيوها، وإن كان ذكرًا وأنثى في بطن استحيوهما وقالوا: وصلته أخته فحرمته علينا.

42 – الحام هو الفحل من الإبل، إذا وُلد لولده قالوا: حَمى هذا ظهره، فلا يحملون عليه شيئًا، ولا يجزون له وبرًا، ولا يمنعونه من حمى رعي، ومن حوض يشرب منه، وإن كان الحوض لغير صاحبه.

قال ابن عباس: دَعا رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهودَ من أهل الكتاب إلى الإسلام ورَغَّبهم فيه، وحذرهم عقاب الله ونقمته، فقال له رَافع بن خارجة ومَالك بن عوف: بل نَتبع ما ألفينا عليه آباءنا، فإنهم كانوا أعلم وخيراً منا، فأنزل الله تعالى { وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ....الآية}.

لذلك عقب القرآن إذ نهى عن اتباع خطوات الشيطان بقوله تعالى: { وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا} أي إذا دعوا إلى اتباع أحكام الكتاب والسنة فيما حرما وأحلا، مأكلا ومشربا وتصرفا وعبادة، أعرضوا وأصروا على اتباع ما وجدوا عليه آباءهم من جهالة وضلالة وائتمار بالشيطان. وزاد عز وجل فوبخهم على ما فرطوا في عقولهم وحكمتهم بقوله: { أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ}، أنكر عليهم أن يقلدوا من لا يعقل من الآباء شيئا ولا يهتدي، ونفى بعموم اللفظ عنهم وعن آبائهم مطلق الفهم والهداية، والمقصود نفي خصوص المعرفة للدين والاهتداء إلى الصراط المستقيم.

ثم ضرب لَهُمْ وبِهِمْ مثلا يوقظ العقول النائمة وينبه الأحلام الغافية فقال عز وجل: { وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء} فشبههم في الغي والجهل إذ يدعوهم الداعي للخير فلا يسمعون، وشبَّه أصنامَهم إذ يدعوها أولياؤها فلا تستجيب،وضُلَّالَ آبائهم إذ انْغرسوا في الأرض {هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا} مريم98، بالأنعام السارحة التي ينعِق بها الراعي، أي يدعوها ويوجهها فتسمع صوته ونداءه ولا تفقه قوله أو تفهم قصده، لا تشعر إلا بقارع من عصاه يهشها بها أو حجر يزجرها به، {صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ} أي صُمٌّ عن سماع الحق، بُكْمٌ عن قوله، عُمْيٌ عن رؤية طريقه ومسلكه { فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ } عقولهم معطلة عن الفهم والإدراك، كما قال تعالى: { وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } الأنعام 39.

وفي هذه الآية إشعار بأن عادات الآباء والأجداد ومعتقداتهم لا تثبت بغير شاهد من الدين الحق، كتابا أو سنة، وأن التقليد من أهم هادمات الإسلام، لأن كل إنسان مكلف شرعا بأن يعرف دينه بالطرق التي لا يعذر أحد بجهلها، وما هي إلا الأدلة النقلية من الكتاب والسنة، والعقل الحر تفكرا وتأملا في ملكوت السماوات والأرض.

إن الكتاب والسنة بين أيدينا، والله تعالى زودنا بالعقل رشيدا وبالقلبِ نيِّرا، ولم يجعلنا عالة على غيرنا؛ لذلك حرَّم أن نُعَطِّلَ الطاقة الفكرية التي نفهمُ بها الكتاب والسنة ونتأملُ بها ملكوتَ الرحمن، أو أن نَتَّكِلَ في أمر الدين على تقليد الآخرين مهما كانت مراتبهم العلمية، قال تعالى:

- { إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا} النساء105.

- { وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } البقرة231.
- { أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ } الأعراف 185
- {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ } فصلت 53
- { فَلْيَنْظُرِ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا وَقَضْبًا وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا وَحَدَائِقَ غُلْبًا وَفَاكِهَةً وَأَبًّا } عبس 24-31

إن تقليد الغير في أمر الدين من أخطر ما يعصف بالعقيدة إيمانا وعملا، ولئن التقى المرء مرة بعالم صادق فقلده بما تبين من حججه وأدلته، فإنه يلتقي عشرات المرات بعلماء سوء، ولا يمتنع أن يتأثر بهم فيختل إيمانه ويحبط عمله، ولذلك حُرِّمَ التقليدُ سَدّاً لذريعة الانحراف والضلال.

إن المرء إذا قلد في دينه مِنْ غيرِ تَثَبُّت أو رويةٍ فكأنما طوّق عنقه بحبلِ غيرِهِ وربط مصيرَهُ بمصيره، وفي هذا من المخاطر في الدنيا والآخرة ما لا يخفى على بصير. هذا المعنى يشير إليه الأصل اللغوي لكلمة " تقليد "، وهي مشتقة من لفظ: " قَلَدَ الشيءَ على الشيء " أي: لواه، وقَلَدَ الحبلَ فَتَلَه، والمِقْلَدُ هو الحبل المفتول، والقِلادة ما جُعِلَ في العنق، تكون للكلب والفرس والإنسان، ومن الأمثال: حسبك من القلادة ما أحاط بالعنق. وعلى هذا فالتقليد في الدين أن تربط عنقك بحبل غيرك، أي أن تربط مصيرك في الدنيا والآخرة برأي غيرك. والرسول صلى الله عليه وسلم يقول:(لا تكونوا إمَّعَة، تقولون إن أحسن الناس أحْسَنَّا، وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وَطِّنُوا أنفسَكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا فلا تظلموا). وقد كان عبد الله بن مسعود يقول:" كنا في الجاهلية نَعُدُّ الإمَّعَةَ هو مُتَّبِعُ الناسِ إلى طعامٍ من غير أن يُدعَى، وإن الإمَّعَةَ فيكم اليومَ المحقِبُ الرجالَ دينَه" أي المقلِّد الذي جعل دينه تابعا لدين غيره من غير روية ولا دليل ولا برهان.

وبعد أن امتن عز وجل على الناس جميعا بما أباح لهم من الحلال الطيب بقوله {يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّباً }، ونعى على الكفار غباءَهم وغيابَ فطنتهم وإصرارَهم على الباطل، التفت بغاية اللطف إلى جمهور المؤمنين وقد عهد فيهم السمع والطاعة، فحثَّهم على تناول ما يختارونه من طيبات ما يرزقهم بقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ }، ولم يقيد أمره بشرط الحِلِّيَة وعدمِ اتباع الشيطان كما سبق عند مخاطبته عموم الناس بقوله { حَلاَلاً طَيِّباً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ}، لأنه تعالى يعلم أن المؤمنين لا يُقْدِمون على الحرام، والطيب لا يكون إلا حلالا كما قال عز وجل: { وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ } الأعراف 157، وقال: { يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ} المائدة 4. بل قيد تعالى إباحتَه طيباتِ الرزق للمؤمنين بالشكر، تتويجا وتحقيقا للعبادة التي يمارسونها

فقال: { وَاشْكُرُواْ لِلّهِ }، والشكر هو الاعترافُ للمنعم بفضله وحمدُه عليه، ومعرفة قدر النعمة وصرفها فيما يرضي الله سبحانه، ولا يتم إلا بمعرفته تعالى وتوحيد عبادته خالية من الشرك ظاهرا وخفيا، وهو معنى تقييد الشكر بقوله عز وجل: { إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ } أي: إن كانت عبادتكم خاصة به تعالى خالصة له لا تشركون معه فيها غيره فإنها لا تتم إلا بالشكر لأنه من أجلّ العبادات، قال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ} لقمان12، وقال صلى الله عليه وسلم: (الطَّاعِمُ الشَّاكِرُ مِثْلُ الصَّائِمِ الصَّابِرِ) وقال:(إِنَّ اللَّهَ لَيَرْضَى عَنْ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا).

ثم أخذ في بيان ما يضاد الحلال الطيب من المطعومات الخبيثة المحرمة فقال: { إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ }.

ولئن كان التحريم منصبا على هذه الأعيان، فإن في أسلوبه مجازا بالحذف، تقديره:"حرم عليكم أكل الميتة..."، كما في الآية 82 من سورة يوسف: { وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ } أي أهل القرية، وإن كان بعض أهل الفقه يحرمون مطلق التصرف والانتفاع بها أو بشيء منها لأن التحريم مسند إليها ولا حاجة لتقدير أي حذف مجازي، كما ذهب إليه الجصاص والألوسي وغيرهما.

وتعني الميتة ما مات من الحيوان حتف أنفه من غير قتل، أو قتل بغير ذكاة شرعية، كالمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما عدا عليها السبع، كما فصلته الآية الثالثة من سورة المائدة بقوله تعالى: { حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ[43] وَالْمَوْقُوذَةُ[44] وَالْمُتَرَدِّيَةُ[45] وَالنَّطِيحَةُ[46] وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ[47] إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ }، ويدخل في حكم الميتة أيضا ما قطع من جسم الحيوان الحي لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم:(ما قطع من البهيمة وهي حية فهو ميتة). كما يتفرع عن حكم الميتة حكم الجنين إذا خرج ميتا بعد أن ذبحت أمه، وقد

43 – المنخنقة هي التي ماتت خنقا إما قصدًا أو اتفاقا، بأن تَتَخبل في وثاقتها فتموت به، فهي حرام.

44 – الموقوذة هي المقتولة بالضرب. من: "وَقَذَه يَقِذُه" إذا ضربه بشدة.

45 – المتردية هي التي تقع من شاهق أو موضع عال كجبل، أو في بئر، فتموت بذلك. والتردى هو السقوط، مأخوذ من الردى وهو الهلاك، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعدي بن حاتم: (إذا تردت رميتك من جبل فوقعت فى ماء فلا تأكل فإنك لا تدرى أسهمك قتلها أم الماء).

46 – النطيحة هي التي ماتت بسبب نطح غيرها لها، فهي حرام وإن جرحها القرن وخرج منها الدم ولو من مذبحها.

47 – ما هاجمها حيوان مفترس كأسد أو فهد أو نمر أو ذئب أو كلب أو غيره، فأكل بعضها فماتت بذلك، فهي حرام.

اختلف الفقهاء في أكله مباحا أم غير مباح، فحرم أكله أبو حنيفة، ومالك ما لم تتم خلقته وينبت شعره، وأباح غيرهم أكله على اعتبار أن ذكاته بذكاة أمه.

ولئن استثنى جمهور الفقهاء من الحكم ميتتي البحر والجراد فأحلوهما بقوله صلى الله عليه وسلم: (أحلت لنا ميتتان الحوت والجراد) وقوله في البحر: (الحل ميتته الطهور ماؤه)، ولما رواه مسلم عن عبد الله بن أبي أوفى قال: (غَزَوْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ سَبْعَ غَزَوَاتٍ نَأْكُلُ الْجَرَادَ)، فإن المالكية حرموا ميتة الجراد لأنه لم يصح فيه عندهم شيء، والأحناف حرموا الطافي من ميتة السمك، وأباحوا ما جزر عنه البحر. وعندي أن ثبوت أحكام إباحة ميتة البحر والجراد كلها معلقة بخلوها من الضرر لما شاع في عصرنا هذا من تسمم للأسماك في بعض الأنهار والبحار بنفايات المعامل والمصانع والمختبرات، وقتل للجراد بالمبيدات السامة حماية للمحاصيل الزراعية، فيكون التحريم دفعا للضرر بنصوص شرعية أخرى.

أما الدم وكانت العرب تأكله بعد أن تحشو به أمعاء الشاة وتشويها، فالمحرم منه هو السائل الجاري المهراق من البهيمة بعد ذبحها، أي المسفوح بالتعبير القرآني في قوله تعالى: { قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ.. } المائدة145. أما الدم المتبقي في أجزاء لحم البهيمة بعد تذكيتها فمعفو عنه لعموم البلوى به. وقد استثنت السنة النبوية من التحريم الكبد والطحال لكونهما في الأصل دما، بقوله صلى الله عليه وسلم: (أحلت لنا ميتتان و دمان فأما الميتتان فالحوت والجراد، وأما الدمان فالكبد و الطحال)

والمقصود من تحريم لحم الخنزيرِ الخنزيرُ كله، من باب التعبير بالجزء عن الكل، سواء ذُكِّيَ أو مات حتف أنفه، حرام لحمه وشحمه وجلده وأظلافه والانتفاع بأجزائه، وحرام بيعه وشراؤه وثمنه. وكذلك الانتفاع بالميتة مطلقا، كلا أو جزءا، على اختلاف مفصل في كتب الفقه. ففي صحيح البخاري عن جابر بن عبد الله أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عام الفتح وهو بمكة: (إِنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ حَرَّمَ بَيْعَ الْخَمْرِ وَالْمَيْتَةِ وَالْخِنْزِيرِ وَالْأَصْنَامِ، فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ شُحُومَ الْمَيْتَةِ فَإِنَّهَا يُطْلَى بِهَا السُّفُنُ وَيُدْهَنُ بِهَا الْجُلُودُ وَيَسْتَصْبِحُ بِهَا النَّاسُ؟ فَقَالَ: لَا هُوَ حَرَامٌ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَ ذَلِكَ:(قَاتَلَ اللَّهُ الْيَهُودَ، إِنَّ اللَّهَ لَمَّا حَرَّمَ شُحُومَهَا جَمَلُوهُ ثُمَّ بَاعُوهُ فَأَكَلُوا ثَمَنَهُ). كما يلحق بالخنزير في التحريم أيضا كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير لما رواه ابن عباس قال:(نَهَى رَسُولُ اللهِ عَنْ كُلِّ ذِي نَابٍ مِنَ السِّبَاعِ. وَعَنْ كُلِّ ذِي مِخْلَبٍ مِنَ الطَّيْرِ).

أما قوله تعالى: { وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ } فالإهلال لغة هو رفع الصوت عند رؤية الهلال، استعير لما يرفع به الصوت عند الذبح، إن بذكر الله أوبذكر غيره، وما أهل به لغير الله هو ما يذبح للأصنام والأنداد والأضرحة ومبتدعات العادات المحرمة، أُهِلَّ بذلك لهذه الأنداد لفظا صريحا أو نية دون لفظ، أو ذبح بغير نية أو إهلال مطلقا كما يفعل العلمانيون واللادينيون، قال صلى الله عليه وسلم: (لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ) أي ولو كان الذبح خلوا من ذكر الله وذكر غير الله، وقال تعالى: { وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ

أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ} الأنعام 121، كل ذلك حرام على رغم ما أفتى به مخالفةً لصريح القرآن والسنة بعض علماء القصور للأمراء والأغنياء والوجهاء في سياحاتهم المترفة ببلاد غير المسلمين، من جواز أكله إذا سمي الله تعالى عند تناوله.

والذي يظهر من الآية كذلك تحريم كل ما لا يقبله الله تعالى من الذبائح، فيندرج فيه أيضا احتياطا تحريم ما يذبحه المسلم للتفاخر والتباهي و ما كان كسبه من حرام. وما يذبحه غير المسلمين من أهل الكتاب لأعيادهم، وقد سئلت عائشة عن أكل ما يذبحه الأعاجم لأعيادهم ويهدون للمسلمين فقالت:" لا تأكلوه وكلوا من أشجارهم ". والأصل في ذلك أن تغلب جهة الحظر في كل ما اجتمع فيه معنيان أحدها حاظر والآخر مبيح، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: (الحلال بَيّن والحرام بَيّن وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس فمن اتقى الشبهاب استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ألا وإن لكل ملك حمى ألا وإن حمى الله محارمه ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب)، وقال:(الحلال بين و الحرام بَيِّنٌ فدَعْ ما يَرِيبُك إلى ما لا يريبك).

إلا أن المكلف قد تَعْرِض له حالات اضطرار بالجوع الشديد الذي قد يتلف الصحة أو الحياة، فيكون ذلك مسوغا لتخلف حكم العزيمة الذي هو التحريم وقيام حكم آخر هو الرخصة في أكل المحرم وهو ما عقب به تعالى على المطعومات المحرمة بقوله: { فَمَنِ اضْطُرَّ} إلى تناول شيء من هذه المحرمات لجوع شديد {غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ} حالة كونه غير باغ أي متحرزا من البغي الذي تلجئ إليه الضرورة بعض ذوي النفوس الضعيفة، وغير طالب للمحرم التذاذا وهو يجد غيره، وغير معتد بتجاوز لحد الرخصة أو انتزاع من مضطر آخر استئثارا وعدوانا، {فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ} فقد رفع عنه إثم أكل المحرم، وله أن يأكل منه ما يغنيه لحظته عن الجوع، وإن خاف ألا يتفق له وجدانه مرة أخرى كمن كان في مجهل من الأرض فله أن يتزود منه، على أن يطرحه حال الاستغناء عنه بالحلال. والأكل في هذه الحالات ينتقل من حكم الرخصة إلى حكم الوجوب إن خيف هلاك النفس، ومن الفقهاء من رأى أن من اضطُرَّ فلم يأكل ولم يشرب، ثم مات دخل النار، بهذا يتجلى واسع لطفه تعالى ورحمته لاسيما وقد عقب على ذلك بقوله: {إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ }، ولا عجب أنه عز وجل وقد اتصف بهذين الوصفين العظيمين أنزل إلى الناس شريعة لا حرج فيها ولا أصر ولا أغلال، وقال: { وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ} الحج 78، وقال رسوله صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي الخَطَأَ والنِّسيانَ وما استُكْرِهُوا عليهِ).

ولئن كان بعض ضعاف النفوس وصغار الهمم والمنافقين من أتباع الرسل عليهم الصلاة والسلام يستثقلون الأحكام الشرعية المنزلة في الكتب السماوية، لما تحرمه عليهم من دنيء الشهوات وتوافه اللهو وأدوات العبث، أو من المفاسد الخبيثة والمعاملات المنحرفة، وأوجه الانتفاع بالمكاسب المستقذرة، أو غير ذلك مما يعدونه فوائد وأرباحا، فإنهم كانوا يلجؤون في أغلب الأحيان إلى علماء من طينتهم، يفتونهم بما ترتضيه أهواؤهم. ولَمَّا كان هذا الصنف من العلماء نقطة

الضعف في عملية المحافظة على الشرائع وتبليغها، وكانت آيات تحريم بعض المطعومات تتضمن ما يعده أهل الأهواء خسارات مادية أكلا وانتفاعا ومتاجرة، فقد أعاد رب العزة تحذير المسلمين من السقوط فيما ارتكبه قبلهم علماء أهل الكتاب إذ كتموا ما كان في كتبهم من أحكام شرعية لووا أعناقها استكثارا ومتاجرة، و أخفوا صفات النبوة الخاتمة التي بشر بها التوراة والإنجيل حسدا وغيظا، فقال: { إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ}. وفي الآية تحذير شديد من كتمان أحكام الدين في الكتاب والسنة، وتوعُّد لمن يفعل ذلك من علماء المسلمين بعاقبة علماء السوء من أهل الكتاب إذ كتموا {مَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ الْكِتَابِ} واشتروا بآيات الله وأحكام شريعته رُشىً ومكاسبَ محرمةً، عاقبتها إعراض الله عنهم، وحرمانه لهم من التزكية والتطهير والمغفرة { وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } في جهنم كما قال تعالى: { إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوه} الكهف29.

هذا مصير الذين يبدلون نعمة الله وهديه كفرا، ويكتمون شهادة الحق تحريفا وإخفاء وسوء تأويل وتوظيف، ويؤثرون الضلالة على الهدى في الدنيا، والعذاب على المغفرة في الآخرة {أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ}، أَعْجِبْ بجراءتهم على النار، وإصرارهم على التلبس بموجباتها، وصبرهم على تَرَقُّب التقحم فيها { فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ}، وكتاب الله الذي بين أيديهم نزل بالحق، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، هو الحجة عليهم وميزان قياس أعمالهم {ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ}، وهم في تفسير معانيه وتبليغها مختلفون، وعلى مكاسب تأويلها بالباطل متشاكسون، ومن أجل التقرب بها لأهل الدنيا في شقاق وعداوة ونزاع شديد متنافسون {وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ}.

وفي عصرنا هذا وقد طغى المال بآل بترول فأبطرهم، وطغى الشره والجشع ببعض العلماء فأعماهم، وطغى الفقر بالسواد الأعظم من العامة ففتنهم، فإن كل فئة صارت فتنة للأخرى، يحتاج الأغنياء إلى التوسع في الحرام فيفتيهم علماء السوء باصطياد شُبَهِ الشيطان وحِيَلِ بني إسرائيل، ويتشوف الفقراء للثراء فيستحلون لكسبه ما اجترحه الأغنياء وأباحه فسقة العلماء، ورأينا بذلك رواجا للخبائث مطعما ومنكحا ومكسبا في مجتمع حباه الله تعالى بخير عقيدة وخير شريعة، وذلا وخزيا تتجرعهما أمة كانت خير أمة أخرجت للناس فأصبح حكامها ونخبتها وأولو الأمر فيها عبيدا لكل أعدائها، وعامتها خدما ووسطاء في أقذر ما عرفته البشرية من أعمال. أما الطائفة الصالحة المصلحة فأفرادها ما بين عمود مشنقة وغيابات جب ومتاهات منفى، وقد تألب عليهم الطغاة من الحكام والأثرياء، والفسقة من العلماء، والمفتونون من الغوغاء، فلم تفل عزيمتهم ولم تهن إرادتهم، ينتظرون أحد الوعدين من ربهم نصرا وتمكينا أو جنةً عرضها السماوات والأرض، وعد الله الذي لا يخلف { وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا } النساء122.

البر كلية الأعمال وزاد المؤمن للحال والمآل

قال الله تعالى: { لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (177) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَى بِالأُنثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاء إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (178) وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَاْ أُولِيْ الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (179) كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ (180) فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (181) فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفاً أَوْ إِثْماً فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (182) } سورة البقرة

يقول تعالى { وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ } القمر17، أي سهلنا قراءته وقربنا معناه لمن طلبه، وحرص على تعلمه ومعرفة أحكامه والعمل بتعاليمه وعدم نسيانها، والقرآن الكريم بذلك كلية كليات الدين ومرقاة الواصلين إلى عليين، ومعه تبعا له سنة النبي صلى الله عليه وسلم مبينة وشارحة ومفصلة.

لذلك جعل رب العزة للأحكام الشرعية في القرآن منهجا واضحا جليا مبنيا على أصل الفطرة استجابة وتلقيا واستيعابا وتذكرا للحق، ونسقا نضيدا في محامد كليةٍ عصية على النسيان لدى ذوي الإيمان والإحسان، ومَذَامَّ مجملةٍ تقرع الأفئدة والآذان لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، وأردف هذه المحامد والمذامَّ بمفصلاتها وحكمة الأمر فيها والنهي لمن رغب في زيادة التقوى والوعي، ثم وضع لها ألفاظا نقلت إليها، فانبعثت بها المعاني واضحة جلية ترتاح لها الفطر السوية والنفوس الطيبة، وأشرق بها الأسلوب القرآني إعجازا باهرا ورونقا شيقا، وطلاوة تصل القلوب الطاهرة بعالم الغيب، وتستنقذها من وحل الشك والريب، وتُحِلُّها رياضَ اليقين، وتربط عليها وتثبتها على صراطه المستقيم.

بهذا المنهج الرباني في التربية والتعليم والتذكير انتظمت في القرآن الكريم والسنة المطهرة أمور الأمة الشاهدة، وجرت حياتها في خاصة القضايا وعامتها على مسلك الاستقامة، وحسن التصرف ورشيد السياسة.

وفي هذا القسم من سورة البقرة، يستمر نفس النهج بناء للأمة الإسلامية عقيدة وشريعة وأحكاما وأخلاقا، بتقرير كليات الدين متبوعة بمفصلاتها وجزئياتها ومجالات الاستقراء والاستنباط منها ومعالم إنزالها على الواقع البشري باختلاف المكان والزمان وتعاقب الأجيال.

فبعد أن أجمل تعالى أساس الدين في كلية لا غنى للمؤمن عنها، هي الطاعة المطلقة للرسول صلى الله عليه وسلم بقوله: { وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللّهُ} البقرة 143، أردفها بما تؤدي إليه الطاعة من ضرورة حفظ الدين وأهله وأرضه بكلية أخرى هي فريضة الجهاد وما تستلزمه من سنن التكافل الاجتماعي وإعداد القوة وضروب المدافعة النفسية والمادية، والصبر على لأواء البأس والمحنة والبلاء والشوق إلى الحياة الحقيقية فقال: { وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبيلِ اللّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاء وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ } البقرة 154؛ وبين للمؤمن عمادا متينا بكلية شاملة حاكمة من الإيمان والتوحيد، هي قوام الأمر كله في الدنيا والآخرة فقال: { وَإِلَـهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ } البقرة 163؛ ونظاما لخير معاش الناس وصلاح أجسادهم بكلية أحكام الحلال والحرام فقال: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ } البقرة 168.

وبعد أن تَضَامَّتْ هذه الكليات الأربع حفظا للوحدة بالطاعة، وتقوية للنفوس والأرواح بالإيمان، وحماية للأمة بالجهاد، وللأجساد بالحلال الطيب، استمر القرآن الكريم على نفس النهج، فقدم لنا كلية أخرى من كليات الدين في آية واحدة عظيمة شديدة الوضوح والإيجاز تنتظم التصور الإيماني الحق وأحكام العبادة وقواعد السلوك الإنساني الرفيع، وأهدى للأمة الإسلامية حياةً راقية من القيم والمبادئ وحسن العلاقات، تميزها عن غيرها مما على الأرض أناسي وكائنات، حياة مبنية على قاعدة البر وكليته، بمفصلاتٍ وجزئيات منبثقة منه وتابعة له، تسع كل نشاط مادي أو روحي، فردي أو جماعي، وذلك بقوله تعالى: { لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ

وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ }.

والبر لغة وشرعا هو حسنُ الصلة مع الله والناس وسائر الخلق، ولا صلةَ خيرٌ مِن جَعْل توجيهات الكتاب والسنة دليلا ومرشدا ونبراسا، يشمل برَّ المعتقد إيمانا واحتسابا، وبرَّ العبادة صلاة وصوما ونسكا، وبرَّ المعاملة صدقا وخلقا رفيعا وإحسانا، ومن ثم يتسع معناه لكل خير وصلاح، أصل الكلمة كما قال الراغب في مفردات القرآن من " البَرّ " بفتح الباء، خلاف البحر، وتُصُوِّر منه التوسع فاشتق منه البِرّ، أي التوسع في فعل الخير، وينسب ذلك إلى الله تعالى تارة نحو قوله تعالى { إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ } الطور28، أي العظيم واسع الرحمة صادق الوعد جزيل العطاء، وإلى العبد تارة فيقال: بَرَّ العبدُ ربَّه، أي: توسع في طاعته، فمن الله تعالى سعة الإحسان وجزيل الثواب، ومن العبد الطاعة، والمراد به أساسا طاعة الله عز وجل وامتثال أمره في دقيق العمل وجليله. ويقابله ويضاده الإثم والفجور كما في قوله صلى الله عليه وسلم لوابصة بن معبد وقد جاءه يسأل عن البر: (البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر وإن أفتاك الناس وأفتوك)، وقوله للنواس بن سمعان وقد سأله عن البر والإثم: (البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في نفسك، وكرهت أن يطلع عليه الناس)، وقوله عليه الصلاة والسلام: (إن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا)، وقول أبي بكر رضي الله عنه: (عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ فَإِنَّهُ مَعَ الْبِرِّ وَهُمَا فِي الْجَنَّةِ، وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ فَإِنَّهُ مَعَ الْفُجُورِ وَهُمَا فِي النَّارِ)، وعن أبي ذر رضي الله عنه، أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإيمان فتلا هذه الآية: { لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ} حتى فرغ من الآية، قال ثم سأله أيضا فتلاها، ثم سأله أيضا فتلاها، ثم سأله فقال:(وإذا عملت حسنة أحبها قلبك، وإذا عملت سيئة أبغضها قلبك).

وسواء نزلت الآية حسما للغط الذي أثاره أهل الكتاب حول تحويل القبلة من الصخرة في بيت المقدس إلى بيت الله الحرام في مكة بادعاء كل طائفة حصر البر على قبلتها، أو جوابا لأسئلة من الصحابة رضي الله عنهم عن البر حرصا على معرفة دينهم، أو تصحيحا لما ذهب إليه بعض المسلمين حين تحولت القبلة ونزلت الفرائض والحدود في المدينة من أن الصلاة بدون عمل كافية لدخول الجنة، فإن الآية بعمومها نَهْيٌ للمسلمين عن أن يتعلقوا من شريعتهم بالقليل كما تعلق أهل الكتاب بالتوجه في الصلاة إلى المشرق والمغرب وتخلوا عن بقية أعمال البر، وأَمْرٌ لهم بأن يعملوا بجميع تكاليف الشريعة التي أتى بها القرآن والسنة، وأن تكون صلتهم بربهم وبجميع الخلق نابعة من مبادئ العدل والإحسان، ذلك هو البر الحق وليس كما يزعمون، البر تصور إيماني يطهر الضمائر ويزكيها، وعبادة صادقة تقرب النفوس من بارئها، وأعمال

صالحة ترفع شأن الأمة أفرادا وجماعة، وحسن صلة تنظم الحياة وتؤاخي بين المؤمنين وتجعلهم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا.

لقد أنكر القرآن الكريم الاقتصار في أعمال البر على الصلاة وحدها بالنسبة للمسلمين، كما أنكر التوجه لإحدى الجهات الأربع في صلاة بغير إيمان صحيح بالنسبة لغيرهم من المشركين وأهل الكتاب، فقال: { لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ}، ولم يذكر الجهات الأخرى اكتفاء بذكر المشرق والمغرب على طريق التمثيل لا التقييد، ثم استدرك ببيان أوجه البر الأخرى متتابعة يأخذ بعضها بيد بعض فقال:

- {وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ} بدأ بالإيمان بالله لأنه رأس الأمر كله، فمن لم يؤمن بالله حبط عمله وخسر نفسَه، ولا يكون على وجهه الصحيح إلا بتنزيهه عز وجل عن كل شائبة ونقص، ووصفه بكل صفات الكمال، وتوحيد ربوبيته بأفعاله خلقا ورزقا وإحياء وإماتة وغير ذلك، وتوحيد ألوهيته وإفراده بالعبادة صلاة وصوما وحجا وزكاة ونذرا وذبحا ونحو ذلك، وتوحيد أسمائه وصفاته فلا يوصف أو يسمى إلا بما وصف به أو سمى به نفسه، أو وصفه وسماه به رسوله صلى الله عليه وسلم، من غير تشبيه أو تمثيل أو تحريف أو تعطيل، وبدون نواقض من شرك خفي أو ظاهر، سواء بما لدى بعض المسلمين مما ابتدعوه في التصور والاعتقاد والنوايا والعبادة والنسك، أو لدى أهل الكتاب إذ يزعمون لله الولد {وَيَقُولُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} آل عمران75.
- { وَالْيَوْمِ الآخِرِ} ثنى به على الإيمان بالله تعالى، وهو الإيمان بأن الله يعيد الميت ويحاسبه ويجزيه على أعماله, وبذلك رسمت خارطة المسيرة الإنسانية وعاقبة أمرها، واتضحت في الأذهان مخاطر الطريق ومكامن الضلال ومراشد التقوى ومعابر النجاة؛ إذ الإيمان به تعالى هو المبدأ في أعمال القلوب والجوارح، واليوم الآخر هو المنتهى، به يحصل العلم بأحكام المعاد والثواب والعقاب والجنة والنار.
- { وَالْمَلآئِكَةِ } ومنهم المكلفون بإبلاغ الوحي إلى الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، من لم يؤمن بهم جميعا وفق ما جاء به الكتاب والسنة فقد أنكر الوحي، وإنكار الوحي إنكار للنبوة واليوم الآخر.
- { وَالْكِتَابِ } اسم جنس للكتب المنزلة من الله تعالى إلى الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، والمقصود القرآن الكريم لأنه أمين على ما تقدمه من كتب، وناسخ لأحكامها، والإيمان بجميع الكتب المنزلة واجب على الجملة، أما الأحكام الشرعية فمصدرها الوحيد القرآن والسنة، قال تعالى: { إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ } النساء105.
- { وَالنَّبِيِّينَ } وبهم تتكامل ثلاثية تبليغ الرسالة، كلام الله تعالى في كتبه، ونقلة الوحي من الملائكة، والأنبياء والرسل الموحى إليهم، ولا يتم إيمان امرئ إلا إذا صدق برسل الله بالوحي من الملائكة، وبرسله إلى عامة البشر من الأنبياء، قال تعالى: { وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا } النساء 136. وهو

ما بينه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله عندما سئل عن الإيمان فقال: (أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ)، ولئن لم تذكر الآية الكريمة الإيمان بالقدر فلأنه مبثوث في سياقات كثيرة أخرى من القرآن الكريم، وهو من مستلزمات الإيمان بالله تعالى وتوابعه.

- ثم بعد أن بين تعالى أصناف البر قلوبا وعقولا ونوايا، أخذ في بيان أعمال البر من الجوارح بناء على أن العمل ترجمان ما وقر في النفوس وتشخيص له، بدأ بأحب ما لدى البشر من الدنيا وهو المال فقال: { وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ } أي أنفق في سبيل الله من ماله والقلب معلق به، كما قال تعالى: {وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا } الإنسان8، وقال: { وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا } الفجر20، وقال: { زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ } آل عمران14، وعندما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم:" يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ الصَّدَقَةِ أَعْظَمُ أَجْرًا؟" قال: (أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ تَخْشَى الْفَقْرَ وَتَأْمُلُ الْغِنَى وَلَا تُمْهِلُ حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ قُلْتَ لِفُلَانٍ كَذَا وَلِفُلَانٍ كَذَا وَقَدْ كَانَ لِفُلَانٍ)، ولئن اختلف بعض الفقهاء في حكم الإنفاق بالتصدق على المحتاجين مما سوى الزكاة، فإن الأحاديث الصحيحة المروية عن النبي صلى الله عليه وسلم قد حسمت الخلاف إذ أعلنت بوضوح تام أن هذا الصنف من الإنفاق واجب وجوبا عينيا على الغني تتوقف التقوى عليه كما في آخر الآية من قوله تعالى { وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ}، وأنه كاشف لحقيقة الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر، قال صلى الله عليه وسلم: (ما آمن بي من بات شبعانا وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم) وقال: (ليس المؤمن الذي يشبع وجاره جائع إلى جنبه)، وقال تعالى: {قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} التوبة 24

ثم بين عز وجل تباعا مصارف هذا المال وهم من:

- { ذَوِي الْقُرْبَى} لأن الأقارب أولى الناس ببر المرء وصدقته، قال صلى الله عليه وسلم: (صدقتك على المسكين صدقة، وهي على ذي الرحم ثنتان، صدقة وصِلة)، وقال أيضا: (أفضل الصدقة على ذي الرحم الكاشح)، والكشح ما بين الخاصرة إلى الضلع، والكاشح المبغض للمنفق، كأنه يطوي العداوة له في كشحه.
- { وَالْيَتَامَى } وهم الصغار الذين لم يبلغوا سن البلوغ ممن مات آباؤهم ولا كاسب لهم، قال صلى الله عليه وسلم: (لَا يُتْمَ بَعْدَ احْتِلَامٍ) أي بعد بلوغ.
- { وَالْمَسَاكِينَ } والمسكين هو الفقير المحتاج المتعفف عن السؤال، قال تعالى: { يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا} البقرة 273، أخذ لفظ "المسكين"من السكون والاستكانة، وهما مما يتصف به الفقراء عادة، ولا عبرة بما اختلف فيه أهل اللغة أو بعض الفقهاء من تمييز لفظي بين الفقير والمسكين.

- { وَابْنَ السَّبِيلِ } وهو المسافر الذي انقطع عن أهله، والمهاجر في سبيل الله أو لظلم لحق به وفرض عليه الهجرة، قال تعالى: { وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ } النور 22.
- { وَالسَّآئِلِينَ } الفقراء الذين يسألون الناس حاجتهم.
- { وَفِي الرِّقَابِ } أي في فك الرقاب من العبودة والأسر، وعتق المطلوبين للظالمين من مخاطر الإذلال والقتل والاغتيال.

ثم عطف على أعمال البر هذه بركنين من أركان الإسلام وهما الصلاة والزكاة في إشارة إلى الأركان الأخرى من حديث جبريل، فقال:

- { وَأَقَامَ الصَّلاَةَ } صلاة الفريضة والنفل بشروطها وما تنهى عنه من فحشاء ومنكر.
- {وَآتَى الزَّكَاةَ } وهي ركن الإسلام المكمل للإنفاق الواجب على الأغنياء للفقراء، قال تعالى: { إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} التوبة60.

وكأنما هذه التكاليف الشاقة بعيدة المنال عن الضعاف من الرجال، لذلك أورد بعدها تعالى صفتين من الصفات التي لا يكون بر بدونهما، ولا يطيقهما سفلة القوم وأراذلهم،الأولى منهما بقوله عز وجل:

- {وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ} والعهد الملزم ما كان بين المرء وربه عز وجل من إقامة الدين، وبينه وبين الخلق فيما جاز له التعهد به، والنفوس الخبيثة عادة خائنة لعهودها مع الله ومع الناس. لأن الوفاء شيمة الأحرار، ومعدن الشهامة والكرامة لدى الأبرار، ومنبت حصافة الرأي والحزم وحسن التدبير عند العقلاء ذوي الأبصار. وما كل من عاهد وفى، أو وعد أنجز، أو اؤتمن أدى.
- والصفة الثانية بقوله تعالى: {وَالصَّابِرِينَ} جاء لفظ" الصابرين" منصوبا على المدح بتقدير:" أخص أو أمدح الصابرين"، وهو معطوف في المعنى على { مَنْ آمَنَ } في قوله تعالى: { وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ..) أي: البِرُّ هو بِرُّ مَنْ آمن وبِرُّ الصابرين المجاهدين، { فِي الْبَأْسَاء} أي: الصابرين على أداء الطاعات قياما بالواجبات وكفا عن المحرمات في حالات الفقر والبؤس، { والضَّرَّاء} وحالات محن الابتلاء وآلام الفتن، { وَحِينَ الْبَأْسِ} وأثناء قتال العدو والجهاد في سبيل الله. قال تعالى: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ} البقرة 214.

ثم ختمت الآية بأكرم حكم على الأبرار ممن اجتمعت فيهم هذه الخصال، فشهد لهم رب العزة بالصدق والتقوى وقال: { أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ}، وبلغوا بهذه الشهادة من الله تعالى لهم، غاية ما يطمح إليه ذوو النفوس الأبية، والأفئدة السليمة، والفطر السوية.

وبعد أن بين رب العزة أوجه بر الأفراد في المجتمع الإسلامي عقيدة وعبادة وخلقا حميدا، شرع في بيان أوجه أخرى من البر، هي وجوهه في المجتمع تناصفا وتعافيا، وبدأ بما يصون الأمن والسلم بين الناس، فقال: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى}. وهو منه تعالى نداء إلى المؤمنين يرشدهم فيه إلى وجه آخر من أوجه البر التي يكف بها الظلم والعدوان، وتحفظ بها الدماء والأعراض والأموال، ويسود الأمن والتصافي والتعافي والتسامح والوحدة، وقد شرع لهم القصاص في جرائم القتل العمد بقوله عز وجل: { كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ } أي فرض، ولفظ { الْقِصَاصُ }، اشتق من القص، وهو تتبع الأثر، من قولك قصصت أثره إذا تتبعته، قال تعالى: { وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ } القصص11 أي اتبعي أثره، والقصص: الأثر، قال تعالى: {فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا} الكهف64، والقصاص لغة أن يفعل بالإنسان مثل ما فعل بغيره، من قولك: اقتص فلان أثر فلان إذا فعل مثل فعله، أما شرعا فهو قتل القاتل بالقتيل، وأن يفعل بالمعتدي مثل ما فعل بغيره، قال تعالى: { وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ} المائدة 45، وهو أيضا " القَوَد " من أقاد السلطان القاتل بالقتيل أي قتله به، وفي الحديث الصحيح: (من قَتَلَ عَمْداً فهو قَوَدٌ) أي قصاص.

أما الهدف الذي سيقت له الآية الكريمة فهو حماية الحق في الحياة، وكف العدوان على الدماء وقد كان شائعا في الجاهلية بحدة، واستمر في صدر الإسلام، كما في جميع المجتمعات البشرية عبر الحقب والأجيال، على تفاوت في نسبة حدوثه بين مجتمع وآخر. وأما سبب النزول فكان احتكام حيين من العرب حدث بينهما قتل وجراحات في الجاهلية إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان لأحدهما طَوْل على الآخر فأقسموا لنقتلن الحر منكم بالعبد، والذكر بالأنثى، فنزلت هذه الآية، لتكريس مبدأ المساواة وإبطال ما اعتاده المجتمع الجاهلي من استئساد القبائل القوية إذا قتل أحد أفرادها من قبل قبيلة ضعيفة فلم ترض حتى تقتل في مقابله أشخاصاً. وإذا قتل منها عبد تقتل في مقابله حراً أو أحراراً، وإذا قتلت منها أنثى قتلت في نظيرها رجلا أو أكثر، وهو ما كان سببا في سفك الدماء وانتشار الحروب والغارات، وما حرب البسوس التي دامت أربعين سنة بخفية[48].

48 – ذلك أن كليبا رمى ناقة لبني شيبان فاختل ضرعها فولت حتى بركت بفناء صاحبها وضرعها يشخب دما ولبناً، فلما خرجت جارية البسوس ونظرت إلى الناقة ضربت يدها على رأسها ونادت: وا ذلاه. فلما سمع جساس قولها سكنها وقال: أيتها المرأة ليقتلن غداً جمل هو أعظم عقراً من ناقة جارك. ولم يزل جساس يتوقع غرة كليب حتى خرج كليب لا يخاف شيئاً، وكان إذا

قال الإمام الرازي في سبب نزول هذا الحكم:" ذلك لأن اليهود كانوا يوجبون القتل فقط، والنصارى كانوا يوجبون العفو فقط، وأما العرب فتارة كانوا يوجبون القتل، وأخرى يوجبون الدية لكنهم كانوا يظهرون التعدي في كل واحد من هذين الحكمين، أما في القتل فلأنه إذا وقع القتل بين قبيلتين إحداهما أشرف من الأخرى، فالأشراف كانوا يقولون: لنقتلن بالعبد منا الحر منهم، وبالمرأة منا الرجل منهم، وبالرجل منا الرجلين منهم، وكانوا يجعلون جراحاتهم ضعف جراحات خصومهم، وربما زادوا على ذلك على ما يروى أن واحداً قتل إنساناً من الأشراف، فاجتمع أقارب القاتل عند والد المقتول، وقالوا: ماذا تريد؟ فقال إحدى ثلاث قالوا: وما هي؟ قال: إما تحيون ولدي، أو تملأون داري من نجوم السماء، أو تدفعون إليَّ جملةَ قومكم حتى أقتلهم، ثم لا أرى أني أخذت عوضاً. وأما الظلم في أمر الدية فهو أنهم ربما جعلوا دية الشريف أضعاف دية الرجل الخسيس، فلما بعث الله تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم أوجب رعاية العدل وسوى بين عباده في حكم القصاص وأنزل هذه الآية". وهو ما يشير إليه قوله تعالى: { الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَى بِالأُنثَى} أي أن القصاص ينال الفاعل وحده دون غيره.

وقد يفهم من هذه الآية أنه لا يقتل صنف إلا بمثله، إلا أن هذا غير مراد بها، لأن أسلوبها كان مجرد رد وإنكار على طغاة بعض القبائل العربية إذ يقتلون بقتيلهم غير قاتله عددا وصنفا كما روي في سبب النزول، أما الحكم الشرعي فقد تقرر في صدر الآية عاما بقوله تعالى: { كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى}، وهي تعني أن الله أوجب قتل القاتل حرا كان أو عبدا مسلما أو ذميا ذكرا أو أنثى، كما هو المعنى أيضا في قوله تعالى: { وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنْفَ بِالأَنْفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ} المائدة45، وقوله: { وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا} الإسراء33، وشرحته السنة النبوية القولية والعملية تأكيدا للمساواة في حرمة الدماء مطلقا بقوله صلى الله عليه وسلم:(المسلمون تتكافأ دماؤهم، يسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم) وفي عدد من حوادث القتل العمد، قال صلى الله عليه وسلم: (مَنْ قَتَلَ عَبْدَهُ قَتَلْنَاهُ وَمَنْ جَدَعَهُ جَدَعْنَاهُ وَمَنْ أَخْصَاهُ أَخْصَيْنَاه)، وقال عندما قتل مسلما بمعاهد: (أنا أكرم من وفى بذمته)، وحرمة سفك الدماء بمجموع هذه النصوص ثابتة، عقوبتها القصاص، أن يقتل الحر القاتل عمدا مهما علا قدره، ويقتل بالقتيل حرا أو عبدا

خرج تباعد عن الحي، فبلغ جساساً خروجه، فخرج على فرسه وأخذ رمحه وتبعه عمرو بن الحرث فلم يدركه حتى طعن كليباً ودق صلبه، ثم وقف عليه فقال: يا جساس أغثني بشربة ماء. فقال جساس: تركت الماء وراءك. وانصرف عنه ولحقه عمرو فقال: يا عمرو أغثني بشربة. فنزل إليه فأجهز عليه، فنشبت الحرب بين بكر وتغلب، وأسرف المهلهل في قتل قبائل بكر لا يُبالي بأيّ منها أوقع، ولما أرسل الحارث بن عباد إليه ابنه بجيرا في الصلح قتله وهو غير قاتل كليب قائلا:" بُؤ بشِسْع كُليب" استهانة به، وشاع في الناس أنه قتله بشِسْع نَعْل كُليب، فاستعرت الحرب ثانية ودامت أربعين سنة.

قاتله علا أو سفل، وتقتل الأنثى القاتلة مهما ارتفعت منزلتها، ويقتل بالأنثى المقتولة قاتلها عظيما أو حقيرا ذكرا أو انثى، ولا عبرة بما ذهب إليه بعض الفقهاء من تمييز على أساس الحرية والعبودة أو الدين أو الجنس، لأن التفاضل بين الناس مهما أقره الدين والمجتمع، لا يبيح العدوان أو إهدار الحقوق والإعراض عن العدل والتناصف.

على أن مفهوم العبد في هذه الآية الكريمة لا يعني ما تعارفت عليه الجاهليات قبل الإسلام وبعده، من تصنيف للناس وقد ولدوا سواسية إلى أحرار وعبيد،، فما لهذا نزل القرآن وما لهذا بعث الرسول صلى الله عليه وسلم، إن العبد في الشريعة الإسلامية هو أسير الحرب في جهاد مستوف لشروطه نوايا وأعمالا، وما التعبير بلفظ "عبد" إلا استعمالا لما تواضع عليه الناس من كلام شعوب الأرض، تقريبا للمعاني وتدرجا في تربية النفوس واستدراجها لفهم حقائق الأشياء، وأول هذه الحقائق أن العبودية لا تكون لبشر على بشر ولا مخلوق على مخلوق، فالناس فيما بينهم سواسية كأسنان المشط، وهم كلهم عبيد لله تعالى، لذلك تقدم الرسول صلى الله عليه وسلم بالمسلمين خطوة أخرى في هذا المضمار التربوي فنهاهم عن إطلاق لفظ" العبد" على الأسير وقال فيما رواه البخاري ومسلم:

- (لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ عَبْدِي أَمَتِي وَلْيَقُلْ فَتَايَ وَفَتَاتِي وَغُلَامِي) البخاري
- (لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ عَبْدِي وَأَمَتِي كُلُّكُمْ عَبِيدُ اللَّهِ وَكُلُّ نِسَائِكُمْ إِمَاءُ اللَّهِ وَلَكِنْ لِيَقُلْ غُلَامِي وَجَارِيَتِي وَفَتَايَ وَفَتَاتِي) مسلم
- (لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ عَبْدِي فَكُلُّكُمْ عَبِيدُ اللَّهِ وَلَكِنْ لِيَقُلْ فَتَايَ) مسلم

ولقد كان الأسرى لدى غير المسلمين وما زالوا يلقون من صنوف الاضطهاد والعسف ما يكاد يلغي إنسانيتهم، سجنا وتعذيبا وتجويعا وجلدا واستغلالا، فشرع لهم الإسلام أخف نظام للأسر، أن يوضع كل منهم تحت رعاية أحد المؤمنين، محتفظين بحقهم في الحياة والكرامة والكسب والتنقل والزواج والإنجاب وطلب العلم وحرية الرأي والمعتقد، وأن تفتح لهم أوسع أبواب التحرر من الأسر كفارات ومكاتبة وغيرها، فظهرت بهذا النظام في المجتمع الإسلامي أجيال من العلماء والفقهاء والأدباء والشعراء والمجاهدين مسهم أو مس آباءهم الأسر، فرفع الإسلام شأنهم وأعلى منزلتهم، وأبقى ذكرهم في العالمين.

أما ما عرفته مجتمعات تنتسب للإسلام أو لا تنتسب، من استئساد للقوي على الضعيف، أو للأبيض على الأسود أو الغني على الفقير، أو للذكر على الأنثى، واتخاذ للعبيد والجواري والإماء شراء وبيعا ورهنا وإرضاء للشهوات والنزوات فليس من الشريعة الإسلامية في شيء، وما اتخذ له من مبررات تلوي للنصوص أعناقها كذب على الله وافتراء، وظلم وعدوان وإفساد في الأرض.

إن نظام الأسر في الجهاد الحق لم تعرف له البشرية مثيلا قط، سواء لدى أعظم امبراطوريات الغرب والشرق قديما، أو لدى الحضارة الصليبية المعاصرة في حروبها العالمية وفي حروبها ضد الإسلام والمسلمين عند احتلالها لأوطانهم في القرون المتأخرة، أو أسرها لأعدائها منهم في سجون "أبو غريب" و"غوانتنامو" وغيرها.

إن الغضب لفقد قريب مقتول طبيعة بشرية لدى الناس جميعا، لا فرق بين أسير وغير أسير، ذكر أو أنثى، مسلم أو غير مسلم، أسود أو أبيض أو أحمر، لا يسع أحدا إنكارها أو كبحها، أو تلافي بعض ما قد تؤدي إليه، ولذلك عالجته الآية الكريمة من منطلق علم تام بالنفس البشرية وما يكسر شِرَّتَهَا وحِدَّتَهَا ويشفي حنقها، ويكف عدوانيتها، فأمرت بقتل القاتل وحده دون غيره، على سبيل العدل والمساواة من جهة، وتعطيلا لعادات الثأر وغرائز الانتقام التي تعصف بالوحدة والأمن الاجتماعي، وردعا لمن تسول له نفسه الإقدام على القتل من جهة أخرى. وهذا المعنى هو ما أشار إليه قوله تعالى أيضا: { وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا} الإسراء33.

هذا هو العدل الذي يعالج به الإسلام العدوان على الدماء، وهو القصاص، إلا أنه تعالى لحكمته البالغة ورحمته الواسعة جعل مع العدل صنوه المحبب للنفوس الطيبة وهو الإحسان، بقوله: { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ} النحل 90، والإحسان هو ما ندب إليه بفتح باب التعافي والتصالح والتراضي، إذ أبيح لأولياء القتيل تخفيفا على طرفي النزاع، وتقوية لأواصر الأخوة وشفاء لجراح النفوس، أن يسقطوا القصاص عن القاتل مقابل تعويض مادي يدفعه لهم، وذلك بقوله تعالى: { فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ}، أي أن القاتل إذا عفا عنه أخوه في العقيدة – ولي القتيل – بأن أسقط عنه القصاص نظير الدية، فعلى كل من طرفي النزاع واجب التعامل بالرفق والمودة، الولي يطلب حقه بالمعروف والقاتل يؤدي ما عليه بإحسان دون مماطلة أو مماكسة. وليس لأي منهما بعد إسقاط القصاص ودفع الدية أن يعتدي على الآخر تجاحدا أو تناكرا أو انتقاما، وهو قوله تعالى تعقيبا ووعيدا: { فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ }.

ثم ختم تعالى آية القصاص هذه بآية في غاية البيان والإيجاز تبين حكمة هذا التشريع وبعد مراميه وما يحققه للمجتمع من مصالح، ويبعثه لدى ذوي العقول والألباب من حكمة في التصرف وبعد في النظر، وما يستجيشه في القلوب من ورع وتقوى، فقال: { وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَاْ أُولِيْ الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}، أي أن القتل قصاصا أنفى للقتل عدوانا، وأن المرء إذا علم أنه يقتل إن أقدم على القتل أمسك وارعوى وارتدع، وبذلك تصان الحياة ويعم الأمن والسلم والثقة بين الناس.

بهذه الآية الكريمة يُتِمُّ الوحيُ تشريعَ جانب من البر في أخطر ما يواجه العلاقة الإنسانية من مخاطر العدوان على الأجساد والأرواح بضروب القتل والجراح، ثم ينتقل إلى ثلاثة أصناف أخرى من البر في أخطر لحظة من حياة المرء وهو يودع الدنيا ويتأهب للقاء ربه:

أولها قوله تعالى: { كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ} والبر بهذه الآية الكريمة يرافق مسيرة المرء المؤمن إلى آخر لحظة من حياته، تزكية له وتطهيرا كما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله:(إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ يَا ابْنَ آدَمَ اثْنَتَانِ لَمْ تَكُنْ لَكَ وَاحِدَةٌ مِنْهُمَا جَعَلْتُ لَكَ نَصِيبًا مِنْ مَالِكَ حِينَ أَخَذْتُ بِكَظْمِكَ لأُطَهِّرَكَ بِهِ وَلأُزَكِّيَكَ بِصَلاَةِ عِبَادِى عَلَيْكَ بَعْدَ انْقِضَاءِ أَجَلِكَ[[49]]).

في تلك اللحظات الحرجة عندما يأخذ الموت بالكَظَم[[50]] يُذَكِّر ربُّ العزة تعالى عبدَه المؤمن التقي بلون من ألوان التكافل العائلي هو حق الوالدين والأقربين في ماله، فيفرض عليه الوصية لهم من غير ظلم للورثة أو إجحاف أو مضارة.

ولئن اختلف الفقهاء في أمر هذا الصنف من الوصايا، بعد نزول آية المواريث وهي قوله تعالى: {لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا} النساء 7، وبعد تقدير أنصبة للوالدين تؤخذ حتما بدون وصية أو منة، وقول الرسول صلى الله عليه وسلم يشرح ذلك: (إن الله قد أعطى كلّ ذي حق حقه، فلا وصية لوارث)، وقوله: (ما حق امرئ مسلم له شيء يوصي فيه، يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده)، فذهب البعض إلى أن آية المواريث ناسخة للوصية إلى الوالدين والأقربين لأنها حددت لهم أنصبة مفروضة، وقال آخرون: إنها رافعة لبعض أحكامها فقط، أي منسوخة فيمن يرث ثابتة فيمن لا يرث، فإن الجمع بين الآيتين ممكن وهو الأولى، من ورَّثَتْهُ آيات الميراث فلا وصية له، ومن لم يرث بقي نص الوصية يشمله، ومن الأقربين من لم تفرض له آية المواريث نصيبا، ومن الوالدين من قد يكون غير مسلم فيمنعه الكفر من الميراث، وهؤلاء لهم الحق في الوصية تأليفا لقلوبهم وإحسانا وتعطفا، على ألا يتجاوز ذلك ثلث المال الموروث، لقوله صلى الله عليه وسلم في تحديد قدرها:(الثُّلُثُ، والثُّلُثُ كثير).

والصنف الثاني من أبواب البر في هذه الآيات المباركة هو قوله تعالى تحذيرا من تزوير الوصايا وترغيبا في أدائها على وجهها الصحيح: { فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ }، ولا شك أن تنفيذ الوصية تعد من الأعمال

49 – أخرجه ابن ماجه، كتاب الوصايا، وفي إسناده مقال

50 – الكَظَم: مخرج النفس، يقال: كظمه الموت وأخذ بكَظَمه أي بحلقه وبمخرج نفسه والجمع كِظام كما في الحديث:"لعل الله يصلح أمر هذه الأمة ولا يؤخذ بأكظامها".

التي لها أجرها، وهي إلى ذلك وفاء بحق الموصي على الأحياء بعده، وأداء للشهادة التي يحرم كتمانها، وقيام بعبادة مفروضة بنص الكتاب، وعلى من تنكر لها أو بدلها أو غير فيها إثمه لا يخفى على الله منه شيء { إِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ }.
وحيث إن البر في كل أحواله فعل وترك، فعل للخير مطلقا وترك للشر مطلقا، وقد أمر تعالى شهود الوصية بعدم تزويرها أو تبديلها أو كتمانها، فقد عطف على ذلك فأمر بصنف ثالث من البر، أمرا بالمعروف ونهيا عن المنكر، وإصلاحا بين الورثة وأقارب الموصي وقال: { فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفاً أَوْ إِثْماً فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ }، والجنف هو الحيف والميل والجور، من فعل "جَنِف يجنَف"، والإثم المعصية، وهو إشارة واضحة إلى تحريم الظلم في الوصايا يشرحها ما رواه أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال[51]: (إن الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ وَالمرْأَةَ بِطَاعَةِ الله سِتّين سَنَةً ثُم يَحْضُرُهُم الموْتُ فيُضَارّانِ في الوَصِيَّةِ فيَجِبُ لَهُمَا النَّارُ)، ثم قرأ أبو هريرة: {مِنْ بَعْدِ وَصِيةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَار وَصِية مِنَ الله } إلى قوله تعالى: { ذلكَ الفَوْزُ العَظِيمُ } النساء 13/12. أما الإصلاح المقصود في الآية فهو الدخول بين الطرفين بالمراضاة، والمعنى أن من وجد في الوصية إضرارا ببعض أقارب الموصي بأن حرم أحدا أو قدم عليه من هو أبعد منه، أو أوصى إلى غني دون فقير فذكره بأحكام الوصية وآدابها وطلب منه قبل وفاته تغيير وصيته بما يرضي الله تعالى، أو سعى في الإصلاح بين الأقربين إن حدث شقاق ونزاع بينهم بعد وفاة الموصي، فلا إثم عليه، وإذا ارتفع الإثم حل الأجر والثواب، قال تعالى: { لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا } النساء 114.
هكذا تأخذ بالمؤمن هذه الآيات الكريمة مرفرفة في رياض البر، يرشف من رحيق أقاحه وفوح عطره الزكي، فيرقى بأجنحة الشوق والمحبة يناجي الرب الرحيم الكريم بنواياه الطيبة ويقينه الراسخ وأعماله الراتعة في مضارب الخيرات، يجتني خير أزاهير الدنيا لخير أطايب الآخرة، لا يدع بابا لمضمرات النوايا والأعمال إلا طرقه وولجه، ولا غاية لمعلنات الخير إلا سابق إليها، ولا مطية من مطايا البر إلا ركبها، ولا كنزا من كنوز الحق إلا انتهبه، ولا حجابا للجهل والضلال إلا كشفه ونزعه، ولا منسكا من مناسك القربى إلا اختاره وآثره، ولا مذهبا من مذاهب التقوى إلا سلكه. بدءا بيقين الإيمان والإحسان وختما بالوصية الواجبة عند الوفاة لذوي القربى من غير الوارثين، فِعْلَ الأحرار وعملَ الأبرار وجَنْيَ خيرِ الثمار، قال تعالى:

- { إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا} الإنسان 5،
- {كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ كِتَابٌ مَرْقُومٌ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ} المطففين 21/18
- {رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ} آل عمران 193

51 – رواه أحمد والترمذي وأبو داود وابن ماجه، قال أبوعيسى هذا حديث حسن صحيح غريب

وقال صلى الله عليه وسلم: (إن الله يحب الأبرار الأتقياء الأخفياء، الذين إن غابوا لم يفتقدوا، وإن حضروا لم يعرفوا، قلوبهم مصابيح الهدى، يخرجون من كل غبراء مظلمة).

الصيام أيام معدودات بأجر غير معدود

قال الله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (183) أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (184) شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ اللّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (185) وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (186) أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُواْ مَا كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّواْ الصِّيَامَ إِلَى الَّليْلِ وَلاَ تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (187) وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقاً مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (188)} سورة البقرة

يواصل القرآن الكريم في هذه الآيات الكريمة عرض كليات الدين الإسلامي مجملة ومتتابعة ومتراصة كأنها لآلئ قلادة لا يدرى أيها أحسن، في نسق تربوي مترابط تأخذ معانيه ببعضها كمنارات في مجهل من الأرض يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار، أو أقمار نيرة في ليل بهيم ينقشع بها ظلامه، فيُكَوِّن مجموعها مع ما بعدها من الآي وما صح من السنة النبوية منهجا متكاملا للحياة الرضية المفضية إلى خير الدنيا والآخرة، كما قال صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح: (إن للإسلام صوى[52] ومنارا كمنار الطريق، منها أن تؤمن بالله ولا تشرك به شيئا وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأن تسلم على أهلك إذا دخلت عليهم وأن تسلم على القوم إذا مررت بهم، فمن ترك من ذلك شيئا فقد ترك سهما من الإسلام، ومن تركهن كلهن فقد ولى الإسلام ظهره).

52 – الصُّوَى: جمع صُوَّة على وزن قُوَّة وهُوَّة وهي أعلام من حجارة منصوبة في الفيافي ومجاهل الأرض يستدل بها.

ذلك أنه تعالى بعد أن عرض بالبيان لمجملات النظام الإسلامي في الحياة إيمانا ووحدة صف وصلاة وزكاة وجهادا وبرا، اقتحم بنا الطريق مرة أخرى، إلى منار ساطع جديد، وعبادة رفيعة استأثر بها وبتقدير أجرها وجزائها لقوله صلى الله عليه وسلم: (كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ يُضَاعَفُ، الْحَسَنَةُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَة ضِعْفٍ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: إِلَّا الصَّوْمَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، يَدَعُ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ مِنْ أَجْلِي، لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ فَرْحَةٌ عِنْدَ فِطْرِهِ وَفَرْحَةٌ عِنْدَ لِقَاءِ رَبِّهِ، وَلَخُلُوفُ فِيهِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ)، وقوله عز وجل فيما يرويه عنه صلى الله عليه وسلم:(إن الصوم لي وأنا أجزي به، إن للصائم فرحتين: إذا أفطر فرح وإذا لقي الله فجزاه فرح، والذي نفس محمد بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك).

لقد كان الصيام في شرائع الأنبياء قبل البعثة المحمدية، ولكن الناس بدلوا وغيروا أحكامه تبعا لأهوائهم، فلم يعد إمساكهم صياما شرعيا شكلا ولا مضمونا، كما أن النبي صلى الله عليه وسلم عندما قدم المدينة سن للمسلمين صوم عاشوراء وتاسوعاء، وقد روى ابن عباس عنه صلى الله عليه وسلم أنه لما قدم المدينة وجد اليهود صياما يوم عاشوراء فقال لهم:(ما هذا اليوم الذي تصومونه؟) فقالوا: هذا يوم عظيم، أنجى الله فيه موسى وقومه وأغرق فرعون وقومه، فصامه موسى شكرا فنحن نصومه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (فنحن أحق وأولى بموسى منكم)، فصامه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر بصيامه، ثم زاد للتميز عن اليهود صيام تاسوعاء، حسب رواية مسلم من قوله عليه السلام: (لئن بقيت إلى قابل لأصومن التاسع)، فكانت هذه السنة النبوية ترويضا وتهيئة وإعدادا وتدرجا في التربية ورفع الهمم، حتى إذا طابت النفوس واستقرت الأفئدة وألفت الصوم وذاقت حلاوة عبادته نزل الحكم الشرعي النهائي فرضا مكتوبا وعددا معدودا بقوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ }.

والصيام بذلك معنى شرعي خاص نقل من معنى لغوي عام، معناه لغة الإمساك عن الفعل وتركه، مطعما كان أو مشربا أو كلاما أو حركة، أو سيرا أو غير ذلك، كما في التنزيل: { إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا} مريم26، يقال: صامت الخيل إذا أمسكت عن السير، وصامت الريح إذا أمسكت عن الهبوب، وصام اللسان عن الغيبة والنميمة، والبصر عن اختلاس النظر إلى المحرمات.

أما المعنى الشرعي للصيام فهو الكف عن جميع المفطرات طعاما وشرابا ووقاعا وغيره، من طلوع الفجر الصادق إلى مغرب الشمس مصحوبا بنية أداءٍ أو قضاءٍ لفريضة شهر رمضان، أو تطوعا أو نذرا، عبادة لله تعالى وحده لا شريك له.

يبدأ الخطاب الإلهي للمؤمنين بفرض صيام شهر رمضان نظما نديا رطبا مبدوءا بحرف النداء"يا" وحرف التنبيه "أيها"، بقوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ}، استحياء للهمم وحثا على معالي القربات، وحضا على المبادرة بالطاعة والامتثال، قال الحسن: إذا سمعت الله يقول "يا أيها الذين آمنوا" فارفع لها سمعَك فإنه لِأمرٍ تُؤمَر به أو لِنهيٍ تُنهى عنه"، وقال

جعفر الصادق: " لذةٌ فى النِداء أزالَ بها تعبَ العبادة والعَناء". { كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ } أي فرض عليكم صيام شهر رمضان، وقد كان فرضه بهذه الآية الكريمة في شهر شعبان من السنة الثانية للهجرة بعد تحويل القبلة وفرض الصلوات الخمس مباشرة وقبل غزوة بدر بشهر واحد، وَعَدَّهُ رسول الله صلى الله عليه وسلم من أركان الإسلام الخمسة كما في حديث جبريل عليه السلام إذ سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإسلام قائلا: (يا محمد أخبرني عن الإسلام قال:" الإسلام: أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا "، قال: صدقت)، وكما روى البخاري بسنده عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم رمضان).

ولئن أطنب بعض الفقهاء في بيان فضل الصيام وحكمة التكليف به، مشاركةً معنوية وشعورا حسيا بجوع الفقراء ومسغبتهم، أو آثارا إيجابية بادية للصيام في حياة الإنسان المادية والاجتماعية مما يعد تعليقا للفرائض الشرعية بالحكمة البشرية المحدودة القاصرة، فإن القرآن الكريم يكتفي في هذه الآيات الكريمة بعلة واحدة هي أم العلل وحكمة هي أم الحكم، يوجزها قول الله عز وجل: { لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ }، أي ترتقون به مراقي التقوى، وتجعلون بينكم وبين غضب الله تعالى وعذابه وقاء يحميكم، ومسلكا إلى نعمته يرضيكم، قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ } التحريم6، وقال صلى الله عليه وسلم: (اتقوا النار ولو بشق تمرة فمن لم يجد فبكلمة طيبة)، والصوم بذلك إعداد نفسي وجسدي للمؤمن يؤهله للقيام بدوره المنوط به في الحياة، دعوةً إلى ربه وجهادا في سبيله وصبرا على ضروب المحن والبلاء، ومشاق الضراء والبأساء، ولاشك أن في تتويج فرض الصيام في شهر شعبان من السنة الثانية للهجرة بالجهاد الفعلي والنصر المؤزر في رمضان الموالي مباشرة ما يشير إلى حكمة ربانية بالغة وتدبير إلهي بين رشيد وثمرة للصوم يانعة.

ولئن ظن البعض أن الصيام شاق متعب تأنفه بعض النفوس، فإن في الآية ردا على هذه الشبهة يُذَكِّر بأن أمم الرسالات السابقة قد كتب عليها الصوم أيضا { كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ } وقام به أتقياؤها من غير تردد أو ضعف، وأنه مجرد أيام معدودات {أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ}، وَصَفَ " الأيامَ " وهي جمع قلة بلفظ "معدودات" وهو جمع قلة أيضاً، لكونها مجرد شهر واحد يهون صومه على المؤمن، سرعان ما ينقضي ويخلف الأجر الذي لا ينقضي. ولا داعي للاستطراد بالحديث عما اختلف فيه المفسرون عن كيفية من صام قبلنا من الأمم، توقيتا أو عددا أو أحكاما، لأن القرآن الكريم لم يبينه، والخوض في تفاصيله شريعتنا غنية عنه.

وتستمر الآية الكريمة في الرد على شبهات المشقة، فتورد أحكام اليسر في فريضة الصيام للمريض والمسافر والشيخ الفاني بقوله تعالى: { فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ}.

وللمريض عادة ثلاث حالات:

أن يكون مرضه خفيفا عابرا لا كلفة فيه ولا مشقة، فلا يعد رخصة للإفطار، بشرط ألا يستثير اقتران المرض الخفيف بالصيام أمراضا خطيرة كامنة في الجسد كما هو الشأن مثلا في حالات نقص المناعة.

أو أن يقدر المريض على الصوم بضرر ومشقة، أو يخاف تمادي المرض واستفحاله وزيادته، فيستحب له الفطر ولا يصوم إلا جاهل كما يقول أولو العلم.

أو أن يكون في الصوم تلف للحياة وتهديد لها، والإفطار في هذه الحالة واجب، والصوم حرام، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ النساء 29، وقال صلى الله عليه وسلم: (يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا) وقالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها تصف خلق الرسول صلى الله عليه وسلم: (ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن مأثما).

أما السفر المبيح للإفطار وقد أطلقته الآية فلم تقيده بالمشقة أو المسافة، أو الغرض المباح أو المحرم، فقد كان مثار اختلاف بين الفقهاء تأويلا لأحاديث نبوية وقياسا على مسافة القصر في الصلاة، والمسح على الخفين في الحضر والسفر، وتحريم سفر المرأة مسيرة يوم وليلة بدون محرم، واستنباطا من قواعد فقهية متعلقة بسد الذرائع وفتحها، مما يرجع إليه في مظانه بكتب الفقه.

وحكم الإفطار في هذه الحالات أن يصوم المفطر أياما أخرى مساويةً لما أفطر من رمضان في العدد، متفرقةً أو متتابعةً على التراخي أو الفور حسب مشيئته وطاقته لأن الآية ﴿ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ لم تشترط إلا القضاء عددا، وليس فيها ما يدل على التتابع، وإن كان الاحتياط للمؤمن أن يعجل بالقضاء حال توفر أسبابه، لأن الموت أقرب للإنسان دائما من حبل الوريد.

كما يلحق بهذه الحالات أيضا حال الحبلى والمرضع إن خافتا على نفسيهما أو ولديهما الهلاك أو الضياع، ولهما أن تفطرا وتقضيا، على خلاف حول ما قد يجب عليهما من فدية مع القضاء.

على أن حالة أخرى وردت عقب ذلك في قوله تعالى: ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ﴾، فاشتد الاختلاف بين المفسرين والفقهاء على تنزيلها والمعنيين بها، ومدار الجدل بينهم حول معنى الإطاقة، فمن ذهب إلى أنها القدرة على الصوم مطلقا، وهم القائلون بالنسخ، رأوا أن ذلك كان أول ما فرض الصيام فشق على البعض ورُخِّص لهم في الإفطار مقابل فدية، ثم حين قويت النفوس واشتد عودها نسخت الرخصة بقوله تعالى: ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُ ۖ ﴾، وهو ما تؤيده رواية ابن أبي ليلى في البخاري قال:(حَدَّثَنَا أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَزَلَ رَمَضَانُ فَشَقَّ عَلَيْهِمْ فَكَانَ مَنْ أَطْعَمَ كُلَّ يَوْمٍ مِسْكِينًا تَرَكَ الصَّوْمَ مِمَّنْ يُطِيقُهُ وَرُخِّصَ لَهُمْ فِي ذَلِكَ فَنَسَخَتْهَا ﴿ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ فَأُمِرُوا بِالصَّوْمِ).

ومن رأى أن الإطاقة معناها احتمال الصوم بأقصى جهد، أو استنفاد أصل الطاقة والعجز المطلق عن الصيام، ذهب إلى أنه لا نسخ في الآية، وحملها على حالة الشيخ الفاني الذي لا يرجو استعادة قدرته على الصوم فيتمكن من القضاء، والمريض الميؤوس من شفائه، وقد جعل لهما الله تعالى أن يفطرا ويتصدقا عن كل يوم بطعام مسكين، وهو ما ذهب إليه الحسن البصري وإبراهيم النخعي ومالك والشافعي، وعمل به أنس بن مالك إذ هرم وبلغ عَشْراً بعد المائة فكان يفطر ويطعم عن كل يوم مسكيناً خبزاً ولحماً. وفي رواية أنه ضعف عن الصوم فصنع جفنة من ثريد، ودعا ثلاثين مسكيناً فأطعمهم. قال ابن عباس في رواية للبخاري: {وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ}، قَالَ: يُكَلَّفُونَهُ، وَهُوَ الشَّيْخُ الْكَبِيرُ الْهَرِمُ، وَالْعَجُوزُ الْكَبِيرَةُ الْهَرِمَةُ يُطْعِمُونَ لِكُلِّ يَوْمٍ مِسْكِينًا وَلا يَقْضُونَ)، وقال أيضا: (لَيْسَتْ –أي الآية– بِمَنْسُوخَةٍ، هُوَ الشَّيْخُ الْكَبِيرُ وَالْمَرْأَةُ الْكَبِيرَةُ لَا يَسْتَطِيعَانِ أَنْ يَصُومَا فَيُطْعِمَانِ مَكَانَ كُلِّ يَوْمٍ مِسْكِينًا). على أن من المفسرين من رجح هذا المعنى، ولكن بتأويل للآية، يرى أن فيها إضمارا لحرف النفي"لا" تقديره: "وعلى الذين لا يطيقونه"، كما في قوله تعالى { يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا} النساء 176، ومعناه "لئلا تضلوا".

وتثار في هذه الحالة قضية من طرفين: الأول فقر المريض والشيخ الهرم وعدم قدرته على الإطعام فتسقط عنه الفدية كما في حديث أبي هريرة قال: (بَينما نحنُ جُلوسٌ عندَ النبيِّ صلى الله عليه وسلّم إذ جاءه رجلٌ فقال: يارسولَ الله هَلَكتُ، قال: ما لكَ؟ قال: وَقَعتُ على امرأتي وأَنا صائمٌ. فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلّم: هل تَجِدُ رَقبةً تُعْتِقُها؟ قال: لا، قال: فهل تَستطِيع أن تَصومَ شَهرَيْنِ مُتتابِعَينِ؟ قال: لا، قال: فهل تَجدُ إطعام سِتينَ مِسْكيناً؟ قال: لا، قال: فمكَثَ النبيُّ، فبَينا نحنُ على ذلكَ أُتِيَ النبيُّ صلى الله عليه وسلّم بعَرَقٍ فيها تَمْرٌ. والعَرَقُ: المِكْتَل. قال: أينَ السَّائلُ؟ فقال: أنا، قال: خُذ هذا فتصدَّقْ بهِ، فقال الرجلُ: أَعَلَى أفقرَ مني يا رسولَ الله؟ فوالله مابَيْنَ لَابَتَيْهَا . يُرِيدُ الحَرَّتَيْنِ . أهلُ بيتٍ أفقرُ من أهلِ بيتي، فضَحِكَ النبيُّ صلى الله عليه وسلّم حتّى بَدَتْ أنيابهُ ثم قال: أطْعِمْهُ أهلَكَ).

أما الطرف الثاني من الحالة فأن يكون المفطر للعجز المطلق الدائم عن الصيام موسرا، وقد خاطبته الآية الكريمة بقوله تعالى { فَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ}، تحثه على إطعام أكثر من مسكين عن اليوم الواحد استزادة للخير والبركة والأجر.

وبالتفات لطيف لين إلى من قد يتردد في الصوم تثاقلا أو عجزا وهميا عن القيام به، يحض المكلفين جميعا على اغتنام فرصة الشهر المبارك ينهلون من بركاته صوما مأجورا وخيرا كثيرا بقوله تعالى: { وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ}، وهو حض متعلق بأول الآية السابقة تقديره: "كتب عليكم الصيام وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون"، أي إن الصوم خير لكم إن كنتم تتدبرون معاني التقوى والقربى الكامنة فيه، وتعلمون ما له في الآخرة من حسن المثوبة والجزاء، عن أبي أمامه رضي الله عنه قال:(قلت يا رسول الله مرني بعمل، قال: عليك بالصوم فإنه لا عدل له– أي لا يعادل

ثوابه بشيء-، فقلت يا رسول الله مرني بعمل، فقال: عليك بالصوم فإنه لا عدل له، فقلت: يا رسول الله مرني بعمل أدخل به الجنة، فقال: عليك بالصوم فإنه لا مثل له).

ثم ينتقل إلى بيان مدة الصوم المفروض في الآية السابقة { أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ}، فيحصيها ثلاثين يوما هي شهر رمضان، قال تعالى: { شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ}، ولفظ الشهر لغة مشتق من "الشهرة" لأن الهلال يظهر في الأفق فيشتهر بين الناس، وعدته ثلاثون يوما غالبا، ما بين ميلاد الهلال ومحاقه، وهو جزء من اثني عشر جزءاً من السنة، قال تعالى: { إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ } التوبة 36.

أما لفظ "رمضان" فمشتق من قولهم "رمض الصائم يرمض" إذا جف حلقه من شدة العطش، والرمضاء شدة الحر، وقال الزمخشري: الرمضان مصدر رمض إذا احترق من الرمضاء، ومنه الحديث (صلاة الأوابين إذا رمضت الفصال)[53] وهي صلاة الضحى، وقيل إنما سمي رمضان لأنه يرمض الذنوب، أي: يحرقها بالأعمال الصالحة.

والقرآن الذي تميز شهر رمضان بنزوله هو كلام الله المعجز المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم، المكتوب في المصاحف، المنقول بالتواتر، المتعبد بتلاوته، في ثنايا آيه { هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ } أي هداية إلى سبل الإيمان وبيان لأحكام الدين { مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ } أي أن هدى القرآن وبيناته هداية مطلقة شاملة فارقة بين الحق والباطل، لأن حرف " مِن " في هذه الآية ليس للتبعيض كما يتوهم، ولكنه لبيان الجنس، وهدى القرآن الكريم وبيناته من جنس الهداية الربانية العامة الشاملة.

ولئن اختلفت الروايات في كيفية نزول القرآن ووقته، باختلاف ما أثر من روايات أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، على ثلاثة أقوال كما ذكر السيوطي في الإتقان, أحدها وهو الأرجح أنه نزل إلى سماء الدنيا ليلة القدر جملة واحدة، ثم نزل بعد ذلك منجماً في عشرين سنة أو ثلاث وعشرين أو خمس وعشرين على حسب الخلاف في مدة إقامته صلى الله عليه وسلم بمكة بعد البعثة، والثاني أنه نزل إلى سماء الدنيا في عشرين ليلة قدرٍ، أو ثلاث وعشرين أو خمس وعشرين، في كل ليلة ما يقدر الله إنزاله في كل السنة، ثم أنزل بعد ذلك منجماً في جميع السنة، والثالث أنه ابتدأ إنزاله في ليلة القدر ثم نزل بعد ذلك منجماً في أوقات مختلفة من سائر الأوقات، فإن الثابت من نصوص الكتاب والسنة أن رمضان شهر نزوله، في ليلة مباركة منه هي ليلة القدر. قال الله تعالى: { شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ }، وقال: { إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي

---

53 – الفَصِيل ولد الناقة إذا فُصِل عن أُمه والجمع فُصْلان وفِصال، وقد يقال في البقر، ومنه حديث أَصحاب الغار: "فاشتريت به فَصِيلاً من البقر"، وفي الصحاح: رَمِضَتِ الفِصالُ: أي إذا وجَدَ الفَصيلُ حرَّ الشمس من الرَّمْضاءِ، وهي الرمل إذا حميت فأحرقت خفافه وبرك، فتلك الساعة صلاة الضحى.

لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ } الدخان4/3، وقال: { إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ } القدر 1، وقال صلى الله عليه وسلم: (أنزلت صحف إبراهيم أول ليلة من رمضان وأنزلت التوراة لست مضين من رمضان وأنزل الإنجيل لثلاث عشرة ليلة خلت من رمضان وأنزل الزبور لثمان عشرة خلت من رمضان وأنزل القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان)، واستمر نزوله منجما حسب حاجة الناس، على رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حين وفاته عليه السلام، قال تعالى: { وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا } الإسراء106، فأخذ اليهود والنصارى يشككون ويجادلون يقولون:"هلاّ نزل القرآن على محمد جملةً واحدة فنعلم أنه رسول الله" فنزل قوله تعالى: { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا } الفرقان32/33.

ثم عقب تعالى على بيانه فضل القرآن وشهر رمضان بإيجاب الصوم فيه فقال: { فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ} أي: من علم منكم بدخول الشهر أو استيقن به، أو رأى هلاله وأهل عليه، وهو مقيم عاقل بالغ مكلف فقد وجب عليه صومه. ولما كان هذا الحكم عاما فقد استثنى عز وجل منه حالتي المرض والسفر فقال: { وَمَن كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ}، فرخص للمريض والمسافر في الإفطار المقرون بنية القضاء أياما أخرى بعدد ما أفطر، وذلك منه تعالى تيسير لسبل العبادة دون مشقة، وتخفيف على المؤمنين { يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ}، والثابت من السنة النبوية أنه صلى الله عليه وسلم صام في السفر وأفطر تشريعا وبيانا وتعليما، فقد سأله حمزة بن عمرو الأسلمي قائلا (يَا رَسُولَ اللَّهِ أَجِدُ بِي قُوَّةً عَلَى الصِّيَامِ فِي السَّفَرِ فَهَلْ عَلَيَّ جُنَاحٌ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هِيَ رُخْصَةٌ مِنْ اللَّهِ فَمَنْ أَخَذَ بِهَا فَحَسَنٌ وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَصُومَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ)، وعن أبي سعيد الخدري قال: غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لست عشرة مضت من شهر رمضان فمنا من صام ومنا من أفطر فلم يعب الصائم على المفطر ولا المفطر على الصائم)، وأخرج البخاري عن ابن عباس قال:(خرج النبي صلى الله عليه وسلم في رمضان من المدينة ومعه عشرة آلاف من المسلمين يصوم ويصومون حتى بلغ الكديد فأفطر وأفطروا)، أما قول الرسول صلى الله عليه وسلم (ليس من البر الصوم في السفر) فخاص بمن يرهقه الصوم في السفر إرهاقا شديدا، وأصله من رواية صحيحة عن جابر قال:(كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر فرأى زحاما ورجلا قد ظلل عليه فقال: ما هذا؟، قالوا: صائم، فقال: ليس من البر الصوم في السفر).

إن هذه الأحكام الشرعية في الترخيص بالإفطار وإيجاب القضاء على المفطر إنما جعلت كما قال تعالى: {وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ } أي ليتمكن المؤمن في كل أحواله عافية وسقما، سفرا وحضرا من إكمال عدة شهر الصيام ثلاثين يوما، لا يضيع منه فضل أو أجر في فترة من أشرف فترات حياته وأكثرها بركة، فلم يبق بعد هذا اليسر عذر في الإفطار بغير اضطرار. ولم يبق بعد إكمال العِدة شهرا إلا واجب التكبير والشكر لله تعالى على فضله ونعمته وتيسيره سبل الصلاح والفلاح، قال

تعالى: { وَلِتُكَبِّرُواْ اللّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ }، وحرف اللام في "تكبروا" للعلة، متضمن مقصد الشرع، جعل التكبير مما أراده الله تعالى وأمر به، شرعه للإمام في خطبة صلاة العيد، ولعموم المسلمين أول يوم الفطر عند خروجهم للصلاة، وترك للسنة القولية والعملية بيان لفظه وعدده ووقته، على اختلاف بين فقهاء المذاهب الإسلامية في ذلك.

أما قوله تعالى بعدها: { وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } فتعليل آخر هو أعم من التكبير باللسان، لأن الشكر متضمن للتكبير، وهو تعظيم لله تعالى بالقلب اعترافا بفضله وآلائه، وباللسان أذكارا ومحامد مأثورة، وبالأعمال قربات وأوجة بر في أيام الصوم وأيام الفطر.

وتبقى حالتان من حالات الإفطار هما العمد والنسيان:

فإن كان الإفطار بالجماع عمدا ففيه القضاء والكفارة بإجماع، وإن كان الجماع نسيانا فعليه القضاء والكفارة عند مالك وأحمد وقوم من أهل الظاهر، ولا قضاء عليه ولا كفارة عند الشافعي وأبي حنيفة وعند غيرهم لا كفارة عليه على اختلاف بينهم في وجوب القضاء.

وقد روى مالك في الموطأ (جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَضْرِبُ نَحْرَهُ وَيَنْتِفُ شَعْرَهُ وَيَقُولُ هَلَكَ الْأَبْعَدُ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَا ذَاكَ فَقَالَ أَصَبْتُ أَهْلِي وَأَنَا صَائِمٌ فِي رَمَضَانَ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تُعْتِقَ رَقَبَةً فَقَالَ لَا فَقَالَ هَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تُهْدِيَ بَدَنَةً قَالَ لَا قَالَ فَاجْلِسْ فَأُتِيَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِعَرَقِ تَمْرٍ فَقَالَ خُذْ هَذَا فَتَصَدَّقْ بِهِ فَقَالَ مَا أَحَدٌ أَحْوَجَ مِنِّي فَقَالَ كُلْهُ وَصُمْ يَوْمًا مَكَانَ مَا أَصَبْتَ)، ولم يسأله صلى الله عليه وسلم عن حاليه نسيانا أو عمدا.

أما المفطر بالأكل والشرب عمدا فعليه ما على المجامع من الكفارة مع القضاء عند مالك والثوري وأبي حنيفة والأوزاعي وإسحاق بن راهويه وأبي ثور، وذهب غيرهم إلى أن عليه القضاء فقط.

أما المفطر بالأكل أو الشرب نسيانا فعليه القضاء عند مالك، ويتم صومه ولا شيء عليه عند أبي حنيفة والشافعي وأحمد، بناء منهم على حديث صحيح لأبي هريرة قال:(جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله إني أكلت وشربت ناسيا وأنا صائم؟ فقال: الله أطعمك وسقاك).

وبعد أن أمر تعالى عباده الصُّوَّم بالتكبير والذكر والشكر بين لهم أنه عز وجل قريب منهم فقال: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ } بعلمه ورحمته وقدرته، مطلع على ذكرهم وشكرهم خبير بأحوالهم سميع لدعائهم مجيب دعوتهم ما أطاعوه وكبروه وشكروه، قال تعالى: { وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ} ق16، وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري أنه قال:(كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر فجعل الناس يجهرون بالتكبير. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أيها الناس، اِربَعُوا على أنفسكم – أي ارفقوا بها – فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، إنكم تدعون سميعاً بصيراً وهو معكم، والذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته).

ثم زاد بيان قربه تعالى توضيحا فقال: { أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ} أي أنه تعالى يسمع دعاء من يدعوه فيعطيه مسألته، لأن الإجابة يراد بها السماع كما يراد بها إبلاغ السائل ما سأله، وفي الحديث أن أعرابياً قال: يا محمد، قال: قد أجبتك، كما أن السماع قد يراد به الإجابة، ومنه: سمع الله لمن حمده. والآية بذلك تقرير آخر لقرب الصائم من ربه وتحقيق له، وتأكيد للوعد بإجابة دعوته، كما قال صلى الله عليه وسلم: (ثلاثة لا ترد دعوتهم الإمام العادل والصائم حين يفطر ودعوة المظلوم يرفعها فوق الغمام وتفتح لها أبواب السماء ويقول الرب عز وجل وعزتي لأنصرنك ولو بعد حين).

أما قوله تعالى: { فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ} فهو توجيه منه تعالى إلى ما يجعل الدعاء مرجو القبول، استجابة لله بطاعته، وتصديقا لوعده، ومواظبة على ذكره وشكره، إذ هذا هو سبيل الرشد والهداية والصلاح.

ثم بعد أن بين عز وجل أن فترة الصوم مجال لتوثيق علاقة المؤمن بربه وفرصة تغتنم لتجديد الإيمان وطلب الرشد، وسبيل للاستجابة ونيل المطالب، ولمح إلى أدب الدعاء وما ينبغي فيه من استفتاح بالحمد والشكر والثناء على الله تعالى، عاد لتفصيل ما بقي من أحكام الصيام، مما لا غنى للمرء عنه في علاقته ببيته وأهله فقال: {أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُواْ مَا كَتَبَ اللّهُ}.

وقد كان المسلمون في ابتداء فرض الصوم إذا أفطر أحدهم يحل له الأكل والشرب ومباشرة الزوجة إلى صلاة العشاء، ويحرم ذلك كله عليه إلى الليلة القابلة إن صلى العشاء أو نام قبل صلاتها فوجد المسلمون مشقة كبيرة، ثم إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه واقع أهله بعدما صلى العشاء فلما اغتسل أخذ يبكي ويلوم نفسه، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله إني أعتذر إلى الله وإليك من نفسي هذه الخاطئة، إني رجعت إلى أهلي بعد ما صليت العشاء فوجدت رائحة طيبة فسولت لي نفسي فجامعت أهلي فهل تجد لي من رخصة؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (ما كنت جديرا بذلك يا عمر)، فقام رجال واعترفوا بمثله فنزل في عمر وأصحابه: { أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ }، والرفث كلمة جامعة لكل ما يريده الرجال من النساء، كناية عن الجماع، قال ابن عباس: إن الله تعالى حيي كريم يكني، كل ما ذكر في القرآن من المباشرة والملامسة والإفضاء والدخول والرفث فإنما عنى به الجماع. بهذه الآية الكريمة رفع الله تعالى عن المسلمين المشقة، فأباح لهم الرفث، وأشاد بالعلاقة الزوجية وعدها سترا وسكنا للذكر والأنثى فقال: { هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ}، وتاب على من وقع منهم في المخالفة فقال: { عَلِمَ اللّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتانُونَ أَنفُسَكُمْ} أي تباشرون نساءكم وتأكلون وتشربون بعد العشاء { فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ } فرفع عنكم هذه المشقة ويسر لكم سبيل التوبة وغفر لكم، { فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُواْ مَا كَتَبَ اللّهُ } ولكم بعد زوال العسر وحلول اليسر ورفع التكليف الشاق أن تفضوا إلى أهلكم وتبتغوا ما جعل الله لكم في الحياة الزوجية من سكن وطمأنينة وذرية كما قال أيضا

في الآية 189 من سورة الأعراف: { هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا }، وهذه الإباحة في ثناياها أيضا دليل على أن الجنابة لا تفسد الصوم وهو تخفيف آخر للمشقة على المسلمين، كما أكدت ذلك السنة النبوية فيما رواه ابن ماجة صحيحا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان (يصبح جنبا من الوقاع لا من احتلام ثم يغتسل ويتم صومه). {وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّواْ الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ} أي ولكم أن تأكلوا وتشربوا من وقت غروب الشمس إلى طلوع الفجر الصادق، وقد كنى عنه القرآن بتميز الخيط الأبيض من الخيط الأسود، وهو بداية انتشار النور في الأفق بجانب الظلمة من الفجر، إذ بها يحرم الطعام والشراب والمباشرة على الصائم.

لقد تم بهذه الآية الكريمة التحديد النهائي لفترة الصوم من طلوع الفجر الصادق إلى مغرب الشمس، وفترة الإفطار التي تباح فيها كل المفطرات ما لم تكن إثما، من الغروب إلى الفجر. إلا أن هذه الإباحة لمباشرة النساء والطعام والشراب ليست مطلقة كما يتوهم، بل هناك استثناءان منها محرمان:

الأول في قوله تعالى: { وَلاَ تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ }، والاعتكاف لغة هو القيام على الشيء وملازمته والمواظبة عليه، أما في الشريعة فهو كما ورد في الشرح الكبير للدردير (لزوم مسلم مميز مسجدا مباحا بصوم كافا عن الجماع ومقدماته يوما وليلة فأكثر للعبادة بنية). وحكمه الندب تطوعا والوجوب بالنذر، والإجماع على أنه جائز الدهر كله إلا الأيام التي نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صيامها، فإنها موضع اختلاف لاختلافهم في جواز الاعتكاف بغير صوم. فإن كان المرء معتكفا في أي وقت من أوقات السنة حرم عليه أثناء اعتكافه مباشرة النساء ليلا أو نهارا في المسجد أو البيت أو غيرهما، كما قال تعالى في الآية: { وَلاَ تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ}، ثم عد المباشرة أو مجرد مقدماتها في فترة الاعتكاف عدوانا على حدود الله وشرعه { تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا }، والبعد عن كل ذلك مما بينه الله تعالى من حدوده، هو سبيل التقوى والنجاة من غضبه { كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ}.

والاستثناء الثاني من مباحات المطعم والمشرب هو تحريم ما كان مكتسبا بوسائل محرمة كالغش والخداع والنصب واليمين الكاذبة وشهادة الزور ورشوة الحكام والاستظهار بهم على المستضعفين لأكل أموالهم، قال عز وجل: { وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقاً مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ}، وقد نزلت هذه الآية في شأن امرىء القيس بن عباس الكندي وعبدان بن أشوع الحضرمي، اختصما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم فادعى أحدهما على صاحبه شيئاً، فأراد الآخر أن يحلف بالكذب، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: (إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ أَخِيهِ وَأَرَى أَنَّهُ مِنْ حَقِّهِ، وَأَنَّهُ لا يَرَى أَنَّهُ مِنْ حَقِّهِ فَإِنَّمَا أَقْضِي لَهُ بِقِطْعَةٍ مِنَ النارِ). فنزلت الآية فيهما، وصارت عامة لجميع الناس.

هذه المكاسب كلها من الخبائث المحرمة في أصل الدين على المفطر والصائم مطلقا، قال تعالى: { وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ } الأعراف 157، وهي إشارة منه تعالى إلى ما ينبغي اجتنابه من الآثام التي تمحق الثواب، وتغلق باب الاستجابة في وجه المؤمن وقد نودي من فوق سبع سماوات بقوله تعالى: { فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ }، ولذلك وردت السنة النبوية محذرة منها، قال صلى الله عليه وسلم:

- (من لم يدع قول الزور والجهل والعمل به فلا حاجة لله في أن يدع طعامه وشرابه).
- وقال: (من لم يدع الخنا والكذب فلا حاجة لله أن يدع طعامه وشرابه).

فصل المقال في أحكام القتال

قال الله تعالى ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوْاْ الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُواْ الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (189) وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ (190) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ (191) فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (192) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ فَإِنِ انتَهَواْ فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ (193) الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (194) وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوَاْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (195) ﴾ سورة البقرة

يقول الله تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ إبراهيم33، إلا أن هذا التسخير لا يبدو جليا إلا لمن فتح في قلبه نافذة لعالم الغيب يستمد منه النور، ويستلهم منه الرشاد، بدون ذلك تبقى أوجه التسخير لديه محدودة قاصرة معتمة، هذا حال بعض المسلمين في مستهل الفترة المدنية وقد أحاط بهم مكر اليهود والنصارى والمشركين، ونفاق ضعاف العقول والقلوب، يشككون في قيم الإسلام ويثبطون الهمم عن البذل والتضحية، ويشغلون المسلمين عما تؤهلهم له التربية النبوية كتابا وسنة، ويصرفونهم عن استشراف المستقبل والإعداد له، كلما حقق المسلمون نصرا أتاهم خصوم دعوتهم بمكر، وكلما خطوا إلى الأمام خطوة، اختلقوا لهم فتنة، وقد ذكر الواحدي أن أحد اليهود سأل أنصارياً عن الأهلة وسبب تزايدها في أول الشهر وتناقصها في آخره وأحوالها في الدقة إلى أن تصير بدراً ثم تتناقص حتى تختفي، فسأل الأنصاري رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها، فنزل قوله تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهِلَّةِ... ﴾ الآية، والراجح من سياق الآية وصيغة الجمع فيها، ومن تعدد السائلين بتعدد روايات أسباب النزول، أن ظاهرة الأهلة في السماء والتساؤل عن خلقها صارت في حينها شغلا شاغلا لكثير من المسلمين، صرفهم عن التفكير في تحصين مجتمعهم وإتمام بناء دولتهم، ومكايدة أعدائهم مدافعة وانتشارا، فكان جواب أسئلتهم على غير ما يطلبون أو يترقبون، عتابا خفيا لانشغالهم عما يصلحهم ويصلح لهم، وردا لطيفا هادئا إلى الاهتمام بما ينفعهم ويسكب اليقين والطمأنينة في قلوبهم، ويقطع دابر محاولات التشكيك والتخذيل في صفوفهم، فقال تعالى: ﴿ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ﴾.

والأهلة جمع هلال مثل رداء وأردية، وهو أول حال القمر حين يراه الناس، يقال له " هلال " ليلتين من أول الشهر و ليلتين من آخره، ويكون قمراً فيما بين ذلك، وقد يكون سؤالهم عن حركة الكواكب والنجوم كلها لا عن الهلال وحده،

من باب حمل النظير على النظير، أو من قبيل ذكر البعض وإرادة الكل، فيكون الجواب كما يقتضي الإيجاز في القول والحكمة في الترشيد والتلطف في التهذيب، بصرفهم عن معاني الخالقية في الكون إلى معاني تربط حركة الكواكب المنظورة بعباداتهم ونظام حياتهم في قوله تعالى: { هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ }. ولا شك أن للعبادة في الإسلام مواقيتها، أوقات الصلاة نيطت بحركة الشمس شروقا وغروبا وزوالا، وشفقا وفجرا صادقا، وكسوفا وخسوفا، والحج له ميقات للإحرام والتلبية، وأوقات للأداء لا تجزئ مناسكه في غيرها، والصيام ارتبطت بدايته ونهايته بالقمر، وإمساكه وإفطاره بنور الشمس فجرا ومغربا، والحياة الاجتماعية زواجا وطلاقا وعدة ومحيضا وإستبراء وحدادا وكفارات وظهارا وإيلاء نيطت بالتوقيت القمري، والنجوم في السماء هادية في الأسفار إسراء بالليل وتغليسا، قال تعالى: { هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ} يونس 5، وقال: { وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا } الإسراء12، وقال: { وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ } النحل16. إلا أن السؤال عن خالقية الأهلة وقد آمنوا بمن خلقها، وفي ظروف تصحيح العقيدة وإقامة أركان الأمة وبناء القوة الذاتية، والإعداد للجهاد، ضرب من العبث وقابلية الاستدراج إلى غير هدف الإسلام ومقصده، لاسيما إذا كان بإيحاء من اليهود وهم أهل سحر واشتغال بالتنجيم شعوذة وإفكا، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من اقتبس علما من النجوم اقتبس شعبة من السحر)، لذلك عقب عز وجل بتفصيل أكثر وضوحا للخطأ الذي حاول اليهود استدراج بعض المسلمين إليه بقوله: {وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوْا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا}، أي ليس من البر أن تهتموا بما لاينفعكم فيما أنتم مكلفون به، وتسألوا بطرق ملتوية عن أشياء لا تعلمون هدف استدراج اليهود لكم إليها، إنما البر أن تحتاطوا لدينكم وتحافظوا على سلامة معتقدكم وتتقوا ربكم { وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى }، وتوطنوا نفوسكم على أن جميع أفعال الله تعالى صواب وحكمة وعدل، وهو عز وجل { لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ} الأنبياء21، وإذا ما لُبِّسَ عليكم في أمر فباشروا التعلم من رسولكم صلى الله عليه وسلم من الوجه الصحيح، واعْرِضوا عليه مسألتكم من بابها الواضح الصريح ولا يستدرجنكم أعداء دينكم إلى ما يريدون بكم {وَأْتُوْا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا} فذلك سبيل التقوى والفلاح {وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}.

والأصل في التعبير بدخول البيوت من ظهورها ما ورد عن سبب نزولها من رواية البخاري عن أبي إسحاق قال: سمعت البراء رضي الله عنه يقول: (نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِينَا، كَانَتْ الْأَنْصَارُ إِذَا حَجُّوا فَجَاءُوا لَمْ يَدْخُلُوا مِنْ قِبَلِ أَبْوَابِ بُيُوتِهِمْ وَلَكِنْ مِنْ ظُهُورِهَا فَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ الْأَنْصَارِ فَدَخَلَ مِنْ قِبَلِ بَابِهِ فَكَأَنَّهُ عُيِّرَ بِذَلِكَ فَنَزَلَتْ: { وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا}، إلا أن سبب نزولها لا يمنع من انسياب معانيها المجازية متناسقة مترابطة مع ما قبلها وما بعدها من العظات والتوجيهات، لاسيما وقد كانت المرحلة مرحلة إعداد للجهاد القتالي دفاعا عن أمن الدعوة وأهلها، وتحريرا لحرمها المكي وقبلتها، وكفّا لأذى المنافقين في المدينة وأرجائها، وليس من الحكمة

أن ينشغل بعض المسلمين بمراقبة حركة الكواكب والأهلة والجدال حولها، عن تربية الرجال وتنشئة الأبطال، ورص الصفوف وإعداد السيوف والرماح والنصال. إن الأمر أعجل من ذلك والعدو متربص داخل الحصون وعلى أطرافها، لذلك بادر الوحي بإقحامهم مباشرة في المهمة الآنية والأمر الجلل، لدرء الخطر المحدق وكف ما يعده لهم الكفار، فقال تعالى: { وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ}.

والقتال والمقاتلة صيغة مفاعلة معناه أن ترد من يريد قتلك بقتله، وتدفع ظلمه لك بما يكف ظلمه ويكافئ عدوانه ويفل سلاحه، إن بقتل أو جرح أو أسر أو مطلق هزيمة، وهو بذلك أشرف صور الجهاد وأعلى درجاته ونقطة الارتكاز في ممارسته، قال تعالى: { فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا} النساء84. وقال: { كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} البقرة216، وقال: { وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً} التوبة 35.

أما الجهاد والمجاهدة فأن يبذل المرء جهده لكف شر الخصم في المجال العسكري والعقدي والفكري والأخلاقي والمادي والمعنوي، الجهاد اسم جامع لبذل منتهى الطاقة والوسع دفاعا عن الدين وأهله وأرضه، والقتال أداة من أدواته لا يكون إلا بها، وصيغة المفاعلة فيه ليفيد مقابلة قوة الخصم بما يكافئها ويصدها بدون وهن أو ضعف أو تردد. قال تعالى: { وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} آل عمران147/146، والجهاد بذلك فريضة محكمة وأمر ماض إلى يوم القيامة، وما ترك قوم الجهاد إلا ذلوا وغزُوا في عقر دارهم وسُلِّطَ عليهم عدوهم وباؤوا بالخذلان في كل ما يرومون. قال صلى الله عليه وسلم: (إني لم أبعث باليهودية ولا بالنصرانية، ولكني بعثت بالحنيفية السمحة، والذي نفسي بيده لغدوة أو روحة في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها، ولمقام أحدكم في الصف خير من صلاته ستين سنة)، وقد (سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم: أي العمل أفضل؟ فقال: إيمان بالله ورسوله، قيل: ثم ماذا؟ قال: الجهاد في سبيل الله، قيل: ثم ماذا؟ قال: حج مبرور)، وفي رواية الإمام مسلم عن أبي سعيد الخدري (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: يَا أَبَا سَعِيدٍ، مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ، فَعَجِبَ لَهَا أَبُو سَعِيدٍ فَقَالَ: أَعِدْهَا عَلَيَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَفَعَلَ ثُمَّ قَالَ: وَأُخْرَى يُرْفَعُ بِهَا الْعَبْدُ مِائَةَ دَرَجَةٍ فِي الْجَنَّةِ مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، قَالَ: وَمَا هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

إن الصراع بين الحق والباطل سنة الحياة وإكسيرها، منذ أهبط آدم عليه السلام إلى الأرض وقيل له: { إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ } فاطر6، والأمة التي لا شوكة لها ولا قوة مصيرها

الإذلال أو الزوال، { وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ} البقرة 251، هذا قانون الحياة منذ خلق الله الإنسان، واستخلفه للعبادة والعمران، وليس من الحكمة أن تشذ الأمة الإسلامية عن نظام الاجتماع الذي وضع للناس، أو أن تستسلم لجبروت الكفر والطغيان فتضعف عن اكتساح الباطل قبل أن يكتسحها، وتتردد في محوه قبل أن يمحوها، أمة الحق والخيرية إن لم تُعِدَّ لعدوها وتستعد، ولم تأخذ بأسباب النصر والتمكين، ليس لها أن تنعم بالأمن والسلم والحرية والكرامة، وليس لها أن تقوم بالشهادة وأداء الأمانة، إن تبليغَها رسالةَ الإسلام دينٌ، ودفاعَها عما تُبَلِّغُه عبادةٌ، لذلك لا يذْكر القرآن أمر القتال أو الجهاد إلا مقرونا بكونه في سبيل الله، أي طريقا إلى طاعته ومرضاته ومقصد إنزاله العقيدة والشريعة، فلا يراد به مغنم أو استعلاء أو سمعة أو عقدة عدوان وتحكم، قال صلى الله عليه وسلم: (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله)، وفي الصحيحين: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله).

لقد اختلفت الروايات في سبب نزول هذه الآية الكريم، وأولوية نزولها، ذُكِرَ أنها أول آية نزلت في القتال بالمدينة فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقاتل من قاتله ويكف عمن كف عنه حتى نزلت سورة براءة. وذُكِر أن أول آية نزلت في الجهاد قوله تعالى: { أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ} الحج 39، واستدل بها بعضهم على أن سورة الحج مدنية. ولا تعارض بين الآيتين ولا نسخ، لأن إحداهما إذن بالقتال والثانية أمر به، وذكر أنها خاصة بالقتال للمحرمين في الأشهر الحرم إذا فوجئوا به من طرف أعدائهم بغياً وعدواناً، لما روي أن المشركين قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم:" أنُهِيتَ عن قتالنا في الشهر الحرام؟ " فقال:"نعم"، وأرادوا أن يفتروه في الشهر الحرام فيقاتلوه فيه، أو لِمَا أخرج الواحدي عن ابن عباس أنها نزلت في صلح الحديبية، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صدَّه المشركون عن البيت الحرام ثم صالحوه، فرضي على أن يرجع عامه القابل ويُخْلُوا له مكة ثلاثة أيام يطوف ويفعل ما يشاء، فلما كان العام القابل تجهز هو وأصحابه لعمرة القضاء، وخافوا ألا تفي لهم قريش فتصدهم عن المسجد الحرام بالقوة، وكره أصحابه القتال في الحرم والشهر الحرام فأنزل الله تعالى الآيات.

وأيّاً ما كانت الأسباب والأولويات فإن هذه الآيات الكريمة قد افتتحت عهدا جديدا في مفهوم القتال وأهدافه وضوابطه، فصار في سبيل الله وحده لا شريك له، من أجل قيم عالية وأهداف شريفة هي كف الظلم والعدوان وإخراج الناس من ظلمات القهر والاستعلاء إلى رحابة الحرية والكرامة، وحماية أرض الإسلام وأهلها، كما تحددت طبيعة من توجه إليهم الحراب، وهم المعتدون، بقوله تعالى: { الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ} أي الذين يناصبونكم العداوة ويناجزونكم القتال، وقد ثبت من السنة النبوية أنهم المحاربون وحدهم، فلا يقتل الصبيان ولا الشيوخ ولا النساء ولا الرهبان ولا من ألقى إلى المسلمين السلم أو جنح له، قال تعالى: { فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا} النساء90، وقال: { وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا} الأنفال61، وأخرج البخاري عن عبد الله بن يزيد

الأنصاري قال:(نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن النُّهْبَى والمُثْلَة)، وروى أحمد بسنده عن حنظلة قال: (غزونا مع النبيّ صلى الله عليه وسلّم فمررنا على امرأة مقتولة وقد اجتمع عليها الناس، قال: فأفرَجوا له، فقال: ما كانت هذه تقاتل، ثم قال لرجل: انطلق إلى خالد بن الوليد فقل له: إن رسول الله صلى الله عليه وسلّم يأمرك أن لا تقتل ذرية ولا عسيفاً)، والعسفاء هم الأجراء والخدم وعمال الفلاحة الذين لا يحاربون، وفي الصحيحين عن ابن عمر قال:(وُجِدَتْ امرأة في بعض المغازي مقتولة فأنكر رسول الله صلى الله عليه وسلم قتل النساء والصبيان)، وعن ابن عباس قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلّم إذا بعث جيوشه قال: اخرجوا بسم الله، تقاتلون في سبيل الله من كفر بالله، لا تغدروا ولا تغلوا ولا تمثِّلوا ولا تقتلوا الولدان ولا أصحاب الصوامع)، كما نهى أبو بكر رضي الله عنه عن قتل الرهبان أو استرقاقهم فقال:(فذرهم وما حبسوا أنفسهم له)، وكان من وصيته ليزيدَ بن أبي سفيان قائد جيش الشام قوله:(وإني موصيك بعشر: لا تقتُلَنَّ امرأة ولا صبيا، ولا كبيرا هرِما، ولا تقطعنَّ شجرا مثمرا، ولا تُخَرِّبَنَّ عامرا، ولا تَعْقِرَنَّ شاة ولا بعيرا إلا لِمَأْكَلَة، ولا تحرقنَّ نحلا ولا تُفَرِّقَنَّه، ولا تَغْلُلْ ولا تَجْبُنْ)، وقال عمر رضي الله عنه: (اتقوا الله في الذرية والفلاحين الذين لا ينصبون لكم الحرب)، ويلحق بهؤلاء المريض والمقعد والأعمى، ممن لا يحارب ولا يساعد على الحرب برأي أو خديعة.

ثم أجمل عز وجل ضوابط القتال هذه بأوجز عبارة وأوفاها فقال: {وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ } أي لا تظلموا لأن الله تعالى لا يحب من يتجرأ على العدوان، والعدوان هو الظلم، يقال: عدا عدواناً أي ظلم وتجاوز الحد، وهو معنى قوله تعالى أيضا: { وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} آل عمران 57. هكذا حرَّم عز وجل جميع أصناف العدوان في الحرب، ووضع حدا لكل الممارسات الشنيعة مُثْلة وإحراقا وتعذيبا واغتصابا واختطافا وسرقة أموال أو غير ذلك مما عرفته حروب الجاهلية البائدة أو حروب الجاهلية الحديثة السائدة، بل حرم ذلك في السلم أيضا وألزم بالعدل في حالتي الرضا والسخط، فقال: {وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى} المائدة 8.

تحت هذه الضوابط الشرعية الأخلاقية الإنسانية للجهاد، أهدافا ومقاصد وممارسة، يتلقى المسلمون من ربهم أوامر قتال عدوهم بقوله جل جلاله:

{وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ} اقتلوهم في أيّ مكان تمكنتم من قتلهم وأبصرتم مقاتلهم، أو أدركتموهم وثقفتموهم، والثَّقْف هو الحذق في إدراك الشيء وفعله, يقال: ثَقِفْتَ الشيء: إذا أدركتَه ببصرك، أو ظفرتَ به ووجدته على جهة الأخذ والغلبة، ومنه قوله تعالى: { فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ} الأنفال57، وقال: { مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا} الأحزاب61.

{وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ} وفعل الأمر في هذه الآية للوجوب، أي: أخرجوهم من المكان الذي أخرجوكم منه، والمكان الذي أُخرِجَ منه الجيل الأول من المسلمين هو مكة، إذ أَنْزَلَ المشركون بهم من ضروب الأذى والظلم والعدوان ما جعلهم يهاجرون إلى الحبشة أولا ثم إلى المدينة المنورة ثانياً، أما ما أُخرِجَ منه المسلمون على مدار ما مضى من الزمن بعد

ذلك، فأراض كثيرة، آخرها في هذا العصر فلسطين وأفغانستان والعراق. وقد أُخْرِجَ المشركون من مكة المكرمة عام الفتح على يد المهاجرين والأنصار، بقيادة النبي صلى الله عليه وسلم، حين امتثلوا لأمر ربهم، فصدقهم ربهم وعده وأنجز عهده {لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آَمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا} الفتح27، وفرط مسلمو اليوم إذ أُخْرِجوا من ديارهم فأثموا وحاق بهم ما حذرهم منه الرسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله:(إذا ضن الناس بالدينار والدرهم وتبايعوا بالعينة وتبعوا أذناب البقر وتركوا الجهاد في سبيل الله أدخل الله تعالى عليهم ذلا لا يرفعه عنهم حتى يراجعوا دينهم).

إنه ليس للمسلمين وقد اختاروا معسكر الحق والإيمان في مواجهة معسكر الكفر والطغيان، إلا الدفاع عن دينهم أو تذهبَ ريحهم وتداسَ كرامتهم ويَحُلَّ بديارهم الذل والهوان، ولَقَتْلٌ في سبيل الله تُنال به الشهادة، وتُدرَك به الحياة الكريمة عند الله خيرٌ من فتنة الهزيمة والإخراج من الوطن والخنوع الذليل، لذلك قال تعالى عقب الأمر بالقتال والتحريض عليه: { وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ}، فقرر أن خوفَ الأمة من عدوها وجبنَها عن مواجهة الموت في ساحة الجهاد يؤدي إلى ما هو أشد من القتل، وليس أشد من القتل إلا الفتنة. فتنة الرجل في دينه إن أكره على الردة والخنوع لعدوه، وفتنته في زوجه وولده تحت سنابك خيل العدو وسياطه أو رعوناته وفجوره، وفتنته بمفارقة أهله ووطنه إذ يضطر للهجرة غريبا مضطهدا محقرا مستضعفا مستباحا في نفسه وعرضه، كل ذلك أو بعضه أشد من القتل لدى القلوب الحية والنفوس الأبية.

ولما كان للمسجد الحرام حرمته وقد حُرِّم فيه الظلم والقتال بقوله تعالى: { وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ} الحج25، وقال: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آَمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ } العنكبوت 67، وفي الصحيحين واللفظ لمسلم (عَنْ أَبِي شُرَيْحٍ الْعَدَوِيِّ أَنَّهُ قَالَ لِعَمْرِو بْنِ سَعِيدٍ وَهُوَ يَبْعَثُ الْبُعُوثَ إِلَى مَكَّةَ ائْذَنْ لِي أَيُّهَا الْأَمِيرُ أُحَدِّثْكَ قَوْلًا قَامَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْغَدَ مِنْ يَوْمِ الْفَتْحِ سَمِعَتْهُ أُذُنَايَ وَوَعَاهُ قَلْبِي وَأَبْصَرَتْهُ عَيْنَايَ حِينَ تَكَلَّمَ بِهِ أَنَّهُ حَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ إِنَّ مَكَّةَ حَرَّمَهَا اللَّهُ وَلَمْ يُحَرِّمْهَا النَّاسُ فَلَا يَحِلُّ لِامْرِئٍ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يَسْفِكَ بِهَا دَمًا وَلَا يَعْضِدَ بِهَا شَجَرَةً فَإِنْ أَحَدٌ تَرَخَّصَ بِقِتَالِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهَا فَقُولُوا لَهُ إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لِرَسُولِهِ وَلَمْ يَأْذَنْ لَكُمْ وَإِنَّمَا أَذِنَ لِي فِيهَا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ وَقَدْ عَادَتْ حُرْمَتُهَا الْيَوْمَ كَحُرْمَتِهَا بِالْأَمْسِ، وَلْيُبَلِّغْ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ)، فإن الله تعالى قد خصه بحكم يناسب حرمته، واشترط ألا يكون قتال المسلمين فيه مبادأة منهم لأعدائهم، وقال: { وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} أي: لا تبتدئوا المشركين بالقتال عند المسجد الحرام حتى يبدؤوكم به، فإن بدؤوكم به فاقتلوهم، إن قتلهم جزاء لكفرهم وعدوانهم واستطالتهم على المسلمين وصولتهم في الحرم، فإن رجعوا عن قتالكم وتابوا عن كفرهم غفر الله لهم وتاب عليهم

وشملهم برحمته الواسعة، قال تعالى: { قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ} الأنفال38.

إن الأمر بقتال المشركين ليس عدوانا أو ظلما، ولكنه دفع لفتن هي أصل الظلم والعدوان، فإن اعترض المشركون طريق دعوة الإسلام أو بلغت بهم الجراءة على حرم الله فبادؤوا فيه بالقتال، وجب قتالهم حتى تطفأ نار فتنتهم ويفسحوا المجال لنشر عقيدة التوحيد ورفع راية الدين، وتحقيق أهداف الإسلام بتحرير العباد من عبودية الأوثان والأنداد بشرا وحجرا وأهواء، فتكون الطاعة والعبادة كلها لله خالصة دون غيره: { وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ}، وليس لمسيرة هذا القتال الجهادي من نهاية إذا ما نشبت إلا باستئصال شأفة الشرك وتوبة أهله إلى الإيمان وكفهم عن مناوأة المسلمين { فَإِنِ انتَهَواْ فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ} أي: فإن آبوا إلى الحق وتركوا الكفر فقد نبذوا الظلم، وقتالهم حينئذ عدوان، والقتال ينبغي ألا يكون إلا في مواجهة الظالمين، وسماه العدوان مجازا للمشاكلة، كقوله تعالى { وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا} الشورى 40، ونظير هذه الآية الكريمة قوله تعالى في سورة الأنفال 39: { وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}.

ثم انتقل الوحي إلى تقرير قاعدة جامعة لأحكام القتال هي قاعدة المعاملة بالمثل، القصاص العادل، فقال تعالى: { الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ}، والأشهر الحرم هي رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم، جعلها الله تعالى واحة أمن تصان فيها الدماء والأموال والأعراض، وقد منع المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم من دخول مكة معتمرا في شهر ذي القعدة سنة ست للهجرة، وأعدوا لقتاله، فجاز بذلك محاربتهم ورد عدوانهم في الشهر الحرام بقوله تعالى: { الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ}.

والحرمات جمع حرمة، وهي ما يجب المحافظة عليه، وما لايجوز انتهاكه من الدماء والأموال والأعراض والذرية وأرض الإسلام، جعل الله القصاص عقوبة الاعتداء عليها، والقصاص مساواة وعدل وحق واجب لقوله تعالى: { وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ}.

ثم زاد عز وجل هذه القاعدة توضيحا وبيانا فقال: { فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ}، أي أن كل عدوان على المسلمين يجب أن يرد بمثله، بما يكافئه ويتفوق عليه، مهما تغيرت الظروف وتطورت أساليب الحرب وأدواتها وأهدافها، فلا يفل الحديد إلا الحديد، قال تعالى: { وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ} التوبة36، أي قاتلوهم بكافة قوتكم وبمثل ما اعتُدِيَ به عليكم، مستعينين بالله تعالى وهو معكم ما اتقيتم، قال تعالى أيضا: { وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ} النحل 126، وقال: { وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا} الشورى 40، فإن لم تفعلوا هزمتم وذهبت ريحكم وأثِمتُم عند ربكم.

هذا المبدأ العسكري العادل، مبدأ توازن الرعب أو المعاملة بالمثل، هو الذي تخلى عنه المسلمون في العصر الحديث، وقد هوجموا من قبل أمم الكفر كافة، وبأدوات للحرب متطورة لم تعرف من قبل، قذائف ذرية وصواريخ نووية وقنابل محرمة دوليا، وبأساليب عدوانية شرسة لا رحمة فيها، حربا استباقية لا مبرر لها من دين، وهجوما مبنيا على الظن والتوقع لا يقره عقل أو خلق أو مبدأ إنساني، فجَبُنَ حكام المسلمين عن حماية الحرمات، وجنحوا للسلم وقد جنح أعداؤهم للحرب، واكتفوا من إعداد القوة بما يكبل شعوبهم وجيوشهم عن التحرر والمدافعة ورد العدوان، وأعانَهم على الركون للذل والمهانة في أحضان آل صليب وصهيون فتاوى من مرتزقة علمائهم وبطانة السوء لديهم، تحرم امتلاك السلاح النووي وقد جرب في ظهورهم، وتجرم الحروب الاستباقية وقد انتهكت بها أعراضهم وحرمات نسائهم ورجالهم.

إلا أن هذا المبدأ الذي يُحْمَى به الذِّمار أهلا وحُرَماً، وتصان به الحوزة أرضا وأوطانا، وتحصن به البلاد والعباد والأعراض، يتعارض تعارضا مطلقا مع كنز الأموال أو تبديدها في شهوات النفس ومتعها، وتوفير أدوات الرفاه والترف وأصنافها، كما عرفه ملوك المسلمين في عصور الذل والهزيمة سابقا، وكما يعرفه حكامهم في عصرنا هذا. إن الأموال بيدهم سلاح لهم أو عليهم وقد قال الله تعالى: { وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا } الإسراء16، وقال صلى الله عليه وسلم: (فوالله ما الفقر أخشى عليكم ولكن أخشى أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم).

ولئن صار المال عند غير المسلمين سلاحا لا يفل، إنفاقا رشيدا وأبحاثا علمية دقيقة، لتطوير وسائل القوة وتنويع أدوات التحكم والقمع والسيطرة والانتشار، فإنه عند المسلمين حاليا أداة للفسق والفجور والتخريب، أُلْبِسوا به شيعا فذاق بعضهم بأس بعض، واستجْلَبَ به بعضُهم الأعداءَ استقواءً على بعض، ولذلك اسْتُنْفِرَ المجتمع المسلم للبذل في سبيل الله وجهاد أعدائه، وردِّ كل عدوان عليه بما يكافئه، فقال تعالى: {وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوَاْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}، والإنفاق في سبيل الله هو توفير كل ما يحتاجه الجهاد من أموال، أما التهلُكة فهي ترك الجهادِ وعدم تغطية نفقاته، لأن ذلك جزء لا يتجزأ من النفير العام، به تُعَد الأسلحة وفرة وتطويرا، والرجال تدريبا وتأهيلا، والجيوش سوقا وتعبئة، قال تعالى: { انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ } التوبة 42،وقال: { إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا } التوبة 39، وقال صلى الله عليه وسلم: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْلَا أَنَّ رِجَالًا مِنْ الْمُؤْمِنِينَ لَا تَطِيبُ أَنْفُسُهُمْ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِّي، وَلَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُهُمْ عَلَيْهِ، مَا تَخَلَّفْتُ عَنْ سَرِيَّةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي أُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ أُحْيَا ثُمَّ أُقْتَلُ ثُمَّ أُحْيَا ثُمَّ أُقْتَلُ ثُمَّ أُحْيَا ثُمَّ أُقْتَلُ).

ولعل ما ورد في سبب نزول هذه الآية الكريمة يغني عن شرحها، فقد أخرج الترمذي في حديث صحيح عن أسلم أبي عمران التجيبي قال:(كنا بمدينة الروم فأخرجوا إلينا صفا عظيما من الروم، فخرج إليهم من المسلمين مثلهم أو أكثر،

وعلى أهل مصر عقبة بن عامر، وعلى الجماعة فضالة بن عبيد، فحمل رجل من المسلمين على صف الروم حتى دخل فيهم، فصاح الناس وقالوا: سبحان الله يلقي بيديه إلى التهلكة، فقام أبو أيوب الأنصاري فقال: يا أيها الناس إنكم تتأولون هذه الآية هذا التأويل، وإنما أنزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار لما أعز الله الإسلام وكثر ناصروه، فقال بعضنا لبعض سرا دون رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن أموالنا قد ضاعت وإن الله قد أعز الإسلام وكثر ناصروه، فلو أقمنا في أموالنا فأصلحنا ما ضاع منها، فأنزل الله على نبيه صلى الله عليه وسلم يرد علينا ما قلنا: {وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ}، فكانت التهلكة الإقامة على الأموال وإصلاحها وتركنا الغزوَ، فما زال أبو أيوب شاخصا في سبيل الله حتى دفن بأرض الروم).

إن أولوية إنفاق المال الذي بأيدي المسلمين هي حماية أرضهم وأعراضهم وأنفسهم ووجودهم مطلقا، فليُعِدّوا بأموالهم ما يقيهم دائما خير أمة قوية شاهدة، وإلا فالهلاك مصيرهم والاندثار مآلهم، قال تعالى: { وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ } الأنفال 60. وقال: { مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ } البقرة261. وعن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم لما نزلت هذه الآية قال:(رب زد أمتي)، فنزل قوله تعالى: { مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً} البقرة 242، قال: (رب زد أمتي)، فنزل: { إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ} الزمر10.

إن من التوازن الدقيق بين قوة الخير وقوة الشر، بين معسكر الإيمان ومعسكر الكفر، أن يتكافأ إنفاق المسلمين على قوتهم بما يفوق إنفاق العدو على قوته، وأن يرهبوا المعتدي عليهم بأشد مما يرهبهم به، إنه تكافؤ القوة وتوازن الرعب بذلا وإعدادا وتضحية، كما في الحديث الصحيح عن الرسول صلى الله عليه وسلم: (جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم)، وقيمة البذل وشرفه بقيمة المبذول وشرفه، والتكافؤ في المصطلح العسكري أن تواجه الخصم بأدوات للحرب مكافئة له ومتفوقة عليه، بذلك ترجح كفة الإيمان ويكون النصر من الله تعالى والتمكين { وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ } آل عمران126، إن توازن الرعب هو أحدث ما تفتقت عنه السياسات العسكرية الحديثة لدى القطبين الشيوعي والرأسمالي في القرن الماضي، وهو ما يتلافاه الغرب الاستعماري حاليا إذ يمنع المسلمين من تطوير وسائل دفاعهم، ويصرفهم بشتى أساليب الخداع والضغط والمماطلة عن البحث العلمي الجاد، ولا شك أن الأمة في عصرنا هذا آثمة، آثمة بحكامها إذ انخدعوا لأعدائهم وأعرضوا عن واجب توفير القوة المكافئة، وآثمة بعلمائها الذين يزكون باطل الحكام ورذالتهم، وآثمة بعامتها الذين يسكتون عن الباطل، ويركنون لتخاذل الرؤساء وجبن القادة وكتمان العلماء. ويتقاعسون عن نصرة الصادقين في الأوطان.

مجمل أحكام الحج والعمرة

قال الله تعالى: {وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلاَ تَحْلِقُواْ رُؤُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (196) الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللّهُ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ (197) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُواْ اللّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّآلِّينَ (198) ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (199) فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُواْ اللّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ (200) وِمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (201) أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (202) وَاذْكُرُواْ اللّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (203)} سوؤة البقرة

تتوالى قواعد الإسلام وأركانه في هذا القسم الثالث من سورة البقرة، شديدةَ الإحكام والتراصّ والتكامل، يأخذ بعضها بيد بعض، توطئةً حكيمة للانتشار والفتح، بتوحيد الصف قبلةً وبذلا للمال والنفس، وتزكيتِه عقيدة وبرا وتكافلا، وإعدادِه بحلال المطعم وشاكي السلاح وحمايةِ الحُرَم والأعراض والذمم، والصبرِ على لأواء المحن ومتاعب التكاليف، كما في الحلقات السابقة، وقد أجملتْ أركانَ الإسلام الأربعة إيمانا وصلاة وزكاة وصوما، وبينت قمة سنامه جهادا في سبيل الله تعالى واستشهادا، فلم يبق إلا الركن الخامس وهو فريضة الحج، وقد وردت عقب أحكام الصوم والقتال مباشرة بقوله تعالى: ﴿ وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلّهِ ﴾، مما يؤكد أن الإسلام جسد واحد لا يتجزأ ولا يتبعض، وإن تراتبت تكاليفه فضلا وأجرا وقربى، وقد ورد في الصحيحين عن أبي هريرة قال: (سُئِلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ قَالَ إِيمَانٌ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، قِيلَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: جِهَادٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، قِيلَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: حَجٌّ مَبْرُورٌ)، ففضل الله تعالى الجهاد بعد الإيمان، وجعل تلوهما الحج المبرور، و عن عمر قال: سمعته ذات يوم يخطب وهو يقول: (إذا وضعتم السروج فشدوا الرحال بحج أو عمرة فإنها أحد الجهادين)، وقال ابن مسعود:(إنما هو سرج ورحل، فسرج في سبيل الله، ورحل إلى بيت الله)، وعن كعب قال:(وفد الله ثلاثة: الحاج والمعتمر والغازي، دعاهم الله فأجابوه، وسألوا الله فأعطاهم).

وأصل الحج لغةً القصدُ للزيارة، وقيل القصد لزيارة معظَّم، يقال: حج فلان الشيءَ إذا قصده مرة بعد أخرى وأدام الاختلاف إليه، وفي اصطلاح الشرع قصد البيت الحرام في وقت مخصوص هو أشهر الحج لأداء مناسك وأفعال مخصوصة، أركانا وواجبات وسننا، منها الطواف والسعي والوقوف بعرفات بشرائط مفصلة في كتب الفقه، وهو ركن من أركان الإسلام وفرض عين بالكتاب والسنة على كلّ مكلّف مستطيع في العمر مرّة واحدة، قال تعالى: ﴿ وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ آل عمران97، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ الْإِسْلَامَ بُنِيَ عَلَى خَمْسٍ شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ وَصِيَامِ رَمَضَانَ وَحَجِّ الْبَيْتِ) وقال:(الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ وَتَصُومَ رَمَضَانَ وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا).

أما لفظ "العمرة " فلغةً مِنْ: عَمَرَ الرجلُ مالَه وبيتَه يَعْمُره عِمارةً وعُموراً وعُمْراناً أي: لزِمَه، ومنه قوله تعالى: ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ التوبة 19، واعتمر الأمرَ أو المكانَ قصده وزاره، أما في الشرع فالإحرام والطواف بالبيت والسعي بين الصفا والمروة، ووقتها على مدار السنة كلها بخلاف الحج الذي ليس له إلا وقت واحد لا يجوز أن يحرم به إلا فيه، وهو شوال وذو القعدة وتسع من ذي الحجة، فإن أحرم قبل أشهر الحج انعقد إحرامه ولزمه على الكراهة كما عند مالك. أما حكمها فهي عند أبي حنيفة تطوع، وعند مالك سنة واجبة كالوتر مرة واحدة في العمر لا ينبغي تركها، حُجَّتُه في ذلك الأحاديث المشهورة الثابتة

الواردة في تعديد فرائض الإسلام من غير أن تذكر معها العمرة، مثل حديث ابن عمر بني الاسلام على خمس وذكر الحج مفردا، وعند الشافعي وأحمد واجبة، لما فهموه من قوله تعالى: {وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلّهِ}، ويرد عليهم بأن معنى هذه الآية لا يقتضي إلا وجوب إتمامهما بمناسكهما وحدودهما وشرائطهما وسننهما إن شرع فيهما أو في أحدهما، قرانا أو إفرادا أو تمتعا، كما هو الحال في السنن والفرائض إذا شرع فيها وجب إتمامها ولا تقطع، يؤكد هذا المعنى ما ورد بعد الآية مباشرة من تشريع الهدي في حالة الإحصار والعجز عن الإتمام بقوله تعالى: { فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ }، كما أن فريضة الحج لم تثبت بهذه الآية، إنما ثبتت بقوله تعالى: { وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا } آل عمران 97، في السنة التاسعة للهجرة على أرجح الأقوال.

لقد أمر الله تعالى في هذه الآية الكريمة بإتمام الحج والعمرة عند الشروع فيهما فرضا أو نفلا، وبجعلهما له وحده لا يشوب النوايا والأقوال والأعمال حال القيام بهما شرك أو معصية، { وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلّهِ }، فإن شرع فيهما وحال حائل دون إتمامهما مما لايستطاع تجاوزه وجب للتحلل من الإحرام تقديم الهدي بقوله تعالى عقب ذلك: { فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ }، وفي الآية إضمار معناه: فإن أحصرتم عن إتمام الحج والعمرة وأردتم أن تتحللوا من إحرامكم فاذبحوا ما تيسر من الهدي، فالذبح للتحلل وليس للإحصار، والتحلل هو فسخ الإحرام والخروج منه بالطريقة المبينة شرعا، ويكون بإتمام الحج والعمرة إن تمكن الحاج من الوصول إلى البيت الحرام، أو بذبح الهدي إن منع من الوصول، والإحصار لغة معناه الحبس والمنع، إلا أن أهل اللغة فرقوا بين لفظي الإحصار والحصر، فقيل: الإحصار الحبس، والمنع فيه من ذات الشخص كالمرض وذهاب النفقة, والحصر يكون بسبب خارجي كالعدو والسلطان وقطاع الطريق لقول ابن عباس: لا حصر إلا حصر العدو. وقال بعضهم: يقال فيهما جميعًا إحصار لقول الله عز وجل: {فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ} أي فإن صُدِدْتم عن الوصول إلى البيت ومنعتم من إتمام الحج والعمرة. وينبني على هذه التفرقة بين الحصر والإحصار خلاف حول طريقة تحلُّل المُحْصَرِ من الإحرام، فبعض العلماء كالمالكية والشافعية يرون أن المراد بالإِحصار في الآية ما كان بسبب عدو، كما حدث للمسلمين في صلح الحديبية، والتحلل فيه يكون بالذبح، قال مالك:" من حُبس بعدو فحال بينه وبين البيت فإنه يحل من كل شيء وينحر هديه ويحلق رأسه حيث حبس وليس عليه قضاء"، أما إذا كان الحصر بسبب من ذات الشخص كالمرض مثلا، فإن الحاج أو المعتمر لا يتحلل بالذبح ويبقى على إحرامه حتى يبرأ من مرضه، ثم يذهب إلى البيت فيطوف به سبعاً ويسعى بين الصفا والمروة، وبهذا يتحلل من عمرته أو حجه. قال مالك" فأما من أحصر بغير عدو فإنه لا يحل دون البيت"، وقال:" من فاته الحج تحلل بعمل عمرة، وعليه الحج من قابل والهدي"، أما الأحناف فيرون أن الآية تعم كل منع، وأن التحلل من الإحرام في كل الحالات بالذبح، فإن اشترط عند إحرامه التحلل بالمرض إن أصابه في الطريق تحلل به ولا شيء عليه من هدي أو قضاء أو غيره عند الحنابلة، عملا بما ثبت في رواية مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: (دَخَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى ضُبَاعَةَ بِنْتِ الزُّبَيْرِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَقَالَتْ: يَا

رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أُرِيدُ الْحَجَّ وَأَنَا شَاكِيَةٌ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: حُجِّي وَاشْتَرِطِي أَنَّ مَحِلِّي حَيْثُ حَبَسْتَنِي)، ولا يسقط عنه الدم عند الشافعي وأبي حنيفة. وأما من وقف بعرفة فليس بِمُحْصَر عند مالك ويقيم على إحرامه حتى يطوف بالبيت ويهدي، وهو أحد قولي الشافعي وقول أبي حنيفة.

أما قوله تعالى: { فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ } أي ما تيسر ولم يستصعب من الهدي، والهدي لغة من الهدية، يهدى إلى البيت الحرام من الإبل أو البقر أو الضأن، يتقرب به إلى الله تعالى، من غير سبب موجب، قدره الإمام مالك بشاة في رواية له عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن علي ابن أبي طالب رضي الله عنه أنه كان يقول: { فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ } شاة. وقال ابن عباس: الهَدْي من الأزواج الثمانية: من الإبل والبقر والمعز والضأن.

كما يطلق الهدي أيضا على ما يجب على المحرم بسبب موجب كالتمتع أو ترك واجب أو فعل محظور، وهو في هذه الآية ما يذبحه المحرم إذا منع من الوصول إلى البيت الحرام، وهدي الإحصار سواء كان المحصر قد ساقه معه أو لم يسقه يذبح في مكان الحصر على قول الجمهور، مالك والشافعي وأحمد، وقال ابن عباس:" إذا كان يستطيع البعث به إلى الحرم وجب عليه، وإلا ينحره في محل إحصاره"، فإن فات مساكين مكة لم يفت مساكين المسلمين في غيرها.

وسواء كان الإحرام بالحج أو العمرة أو بهما معا، ولو لم يفعل الحاج من الشعائر إلا الإحرام عند الميقات، فإن الآية توجب الإتمام، ما لم يحصر المرء فيجوز له التحلل بذبح الهدي وحلق الشعر، كما هي سنة الرسول صلى الله عليه وسلم إذ أحصر بالحديبية فنحر فيها، لاسيما وقد نزلت هذه الآية عام الحديبية، سنة ست للهجرة، حين حال المشركون بين رسُول الله صلى الله عليه وسلم وبين الوصول إلى البيت، ورخص للمسلمين أن يذبحوا ما معهم من الهدي، وأن يَتَحَلّلوا من إحرامهم بحلق رؤوسهم فلم يفعلوا حتى خرج فحلق رأسه، ففعل الناس، وكان منهم من قَصّر شعره ولم يحلقه، فقال صلى الله عليه وسلم: (رَحِمَ الله المحَلِّقين)، قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ فقال في الثالثة:(والمقصرين)، أما النساء فيكفيهن التقصير لما روي صحيحا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لَيْسَ عَلَى النِّسَاءِ حَلْقٌ إِنَّمَا عَلَى النِّسَاءِ التَّقْصِيرُ). قال الإمام مالك:" بلغني أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم حَلَّ وأصحابه بالحديبية، فنحروا الهدي، وحلقوا رؤوسهم، وحَلّوا من كل شيء قبل أن يطوفوا بالبيت، وقبل أن يَصِل إليه الهدي. ثم لم نَعْلم أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرَ أحدًا من أصحابه، ولا ممن كان معه، أن يقضوا شيئًا ولا أن يعودوا لشيء".

أما قوله تعالى: { وَلاَ تَحْلِقُواْ رُؤُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ } فهو بيان لملازمة الإحرام حتى إتمام شعائر الحج، وتمامها يوم النحر، فلا يجوز حلق ولا غيره من منافيات الإحرام كقص الأظافر والطيب وغيره، إلا بعد أن يبلغ الهدي محله، والمحل بفتح الميم وكسر الحاء مكان الحلول وزمانه، أي وقت ذبحه للفقراء في منى يوم النحر، إلا أن يحصر الحاج فيذبح في مكان الإحصار إن لم يستطع بعثه إلى الحرم.

أما المريض الذي تؤذيه بعض هيئات الإحرام في رأسه أو سائر جسده، أو تزيد من علته كداء "القرع" في الرأس أو تكاثر القمل في الشعر لشدة الوسخ، أو بعض الأمراض التي تمنع من التجرد عن المخيط، فيجوز له حلق رأسه أو لبس ما يحفظ صحته، ويواصل القيام بشعائر العمرة والحج، وعليه الفدية لقوله تعالى: { فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ }، والفدية لغة أن يجعل شيء مكان شيء حماية له، من قولك: فديتُه أفديه، كأنَّك تحميه بنفسك أو بشيء يعوّض عنه، والفِدْية والفَدَى والفِداءُ بمعنى واحد هو حماية الشيء الجليل النفيس بعوض، ولما كان الاضطرار إلى مخالفة بعض أحكام الإحرام فقد جعل الشرع بهذه الآية الكريمة لذلك عوضا شرحته السنة النبوية بوجوب إحدى ثلاث: ذبح شاة، وهو النسك في التعبير القرآني، جمع نسيكة أي الذبيحة ينوى بها التعبد لله وحده، أو صيام ثلاثة أيام، أو إطعام ستة مساكين، كما في رواية البخاري عن عبد الله بن معقل قال: (قَعَدْتُ إِلَى كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ يَعْنِي مَسْجِدَ الْكُوفَةِ فَسَأَلْتُهُ عَنْ فِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ، فَقَالَ: حُمِلْتُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْقَمْلُ يَتَنَاثَرُ عَلَى وَجْهِي، فَقَالَ: مَا كُنْتُ أُرَى أَنَّ الْجَهْدَ قَدْ بَلَغَ بِكَ هَذَا أَمَا تَجِدُ شَاةً؟ قُلْتُ: لَا، قَالَ: صُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ أَوْ أَطْعِمْ سِتَّةَ مَسَاكِينَ لِكُلِّ مِسْكِينٍ نِصْفُ صَاعٍ مِنْ طَعَامٍ وَاحْلِقْ رَأْسَكَ، فَنَزَلَتْ فِيَّ خَاصَّةً وَهْيَ لَكُمْ عَامَّةً)،

ولئن أجمع الفقهاء على وجوب فدية إماطة الأذى عن الجسم لورود الأمر بها كتابا وسنة، فإنهم اختلفوا فيمن أماطه لغير ضرورة، نسيانا أو عمدا، فقال الشافعي وأبو حنيفة: إن حلق دون ضرورة فإنما عليه دم فقط، وقال مالك: العامد في ذلك والناسي واحد، أي عليه فدية الأذى المذكورة في الكتاب والسنة، كما اختلفوا حول مكانها في الحرم أو في غيره، وخصالها فضلا وأفضلية، في تفاصيل أكثر يرجع إليها في كتب الفقه.

وبعد أن ذكر الوحي أحكام ما يمنع الحاج والمعتمر من الوصول إلى الحرم، وكيفية التحلل عند الإحصار، وأحكام التحلل الجزئي عندما يتعارض المرض مع بعض هيئات الإحرام، عقب بذكر حال من وصل إلى بيت الله تعالى آمنا من الإحصار، متمتعا بالعمرة إلى الحج وكيفية تحلله عند إتمام مناسكهما، فقال: { فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ }، وهذا يقود إلى ذكر كيفيات ما يهل به الحاج عند إحرامه مما يعقد عليه نيته ويلبي به، إفرادا أو قرانا أو تمتعا. والإفراد هو أن يهلّ الحاجّ فينوي الحجّ فقط عند إحرامه، ويأتي بأعمال الحجّ وحده. وهو عند المالكية والشافعية أفضل من القران والتمتع، لأنه لا يجب معه هدي، ولأن النبي صلى الله عليه وسلم حج مفردا كما في الموطأ والبخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: (خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَامَ حَجَّةِ الْوَدَاعِ فَمِنَّا مَنْ أَهَلَّ بِعُمْرَةٍ وَمِنَّا مَنْ أَهَلَّ بِحَجَّةٍ وَعُمْرَةٍ وَمِنَّا مَنْ أَهَلَّ بِالْحَجِّ وَأَهَلَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْحَجِّ فَأَمَّا مَنْ أَهَلَّ بِعُمْرَةٍ فَحَلَّ وَأَمَّا مَنْ أَهَلَّ بِحَجٍّ أَوْ جَمَعَ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ فَلَمْ يُحِلُّوا حَتَّى كَانَ يَوْمُ النَّحْرِ)

أما القِران فهو أن يُهِلَّ بالعمرة والحجّ جميعا، ويجمع بينهما في إحرام واحد ونسك واحد، ومعنى القران الجمع بين إحرامي العمرة والحج، وهو عند الحنفية أفضل من التمتع والإفراد، لما روي عن أنس قال: (سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم

يلبي بالحج والعمرة يقول: لبيك عمرة وحجة). وما روى البخاري:(عَنْ عَلِيِّ بْنِ حُسَيْنٍ عَنْ مَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ قَالَ: شَهِدْتُ عُثْمَانَ وَعَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَعُثْمَانُ يَنْهَى عَنْ الْمُتْعَةِ وَأَنْ يُجْمَعَ بَيْنَهُمَا، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ عَلِيٌّ أَهَلَّ بِهِمَا: لَبَّيْكَ بِعُمْرَةٍ وَحَجَّةٍ، وَقَالَ: مَا كُنْتُ لِأَدَعَ سُنَّةَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِقَوْلِ أَحَدٍ).

وأما التّمتّع فهو أن يهلّ بالعمرة في أشهر الحجّ، ويأتي مكّة فيؤدّي مناسك العمرة ويتحلّل. ويمكث بها حلالا، ثمّ يحرم بالحجّ ويأتي بأعماله. وهو عند الحنابلة أفضل، لحديث ابن عمر قال: تمتع رسول الله صلى الله عليه وسلم في عام حجة الوداع بالعمرة إلى الحج وأهدى وساق الهدي معه من ذي الحُلَيْفَة). وفيه على المتمتع الهدي، كما في قوله تعالى: { فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ }، فإن لم يجد صام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجع إلى بلده، أو بعد مغادرته الحرم في طريق عودته إلى أهله، وهو قوله تعالى: { فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ }، واتفق مالك والشافعي وأبو حنيفة على أن المتمتع إذا لم يجد هديا صام ثلاثة أيام إذا أحرم بالحج إلى آخر يوم عرفة.

إلا أن التمتع خاص بغير سكان مكة المكرمة، وهو معنى قوله تعالى عقب ذلك: { ذَلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ }، أي ذلك التمتع حكمه خاص بغير أهل الحرم، وهم عند المالكية أهل مكة، وعند الشافعية من كان بينه وبين الحرم مسافة لا تقصر فيها الصلاة، وزاد الحنفية عليهم من تكون منازلهم داخل الميقات، لا يتمتعون بالعمرة إلى الحج بل يفردون، وبإمكانهم تأدية العمرة طوال السنة. ثم ختم سبحانه الآية بقوله ترغيبا وتحذيرا فقال: { وَاتَّقُواْ اللهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ }.

هذه بإجمال كيفيات الحج والعمرة كما تشير إليها الآيات الكريمة، وهي كلها مشروعة بالكتاب والسنة والإجماع، أمّا من الكتاب فقوله تعالى: { وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} آل عمران97، وقوله عز وجل: { وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ}، وقوله سبحانه: { فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ}. وأمّا السّنّة فمنها حديث عائشة رضي الله عنها قالت: (فَمِنَّا مَن أهلَّ بعمرة ومِنَّا مَن أهلَّ بحج ومنَّا مَن أهلَّ بهما)، ومنها حديث ابن عمر قال: (تمتع رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع بالعمرة إلى الحج، بدأ فأهل بالعمرة ثم أهل بالحج) وحديث مسلم عن ابن عباس قال: (صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بذي الحُلَيْفة ثم دعا بناقته فأشعرها في صفحة سنامها الأيمن وسلت الدم عنها وقلدها نعلين ثم ركب راحلته فلما استوت به على البيداء أهل بالحج)، ومنها أن الرسول صلى الله عليه وسلم اعتمر أربع مرات وحج مرة واحدة، فأخذ الناس منه مباشرة مناسك الحج والعمرة، وقد روى البخاري عن قتادة قال: (سَأَلْتُ أَنَسًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَمْ اعْتَمَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: أَرْبَعٌ، عُمْرَةُ الْحُدَيْبِيَةِ فِي ذِي الْقَعْدَةِ حَيْثُ صَدَّهُ الْمُشْرِكُونَ، وَعُمْرَةٌ مِنْ الْعَامِ الْمُقْبِلِ فِي ذِي الْقَعْدَةِ حَيْثُ صَالَحَهُمْ، وَعُمْرَةُ الْجِعِرَّانَةِ إِذْ قَسَمَ غَنِيمَةَ أُرَاهُ حُنَيْنٍ، قُلْتُ: كَمْ حَجَّ؟ قَالَ: وَاحِدَةً). وأمّا الإجماع فقد تواتر عمل الصّحابة ومن بعدهم

على التّخيير بين هذه الأوجه كلها. قال ابن عبد البر:" الحج والعمرة نسكان لا يختلف العلماء في ذلك أن المستطيع السبيل إليهما يبدأ بأيهما شاء، وقد جاء ذلك عن جماعة من السلف"، وكان سفيان بن عيينة يقول:" معنى قول الرسول صلى الله عليه وسلم: (دخلت العمرة في الحج إلى يوم القيامة) لم يرد به فسخ الحج، وإنما أراد جواز عمل العمرة في أشهر الحج إلى يوم القيامة مفردة، ويستمتع بها إلى الحج، وأن يقرن مع الحج، كل ذلك جائز إلى يوم القيامة". كما حث الرسول صلى الله عليه وسلم على المتابعة بين الحج والعمرة بما رواه الترمذي والنسائي صحيحا عن ابن مسعود قال: (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: تابعوا بين الحج والعمرة فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد والذهب والفضة، وليس للحجة المبرورة ثواب إلا الجنة).

وبعد أن بين الوحي أحكام الحج والعمرة وإشكالية الإحصار والمرض والهدي والفدية انتقل إلى بيان وقت الحج، وكان العرب في الجاهلية يتلاعبون به تقديما وتأخيرا حسب الأهواء والمصالح، يقدمونه سنة ويؤخرونه سنة، وهو النسيء، فرده إلى وقت واحد معلوم وقال عز وجل: { الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ }، أي وقت الحج أشهر معلومة محددة ثابتة لا تتغير، وهي عند مالك شوال وذو القعدة وذو الحجة كله، لأن الله تعالى ذكر الأشهر بلفظ الجمع وأقله ثلاثة، ولأن أيام النحر يفعل فيها بعض أعمال الحج من طواف الزيارة والحلق ورمي الجمار، والمرأة إذا حاضت تؤخر الطواف الذي لا بد منه إلى انقضاء أيامه بعد العشرة، ولِمَا أخرجه الطبراني والخطيب بطرق مختلفة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عدّ الثلاثةَ أشهر الحجَّ. وقال أبو حنيفة: هي شوال وذو القعدة والعشر الأول من ذي الحجة من أشهر الحج، وهو قول ابن عباس وابن عمر والنخعي والشعبي ومجاهد والحسن، وقال الشافعي: التسعة الأولى من ذي الحجة إلى طلوع فجر يوم النحر من أشهر الحج، نَزَّلوا متأولين بعضَ الشهر منزلةَ كلِّه، فكان الشهران وبعض الثالث ثلاثة أشهر لأنها وقت، والعرب تسمي الوقت تاما بقليله وكثيره فتقول: أتاه يوم الخميس وإنما أتاه في ساعة منه، وتقول زاره العامَ، وإنما زاره في بعضه.

ثم بين عز وجل بعض آداب الحج إتيانا وتجنبا، نوايا وأقوالا وأعمالا وقربات، تخلية للنفوس والجوارح مما يسترذل ويستقبح، وتحلية لها بما يزكي ويرفع الدرجات، فنهى أولا عن كل محبطات العمل ومفسدات الحج بقوله: { فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ } أي من ألزم نفسه بأداء فريضة الحج وأهل به، فعليه أن يتجنب ما يتعارض مع آدابه وشعائره ومقاصده ومناسكه { فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ }، وقال صلى الله عليه وسلم:(من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه).

والرفَثُ لغةً كلامٌ متضمن لما يستقبح ويستفحش، وهو في هذه الآية نهي عن الإفحاش في القول مطلقا. لأنه يتنافى مع حرمة الحج ووقار العبادة، يقال: رَفَثَ الرجل من باب نصَر وفرِح وكرُم، وأرفث، وجُعِل كنايةً عن الجماع ومقدماته في قوله تعالى { أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ } البقرة 187، إباحة للإفضاء إلى الزوجة ودعوتها إليه.

أما الجدال وهو المِرَاء، فمن أصل "جَدَلَ الحبلَ" إذا أحكم فَتْلَه، ويعني مراجعة الكلام بين الناس على سبيل المعاندة والخصومة والمنازعة والمغالبة، كأن المتجادلين يفتل كل واحد الآخر عن رأيه. وهو مما يفسد القلوب ويملأها ضغينة وبغضاء، فلا يؤتي الحج ثماره ألفة ومحبة وتكافلا وتعاونا على البر والتقوى بين المسلمين، ولذلك حرمه الله تعالى، وجعل علاجه الإعراض اللَّيِّنَ المهذب بقوله تعالى: { وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا } الفرقان63، وقال صلى الله عليه وسلم: (أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِي رَبَضِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا وَبِبَيْتٍ فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْكَذِبَ وَإِنْ كَانَ مَازِحًا وَبِبَيْتٍ فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ لِمَنْ حَسَّنَ خُلُقَهُ).

وأما الفسوق فهو العصيان والترك لأمر الله عز وجل والخروج عن طريق الدين، أصله مِنْ فعل " فسق الرُّطَبُ " إذا خرج عن قشره، وأكثر ما يقال الفاسق لمن التزم حكم الشرع وأقرَّ به ثم أخلَّ بجميع أحكامه أو ببعضه كما ذكر الراغب في مفردات القرآن، والفسق عن الدين يقع بالقليل من الذنوب وبالكثير، لكنه تعورف فيما كان كثيرا، وقد قابل به القرآن الكريم الإيمان في قوله تعالى { أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ } السجدة 18.

ثم حث ثانيا على تزكية النفوس بكل أعمال البر والخير، تقربا بها إلى الله وحده، لأنه يعلمها ويشهد عليها ويجازي بها فقال: { وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللّهُ}. وأمر ثالثا بالتزود للسفرين، سفر الحج وسفر الآخرة فقال: { وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى }، وقد نزلت هذه الآية في أناس من أهل اليمن، كانوا يحجون بغير زاد ويقولون إنا متوكلون، ثم كانوا يسألون الناس، وربما ظلموا وغصبوا، فأمرهم الله تعالى أن يتزودوا بالمال والطعام الذي يغنيهم عن سؤال الناس، ويساعدهم على تحقيق التقوى المرجوة، والآية بذلك تسع الزادين المادي لسفر الحج، والمعنوي لسفر الآخرة طاعة لأمر الله واجتنابا لنواهيه وعملا صالحا وطهارة قلوب وأفئدة ونفوس. ثم توّج عز وجل أوامر التخلية من الموبقات والتحلية والتزكية عبادة وبرا، والتزود للدنيا والآخرة، بالالتفات إلى ذوي العقول السوية الراشدة الواعية مؤكدا أمره لهم بالتقوى، لأن وجوبها عليهم أثبت وإعراضهم عنها أقبح وأشنع فقال: { وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ}. مؤكدا أن الزاد المعنوي للآخرة لا يتنافى مع تحصيل الزاد المادي للدنيا متى توفرت التقوى بقوله تعالى: { لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ} والجناح معناه الإثم، أي لا إثم ولا حرج على الحاج إذا ما طلب في موسم الحج رزقا حلالا عن طريق الكسب، تجارة أو خدمات ومعاملات مشروعة، إذ لا تعارض بين ذلك وبين عبادات الحج وشعائره ومناسكه، قال تعالى أيضا: {وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ } الحج 28/27. وقد روى البخاري عن ابن عباس قال: (كَانَتْ عُكَاظُ وَمَجَنَّةُ وَذُو الْمَجَازِ أَسْوَاقًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَتَأَثَّمُوا أَنْ يَتَّجِرُوا فِي الْمَوَاسِمِ فَنَزَلَتْ { لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُم})، وروى أحمد عن أبي أمامة التيمي قال: (قُلْتُ لِابْنِ عُمَرَ: إِنَّا نُكْرِي فَهَلْ لَنَا مِنْ حَجٍّ؟ قَالَ: أَلَيْسَ تَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ وَتَأْتُونَ الْمُعَرَّفَ وَتَرْمُونَ الْجِمَارَ وَتَحْلِقُونَ رُءُوسَكُمْ؟ قَالَ: قُلْنَا بَلَى، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَأَلَهُ عَنْ الَّذِي سَأَلْتَنِي فَلَمْ يُجِبْهُ حَتَّى

نزَلَ عَلَيْهِ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَام بِهَذِهِ الْآيَةِ { لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ}، فَدَعَاهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: أَنْتُمْ حُجَّاج)، فكانت هذه الآية الكريمة فيصلا سَوَّى به الله تعالى في الأجر بين فقراء الحجاج ممن يضطرون للتكسب في الموسم وبين أغنيائهم، ثم خاطبهم جميعا بقوله: { فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُواْ اللّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّآلِّينَ} وأصل الإفاضة من فعل" فاض" الماء أو الدمع أو غيرهما، يفيض فيضا إذا كثر حتى سال، والإفاضة دفع الحجاج وزحفهم من عرفات إلى مزدلفة ثم إلى منى، وأَفاضَ الناسُ من عَرَفاتٍ إلى مِنى أي اندفعوا بكثرة إليها ملبين،وكان العرب يسمون الخروجَ من عرفة الدفعَ، والخروجَ من مزدلفة الإفاضةَ، فأطلق القرآن الإفاضة على الخروجين، وكانوا يحدثون في دفعهم جلبة وضوضاء تتنافى مع مقاصد الحج وآدابه فنهاهم القرآن عن ذلك وأمر عند الإفاضة وفي المشعر الحرام بالاشتغال بذكر الله وشكره على ما هداهم إليه من تعاليم القرآن الكريم والسنة النبوية، وما أنقذهم منه من ضلال الجاهلية وغيها.

ثم خطا بهم الوحي خطوة ترشيدية أخرى محت ما بقي من رواسب المجتمع الجاهلي، وفوارق طبقاته، وكانت قريش تتعالى على سائر العرب، وتقول نحن أبناء الحرم وقُطَّان بيت الله، ويسمون أنفسهم الحُمْس[54] أي ذوي الشدة والصلابة في الدين، فلا يخرجون لذلك من الحرم ولا يقفون بعرفة، بل بمزدلفة يدفعون منها، فأنزل الله تعالى قوله: { ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ }، وقد روى الإمام مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت:(الْحُمْسُ هُمْ الَّذِينَ أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِمْ {ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاس})، وقالت: (كَانَ النَّاسُ يُفِيضُونَ مِنْ عَرَفَاتٍ وَكَانَ الْحُمْسُ يُفِيضُونَ مِنْ الْمُزْدَلِفَةِ يَقُولُونَ لَا نُفِيضُ إِلَّا مِنْ الْحَرَمِ، فَلَمَّا نَزَلَتْ {أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاس} رَجَعُوا إِلَى عَرَفَاتٍ)، أي قفوا مع الناس في عرفة وأفيضوا منه كما يفيض غيركم، واستغفروا الله تعالى، فما أنتم إلا من جملة المسلمين، سواسية كأسنان المشط. وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل بعثته يأبى هذا التمييز والعنجهية والتعالي لدى قومه فيقف مع عموم الناس بعرفة كما في رواية المستدرك على الصحيحين عن نافع بن جبير عن أبيه جبير بن مطعم قال:(كانت قريش إنما تدفع من المزدلفة ويقولون نحن الحُمْسُ فلا نخرج من الحرم، و قد تركوا الموقف على عرفة، قال: فرأيت رسول الله صلى الله عليه و سلم في الجاهلية يقف مع الناس بعرفة على جمل له ثم يصبح مع قومه بالمزدلفة فيقف معهم يدفع إذا دفعوا) وفي رواية أحمد: (رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبْلَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِ، وَإِنَّهُ لَوَاقِفٌ عَلَى بَعِيرٍ لَهُ بِعَرَفَاتٍ مَعَ النَّاسِ حَتَّى يَدْفَعَ مَعَهُمْ مِنْهَا تَوْفِيقًا مِنْ اللَّهِ لَهُ).

---

54 – من فعل: "حَمِسَ" القتال أي اشتد، واحتمس القِرنان إذا اقتتلا بضراوة، وتحمس الرجل إذا تعاصى، والحماسة المنع والمحاربة. ورجل أحمس متشدِّد على نفسه في الدين، ورجال حُمْس بنفس المعنى.

ويواصل القرآن الكريم تعليم شعائر الحج فيأتي على ما ينبغي أن يختم به لتتم النعمة وتؤتي شعائره ثمارها مغفرة وأجرا، وكان العرب في الجاهلية إذا أنهوا حجهم جلسوا حِلَقاً في منى يتفاخرون بآبائهم وأيامهم، وبما فعل بعضهم ببعض، فنهاهم الوحي عن هذه الخصال، وأمرهم بالكف عن ذكر الآباء والأجداد وقد ماتوا على الكفر، بقوله تعالى: { فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُواْ اللّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً} فإذا ذبحتم نسائككم وفرغتم من حجكم، فاذكروا الله تعالى بأشد مما كنتم تذكرون آباءكم، فما ذكر الآباء والأجداد بمُقَرِّبكم من الله، إن هو إلا لهو ولعب، قال تعالى: { اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ} وقال: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} المنافقون9، وقال صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَفَخْرَهَا بِالْآبَاءِ مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ، أَنْتُمْ بَنُو آدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ، لَيَدَعَنَّ رِجَالٌ فَخْرَهُمْ بِأَقْوَامٍ إِنَّمَا هُمْ فَحْمٌ مِنْ فَحْمِ جَهَنَّمَ أَوْ لَيَكُونُنَّ أَهْوَنَ عَلَى اللَّهِ مِنْ الْجِعْلَانِ الَّتِي تَدْفَعُ بِأَنْفِهَا النَّتِنَ). اذكروا آلاء الله عز وجل وفضله ونعمه وما تنتظرون من خير في الآخرة جزاء طاعته، اذكروه بالحمد والثناء والشكر والتعظيم له دون غيره، بدل ما كنتم تذكرون وتدعون. ولئن كان ذكره حمدا وشكرا وتعظيما وتمجيدا وتكبيرا، فإنه كذلك دعاء ورغبة فيما عنده ورهبة، قال تعالى: { إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ} الأنبياء90، لذلك بادر الوحي بتلقين كيفية الدعاء اللائق بالمؤمن في ختام مناسكه وفي كل حين، وضرب لذلك مثلين من أدعية القوم، مثلا من طلاب الدنيا وليس لهم نصيب من الآخرة فقال: { فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ} أي ليس له نصيب من خير الآخرة، ومَثَلا ممن فازوا بخيري الدنيا والآخرة فقال: { وِمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}، وفي الصحيحين عن أنس قال:(كَانَ أَكْثَرُ دُعَاءِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّار)، وفي صحيح مسلم: (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَادَ رَجُلًا مِنْ الْمُسْلِمِينَ قَدْ خَفَتَ فَصَارَ مِثْلَ الْفَرْخِ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هَلْ كُنْتَ تَدْعُو بِشَيْءٍ أَوْ تَسْأَلُهُ إِيَّاهُ؟ قَالَ: نَعَمْ كُنْتُ أَقُولُ اللَّهُمَّ مَا كُنْتَ مُعَاقِبِي بِهِ فِي الْآخِرَةِ فَعَجِّلْهُ لِي فِي الدُّنْيَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: سُبْحَانَ اللَّهِ! لَا تُطِيقُهُ، أَوْ لَا تَسْتَطِيعُهُ، أَفَلَا قُلْتَ: اللَّهُمَّ { آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ }، قَالَ: فَدَعَا اللَّهَ لَهُ فَشَفَاهُ).

وحيث إن الناس في دعائهم فريقان، فريق سأل الدنيا وحدها وفريق سأل خير الدنيا والآخرة، فقد بين الله تعالى أن لكل منهما نصيبا مما عمله وسأله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر فقال: { أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ}، وختم بأحكام أيام التشريق الثلاثة، وجعلها أيام ذكر، ورخص للمتعجل في الاكتفاء بيومين فقال: { وَاذْكُرُواْ اللّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ} هي أيام التشريق، { فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى} أي لا إثم ولا حرج على من اكتفى بيومين مقاما بمنى، ولا على من بقي فيها ثلاثة أيام، ثم توج عز وجل أحكام الحج والعمرة في

هذه الآيات الكريمة بالحث على التقوى والحض على مداومتها في كل الأحوال فقال: { وَاتَّقُواْ اللّهَ}، وذكَّر بيوم الدين إذ يحشر الناس للحساب فقال: { وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ}، وهو نظير قوله تعالى: { وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا} الكهف 48.

بهذه الآيات المباركة نختم القسم الثالث من سورة البقرة، وقد أُجْمِلَتْ فيها مبادئ الإسلام وأسسه، عقيدة وبرا وأركانا، وقواعد وسناما. لنشرع في القسم الرابع وقد فُصِّل فيه ما أُوجِزَ في سابقه، وخُتِمَ بشهادته عز وجل للأمة الإسلامية بالطاعة والإيمان، وزُوِّدَ بمشكاة آية الكرسي أنوارا للمعرفة والإحسان، فإلى هذا القسم بإذن الله تعالى وعونه وتوفيقه، { رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} البقرة286.

القسم الرابع

من سورة البقرة

إعادة بناء المجتمع الإسلامي الجديد

تمهيد:

معالم الفوز والتكريم

كان القسم الثالث من سورة البقرة مقدمة للقسم الرابع بما حواه من مجملات للعقيدة والشريعة وقواعد السلوك، ذكرت فيها أركان الإسلام الخمسة، وحدة توجه إلى رب واحد من خلال قبلة واحدة إيمانا وتوحيدا، وصلاة وزكاة، وصوما وحجا، وما يجمعها كلها برا وإحسانا، وما يحفظها ويحمي أهلها جهادا في سبيل الله تعالى هو قوام الأمر وسنامه.

أما هذا القسم الرابع والأخير فقد تميز بثلاث:

أولاهن تفصيل ما ورد في القسم السابق من أحكام مجملة أبلغ تفصيل، وبيان منهج تنزيلها في واقع الحياة العملية للمؤمن، بما يكفل إعادة بناء المجتمع الإسلامي الجديد الذي تشيد حصونه في المدينة، ليكون نموذجا تحتذيه بقاع الأرض التي يصلها نور الإسلام وشريعته.

بدأ أولا ببيان أسباب الفساد وطرق علاجه والمناعة منه، ومناهج الصلاح والإصلاح في الفرد والمجتمع، تكريسا للبر والإحسان في العلاقات والمعاملات وتثبيتا لنفوس طيبة تؤثر مرضاة الله تعالى فتبيع الدنيا وتشتري الآخرة.

ثم ثنى بغاية الوجود الإنساني في الأرض، وهي سعادته الدنيوية ونجاته الأخروية، وليس لذلك من سبيل إلا الإيمان والهجرة والجهاد.

ثم انتقل إلى بناء الأسرة المسلمة وهي النواة الأولى التي يقوم عليها حصن الإسلام ودولته، فحرم من المكاسب والمطاعم خبيثها وضارها خمرا وميسرا وأكلا لأموال اليتامى، ووضع أسس قيام الحياة الزوجية الكريمة وفاقا وولاء وأدب معاشرة بين الزوجين، وضوابط كفالة للأبناء وتنشئتهم وتربيتهم في حالتي العسر واليسر، والوفاق والشقاق. وبين أحكام الطلاق والرجعة والإيلاء والأيمان والكفارات والعدة في حالتي البينونة الصغرى والكبرى، وحقوق الزوجة والزوج وواجباتهما عند قيام الحياة الزوجية أو انفصامها بالطلاق أو الوفاة.

وبعد بناء نواة الأسرة المسلمة، عقب بثلاثية البناء الداخلي للنفسية المسلمة، عقيدة قتالية تحفظ العرض والأرض والدين، مبنية على جوهر التوحيد الخالص الذي لا تشوبه الأوهام والظنون، وعلى ولاء لا يخذله خوف من موت أو حرص على حياة.

ثم عاد إلى مواصلة بناء المجتمع في علاقاته المادية الاقتصادية إنفاقا في سبيل الله بغير منٍّ أو أذى، مفصلا أولوياته ومستحقيه، حلاله وحرامه، طيبه وخبيثه، مبينا عقب ذلك أحكام البيع والربا، والديون والرهن، في حالتي العسرة والميسرة، وضرورة توثيق العقود، وواجب الإشهاد عليها حفظا لوحدة صف المسلمين، ودرءا لأسباب الخلاف والخصام والشقاق بينهم.

فكان هذا القسم بحق تكملة وتوضيحا وتنزيلا لما سبقه من قواعد وأحكام في حياة واقعية راقية متحضرة تكفل سعادة الدنيا وحسن ثواب الآخرة، وكانت سورة البقرة به ترجمانا لكليات العقيدة والشريعة، كما كانت سورة الفاتحة قبلها إيجازا محكما لأساسيات الدين كله، وبراعة استهلال للقرآن وعنوانا للذكر الحكيم، وكان ما بعدهما من سور القرآن الكريم الأخرى، ومن سنة الرسول صلى الله عليه وسلم بيانا وتفصيلا وتوسعا وشرحا.

والميزة الثانية لهذا القسم هي اشتماله علي سيدة آي القرآن الكريم، آية الكرسي وفيها اسم الله الأعظم، وقد فصلت بأروع بيان معالم الإيمان والإحسان، حوت أمهات العقيدة، وجمعت أصول الأسماء والصفات، صفات لله تعالى وحدانية وحياة وقيومية وعلوا وعظمة، وإبداعا من العدم على غير مثال سبق، ومالكية للكون ما وجد وما يوجد، وعلما شاملا بالأشياء كلها جَليّها وخَفيّها، كُليّها وجُزْئيّها، ما خلق وما يخلق، واستفرادا بالشفاعة إلا بإذنه، وولايةً لعباده المؤمنين يخرجهم بها من الظلمات إلى النور برحمته، لا يشقُّ عليه عز وجل شاقٌّ، ولا يشْغَله شأن عن شأن، مُتَعَالٍ عن تناول الأوهام، عظيمٌ لا تحيط به الأفهام، ولذلك قال عنها الرسول صلى الله عليه وسلم: (من قرأ آية الكرسي دبر كل صلاة لم يمنعه من دخول الجنة إلا أن يموت)، وقال: (من قرأ آية الكرسى فى دبر الصلاة المكتوبة كان فى ذمة الله إلى الصلاة الأخرى)، وعَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: (يَا أَبَا الْمُنْذِرِ أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟)، قَالَ: قُلْتُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ:(يَا أَبَا الْمُنْذِرِ أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟) قَالَ قُلْتُ: { اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ }، قَالَ فَضَرَبَ فِي صَدْرِي وَقَالَ:(وَاللَّهِ لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ)، وعن أبي أمامة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن اسم الله الأعظم لفي ثلاث سور من القرآن، في سورة البقرة، وآل عمران، وطه) فالتمستها فوجدت في سورة البقرة آية الكرسي { اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ }، وفي سورة آل عمران { الم اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّوم }، وفي سورة طه { وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّوم }.

أما الميزة الثالثة فشهادة الله تعالى للأمة الإسلامية بالطاعة والإيمان والإحسان، وثناؤه عليها بقوله عز وجل: { آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ } البقرة285، هذه الآية هي شهادة التكريم والتزكية، وإشارة الرضا والقبول، ومَعْلَمُ الفوزِ والنُّجْحِ والوصول، شهادة تزكية وتبرئة لمحمد صلى الله عليه وسلم وأتباعه: { وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا } الفتح28، { قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ } الأنعام 19. فهنيئا لهذه الأمة المرحومة بشهادة ربها لها ورضاه عن صفاء إيمانها وسلامة قلبها وصدق إنابتها، شهادة يعتز بها كل مسلم ويتمسك بها كل مؤمن، قول الحق منه تعالى: { وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا } النساء122.

الفساد:

أسبابه ونتائجه، علاجه والمناعة منه

قال الله تعالى: { وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (204) وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ (205) وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ (206) وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللهِ وَاللهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ (207) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (208) فَإِن زَلَلْتُمْ مِّن بَعْدِ مَا جَاءتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (209) هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلآئِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأمُورُ (210) سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (211) زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ اتَّقَواْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (212) كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (213)} / سورة البقرة

حب الدنيا وإيثارها مالا وجاها وسلطة رأسُ كل فساد، وحبُّ الآخرة والعملُ لها سبيلُ الفلاح والسداد، والنوايا فيصلٌ في ذلك كله، قال صلى الله عليه وسلم: (إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى)، وما النجاة إلا قصد حسن وعمل بالكتاب والسنة، ورحمة من الله تعالى تتغمد، ذلك معنى قوله صلى الله عليه وسلم: (سَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَاغْدُوا وَرُوحُوا وَشَيْءٌ مِنَ الدُّلْجَةِ وَالْقَصْدَ الْقَصْدَ تَبْلُغُوا).

إن نقطة الانطلاق في أي عمل هي النية والقصد، من ثَمَّ يختار المرء بين أحد اتجاهين لا يلتقيان أبدا، وكأنما اختار نقطة النهاية إذ اختار نقطة البداية، لأن الرضا بالشيء رضا بنتيجته، لذلك قال خالق النفس علام خفاياها عز وجل: { مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ } آل عمران 152.

ولئن عودنا الوحي أن يقدم بعض الأحكام والعظات مجملة كما في قوله تعالى: { فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ وِمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ } البقرة 201/200, ويأتي بها بعد ذلك مفصلة قابلة للتنزيل على واقع الحياة ومعاملات الناس، فإنه في هذه الآيات الكريمة قد سار على نفس النهج، إذ أوجز معنى الفساد في إيثار الدنيا ومعنى الصلاح في إيثار الآخرة، ثم بين ذلك بتفصيل أكثر فذكر نموذجين لهما لا يخفى أمرهما على بصير، أحدهما باع نفسه للدنيا فكان بذرة للفساد والإفساد، وآخر باعها لربه من أجل الآخرة فصلحت به الدنيا، وسلمت له الآخرة.

أما النموذج الأول فقال عنه عز وجل: { وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ }، إنه صنف متصنع ذَرِب اللسان، مزخرف العبارة منمق اللفظ، متشيطن القول والعمل، يثير الإعجاب بحسن بيانه، ويضلل بحلاوة لسانه، ليس له من هم إلا أن يظهر للناس بأحسن مظهر، وأن يقول لهم أحسن ما يودون سماعه، إن خاطب تقيّاً بَهَرَه بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية والدعوات الزكية، وإن خاطب فاجرا ألان له القولَ وتودد له وتحبب إليه، وغض الطرف عن انحرافه وجعل همه نيل خدماته، فقوله يعجب الجميع، أما قصده ومكنون سره فليس إلا ما يختاره ويؤثره ويعمل له من بهرج الحياة ونعيمها، إن تحدث عن التقوى فهو أفصح من تكلم، وإن ألقى خطبة عن البر فهو أبر من خطب، أو عن الخير فهو أقدر من يوفره، أو عن الصدق فهو أجدر من يمثله، وإن أحس ترددا في قبول خطابه لم يتورع عن أن يقسمَ بالله على سلامة طويته، ويشهدَه على حسن نيته وسلامة مقصده { وَيُشْهِدُ اللّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ }، والله تعالى يعلم فساد ضميره، ورداءة أهدافه، وخلو قلبه من كل محبة للناس، أو حرص على بذل الخير لهم، لأنهم في نظره خصوم ينازعونه منافع الدنيا، ويحولون بينه وبين الاستئثار بها، كل منفعة لديهم هو أولى بها وكل خير بأيديهم هو أجدر به، فهو لذلك ألد خصومهم، { وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ}، والأَلَدُّ في اللغة: الشديدُ الخصومة، الجَدِل الذي لا يميل إلى الحق أبدا، ويحرص على الغلبة في أي وجه من وجوه الخصومة، تقول: لَدَدْتُ فُلاناً أَلُدُّه إذا جادَلْتَه فغَلَبْتَه، ولَدَّه عن الأَمْرِ لَدًّا: حَبَسَه، ورجل أَلَدُّ بَيِّنُ اللَّدَد شديد الخصومة، وامرأَة لَدَّاء وقوم لُدّ، ومنه قول عمر رضي الله عنه لأُم سلمة:" فأَنا منهم بين أَلْسِنَةٍ لِدادٍ وقلوب شِداد وسُيوف حِداد ".

هذا النموذج من الناس تلقاه في جميع مجالات الحياة، تلقاه بين التجار إن تاجرتهم، وبين العلماء إن خالطتهم، وبين الصناع إن عاملتهم، كما تلقاه في عالم السياسة تنافسا في الانتخابات، وترشحا لأعلى الوظائف والوزارت، وفي جميع المؤسسات التدبيرية تمظهرا بالصلاح وتباهيا بوهم الكفاية والفلاح، فإن رأى أحدا ينافسه على جيف المكاسب وخبيث المآرب فجر في الخصومة، واشتد في المعاداة، وأقذع في القذف، وتخلى عن العرض وكريم الشيم، وتنكر لروابط العقيدة والرحم، ورمى غيره بأسوأ ما يعرفه من نفسه، وحدث ولا حرج إن كان الغرض عضوية في برلمان أو تقربا من رئيس أو سلطان.

هذا الصنف من المتكالبين على الدنيا، المرائين بزيف الفضائل، هم منبت الفساد في الأرض، وسدنة زرعه، وولاة أمره، بهم تنخر حصون الأمة من داخلها، وعلى يدهم تذهب ريحها ويندثر بنيانها، تمحق بركة حرثها جهدا وإنتاجا، ويفسد نسلها وذريتها أجسادا وعقولا وأخلاقا، قال تعالى: { وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ }، وروي عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال: (بئس العبد عبد يختل الدنيا بالدين، بئس العبد عبد يختل الدين بالشبهات، بئس العبد عبد يصده الرعب عن الحق، بئس العبد عبدُ طمعٍ يقوده، بئس العبد عبدُ هوى يضله).

وقد اختلف الرواة فيمن نزلت هذه الآية على ثلاثة أقوال، أحدها: أنها نزلت في الأخنس بن شريق، كان لين الكلام، كافر القلب يظهر للنبي الحسن، ويحلف له أنه يحبه، ويتبعه على دينه، وهو يضمر غير ذلك، والثاني: أنها نزلت فيمن نافق فأظهر بلسانه ما ليس في قلبه. والثالث: أنها نزلت في سرية الرجيع، وذلك أن كفار قريش بعثوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وهو بالمدينة: " إنا قد أسلمنا فابعث لنا نفرا من أصحابك يعلمونا ديننا "، فبعث صلى الله عليه وسلم خبيب بن عدي ومَرْثَدا الغَنَوي، وخالد بن بكير، وعبد الله بن طارق، وزيد بن الدَّثِنَّة، فلما كانوا بين مكة والمدينة أحاط بهم المشركون فحاربوهم، فقتلوا مرثدا، وخالدا، وابن طارق، ونثر عاصم كنانته وفيها سبعة أسهم، فقتل بكل سهم رجلا من عظمائهم، ثم قال: اللهم إني حميت دينك صدر النهار، فاحم لحمي آخر النهار، ثم أحاطوا به فقتلوه، وأرادوا حز رأسه، فأرسل الله تعالى رِجْلا[55] من الزنابير فحمته فلم يقدروا عليه فقالوا: دعوه حتى يمسي فتذهب عنه الزنابير، فنأخذه، فجاءت سحابة فأمطرت، فبعث الله الوادي فاحتمله فذهب به، وأسروا خبيبا وزيدا، فابتاع بنو الحارث بن عامر خبيبا ليقتلوه، لأنه قتل آباءهم، فلما خرجوا به ليقتلوه قال: دعوني أصلي ركعتين، فتركوه يصلى ركعتين، ثم صلبوه حيا، فقال: اللهم إني لا أجد من يبلغ رسولك عني السلام، فبلغ رسولك مني السلام، وروى البيهقي في دلائل النبوة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال حينئذ: وعليه السلام، فقال أصحابه: يا نبي الله من؟ قال: أخوكم خبيب بن عدي يقتل، وأما زيد فابتاعه صفوان بن أمية ليقتله بأبيه فجاءه سفيان بن حرب حين قدم ليقتله، فقال: يا زيد أنشدك الله، أتحب أن محمدا مكانك، وأنك في أهلك؟ فقال: والله ما أحب أن محمدا الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأنا جالس في أهلي؟ ثم قتل، فقال بعض المنافقين في أصحاب خبيب ويح هؤلاء المقتولين، لا في بيوتهم قعدوا، ولا رسالةَ صاحبهم أدَّوا، فأنزل الله تعالى هذه الآية وثلاث آيات بعدها.

---

55 – الرِّجْل جمع أرجال: الطائفة العظيمة من الجراد ونحوه، منه حديث ابن عباس أَنه دَخَل مكَّة رِجْلٌ من جَراد فَجَعل غِلْمانُ مكة يأْخذون منه.

وأيا ما كانت أسباب النزول، فإن معنى الآية مرتبط أيضا بمعاني ألفاظها، وهي تشير إلى أن المنافق المتزين للناس إذا ما تولى سعى بالفساد في الأرض، والتولي لغة من فعل "ولي"، والواو واللام والياء: أصلٌ صحيح يدلُّ على قرب، من ذلك الوَلْيُ وهو القرْب. يقال: تَباعَدَ بعد وَلْيٍ، وتولَّى الشيءَ لزِمَه، وتَوَلَّى العَمَلَ: تَقَلَّده، ووَلاَّه الأَميرُ عَملَ كذا ووَلاَّه بيعَ الشيءِ: كلفه به، قال الحسن بن علي رضي الله عنهما، لأبيه لما أَمره بجلد الوليد بن عقبة: وَلِّ حارَّها من تَوَلَّى قارَّها، أَي وَلِّ شرَّها من تولَّى خَيْرَها, ومنه الوِلاية والوَلايةِ والوَلْية والتَّوَلِّي، وإذا عُدِّيَ فِعْل "تولى" بحرف "عن" لفظا أو تقديرا أفاد معنى الإعراض والإدبار والانصراف، ومنه قوله تعالى { فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ } أي أعرضوا عنه، وكما يكون الإعراض عن الشيء معنويا يكون جسديا ويكون بترك الإصغاء والطاعة كما في قوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ } الأنفال20، قال الفراء في قوله تعالى: { فهل عَسيتم إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدوا فِي الأَرض } أَي توليتم أُمور الناس، وقال الشوكاني: إذا كان والياً فعل ما يفعله ولاة السوء من الفساد في الأرض. وقال ابن الجوزي في زاد المسير: "فيه أربعة أقوال، أحدها أنه بمعنى غضب، روي عن ابن عباس، وابن جريج. والثاني أنه الانصراف عن القول الذي قاله، قاله الحسن. والثالث: أنه من الولاية فتقديره إذا صار واليا، قاله مجاهد، والضحاك. والرابع: أنه الانصراف بالبدن، قاله مقاتل، وابن قتيبة "، وعلى هذا فقوله تعالى: {وَإِذَا تَوَلَّى} تفيد معنيين أولهما: أنه إذا قال ما يعجب الناس ثم انصرف عنهم وتوارى عن أنظارهم عمل ما يفسد مجتمعهم ويخرب صفهم ويهلك حرثهم ونسلهم. والمعنى الثاني وهو الأرجح من سياق الآية الكريمة أنه إذا نال بنفاقه ثقة الناس فولَّوْه منصبا أو ولاية استغل نفوذه وسلطته فأفسد وأشاع الفساد، سرقة ونهبا ونصبا ورشى ومتاجرة في البلاد والعباد. وهو ما عبرت عنه الآية الكريمة بقوله تعالى: { سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ }. والسعي معناه العمل الدؤوب المتواصل، من سعى يسعى سعيا أسرع السير وعدا، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: (إذا أتيتم الصلاةَ فلا تأتوها وأنتم تسعون، وأتوها تمشون وعليكم السكينة فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فاقضوا)، والمنافق المرائي لشطارته في اهتبال الفرص واحتلاب المناصب يسرع السعي لتحقيق أهدافه بأشد الوسائل قبحا وخبثا وبغيا وفسادا، فتكون بذلك ولايته محضنا للفساد في الأمة، وآلة لتفريخ مهلكات الحرث والنسل. ولئن استغفل الناسَ فأعجبهم كلامه فولوه أمرهم، فإن الله تعالى لا تخدعه المظاهر عما تُكِنُّه السرائر، ولا تخفى عنه حقيقة أعمال المصلحين والمفسدين ونواياهم، وهو عز وجل لا يحب الفساد وأهله { وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ }، وليس من مصير لمن يبغضه الله تعالى إلا الجحيم.

إن إفساد هذا الصنف من الفجار في الأرض بمنطوق الآية الكريمة عام شامل مطلق، كما يكون فرديا في النوايا وما تنعقد عليه القلوب يكون في أعمال الجوارح وأعضاء الجسد، وكما يكون في القادة يكون في العامة، وكما يكون في البيئة الطبيعية هواء وتربة وماء واستزراعا يكون في البيئة الإنسانية علاقات وعواطف ومعاملات ومروءات وهمما، وكما يكون في السياسة انتهازية ونصبا يكون في الاجتماع غشا وخيانة، وفي الاقتصاد غلولا وسرقة وسفها، وفي العدالة ظلما في

القوانين وفصل القضاء، وفي الثقافة انحراف أدب وفكر وبحث علمي، وفي التربية والتعليم فساد تنشئة وتأهيل وترشيد وإعداد وتوجيه. وإنما يتولى كبر ذلك من أنشأه وبثه وسنه وزرع بذرته، وهوالمنافق المتمظهر بالخير والصلاح، إذا تولى مرفقا عاما أفسده وجعله قناة لتسريب الفساد إلى غيره. والفساد إن تسرب إلى أي عضو من جسد الأمة ولم يستأصل أو يحاصر تسلل إلى جميع الأعضاء، وإذا استوطن قطاعا في المجتمع ولم يكافح تسلل إلى جميع القطاعات العامة والخاصة فأهلكها وقوض بنيانها، الفساد يشوه عمليةَ الشورى في نظام الحكم إن اعْتُمِدَتْ، والتمثيلَ النيابيَّ إن عُمِلَ به، يزيف القرار التدبيري ويجيره لصالح النخبة الحاكمة وحوارييها، يحتكر الخدمات العامة في فئات أصحاب النفوذ وأهل الرُّشَى أخذا وعطاء، يطيح بحيادية القوانين والتشريعات ومساواة المواطنين أمامها، وبأركان النظم الإدارية في الدولة. هذا واقع حال الأمة وما شاع ذكره عنها، مما نشرته وسائل الإعلام مكتوبة ومسموعة ومرئية، عن ولاة نهبوا ولاياتِهم، وأمناء نصبوا وكذبوا على أمتهم، ووزراء سرقوا المال العام وخانوا أماناتهم، وبرلمانيين تحولوا سماسرة وغَشَشَةً وراشين ومرتشين، ورؤساء دول تجاوزوا عتاة العصابات العالمية بغيا ونصبا واحتيالا، كلهم تزينوا للجماهير المغفلة، وأشهدوا الله على ما في قلوبهم بأغلظ الأيمان.

إن أعمال الناس لا تخلو أن تكون إحدى أربع حالات، حالة صلاح بَيِّنٍ وحالة فساد بَيِّنٍ، وحالة تغلب عليها قرائن الصلاح وحالة تغلب عليها قرائن الفساد، والمؤمن في مواجهة هذه الحالات عليه ألا ينخدع بمعسول القول وطلاوة الخطاب، لأنه مكلف بالتبين والتثبت والبحث عن الحقيقة وراء الكلام المنمق والرياء المنافق المتودد، ومسؤول عن تفحص النوايا والأقوال والأعمال والأحوال ومقارنتها ومحاكمتها إلى الكتاب والسنة، لذلك كان العلم الشرعي أقربَ طرق الرشد لا يُسْتغفَل صاحبه، وأقومَ أساليب التنشئة على الصلاح لا ينحرف من وعاه، وكان الجهل أخطر سبل الفساد لا يهتدي من ركن إليه، والمرائي والمنافق والوصولي والانتهازي إذا عرض حاله على العلم كتابا وسنة انكشف أمره، واستبانت مراميه، إذ جميع صفاته جردتها النصوص، وكل تمظهراته كشفتها الآيات، وقد حذر عز وجل من الركون إليه وبين نتيجة سعيه إن تولى أمر الأمة فقال: { وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ }، والحرث كناية عن جميع عمل المرء وسعيه، عملِه لاستصلاح الدنيا بتعميرها والإنتاج فيها، وسعيِه للآخرة بالتزود لها سلامة عقيدة وحسن عبادة وفعل خيرات، فإذا استوطن الفساد جسد الأمة خربت ذمم أهلها ومروءاتهم، واختل اقتصادهم وانهارت مجتمعاتهم، وعمهم الفقر بذله وهوانه ومسكنته فضاعت منهم الدنيا، وعمتهم الفتن وضلوا عن دينهم، وعموا عن الصراط المستقيم فضاعت منهم الآخرة، أما النسل فكناية عن جميع ما يحفظ البقاء الحيوي في الأرض، وهو الذرية، ويكفي دليلا على هلاك النسل بالفساد أن أبناء المسلمين في هذا العصر فئات، فئة تفر من الفقر في قوارب الموت فيغرق في البحر منها من يغرق، ويفقد من نجا منها إلى الشاطئ الأروبي كرامته وعرضه ودينه وأهله ووطنه وأصوله وفروعه، وفئة ارتدت عن دينها من أجل فتات خبز يتصدق به المنصرون عليها في وطنها الذي استأثر بخيراته المفسدون، وفئة تبيع أجسادها للسواح من كل جنس، فتملأ

بطونَها طعاما وأجسادها أمراضا، ونفوسَها حقارة وصغارا، وفئة احتكرت السلطة والثروة فاغتربت عن مجتمعها وعادت أمتها، واحتمت بالأجنبي فأذلها وأفقدها فحولة الرجال ومروءة النساء، وفئة غارت لأمتها فقامت تَنْصُرُ الحق وتأمرُ بالمعروف فكان مصيرها إعداما بغطاء قضاء فاسد، أو اغتيالا بجهاز قمع شرس، أو غياهبَ سجون ومنافي، فهل بعد هلاك النسل هذا من هلاك؟

هؤلاء المراؤون المتزينون للناس يستغفلونهم، لا يقتصر شرهم على الإفساد والفساد فقط، ولكنهم أيضا عصاة عن الانصلاح أباة للنصح والرشد، عتاة على من يأمرهم بمعروف أو ينهاهم عن منكر، كل منهم في منصبه طاغية، وكل منهم يَعُدُّ إثمَ فسادِه صلاحا يَعْتزُّ به، وصوابا لا يعرفه غيرُه { وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ } أي إذا قُدِّمَتْ لهذا الفاجر نصيحة أو موعظة، أو قيل له اتق الله وتب إليه، أخذته حمية الجاهلية، وزادته السلطة طغيانا، والجاه عتوا على الناس واستعلاء، والولاية نفورا واستكبارا، أما عاقبة أمره فقوله تعالى: { فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ }. وقد صيغت هذه الآية الكريمة بأسلوب التهكم والسخرية بهذا الصنف الفاسد المغرور، لأن المهاد جمع مهد وهو الفراش الوثير المعد للنوم والراحة، أي تكفيه جهنم هي فراشه الذي يستريح فيه ومهده اللين الذي ينام عليه، سنة الفساد في كل عصر، وعقلية المفسدين في كل زمان، ومصير الفراعنة والمتفرعنين من كل أمة, قال تعالى:

- { قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ } غافر29.
- { وَقَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ } الأعراف 127.
- { وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ } غافر26.
- { وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ } غافر46.

أما النموذج الثاني الذي يقدمه لنا الوحي الكريم، فمناقض للنموذج الأول، إنه يؤثر الآخرة ويبيع نفسه لربه، طلبا لمرضاته ورغبة في رضاه، قال تعالى: { وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللهِ وَاللهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ } أي من الناس من يبيع نفسه لربه مجاهدا في سبيله، وليس له من غاية إلا مرضاته والتقرب إليه، لأن فعل "شَرى يَشْري شِرىً وشِراءً"، من الأضداد، تفيد البيع كما في قوله تعالى: { وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ } يوسف20، أي باعوه، وقوله: { وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُون } البقرة102، أي باعوها، ويفيد أيضا معنى الشراء كما في قوله تعالى: { إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ } التوبة 111. وقد نزلت هذه الآية: { وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ...} كما قال ابن عباس في صهيب الرومي لما أسلم بمكة وأراد الهجرة، منعه المشركون أن يهاجر بماله، فإن أحب أن يتجرد منه ويهاجر فعل، فأعطاهم ماله وتخلص منهم، فتلقاه عمر بن الخطاب وجماعة إلى طرف الحرة وقالوا له: ربح

البيع، فقال: وأنتم فلا أخسر الله تجارتكم، وما ذاك؟ فأخبره عمر أن الله أنزل فيه هذه الآية، ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلّم قال له: (ربح البيع صهيب).

وسواء نزلت الآية في صهيب كما ذكر ابن عباس أو في غيره كما ذكر آخرون، فإنها عامة في كل من باع نفسه لله تعالى نصرة للدين أو ذَبّاً عن الشرع أو دفاعا عن أمة الإسلام وأرضه، أو صدعا بكلمة حق عند سلطان جائر أو غير ذلك من أوجه الجهاد وصوره. وقد روي أن عمر رضي الله تعالى عنه بعث جيشاً فحاصروا حصنا فتقدم منهم واحد، فقاتل حتى قتل، فقال بعض القوم: ألقى بيده إلى التهلكة، فقال عمر: كذبتم، رحم الله أبا فلان، وقرأ { وَمِنَ الناس مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابتغاء مَرْضَاتِ الله } .

لقد باع المجاهدون أنفسهم لله عز وجل طلبا لمرضاته، والمرضاة مصدر مبني على التاء من فعل "رضي عن الشيء وعليه" إذا أحبه واختاره وأقبل عليه، وفي الصحيحين: (قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، فَيَقُولُ: أَنَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، قَالُوا: يَا رَبِّ وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا)، لقد باعوا أنفسهم لربهم فاشتراها منهم وأغلى ثمنها وقال: { إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ} التوبة 111. وسمى ذلك تجارة في آية أخرى بقوله: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} الصف11/10. وختم سبحانه الحديث عن الصنف المؤمن الصادق بقوله: { والله رَؤُوفٌ بالعباد } في مقابل ما ختم به الحديث عن الصنف الأول المنافق بقوله { وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ }، أي أنه عز وجل رفيق رحيم بعباده الذين يبيعونه أنفسهم، يحسن ثوابهم ويضاعف أجرهم ويغلي ثمنهم ويجعل عاقبة أمرهم نعيما مقيما وعزا أثيرا وحياة لا موت فيها {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ} آل عمران 170/169.

ثم بعد أن بين رب العزة أن الناس صنفان، صنف زينوا ظاهرهم وخربوا باطنهم وشنوا حربا على خلق الله ينصبون عليهم ويبتزوهم ويستغلون ثقتهم، وصنف زينوا باطنهم وأخلصوا نيتهم وباعوا أنفسهم لله وآثروا مرضاته، خاطب الصنفين معا ووصفهما بالإيمان على طريق التغليب، استدراجا للصنف الأول إلى الخير، وتثبيتا للصنف الثاني على ما هو عليه من يقين وإحسان فقال: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً } والسلم في معانيه الحقيقية والمجازية يفيد معنى الإسلام والإيمان والسلام والصلح والطاعة والاستسلام، أي أنه تعالى أمر الطرفين بالدخول في حصن الإيمان والإسلام والثبات عليه، ولزوم حسن التعايش والمسالمة، وإقامة مجتمع إسلامي آمن، يتوب فيه الصنف الأول ويكف عن نفاقه

وعدوانيته ومكره بالناس، ويبذل فيه الصنف الثاني النصيحة للعصاة بالحسنى رجاء إصلاحهم، قال صلى الله عليه وسلم: (ألا أخبركم بالمؤمن؟ من أمنه الناس على أموالهم و أنفسهم، والمسلم من سلم الناس من لسانه ويده، والمجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله، والمهاجر من هجرالخطايا والذنوب)، وفي حجة الوداع يوم النحر قال صلى الله عليه وسلم من خطبة له: (فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، ألا فلا ترجعوا بعدي ضلالا يضرب بعضكم رقاب بعض، ألا هل بلغت؟، قالوا: نعم، قال: اللهم اشهد، فليبلِّغِ الشاهدُ الغائب، فرب مُبَلَّغٍ أوْعَى من سامع).

إن السياق الذي ورد فيه أمر الكافة بالدخول في السلم يشير إلى ما اصْطُلِحَ عليه حديثا بأمن المجتمع، ويشمل أمن الأمة في سيادتها وكافة مقوماتها، وأمن المواطنين بكافة أعراقهم وألوانهم ومشاربهم، ولا يتحقق ذلك إلا بالمساواةِ في الحقوق والواجبات والاحترام المتبادل بين الناس، والاعترافِ للجميع بحق الوجود والعيش الكريم، وضمانِ حرمة النفس والعرض والممتلكات، وحريةِ الرأي والتصرف بدون ضرر أو مضارة، ضمن نظام سياسي شوروي يعترف لجميع أفراد المجتمع بحق المشاركة في إنشاء قرارات التدبير العام وتنفيذها ومراقبتها والمحاسبة عليها، تحت مظلة كلمة سواء، ألا يعبد الناس إلا الله وحده ولا يتخذ بعضهم بعضا أربابا، وهذا يقتضي التحررَ من هيمنة الشيطان وأوليائه، والإعراضَ عن توجيهاته واتباع خطواته، لأنه عدو بَيّنُ العداوة للمؤمنين، ليس له من هم إلا إغواؤهم وفتنتهم { وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ }. فإن غلبكم الشيطان على أمركم، وزلت بكم الأقدام وانحرفت بكم الطريق، من بعد ما بُلِّغْتم الرسالةَ وعرفتم حقائقَ الشرع، فلا تنسوا أن الله تعالى عزيز قوي غالب قاهر، لا يمنعه مانع عنكم ولا يعجزه ما يريده منكم، حكيم عالم بمواطن الثواب والعقاب، والأعمال والنتائج والأسباب { فَإِن زَلَلْتُمْ مِّن بَعْدِ مَا جَاءتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}.

أما قوله تعالى عقب ذلك: { هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلآئِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللّهِ تُرْجَعُ الأمُورُ } فهو استفهامٌ إنكاري في معنى النفي، لتهديد الكفار والمنافقين والمصرين على المعصية والعناد بما ينتظرهم، أي ما ينتظر هؤلاء المكذبون بعد ما جاءتهم البينات إلا أن يحكم الله تعالى في أمرهم بما يستحقونه، فيعجل لهم نصيبا من العذاب في الدنيا كما عجله لمن سبقهم من قوم نوح وعاد وثمود ولوط وغيرهم، قال تعالى: { فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ } الشعراء189، وقال: { فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ } الأحقاف25/24، أو يؤخرهم إلى يوم يعرضون عليه لفصل القضاء، يوم يغشاهم لهول الموقف ما تتشقق السماء به وتنفطر عنه من الغمام { وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا } الفرقان

27/25، { يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا } طه 109/108، ويأتي الملائكة ينفذون ما يقضي به الله تعالى في عباده { يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا } النبأ 39/38، فيجزي عز وجل كُلّ عامل بعمله، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، {وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا } الزمر 73، { وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا } الزمر 71، وفي التعقيب على الآية بقوله تعالى: { وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ } تأكيد لنفس التهديد، وتذكير بأنه تعالى محيط بكل شيء وأن مرجع الأمور كلها إليه، شرعيةً كانت أو كونيةً، يعلم مبدأها ومآلها ويحكم فيها { إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ } الأنعام57.

أما ما ورد في هذه الآية الكريمة من معاني إتيانه عز وجل، فلا نقول فيه إلا ما قاله السلف الصالح من أنه إتيان كما يشاء سبحانه، بغير تشبيه أو تجسيم أو تمثيل أو تعطيل أو تأويل، إتيان يليق بجلاله لا تُعلَم كيفيته، ولا يسأل عنها؛ قال الإمام مالك رحمه الله لمن سأله عن قوله تعالى: { الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى } طه5:" الاستواءُ غيرُ مجهولٍ، والكيفُ غيرُ معقول، والإيمانُ به واجبٌ، والسؤالُ عنهُ بدعة، وما أراكَ إلا ضالا "، وأمر بمن سأله أن يُخرج من المجلس. وقال ربيعة بن عبد الرحمن شيخ مالك بن أنس وقد سئل عن نفس الآية:" الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، ومن الله تعالى الرسالة، وعلى الرسول صلى الله عليه وسلم البلاغ، وعلينا التصديق ".

أما أقوال أهل التأويل يصرفون الكلام عن ظاهره بلا دليل من كتاب أو سنة فمجرد وهم وتخرص لا يليقان بمؤمن يعرف حده ويقف عنده، وقد قال تعالى بغاية الوضوح والبلاغة والبيان إنه يأتي، ولو أراد غير ذلك لبينه، وليس لنا إلا أن نتوقف فيما ذكر على ما ذكر، وهذا لا يتعارض مع إضافة الإتيان في آيات أخرى إلى أمره تعالى أو آياته كما في قوله عز وجل { أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ } النحل1، وقوله: { هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ } الأنعام 158.

ثم بأسلوب الالتفات إلى تجربة بني إسرائيل مع الوحي والأنبياء والرسل، تذكيرا وتحذيرا، أمر عز وجل رسوله صلى الله عليه وسلم أن يسأل معاصريه من اليهود تبكيتا لهم وتوبيخا، عما آتاهم ربهم تعالى من البينات، مما ورد وحيا في القرآن الكريم، وبقي مرجعا للمؤمنين يتعظون به على مر الحقب والعصور، فقال: { سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ }، وأول آيات نعم الله عليهم اختيارهم لرسالة الإسلام قبل أمة خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام وتفضيلهم بها على العالمين في عصرهم، وما تلا ذلك من نعم إنقاذهم من فرعون وعمله، بإقطاعهم البحر وإغراق عدوهم، وإنزال المن والسلوى عليهم، ونصرهم على الجبارين من قوم جالوت في فلسطين، إلى نعم أخرى كثيرة غيرها لا تحصى، فلم يستدرجوا إلى الخير بالنعم، ولم يزدهم الإحسان إلا كفرا وجحودا وغرورا { وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ }، أما

آيات النقم فمنها رفع الطور على رؤوسهم { وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا } البقرة 93، ومنها مسخ طائفة منهم قردة وخنازير { وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ} المائدة 60، فلم يرتدعوا عن الشر بالنقم، وما زادهم النقم إلا إصرارا وعتوا، قال تعالى: {وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} المائدة 68، وقال: { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ} إبراهيم 29/28،

إن ما في الدنيا من مباهج وملذات، مادية أو معنوية، زينةُ فتنةٍ واختبار، لا زينةَ تشريفٍ وافتخار، والمرء فيها مبتلى في أي حال { فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ } الفجر16/15، فإذا ذاق الكافر عسيلتها وازينت له، واستزاد منها مكاثرة ومفاخرة واستكبارا واستعلاء، غره إقبالها وأخطأ في تقدير عاقبتها وأخذته العزة بقدرته على الكسب والإثراء، وتوفير وسائل الترف والرفاه، وظن أن لن يقدر عليه أحد، فتعالى في المجالس وسخر من الفقراء والمستضعفين، وتحول قارون عصره وجبار زمانه الذي قال: { إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي}. بمثل هذه المسيرة وفي هذا المنزلق تتحول نعمة الله كفرا، وتستعصي النفوس عن سماع الحق استعلاء وترفعا، نظرة رضا إلى زينة الاختبار، يليها جمع وادخار، ثم تمتع واستهتار، واستعصاء واستكبار، { وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ } سبأ35/34. لذلك عندما ضرب الله تعالى ببني إسرائيل مثلا لمن بدل نعمة الله كفرا، في تعقيبه على الفجار الذين يسعون في الأرض فسادا وتأخذهم العزة بالإثم إن ووجهوا بالنصح والإرشاد، زاد الأمر بيانا بذكر الأسباب التي حملت أولئك الأشقياء على التمسك بكفرهم والإصرار على جحودهم، وهي حب الدنيا والركون إليها والاستبشار بزينتها فقال:

{ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا }، وحروف "الزاء والياء والنون" أصلٌ صحيح يدلُّ على حُسن الشيءِ وتحسينه كما قال ابن فارس في معجم مقاييس اللغة، وقد خلق الله تعالى بديع السماوات والأرض كل شيء حسنا، على أتم تناسق وجمال { مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ } الملك3، مُتَعُ الدنيا فيها من الحسن نصيبها على محدوديتها وسرعة فنائها لأنها أداة اختبار وابتلاء، ومتع الآخرة فيها من الحسن نصيبها على تمامها وبقائها لأنها مثوبة وجزاء، والناس ما بين واثق بربه وقد زَيَّنَ له الآخرةَ فاختارها، وبين مستعجل لذات دنيوية زينها له الشيطان { وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ } الأنفال 48، ففرح بها وبطر واستعلى وأخذ يسخر من المؤمنين الذين اختاروا الآخرة.

{ وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ }، جهلا منهم بسنن الكون ونظام الحياة الذي وضعه خالق الكون والحياة، وبكونهم عند الله في الدرك الأسفل من النار، والمؤمنون فوقهم في الدرجات العليا من الجنة.

{ وَالَّذِينَ اتَّقَواْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ } فخصَّ عز وجل الفوقية بالآخرة لأنها دار البقاء والخلود، والفوقيةُ فيها أبديةٌ دائمة، وخصَّها كذلك بالأتقياء لأنهم أهل لكل تكريم وجزاء. قال تعالى: { وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا

قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَا } طه 75. أما الرزق فهو لهم فيها خالص بغير حساب، وفي الدنيا أداة ابتلاء تتبعه المساءلة واحتمال العقاب، ولو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم؛ وقد ذكرت الروايات أن هذه الآية نزلت في أبي جهل وأصحابه، وفي علماء اليهود من بني قريظة وبني النضير وبني قينقاع، وفي عبد الله بن أبي والمنافقين معه، كانوا يتنعمون ويسخرون من فقراء الصحابة، كعمار وصهيب وأبي عبيدة، وسالم، وعامر بن فُهَيْرَة وخباب وبلال، لإعراضهم عن الدنيا على ما هم فيه من الضعف والحاجة، واستعلائهم على زخارفها وقد زينت للراغبين وتبرجت للطالبين.

وتثبيتا للمؤمنين في مواجهة من يخالفهم من المشركين وأهل الكتاب، نبه الوحي الكريم إلى أن الاختلاف بين الخير والشر، وأهل الإيمان وأهل الكفر ليس طارئا في عصر النبوة المحمدية، فقد كان في الأمم قبلهم، وهو حالة ضرورية لطبيعة الابتلاء الذي بنيت عليه الحياة، وقد كانت الأجيال الأولى على ملة الإسلام التي أهبط بها آدم عليه السلام، كانوا لقلتهم وبساطة عيشهم أمة واحدة لا اختلاف فيها، ثم لما كثر عددهم وتنوع نشاطهم وتعددت مشاربهم وآراؤهم وأهدافهم، دب إليهم الاختلاف، وانتشر بينهم الظلم والعدوان والقتل، ونسوا ما نزل مع أبيهم من شرائع، فعبدوا الأصنام والأوهام والأساطير والنجوم، ونشبت بينهم الحروب، فاقتضت حكمة الله تعالى أن يبعث إليهم الأنبياء والرسل ويجدد لهم أمر الدين، فيهتدي من كتب له الإيمان ويضل من كتبت عليه الشقاوة، لذلك قال تعالى:

{ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً } ومثله قوله تعالى في الآية 19 من سورة يونس { مَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا }، أي: كانوا جماعة واحدة على منهج واحد هو ملة آدم عليه السلام ثم اختلفوا وتمزقوا طرائق منحرفة عن الحق { فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ } فتوالى بعث الأنبياء والرسل يبشرونهم بنعمة الإيمان والطاعة وحسن المثوبة، وينذرونهم عاقبة الإعراض والكفر والعصيان.

{وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ } والكتاب اسم جنس للكتب المنزلة صحفا وتوراة وزبورا وإنجيلا، { لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ} من أجل الفصل في قضايا الخلاف والاختلاف والحكم فيها وإعادة الوحدة والألفة بين الناس، لذلك خاطب الله تعالى أهل التوراة بقوله: { وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ} المائدة44، وخاطب أهل الإنجيل بقوله: { وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} المائدة47، إلا أن الأهواء تجارت بهم والأطماع تسارعت بقلوبهم فاختلفوا في تفسير ما جاءهم من علم الكتاب، حرفوه وكتموه ووظفوه للمصالح تكاثرا وبغيا {وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ}، والبينات هي ما أوضحته الكتب المنزلة على أنبياء الأمم السابقة، عقائد وتشريعات ووعظا وإرشادا، وهي موجبة للاتفاق والوحدة، لكن الأتباع جعلوها سببا للاختلاف والتناحر والبغي، وحرفوها بالزيادة والنقص والتغيير، استثقالا لها ومتاجرة فيها، ومنافسة على الثروة والجاه والرئاسة والسلطة، ولما بعث الرسول محمد صلى الله عليه وسلم بالرسالة الخالدة والكتاب المحفوظ

العصي عن التحريف والتغيير هدى به الله عز وجل المؤمنين إلى الحق فيما كان غيرهم يختلفون فيه { فَهَدَى اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ} هداهم إلى العقيدة الصحيحة وقد اختلف فيها من قبلهم، وإلى الشريعة الحقة وقد استثقلها السابقون فضلوا عنها، وإلى الأخلاق السوية وقد عصفت بها الأهواء عند غيرهم، وإلى طريق الجنة وقد اختارها الله لهم وتاه عنها من سواهم، وذلك فضل الله يختص به من يشاء فيهديه إلى الصراط المستقيم { وَاللّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} وقد ورد صحيحا عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلّم (كَانَ إِذَا قَامَ مِنْ اللَّيْلِ افْتَتَحَ صَلَاتَهُ قَالَ: اللَّهُمَّ رَبَّ جَبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنْ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ).

ثلاثية النجاة في الدنيا والآخرة:

إيمان وهجرة وجهاد

قال الله تعالى: { أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ (214) يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ (215) كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ (216) يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (217) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللّهِ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (218)} سورة البقرة

الناس معادن، وكما تجلو النار المعدن فتميزه، كذلك تجلو المحنة الرجال فتميزهم عن بعضهم، والجيل الأول من المسلمين على خيرية الصالحين فيهم لا يشذون عن هذه القاعدة، وقد خاطبهم رب العزة يوم أحد بقوله: { مِنكُم مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَنْ يُرِيدُ الْآَخِرَةَ } آل عمران 152، فقال ابن مسعود:" ما علمنا أن أحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يريد الدنيا وعرضها حتى كان يوم أحد "، وقد سقط عند الابتلاء عدد ممن ارتد أو نافق، فتطهر الصف المسلم وسلمت الآخرة للخيار بعد الاختبار، فقال عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ خَيْرَكُمْ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُم).

لابد لدخول الجنة من الإيمان، ولا بد للإيمان من البلاء، لكل امرئ نصيب منه أحب أم كره، وقد قال الله عز وجل بصيغ كلها تأكيد، وهو أصدق القائلين: { أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ } العنكبوت3/2، وقال أيضا: { لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ } آل عمران186، ولئن خيل لأحدهم أن الاكتفاء بالإيمان والعبادة الفردية والركون إلى الدعة والسلامة يعفي من الاختبار والامتحان، فلا شك في عمائه وغبائه، لأن أبواب الفتنة كثيرة متعددة، إن تلافى بالكف عن الواجب عواقب القيام به،

اقتحمت عليه المحن أبوابا أخرى لا حصر لها، أهلا وولدا وصحة ومالا وعرضا، لذلك على المؤمن ألا يفر من القيام بحق الله وقد كلف به، حرصا على حق نفسه وقد ضمنه له ربه، لأن من آثر حق الله واشتغل به كفاه الله أمْرَ الفتن فثبته عندها، وأمْرَ نفسه فأصلحه خير إصلاح ورعاه خير رعاية، ومن كان لله كان الله له، وقد روى عمر رضي الله عنه (أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: إن الله تعالى يقول: من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين)، ومِنْ خَيْرِ ذكرِ الله أن يقوم المرء بواجبه أمرا بمعروف ونهيا عن منكر وجهادا لنصرة الدين وأهله. لذلك عندما قال تعالى: { فَهَدَى اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ } البقرة213، عقب باستبعاد ما قد تميل إليه النفس من طمع في الجنة على ركون إلى الدعة والراحة واكتفاء بالعبادة الفردية وانعزال عن مجتمع المجاهدة وصراع الحق مع الباطل فقال: { أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم }.

إن طريق الهداية محفوف بالمكاره، كما قال صلى الله عليه وسلم:(حُفَّتْ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ وَحُفَّتْ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ)، ولابد لمن عزم على نصرة الحق والدعوة إليه من توطين نفسه على احتمال شدائد المحنة ومقارعة فتن الاختبار، كل أجيال الإيمان عبر التاريخ الإنساني في الأرض مَرَّت بهذا الطريق وتجرعت مرارته، منهم من صبر وفاز ومنهم من ارتكس وانتكس، والقلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، وما مثل سحرة فرعون بخفيٍّ وقد آمنوا وتحدوا جبروت الطاغية فقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف وصلبهم في جذوع النخل إذ قالوا له: { لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى } طه 73/72، وما مثل أصحاب الأخدود ببعيد وقد حُرِّقوا نساء ورجالا وأطفالا { وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ } البروج 8، وفي الحديث الصحيح عن خباب قال: (أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردة في ظل الكعبة، فشكونا إليه فقلنا: ألا تستنصر لنا ألا تدعو الله لنا؟ فجلس محمرا وجهه فقال: قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض ثم يؤتى بالمنشار فيجعل على رأسه فيجعل فرقتين ما يصرفه ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون عظمه من لحم وعصب ما يصرفه ذلك عن دينه، والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب ما بين صنعاء وحضرموت ما يخاف إلا الله تعالى والذئب على غنمه ولكنكم تعجلون).

أما قوله تعالى بعد ذلك { مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ][56] الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ } فهو شرح وتوضيح لأحوال أمم الإسلام السابقة مع المحن والشدائد، أي: هل تظنون أن تدخلوا الجنة ولم يصبكم مثل ما

---

56 – قراءة نافع بالرفع في "يقولُ " والجمهور على النصب فيها. وحجة نافع أن الفعل إذا كان حالا أو مؤولا بالحال رفع، والحال كما قال ابن قاسم المرادي في "الجنى الداني": نحو سألت عنك حتى لا أحتاجُ إلى سؤال، والمؤول بالحال قراءة نافع﴿ وَزُلْزِلُواْ حَتَّى

أصاب المؤمنين أتباع الأنبياء والرسل قبلكم، ولم تمتحنوا كما امتحنوا فتصبروا كما صبروا، وقد اختبرهم الله تعالى بالبأساء والضراء فاقة وعللا وقتلا وخوفا وشدة وجهدا، حتى ضاقت بهم الأرض وحرجت فيهم الصدور واستبطؤوا ما وعدوا به من النصر، وزلزلت ثقتهم في أنفسهم فظنوا أنهم قد أحدثوا في دينهم ما أخره أو عطله، فتساءلوا مع رسولهم المبعوث إليهم عن موعده، وهو منهم قريب متى ثبتوا على الحق واستماتوا في الدفاع عنه { أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ }، يأتيهم فيسبل عليهم رداء العز والسؤدد، تمكينا في الدنيا لبعضهم وشهادة في سبيل الله لآخرين.

لقد تساءل جنود الرحمن إذ ابتلوا واشتدت بهم المحنة عن نصر الله الموعود، وهم موقنون أنه من الله تعالى وحده، { وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ} آل عمران 126، وأن له شروطا هي الطريق إليه:

أول هذه الشروط أن ننصره تعالى في أنفسنا عقيدة سليمة وعبادة صادقة وجهادا لا نبتغي به إلا وجهه الكريم، وإعدادا للنفس والمجتمع بما يكفل تغيير موازين القوى المادية والمعنوية لصالح الإسلام والمسلمين، وهو معنى قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ } محمد7، وقوله: { إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ } الرعد 11. لنستحق النصر لابد أن ننصر الله في أنفسنا عقيدة وأخلاقا وفدائية وصلابة وعدالة نظم وطهارة مجتمع، وقيادة رشيدة وجنودا أسوياء صادقين، ويأتي بعد ذلك نصر الله { أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ }.

كتاب الله ينطق بالحق وينادي بيننا: {انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ} التوبة 41، { لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً } النساء 95.

وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم في السلم والحرب، وإعداد الرجال، وحشد أدوات القوة والمنعة، بين أيدينا لا يصدنا عنها صاد، وذكريات أمجاد سلفنا الصالح عندما تشع في قلوبنا سياط تلسع ضمائرنا وشواظ نار يلهب وجداننا، فترتسم في أذهاننا صورتان متناقضتان، لواقع نصر وعز مضى واندثر، وواقع ذل وخزي واستضعاف في عصرنا وبلادنا وأهلنا قد استقر وانتشر، صورة لقيادات رشيدة وهبها ربها تعالى النصر وكلل هاماتها بتيجان العز والفخر، اتخذت من رسولها صلى الله عليه وسلم قدوة وقد خاطب رجلا من القوم هابه وخافه: (هون عليك فإنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد في هذه البطحاء)، وحاول أحدهم أن يأخذ يده ليقبلها فجذب صلى الله عليه وسلم يده وقال له: (مه، إنما

يَقُولُ الرَّسُولُ ﷺ، والمراد بالمؤول بالحال أن يكون الفعل قد وقع فيقدر اتصافه بالدخول فيه فيرفع لأنه حال بالنسبة إلى تلك الحال، وعلامة كونه حالا أو مؤولا به، صلاحية جعل الفاء في موضع "حتى".

وحجة الجمهور أن الفعل بعد "حتى" منصوب إما على الغاية وإما على التعليل، أي وزلزلوا إلى أن يقولَ الرسول، أو كي يقولَ الرسول، والفعل منصوب بأن مضمرة بعد " حتى ".

يفعل هذا الأعاجم بملوكها وإني لست بملك، وإنما أنا رجل منكم)، وصورة أخرى لقيادات منهزمة معاصرة، نرجسية السلوك خنثوية الطباع، مرائية القول والفعل، دنيوية النوايا والأهداف، مترفة تستهلك طيباتها في حياتها الدنيا وتدعي خدمة الدين ومصالح المسلمين. وصورة ثالثة لجنود النصر والغلبة في جيوش باعت نفسها لله فأغلى ثمنها، وصدقته التجارة فصدقها النصر والبشارة، في مقابل صورة معاصرة لدعاة لم يردُّوا في حياتهم قط يَدَ لامسٍ من أصحاب النفوذ والمال، ولم يصدقوا الله قط كما يصدقون أصحاب السلطة من المخبرين وعمداء الشرطة والولاة والعمال.

لقد أصاب صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم من المحن يوم أحد ويوم الأحزاب، ما لا يطيقه إلا صناديد الرجال فصبروا وصمدوا وأبلوا البلاء الحسن، فخاطبهم رب العزة في أحد بقوله عز وجل: { وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ } آل عمران139/140، وخاطبهم يوم الخندق بقوله: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا } الأحزاب12/9. وفي كلا اليومين لقي المؤمنون ما لقوا، من شدة الجهد والخوف والأذى على ما كانوا فيه من ضيق العيش وقلة الناصر وحصار المشركين وأهل الكتاب وتخذيل المنافقين، كذلك الرسل وأتباعهم الصادقون في كل عصر يبتلون ويصبرون فتكون العاقبة الحسنى لهم في الدارين.

ولما كان الصبر مفتاح كل خير في مجال العقيدة والعمل لها، فقد عقب عز وجل بترتيب أنواع البلاء، صبرا على المكاره والشدائد، وصبرا على البذل والإنفاق، وصبرا على التضحية بالنفس على غلائها وتعلق الناس بها، ثم أجاب على سؤال عمرو بن الجموح وهو شيخ كبير له مال كثير إذ قال: ماذا ننفق من أموالنا وأين نضعها؟ بقوله تبارك وتعالى: { يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ } في إشارة واضحة إلى أن النفقة في سبيل الله لا يعتد بها إلا إذا استوفت شرطين أولهما أن تكون خيرا، أي حلالا، لأن الله تعالى لا يقبل إلا طيبا { وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ} البقرة 267، والثاني أن تكون في أهلها ومستحقيها، وهم على الترتيب القرآني الوالدان أولا، ثم الأقربون، الأقرب فالأقرب، ثم اليتامى والمساكين ثم ابن السبيل، وتعني هذه الآية مطلق النفقة مما سوى الزكاة، سواء الواجبة على الوالدين والذرية، أو الأقربين من ذوي الحاجة،، أو المندوبة على الأرحام واليتامى والمساكين وابن السبيل. وهي عنوان الاستعداد للبذل والتكافل وتقوية الصف على مدافعة العدو ورده، وتحصين الجبهة الداخلية فلا تؤتى الأمة من ثغرات الفقر والحاجة والخصاص، كما هو حال المسلمين اليوم إذ يستغل المنصرون والمهودون فقر بعضهم فيشترون ذممهم ويسخرونهم ضد أمتهم وعقيدتهم.

ثم انتقل إلى مستكْرَهٍ آخر للنفس مما امتحن به المسلمون بعد الإنفاق فقال عز وجل: { كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ }، كتب عليكم القتال أي: فرض عليكم، والكره: بضم الكاف وفتحها، والكراهية والكراهة مصادر لفعل " كرِهَ الشيءَ " إذا أبغضه، ولا شك أن الطبع يؤثر الدعة والسلامة، ويكره التعرض للقتل والأسر ومفارقة الزوجة والولد، لكن ما كل ما تكرهه النفس شر وضرر، وما كل ما تحبه النفس خير وصلاح، بل إن من آفات الاختيار أن يبنى على الشهوة لا على المنفعة، أو منفعة الدنيا دون الآخرة، والقتال على ما فيه من مخاطر، تحفظ به البلاد والعباد، وتصان به الأعراض وتوفر به الكرامة، وتنال به الشهادة، لذلك عقب تعالى بقوله: { وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ }، لأن عواقب الأمور وإن تبين للعقلاء من القرائن بعضُها، لا يحيط بعلمها تامة كاملة إلا الله وحده { وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ }.

إن كراهية القتال كانت لدى بعض المسلمين إيثارا للسلم والمسالمة، ولدى بعضهم إشفاقا من شدته وخسائره، ولكنها كانت لدى آخرين نفاقا وجبنا وفساد عقيدة وخبث طوية، كما في قوله تعالى عن المخلفين: { سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ } الفتح11، وغني عن البيان أن من المسلمين من كان القتل والقتال في سبيل الله أحب إليهم من الدنيا وما فيها، كما هو حال الصحابي الذي استعجل الشهادة وأقبل على العدو فيما رواه مالك في الموطأ (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَغَّبَ فِي الْجِهَادِ وَذَكَرَ الْجَنَّةَ وَرَجُلٌ مِنْ الْأَنْصَارِ يَأْكُلُ تَمَرَاتٍ فِي يَدِهِ فَقَالَ إِنِّي لَحَرِيصٌ عَلَى الدُّنْيَا إِنْ جَلَسْتُ حَتَّى أَفْرُغَ مِنْهُنَّ فَرَمَى مَا فِي يَدِهِ فَحَمَلَ بِسَيْفِهِ فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ)، وكما هو حال كرام الصحابة رضي الله عنهم جميعا، وفيهم من غسلته الملائكة كحنظلة، ومن اهتز له عرش الرحمن كسعد بن معاذ، ومن حمته الزنابير كعاصم بن ثابت بن الأفلح، ومن أجيزت شهادته بشهادة رجلين كخزيمة بن ثابت.

لقد كان القتال غير مأذون به للرسول صلى الله عليه وسلم مدة إقامته في مكة، وعندما قال له العباس بن عبادة بن نضلة: والذي بعثك بالحق لئن شئت لنميلن على أهل منى غداً بأسيافنا، قال له رسول الله صلى الله عليه وسلّم: (لَمْ أُومَرْ بِذَلِكَ)، ثم بعد الهجرة أذن له بقتال من يقاتله في قوله تعالى: { أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ } الحج3، ثم فرض الله الجهاد على المسلمين كافة بهذه الآية الكريمة { كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ }. وقال صلى الله عليه وسلم: (لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ وَإِذَا اسْتُنْفِرْتُمْ فَانْفِرُوا)، وقال: (الخَيْلُ مَعْقُود فِي نَوَاصِيها الخيرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيامَةِ)، وقال: (لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقّ لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ)، وقال: (لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقّ ظَاهِرِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)، فكان الجهاد بذلك ماضيا إلى يوم القيامة، لا يبطله جور جائر ولا عدل عادل.

وظاهر الآية يقتضي أن الجهاد فرض عين على كل مكلف مستطيع، وليس فرض كفاية، لأن قوله تعالى { كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ } يعني أنه واجب على كل واحد من المسلمين من أول هذه الأمة إلى آخرها، من وجد في عصر النبوة ومن يأتي بعدهم، بل حتى من نفر منهم للتفقه في الدين بقوله تعالى: { فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ } التوبة 122، مخاطبون بأمر الجهاد لأن نفرتهم للتفقه غايتها العمل له والتحريض عليه وإعطاء القدوة من أنفسهم فيه. والسنة النبوية تؤكد ذلك وتبينه، وقد ثبت في الصحيح قوله صلى الله عليه وسلم: (من مات ولم يغز ولم يحدث به نفسه مات على شعبة من النفاق)، ولا عبرة بالتصنيفات الفقهية الخاضعة لإكراهات السياسية أو ظروف الاستضعاف، كتقييدهم فريضة الجهاد بضرورة استئثار أهل الشوكة والسلطة في كل بلد بتقرير أمره وزمن وجوبه، أو بتمييزهم بين جهاد الدفع وجهاد الطلب، لأن الجهاد جهاد واحد في معناه وممارسته، واجب على كل فرد غزا أو قعد، إن استغيث أغاث، وإن اعتدي على الأمة نفر، وإن بلغه نداء "ياخيل الله اركبي" ركب وأركب، لأن النداء أمر الخالق، وأمره عز وجل لا يعارض بأمر غيره، وقد قال تعالى: { وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } الأنفال39.

كما أن تطور المجتمع البشري حاليا قد تجاوز هذا المستوى من التفكير والاختلاف، لأن جميع مرافق الدولة العصرية أصبح لها نصيب في مجهودها الحربي، مرافق الصناعة والاقتصاد والسياسة والثقافة والنظم الاجتماعية كلها تصب في المجهود الحربي للأمة، وأصبح كل فرد فيها مساهما في الدفاع عن وطنه، أو في حروب عدوان بلاده وتوسعها الاستعماري، ولم يشذ عن هذا التطور الخطير إلا الدول الإسلامية المعاصرة، وقد ركنت حكوماتها إلى دفء حماية العدو، وذل التمسح بأعتابه، وتلهى علماء سلطتها بالجدل العقيم حول معنى الجهاد مدافعة أو طلبا، مبادأة أو مجازاة أو رد عدوان، ووجوبه عينا أو كفاية، ومضمونه أكبر أو أصغر.

ولئن تبين للمسلمين في العصر النبوي بهذه الآية الكريمة وجوب القتال في سبيل الله، فإن هذا الفرض نزل مطلقا، لم يُخَصَّ بزمان دون زمان، وكان من عادة العرب أن الشهر الحرام لا يستباح فيه القتال، فبقي في نفوسهم شيء من أمر الحكمة في هذا التشريع الجديد والإذن به في الأشهر الحرم، وبقيت علته غامضة في الأذهان محتاجة إلى توضيح وتبيان، لاسيما وقد أباحه الله تعالى فيما سبق بقوله: { وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ } البقرة 191، وجعل من شرط الإباحة أن يبادئهم المشركون به، وأن يكون قصاصا عادلا مساويا للعدوان بقوله عز وجل: { الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ } البقرة 194، فبادر بعض المسلمين إلى سؤال نبيهم صلى الله عليه وسلم فنزل قوله تعالى: { يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ } أي: يسألك أصحابك يا محمد عن الأشهر الحرم وهي رجب وذو القعدة وذو الحجة ومحرم، هل يحل لهم القتال فيها وقد فرض عليهم؟. وقد ورد سببا لنزول هذه الآية ما رواه الواحدي عن الزهري مرسلاً، ورواه الطبري عن عروة بن الزبير مرسلاً

ومطوّلاً، وخلاصته أن الرسول صلى الله عليه وسلم بعث عبد الله بن جحش، ومعه نفر من المهاجرين، فقتلوا عمرَو بن الحضرمي في آخر يوم من جمادى الثانية أو أول يوم من رجب، وأسروا رجلين، واستاقوا العير، فوقف على ذلك النبي صلى الله عليه وسلم وقال: لم آمركم بالقتال في الشهر الحرام، فقالت قريش: استحل محمد الشهر الحرام، فنزلت ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ﴾ إلى ﴿ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ﴾. إلا أن الإرسال في سند هذه الرواية وعدم تناسب مضمون الآية مع سرية عبد الله بن جحش وقد وقعت في السنة الثانية للهجرة قبل غزوة بدر، وقبل فرض القتال، وقبل الحديبية التي صُدَّ فيها المسلمون عن البيت الحرام سنة ست من الهجرة، كل ذلك يرجح أن الآية تكملة لما سبق من أحكام القتال في الشهر الحرام بقوله تعالى ﴿ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ ﴾ البقرة 194 عقب الحديبية، وبعد أن صد المشركون المسلمين عن أداء عمرتهم، وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مشروعية القتال في الشهر الحرام فنزل الجواب وحيا بقوله تعالى للنبي الكريم صلى الله عليه وسلم: ﴿ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ﴾.

ولئن تأكد بهذه الآية تحريم القتال في الشهر الحرام، وعُدَّ وزرا كبيرا، بورودها كلاما تاما من مبتدأ وخبر، فقد وقع الاستدراك عليها بتوضيح جانب آخر أعظم إثما من ذلك، هو ما ارتكبه المشركون في حق الحرمات عامة، عقيدة وأمكنة وبشرا، فقال تعالى: ﴿ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أي: منع الناس عن الإيمان بالله واتباع دينه، بتعذيبهم وقتلهم ومطاردتهم كما فعلوا بآل ياسر وبلال وخبيب رضي الله عنهم، ﴿ وَكُفْرٌ بِهِ ﴾ أي: إعراضهم عن الإسلام وإقبالهم على عبادة غير الله تعالى أوثانا وأحجارا ونجوما وكواكب، ﴿ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ والمسجد الحرام: معطوف على سبيل الله، أي وصدُّ المسلمين عن سبيل الله وعن المسجد الحرام بمنعهم يوم الحديبية من دخوله لأداء العمرة، ﴿ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ ﴾ وإخراج المؤمنين من الحرم وهم أهله وأولياؤه، بقسرهم على الهجرة إلى الحبشة ثم إلى المدينة، كل ذلك بل بعضه ﴿ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أعظم وزرا عند الله من القتال في الشهر الحرام. والقضية في مجملها مجرد دفع لضرر أعظم بضرر أخف وأقل وأدنى. لقد قتل المشركون بعض المسلمين في حرم الله بأبشع صورة، بل حاولوا قتل الرسول صلى الله عليه وسلم غيلة في مكة قبيل الهجرة، وهذا أكبر عند الله من أن يقاتلهم المؤمنون في الشهر الحرام.

بهذه الآية الكريمة تأكدت حرمة البيت الحرام والأشهر الحرم كما كانت من قبل على التأبيد، إلا لدفع ظلم أعظم وضرر أكبر يهدد العقيدة وأهلها، وأعاد الرسول صلى الله عليه وسلم تأكيد ذلك في خطبة الوداع بقوله: (إن دِماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حَرام كحُرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا).

أما قوله تعالى عقب ذلك: ﴿ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ﴾، فالفتنة بمعناها العام الابتلاء والامتحان والاختبار من الله تعالى بالخير والشر والغنى والفقر والعافية والسقم، والمال والأهل والولد والجار والصاحب بالجنب، من فعل "فتن" الفضة والذهب وغيرهما من المعادن، إذا أذابها بالنار لتصفيتها وتمييز الرديء من الجيّد فيها، ومنه قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴾ الذاريات13.

وفسر السلف الفتنةَ بالشرك، الذي يدعو له صاحبه ويقاتل عليه ويعاقب من يأباه، قال تعالى: { وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ } البقرة 193، وقوله: { ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ } الأنعام 23، ومنها قوله تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا } البروج 10، أي عذبوهم وأحرقوهم بالنار ليكرهوهم على الكفر.

وهي بسياقها في هذه الآية زيادة بيان للمسلمين كيلا يكرهوا القتال أو يعرضوا عنه، وتحذير لهم من مخاطر ما قد يتعرضون له، إن ركنوا إلى الدعة والراحة، من مصادرة لأموالهم وأوطانهم وتسلط عليهم وعلى ذريتهم من قبل أعدائهم، يفتنونهم في دينهم ويستدرجونهم للكفر والردة، ولَصَبْرٌ على القتال في سبيل الله ينتهي بالشهادة والخلود في الجنة، خيرٌ وأكرم من استضعاف يعقبه ذل وكفر في الدنيا ثم خلود في النار.

وتأكيدا لهذا التحذير وتوضيحا للمدى الزماني والمكاني لهجوم الكفار على العقيدة الإسلامية ومحاولتهم تكفير أهلها، أضاف عز وجل قوله: { وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىَ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ }، والتعبير بقوله { وَلاَ يَزَالُونَ } مفيد للدوام والاستمرار للإشعار بأن عداوة المشركين لا تنقطع، وأنهم لن يكفوا عن محاربة الإسلام وأهله، وأن المعركة بينهم وبين المسلمين مستمرة إلى قيام الساعة، والآية بهذا المعنى من باب الإخبار بالغيب، الذي آثر به الله تعالى هذه الأمة، تأهيلا وتوعية وإقامة حجة، تصدقه أحداث التاريخ من زمن البعثة النبوية إلى عصرنا الحالي، حروبا صليبية استمرت دهرا، وحروبا وثنية مغولية أحرقت الأخضر واليابس، واستعمارا أوروبيا صليبيا للعالم الإسلامي من أقصى شرقه إلى أقصى غربه طيلة ثلاثة قرون، الثامن عشر والتاسع عشر والعشرين، وحروبا صليبية أخرى متجددة، نعيشها حاليا في العراق والسودان وفلسطين وأفغانستان، وأرتالا من المنصرين انبثوا في مجتمعات المسلمين شرقا وغربا، لاستغلال فاقتهم وفقرهم واستضعاف حكامهم لهم، من أجل استدراجهم إلى الردة والكفر. قال تعالى: { وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُم } البقرة120، وقال: { وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً } النساء 89.

إلا أن هذه الأمة الإسلامية عصية بإذن الله تعالى عن الإذلال والخضوع، عقيدتها الربانية عصية عن التحريف، وقرآنها الكريم محفوظ دائما { إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } الحجر9، والدين يتجدد باستمرار كما قال صلى الله عليه وسلم:(يرث هذا العلم من كل خَلَفٍ عدوله ينفون عنه تأويل الجاهلين وانتحال المبطلين وتحريف الغالين)، وقال: (إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها)، والمسلمون سد منيع وترس صلب في مواجهة العدو كما في الصحيحين واللفظ لمسلم: (لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَة).

أما المرتدون عن الإسلام وهم قلة في كل عصر، عرفهم المجتمع النبوي والعصور بعده، فَهُمْ بين أحد أمرين:

أولهما أن يصروا على الكفر ويموتوا عليه، فتبطل كل عباداتهم التي سبقت الردة، ويسلبوا في الدنيا آثار كلمة الشهادتين، من حرمة الأنفس والأموال والأعراض، ومن الصلاة عليهم بعد الموت، والدفن في مقابر المسلمين، كما تطلق عليهم

الزوجة المسلمة ويحرم عليهم التوارث مع المسلمين، إلى غير ذلك من أحكام الردة وآثارها مما يرجع إليه في كتب الفقه، أما في الآخرة فشأنهم شأن كل كافر خلودا في النار، لذلك قال تعالى عقب تحذيره من مكر أعداء الإسلام وكيدهم وإصرارهم على فتنة المؤمنين: { وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ }،

وثانيهما أن يتوبوا فيقبل الله توبتهم، وهؤلاء اختلف العلماء في أمر أعمالهم قبل الردة، هل تبطل أم لا تبطل، عند مالك وأبي حنيفة أن من ارتد من المسلمين ثم عاد إلى الإسلام وتاب لم يرجع إليه ثواب أعماله التي عملها قبل الارتداد، فإن كان حج قبل أن يرتد ثم عاد للإسلام مثلا كان عليه أن يحج مرة أخرى لأن حجه الأول حبط وفسد، وقال الشافعي: إذا عاد المرتد إلى الإسلام عادت إليه أعماله كلها. والرأي عندي أن أعماله قبل الردة إن عاد إلى الإسلام وحسنت توبته بيد الله تعالى إن شاء أحبطها وأبطل ثوابها عدلا، وإن شاء أثبتها له كرما ورحمة وإحسانا، قال تعالى: { إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا } الفرقان 70.

لقد بين عز وجل في هذه الآيات الكريمة معالم طريق الإيمان المفضي إلى الجنة، صبرا ومصابرة على البأساء والضراء، وقتالا واجبا في سبيل الله تعالى، وحذر من فتن تكشف الضمائر وتجلو حقيقة النفوس، وتوعد المرتدين بما ينتظرهم من خلود في النار يوم الدين. وحيث إنه لا يكاد يرد في الأسلوب القرآني وعيد إلا ويعقبه وعد، فقد بين عقب ذلك من هم أهل للجنة، وبشر من أطاع أمره وجاهد في سبيله بحسن العاقبة في الدنيا والآخرة فقال: { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللهِ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ }. وبنى على قاعدة الإيمان الحق ما ينبغي القيام به، من هجرة للفساد وأهله وجهاد في سبيل الله وصبر على لأواء المحن والفتن، وما يؤدي إليه ذلك من رجاء رحمته تعالى وعظيم ثوابه وكرم إحسانه.

ومن عجيب الإشارات الإلهية لذوي القلوب الحية أن الله تعالى ما ذكر الهجرة في سبيله إلا وربطها بالجهاد، ففي الآية 72 من سورة الأنفال قال تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ }.

وفي الآية 74 من نفس السورة قال عز وجل: { وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ }.

وفي الآية 20 من سورة التوبة قال سبحانه وتعالى: { الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ }.

وفي الآية 110 من سورة النحل قال جل جلاله: { ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ }.

قد يتساءل غافل، لماذا قرن الله تعالى في هذه الآيات الكريمة بين الهجرة والجهاد، مع أن الهجرة فرار من العدو، والجهاد هجوم عليه؟، لكن الشبهة تزول إذا ما اتضحت العلاقة الجدلية بين مفهوم الهجرة الإسلامية التي هي مجرد بحث يقوم به المؤمن عن قاعدة إعداد واستعداد للجهاد، بعيدا عن أعين الظالمين وأيديهم وسلطتهم، وبين الجهاد الذي هو ثمرة هذا الإعداد ونتيجته. والمهاجر في هذا الأمر بين أن يركن إلى مصالحه الشخصية والدنيوية في أرض الهجرة، فيحق عليه حكم التولى والفرار في قوله تعالى: { وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ } الأنفال16، وبين أن يواصل الإعداد فيكون في حكم من تحيز إلى فئة مجاهدة. وهذا ما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم إذ هاجر إلى المدينة وجعلها قاعدة لتحرير البشرية بعامة، وتحرير مكة المكرمة بخاصة. وهو نفس ما يسره الله تعالى لموسى عليه السلام، عندما هاجر من مصر فساقه عز وجل إلى شيخ مدين يتم تربيته ويعده لما ينتظره، فلما اكتمل الإعداد أُمِرَ بالعودة إلى قومه لدعوتهم، وإلى طاغية بلده يقيم عليه الحجة.

ولئن كانت هجرة الجيل الأول من المسلمين إلى المدينة قد انقطعت بفتح مكة، وقال عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لَا هِجْرَةَ وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ وَإِذَا اسْتُنْفِرْتُمْ فَانْفِرُوا)، فإن أسبابها ودواعيها بعد العصر النبوي قد تحصل وتتكرر، فلا يستطيع المؤمن القيام بواجباته الدينية عبادة ودعوة وأمرا بالمعروف ونهيا عن المنكر وإقامة لأمر الله في الأرض، لذلك أبقى الله تعالى على تشريع الهجرة وحرض عليها من يضطر لها ويجبر عليها وتوعد من يظلم نفسه بتركها فقال: { إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا } النساء 97.

إلا أن للهجرة في سبيل الله عوائق لا تتغلب عليها إلا النفوس القوية الواثقة بربها المستعلية بإيمانها، من هذه العوائق الخوف على الأهل والولد والعرض والمال، والخوف من الجوع والذلة والمهانة والموت في أرض الهجرة بعيدا عن الوطن، وقد أوجز رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه العوائق بما أوتي من جوامع الكلم فقال: (إن الشيطان قعد لابن آدم بأطْرُقِه، فقعد له بطريق الإسلام فقال: تُسْلِم وتَذَرُ دينك ودين آبائك ودين آباء أبيك؟، فعصاه فأسلم، ثم قعد له بطريق الهجرة فقال: تهاجر وتَدَعُ أرضك وسماءك وإنما مثل المهاجر كمثل الفرس في الطِّوَلِ[57]، فعصاه فهاجر، ثم قعد له في طريق الجهاد فقال: تجاهد فهو جهد النفس والمال فتقاتل فتُقتَل فتُنْكَح المرأة ويُقْسَم المال؟، فعصاه فجاهد)، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (فمن فعل ذلك كان حقا على الله عز وجل أن يدخله الجنة، ومن قُتِل كان حقا على الله أن

---

57 – الطِّوَلُ والطِّيَلُ بالكسر هو الحبل الطويل يُشَدُّ أَحد طَرَفيه في وَتِدٍ أَو غيره والآخر في يد الفرس لِيَدُور فيه ويرعى ولا يذهب لوجهه، يقال أَرْخِ للفَرَس من طِوَلِه.

يدخله الجنة، وإن غرق كان حقا على الله أن يدخله الجنة، أو وَقَصَتْهُ[58] دابتُه كان حقا على الله أن يدخله الجنة).

لذلك تكفل الله تعالى بأمر المهاجر في سبيله، وأنزل من الآيات ما هو كفيل بطمأنته وتثبيته والربط على قلبه، فقال عز وجل: { وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا } النساء 100، وقال: { وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ } النحل41.

لقد سار الوحي عند الإعداد لتشريع القتال في سبيل الله على السنن التي ألفناها منه دائما، تدرجا بالمؤمنين من السهل إلى الميسر إلى الصعب فالأصعب، أمر بالإيمان الخالص الخالي من شُبَهِ الشرك أصغر وأكبر، ثم حرض على الهجرة إذا تعذر القيام بأمر الدين، وبالجهاد فرضا عينيا على كل مسلم مقيم أو مهاجر، ومن أعرض عن الإيمان فهو عن الهجرة والجهاد أشد إعراضا، ومن تمسك بالأهل والولد والمال والدعة وزينة الدنيا فهو أبعد الناس عن نقلة إلى إيمان حق، أو استنفار جاد أو جهاد في سبيل الله.

58 – أي أسقطته دابته فاندقت مقاتله ومات، من قولهم تَوَقَّصَ الفرسُ عدا عَدْواً شديدا.ويقاس على هذه الحالة ما إذا مات المهاجر والمجاهد بحادثة سير أو غيره، أو قتل غيلة بأي طريقة من الطرق التي تفنن فيها أعداء الإسلام في العصر الحديث.

مكاسب خبيثة محرمة

قال الله تعالى: { يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبيِّنُ اللّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (219) فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلاَحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاء اللّهُ لأعْنَتَكُمْ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (220) } سورة البقرة

لكل بناء ثلاث مراحل، مرحلة وضع الأسس والقواعد، ثم مرحلة البناء والتشييد، ثم مرحلة التهذيب والتحسين، تلك مراحل تأسيس المجتمع الإسلامي في بدء أمره، وضع الوحي الإلهي أولا مبادئ العقيدة وأركان الإسلام وقواعد حمايته، وذلك مضمون ما نزل من القرآن في مكة وما تضمنته سورة الفاتحة وما مر في الحلقات السابقة من سورة البقرة، ثم أخذ في تشييد البناء وتشذيبه وتحسينه، فيما بقي من الوحي الحكيم وسنة النبي الكريم صلى الله عليه وسلم. بتنزيل القواعد العامة والمبادئ المجملة تشريعات مفصلة قابلة للتطبيق في الحياة العملية. لاسيما وقد وجد المسلمون عنتا في المواءمة بين مقتضيات العقيدة التي آمنوا بها وأصبحت قوام حياتهم، وبين بعض الممارسات التي ألفوها وتعودوا عليها، واكتشفوا تعارضها مع قيم الفضيلة والمروءة التي يبشر بها الدين الجديد، وهو ما بينته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها فيما رواه البخاري عندما سئلت عن القرآن فقالت: (إِنَّمَا نَزَلَ أَوَّلَ مَا نَزَلَ مِنْهُ سُورَةٌ مِنْ الْمُفَصَّلِ فِيهَا ذِكْرُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ حَتَّى إِذَا ثَابَ النَّاسُ إِلَى الْإِسْلَامِ نَزَلَ الْحَلَالُ وَالْحَرَامُ وَلَوْ نَزَلَ أَوَّلَ شَيْءٍ لَا تَشْرَبُوا الْخَمْرَ لَقَالُوا لَا نَدَعُ الْخَمْرَ أَبَدًا وَلَوْ نَزَلَ لَا تَزْنُوا لَقَالُوا لَا نَدَعُ الزِّنَا أَبَدًا)، لذلك أخذ المسلمون يسألون النبي صلى الله عليه وسلم كلما واجههم إشكال تنزيل المبادئ الإسلامية العامة على واقع حياتهم الخاصة، فتأتيهم الأحكام الشرعية العملية آيات قرآنية حينا، وسنة نبوية مبينة وشارحة حينا آخر.

كان من أوائل ما عاناه المسلمون في نظام اجتماعهم بمكة وعند انتقالهم إلى المدينة، آفتان أشد انتشارا وشيوعا، هما عند أعراب الجزيرة وفحول العرب مفخرة ومكسب، وإن كان بعض أهل المروءة والفضل ترفعوا عنهما في الجاهلية وقبل التحريم عندما انتقلوا إلى الدين الجديد. هاتان الآفتان هما الخمر والميسر، لذلك سأل بعض كرام الصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهما، فنزل قوله تعالى: { يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ }، أي يسألونك يا محمد عن حكم الخمر والميسر فقل لهم: { قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ }.

وحروف " الخاء والميم والراء" في لفظ "الخمر" أصلٌ واحد يدل على التغطية والستر، منه الخَمَر وهو ما واراك وسترك من الشجر وغيره، وخمار المرأة ما تغطي به وجهها، وقولهم: دخل في خمار الناس وغمارهم أي دخل في مكان خفي. وقولهم: هو يمشي لك الخَمَر، أي مستخفيا، وقد سمي الشراب خمرا لأنه يستر العقل ويغطيه ويحجبه، والمدار في حكمه على السكر وغيبوبة العقل، عُصِرَ من عنب أو استُخْلِص من غيره.

أما الميسر فهو القمار[59]، مأخوذ من اليسر ضد العسر، وهو السهولة والليونة والانقياد، لأنه كسب من غير تعب أو نصب، ولأن الخاسر ينقاد للرابح ويعطيه ما اشترطه عليه. وهو أصناف كثيرة تختلف من أمة إلى أمة مضمونها واحد ونتائجها واحدة، ولذلك قال الإمام علي كرم الله وجهه:"الشطرنج ميسر العجم"، وقال مجاهد:"كل شيء فيه قمارٌ فهو من الميسر ".

أما قوله تعالى في الجواب: { قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ }، فقد تضمن وصفين للخمر والميسر، وصفا من زاوية الحكم الشرعي وهو الإثم وماكان إثما فهو حرام، ووصفا من زاوية نظر العامة إليه وما يرون فيهما من منافع.

أما المنفعة المزعومة لديهم في الخمر فمنفعتان: أولاهما تجارية، وقد كانوا يجلبونها من الشام رخيصة، ويبيعونها بالربح الكثير، لأن طلاب الخمر كانوا يشترونها بالثمن الغالي ويرون المماكسة في ابتياعها تتعارض مع النبل والشرف ورفيع المنزلة. والمنفعة الثانية نشوتهم بها وتفاخرهم بتناولها في مجالس لهوهم. وأما ما يرونه منفعة في الميسر فالربح السهل، وإرضاء غريزة المغالبة والتفاخر فيهم، وقد كانوا يعطون أنصباءَهم من الميسر أحيانا إلى الفقراء ويفاخرون بذلك ويذمون من لم يدخل فيه.

إلا أن هذه المنافع المزعومة في الخمر والميسر سفهها الوحي، بكون الضرر بهما والإثم فيهما أكبر مما يظنونه نفعا، تخريب الخمر للصحة وتغييبه للعقول وإتلافه للمال، وتعطيله لقدرة الفرد على رعاية بيته وأهله وذريته وعلى الإنتاج الفعال في مجتمعه، وما ينتج عن ذلك من فساد اجتماعي وممارسات خبيثة عدوانا ومشاحنات وأمراضا نفسية واضطرارا في أحيان كثيرة إلى أي وسيلة يحصلون بها على الخمر سرقة ونصبا ورشوة، وتعويد الميسر أهلَه على الكسب السهل والكسل والتحايل للربح كذبا ونصبا وغشا وخداعا، مع ما يصحب ذلك من خراب بيوت الذين يخسرون في القمار، بإتلاف أموالهم وأعراضهم، وكان الرجل في الجاهلية يخاطر على أهله وماله، فأي المقامرَيْنِ قَمَرَ صاحبه ذهب بأهله وماله، مع ما

---

59 – مأخوذ من تَقَمَّر الصَّيَّادُ الظِّباءَ والطَّيْرَ بالليل إذا صادها في ضوء القمر فَتَقْمَرُ أبصارُها، يقال: يتقمَّرون آثار الصيد إذا تتبعوها في الليل خلسة ليخدعوها، وقَمَروا الطيرَ عَشَّوْها في الليل بالنار ليَصِيدُوها، وكَأَنَّ القِمارَ مأْخوذ من الخِدَاع يقال: قامَره بالخِدَاعِ فَقَمَرَهُ.

ينتج عن ذلك من مشاحنات وخصومات تصل حد العدوان الجسدي جرحا وقتلا، وما يؤدي إليه انصراف المسلم إلى معاقرة الخمر والمقامرة من انشغال عن ذكر الله وعن الصلاة، لذلك عقب عز وجل على ادعائهم المنافع في الخمر والميسر بقوله تعالى: { وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا }، ثم بين ذلك مفصلا بقوله: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ } المائدة 90/91.

إن مداومة شرب الخمر وتعاطي القمار تؤدي إلى الإدمان عليهما، فيتعذر فطم النفس عنهما، وهو ما تعانيه البشرية في عصرنا هذا وقد عجزت التشريعات الوضعية عن مقاومتهما في أرقى الدول وأقواها، لذلك سار التشريع الإلهي في تحريمهما بتدرج وحذر، وبواسطة أسلوب تربوي حكيم، يعتمد على تجربة الخطأ الذي يتلوه التقويم والتهذيب، حتى إذا ضاقت النفوس بهما في مجتمع الطهر والإيمان كان للتحريم أثره، وللتوبة منهما يسرها وسهولتها. وقد ذكر الطبري عن ابن إسحاق عن سعيد بن جبير، قال:(لما نزلت: { يَسأَلُونَكَ عَنِ الخَمرِ وَالمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنافِعُ لِلنّاسِ} فكرهها قوم لقوله: {فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ} وشربها قوم لقوله: {وَمَنافِعُ لِلنَّاسِ}، حتى نزلت: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ } المائدة 43، قال: فكانوا يدعونها حين الصلاة ويشربونها في غير حين الصلاة، حتى نزلت: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} المائدة 90، فقال عمر: ضيعةً لك، اليوم قرنت بالميسر). وعن أبي توبة المصري قال: سمعت عبد الله بن عمر يقول: أنزل الله عز وجل في الخمر ثلاثا، فكان أول ما أنزل: { يَسأَلُونَكَ عَنِ الخَمرِ وَالمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ} الآية، فقالوا: يا رسول الله ننتفع بها ونشربها كما قال الله جل وعز في كتابه. ثم نزلت هذه الآية: {يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقرَبُوا الصَّلاةَ وأَنْتُمْ سُكارَى} الآية، قالوا: يا رسول الله لا نشربها عند قرب الصلاة، قال: ثم نزلت: { إِنَّمَا الخَمْرُ وَالمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ فاجْتَنِبُوهُ} الآية، قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: (حُرِّمَتِ الخَمْرُ). وفي الصحيح أن عمر رضي الله عنه قال: اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيَانًا شِفَاءً، فَنَزَلَتْ الْآيَةُ الَّتِي فِي الْبَقَرَةِ: { يَسْأَلُونَكَ عَنْ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِير } الْآيَةَ، قَالَ: فَدُعِيَ عُمَرُ فَقُرِئَتْ عَلَيْهِ، فقَالَ: اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيَانًا شِفَاءً، فَنَزَلَتْ الْآيَةُ الَّتِي فِي النِّسَاءِ: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى } فَكَانَ مُنَادِي رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أُقِيمَتْ الصَّلَاةُ يُنَادِي: أَلَا لَا يَقْرَبَنَّ الصَّلَاةَ سَكْرَانُ، فَدُعِيَ عُمَرُ فَقُرِئَتْ عَلَيْهِ فَقَالَ:" اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيَانًا شِفَاءً "، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: { فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ }، فقَالَ عُمَرُ: انْتَهَيْنَا.

على أن من العلماء من يرى أنه نزل في الخمر أربع آيات، نزل بمكة قوله تعالى: { وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا } النحل 67، فكان المسلمون يشربونها وهي حلال لهم، ثم إن عمر ومعاذا ونفرا من الصحابة قالوا:" يا رسول الله، أفتنا في الخمر فإنها مذهبة للعقل مسلبة للمال "، فنزلت: { فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ } البقرة

219، فشربها قوم وتركها آخرون، ثم دعا عبد الرحمن بن عوف ناسا منهم فشربوا وسكروا فقام بعضهم يصلي فقرأ: " قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون " فنزلت: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ } النساء 43، فَقَلَّ من يشربها، ثم دعا عتبان بن مالك قوماً فيهم سعد بن أبي وقاص فلما سكروا افتخروا وتناشدوا شعرا فيه هجاء للأنصار فضرب أحد الأنصار سعداً بلحي بعير فشجه، فشكا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك، فقال عمر: اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا فنزلت: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ... إلخ الآية }، فقال عمر: " انتهينا يا رب ".

وبناء على هذه الروايات وما يفهم من تدرج التشديد في هذه الآيات، ذهب بعض العلماء إلى أن قوله تعالى: { فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ } تقتضي ذم الخمر دون تحريمها، وأنها منسوخة بآية سورة المائدة التي هي النص في التحريم { إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ...إلخ الآية }. إلا أن المتأمل في آيات سورة النساء وسورة البقرة وسورة المائدة يبدو له أنها جميعا تتضمن التحريم، وإن بصيغ متدرجة بحسب حِلْم المخاطبين، وهم مراتب كما هي طبيعة الناس عادة، وقد ثبت أن من الصحابة من لم يشرب خمرا في جاهلية ولا إسلام، كما هو حال الخليفة أبي بكر رضي الله عنه وقد قالت عنه السيدة عائشة رضي الله عنها: " لقد ترك أبو بكر الخمر في الجاهلية، أفهو يشرب الخمر في الإسلام "، والإمام علي كرم الله وجهه وهو القائل قبل تحريم الخمر: " والله لا أشرب شيئا يذهب بعقلي ويضحك بي من رآني ".

فقوله تعالى في سورة النساء: { لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ } يتضمن تعارض عبادة مع عادة مستقذرة وحالٍ من فقدان العقل مُزْرٍ بالمروءة، وما كان كذلك حري بذي الحلم والعقل تجنبه والامتناع عنه. وما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما كان يأمر إذا أقيمت الصلاة بأن ينادَى:(أَلَا لَا يَقْرَبَنَّ الصَّلَاةَ سَكْرَانُ) إشارة إلى نجاسة الخمر، وعتب خفي على شاربيها وتوبيخ لهم وتعريض واضح بشنيع فعلهم، وهو بذلك أشد على ذوي المروءة من مجرد التحريم.

أما قوله تعالى في سورة البقرة: { فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ } فيكفي لفهم التحريم وصفه بالإثم، والإثم الذنب، ووصفه بالكبير، وكل كبير محرم بإجماع. وبهذه الآية حرم الخمر، كما حرم في آية سورة المائدة بقوله تعالى: { رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوه }.

أما ما اختلف فيه مما سمي نبيذا، وما ذهب إليه الحنفية في إباحته، فقد دخل الحكمَ فيه تلبيسٌ وخلط، ذلك أن النبيذ المعروف والمباح هو النقيع أو النَّقوع بالفتح، ما يُنْقَعُ في الماء من الليل لِدواءٍ أَو نَبِيذٍ ويُشْرَبُ نهاراً وبالعكس، كما ورد في قواميس اللغة، أي أن تنبذ الفاكهة وتنقع في الماء فترة قصيرة ما بين صبح ومساء حتى إذا استسيغ الماء بها حلوا قبل أن تختمر شرب، وهو ما يفعله عامة الناس إلى يومنا هذا بعصر الفواكه وتبريدها، أو بنقع المجفف منها في الماء، ثم يشرب العصير أو تؤكل الفاكهة المنقوعة ويشرب ماؤها، وقد روى النسائي عن عبد الله بن الديلمي عن أبيه فيروز قال: (

قَدِمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا أَصْحَابُ كَرْمٍ وَقَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ تَحْرِيمَ الْخَمْرِ فَمَاذَا نَصْنَعُ قَالَ: تَتَّخِذُونَهُ زَبِيبًا قُلْتُ: فَنَصْنَعُ بِالزَّبِيبِ مَاذَا؟ قَالَ: تُنْقِعُونَهُ عَلَى غَدَائِكُمْ وَتَشْرَبُونَهُ عَلَى عَشَائِكُمْ وَتُنْقِعُونَهُ عَلَى عَشَائِكُمْ وَتَشْرَبُونَهُ عَلَى غَدَائِكُمْ)، أما إذا ترك النقوع حتى تخمر فهو حرام، لأنه صار مسكرا بكثيره ولو كان قليله لا يسكر، كما هو حال " الجعة " التي شاع إثم تناولها بدعوى خلوها من الكحول، والثابت علميا أن فيها نسبة قليلة من الكحول يسكر كثيرها، بالإضافة إلى أنها طريق ممهدة وذريعة إلى تناول الخمر الصريح، وقد قال صلى الله عليه وسلم: (كل شراب أسكر فهو حرام) وقال: (ما أسكر كثيره فقليله حرام).

كما يدخل في حكم الخمر تناول المخدرات وهي حرام أيضا لأنها تذهب العقل، سواء كانت بدائية من نباتات مصنعة وغير مصنعة أو من مواد كيماوية أخرى، ويجمعها مع الخمر إسكارها وخطورتها على الفرد والمجتمع، لذلك لها وللخمر قياسا عليه حد واحد في الشريعة، ما لم يتحول حال صاحبها إلى الإدمان الذي لا ينفع معه عقاب، فيكون العلاج الطبي المباشر أول إجراء لمقاومة هذه الآفة.

أما حد الخمر فقد ثبت بإجماع الصحابة من عهد عمر أنه ثمانون جلدة، بعد أن كان على عهد أبي بكر أربعين، قال الشافعي: أخبرنا الثقة عن معمر عن الزهري عن عبد الرحمن بن أزهر قال: أتي النبي صلى عليه وسلم بشارب فقال:(اضربوه) فضربوه بالأيدي والنعال وأطراف الثياب وحثوا عليه التراب ثم قال: (نكبوه) فنكبوه ثم أرسله، قال: فلما كان أبو بكر سأل من حضر ذلك الضرب فقوّمَه أربعين، فضرب أبو بكر في الخمر أربعين حياتَه ثم عمر، ثم تتابع الناس في الخمر فاستشار عمر فضرب ثمانين. وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه استشار فقال علي: نرى أن يجلد ثمانين لأنه إذا شرب سكر وإذا سكر هذى وإذا هذى افترى، فجلد عمر ثمانين في الخمر.

وعن أبي هريرة قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتي برجل قد شرب الخمر فقال: (اضربوه) فمنا الضارب بيده والضارب بثوبه والضارب بنعله ثم قال: (بكتوه) فأقبلوا عليه يقولون: ما اتقيت الله ما خشيت الله وما استحييت من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال بعض القوم: أخزاك الله، قال:(لا تقولوا هكذا, لا تعينوا عليه الشيطان ولكن قولوا: اللهم اغفر له اللهم ارحمه).

والسياق العام في تقرير عقوبة الخمر والمؤثرات العقلية بعامة كما وردت عن الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته الأبرار، يشير إلى أن الغاية من ذلك معالجة آفتي الخمر والمخدرات ومساعدة المبتلين بهما على التوبة وإعانتهم على التخلص منهما، وليس التشفي والانتقام منهم أو النكاية فيهم، وهذا يفتح المجال لوضع ما هو كفيل بتطهير المجتمع منهما ومعالجة المدمنين عليهما إذا لم ينجع الحد ولم تكْفِ العقوبة، ومنع تداولهما وتصنيعهما واستيرادهما والترويج لهما. وهو ما تفطنت له حاليا دول غير مسلمة فأخذت تعمل له، وما تهاونت فيه دول المسلمين في عصرنا هذا لضرورات

اقتصادية وهمية، فأصبحت بلادهم مرتعا لعصابات تجارة الخمور والمخدرات في العالم، ومجالا واسعا لاستنبات الأمراض النفسية والعقلية وجرائم الأعراض والأرحام.

وإذا كان من الورع أن يسأل أغنياء المسلمين عن مقادير ما ينفقون في سبيل الله غير الزكاة المفروضة، فإن من البدهي أن يتساءل من كف عن الميسر وتجارة الخمر عن صنف ما ينفق وعن قدره، لذلك نزل الجواب قولا من الله تعالى: { وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ }، وقد اختلف في معنى لفظ " العفو"، فقال بعضهم: العفو أفضل المال وأطيبه، وقال آخرون: العفو هو فضل المال، وقيل: الوسط من النفقة ما لم يكن إسرافا ولا إقتارا، والصدقة عن ظهر غنى، واليسير من كل شيء،، والصدقة المفروضة التي هي الزكاة. إلا أن ورود الآية عقب تحريم المكاسب الخبيثة المذكورة يجعل تفسير العفو بالطيب من المال قليلا أو كثيرا أقوى وأرجح، لأنه جواب للفئتين من السائلين، فئة الذين كفوا عن الكسب المحرم، وعزموا على تحري الحلال في مكاسبهم ونفقاتهم، وفئة أهل الورع من المتصدقين في سبيل الله على غيرهم، نفقاتهم من الحلال كلها في ميزان الله تعالى صدقة وقربى وعبادة، قال صلى الله عليه وسلم: (وَإِنَّكَ مَهْمَا أَنْفَقْتَ مِنْ نَفَقَةٍ فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ حَتَّى اللُّقْمَةُ الَّتِي تَرْفَعُهَا إِلَى فِي امْرَأَتِكَ)، وقال فيما رواه مسلم: (عَنْ مُطَرِّفٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَقْرَأُ { أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ }، قَالَ: (يَقُولُ ابْنُ آدَمَ مَالِي مَالِي)، قَالَ: (وَهَلْ لَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ؟). وقال فيما رواه البخاري: (لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَسُلِّطَ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الْحَقِّ وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْحِكْمَةَ فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا). وقال فيما أخرجه مسلم وأبو داود وأحمد: (من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ومن كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له قال: فذكر من أصناف المال ما ذكر حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا في فضل)، لذلك عقب عز وجل على إنفاق العفو بقوله: { كَذَلِكَ يُبيِّنُ اللّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ }، أي يبين لكم الصواب والحق في مكاسب الحياة الدنيا ونفقاتها، لتفكروا في مآل مكاسبكم ونفقاتكم في الآخرة ثوابا أو عقابا.

لم تقتصر مكاسب أهل الجاهلية على القمار وتجارة الخمر فقط، ولكنها امتدت إلى أموال الأيتام تحت رعاية الأوصياء والأولياء، الذين كانوا يتاجرون بها وينتفعون منها وربما يستأثرون بها، فلما جاء الإسلام ووجد هذه الظاهرة مستشرية، نزل الوحي يحض على العدل في الأيتام، والإحسان إليهم، ورعايتهم وإصلاح أحوالهم وأموالهم، وتطهير مكاسب أوليائهم وأوصيائهم من السحت، بما يحفظ أمن المجتمع وروابط المحبة والتكافل والتعاون بين أعضائه حاضرا ومستقبلا، بدأ أولا بصاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم وقد نشأ يتيما فخاطبه بقوله تعالى: { فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ } الضحى9، ثم تدرج في تربية المجتمع الجديد خطوة أخرى فبين أن الإساءة إلى الأيتام فعل من يكذب بالدين { أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ } 2/1 الماعون، { كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ } الفجر 17، حتى إذا انتبهت العقول الغافلة ووعت القلوب الحية، وضع مبضع الجراح على الداء يستأصله، تنديدا بعادة جاهلية هي عنوان الظلم والاستبداد

والاستئثار، من أجل إعادة الحقوق إلى أهلها، وتطهير المؤمنين الجدد من مكاسب وأطعمة مستلبة من ضعاف مستضعفين بين أيديهم، وأنزل الله قوله نصحا وإرشادا: { وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ } لإسراء34، ثم قوله توعدا وتهديدا: { إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا } النساء10، ثم أمرا حازما صارما بإعادة أموالهم إليهم: { وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا } النساء2،

فلما نزلت هذه الآيات الكريمة استشعر المؤمنون خطورة احتضان الأيتام ومسؤولية رعايتهم وبلغ بهم الحذر والخوف من ظلمهم حدا جعل بعضهم يعزلون طعام الأيتام عن طعامهم، وبلغ بهم الحرج أن تساءلوا فيما بينهم أو سألوا الرسول صلى الله عليه وسلم عما يحفظ للأيتام حقوقهم ويرفع الحرج عنهم، فنزل قوله تعالى: { وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى }، قال ابن عباس:" لما نزلت { وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إلاَّ بالَّتِي هِيَ أحْسَنُ } و { وإنَّ الَّذِينَ يَأكُلُونَ أمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْما إنَّمَا يَأكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نارا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرا } انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه، فجعل يفضل الشيء من طعامه، فيحبس له حتى يأكله أو يفسد، فاشتدّ ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلّم، فأنزل الله عز وجل: { وَيسألُونَكَ عَنِ الَيتامَى قُلْ إصْلاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإنْ تُخالِطُوهُمْ فإخْوانُكُمْ } فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم ".

لقد كان الجواب الرباني في هذه القضية أشد وضوحا وإيجازا وحفاظا على وحدة المسلمين وأمنهم الاجتماعي: { قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ }، ذلك أن الأصل في تصرفات المؤمن هو الإصلاح وتجنب الفساد والإفساد، والأصل في علاقة المؤمن بجميع المؤمنين كبارا وصغارا هو أخوة الإيمان ورابطة العقيدة، وحق الأيتام على وليهم أو وصيهم، أن يصلح لهم أموالهم ومعاشهم، من غير جفاء أو عزل أو إساءة أو مبالغة في الاحتياط والحذر, لأنهم إخوانهم في الدين أولا، وأخوة الدين تقتضي المخالطة بأعلى درجات الإحسان والنصح، ولأن القيام بأمرهم ثانيا لا يتعارض مع مخالطتهم ومشاركتهم في الحياة اليومية والنشاط الاجتماعي والتجاري إذا توفر الورع ومراقبة الله تعالى في الخفي والظاهر من النوايا والأعمال، ولأن الله عز وجل قبل ذلك كله يعلم أهل الصلاح وأهل الفساد ولا تخفى منهم خافية { وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ} لأموالهم { مِنَ الْمُصْلِحِ } لأحوالهم وأموالهم، { وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ } أن يشق عليكم ليبتليكم ويختبركم { لأَعْنَتَكُمْ } أعنتكم: من فعل: عَنِتَ العظمُ عَنَتاً فهو عَنِتٌ إذا وَهَى وانكسر، وعَنِتَ الرجل: دخلته مشقة، وأعنته غيره إذا شق عليه، وقد يوضع العنت موضع الهلاك، فيكون معنى الآية:" لو شاء الله لشق عليكم وتَعَبَّدكم بما يَصْعُبُ عليكم من الأحكام، أو لأهلككم عدلا منه بتشريع فيه هلاككم، كما فعل ببني إسرائيل في قوله عز وجل: { فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ } البقرة54

بهذه الآيات الكريمة أصبح حقا لليتيم وواجبا على وليه أو وصيه أن يصلح له في أمر نفسه وماله بما يضمن له نشأة سوية ومعاشا كريما.

أما الإصلاح في المال فيقتضي تنميته وتطويره تحت ضوابط الشريعة، متاجرة أو مضاربة أو مساقاة أو مزارعة أو غير ذلك من أوجه الاستثمار المشروع، بما يحفظ أصول مال اليتيم، ويدخرها ليوم رشده واستحقاقه تسلمها واستثمارها بنفسه.

أما إصلاح أمر اليتيم في نفسه فيقتضي تربيته وتعليمه وتوفير حاجاته بالمعروف مطعما وملبسا وعلاجا وإعفافا بالزواج، ذكرا كان اليتيم أو أنثى، حتى إذا بلغ رشده غير سفيه ولا عاجز استلم ماله من وليه وأخلى ذمته بمعروف وإشهاد، توثيقا لعرى الأخوة والمحبة بين الطرفين واستدامة لها وشكرا لأهل الفضل من الأولياء والأوصياء الأمناء الأتقياء. قال تعالى: { وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آَنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا } النساء 6.

كما يقتضي حفظ حقوق اليتيم على الغير، قصاصا ودية ودينا ومهرا لليتيمة تستحقه على من يتزوجها، ومعاملة حسنة بالقسط والعدل في جميع الأحوال، ولذلك أبرز تعالى حالة من حالات استضعاف الأيتام وأكل أموالهم، بذكر اليتيمة ذات المال يرغب وليها في مالها فيتزوجها بغير ما تستحق من مهر، ويعاملها بعد الزواج بغير ما تستحق من حسن المعاملة، استضعافا لها واستفرادا بالسيطرة عليها، فقال عز وجل: { وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً } النساء3، أي إذا كانت تحت ولاية أحدكم يتيمة وخاف إن تزوجها ألا يعدل في صداقها أو حسن معاملتها فله أن يتزوج غيرها، ويزوجها لمن يعطيها صداق المثل ويحسن عشرتها بالمعروف، وقد روى البخاري عن عروة أنه سأل أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن هذه الآية { وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى...} فقالت: (يَا ابْنَ أُخْتِي هَذِهِ الْيَتِيمَةُ تَكُونُ فِي حِجْرِ وَلِيِّهَا فَيَرْغَبُ فِي جَمَالِهَا وَمَالِهَا وَيُرِيدُ أَنْ يَنْتَقِصَ صَدَاقَهَا فَنُهُوا عَنْ نِكَاحِهِنَّ إِلَّا أَنْ يُقْسِطُوا فِي إِكْمَالِ الصَّدَاقِ وَأُمِرُوا بِنِكَاحِ مَنْ سِوَاهُنَّ قَالَتْ وَاسْتَفْتَى النَّاسُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ { وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ } إِلَى: { وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ }، فَأَنْزَلَ اللَّهُ لَهُمْ أَنَّ الْيَتِيمَةَ إِذَا كَانَتْ ذَاتَ جَمَالٍ وَمَالٍ رَغِبُوا فِي نِكَاحِهَا وَنَسَبِهَا وَسُنَّتِهَا فِي إِكْمَالِ الصَّدَاقِ وَإِذَا كَانَتْ مَرْغُوبَةً عَنْهَا فِي قِلَّةِ الْمَالِ وَالْجَمَالِ تَرَكُوهَا وَأَخَذُوا غَيْرَهَا مِنَ النِّسَاءِ قَالَتْ فَكَمَا يَتْرُكُونَهَا حِينَ يَرْغَبُونَ عَنْهَا فَلَيْسَ لَهُمْ أَنْ يَنْكِحُوهَا إِذَا رَغِبُوا فِيهَا إِلَّا أَنْ يُقْسِطُوا لَهَا وَيُعْطُوهَا حَقَّهَا الْأَوْفَى فِي الصَّدَاقِ).

بهذه الآيات الكريمة حث الله تعالى المؤمنين على التطهر من ثلاثة أصناف من المكاسب المحرمة، مكاسب الخمر تناولا ومتاجرة، ومكاسب الميسر نصبا وخداعا وتواكلا وركونا إلى الدعة والراحة وربحا بدون تعب، ومكاسب اغتصاب أموال الأيتام والمستضعفين وخيانة أمانة الولاية عليهم، كل ذلك جانب من البناء والتشييد لصرح المجتمع الإسلامي الرشيد،

يتلوه جانب أكثر أهمية وأشد خطورة هو بناء النواة الأولى لهذا المجتمع، الأسرة المسلمة بنظامها وتشريعها ومقاصدها وأهدافها، وهو ما حوته اثنتان وعشرون آية موالية لهذه الآيات ومكملة لها.

الحياة الزوجية: وفاق وولاء

قال الله تعالى: { وَلاَ تَنكِحُواْ الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلاَ تُنكِحُواْ الْمُشِرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُواْ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُوْلَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللّهُ يَدْعُوَ إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (221)} سورة البقرة

التوحيد أعلى مراتب الإيمان ومدخله، جوهره إثبات وتنزيه، إثبات جميع الأسماء الحسنى والصفات العلى له عز وجل، وتنزيهه تعالى عن الكفء والند والنظير والمثل والشبيه والنقص والصاحبة والولد، قال تعالى: { قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ } الإخلاص1، وقال: { وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ } ص 65، وقال: { وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا } الجن 3، انفرد الرب سبحانه بالوحدانية والعظمة والكبرياء وجميع صفات الكمال، وجعل خلقه من زوجين يتلاقحان فتستمر الحياة تناسلا وتكاثرا، وقال: { وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ } الذاريات 49، وقال: { وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى } النجم 45، هذه سنة الله في الخلق، يتفكر فيها من تفكر فيهتدي إلى وحدانية الله وقدرته، ويغفل من غفل فيضل ويشقى، في الإنسان والحيوان والنبات ودقيق المخلوقات، ما يرى بالعين المجردة وما لا يرى إلا بالوسائط العلمية، وما لا يرى أو يعلم مما استأثر الله تعالى بعلمه، لكل زوجين نظام حياة للبقاء والتعايش والتفاعل والتلاقح، إلا أنه تعالى وقد حمل الإنسان أمانة العقيدة وتكاليف مقتضياتها عبادة في الدنيا ومحاسبة في الآخرة، جعل له نظاما يليق بشرف هذه الأمانة وعلو هذه المكانة، وشرع له من تشريعات الحياة الزوجية ما يساعده على القيام بواجبه

ويحقق مقصد خلقه وإيجاده، فسبحانه وتعالى جل جلاله وعز سلطانه { سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ } يس 36.

ولئن كان لما سوى الإنسان نظام فطرة للتزاوج والتناسل وحفظ النوع، يناسب طبيعته ومقصد خلقه وتسخيره، فإنه تعالى خص الإنسان بنظام تشريعي يجمع بين هدف حفظ النوع واستمرار الحياة في الدنيا، وهدف العبادة إعدادا للآخرة، وجعل لهذا النظام أصلا راسخا في الملأ الأعلى وضمير الغيب، إذ خلقه من نفس واحدة جعل منها الذكر والأنثى، { هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا } الأعراف 189، { خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا } الزمر6، { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى } الحجرات 13، وجعل نظام الأسرة وعلاقة الذكر بالأنثى تعاقدا ومعاشرة وتعاونا آية من آيات رحمته ولطفه وعنايته بخلقه فقال: { وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } الروم21.

ولئن شذ قوم عما قرره تعالى للحياة الأسرية، فانتحلوا لأنفسهم نظما ناشزة عن طبيعة الحياة ومقاصدها وتكاليفها، عقودا زوجية ضالة بضلال معتقداتهم، أهل كتاب ولادينيين وعبدة أوثان، فإن الحياة الزوجية في الإسلام بما لها من ثقل التكاليف وخطورة الأهداف، لم يجعل الله تعالى وثاقها مجرد صك تجاري عابر أو عقد مصلحة دنيوية تنقطع، أو شهوة نفس تفور ثم تندثر، ولكنه جعلها علاقة ربانية ينشئها تعالى ويشهد عليها ويأتمن الزوجين عليها ويسألهما ويحاسبهما يوم القيامة بها، وأبى إلا أن يصفها بالميثاق الغليظ فقال: { وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا } النساء 21، وأوصى برعايتها وتقوى الله فيها فقال: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا } النساء1.

ومن العجيب أن هذا الوصف" الميثاق الغليظ " لم يطلق في القرآن إلا على معنيين:

أولهما ميثاق الله عز وجل مع النبيئين وأقوامهم على الإيمان والإسلام بقوله تعال: { وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقاً غَلِيظاً } الأحزاب 7، وقوله جل جلاله: { وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّداً وَقُلْنَا لَهُمْ لاَ تَعْدُواْ فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقاً غَلِيظاً } النساء 154.

أما المعنى الثاني فخاص بالعلاقة الزوجية كما أسلفنا بقوله تعالى: { وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقاً غَلِيظاً }، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في خطبته في حجة الوداع:(فاتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله)، وقال: (وإنما أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله عز وجل، ألا ومن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها، وبسط يديه وقال: ألا هل بلغت ألا هل بلغت، ثم قال: ليبلغ الشاهد الغائب فإنه رب مبلغ أسعد من سامع). فكان من مقتضيات هذا الميثاق لقوته ومتانته وعظم مسؤوليته أن يجري بين الزوجين من الاتحاد

والامتزاج والتوافق وحسن الصحبة والمعاشرة والولاء في الله ما يثقل كاهليهما ويحفظ أسرتهما وذريتهما ويبرئ ذمتهما عند المساءلة بين يدي الله تعالى.

كذلك أيضا نجد تعظيما آخر من الله عز وجل لهذه العلاقة في سورة الممتحنة، إذ جعلها أحد مَثَلين للولاء والبراء، مَثَلٍ منها ومَثَلٍ من إبراهيم عليه السلام مع أبيه وقومه.

ذلك أن محور هذه السورة الكريمة هو عقيدة الولاء والبراء، افتتحت بتحريم موالاة أعداء الله ومحبتهم بقوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاء مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ } الممتحنة 1.

وختمت كذلك بتحريم اتخاذ الكافرين أولياء في قوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ } الممتحنة13.

وبين دفتي هذه السورة ضرب الله تعالى مَثَلين توضيحيين كاشفين لمدى خطورة هذه العقيدة في أهم مفاصلها، مفصل العلاقة مع الوالدين والقوم، ومفصل العلاقة بين الزوجة وزوجها، داعيا في الحالتين إلى اتخاذ الميثاق مع الله مقدما على أي رابطة أخرى، وحاكما عليها.

الأول في علاقة إبراهيم بأبيه وقومه إذ يقول تعالى: { قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ } الممتحنة4، ويقول: { فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ } التوبة114.

أما المثَل الثاني ففي العلاقة الزوجية، إذ جعل ولاء الإيمان ركنا ركينا في العلاقة الزوجية، فحرم المسلمة على الكافر والكافرة على المسلم، بحيث لا تقوم هذه الآصرة حق قيامها إلا من خلال الرجل المسلم ذي أهلية تحمل الأمانة والوفاء بهذا الميثاق الغليظ، والمرأة المسلمة المقدرة لمسؤوليتها في الدنيا ويوم العرض بين يدي الله تعالى في الآخرة. وهو ما بينته سورة الممتحنة بقوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ } الممتحنة 10.

لا شك أن الحياة الزوجية عبادة، ولكنها أيضا لحفظ النوع وتربية الأجيال والتعايش السليم الآمن المطمئن، تفاهم بين الزوج وزوجته وتناسب ووحدة شعور وتطابق أهداف وقيم ومبادئ، وحري بما بني من أول يوم على تنافر الدين والعقيدة والقيم أن ينهدم ويتهاوى، لذلك عندما اشترط تعالى في الطرفين الإيمان والإسلام، زاد فأكد ذلك بتحريم زواج المسلم من المشركة، والمسلمة من المشرك، فقال: { وَلاَ تَنكِحُواْ الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلاَ

تُنكِحُواْ الْمُشِرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُواْ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُوْلَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللّهُ يَدْعُوَ إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ }.

والفعل "نكح" من النون والكاف والحاء أصل واحد يعني الضم والاختلاط وتداخل أجزاء الشيء بعضها في بعض، من تناكح الأشجار إذا انضم بعضها إلى بعض، ونكح المطر الأرض إذا اختلط في ثراها، ونكح الدواء المريض إذا خامره وغلبه، وأطلق مجازا على عقد الزواج، لأنه سبب في المعاشرة الزوجية المشروعة، يقال:" امرأة ناكح في بني فلان " أي ذات زوج منهم، وأنكحه في بني فلان أي زوجه منهم. يؤيد ذلك أنه لم يرد في القرآن إلا بمعنى العقد.

أما الشرك المقصود في هذه الآية الكريمة، فهو كل دين يعبد فيه مع الله تعالى أو من دونه صنم أو شجر أو حجر أو هوى أو مخلوق أيا كان، مهما انتحل لتبرير ذلك من أسباب أو شروح أو تأويل، ويشمل بهذا المعنى البوذية والمجوسية واليهودية والنصرانية والإلحادية والعلمانية والشيوعية، وعبادة الكواكب والنجوم والملائكة والأنبياء والرسل.

وقوله تعالى في هذه الآية: { وَلاَ تَنكِحُواْ الْمُشْرِكَاتِ } بفتح التاء أي لا تتزوجوا الكافرات ما لم يسلمن. وقد ذكر أن هذه الآية نزلت في أمة سوداء تدعى خنساء، كانت لحذيفة بن اليمان، فقال حذيفة لما نزلت: يا خنساء قد ذكرت في الملأ الأعلى على سوادك ودمامتك فأعتقها وتزوجها. وقيل أيضا أن أبا مرثد الغنوي بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة ليخرج منها ناسا من المسلمين سرا، فلما قدمها سمعت به امرأة مشركة يقال لها عناق، وكانت خليلته في الجاهلية، فأتته وقالت: يا أبا مرثد ألا تخلو؟ فقال لها: ويحك يا عناق إن الإسلام قد حال بيننا وبين ذلك، قالت: فهل لك أن تتزوج بي؟ قال: نعم، ولكن أرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأستأمره، ثم مضى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله، فأنزل الله تعالى: { وَلا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ }، وبَيَّنّ أن أي أمة – أي أسيرة من أسرى المسلمين في الجهاد – إن أسلمت خير للمسلم من المشركة مهما أعجبه مالها أو جمالها أو شرف قومها فقال: { وَلأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ }.

أما قوله تعالى: { وَلاَ تُنكِحُواْ الْمُشِرِكِينَ...الآية } بضم التاء، فهو نهي عن أن يزوج المسلمون بناتهم من المشركين، وتأكيد آخر بأن أي رجل مؤمن ولو كان عبدًا — أي أسيرا من أسرى المسلمين في الجهاد – إذا أسلم خير من المشرك ولو أعجبهم ماله أو منصبه أو مكانته في قومه، أو كان في مصاهرته مصلحة ما.

ثم بين عز وجل علة التحريم بقوله: { أُوْلَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ } لأن معاشرة الكافر والكافرة ومصاهرة الكفار تدعو إلى الكفر وتمهد له وتساعد عليه، وتبعث على حب الدنيا واقتنائها وإيثارها على الدار الآخرة، وهي بذلك طريق إلى النار { وَاللّهُ يَدْعُوَ إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ }، وزواج المسلمة من المسلم كما يدعو إلى ذلك الشرع الحكيم طريق الجنة والمغفرة والفوز في الآخرة، { وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ } أي يبين الله تعالى بهذا التشريع دلائل لطفه بالمسلمين ويعرفهم ما ينفعهم في نظام الأسرة وتنشئة الذرية المسلمة { لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ } أي لعلهم يتعظون فلا ينسون، ويختارون لأنفسهم ولذرياتهم أهل

الإسلام نساء ورجالا، قال تعالى: {وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ } النور32، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير)، وقال:(تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ لِمَالِهَا وَلِحَسَبِهَا وَجَمَالِهَا وَلِدِينِهَا فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاك)،

وقد شغب على هذا المعنى بعض أهل النفاق والارتزاق بأن عدوا أهل الكتاب مؤمنين يجوز النكاح منهم وإليهم، ذكورا وإناثا، ونفوا عنهم صفتي الشرك والكفر، وما حملهم على مذهبهم هذا إلا غلبة معسكر النصرانية واليهودية على أمر المسلمين في هذا العصر الرديء، والحرص على التقرب من أهله ومداهنتهم، والكتاب والسنة صريحان في كفر اليهود والنصارى وشركهم.

ذلك أن الشرك إذا كان يقتضي عبادة ما سوى الله أو معه، فإن الكفر في العقيدة الإسلامية هو تكذيب ما جاء عنه عز وجل بواسطة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم سواء كان هذا التكذيب جحودا للأسماء والصفات أو الربوبية والألوهية أو إنكارا للنبوة وما نقل عنها صحيحا، أو رفضا للشريعة وتعاليمها، وهو بذلك متضمن للشرك الذي هو صورة من صور الكفر، ويدخل فيه بهذه المعاني كلها اليهودي والنصراني والمشرك واللاديني، وقد حرم الله تعالى زواج المسلمة من الكافر بقوله: { فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُن } الممتحنة 10، وجعل الأصل في زواج المسلم من الكافرة التحريم بقوله: { وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ } الممتحنة 10.

كما أن صريح الكتاب والسنة قد حسم في أمر شرك أهل الكتاب يهودا ونصارى وكفرهم، قال تعالى: { لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } المائدة 73/72، وقال: { وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ، اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَهاً وَاحِداً لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ } التوبة 30.

هذه الآيات واضحة في وصف اليهود والنصارى بالكفر والشرك، في آيتي المائدة بقوله تعالى: { لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ } وقوله عز وجل: { إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ }، وقوله في آية التوبة: { وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَهاً وَاحِداً لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ }.

وكذلك السنة النبوية، تؤكد كفر أهل الكتاب وشركهم، وقد تواتر عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه كان يسمي كل كافر مشركا، وكان الكفار في عهده ما بين يهودي ونصراني وعابد وثن ومستشفع به، ومنكر للبعث والتكليف. وقد

روى الأعمش وسفيان عن حبيب بن أبي ثابت عن أبي البختري قال: سئل حذيفة عن قول الله عز وجل: { اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ } التوبة31، هل عبدوهم؟ فقال: لا، ولكن أحلوا لهم الحرام فاستحلّوه، وحرموا عليهم الحلال فحرموه. وروى الترمذي والبيهقي عن عدي بن حاتم قال:(أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وفي عنقي صليب من ذهب فسمعته يقول: اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله، قال: قلت يا رسول الله إنهم لم يكونوا يعبدونهم، قال: أجل ولكن يحلون لهم ما حرم الله فيستحلونه ويحرمون عليهم ما أحل الله فيحرمونه فتلك عبادتهم لهم).

وقال ابن عمر:" لا أعلم شركاً أعظم من أن يقول المسيح ابن الله وعزير ابن الله"، وفي رواية:" لا أعلم شركا أعظم من أن تقول: إن ربها عيسى".

هذه النصوص من الكتاب والسنة ومثلها كثير، تقتضي أن الكفر يتضمن الشرك مبنى ومعنى وشرعا، إذ لو كان غير ذلك لوجب أن يغفر الله عز وجل لأهل الكتاب بمقتضى قوله: { إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً }. وهذا المعنى باطل بطلانا بينا.

ولئن أباح الشرع للمسلم أن يتزوج من الكتابية استثناء من عموم التحريم بقوله تعالى: { وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آَتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ } المائدة 5، فإنما ذلك لما عليه نظام الأسرة المسلمة من قوامة الرجل على الزوجة، ومتابعة الأبناء لدين آبائهم ونسبهم، وما في هذه الرخصة من تمهيد لاحتواء أهل الكتاب واستدراجهم للإسلام بالمصاهرة والاختلاط من موقع قوة وعزة إيمان، لذلك اشترط عز وجل أن تكون الزوجة الكتابية محصنة، أي من الحرائر العفيفات المترفعات عن الفاحشة والزنا، وأن يكون الزواج على الكتاب والسنة بأركانه وليا وصداقا ورضا، لا سفاحا ولا مخادنة، وألا يكون ذريعة لنشر التحلل والإعراض عن المسلمات في المجتمع الإسلامي، وهو ما انتبه له عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما تزوج طلحة بن عُبيد الله يهودية وتزوج حذيفة بن اليمان نصرانية، فغضب عمر بن الخطاب غضبًا شديدًا، حتى هَمَّ أن يسطو عليهما. فقالا نحن نطلّق يا أمير المؤمنين، ولا تغضب، فقال: لئن حَلّ طلاقهن لقد حل نكاحهن، ولكني أنتزعهن منكم صَغَرَة قَمأة، وفي رواية أصح أن عمر كتب إلى حذيفة خَلِّ سبيلها، فكتب إليه حذيفة: أتزعم أنها حرام فأخَلِّي سبيلها؟ فقال عمر: لا أزعم أنها حرام، ولكني أخاف أن تعاطوا المومسات منهن. والحق مع عمر لاسيما في هذا العصر وقد تعذر إلا نادرا تمييز المحصنة من غير المحصنة في أهل الكتاب وقد اختلطت فيهم الأنساب والأعراض وأجهزت العلمانية والإلحاد والميوعة فيهم على ما بقي من رسم التوراة والإنجيل.

وهذه الرخصة لا تنطبق على حال المؤمنة، وزواجها بغير المسلم ملحدا أو وثنيا أو يهوديا أو نصرانيا محرم بصريح الكتاب والسنة والإجماع، عدا ما يترتب عن زواجها بالكافر من مخاطر وآثام متعلقة بالقوامة التي للكافر عليها وعلى أولادها منه، قال تعالى: { وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا } النساء141. والقول بأن أهل الكتاب ليسوا مشركين

دعوى ساقطة لتعارضها مع النقل الصحيح والعقل السليم، وما الداعي إليها إلا كفر بما جاء عن الله تعالى، أو خضوع مذل ومداراة سفيهة ومسايرة وتزلف للتجبر الكتابي المعاصر،

هذه المعاني كلها بينتها السنة النبوية المطهرة ولخصتها قولا وعملا، فقد أخرج ابن جرير عن جابر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (نتزوج نساء أهل الكتاب ولا يتزوجون نساءنا)، قال عمر بن الخطاب:" المسلم يتزوج النصرانية ولا يتزوج النصراني المسلمة "، وقال قتادة: " أحل الله لنا محصنتين محصنة مؤمنة ومحصنة من أهل الكتاب، نساؤنا عليهم حرام ونساؤهم لنا حلال ". وتحريم زواج المسلمة بغير المسلم يعد من المسائل التي لم يختلف عليها علماء المسلمين إلى يومنا هذا، وقد تواتر إجماعهم عليها منذ عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ فرق بين بنته زينب وزوجها المشرك ثم ردها إليه بعد إسلامه، وما ذلك إلا لما فهموه من الكتاب والسنة قطعيا، ولم يشذ عن هذا الحكم إلا شرذمة من ذوي الأهواء والضلال، قدامى ومعاصرين ممن باعوا أنفسهم لغير الله تعالى.

إن زواج المسلمة بغير المسلم ولو كان جهلا منها لا استحلالا، يؤدي بها إلى الكفر مهما حاذرت وحرصت، لأن مآل هذا الزواج أن يخل بعقيدتها ولاء وبراء.

ذلك أن الولاء شرعا هو محبة الله ورسوله وطاعتهما ومحبة المسلمين في الله ونصرتهم، والبراء هو بغض من كفر بالله ورسوله وشريعة الإسلام، أو أنكر الرسالة ومرسلها والمرسل بها، أو حارب أهلها، بدليل قوله تعالى: { لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ } المجادلة 22، وقوله: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } المائدة 51، وقوله: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوَاْ إِن تُطِيعُواْ الَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَاسِرِينَ } آل عمران 149، وقوله: { وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِنْ أَوْلِيَاء ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ } هود 11، وقال الرسول صلى الله عليه وسلم: (أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله)، وعن عمرو بن الجموح أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم: (يقول لا يحق العبد حق صريح الإيمان حتى يحب لله تعالى ويبغض لله فإذا أحب لله تبارك وتعالى وأبغض لله تبارك وتعالى فقد استحق الولاء من الله)، وعن معاذ أنه (سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن أفضل الإيمان فقال: أن تحب لله وتبغض لله وتعمل لسانك في ذكر الله، قال: وماذا يا رسول الله؟ قال: وأن تحب للناس ما تحب لنفسك وتكره لهم ما تكره لنفسك)، وعن البراء بن عازب قال: (كنا جلوسا عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال: (أي عرى الإسلام أوسط؟) قالوا: الصلاة، قال: (حسنة وما هي بها)، قالوا: الزكاة، قال: (حسنة وما هي بها)، قالوا: صيام رمضان، قال: (حسن وما هو به)، قالوا: الحج، قال: (حسن وما هو به)، قالوا: الجهاد، قال: (حسن وما هو به)، قال: (إن أوسط عرى الإيمان أن تحب في الله وتبغض في الله)، وعن البراء بن عازب قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم:(أتدرون أي عرى الإيمان أوثق؟) قلنا: الصلاة، قال: (

الصلاة حسنة وليست بذلك)، قلنا: الصيام، فقال مثل ذلك، حتى ذكرنا الجهاد فقال مثل ذلك، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أوثق عرى الإيمان الحب في الله عز وجل والبغض في الله).

وبما أن الزوجة المسلمة في الأصل بفطرتها ومقتضيات دينها تحب زوجها وتواليه وتطيعه وتنصره، فإن كان زوجها كافرا كان ولاؤها ومحبتُها له ونصرتُها إياه محبةً ضمنيةً للكفر ونصرةً وطاعةً لأعداء ربها ورسوله ومبغضيهما، وهذا يتعارض مع العقيدة السليمة ويهدمها.

إلا أن إسلام الكافر أيا كان صنف كفره يجب ما قبله، فيصبح له أن يتزوج المسلمة، على قدم المساواة في الأحكام مع سائر المسلمين، وكذلك المرأة المشركة إن أسلمت تكتسب أهلية الزواج من المسلم، وهو مضمون قوله تعالى: { وَلاَ تَنكِحُواْ الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ } وقوله: { وَلاَ تُنكِحُواْ الْمُشِرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُواْ }، قال تعالى: { وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ } الأعراف153، وقال: { قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ } الزمر 53

خلاصة ما نصل إليه في هذا المبحث أن زواج المسلمة من غير المسلم أيا كان دينه لا يجوز شرعا، ومحرم بإجماع كل المذاهب الإسلامية على اختلافها، ولا يوجد رأي فقهي واحد يؤيد هذه المسألة، لا في كتب المتأخرين ولا المتقدمين ولا في أقوالهم، وأن زواج المسلم من المشركة حرام قطعا، ومن الكتابية رخصة بشروطه زواجا شرعيا من محصنة ذات عفة، خاليا مما يؤدي إلى إضعاف الأسرة المسلمة أو إفسادها.

أدب المعاشرة الزوجية والحياة الكريمة

قال الله تعالى: { وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُواْ النِّسَاء فِي الْمَحِيضِ وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىَ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (222) نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّكُم مُّلاَقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (223) وَلاَ تَجْعَلُواْ اللّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ النَّاسِ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (224) لاَّ يُؤَاخِذُكُمُ اللّهُ بِاللَّغْوِ فِيَ أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (225)لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَآؤُوا فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (226) وَإِنْ عَزَمُواْ الطَّلاَقَ فَإِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (227) } سورة البقرة

الأسرة نواة المجتمع وأول لبنة في بناء الأمة، والزواج هو النظام الطبيعي والشرعي لقيامها، به يتميز الإنسان عن سائر الكائنات الحية في الأرض، ومادامت علة وجود الإنسان في مداها الأقصى هي العبادة، { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ } الذاريات 56، فإن الأسرة مجال هذه العبادة ونقطة الارتكاز فيها، لذلك جعل الله تعالى لهذه النواة الاجتماعية نظاما يحفظها ويرقيها ويؤهلها ويجعلها لبنة صلبة في بناء متين عصي عن الهدم والانهدام. وما فشل كثير من الأزواج في المحافظة على أسرهم إلا بأحد سببين، جهل أو تجاهل، جهل بأحكام الشريعة ومقاصدها في هذا الأمر، أو تجاهل مع علم بذلك ميلا إلى هوى طاغٍ أو خضوعا لتيارات دخيلة على الدين أو مجاراة لنظم خداعة المظهر فاسدة المخبر.

لقد قصرنا في تأهيل أبنائنا للحياة الزوجية بما أرشدنا إليه الذكر الحكيم والسنة النبوية، فتولت تربيتهم ثقافة الغرب الفاجرة بأفلامها وقنواتها الفضائية ودور العهر فيها، وكان من نتائج ذلك انهدام الأسر والمتاجرة في الأعراض، وحالات للتفسخ والانحلال نشأت بها ولخدمتها عصابات فساد منظم يمسك بخناق الاقتصاد والسياسة، و" لوبيات دعارة " تضغط على حكومات همها أن تبقى وتستقر، وتمت السيطرة بذلك على أمة أهلها ما بين عاجز وفاجر، فانصاعت لما يريده الشيطان.

إن الأسرة هي الحصن الأول في أي أمة، إن خربت خرب المجتمع، وفي الحديث (كيف بكم إذا طغت نساؤكم وفسق شبابكم وتركتم جهادكم) أدق وصف لحال الأمة الإسلامية، طغت النساء فلم يعد لهن اعتبار لقيم الإنسان والمجتمع والدين، وتحررن تحرر البهيمة انفك عقالها، وفسق الشباب وهم عمدة الأمة وعنصر المناعة فيها فلم تعد لهم غيرة على أم

أو بنت أو أخت أوعرض، وهاموا وراء اللذة والدرهم لا يردهم ذل مخز أو عار مهين، أو عرض ينبغي أن يصان، والنتيجة ما نرى من عجز عن المدافعة وتهافت على الأجنبي يباع له الذكور والإناث.

إن مناعة المجتمع تبدأ بمناعة الأسرة بشقيها الرجل والمرأة، ومناعتها بما جعله الله لها من نظم وتشريعات، وأول ما جعله تبارك وتعالى أن ربط الأسرة بميثاق غليظ هو عنوان قدسية الحياة الزوجية وطهارتها وبراءتها، وأنزل من الشرائع ما بها تبنى وتحفظ وتقوم بواجبها في مجتمع إسلامي طاهر نظيف قوي مستعل بإيمانه وعقيدته غير قابل للتبعية والانحراف، شرائع لكل مناحي حياة الأسرة، قبل التأسيس وأثناءه وبعده، واجبات ومباحات ومحرمات ومكروهات وحسن معاشرة وتعاونا على البر والتقوى وخدمة للأمة ورفعا لشأنها، لذلك قال صلى الله عليه وسلم:(إذا تزوج العبد فقد استكمل نصف الدين فليتق الله فيما بقي)، وقال:(من رزقه الله امرأة صالحة فقد أعانه على شطر دينه فليتق الله في الشطر الثاني).

وفي آيات هذه الحلقة يبين تبارك وتعالى بعض هذه التشريعات تحريما لممارسات تعصف بالحياة الزوجية وطهارتها وسلامتها الصحية والنفسية، وتمثل لغما موقوتا ينفجر حالما تتوفر له ظروف الانفجار فيأتي على الأسرة كلها زوجا وزوجة وولدا.

تبدأ هذه التوجيهات بقوله تعالى: { وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ }، ولفظ "المحيض" من فعل "حاض" السيل إذا فاض ماؤه، أطلق مجازا على ما ينتاب المرأة عند بلوغها من دم يخرج من رحمها في أوقات منتظمة من كل شهر، يُقال: حاضت المرأة وتحيّضت، ودَرَست وعَرَكت، وطَمِثَت، ولفظ " محيض " في الآية يفيد المصدر من حاض يحيض، كما يعني حسب سياق استعماله مكان الحيض وزمانه. وقد أثير السؤال أو التساؤل من قبل الأنصار والمهاجرين في المدينة أول عهد بالهجرة، لأنهم كانوا قد اختلطوا باليهود وعرفوا من سننهم في الحياة الزوجية، وكان اليهود بحكم التوراة يستنجسون المرأة الحائض ويشتطون في التباعد عنها، كما ورد عندهم في الإصحاح الخامس عشر من سفر اللاويين: "إذا كانت امرأة لها سيل دماً في لحمها فسبعة أيام تكون في طمثها وكل من مسها يكون نجساً إلى المساء وكل ما تضطجع عليه يكون نجساً وكل من مس فراشها يغسل ثيابه ويستحم بماء ويكون نجساً إلى المساء وإن اضطجع معها رجل فكان طمثها عليه يكون نجساً سبعة أيام". كما كان من قبائل العرب من يبغضون المرأة إذا حاضت ويهجرونها وأحيانا يخرجونها إلى خارج مساكنهم كما يفعل نصارى بني سليح من قضاعة.

وسواء كان السائل هو أبو الدحداح ثابت بن الدحداح الأنصاري، أو أُسيد بن حُضير، أو عباد بن بشر، كما ذكرت روايات مختلفة، فإن العبرة بالسؤال وجوابه وما حواه من أحكام، وبوروده عقب تحريم الزواج من المشركين والمشركات، مما استجر السؤال عن سننهم في معاملة الأزواج والزوجات، فكان جوابه تعالى عما أشكل عليهم درسا وافيا في أدب المعاشرة الزوجية وحسن رعاية الزوجة واحترامها وإحلالها ما تستحق من تكريم.

بدأ تعالى أولا ببيان علة أحكامه الشرعية في هذا المجال فقال: { قُلْ هُوَ أَذًى } والأذى ما يتأذى به المرء ويصيبه من ضرر، من فعل " أَذِيَ أَذىً أَذاة وأَذِيَّة، وقد آذَيْتُه إيذاءً وأَذِيَّةً وتَأَذَّيْتُ به تَأَذِّيا "، وقد جاء لفظ "الأذى" في هذه الآية الكريمة عاما مطلقا بمعنى الضرر، الضرر للزوجة والزوج مما اعتاد الناس معرفته، نفورا نفسيا ووهنا وضعفا وفقر دم للزوجة ونقص مناعة قد تترتب عليه الاستحاضة بسبب الالتهابات الناتجة عن المعاشرة الزوجية في المحيض، وقد تنتقل بذلك الأمراض من أحد الطرفين إلى الثاني، مما يعرفه أولو الاختصاص من الأطباء وعلم الأحياء ويحذرون منه، ومما قد يكتشفه العلم مستقبلا، لأن الأذى الذي حذر منه القرآن عام ومطلق يفيد ما عرف وما لم يعرف.

وبعد أن بين عز وجل ما في الحيض من الضرر حرم إتيان الزوجة في زمنه ومكانه، فقال: { فَاعْتَزِلُواْ النِّسَاء فِي الْمَحِيضِ } والاعتزال كناية عن ترك المباشرة، والنساء تعني الزوجات، لأن غير الزوجات محرم إتيانهن في المحيض وفي غيره، وإطلاق النساء على الأزواج معروف كما في قوله تعالى: { يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ } الأحزاب 30.

ولئن اختلف العلماء في ما يباح من معاشرة الزوجة في المحيض فإن أولى الأقوال بالصواب أن للزوج من زوجته الحائض ما فوق المؤتزر، لأن السماح بالمباشرة فيما بين السرة والركبة قد يؤدي إلى المحظور، ومن حام حول الحمى أوشك أن يقع فيه، ولما رواه مالك في الموطأ (أَنَّ عَائِشَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَتْ مُضْطَجِعَةً مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ وَأَنَّهَا قَدْ وَثَبَتْ وَثْبَةً شَدِيدَةً فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا لَكِ لَعَلَّكِ نَفِسْتِ يَعْنِي الْحَيْضَةَ فَقَالَتْ نَعَمْ قَالَ شُدِّي عَلَى نَفْسِكِ إِزَارَكِ ثُمَّ عُودِي إِلَى مَضْجَعِكِ)، وأن رجلا (سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ مَا يَحِلُّ لِي مِنْ امْرَأَتِي وَهِيَ حَائِضٌ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِتَشُدَّ عَلَيْهَا إِزَارَهَا ثُمَّ شَأْنَكَ بِأَعْلَاهَا). وما رواه أبو داود وصححه الألباني عن حرام بن حكيم عن عمه أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يحل لي من امرأتي وهي حائض؟ قال:(لك ما فوق الإزار).

ثم حدد عز وجل مدة الاعتزال بانقطاع دم الحيض فقال: { وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىَ يَطْهُرْنَ }، وهي الغاية الأولى التي هي الخلو من الحيض، ولئن اخْتُلِفَ في مدة الحيض لدى المرأة ما بين يوم وليلة وخمسة عشر يوما فإن الأمر مردود إلى عرف النساء، إذ لا وقت لقليله ولا لكثيره إلا ما يوجد في كل امرأة مما اعتادت عليه، فإن تجاوز المدة المعتادة عندها فهو استحاضة، أي أعراض مرضية تستوجب العلاج، فتبادر بالفحص الطبي، وتغتسل وتعود لما حرم عليها بالحيض، صلاة وصياما وقراءة قرآن ومس مصحف وغير ذلك، على أن تتوضأ لكل صلاة وتتنظف من الدم قبيلها، وقد روى مالكٌ عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: قالت فاطمة بنت أبي حُبَيش: يا رسول الله، إني لا أطهرُ أفأَدَعُ الصلاة؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم:(إنما ذلك عِرْقٌ وليس بالحيضة إذا أقبلت الحيضة فَدِعى الصلاة فإذا ذهب قَدْرُها فاغسلي عنك الدّمَ وصَلّي).

واشترط للإتيان انقطاع دم الحيض أولا والطهارة منه ثانيا، وأن يكون ثالثا من حيث أمر الله وهو المكان الذي خلقه عز وجل لذلك وأمر به فطرة وشرعا فقال: { فَإِذَا تَطَهَّرْنَ } وهي الغاية الثانية لكمال طهارة المرأة، أي إذا انقطع دم الحيض وتطهرت الزوجة بالاغتسال إن استطاعت أو بغسل بقايا الدم والوضوء إن تعذر الاغتسال، أو بالتيمم إن تعذر ذلك كله { فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللّهُ } أي فقد أبيح لكم ما كان بالحيض محرما عليكم، وجاز لكم إتيان الزوجة من حيث أمر الله، أي من المأتى الطبيعي لذلك، لا مما استباحه الشواذ والمنحرفون الذي يتحولون عنه إلى شر مكان شهوة معكوسة، ولا شك أن في تحريم المأتى الطبيعي بمجرد الحيض إشارة واضحة لا لبس فيها إلى تحريم أشد للمأتى الشاذ بنجاسته المؤكدة شرعا وعلما وبمضاره الصحية المعقدة التي أثبتها العلم الحديث.

فإن زللتم بارتكاب ما حرم عليكم من زوجاتكم فبادروا بالتوبة والرجوع عن الإثم، بمباشرتهن من حيث أمركم الله، لأن التوبة تَجُبُّ ما قبلها، والله تعالى يحب من عبده إن أخطا أن يتوب ويقول: { إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ } إيذاناً بقبول توبة من يقع منه خلاف ما شرع له، { وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ } كما يحب من عادتهم التطهر من أدران الآثام وأوساخ الأجسام، والتنزُّهُ عن إتيان النساء من حيث حرم الله، مكانا بالتحول عن منبت الولد، أو زمانا عند محيض الزوجة أو اعتكافها أو إحرامها أو صيامها.

وزيادة في التوضيح لمن يتلكأ في الفهم، على أسلوب القرآن الكريم في التعبير عما يستقبح ويخدش الحياء بالكناية اللطيفة والإشارة المستحسنة، شبه تعالى المعاشرة الزوجية بالأرض تحرث وتلقى فيها البذور فقال { نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ } أي زوجاتكم مزدرع ذريتكم، تأتونهن فتلقون في أرحامهن النطفة للإنجاب والتناسل والإعفاف عن الخنا، كما يحرث الفلاح الأرض طلبا للزرع والأمن الغذائي، هذه هي المعاشرة الزوجية في معناها الإسلامي، وما سواها شذوذ محرم بالكتاب والسنة والفطرة السليمة، تتنزه البهائم عنه والذر والحشر.

ثم لما بين تعالى مكان الإتيان لم يبق إلا زمنه ووقته فقال: { فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ } أي لكم أن تباشروهن متى شئتم وفي أي وقت أردتم، لأن حرف "أنيَّ" في هذا السياق يفيد الزمان دون المكان الذي بينه تعالى بقوله (فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللّه) وقوله: { نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ }.

ولما كانت الزوجة عماد الأسرة وعنوان شرفها وعرضها ومحضن تربية النشء فيها وليست مجرد متاع يستلذ به كلما عنت رغبة أو شهوة، فقد نبه الوحي إلى ما ينبغي أن تعامل به مما يحفظ كرامتها وقدسية ميثاقها وحقوقها على الزوج فقال تعالى: { وَقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُمْ } عند المباشرة بالقول الطيب والمعاملة الحسنة وعدم الإضرار بالزوجة، واستشعار المسؤولية الدينية وذكر الله وتسميته، وتجنب محرمات الأقوال والأفعال، لأن المباشرة نفسها عبادة، تنشر بها الفضيلة في المجتمع، وتقمع بها الرذيلة، ويتكاثر بها الصالحون إن كانت على ما يرضيه عز وجل، قال صلى الله عليه وسلم: (لو أن أحدكم حين يأتي أهله قال بسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا فولد بينهما ولد لم يضره الشيطان أبدا). ثم

عقب بتحذير صريح من المخالفة بقوله: { وَاتَّقُواْ اللّهَ } احذروا ما يغضب ربكم من ممارسات لا تليق بالمؤمن ولا بزوجته، { وَاعْلَمُواْ أَنَّكُم مُّلاَقُوهُ } فيثيب المحسن ويجزي المسيء يوم الحساب، { وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ } بشر المؤمنين المطيعين الممتثلين لأمر الله تعالى بحسن المآب وخير الثواب.

وبعد أن بينت الآية مكارم الشريعة في الحياة الزوجية وما ينبغي أن تكون عليه المعاشرة الطيبة النظيفة المحترمة، تابعت الحديث على نفس النهج فذكرت تصرفات أخرى جاهلة تعود بعض الأزواج الوقوع فيها وإفساد حياتهم بها، وهي أن يحلفوا بالله عند كل غضب أو استثارة أو حرج، والقسم على ألسنتهم سائب عفوي، ومن هذا شأنه يسارع بالحَلِفِ على الإيلاء والطلاق والعتاق وما لا يجوز من القول والفعل، قال تعالى: { وَلاَ تَجْعَلُواْ اللّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ النَّاسِ }. والعرضة اسم لكل ما يعترض الشيء فيمنع من الوصول إليه، واشتقاقها من الشيء الذي يوضع في عرض الطريق فيصير مانعاً للناس من السلوك والمرور، والأيمان جمع يمين وهي الحَلِف والقسم، أصل التسمية أن المتعاقدين من العرب كانوا يوثقون قسمهم بأن يضع كل منهم يمينه في يمين الآخر، وفي هذه الآية الكريمة تحريمٌ للجراءة على الحلف والإكثار منه تأكيدا أو نفيا أو إثباتا أو توثيقا، ونَهْيٌ عن الاستهانة به وتعريضه حاجزا دون البر ومانعا منه، كمن يدعى إلى معروف أو خير أو إصلاح ذات البين أوصلة رحم أو إحسان إلى زوجة فيقول سبقت مني يمين على عدم الفعل، وقد ذم الله تعالى من يكثر الحَلِف بقوله: { وَلاَ تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَّهِينٍ } القلم 10، وأمر بحفظ الأيمان فقال: { واحفظوا أَيْمَانَكُمْ } المائدة 89، لأن من جعل اليمين على لسانه في كل أمر لم يؤمن أن يحلف على باطل ويمنعه اليمين الرجوع إلى الحق، والحال أن الشرع حتى في هذه الحالة جعل له مخرجا إلى التحلل منه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ فَرَأَى غَيْرَهَا خَيْراً مِنْهَا فَلْيَأْتِهَا وَلْيُكَفِّرْ عَنْ يَمِينِهِ). وقال: (إني والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى خيرا منها إلا كفرت عن يميني وأتيت الذي هو خير)، وقال: (وَاللَّهِ لَأَنْ يَلَجَّ أَحَدُكُمْ بِيَمِينِهِ فِي أَهْلِهِ آثَمُ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ أَنْ يُعْطِيَ كَفَّارَتَهُ الَّتِي افْتَرَضَ اللَّهُ عَلَيْهِ).

أما سبب نزول الآية فقد ذكر الواحدي أنها في عبد الله ابن رواحة حلف ألا يدخل على خَتَنِهِ[60] أبدا ولا يكلمه ولا يصلح بينه وبين امرأته، فنهي عن ذلك فقال:" قد حلفت بالله أن لا أفعل ولا يحل إلا أن أبر في يميني"، فأنزل الله تعالى هذه الآية. وذكر السيوطي أنها نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه عندما أقسم ألا ينفق على مسطح الذي خاض في شأن ابنته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها فنزلت الآية تنهاه عن التمسك بيمينه، وشبيه بها قوله تعالى في نفس الحادثة: { وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } النور22. والآيتان معا نهي عن المحافظة على اليمين إذا كانت

60 – الخَتَنُ أبو امرأة الرجل وأخو امرأته وكل من كان من قِبَلِ امرأته والجمع أَخْتانٌ.

هذه اليمين مانعة من البر والتقوى وفعل الخير. { وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } يسمع أيمان من يحلف به، ويعلم نيته وقصده، كما يعلم من يترك الحَلِفَ تعظيما لله تعالى، ومن يكفر عن يمينه الظالمة ويعود إلى الحق والبر ابتغاء وجهه الكريم.

على أن من لطف الله بعباده أنه تجاوز عن الأيمان التي يجري بها اللسان بغير قصد، فلم يجعل عليها كفارة، فقال: { لاَّ يُؤَاخِذُكُمُ اللّهُ بِاللَّغْوِ فِيَ أَيْمَانِكُمْ } واللغو مصدر من فعل" لغا الطائر يلغو لغوا " إذا صوت، وهو من الكلام سقطه وما لايعتد به، وليس منه فائدة، وما يورده صاحبه من غير روية أو فكر، وما لم تنعقد عليه النية والقصد، قال صلى الله عليه وسلم: (اللغو في اليمين كلام الرجل في بيته: لا والله، وبلى والله).

وقد ذكر الواحدي في سبب النزول أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جلس يوما فذكر الناس ووصف القيامة ولم يزدهم على التخويف، فرق الناس وبكوا، فاجتمع عشرة من الصحابة في بيت عثمان بن مظعون الجمحي وهم أبو بكر الصديق وعلي بن أبي طالب وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عمر وأبو ذر الغفاري وسالم مولى أبي حذيفة والمقداد بن الأسود وسلمان الفارسي ومعقل بن مضر، واتفقوا على أن يصوموا النهار، ويقوموا الليل، ولا يناموا على الفرش، ولا يأكلوا اللحم ولا الودك ويترهبوا، ويجبوا المذاكير، وحلفوا على ما اتفقوا عليه فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجمعهم فقال: ألم أنبأ أنكم اتفقتم على كذا وكذا؟ فقالوا: بلى يا رسول الله وما أردنا إلا الخير، فقال: إني لم أومر بذلك إن لأنفسكم عليكم حقا، فصوموا وأفطروا وقوموا وناموا، فإني أقوم وأنام وأصوم وأفطر وآكل اللحم والدسم، ومن رغب عن سنتي فليس مني، فقالوا: يا رسول الله كيف نصنع بأيماننا التي حلفنا عليها، فأنزل الله تعالى: {لا يُؤَاخِذُكُمُ اللّهُ بِاللَّغْوِ فِيَ أَيْمَانِكُمْ }.

وسواء كان لغو اليمين ما سبق به اللسان على عجلة وسرعة وبدون ترو أو قصد، أو في حالة غضب طافح أو كان نسيانا أو تحت إكراه قاهر، أو كان ما حلف الحالف عليه وهو يعتقد أنه هو الحق ثم تبين له خطأ اعتقاده، فإن ذلك مما يدخل في العفو ولا يؤاخذ به، ولا كفارة عليه. لأن ما سبق به اللسان عجلة أو تعودا أو غضبا طافحا محض لغو معفو عنه، وما أخطأ فيه المرء أو نسيه أوأكره عليه يلحق باللغو من حيث رفع الإثم لما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم:(رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه)، وكذلك الحَلِفُ على ارتكاب معصية فكفارته التوبة وعدم إتيانها.

ولئن كانت الأيمان أصنافا، لغوا أو كسب قلوب، اختيارا ورضا أو تحت إكراه يصعب رده، على حاضر أو ماض أو مستقبل، وكانت المؤاخذة على الحنث لا على أصل القسم بالكفارة، أو بالإثم الغليظ دون الكفارة فيما تضمن زورا أو اقتطاع حقوق بالباطل، فإنها بحسب حكمها يمين على محرم وهي الكاذبة، وعلى مباح وهي الصادقة، وعلى مستقبل عقدها والوفاء بها طاعة، والحنث فيها معصية.

وبحسب جزائها والتحلل من تبعاتها لا تخرج عن ثلاث صفات:

لغو معفو عنه ليس عليه كفارة، ولا يجوز التمادي فيه، لأن تعوده قد يقود إلى الأيمان المحرمة المؤاخذ عليها.

ويمين على باطل هي الغموس والمصبورة، سميت غموسا لأنها تغمس صاحبها في الإثم والنار، وسميت مصبورة، كما يُصْبَرُ الحيوان للرمي والقتل[61]، لأن الجراءة على ارتكابها هلاك لا ريب فيه، وسماها الرسول صلى الله عليه وسلم أيضا (اليمين الفاجرة تدع الديار بلاقع)[62]، وهي عند الإمام مالك أكبر إثما من أن تكفر، فلا كفارة فيها. ومنها أن يحلف المرء على شيء يقتطع به ظلما حقا من حقوق الغير، أو يحلف حرَّ الإرادة غيرَ مكره، على شيء فعله أنه لم يفعله، أو شيء لم يفعله أنه فعله، أو شيء واقع فعلا أنه لم يقع، أو شيء لم يقع أنه وقع، وهو عند حَلِفِه متعمد عارف وجه الحق ذاكر له، ويترتب على يمينه ضياع حقوق أو حصول مضار، فهذا هو اليمين الذي قال عنه تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآَخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } آل عمران77، وقال عنه صلى الله عليه وسلم:(الْكَبَائِرُ الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ وَقَتْلُ النَّفْسِ وَالْيَمِينُ الْغَمُوسُ) ولا كفارة ترفع إثم هذه اليمين، إلا أن يتوب صاحبها ويتحلل من المظالم المترتبة عليها.

ويمين منعقدة، وهي التي تكون على المستقبل، ويكون فيها الحِنْثُ أو البر، ومنها مثلا أن يحلف المرء على أن يفعل شيئا أو أن لا يفعله، فلا يوفي بما حلف عليه فعلا أو تركا، وهذا تَجُبُّ الكفارة إثْمَه، لأنه تعالى غفور حليم، وقد فصل أحكام الكفارة في الآية 89 من سورة المائدة فقال عز وجل: {لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آَيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}

وبعد بيان أحكام الأيمان، تطرق الوحي إلى صنف آخر منها خاص ببعض الأزواج، يعد ظلما صارخا منهم لزوجاتهم، وهو أنهم كانوا يحلفون على الامتناع عن مباشرتهن وغمطهن حقوقهن الزوجية، فقال عز وجل عقب ذلك: { لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَآؤُوا فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ }.

والإيلاء لغة من فعل آلَى يُؤْلِي إيلاءً وتألَّى يَتألَّى تألِّياً وأْتَلى يأْتَلي ائتِلاء إذا حلف، ويقصد به في هذه الآية الكريمة ما كان بعض الأزواج يفعلونه تأديبا لزوجاتهم أو إضرارا بهن أو غضبا عليهم أو كراهية لهن أو لمصلحة متوهمة فيها ضرر للزوجة، فيحلفون على عدم إتيانهن، أو يمتنعون عن مباشرتهن لغير عذر ولو بدون حلف كما ذهب إليه المالكية، المدة الطويلة التي تتأذى بها المرأة ويتخلخل بها بناء الأسرة وتماسكها.

61 – صَبَرَه عن الشيءِ يَصْبِرُه صَبْراً:حَبَسَه، وأَصل الصَّبْر الحَبْس وكل من حَبَس شيئاً فقد صَبَرَه، والصَّبْرُ أيضا نَصْب الإِنسان للقَتْل فهو مَصْبُور، وكل ذي روح يصبر حيّاً ثم يرمى حتى يقتل فقد قتل صبرا

62 – بلاقع: جمع بلقع وهي الأرض القفراء التي لا شيء فيها.

والإيلاء عند الجمهور حرام، لأنه يمين على ترك واجب، وعند أبي حنيفة مكروه كراهة تحريم، ويختص عند المالكية بالزوج المسلم البالغ العاقل لا الصبي ولا المجنون، وبالممكن وطؤه ولو سكرانا، لا المجبوب والخصي، ولا إيلاء على المرضع إذا كان ترك الوطئ لإصلاح رضيعها.

وعرفه الحنابلة بأنه حلف بالله أو بصفة من صفاته، يصدر عن زوج يمكنه الجماع، على ترك الوطء مطلقا ولو قبل الدخول، ولا يصح الحلف بنذر أو بطلاق ونحوه، خلافا للمالكية والحنفية لجوازه عندهم بنذر أو قربة أو تعليق طلاق. وللشافعية لصحته عندهم بيمين الطلاق والنذر.

وظاهر الآية يفيد أن الإيلاء لابد فيه من اليمين، إلا أن المالكية يرون أن الإيلاء لم يرد لعينه وإنما شرع لرفع ضرر امتناع الزوج عن معاشرة زوجته مطلقا فكان حكم النازلة عندهم واحدا، بيمين أو بغير يمين، وقد جعل الله مدة الإيلاء مخرجا من سوء عشرة الزوج وتنطعه ومضارته، ووقت لتوبته وعودته إلى زوجته أجل أربعة أشهر ﴿ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ﴾ والتربص معناه الانتظار، ﴿ فَإِنْ فَآؤُوا فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ والفيء لغة الرجوع، والمراد الشرعي به غشيان الزوج زوجته ومباشرتها بالوطء لمن لا عذر له فإن كان مريضا أو مسافرا أو مسجونا تكفي المراجعة بالقول كما هو مذهب الجمهور.

فإن فاء الزوج غفر الله له إثم ظلمه زوجته واعتدائه على حقها في المعاشرة الزوجية بالمعروف، وكان ذلك رحمة منه تعالى له ولها لقوله عز وجل: ﴿ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

﴿ وَإِنْ عَزَمُواْ الطَّلاَقَ فَإِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ وإن قرر الزوج طلاق زوجته أثناء المدة أو بعد انقضائها فإن الله سميع لما يصدر عنه عليم به مجاز كلا بما يستحق.

وإن لم يفئ ولم يطلق خلال الشهور الأربعة المحددة للتربص والانتظار أو عند انقضائها أمر بالرجوع عن يمينه وغشيان زوجته، وخير بينه وبين الطلاق، فإن أصر على يمينه ورفض الطلاق طلقها القاضي عليه، وهو ما ذهب إليه مالك والشافعي وأحمد، معتبرين أن مدة التربص مجرد أجل يعطى للمؤلي يرفع فيه الضرر عن زوجته، كما هو حال الأجل الذي يعطى للعنين. أما الحنفية فقد شبهوا الإيلاء بالطلاق الرجعي وشبهوا مدته بالعدة الرجعية، لذلك يرون أن الزوج إذا مضت أربعة أشهر ولم يفئ بانت منه زوجته، عملا بما ذهب إليه ابن عباس وسعيد بن جبير والشعبي.

وسبب الخلاف فهمهم للمقصود من قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ فَآؤُوا فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ وَإِنْ عَزَمُواْ الطَّلاَقَ فَإِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾، فهم منها الجمهور أن للمؤلي انتظار أربعة أشهر فإن فاء بعد مضي المدة غفر له ظلم زوجته، وإن لم يفئ ولم يطلق رفع الأمر إلى القاضي فإما فيء وإما طلاق. وفهم منها الحنفية أن المؤلي إذا استمر في يمينه بعد مضي المدة كان ذلك منه عزما على الطلاق ويقع الطلاق بحكم الشرع.

وفي كلتا حالَتي الفيء، بإرادة الزوج في الأجل المضروب، أو بأمر القاضي، تلزم كفارة اليمين عند مالك والشافعي وأبي حنيفة وأصحابهم. ويتكفل الزوج بحقوق الزوجة نفقة ومسكنا وملبسا وعلاجا وبكل ما جعله الله لها عليه طيلة مدة

الإيلاء. أما ما يترتب على الطلاق في حال حصوله من عدة ومتعة وحقوق وواجبات فلازم على خلاف فقهي ينأى بنا عن سياق التفسير، وليس من شأن التفسير استقراء فقه الفروع وتتبع جزئياته.

بهذه الآيات الكريمة وضع الوحي الحكيم مبادئ قيام الحياة الزوجية الراقية بما يحفظ للمرأة سلامتها الجسدية وصحتها النفسية وكرامتها وعلو منزلتها ومكانتها في البيت المسلم، وبنى الأسرة المسلمة على أساس المعروف والمودة والرحمة والسكن والميثاق الغليظ، لا على أساس الهوى والنزوات وعقلية القهر والأسر وطغيان طرف على آخر، وكَفَّ ظلم الرجل القوي المتسلط على الزوجة الضعيفة أو الحَيِيَّة أو الطيبة أو المسالمة ذات الدين والمروءة، قال صلى الله عليه وسلم فيما صح عنه: (خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي) وقال:(ما أكرم النساء إلا كريم ولا أهانهن إلا لئيم)[63]، وبذلك استرجعت الزوجة المسلمة كرامتها ومكانتها التي خلقت عليها وهيئت لها وصانها ربها الكريم بتشريعاته الحكيمة عن أن تبتذل كما تبتذل المرأة في المجتمعات النصرانية واليهودية والعلمانية والوثنية، وقد جعلت فيها قديما كائنا مستضعفا ليس له من المواطنة إلا أن يستمتع به بشتى كيفيات الاستمتاع البهيمي، وحديثا حيوانا سائبا مستباحا للمتعة والمتاجرة والدعارة الصريحة والمقنعة، والاسترقاق المهين والدعاية الرخيصة السافلة، وانتقلت عدوى هذه الكوارث المرضية إلى حصون للمسلمين تهدمت قواعدها وصار نواطيرها ذئابها، وفجارها أسيادها، وأتقياؤها نزلاء سجونها وعلى مقاصلها وأعواد مشانقها.

63 - الجامع الكبير للسيوطي، وفي سنده إبراهيم بن محمد الأسلمي تركوه ووثقه الشافعي وحده.

أحكام الطلاق وأدب الفراق

قال الله تعالى: { وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاَثَةَ قُرُوَءٍ وَلاَ يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُواْ إِصْلاَحاً وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكُيمٌ (228) الطَّلاَقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلاَّ أَن يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللّهِ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (229) فَإِن طَلَّقَهَا فَلاَ تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىَ تَنكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ فَإِن طَلَّقَهَا فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (230) وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النَّسَاء فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلاَ تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لَّتَعْتَدُواْ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلاَ تَتَّخِذُوَاْ آيَاتِ اللّهِ هُزُواً وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُمْ مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (231) وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْاْ بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ (232) } سورة البقرة

ما جعل الله عز وجل لشيء من بداية إلا جعل له نهاية، وسن لكل مراحل بقائه سننا كونية وتشريعية، حياة الإنسان أظهر مثال على هذا، من بداية تكوينه وتخليقه جنينا في ظلمات ثلاث[64] حيث تسبقه تسمية الله عند المسلم بقوله (بسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا) إلى وفاته على التوحيد والصلاة عليه ودفنه.

كذلك الأمر فيما بين كل بداية ونهاية له تشريعاته وضوابطه وطرائق التصرف فيه، ولئن وضع رب العزة تعالى في الآيات الكريمة السابقة نظاما للمعاشرة الزوجية وآدابها وأخلاقها وما يحل فيها وما يحرم، كما وضع من قبل تشريعات بداية تأسيسها وبنائها، فإنه أتبعها بنظام إنهاء هذه العلاقة بأقل الأضرار في حال تعذر استمرارها، بحيث يكون حل عقدة

64 – ظلمة بطن الأم وظلمة رحمها وظلمة المشيمة

النكاح سلسا يحفظ حقوق كافة الأطراف زوجا وزوجة وولدا وأسرة، ويحمي نظام المجتمع من عواقب الخلاف الزوجي وأحقاده وتماكره وضغائنه، فقال عزوجل: {وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاَثَةَ قُرُوَءٍ } .

ولفظ " مطلقة" من فعل "طَلُقَ" ككَرُم طُلوقةً وطُلوقاً: اللسان انطلق من غير انحباس أو تردد أو تعثر، ومنه قولهم: طَلْق الوَجه أي لا عبوسة فيه، و بَعيرٌ طُلُق بضمّ الطّاءِ واللام: غير مُقيَّد، والجمْع أطْلاق، وناقة طالِقٌ وطُلُق: لا قَيْدَ عليها، وأَطْلَق الناقة وطَلَّقَها فطَلَقَت إذا سيبها بدون قيد وخلاها ترعى وحدها، ويقال للمحبوس والمأسور إذا أطلق سراحه: طليق أي صار حرا، وطُلِقَت المرأة تُطْلَقُ في المخاضِ طَلْقاً: أصابَهَا وجَعُ الوِلادة وحان وقت تخلصها من ثقل الحمل، ومن المِجاز: طَلَقت المرْأةُ من زوْجِها طَلاقاً: بانَتْ فهي طالِقٌ، وأطْلَقَها زوجها وطلّقها إطْلاقاً وتَطْليقاً وطلاقا أي حل عقدة نكاحها، فهي طالق ومطلّقة وهن طوالق ومطلّقات. قال الراغب في مفردات القرآن: " أصل الطلاق: التخلية من الوثاق، يقال: أطلقت البعير من عقاله، وطلقته، وهو طالق وطُلُق بلا قيد، ومنه استعير: طلَّقت المرأة، نحو: خليتها فهي طالق، أي: مخلّاة عن حبالة النكاح "

والتربص في قوله تعالى: { يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ } من فعل "رَبَصَ" بالشيء رَبْصاً وتَرَبَّصَ به أي انتظر به خيراً أَو شرّاً، والتربُّصُ المكْثُ والانتظار، قال تعالى: { قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ } التوبة52، أي: هل تنتظرون منا إلا النصر أو الشهادة ونحن ننتظر بكم أحد الشَّرين عذابا من الله تعالى أو قتلا بأيدنا. يقال: لِي عَلَى هذا الأَمْرِ رُبْصَةٌ: أَيْ تَلَبُّثٌ، وأقامت المرأة رُبْصتها في بيت الزوجية أي انتظرت كما هو الحال في الإيلاء تنتظر أربعة أشهر فإما فيء وإما طلاق، وقد قيد التربص في هذه الآية بالأنفس { بِأَنفُسِهِنَّ } دعوةً للمرأة إلى أن تتصبر وتتريث وأن تكف نفسها عن الاستعجال عند حصول الطلاق، ومن عادة المرأة إن أخفقت في زواجها أن تتعجل الزواج تبرهن به لنفسها أو لغيرها أن فشلها لم يكن لسوء في طبعها أو نقص خلقتها أو عجز عن القيام ببيتها وأنها قادرة على إنشاء بيت زوجي جديد، ودعوة التربص هذه دعوة إلى الحكمة وعدم المسارعة إلى الإجهاز على الأسرة، لأن الطلاق عملية بتر لا يكون إلا في وقته علاجا لما هو أخطر، فإن كان لسوء تصرف من أحد الزوجين قابل للإصلاح أو لثورة غضب طارئ أو نزوة كبرياء من أحدهما، فقد يعقب ذلك هدوء نفس وفتور حدة واستصغار ذنب فيحصل الصلح، وقد يتدخل الأهل فيقربون وجهات النظر ويعيدون القلوب إلى ألفتها والعقول إلى رشدها كما قال تعالى: { وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا } النساء35، وقد تكون الزوجة حاملا وهي لا تعلم فلا تختلط الأنساب وتتغير التقديرات والتصرفات والأحكام،

وقد ورد قوله تعالى: { وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاَثَةَ قُرُوَءٍ } بصيغة الخبر الذي يراد به الأمر أي (ليتربصن)، للتأكيد والإشعار بأن التربص مما يجب المسارعة إلى قبوله وتنفيذه، ثم حدد مدته بثلاثة قروء، والقُرْء لغةً من فعل " قرأ "،

وقَرأْتُ الشيء قُرْآنا: جَمَعْتُه وضَمَمْتُ بعضه إلى بعض، وقَرأْتُ الكتاب قِراءةً وقُرْآناً، ومنه سُمي القُرآن لأنه يجمع السُّور فيضُمّها، وقيل: سُمي به لأنه جُمِع فيه القصص والأمر والنَّهيُ والوعد والوعيد، ومنه القَرْءُ بمعنى الطريقة والمثال، والجَمْعُ: أَقْرَاءُ. كما في حديث إسلام أبي ذَرٍّ رضي الله عنه قال أُنَيْس رضي الله عنه أخوه، وكان شاعراً:" والله لقد وَضَعْتُ قوله على أقْراءِ الشِّعر فلا يلتئِمُ على لسان أحدٍ ". ومن معنى الضم فيه والجمع قيل: ما قَرَأَتْ هذه الناقة جَنِيناً قط: أي لم تَضُمَّ رحِمَها على ولدٍ، كما أطلق القرء أيضا لوقت تجمع الدم في الرحم، ولوقت الطهر الواقع بين دمين وقابلية الرحم أثناءه لضم النطفة والإنجاب، والمرأة قَرأت وأَقرأَتْ قُرءاً بضم القاف وفتحها، إذا حاضت وإذا طهرت، وقد وردت به النصوص في مواضع للحيض وفي مواضع للطهر، أما للطهر فقوله صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمر عندما طلق امرأته وهي حائض:(يا ابن عمر ما هكذا أمرك الله إنك قد أخطأت السنة، والسنة أن تستقبل الطهر فتطلق لكل قرء) أي لكل طهر، قال ابن عمر:" فأمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم فراجعتها"، وأما بمعنى الحيض فقوله صلى الله عليه وسلم للمستحاضة:(دَعِى الصَّلاَةَ أَيَّامَ أَقْرَائِكِ ثُمَّ اغْتَسِلِي وَصَلِّي) أي أيام حيضك. قال ابن قتيبة في غريب الحديث:" اختلف الناس في الأقراء فقال قوم هي الحيض لقول النبي صلى الله عليه وسلم:(المرأة تقعد أيام أقرائها) يريد أيام الحيض وذهب آخرون إلى أنها الأطهار، والفريقان جميعا مصيبان على طريق اللغة لأن القرء هو الوقت، وكل شئ أتاك لوقت معلوم فقد أتاك لقُرْئه وقارئه، والحيض يأتي لوقت فهو قرء والطهر يأتي لوقت فهو قرء".

ولكون لفظ "القرء" مشتركا بين الحيض والطهر، والاشتراك في اللفظ من أسباب الاختلاف عند استنباط الأحكام، فقد اختلف الفقهاء في تعيين المراد منه في الآية الكريمة، فذهب مالك والشافعي إلى أنه الطهر لما روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت:(هل تدرون الأقراء؟ الأقراء الأطهار)، وبقوله تعالى: { فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ } أي في وقت عدتهن، ووقت عدتهن هو الطهر، لأن الطلاق في وقت الحيض محظور[65] ، وبإثبات حرف التاء في العدد { ثَلاَثَةَ قُرُوَءٍ } مما يدل على أن المعدود مذكر وهو الطهر، ولو كان المراد به الحيضة لجاء اللفظ" ثلاث قروء" لأن الحيضة مؤنث والعدد يذكر مع المؤنث.

أما أبو حنيفة وأحمد فيريان أن المراد بالأقراء الحيض، واحتجا بأن العدة شرعت لمعرفة براءة الرحم، والحيض دليل ذلك لا الطهر، وبقوله صلى الله عليه وسلم للمستحاضة: (دَعِى الصَّلاَةَ أَيَّامَ أَقْرَائِكِ) والصلاة تحرم في الحيض، وقوله تعالى {

---

65 – لما أخرجه النسائي عن ابن عمر، طلق امرأته وهي حائض فذكر عمر رضي الله عنه للنبي صلى الله عليه وسلم فقال: مُرْهُ فليراجعها حتى تحيض حيضة أخرى فإذا طهرت فإن شاء طلقها وإن شاء أمسكها فإنه الطلاق الذي أمر الله عز وجل به قال تعالى: ﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾.

وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ } الطلاق 4، فأقام تعالى الأشهر مقام الحيض في العدة.

وعلى مذهب مالك والشافعي إن طلقت المرأة في طهر لم يمسسها زوجها فيه اعتدت بما بقي منه ثم استقبلت طهرا ثانيا بعد حيضة، ثم ثالثا بعد حيضة ثانية، فإذا حاضت الثالثة خرجت من عدتها. أما على مذهب أحمد وأبي حنيفة فإن طلقت في طهر لم توطأ فيه استقبلت حيضة ثم حيضة ثم حيضة ثم تغتسل فتنقضي عدتها، وتنقطع العصمة والميراث وتملك نفسها ويحل لها الزواج ممن ترضاه.

بهذه الآية الكريمة أوجب الله تعالى على المطلقة المكث بعد الطلاق مدة ثلاثة قروء (ثلاث حيضات أو ثلاثة أطهار)، ليستدل بها على براءة الرحم من الحمل فلا تختلط الأنساب، وترقبا لصلح قد يحصل بين الزوجين فتعود العلاقة الزوجية بينهما إلى طبيعتها، كما قال تعالى: { لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا } الطلاق 1، واستثنى من حكم الأقراء الثلاثة غير ذوات الحيض من النساء، وهن المطلقات اللائي لم يحضن لسبب تكويني أو مرضي فقال تعالى: { وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ } الطلاق 4، والحوامل فجعل عدتهن وضع حملهن بقوله تعالى: { وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ } الطلاق 4، والمطلقات قبل الدخول فلم يجعل عليهن عدة، بقوله عز وجل: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا } الأحزاب49.

ثم حرم على المطلقة أن تكتم خلال العدة ما يخلق الله في رحمها من حيض أوحمل فقال: { وَلاَ يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ }، وجعلها مؤتمنة على عدتها حيضا وحملا، إلا أن يقع نزاع أو تكاذب فالفصل فيهما لأهل الخبرة من النساء المجربات أو الطبيبات المتخصصات، وأكد هذا التحريم بأن حذر من الكتمان وذكر أن الامتثال لأمر الله تعالى في هذا الأمر من صفات المؤمنة المترقبة ليوم الحساب بين يديه فقال: { إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ }، وفائدة هذا التحريم حفظ النسل فلا تختلط الأنساب، وحفظ حق الزوجة في النفقة أثناء العدة حاملا كانت أو غير حامل، وحماية هذا التشريع من التلاعب به أو محاولة تطويل مدة العدة للإضرار بالزوج، أو تقصيرها استعجالا لقطع العصمة وإهدارا لحق الزوج في الرجعة وقد جعلها الله تعالى من حقه أثناء فترة العدة، سواء كانت بالحيض أو بالأطهار أو بالشهور أو بمدة الحمل بقوله عز وجل عقب ذلك: { وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُواْ إِصْلاَحاً }.

والبعل وهو الذكر من الزوجين، جمع بُعُولة وبعال وبعول، جعل له الله تعالى بقوله: { وَبُعُوولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُواْ إِصْلاَحاً } حقا في استرداد زوجته أثناء العدة من طلاق رجعي، إن قصد بذلك الإصلاح ورعاية المودة والرحمة وصيانة الحياة الزوجية، فإن تأكد أنه يريد مجرد الإضرار ورفضت الزوجة العودة إليه كان للقضاء الحكم الفصل في الأمر.

فإن انقضت عدة المطلقة فهي أحق بنفسها وتصير أجنبية عنه يطالها حكم الحجاب وعدم الخلوة، واستوى الزوج السابق

مع غيره في جواز العقد عليها، فلا تحل له إلا بخطبة ونكاح جديد مستأنف بولي وإشهاد وصداق وليس على صفة المراجعة.

ثم بين عز وجل مبادئ قيام الحياة الزوجية على الإصلاح في حالتي ابتداء إنشائها أو استعادتها بقوله: { وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ } أي: للنساء من الحقوق على الرجال مثل ما للرجال عليهن من الواجبات، والمماثلة في هذه الآية مماثلة في الوجوب لا في جنس الواجب، وفي تمليك الحق لا في جنسه، في الواجبات كتحريم اختلاط الزوج لغير ضرورة بالنساء غير المتحجبات، أو بفساق الرجال وزنادقتهم وأولي الشُّبَهِ فيهم، وتحريم اختلاط الزوجة بالأجانب من الرجال لغير ضرورة شرعية وبدون حجاب، أو اختلاطها بالفاسقات ذوات الشُّبَهِ من النساء، وغير ذلك من الحقوق والواجبات التي جعلتها الشريعة نظاما للأسرة السوية الكريمة. أما قوله تعالى عقب ذلك: { وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ } فيقصد بالدرجة أنها درجة تكليف قيادي للأسرة من أجل القيام بمهام تناسب طبيعة الرجل، أناطها تعالى به وخلقه لها وابتلاه بها وأعفى منها المرأة في قوله: { الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ } النساء 34، وجعل له بها على زوجته حق الطاعة بالمعروف ما لم يأمر بمعصية، فقال عز وجل: { فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا } النساء 34، وحرم عليه بطاعتها له مفارقتها أو التخلي عنها، وليست درجة تكريم وتشريف لأن لهذه المنزلة مقياسا آخر هو قوله تعالى: { إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ } الحجرات 13، وهو مقياس قد تكون به امرأة تقية أشرف وأكرم عند الله والناس من زوجها ومن ألف رجل.

بهذه الآية التي ختمت بقوله تعالى: { والله عَزِيزٌ حَكِيمٌ } استرجعت المرأة حقوقها ومساواتها التي تناسب طبيعتها وخرجت من ظلمات القهر الجاهلي إلى عدالة الشرع وحكمته، برعاية الرب العزيز الغالب لمن عصاه، الحكيم في أمره وشرعه، الناصر للمستضعف المظلوم من عباده. قال ابن عباس: (كنا في الجاهلية لا نعد النساء شيئاً فلما جاء الإسلام، وذكَرَهُن الله رأينا لهن بذلك علينا حقاً)، وروى البخاري عن عمر بن الخطاب أنه قال:" كنا معشر قريش نغلب النساء فلما قدمنا على الأنصار إذا قومٌ تغلبهم نساؤهم فطفِق نساؤنا يأخذن من أدب الأنصار، فصخبتُ علَى امرأتي فراجعتْني فأنكرتُ أن تراجعني قالت: ولِمَ تنكرُ أن أراجعك؟ فوالله إن أزواج النبي ليراجعنه وإن إحداهن لتهجره اليوم حتى الليل، فراعني ذلك وقلت: قد خابت من فعلت ذلك منهن، ثم جمعتُ عليَّ ثيابي فنزلت فدخلت على حفصة فقلت لها: أَيْ حفصةُ أتغاضب إحداكن النبي اليوم حتى الليل؟ قالت: نعم، فقلت: قد خِبْتِ وخسرتِ ".

وبعد أن بين الوحي الكريم كيفية إيقاع الطلاق والعدة وحقوق الزوجين في حالتي الوفاق والفراق، شرع في ضبط عملية الطلاق بما يحد من ضرره على الطرفين وعلى الأسرة والمجتمع، وقد كان البعض يطلقون زوجاتهم حتى إذا أشرفت عدتهن على الانقضاء ردوهن ثم طلقوهن، لعدد غير محدود ويخالعوهن إضرارا بهن واستضعافا لهن، فقال صلى الله عليه وسلم استنكارا لهذه العنجهية:(ما بال أقوام يلعبون بحدود الله تعالى ويستهزؤون بآياته: خلعتك راجعتك طلقتك راجعتك)،

وروي عنه أيضا عليه السلام أنه قال: (أبغض الحلال إلى الله الطلاق)[66]وقال: (إنه ليس شئ من الحلال أبغض إلى الله من الطلاق)[67]، ونزل قوله تعالى تنظيما لهذه العلاقة وكفا لاستغلالها بالظلم والاستبداد: { الطَّلاَقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ }، وهو نظير قوله تعالى في الآية الثانية من سورة الطلاق التي زادت حكم الإشهاد بقوله تعالى: { فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ } دفعا لأي تناكر أو تجاحد بين طرفي العلاقة.

وقد روى الإمام مالك في الموطأ عن هشام بن عروة عن أبيه أنه قال:(كان الرجل إذا طلق امرأته ثم ارتجعها قبل أن تنقضي عدتها كان له ذلك وإن طلقها ألفَ مرة، فعمَد رجلٌ إلى امرأته فطلقها حتى إذا شارفت انقضاء عدتها راجعها ثم طلقها، ثم قال والله لا آويك ولا تحلين أبداً، فأنزل الله تعالى: { الطَّلاَقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ } فاستقبل الناس الطلاق جديداً من يومئذٍ من كان طلق منهم أو لم يطلق). والمقصود بالطلاق في هذه الآية الطلاق الرجعي، وللرجل في مرتيه الإثنتين أن يرجع زوجته قبل انقضاء العدة، فإن انقضت العدة احتاج لعقد جديد بإشهاد وولي وصداق وموافقة من المرأة، فإن أرجعها في الثانية لم يعد له من التصرف الشرعي إلا أن يمسكها بالمعروف ويحسن عشرتها ويقوم بحقها، أو أن يطلقها الثالثة بإحسان، فلا يجرح ولا يشهر ولا يفجر، وأن يؤدي ما لها من حقوق عليه بدون مماطلة أو إضرار، وقد أخرج البيهقي في السنن الكبرى عن إسماعيل بن سميع الحنفي عن أنس بن مالك قال:(قالَ رجلٌ للنبيّ إنِّي أسمعُ الله يقولُ { الطَّلاَقُ مَرَّتَانِ } فأينَ الثالثةُ، قالَ: { فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ } هِيَ الثالثةُ)[68].

وقد دل قوله تعالى: { الطَّلاَقُ مَرَّتَانِ } على أن الطلاق الشرعي على السنة النبوية ينبغي أن يكون مفرقا مرة بعد مرة، لما رواه أحمد ومسلم من حديث طاوس عن ابن عباس أنه قال: (كَانَ الطَّلَاقُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبِي بَكْرٍ وَسَنَتَيْنِ مِنْ خِلَافَةِ عُمَرَ طَلَاقُ الثَّلَاثِ وَاحِدَةً، فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ إِنَّ النَّاسَ قَدْ اسْتَعْجَلُوا فِي أَمْرٍ قَدْ كَانَتْ لَهُمْ فِيهِ أَنَاةٌ فَلَوْ أَمْضَيْنَاهُ عَلَيْهِمْ فَأَمْضَاهُ عَلَيْهِمْ)،

66 – أخرجه أبو داود، وابن ماجه، والحاكم، وابن عدي، والطبراني، والبيهقى عن ابن عمر، قال الحاكم: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي وقال: على شرط مسلم. وضعفه الألباني.

67 – أخرجه البيهقي في السنن الكبرى عن ابن عمر موصولا.

68 – وعلق البيهقي على الحديث بقوله: كَذَا قالَ عن أَنَسٍ رضي الله عنه، والصوابُ عن إسمعيلَ بنِ سُمَيْعٍ عن أبي رَزِينٍ عن النبيِّ مرسلاً، كذلك رواهُ جماعةٌ من الثقاتِ عن إسمعيل.

والجمهور على أن الطلاق ثلاثا دفعة واحدة يقع تبعا لما وافق عليه الصحابة عمر، إلا أن حكم التفريق فيه ثابت بالكتاب والسنة وإجماع المسلمين في عهد أبي بكر وسنتين من عهد عمر، وهو ليس رخصة استعجلها الناس فجاز الاستغناء عنها، ولكنه سنة وعزيمة ينبغي ألا تخالف، وما فرقه الله ورسوله لا يجمعه أحد مهما بلغت منزلته، وهو ما ذهب إليه ابن تيمية وابن القيم والشوكاني وغيرهم من المتأخرين، لاسيما وليس للمسلمين إلا مبلغ عن الله واحد هو رسوله صلى الله عليه وسلم. ولا يجوز اتباع سنة غيره، قال الشوكاني في نيل الأوطار عن رأي الصحابي:"والحق أنه ليس بحجة، فإن الله سبحانه لم يبعث إلى هذه الأمة إلا نبيا محمدا صلى الله عليه وسلم، وليس لنا إلا رسول واحد وكتاب واحد، وجميع الأمة مأمورة باتباع كلامه وسنة نبيه، ولا فرق بين الصحابة ومن بعدهم في ذلك، فكلهم مكلَّفون بالتكاليف الشرعية وباتباع الكتاب والسنة. فمن قال إنها تقوم الحجة في دين الله تعالى بغير كتاب الله وسنة نبيه وما يرجع إليهما، فقد قال في دين الله بما لا يثبت، وأثبت في هذه الشريعة الإسلامية شرعا لم يأمر الله به، وهذا أمر عظيم وتقوُّل بالغ، فإن الحكم لفرد أو أفراد من عباد الله بأن قوله أو قولهم حجة على المسلمين، يجب عليهم العمل بها وتصير شرعا ثابتا مقررا تعم به البلوى، مما لا يُدانُ الله عز وجل به ولا يحل لمسلم الركون إليه ولا العمل به. فإن هذا المقام لم يكن إلا لرسل الله الذين أرسلهم بالشرائع إلى عباده، لا لغيرهم، وإن بلغ في العلم والدين وعظم المنزلة أي مبلغ. ولا شك أن مقام الصحابة مقام عظيم ولكن ذلك في الفضيلة وارتفاع المنزلة وعظم الشأن..، ولا تلازم بين هذا وبين جعل كل واحد منهم بمنزلة رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة قوله وإلزام الناس باتباعه، فإن ذلك مما لم يأذن به الله، ولا ثبت عنه فيه حرف واحد[69] ".

وفي حديث البخاري ومسلم قال عليه الصلاة والسلام: (مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَد)، وقال: (وَمَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدّ)، والطلاق مرتين أو ثلاث مرات دفعة واحدة لم يكن عليه أمر ما بلغنا عن الرسول صلى الله عليه وسلم وتركنا عليه، وهو بذلك محدث في الدين مردود، لا يصح ولا ينعقد، ويكفي دليلا على ذلك اضطراب الفقهاء بين ما شرعته السنة الثابتة وبين ما روي عن عمر، وترددهم في الحكم عليه بين الحظر والكراهة، ولم يقل أحد إنه مباح، بل حتى لو تردد بين الحظر والإباحة فالحظر أولى، وما تم بالمحظور والمحرم لا ينعقد، كما هي قواعد الاستنباط الأصولي، وقد أُمِرْنا بأن ندع المشتبه بين الحلال والحرام، فكيف بالمشتبه بين الحظر والكراهة، والحال أنه حرام قطعا لا اشتباه فيه، قال صلى الله عليه وسلم: (الْحَلَالُ بَيِّنٌ وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ وَبَيْنَهُمَا أُمُورٌ مُشْتَبِهَاتٌ فَدَعْ مَا يَرِيبُك إِلَى مَا لَا يَرِيبُك).

---

69 – إرشاد الفحول للشوكاني ص 243

أما إقرار استعجال الناس بإيقاعه ثنتين أو ثلاثا في مرة واحدة فليس عقابا للزوج، بقدر ما هو استعجال لهدم الأسرة بمسايرة رغبات الأزواج أو نزواتهم، وإهدار لحق الزوجة وأبنائها في مهلة عدتي الطلاقين واحتمال تعقل الزوجين وعودتهما إلى رعاية بعضهما وذريتهما بالمعروف، وهو علة هذا التشريع وحكمته كما قال تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا } الطلاق1، وواضح من فقه هذه الآية الكريمة أن لكل طلقة إحصاء لعدتها ومدتها، وأن الزوجة لا تخرج من بيتها لاحتمال الندم وهدأة النفوس من الغضب، فيحدث الله بذلك إصلاحا وجمع شمل، وليس لهذا التشريع أن يخالف إلا في حال الوقوع في الفاحشة المبينة التي لا يرجى معها إصلاح. ولئن حاول عمر رضي الله عنه علاج ظاهرة طلاق الثلاث دفعة واحدة فقد يكون ذلك لأمر عارض قدره بقدره، مثلما توقف عن قطع السارق عام الرمادة، ويبقى ذلك في أقل تقدير علاجا وقتيا لحالة وقتية لا ينبغي تعميمه، أما العلاج الناجع فإعادة الأزواج إلى السنة النبوية التي هي في نفس الوقت تأديب لهم ومعاملة لهم بنقيض قصدهم، وإثقال لكاهلهم بمتعة كل طلقة ونفقة كل عدة إن تمادوا في الظلم والتلاعب بحدود الله تعالى، وحفاظ في نفس الوقت على حقوق الزوجة والأبناء. أما فعل عمر رضي الله عنه ومن وافقه فمهما بلغت منزلتهم في قلوبنا ومحبتنا لهم لا يجوز أن نترك السنة التي بلغتنا صحيحة لقول أحد منهم. والإجماع بدون مستند من كتاب أو سنة لا يقوم دليلا على مخالفة نص صريح ثابت.

ثم انتقل التشريع إلى حالة فرعية من حالات حل عقدة النكاح برغبة من الزوجة للشقاق المستحكم بينها وبين زوجها، أو لنفورها منه وكراهيتها له، مما يتعذر به استمرار الحياة الزوجية، فتحاول مخالعة زوجها على عوض، وهذا هو الخلع في المصطلح الشرعي، لذلك تدخل الوحي لفض هذا الإشكال وبيان أصل الحكم في هذه الحالة بقول الله تعالى: { وَلاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً } أي يحرم على الزوج استرجاع شيء مما أنفق على زوجته صداقا وغيره، إلا أن تطيب به نفسها لغير خلع { فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا } النساء 4، لأن العلاقة الزوجية في حالي الوفاق والفراق مبنية على الْمُكارمة لا على الْمُشاحَّة، والقلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء قال تعالى: { وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا } النساء21، ويكفي المرأة التي تظلم زوجها بهذا المطلب وزرا قول الرسول صلى الله عليه وسلم فيها: (أيما امرأة سألت زوجها الطلاق من غير ما بأس فحرام عليها رائحة الجنة)، ولكن هذا الطلب من الزوجة قد تنشأ عنه عداوة وبغضاء واستثارة للزوج فيتورط في مضارة زوجته ومحاولة ردها عما تطلبه من الفراق، بسوء معاملتها أو بابتزازها بأكثر مما أنفقه في الزواج بها، لذلك ميز الشارع بين حالتين للمخالعة:

عن ضرر ثابت لا يحتمل يوقعه بها الزوج، لسوء طبعه أو لابتزازها، فعليه في هذه الحالة أن يرفع الضرر أو يطلق بإرادته أو بحكم القضاء، وليس له أن يسترجع مما آتاها شيئا، قال تعالى: { وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا } النساء19، وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في شرح الآية قوله: " ولا تقهروهن لتذهبوا ببعض ما آيتموهن، يعنى الرجل تكون له المرأة وهو كاره لصحبتها ولها عليه مهر فيؤذيها لتفتدي نفسها منه بأن تترك له ما لها عليه من مهر أو مال "، قال مالك والأوزاعي: " لو أخذ منها شيئًا وهو مضارّ لها وجب ردّه إليها، وكان الطلاق رجعيا ".

أو عن نشوز ظالم تطلب الزوجة به الطلاق لغير ضرر، والخلع في هذه الحالة حرام وطلب الزوج الفدية أيضا حرام، وللزوج شرعا أن يمتنع عن الطلاق، إلا أن امتناعه قد يكون سببا في ظلم أكبر هو أن يتعدى أحدهما أو كلاهما حدود الله التي شرعها للحياة الزوجية، لذلك وضع الشرع حلا لهذا الإشكال بأن جعل بيد الزوجة حق الخلع وأباح لها فداء نفسها بتعويض الزوج عن خسارته المادية، في مقابل ما جعل بيد الزوج من حق الطلاق، وأباح له مخالعتها واسترجاع ما أنفق، قال تعالى: { إِلاَّ أَن يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ } أي إن خافا أن يكون استمرار الحياة الزوجية بينهما سببا في معصية الله تعالى فلا إثم في أن تعوض للزوج ما أنفقه، ولا إثم في قبول الزوج هذا العوض.

وفي كلا الحالين إن خالعت زوجها للضرر أو بالفداء تعتد بثلاثة أقراء إن كانت من ذوات الحيض، قال ابن كثير:" ذهب مالك، وأبو حنيفة، والشافعي، وأحمد وإسحاق في رواية عنهما، وهي المشهورة؛ إلى أن المختلعة عدتها عدة المطلقة بثلاثة قروء، إن كانت ممن تحيض. وروي ذلك عن عمر، وعلي، وابن عمر، وبه يقول سعيد بن المسيب، وسليمان بن يسار، وعروة، وسالم، وأبو سلمة، وعمر بن عبد العزيز، وابن شهاب، والحسن، والشعبي، وإبراهيم النخعي، وأبو عياض، وجُلاس بن عمرو، وقتادة، وسفيان الثوري، والأوزاعي، والليث بن سعد، وأبو عبيد. قال الترمذي: وهو قول أكثر أهل العلم من الصحابة وغيرهم. ومأخذهم في هذا أن الخلع طلاق، فتعتد كسائر المطلقات ".

كما روى البخاري: (أَنَّ امْرَأَةَ ثَابِتِ بْنِ قَيْسٍ أَتَتْ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ثَابِتُ بْنُ قَيْسٍ مَا أَعْتِبُ عَلَيْهِ فِي خُلُقٍ وَلَا دِينٍ وَلَكِنِّي أَكْرَهُ الْكُفْرَ فِي الْإِسْلَامِ[70]، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَتَرُدِّينَ عَلَيْهِ حَدِيقَتَهُ[71]؟ قَالَتْ: نَعَمْ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اقْبَلْ الْحَدِيقَةَ وَطَلِّقْهَا تَطْلِيقَةً).

---

70 – تخاف إن بقيت زوجة له أن تواقع ما يؤدي بها إلى الإثم وكفر العشير.

71 – الحديقة: بستان كان قد أصدقه إياها.

وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن المختلعة تعتد بحيضة واحدة، بناء على أن الخلع فسخ، ولكن هذا لا يتحقق به القصد الشرعي من حفظ الأنساب والذرية في حال مفارقة الزوج زوجته، وقد ثبت من بعض الحالات الزوجية في عصرنا هذا أن المرأة قد تكون حاملا وينتابها الحيض المرة والمرتين، وقد تكون حاملا وتغشاها الاستحاضة طويلا فيختلط الأمر عليها، وهذا يؤيد ما ورد من أن الخلع طلاق عدته ثلاثة قروء، وفي حالات الاشتباه ينبغي الرجوع إلى نساء الطب المتخصص، تلافيا لأي نزاع أو اختلاط أنساب.

إن المرء وهو يمتثل للشرع ويطيع تعاليمه لم يزل في رياض الدين وساحات الرضا والتقوى، إلا أن لهذه الرياض والساحات حدودا يجب عدم الاعتداء عليها أو تجاوزها، والحياة الزوجية في ظل الشريعة لها أيضا حدود محرم اقتحامها وهدمها، ولا يجرؤ على ذلك إلا من ظلم نفسه، ولذلك عقب تعالى على ما سبق من تشريعات بناء المجتمع الإسلامي الجديد وتحريم الزواج من المشركين والمشركات، وأحكام الطلاق والخلع بقوله: { تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ }.

ثم انتقل الوحي إلى التشريع لحالة الطلاق الثالث الذي تحرم به الرجعة وهو البائن بينونة كبرى[72] فقال تعالىَ: { فَإِن طَلَّقَهَا فَلاَ تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىَ تَنكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ }، أي عند إيقاع الطلقة الثالثة يحرم عليه أن يرجعها في العدة أو يتزوجها بعد انقضائها، ولا تحل له إلا بعد زواج صحيح من غيره يدخل بها دخولا حقيقيا ثم يطلقها، لما صح من رواية عنه صلى الله عليه وسلم أنه سئل عن رجل طلق امرأته ثلاثا فتزوجت زوجا غيره فدخل بها ثم طلقها قبل أن يواقعها أتحل لزوجها الأول؟ فقال:(لا تحل للأول حتى تذوق عسيلة الآخر ويذوق عسيلتها). فإن طلقها الثاني بعد ذلك كان للأول مراجعتها إن آنس كل منهما القدرة على إقامة حدود الله وعدم الإضرار ببعضهما، وعلى إنشاء عقد زواج جديد يصلح ما فسد من علاقتهما.

وجمهور الفقهاء على أن المطلقة ثلاثا لا تحل لزوجها الأول إلا بخمسة شروط: تعتد منه، ويتزوجها الثاني زواجا صحيحا بوطء حقيقي، ثم يطلقها وتعتد منه، ثم تعود للأول بعقد وإشهاد وولي وصداق ورضا، وهو قوله تعالى: { فَإِن طَلَّقَهَا فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ }.

وهذه الحالة تقودنا إلى الحديث عن نوع من التحايل على الشرع بزواج المرأة المبتوتة[73] من آخر تتفق معه على الطلاق لتعود إلى زوجها الأول، مما اصطلح عليه بزواج المحلل وهو كفعل بني إسرائيل إذ تحايلوا على تحريم صيد السمك يوم

---

72 – ميز الشرع بين حالين من أحوال الطلاق: طلاق رجعي انقضت العدة فيه فهو البينونة الصغرى، وطلاق ثلاث لا رجعة فيه هو البينونة الكبرى.

73 – من البَتّ وهو الانقطاع، والمبتوتة المطلقة طلاقا بائنا.

سبتهم، فلعنوا بذلك ومسخوا قردة وخنازير، قال الإمام علي رضي الله عنه: (لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم المحلل والمحلل له)، وقال ابن عبد البر:[74] "رُوِيَ عَنِ النبِيِّ صلى الله عليه وسلّم أنهُ لَعَنَ المحَلِّلَ وَالمحَلَّلَ لَهُ مِنْ حَدِيثِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ وَعُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ، وَفِي حَدِيثِ عُقْبَةَ:(ألا أدُلُّكُمْ عَلى التيْسِ المسْتَعَارِ؟ هُوَ المحَلِّلُ) ".

وهذا الزواج باطل لا تحل به المرأة للأول ولا للثاني، لأنه متى شرط الطلاق على المحلل بطل العقد بخروجه عن دائرة الشرع، فإن كان بدون دخول لم يعتبر زواجا، وإن كان بدخول فهو محرم لأنه زواج متعة، والنكاح عقد حرمة مؤبدة لا عقد متعة مؤقتة، وقد صح أن الرسول صلى الله عليه وسلم: (نهى عن المتعة وقال: ألا إنها حرام من يومكم هذا إلى يوم القيامة، ومن كان أعطى شيئا فلا يأخذه)، وقال عمر: " لا أوتى بمحلل ولا محلل له إلا رجمتهما ".

ثم بين رب العزة حكم حالين من حالي تصرف الزوج في عدة زوجته، فقال في الحال الأول وهو أن تكون المرأة في عدتها وتقارب نهايتها قبل أن تبين: { وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ } أي أشرفن على نهاية العدة، والبلوغ في هذه الآية بمقتضى السياق بلوغ مقاربة، لأنك تقول لغة: بلغت المدينة إذا قاربتها وبلغتها إذا دخلتها، وقد نزلت هذه الآية في رجل من الأنصار يدعى ثابت بن يسار طلق امرأته حتى إذا قرب انقضاء عدتها راجعها ثم طلقها، يقصد بذلك مضارتها، في هذه الحالة قال تعالى: { فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ } أي فأنتم بين خيارين ثالثهما إثم وعدوان:

أن تراجعوهن بالمعروف قبل انتهاء العدة فتحسنوا عشرتهن وتكرموهن وتؤدوا حقوقهن بما يحقق مقاصد الدين في إعادة بناء الأسرة، وإقامة الحياة الزوجية السوية.

أو أن تؤدوا إليهن حقوقهن وتَدَعوهن بدون أذى، فتنقضي عدتهن ويتصرفن في أنفسهن بما جعله الله لهن وعليهن وهو المعروف الشرعي في هذه الحالة.

أما الخيار الثالث خيار الظلم والعدوان، فهو المقصود بقوله تعالى عقب ذلك: { وَلاَ تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لَّتَعْتَدُواْ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ } أي: من أمسكهن وجعل الإضرار بهن غايته من الرجعة، فقد ظلم نفسه وعرضها لسخط الله تعالى وغضبه، قال صلى الله عليه وسلم: (اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة) وقال: (إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتي قد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا و سفك دم هذا وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار).

---

74 – الاستذكار: 444/5

ومن تهاون في الامتثال لما وضعته الشريعة للحياة الزوجية من أحكام ترشِّدها وتحميها فذلك منه تلاعب بالدين واستهانة به، قال تعالى: { وَلاَ تَتَّخِذُوَاْ آيَاتِ اللّهِ هُزُواً } أي لا تتلاعبوا بها وتتحايلوا عليها.

{ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ } بما جعل لكم من أزواجكم سكنا ومودة ورحمة وذرية وعونا.

{ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُمْ مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ } وما بلغكم نبيكم صلى الله عليه وسلم من القرآن والسنة يعلمكم ويهديكم إلى سبل الرشاد.

{ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } ولقد أقيمت عليكم بذلك الحجة ورفع عنكم الجهل ولم يبق لكم إلا أن تتقوا ربكم وتحذروا عقوبته، وتستشعروا دائما أنه لا يخفى عليه من أمركم شيء.

وتبقى حالة ثالثة هي حالة المطلقة إذا استوفت عدتها وملكت أمرها ولم يبق لزوجها عليها سبيل وقال فيها رب العزة عقب ذلك: { وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ } أي انقضت عدتهن، وقد نزلت الآية في جميلة بنت يسار فيما رواه البخاري عن أخيها معقل قال:(زَوَّجْتُ أُخْتًا لِي مِنْ رَجُلٍ فَطَلَّقَهَا حَتَّى إِذَا انْقَضَتْ عِدَّتُهَا جَاءَ يَخْطُبُهَا، فَقُلْتُ لَهُ: زَوَّجْتُكَ وَفَرَشْتُكَ وَأَكْرَمْتُكَ فَطَلَّقْتَهَا ثُمَّ جِئْتَ تَخْطُبُهَا، لَا وَاللَّهِ لَا تَعُودُ إِلَيْكَ أَبَدًا، وَكَانَ رَجُلًا لَا بَأْسَ بِهِ وَكَانَتْ الْمَرْأَةُ تُرِيدُ أَنْ تَرْجِعَ إِلَيْهِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ: { فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ } فَقُلْتُ: الْآنَ أَفْعَلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ فَزَوَّجَهَا إِيَّاهُ).

والخطاب في قوله تعالى: { فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ } موجه إلى أولياء المطلقات وإلى الأزواج السابقين في سياق واحد بطريق التصريح والتعريض:

ينهى الأولياء عن عضلهن، والعضل لغة هو المنع والشدة، أي لا تمنعوهن أن يتزوجن من يخطبهن من الرجال { إِذَا تَرَاضَوْاْ بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ } إذا حصل التراضي بين المطلقة طلاقا بائنا وبين من خطبها على زواج شرعي صحيح بشروطه وأركانه.

وينهى الأزواج الذين طلقوا زوجاتهم طلاقا بائنا باتا عن أن يعترضوا سبيلهن بغير حق، أو يمنعوهن الزواج بغيرهم حمية وجهلا وأنفة وإضرارا.

وفي هذه التوجيهات الشرعية ما يعظ المؤمن الحق ويكفه عن الظلم والعدوان { ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ }، كما أن فيها تزكية وطهارة للمسلمين أسرة ومجتمعا وأمة، وإن لم يفعلوا تكن فتنة وفساد كبير { ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ }، والله تعالى يعلم من خبايا النفوس ومآلات الأعمال والتصرفات والأسباب والنتائج ما لا يعلمون { وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ }.

الرضاعة: حق الأطفال وواجب الوالدين والمجتمع

قال الله تعالى: { وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لاَ تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا لاَ تُضَآرَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلاَ مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُواْ أَوْلاَدَكُمْ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (233) } سورة البقرة

ما خلق الله تعالى من خلق إلا جعل له سننا تكوينية وأخرى تشريعية، ينشئه وينميه ذرَّةً وبذرة ونطفة وجنينا وزوجا وزوجة، ووالدا ووالدة، يضع له من سنن البقاء والتكاثر و التصرف والعلاقات ما يكفل له الحماية والتغذية والتكامل والتكافل والمدافعة والتعايش السليم. ولذلك قال عز وجل: { وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ } المؤمنون17، ربانيته تعالى تُفيض على كل خلقه ما تقتضيه حكمته من عنايته ورعايته لمشاعرهم وعواطفهم، وسعيهم وكسبهم و معاشهم ومآلهم { يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ } السجدة 5، { قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ } يونس31.

وضع عز وجل لكل شيء ناموسا، ولكل مخلوق نظاما، وخص كل كائن بما يناسبه تنشئة وتدبيرا، وأنزل القرآن الكريم للناس هاديا ومعلما، رشد بآياته عقول المطيعين، وأعلى بحكمه غرائزهم ومشاعرهم، ورقى بتوجيهاته تصرفاتهم، وبنى بسننه الفطرية السوية علاقاتهم ومجتمعهم، وجعل نظام الأسرة فيهم محضنا للتآلف والتساكن والتعاون وعشا للتنشئة والتربية والإعداد، وأناط بكل عمل من أعمالهم عبادة، تشريعات الزواج والمعاشرة والتناسل عبادة، ورعاية الحرم في حال الخصام والطلاق والخلع والإيلاء والرجعة والبت والإمساك بمعروف أو التسريح بإحسان عبادة، والتمهل تربصا لأمر الله وأداء لحقوق الزوجية نفقة ومتعة وافتداء وكفارة عبادة، كل ذلك بينته الآيات الكريمة السابقة أحسن بيان وفصلته بما يحيي القلوب الميتة، ويوقظ العقول الغافلة ويهدي إلى سواء السبيل.

ولما كان لكل سعي نتيجة، والرضا بالشيء رضا بنتائجه، والزواج سعي من الرجل والمرأة، نتيجته الطبيعية الإنجاب والإنسال، فقد جعل رب العزة لهما في هذه الحالة الجديدة نظاما يتبعانه ونهجا يسيران عليه، ورتب عليهما فيها أحكاما بينة ومسؤوليات واضحة، وربط ذلك كله بأصل الفطرة مبتدأ، وبالعقيدة وتشريعاتها تأسيسا ومنتهى.

من الفطرة السوية عاطفة جياشة تحفظ البقاء والاستمرار وترعى بالمحبة والحنان الذرية، وتؤهلها لما خلقت له في جو من السواء والطمأنينة والسكينة، فإذا اختلت عواطف الأبوة والأمومة وتنكرت لما خلقت عليه، وتمردت على السنن السوية

إيثارا لهوى عابر أو ركونا لطيش فاجر أو غبشا في التصور، كان للتشريع دوره في إحياء النفوس وتنبيه العقول وإيقاظ الضمائر، وإلزام الأزواج مسؤولية سعيهم ونتائج تصرفاتهم وعواقب ما يعملون.

لذلك ما إن نظم الوحي الحياة الزوجية تعاقدا شرعيا وتكافؤا عقديا، وتعاونا على البر والتقوى، وبين أحكام ما ينتابها من حالات الوفاق أو الفراق، والمكارمة أو الشقاق، حتى أتبع ذلك ببيان مسؤولية الزوجين عما ينجبان من الذرية، وتقرير حقوق كل خلق جديد يقدره الله تعالى لهما. ولما كانت التنشئة والتربية أول واجباتهما نحو أبنائهما وأول حقوق الأبناء عليهما، فقد خطا الوحي أول خطوة تشريعية في ذلك، هي إيجاب حق الوليد في التغذية بما يناسب فجر حياته وظروف تنشئته الأولى فقال تعالى بصيغة خبرية تفيد معنى الأمر والإلزام: { وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ}، ويقصد بالوالدات الأمهات اللائي ولدن، يجب عليهن إرضاع أبنائهن، سواء كن في عصمة أزواجهن أو مطلقات، كما يقتضي ظاهر الآية، ولا عبرة بمن يرى أن الآية خاصة بالمطلقات، أو أن المتزوجات ذوات الشرف لا يجب عليهن الإرضاع للعرف، لاسيما والإرضاع بمقتضى الآية وسياقها واجب على الأم وحق لها، فإن رضيت أن ترضع ولدها لم يجز للأب أن يسترضع له غيرها، يعزز ذلك أصل الفطرة التي جعلها الله لكل كائن حي يرعى ذريته، وهي أقوى حجية من العرف في هذه الحالة، ولا مبرر من قواعد الاستنباط الأصولي لصرفها عن واجبها وحقها في ذلك إلا لضرورة تقدر بقدرها كمرض أو شح لبن أو إعراض طفلها عن رضاعتها.

ثم حدد تعالى مدة إرضاع الطفل اللائقة بإصلاح حاله وتنميته تنمية طبيعية بقوله: {حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ }، فجعل الأصل فيها سنتين كاملتين يُسْتوفى فيهما ما يحتاجه النمو الطبيعي لمستهل الحياة لدى الإنسان، واشترط رضا الطرفين وتشاورهما إن ارتأى أحدهما لمصلحة الطفل أو لظروف الأسرة غير ذلك، كما سيأتي في باقي الآية.

ولئن جعل الشرع مدة السنتين في الرضاع مرنة تبعا للمصلحة واتفاق الأب والأم، فإنه أبقى هذه المدة ثابتة صلبة في مجال الأنساب، بحيث لا ينشأ نسب الرضاعة إلا بما كان في الحولين الأولين من عمر الصبي، لما رواه ابن عباس عن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (لا رضاع إلا ما كان في الحولين)[[75]]، وما رواه الترمذي صحيحا عن أم سلمة قالت: (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يحرم من الرضاعة إلا ما فتق الأمعاء في الثدي وكان قبل الفطام)[[76]]، أي من الثدي مباشرة، وقال:(لا رضاع بعد فصال، ولا يُتْم بعد احتلام) وقال تعالى: { وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ } لقمان 14، وقال: {وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا } الأحقاف15، فبين عز وجل في الآية الأولى مدة الرضاع وفي الثانية أقل

---

75 – لم يسنده عن ابن عيينة غير الهيثم ابن جميل وهو ثقة حافظ

76 – قال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وغيرهم أن الرضاعة لا تحرم إلا ما كان دون الحولين وما كان بعد الحولين الكاملين فإنه لا يحرم شيئا، وقال الألباني صحيح.

الحمل وهو ستة أشهر ومدة الرضاع وهي أربعة وعشرون شهرا. ومن الجدير بالذكر أن هذه النصوص من كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم تكفي لنفي رضاعة الكبير وعدم اعتبارها، ولدحض تلاعب أصحاب الأهواء بأحكام الرضاعة في عصرنا هذا، إيثارا منهم لهوى متبع، أو مراعاة لمفسدة سياسية دعوها مصلحة، أو لجهل وفقه مراهق.

أما ما روي عن عائشة رضي الله عنها من ثبوت النسب برضاعة الكبير قياسا على حالة سهلة بنت سهيل[[77]] وهو أن تسقي المرأة كبيرا لبنها بواسطة فنجان أو وعاء، فمضطرب المتن يهدمه ما رواه البخاري ومسلم عن عائشة نفسها مرفوعا إذ قالت: (دَخَلَ عَلَيَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعِنْدِي رَجُلٌ قَالَ يَا عَائِشَةُ مَنْ هَذَا؟ قُلْتُ: أَخِي مِنْ الرَّضَاعَةِ، قَالَ: يَا عَائِشَةُ انْظُرْنَ مَنْ إِخْوَانُكُنَّ فَإِنَّمَا الرَّضَاعَةُ مِنْ الْمَجَاعَةِ)، وما أخرجه النسائي عن عروة قال: (أبى سائر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم أن يدخل عليهن بتلك الرضعة أحد من الناس يريد رضاعة الكبير وقلن لعائشة والله ما نرى الذي أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم سهلة بنت سهيل إلا رخصة في رضاعة سالم وحده، من رسول الله صلى الله عليه وسلم والله لا يدخل علينا أحد بهذه الرضعة ولا يرانا)[[78]].

فإن ثبت الرضاع خلال الحولين حرم به ما حرم بالولادة، كما قال صلى الله عليه وسلم: (يَحْرُمُ مِنْ الرَّضَاعَةِ مَا يَحْرُمُ مِنْ الْوِلَادَةِ)، وحيث إن المحرمات من النسب سبع ذكرن في قوله تعالى: {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ

---

77 – أخرج مالك في الموطأ: أَنَّ أَبَا حُذَيْفَةَ بْنَ عُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَانَ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا وَكَانَ تَبَنَّى سَالِمًا الَّذِي يُقَالُ لَهُ سَالِمٌ مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ كَمَا تَبَنَّى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ وَأَنْكَحَ أَبُو حُذَيْفَةَ سَالِمًا وَهُوَ يَرَى أَنَّهُ ابْنُهُ أَنْكَحَهُ بِنْتَ أَخِيهِ فَاطِمَةَ بِنْتَ الْوَلِيدِ بْنِ عُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ وَهِيَ يَوْمَئِذٍ مِنْ الْمُهَاجِرَاتِ الْأُوَلِ وَهِيَ مِنْ أَفْضَلِ أَيَامَى قُرَيْشٍ فَلَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ فِي زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ مَا أَنْزَلَ فَقَالَ:﴿ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ﴾ رُدَّ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ أُولَئِكَ إِلَى أَبِيهِ فَإِنْ لَمْ يُعْلَمْ أَبُوهُ رُدَّ إِلَى مَوْلَاهُ فَجَاءَتْ سَهْلَةُ بِنْتُ سُهَيْلٍ وَهِيَ امْرَأَةُ أَبِي حُذَيْفَةَ وَهِيَ مِنْ بَنِي عَامِرِ بْنِ لُؤَيٍّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ كُنَّا نَرَى سَالِمًا وَلَدًا وَكَانَ يَدْخُلُ عَلَيَّ وَأَنَا فُضُلٌ وَلَيْسَ لَنَا إِلَّا بَيْتٌ وَاحِدٌ فَمَاذَا تَرَى فِي شَأْنِهِ فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَرْضِعِيهِ خَمْسَ رَضَعَاتٍ فَيَحْرُمُ بِلَبَنِهَا وَكَانَتْ تَرَاهُ ابْنًا مِنْ الرَّضَاعَةِ فَأَخَذَتْ بِذَلِكَ عَائِشَةُ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ فِيمَنْ كَانَتْ تُحِبُّ أَنْ يَدْخُلَ عَلَيْهَا مِنْ الرِّجَالِ فَكَانَتْ تَأْمُرُ أُخْتَهَا أُمَّ كُلْثُومٍ بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ وَبَنَاتِ أَخِيهَا أَنْ يُرْضِعْنَ مَنْ أَحَبَّتْ أَنْ يَدْخُلَ عَلَيْهَا مِنْ الرِّجَالِ وَأَبَى سَائِرُ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَدْخُلَ عَلَيْهِنَّ بِتِلْكَ الرَّضَاعَةِ أَحَدٌ مِنْ النَّاسِ وَقُلْنَ لَا وَاللَّهِ مَا نَرَى الَّذِي أَمَرَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَهْلَةَ بِنْتَ سُهَيْلٍ إِلَّا رُخْصَةً مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي رَضَاعَةِ سَالِمٍ وَحْدَهُ لَا وَاللَّهِ لَا يَدْخُلُ عَلَيْنَا بِهَذِهِ الرَّضَاعَةِ أَحَدٌ فَعَلَى هَذَا كَانَ أَزْوَاجُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي رَضَاعَةِ الْكَبِيرِ

78 – صحيح الألباني

وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ } النساء 23، فإن المحرمات أيضا ما كن بالرضاعة أمهات أو بنات أو أخوات أو عمات أو خالات أو بنات أخ أو بنات أخت[79].

أما قوله تعالى بعد ذلك: {وَعلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ } فدل على وجوب النفقة للمرضع على الأب، لا يشركه فيها غيره، عليه نفقة الزوجة المرضعة بمقتضى الزوجية وبزيادة تكاليف رعاية الطفل وإرضاعه، ونفقة الأم المطلقة مدةَ الإرضاع بمقتضى إرضاعها ولده الذي يحمل نسبه ويمثل امتداده العائلي، ونفقة المسترضعة بمقتضى الأجرة المستحقة. وقد بين تعالى طبيعة هذه النفقة وقدرها عقب ذلك بقوله: {وَعلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لاَ تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا }، فأوجب على الأب للمرضعة رزقها وكسوتها بالمعروف، أي بما هو متعارف في البلد، ويشمل ذلك تغطية حاجتها من السكن والكساء والطعام والعلاج مدة الرضاعة، وتغطية حاجات الطفل بما يهيئ له ظروف النشأة السوية والسلامة الصحية، على قدر طاقة الوالد ووسعه { لاَ تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا }، وهو ما بينه قوله تعالى في آية أخرى: {لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا } الطلاق7. وتمتد هذه النفقة على الطفل والمرضعة إن كانت مطلقة إلى الفطام، ثم تستمر على الطفل وحده بموجب اختصاص الآباء بالإنفاق على الأبناء، إلى أن يبلغ سن الرشد قادرا على الكسب، سواء بقي عند أمه ما لم تسقط حضانتها أو عاد إلى بيت والده، في أحكام شرعية ذهبت بها الآراء إلى اختلاف كثير باختلاف الحالات والمجتمعات، مما يرجع إلى تفاصيله في فقه الفروع.

ولأن الحياة الزوجية مهما صفت لا تخلو من شد وجذب بين الزوجين، وعلاقة الرجل بمطلقته غالبا ما تنتابها المعاندة والشقاق، وكانت المسترضعة بأجرة في أكثر أحوالها فقيرة مستضعفة محتاجة، وكانت المعاملات المالية مظنة المشاحة والمماكسة والمماطلة، وقد دأب الوحي الكريم حماية للناس من الجنوح للظلم والبغي على أن يربط كل تشريع بعبادة أو قربى، فقد ذكَّر عقب ذلك بما يحرم على كل أطراف هذه العلاقة من استغلال لها قصد الإضرار أو الابتزاز أو المشاقة فقال تعالى: {لاَ تُضَآرَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلاَ مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ }. وحرف" لا" في هذه الآية الكريمة للنهي تحريما لكل أوجه الإضرار التي قد تصدر منهم نحو بعضهم أو تنعكس سلبا على الرضيع.

---

79 – أمك كل من أرضعتك بواسطة أو بغيرها وأمهاتها، وبنتك كل من أرضعتها زوجتك بلبنك أو أرضعتها ابنتك من نسب أو رضاع. وكذا كل من أرضعتها زوجة ابنك من نسب أو رضاع. وإخوتك كل من ولدتهم من أرضعتك أو ولد الذي هو أبوك من الرضاع. وابن أخيك وابنته من أرضعته زوجة أخيك من الرضاع، وابن أختك وابنته من أرضعته أختك من الرضاع، وأخوالك وخالاتك هم إخوان من أرضعتك وأخواتها، وأعمامك وعماتك إخوان زوج من أرضعتك بلبنه وأخواته. ومن ولد من أمك الذي أرضعتك بلبن زوجها فهو أخ شقيق، ومن غيره فهو أخوك من الأم...إلى آخر الحالات المفصلة في فقه الفروع.

على الزوج بمقتضى هذا النهي أن لا يضيق على زوجته بالتقتير عليها أو إساءة معاملتها أو التقصير في حقها، أو باسترضاع غيرها وهي راغبة في الإرضاع، كيلا تقصر في حق الولد أو تضعف عن رعايته، قال تعالى: { وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِن } الطلاق 6، وكذلك يكون الشأن في معاملته الأم المطلقة والمسترضعة بأجر.

وعلى كل من الزوجة أو الأم المطلقة أو المسترضعة أن تجتنب الإضرار بالوالد وقد وجبت عليه النفقة، بابتزازه ماديا أو عاطفيا، أو مطالبته بالإنفاق بأكثر مما يطيق، أو الامتناع عن الإرضاع لأدنى سبب، أو إساءة معاملة الرضيع تضييقا ونكاية وإغاظة.

والقاعدة الأصيلة التي تضبط هذه العلاقة في هذه الحالة وفي غيرها من علاقات الناس جميعا فيما بينهم هي العدل وعدم استغلال عاطفة القرابة أو شنآن الخصام للإضرار، قال تعالى: { وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا } المائدة 8، وقال: {وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى } الأنعام 152، وقال صلى الله عليه وسلم: (لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَار) أي لا ضرر بالغير مبادأة، ولا ضرار بهم مجازاة، وقال: (من ضار ضار الله به ومن شاق شاق الله عليه)، وإنما عَدْلٌ في كل الأحوال، أما في حالة الرضاعة وأحدُ أطرافها طفلٌ عاجز عن كفاية نفسه، وآخرُ امرأةٌ ضعيفة في عصمة زوجها أو مطلقةٌ أو فقيرة مسترضعة، فإن العدل ينبغي أن تشوبه المكارمة والإحسان قال تعالى: {وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } البقرة237، والقاعدة في ذلك كله أن الضرر في جميع ما نهى الشرع عنه حراما كان أو مكروها، وأن النفع والمصلحة في جميع ما أوجبه أو ندب إليه أو استحبه، والله تعالى يعلم المصلح من المفسد.

وفي معنى قوله تعالى: { لَا تُضَآرَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ } إشارة واضحة إلى وجوب الترفع عن الضغائن أو الإضرار بالرضيع، فهو ليس أجنبيا عنهما، هذه أمه وهذا أبوه، من واجبهما ومن مقتضى العاطفة السوية والفطرة السليمة أن يشفقا عليه ويرحماه ويجتنبا ما يضره في حاله ومآله، كما أن من واجبهما نحو أمتهما ألا يمداها بناشئة معقدة أو منحرفة أو حاقدة أو مريضة، بسبب ما بينهما من أحقاد وخصام.

هذه واجبات الأب حيا قادرا نحو ولده ونحو المرضعة، زوجة كانت أو مطلقة أو مسترضعة، إلا أنه في حالات أخرى قد يكون ميتا أو حيا عاجزا عن الإنفاق لمرض يقعده أو فقر مدقع لا سبيل إلى تجاوزه والتغلب عليه، أو محصورا عن السعي لسجن أو خوف عدو, هذه الحالة لم يغفلها التشريع الإلهي مطلقا، بل وضع لها ما يناسبها ويقوم بها ويَرُمُّ كسور المجتمع بها، فقال تعالى: {وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ } أي على الوارث واجب الإنفاق على إرضاع الطفل وتنشئته إلى أن يبلغ راشدا قادرا.

ونظرا لكون لفظ"الوارث" ورد في الآية عاما مطلقا، فقد اختلف في تحديد المقصود به، فقال بعضهم: ينفق عليه الرجال الذين يرثونه فيما لو مات وترك مالا. وقال أحمد: الرجال والنساء في هذا سواء، وذهب أبوحنيفة إلى أنهم كل ذي رحم محرم من قرابة الصبي. وقال الحسن والسدي ينفق عليه من يرث أباه لو كان ترك مالا، وقيل: تجبر عصبته من الرجال

على الإنفاق عليه، ورجح الطبري أن المراد بالوارث الصبي نفسه، ينفق عليه من ماله إن كان له مال، وذهب مالك والشافعي إلى أن الصبي اليتيم إذا لم يكن له مال كانت نفقته على أمه.

إلا أن الآية تحتمل كل هذه الوجوه مجتمعة حسب درجات اليسر والعسر التي قد يكون عليها الصبي ووالدته وعصبته، وهذا من إعجاز التعبير القرآني الحكيم. ذلك أن الغاية من التعميم والإطلاق في لفظ"الوارث" أن النفقة على الصبي واجبة في كل أحواله، على أبيه الحي ما كان قادرا على النفقة، أو على الصبي نفسه إن كان يتيما وارثا ما يكفيه، فإن توفي والد الصبي الفقير أو عجز عن الإنفاق عجزا مطلقا لمرض أو سجن أو غيره يتحمل النفقة عنه الذكور من أرحامه لأبيه لأنه فرع في شجرتهم، الأقرب فالأقرب حسب استطاعتهم، يُبْدأ بمن يرثون أباه فيما لو ترك مالا، ويشترك النساء معهم في حمل هذه المسؤولية إن ضعفوا عن الوفاء بها تامة، أو يتحملها من يرثون الطفل فيما لو مات وترك خيرا، فإن لم يك هؤلاء ولا أولئك تكفل بيت مال المسلمين بها وسئل أميرهم عنها وحوسب عليها. أما الأم فلا تنفق عليه إن كانت غنية إلا تطوعا. وفي كل الأحوال للصبي في مال الأمة حق اليتيم، لأن رعايته حق الله على العباد لا يتحللون منها إلا بأدائها، إن وجد القضاء الإسلامي النزيه رفع الأمر إليه فحكم له، وإن وجد الحكم الرشيد رعى الأيتام وأكرمهم، وسن لهم من النظم والقوانين ما يقوم بهم ويكفي حاجاتهم. قال تعالى: { أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ } الماعون 3/1، وقال: { كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ } الفجر17، وأخرج البخاري ومسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا، وَأَشَارَ بِإِصْبَعَيْهِ السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى وَفَرَّجَ بَيْنَهُمَا)، وقال أيضا: (لا قدِّسَتْ أُمةٌ لا يُعْطى الضعِيفُ فِيها حَقَّهُ غَيْرَ مُتَعْتَعٍ)[[80]]. إلا أن لهذه القضية مدخلا للقياس قد يكون وجيها، إذا اعتبرنا أن رعاية الطفل الفقير بعد وفاة والده دين واجب الأداء على أقاربه أولا ثم على المجتمع إن عجز الأقارب ثانيا، لأن لهذه الحالة وجه شبه بالتكافل العائلي في حالة القتل الخطأ وشبه العمد، حيث تتحمل العاقلة[[81]] الدية، يؤدونها إلى ورثة القتيل في ثلاث سنوات كما قضى بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم.

---

80 – قال الألباني: صحيح.

81 – العَقْل مصدر عَقَلْت البعير بالعِقال أَعْقِله عَقْلاً، وهو حَبْلٌ تُثْنى به يد البعير إلى ركبته فتُشَدُّ به، أطلق على الدية، لأنها كانت تعطى إبلا، فكان الجاني يُكَلَّف أَن يسوق الدية إِلى فِناء ورثة المقتول فيعقلها بالعُقُل ويُسَلِّمها إِلى أَوليائه، والعاقلة صفة الجماعة التي تعقل الدية وتتحملها، وهُم العَصَبَة، أي القرابة من قِبَل الأَب الذين يُعْطُون دية قَتْل الخَطإِ.

والعاقلة هم عَصَبَة[82] الجاني، أي القرابة من قبل الأب، ينظر إلى إخوته من أبيه فيتحملون الدية متضامنين يؤدونها في ثلاث سنوات، فإن لم يتحملوها رفعت إلى أعمامه ثم إلى أعمام والده... فإن لم تكن عاقلة أصلا كانت الدية في بيت مال المسلمين.

وفي بعض حالات إرضاع الأم وليدها يطرأ ما يحمل أحد الوالدين أو كليهما على إنهاء فترة الرضاعة بالفطام قبل سنتين، والدواعي المحتملة إلى ذلك كثيرة، منها ضعف الزوجة أو مرضها أو مرض المطلقة أو رغبتها في زواج جديد قد يشغلها عن الصبي فتُعْطَى حضانته لمن يستحقها من النساء، في مثل هذه الحالات حرص الوحي الكريم على تجنب الشقاق والمعاندة والخصومة، وأباح فطامه عن تشاور بين الأب والأم، ونفى عن أي منهما الإثم والحرج إن كان الاتفاق عن تشاور وتراض ومسالمة، فقال: ﴿ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ﴾. فإن تفرد أحدهما بالفطام دون مشورة أو تراض مع الآخر، كان عليه إثم ذلك وتبعاته الجزائية إن حصل به ضرر بالغ للطفل.

كما أن حالات أخرى تفرض الظروف فيها استرضاع غير الأم فرضا، منها حالات مرض الأم أو شح ثديها أو وفاتها، أو سقوط حق المطلقة في الحضانة لأسباب كثيرة مفصلة في فقه الفروع، فيباح استئجار ظئر[83] إلى حين استغناء الرضيع بالطعام عن اللبن، قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُواْ أَوْلاَدَكُمْ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ ﴾ أي لا إثم في ذلك ما لم تظلموا المرضعة ولم تحرموها حقها، وسلمتموها ﴿ مَّا آتَيْتُم ﴾، أي أعطيتم المرضعة ما اتفقتم عليه معها في عقد الإرضاع، ووفيتم بما تعهدتم لها به، وعاملتموها بالمعروف والإحسان، قال تعالى: ﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى ﴾ الطلاق 6،

وكما هو الشأن في كل الأوامر والنواهي الشرعية، إذ يصلها عز وجل دائما بالآخرة ترغيبا وترهيبا، ويذكِّر بأنها عبادة لا يضيع أجرها، وقربة تزكي القائم بحقها، يختم هذه الآية الكريمة بقوله: ﴿ وَاتَّقُواْ اللّهَ ﴾ احذروه فيما فرض عليكم من حقوق وواجبات نحو بعضكم، ﴿ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ لا يخفى عليه من أمركم شيء، يحصيه كله عليكم، ويجازيكم بخيره وشره، قال تعالى: ﴿ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ التوبة 105.

---

82 – عَصَبَةُ الرَّجلِ بفتح العين والصاد لغةً هم بَنوه وقَرابتُه لأَبيه. أما في الفرائض فهم كلُّ الذين يرثون الرجلَ عن كَلالة من غير والد ولا ولد، وكذلك مَنْ لم تكن له فريضةٌ مسماةٌ هو عَصَبةٌ، إن بَقِيَ شيء بعد الفرائض أَخَذ، أما العُصْبَة بضم العين والعِصابة فالجماعة.

83 – الظِّئْرُ بالكَسْرِ مهموزاً: العاطِفَةُ على غَيْرِ ولدِها، الْمُرْضِعَةُ لَه، ج: أَظْؤُرٌ وأَظْآرٌ وظُؤُورٌ.

بهذه الآية الكريمة وقد أوجزت على قصرها بأوضح بيان، مجمل أحكام علاقة معقدة من القضايا الأسروية ذات الأبعاد النفسية والاجتماعية والاقتصادية، وُضِعت لبناتُ مجتمع قوي لا يغبن فيه ضعيف أو محروم، ورُسِمَتْ معالمُ حياة سوية متسالمة متكافلة رشيدة المنهج قائمة بالحق شاهدة عليه وبه. وليس للمسلمين إن أرادوا إقامة أمرهم وإعلاء شأنهم إلا أن يعملوا على تفعيل هذه التوجيهات الإلهية، بوضعها نظما مدونة وقوانينَ ملزمة، في الأسرة والمجتمع ومجال التدبير العام، في البيت والشارع والمؤسسات والمرافق، في مناهج التربية والتنشئة ومقررات المعاهد والجامعات.

المعروف في عدة الوفاة والمتعة

قال الله تعالى: { وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (234) وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاء أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ عَلِمَ اللّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِن لاَّ تُوَاعِدُوهُنَّ سِرّاً إِلاَّ أَن تَقُولُواْ قَوْلاً مَّعْرُوفاً وَلاَ تَعْزِمُواْ عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىَ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (235) لاَّ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاء مَا لَمْ تَمَسُّوهُنُّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدْرُهُ مَتَاعاً بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُحْسِنِينَ (236) وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إَلاَّ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَن تَعْفُواْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلاَ تَنسَوُاْ الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (237) حَافِظُواْ عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّلاَةِ الْوُسْطَى وَقُومُواْ لِلّهِ قَانِتِينَ (238) فَإنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَاناً فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُواْ اللّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ (239) وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعاً إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيَ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (240) وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ (241) كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (242) } سورة البقرة

يواصل الوحي في هذه الآيات الكريمة بناء المجتمع الإسلامي من خلال الأسرة، وهي نواته الأولى التي ينبغي أن تحتفظ بطهرها وصلابتها وقدرتها على تنشئة الآباء الصالحين والأمهات الراشدات، وبناء الأمة الشاهدة, وكما هو الأسلوب

القرآني الحكيم في معالجته لقضايا النفوس والعلاقات يسوق تشريعاته على صرامتها وَحَدِّيَتِها ضمن إشارات واضحة جلية تلين لها القلوب النيرة وترتاح بها النفوس الطيبة، إلى أن توجيهاته عز وجل على إلزاميتها ليست قوانين جافة محدودة الأثر في منازعات وأقضية دنيوية، وإنما هي عبادة تحفظ الود والتعاون على البر والتقوى وتحمي الأمة شر الخلاف، وتعد المنازعات الدنيوية بين المسلمين مجرد أمراض عابرة تعالج فتزول آثارها لتواصل أمة الدعوة والشهادة مسيرتها هادئة رشيدة قاصدة. لذلك نلحظ أن هذه الآيات الكريمة على وَجَازَتِها قد تخللها الأمر بالمعروف الذي هو الإحسان خمس مرات، مع التذكير بأهم ركن للإسلام بعد الشهادتين ينهى عن الفحشاء والمنكر وهو الصلاة في حالتي الأمن والخوف، وكأنما ذلك إشارة أخرى إلى أن المعروف في سائر المعاملات ينبغي أن لا ينصرف عنه المرء لرهبة أو رغبة أو خوف أو طمع.

في هذا السياق وبعد أن استوفى التنزيل تشريع المطلقات وما يجب لهن وعليهن، أخذ في معالجة حالتين أخريين من حالات الفراق في الحياة الزوجية، ينبغي أن تعالجا بما تقتضيه الحكمة والمعروف من أحكام الشرع وتصرفات العقلاء المحسنين، أولاهما فراق بوفاة الزوج ترتبت عليه آثار ترعى الحرمة وتوازن بين واجب الوفاء وبين نداء الفطرة وضرورات الحياة الواقعية والمعاش اليومي، والثانية حل لعقدة النكاح قبل الدخول وقد سمي طلاقا بمقتضى عقد زواج شرعي لم يكتمل بالمعاشرة والمسيس، فترتبت على ذلك أحكام غير أحكام الطلاق بعد زواج مكتمل شرعا بالعقد وعرفا بالدخول.

يبدأ تشريع عدة الوفاة بقوله تعالى: {وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً }، فيخاطب من خلال الأزواج المتوفين، زوجاتهم بعدهم، في لمحة إكرام وتشريف لحق الزوجية والعشرة التي قامت زمنا قبل أن ينقضها الأجل المكتوب.

وقوله تعالى: { يُتَوَفَّوْنَ} بضم الياء، أي تقبض أرواحهم، يقبضها الله تعالى { اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا } الزمر 42، ولهذا المعنى عندما سئل أبو الأسود الدؤلي وكان خلف جنازة: من المتوفي؟ بكسر الفاء، قال: "الله تعالى". كما أن فتح التاء في "تَوفِّيَ " معناه استكمل عمره، لأن أصل التوفية من فعل " وفى الشيءُ " إذا تم، وأوفيته إذا أتممته، قال تعالى: { وأَوفُوا الْكَيْلَ }، ومنه "تُوُفِّيَ فلان وتَوَفَّاه الله" إذا قبضت روحه، و" تَوَفَّى الميتُ" أي استوفى أجله ومدته التي كتبت له، كما تقول: تَوَفَّيْتُ المالَ من فلان واسْتوْفَيته إذا أَخذته كلَّه.

والفعل المضارع "يذرون" بمعنى يتركون، من "وَذَرَ، يَذَر"، وقد أماتت العرب منه صيغ الماضي والمصدر واسم الفاعل، فلا يقال: وَذَر وَذراً فهو واذر، وإنما يقال ترك تركا فهو تارك، وإنما تستعمل العرب منه صيغتي المضارع والأمر، كما قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ } البقرة278.

والمقصود من الأزواج في هذه الآية الكريمة هو النساء، لأن العرب تسمي الرجل زوجا والمرأة زوجا ولا يميز بينهما إلا سياق الكلام، وربما ألحقوا بها التاء المربوطة فقالوا زوجة.

وقوله تعالى: {يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ } أي يتلبثن وينتظرن بدون زواج أو تعرض له بزينة أو خطبة { أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً }، وهي مدة تلتئم فيها جراح مصيبة الفراق بالموت، وتُوفَّى بها الحياةُ الزوجية المنتهية حقَّها من التكريم والتوقير، وتستبرأ فيها الرحم، فإن ظهر حمل امتدت العدة إلى حين الوضع لقوله تعالى: {وَأُوْلَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ } الطلاق 4، وتمكث الزوجة في إحدى العدتين إن حائلا[84] أو حاملا مكرَّمةً في بيت الزوجية يُنفَق عليها من تركة الزوج أو عَصَبَتِهِ إن لم يترك مالا.

بهذا التكريم الذي جعله الله تعالى لها أبطلت عادات وتقاليد سيئة مهينة كانت تعامل بها الأرملة عند العرب وعند غيرهم من أصحاب الديانات الأخرى، وقد كانت الزوجة في الجاهلية إن مات عنها زوجها تغلق على نفسها مكانا ضيقا في بيتها لا تخرج منه ولا تتنظف عاما كاملا، ثم بعد ذلك يرثها أحد أقارب زوجها، وكانت عند الهندوس تحرق مع زوجها أو تستعبدها أسرته طيلة حياتها، وعند اليهود لا عدة عليها ولا نفقة لها ولا ميراث، وتلزم بأن تتزوج من أكبر إخوة زوجها، فإن كان كبيرا وحاضرا فله أن يرفض الزواج بها أو يبتزها باشتراط التنازل عن مالها، وإلا بقيت معلقة طول حياتها. وإن كان صغيرا بقيت معلقة إلى أن يبلغ الثالثة عشرة من عمره، فتزوجها أو رفض الزواج بها وتعرضت للابتزاز في الحالين، وهو ما يعرف لديهم بشريعة الخلافة على الأرامل، وإن كان غائبا في بلد لا يسمح للأرملة بدخوله أو مفقودا لم تثبت وفاته بأدلة إثبات شديدة التعقيد لديهم ظلت معلقة طول حياتها، وإن جاء من يقول لها: مات زوجك ثم تزوجت بآخر، ثم عاد زوجها الأول بعد ذلك، فيجب أن تطلق من الإثنين، ويجب على كل منهما أن يكتب لها وثيقة طلاق، ولا يعطيها أي منهما مؤخر صداقها، ولا عائد أموالها الذى انتفع به، ولا نفقتها، ولا ثمن متاعها الذى استهلك من الاستعمال، وإذا أخذت شيئا من أى منهما فعليها أن ترد ما أخذته، والولد الذى أنجبته من الزوج الثاني، أو من الزوج الأول بعد عودته لا يعد شرعيا.

ثم لما جاء الإسلام ألغى هذه المظالم كلها وحقق بتشريعاته الحكيمة حقوق جميع الأطراف، حق النسل في الحفظ والنسب، وحق الزوجة في الحياة الكريمة الموقرة، وحق الميت في التكريم.

أما حق النسل في الحفظ والنسب فبما قرره للحامل من عدةٍ طيلة حملها وإنفاقٍ عليها وعلى رضيعها، وأما حقها فميراثها من زوجها مدخولا بها أو غير مدخول بها، سمي مهرها أو لم يسمَّ، وعدتها مستوفاة سكنا ونفقة وملبسا وعلاجا، ومكثها في بيت الزوجية وتأخير بيعه أو التصرف فيه من قبل الورثة إلى حين انتهاء العدة، ثم إباحة زواجها حرة غير مجبرة، بمن ترضاه بعد استيفاء أربعة أشهر وعشر إن كانت حائلا، أو بوضع الحمل إن كانت حاملا.

---

84 – امرأة حائل: لم تحمل.

وأما حق الميت فبواجب إحداد زوجته عليه صغيرة كانت أو كبيرة، مدخولا بها أو غير مدخول بها، واحتساب مدة الإحداد بالشهور والأيام بدل احتسابها بالأقراء كما في عدة الطلاق، قطعا لكل تلبيس أو خطأ أو تكاذب يكون مدعاة للنزاع بين زوجة المتوفى وبين أهله وورثته، لا سيما وصاحب الحق الأول في ذلك قد مات وصار حقا لله خالصا.

والإحداد لغة من الحد وهو الفصل بين الشيئين لئلا يختلط أَحدهما بالآخر أَو لئلا يتعدى أَحدهما على الآخر، جعل حدا بين زوجية انتهت بالوفاة وأخرى قد تحدث، وحياة اجتماعية كانت قائمة وأخرى غيرها مدخول فيها. وقد ثبت وجوبه على الزوجة بالكتاب والسنة.

فأما من الكتاب فبورود قوله تعالى { يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً } عامّا في جميع صفات التربص، مكثا في بيت الزوجية وعدم تعطر أو تخضب أو تزين بحلي وغيره أو تعرض للخطاب، وأما من السنة فلما ورد في الصحيحين أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (لايحل لأمرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر وعشرا)، ولا يتعارض هذا مع النظافة والتطهر والاغتسال. كما لا يتعارض مع ما تلجئها إليه الضرورة من خروج لتحصيل حاجة ماسة كطعام أو شراب أو دواء إن لم يكن لديها من يقوم بذلك، على أن تلتزم الحشمة والوقار، وألا تقضي فضل وقتها خارج بيتها أو تبيت في غيره.

ولئن اختلف الفقهاء في أمر الحامل إن وضعت قبل تمام عدة الحائل وهي أربعة أشهر وعشر، لقوله تعالى: { أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُن } الطلاق 4، فذهب الجمهور إلى أنها تخرج من العدة وتتحلل للزواج، حجتهم أن آية سورة البقرة نسخت بآية سورة الطلاق التي نزلت بعدها، لما أخرجه البخاري (عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ قَالَ جَلَسْتُ إِلَى مَجْلِسٍ فِيهِ عُظْمٌ مِنْ الْأَنْصَارِ وَفِيهِمْ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي لَيْلَى فَذَكَرْتُ حَدِيثَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ فِي شَأْنِ سُبَيْعَةَ بِنْتِ الْحَارِثِ فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ وَلَكِنَّ عَمَّهُ كَانَ لَا يَقُولُ ذَلِكَ فَقُلْتُ إِنِّي لَجَرِيءٌ إِنْ كَذَبْتُ عَلَى رَجُلٍ فِي جَانِبِ الْكُوفَةِ وَرَفَعَ صَوْتَهُ قَالَ ثُمَّ خَرَجْتُ فَلَقِيتُ مَالِكَ بْنَ عَامِرٍ أَوْ مَالِكَ بْنَ عَوْفٍ قُلْتُ كَيْفَ كَانَ قَوْلُ ابْنِ مَسْعُودٍ فِي الْمُتَوَفَّى عَنْهَا زَوْجُهَا وَهْيَ حَامِلٌ فَقَالَ قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ أَتَجْعَلُونَ عَلَيْهَا التَّغْلِيظَ وَلَا تَجْعَلُونَ لَهَا الرُّخْصَةَ لَنَزَلَتْ سُورَةُ النِّسَاءِ الْقُصْرَى [85] بَعْدَ الطُّولَى) ولحديث سبيعة في البخاري ومسلم وقد: (قُتِلَ زَوْجُ سُبَيْعَةَ الْأَسْلَمِيَّةِ وَهِيَ حُبْلَى فَوَضَعَتْ بَعْدَ مَوْتِهِ بِأَرْبَعِينَ لَيْلَةً فَخُطِبَتْ فَأَنْكَحَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، وقال عليّ كرم الله وجهه وابن عباس رضي الله عنه جمعا لآيتي سورة البقرة وسورة الطلاق إذ الجمع بينهما أولى من نسخ إحداها بالأخرى: "إنما هذا في المطلقات الحوامل، وأما المتوفَّى عنهن

[85] – يعني بالطولى سورة البقرة وفيها قوله تعالى:{ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً }، وبسورة النساء القصرى "سورة الطلاق" وهي السورة الخامسة والستون من كتاب الله، وفيها قوله تعالى:{ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنّ }، فإن قيل "سورة النساء الطولى" فهي الرابعة من كتاب الله تعالى أي"سورة النساء".

فعدّقمنّ أقصى الأجلين"، أي إما الوضع إن كان أبعد من المدة المقررة للعدة، فإن وضعت حملها قبل ذلك واصلت عدتها إلى حين انقضاء أربعة أشهر وعشر، وهو ما اختاره سحنون من المالكية، ويعضد هذا المذهب في التفسير أن المدة المحددة بالأشهر لعلتين استبراء وإحداد، وأنها واجبة على المدخول بها وغير المدخول بها ولو لم يكن المهر قد تعين قدره، وأن الإحداد كذلك واجب قولا واحدا على جميع الزوجات المتوفى عنهن أزواجهن، سواء في ذلك الصغيرة والآيسة والمسلمة والكافرة، لعموم الآية، والحامل إن وضعت حملها قبل تمام أربعة أشهر وعشر يتعارض زواجها مع وجوب الإحداد، ولما في الصحيحين عن أم سلمة: (جَاءَتْ امْرَأَةٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ ابْنَتِي تُوُفِّيَ عَنْهَا زَوْجُهَا وَقَدْ اشْتَكَتْ عَيْنَهَا أَفَتَكْحُلُهَا؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا كُلَّ ذَلِكَ يَقُولُ لَا ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّمَا هِيَ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ وَعَشْرٌ، وَقَدْ كَانَتْ إِحْدَاكُنَّ فِي الْجَاهِلِيَّةِ تَرْمِي بِالْبَعْرَةِ عَلَى رَأْسِ الْحَوْلِ[86] ، ولحديث فريعة بنت مالك أخت أبي سعيد الخدري وقد قتل زوجها قالت: (فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فذكرْتُ له النقلة إلى أهلي، وذكَرَتْ له حالا من حالها، قالت: فرخص لي، فلما أقبلت ناداني فقال: امكثي في أهلك حتى يبلغ الكتاب أجله).

على أن في الترجيح بين المذهبين أو الجمع بينهما باعتبار وجوب المدة استبراءً وإحدادا معا، أو الجمع بين آيتي البقرة والطلاق أو عدم الجمع بينهما، مجالا للاجتهاد وسعةً لما تعالج به مثل هذه القضايا ويحقق حكمة الشارع ومقاصده ومراميه في حقوق زوجة المتوفى وحرمتها، وحقوق المجتمع وصيانته.

فإذا انقضت العدة بالأشهر أو بالوضع أو بأقصى الأجلين كان أمر الزوجة إليها، تلبس ما شاءت من ثياب أو حلي وتتزين وتتعطر وتتخضب من غير تبرج أو اختلاط بأجنبي عنها، وتتزوج بمن ترضاه زواجا شرعيا بأركانه المعهودة، وليس عليها ولا على أوليائها أو المجتمع كافة أي إثم أو حرج في ذلك، لقوله تعالى: {فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ } والجناح هو الإثم والحرج، أي لا إثم فيما يفعلن إذا لم يخالف أحكام الشرع في المرأة غير المعتدة.

ولأن مآل زوجة المتوفى إلى زواج في غالب الأحيان، فقد تطرق الشرع في هذه الحالة لتنظيمها وضبطها بما يحفظ الحرم والحقوق ويكبح جماح الأهواء، لا سيما والمرأة الخَلِيَّة عادة مطمح للرجال، فقال تعالى فيمن يضمر خطبتها: {وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاء }. والتعريض لغة هو التلويح والتورية والإيماء من غير تصريح أو كشف أو

86 – ترمي بِالْبَعْرَةِ عَلَى رَأْسِ الْحَوْلِ: هذا من عادات عرب الجاهلية إذا توفي الزوج دخلت الزوجة مكانا ضيقا مبتذلا من بيتها ولبست شر ثيابها وامتنعت عن التطهر والاغتسال ولو من حيض، حتى تنقضى السنة فتؤتى بدابة، حمار أو شاة أو طائر تمسح به جلدها، ثم تخرج فتعطى بعرة فترمي بها، ثم لها بعد ذلك ما للنساء من طيب أو زينة أو زواج.

إظهار، أي لا إثم على من ينوي الزواج بها في الإشارة لوليها أو بعض أهلها تعريضا بنيته من دون تصريح في فترة عدتها وإحدادها، كما لا إثم بما أضمر في نفسه من عزم على خطبتها { أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ }.

والخطبة بضم الخاء ما يوعظ به من قول كخطبة العيدين والجمعة، وبكسرها طلب النكاح، كقوله صلى الله عليه وسلم: (لاَ يَخْطُبُ الرَّجُلُ عَلَى خِطْبَةِ أَخِيهِ)، وهي على ثلاثة أقسام:

جائزة تصريحا وتعريضا، في حق من يجوز نكاحها ممن لسن في عصمة أزواج، ولسن في عدة.

ومحرمة في حق من في عصمة الزوجية والمطلقة رجعيا.

وجائزة تعريضا لا تصريحا في حق المعتدة من وفاة زوجها.

ولئن كان التصريح بالخِطبة في العدة علانية محرما، فإن إعلان المرأة ومواعدتها بها سرا أولى بالتحريم لما في ذلك من معان للختل والخيانة لا تخفى على العقلاء، قال تعالى: {عَلِمَ اللّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِن لاَّ تُوَاعِدُوهُنَّ سِرّاً } أي أن صريح مواعدة المعتدة في الوفاة سرا محرم قطعا، وليس لكم { إِلاَّ أَن تَقُولُواْ قَوْلاً مَّعْرُوفاً }، والقول المعروف المباح هو التعريض والتلويح ولطيف الإشارة وخفي العبارة بما لا يخدش المروءة وحرمة العدة والإحداد.

ثم حدد عز وجل زمن التصريح بالخِطبة وإنجاز عقد النكاح فقال: { وَلاَ تَعْزِمُواْ عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىَ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ } أي لا تصمموا على عقد نكاح المتوفى عنها زوجها ولا تنجزوه إلا إذا انقضت العدة المكتوبة واستوفت أمدها ومدتها وأجلها.

والآية بمجملها صريحة في تحريم الخطبة والنكاح في العدة، فإن وقعت المخالفة وعقد امرؤ على زوجة المتوفى في عدتها فسخ النكاح اتفاقا دخل بها أو لم يدخل، فإن دخل بها زيد في مدة العدة استبراء، وحرمت عليه في الحالين حرمة مؤبدة عند مالك وأحمد والشافعي معاملة له بنقيض قصده، بذلك قضى عمر رضي الله عنه, وعند غيرهم له أن يتقدم لخطبتها كسائر الناس بعد انقضاء عدتها لأن الحرمة لا تقوم إلا بدليل من الكتاب والسنة وليس في المسألة شيء من هذا، وقد روي أن عليا كرم الله وجهه أنكر على عمر حكمه فيها وأن عمر رجع عنه، فيما روي عن ابن المبارك عن أشعث عن الشعبيّ عن مسروق قال: بلغ عمر بن الخطاب أن امرأة من قريش تزوّجها رجل من ثَقِيف في عدّتها فأرسل إليهما ففرّق بينهما وعاقبهما وقال: لا تنكحْها أبداً، وجعل صداقها في بيت المال، وفشا ذلك في الناس فبلغ علياً فقال:" يرحم الله أمير المؤمنين ما بال الصداق وبيت المال؟ إنما جَهِلَا فينبغي للإمام أن يردّهما إلى السنة "، قيل: فما تقول أنت فيهما؟ فقال:" لها الصداق بما استُحِلّ من فرجها، ويفرّق بينهما ولا جلد عليهما، وتكمِل عدّتها من الأوّل، ثم تعتدّ من الثاني عدّة كاملة ثلاثة أقراء ثم يخطبها إن شاء". فبلغ ذلك عمر فخطب الناس فقال:" أيها الناس، ردّوا الجهالات إلى السنة ".

وختم عز وجل تشريع عدة المتوفى عنها وخطبتها وزواجها بتهديد صريح حاسم من المخالفة مذكرا بأنه تعالى يعلم خفايا نفوس المعتدات والراغبين في نكاحهن فقال: {وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ} فليحذروا غضبه وعقابه { فَاحْذَرُوهُ } وإن زلت بكم الأقدام فعجلوا بالتوبة والرجوع إلى الشرع الحكيم { وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ } يقابل ذنبكم الذي تتبعه التوبة بالمغفرة والحلم والعفو.

ثم انتقل الوحي الكريم إلى التشريع لصنف آخر من أصناف المفارقة هو طلاق الزوجة قبل المسيس أي قبل الدخول بها بعد العقد عليها، فميز بين حالتين:

أولاهما الطلاق قبل المسيس، وقبل أن يعين قدر صداقها، قال تعالى: {لاَّ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاء مَا لَمْ تَمَسُّوهُنُّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً }، كما في نكاح التفويض مثلا وهو كل نكاح عقد من غير ذكر الصداق، ثم يفرض بعد ذلك الصداق، ولا خلاف في جوازه، والمسيس هو المباشرة دخولا بالزوجة، ومنه قوله تعالى: {قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاء } آل عمران 47، والفريضة ما يجب في الزواج من المهر، فإن طلقها قبل الدخول وقبل تسمية مهرها، فلا إثم عليه من عدم تسمية المهر، ولا عدة عليها، ووجب لها عليه المتعة بالمعروف لقوله تعالى عقب ذلك: {وَمَتِّعُوهُنَّ } والمتعة في هذه الآية عطاء واجب من مال الزوج لمطلقته رفع عطاء آخر واجبا هو الصداق، ثم بين عز وجل مقدار المتعة فقال: {عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدْرُهُ } أي على قدره ومنزلته سعة وغنى أو فقرا وإقتارا، وقد اختلف الفقهاء في تحديد أقلها وأكثرها، إلا أن ذلك منهم تحكم لا يستقر مكانا أو زمانا، لتغير الأحوال الاقتصادية والاجتماعية بين كل شعب وآخر وزمن وغيره، لذلك ترك الله تعالى تحديد مقدار المتعة لظروف وسع الإنسان وطاقته وما تجود به أخلاق التكارم والتعافي والتسامح بين الزوجين. قال ابن عباس:"الرجل يتزوّج المرأة ولم يسمّ لها صداقا ثم يطلقها من قبل أن ينكحها، فأمر الله سبحانه أن يمتعها على قدر عسره ويسره"، وقال مالك: "ليس للمتعة عندنا حدّ معروف في قليلها ولا كثيرها". وفي كل الأحوال هي حق للمطلقة واجب على المطلق، إن أداها كان محسنا وإن تحايل لحرمان الزوجة منها كان آثما مسيئا غير محسن في فعله، لقوله تعالى: { مَتَاعاً بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُحْسِنِينَ } متاعا: مصدر مؤكد لفعل الأمر في قوله تعالى: { وَمَتِّعُوهُنَّ }، كان به حكم المتعة واجبا { حَقّاً عَلَى الْمُحْسِنِينَ } وجب عليهم بمقتضى ما يفرضه إحسان الطاعة لأمر الله تعالى. قال عز وجل: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا } الأحزاب49.

فإن لم يطلق الزوج ومات قبل المسيس وقبل تسمية الصداق فلها صداق المثل والميراث وعليها العدة، عند الشافعي وأبي حنيفة خلافا لمالك، حجتهما ما أخرجه النسائي صحيحا عن ابن مسعود (أنه سئل عن رجل تزوج امرأة ولم يفرض لها صداقا ولم يدخل بها حتى مات، قال ابن مسعود: لها مثل صداق نسائها لا وكس ولا شطط، وعليها العدة ولها الميراث،

فقام معقل بن سنان الأشجعي فقال: قضى فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم في بروع بنت واشق – امرأة منا – مثل ما قضيت، ففرح ابن مسعود رضي الله).

أما الحالة الثانية من حالات الطلاق قبل المسيس فهي أن يكون الزوج قد سمى الصداق وعين قدره، وفيها يقول تعالى: { وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ }، أي إن كان الطلاق بعد فرض الصداق وقبل المسيس، فلها نصف الصداق لما لحقها في حل عقدة النكاح من أذى.

وختم عز وجل أحكام الطلاق قبل المسيس وقد أمر بالإحسان إلى المطلقة قبل فرض الصداق بالمتعة وبعد فرضه بنصفه، داعيا المطلق والمطلقة إلى حسن التصرف بالتعافي والتسامح، حفاظا على أصل المودة الواجبة بين عموم المسلمين لا يكدرها خلاف قد يعقبه صلح وألفة، أو نزاع طارئ قد تهدأ شِرَّتُه، فقال تعالى: {إِلاَّ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ } أي أن للمرأة أن تعفو فتتنازل عن حقها في نصف الصداق، وللرجل أيضا – وهو الذي بيده عقدة النكاح – أن يدع الصداق كاملا لها، والتعافي في هذه الحالة أقرب للتقوى والعمل الصالح { وَأَن تَعْفُواْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى }، ثم توج هذا التشريع الحكيم بنصيحة تحفظ تماسك المجتمع المسلم وكيانه فقال عز وجل: {وَلاَ تَنسَوُاْ الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ }.

قال الشافعي: " فجعل الله للمرأة فيما أوجب لها من نصف المهر أن تعفو، وجعل للذي يلي عقدة النكاح أن يعفو، وذلك أن يتم لها الصداق، وبين عندي في الآية أن الذي بيده عقدة النكاح الزوج وذلك أنه إنما يعفو من له ما يعفوه "، ثم ساق الكلام إلى أن قال: " وحض الله على العفو والفضل، فقال: { وَأَن تَعْفُواْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلاَ تَنسَوُاْ الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ } "، قال: " وبلغنا عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه أنه قال: الذي بيده عقدة النكاح الزوج ". وقال الإمام على كرم الله وجهه فيما رواه البهقي في الكبرى:(سيأتي على الناس زمان عضوض يعض الموسر على ما فى يديه ولم يؤمر بذلك، قال الله جل ثناؤه: {وَلاَ تَنسَوُاْ الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ }، وتنهُد[87] الأشرار ويُستذَل الأخيار ويبايع المضطرون، وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بيع المضطر وعن بيع الغرر وعن بيع الثمرة قبل أن تطعم). ثم حذر سبحانه من نسيان المآل في الآخرة والحساب بين يديه تعالى لأنه عز وجل بصير بما يعملون يجازي المحسن والمسيء كلا بما يستحقه { إِنَّ اللّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ }.

ولا شك أن بالتسامحِ والتعافي وعدم نسيان المعروف والحفاظِ لأهل الفضل على فضلهم، واستشعارِ مراقبة الله تعالى للأعمال وترقبِ المحاسبة عليها في الآخرة تزكو المودة بين الناس وتقوى أواصر التعاون على البر والتقوى والتناهي عن الفحشاء والمنكر، وهو ما يتسق مع التذكير بالصلاة والأمر بها عقب هذه الآيات الكريمة، الحاضة على البذل بين الأزواج في حالتي الوفاق والفراق، وعلى محاسن القول والعمل والسلوك والتكارم بين المؤمنين في كل حال، قال تعالى آمرا

87 – نهد ينهُد بالضم: علا وارتفع وأشرف وبرز.

بالمحافظة على الصلاة وهي من أهم دواعي التربية على هذه الأخلاق الكريمة والكف عما يضادها من الفواحش ومنكرات القول والتصرف: {حَافِظُواْ عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّلاَةِ الْوُسْطَى } أي: واظبوا على أداء صلواتكم وداوموا عليها في وقتها فهي كفيلة ببناء مجتمعكم على المعروف من قواعد العدل وحسن المعاملة والمودة وعظيم الأخلاق ومتين الأواصر والعلاقات كما قال تعالى: {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ } العنكبوت 45، أما الصلاة الوسطى فقد جاء الأمر بها مبهمة ليحافظ المؤمن على الصلوات كلها طلبا لها، وكل دليل ورد في تعيينها صبحا أو عصرا أو غيرهما لا يخلو من مقال. { وَقُومُواْ لِلّهِ } أي قوموا بما فُرض عليكم من الصلاة مخلصين لله، وبما وجب عليكم في حياتكم الزوجية { قَانِتِينَ } أي: خاشعين لله مطعين، لأن القنوت هو الخشوع والتذلل والطاعة ليس فيها معصية، وهو أيضا أداء للصلاة بما لا ما يبطلها من كلام أو التفات أو حركة، إلا ما كان سهوا قليلا أو إصلاحا لها { فَإنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَاناً }، رجالا: جمع راجل خلاف الراكب، مثل قائم جمع قيام، أي في حالة خوفكم وحذركم من خطر عدو أو غيره، فلكم أن تؤدوا الصلاة راجلين أو راكبين حسب ما تيسر لكم، وحيثما كانت وجوهكم، تومئون إيماء، وصلاتكم في هذه الظروف صحيحة لا تبطل بالقتال ولا بترك استقبال القبلة كما هو مذهب الجمهور، فإن ذهب الخوف وحالة الاضطرار فأدوا صلواتكم كما كنتم تؤدونها قبل الخوف، بمثل ما تعلمتموها من نبيكم صلى الله عليه وسلم { فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُواْ اللّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ }. وقد وردت صلاة الخوف في هذه الآية الكريمة موجزة، فلم يذكر عدد ركعاتها، ولا كيفية انقسام المأمومين خلف الإمام فيها كما بينته الآيتان 102/101 من سورة النساء بقوله تعالى: {وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ } وفي الصحيحين (عن صالح بن خوات عمن صلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم ذات الرقاع صلاة الخوف: أن طائفة صفت معه وطائفة وُجاهَ العدو، فصلى بالتي معه ركعة ثم ثبت قائما، وأتموا لأنفسهم ثم انصرفوا فصفوا وجاه العدو، وجاءت الطائفة الأخرى فصلى بهم الركعة التي بقيت من صلاته ثم ثبت جالسا وأتموا لأنفسهم ثم سلم بهم).

ثم بعد انشراح الصدر واسترواح القلب بذكر الصلاة وما تبثه في النفس من طمأنينة يقين وسكينة، يعود الوحي لإتمام أحكام ما يجب للزوجات في حالتي الوفاة والطلاق، فيقول تعالى: {وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعاً إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ }، وتقتضي هذه الآية بظاهر معناها أن وصية الله لعباده واجبة كما في قوله تعالى: { يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ } النساء 4، وأن لزوجة المتوفى حقا من التركة في الإقامة والإنفاق

عليها سنة كاملة في بيت الزوجية، أربعة أشهر وعشرا عدة لها، مكثها واجب عليها، وسبعة أشهر وعشرين ليلة متعة لها وصية من ربها، إن شاءت سكنت وإن شاءت خرجت، لقوله تعالى: {فَإِنْ خَرَجْنَ } بعد استيفائهن عدتهن { فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ } فلا إثم عليهن أو عليكم فيما يفعلن من تزين أو تخضب أو تعطر أو خطبة أو زواج بما لا ينكره الشرع. وختمت الآية بقوله تعالى تهديدا لمن خالف أمره بإنفاذ وصيته بقوله: {وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } عزيز أي غالب قاهر منتقم ممن يخالف أمره، حكيم فيما شرعه من أوامر ونواه ونظم وعلاقات.

إلا أن فقه المذاهب عندما تعرض لهذا الصنف من المتعة بمقارنة الآيات المتعلقة بالحياة الزوجية والأحاديث الواردة فيها ببعضها، ومحاولة الاستنباط منها وتنزيلها على مختلف الأقضية ذهب به التأويل إلى اختلاف شديد يخرج بنا الغوص فيه عن منهج التفسير إلى منهج البحث في فقه الفروع، ولئن كان الغالب في هذه المذاهب أن تحرم المرأة من هذا الحق، فإن للاجتهاد مجالا واسعا يناسب كل عصر بما لا يخرج عن ضوابط الاستنباط الفقهي المشروع.

وتختتم هذه الآيات الكريمة بتعميم حق المتعة على جميع المطلقات بقوله تعالى: { وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ } فصارت المتعة بمقتضى صيغة الأمر فيها بقوله تعالى فيما سبق: { وَمَتِّعُوهُنَّ } وبلام التمليك في قوله تعالى { وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ }، وبوصفها { حَقّاً عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ } مرة، و { حَقّاً عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ } مرة أخرى، واجبة على المطلق لمطلقته، إلا من سمي لها صداقها وطلقت قبل المسيس فلها نصف الصداق، وهو مذهب الإمام علي وابن عمر وسعيد بن جبير وأبو قِلابة والزّهْري وقتادة والضّحاك بن مُزَاحِم، خلافا للمالكية وقد حملوا متعة المطلقة على الندب.

بمثل هذه الآيات التشريعية يبين الله تعالى لنا دائما آيات أحكامه كما يبين آيات خلقه وما يبدع في الكون من دواعي الإيمان واليقين والطاعة عونا للعقلاء على التقوى { كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ }.

العقيدة القتالية في الإسلام: بناء للنفس ونصر على العدو

قال الله تعالى: { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ (243) وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (244) مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً وَاللّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (245) أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُواْ قَالُواْ وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَآئِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (246) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً قَالُوَاْ أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (247) وَقَالَ لَهُمْ نِبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلآئِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (248) فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ قَالُواْ لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُو اللّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (249) وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُواْ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (250) فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (251) } سورة البقرة

بعد أن بينت سورة البقرة قواعد الدين وأركانه ومجملاته، ومناهج حمايته عقيدة وأمة وأرضا، أخذت بنا إلى مجال آخر من مجالات إعادة بناء المجتمع الإسلامي، فكشفت من الفساد قابليته ومنابته وأسبابه ونتائجه ووسائل علاجه والمنعة منه، وأوضحت مفهوم الإيمان والهجرة والجهاد في مدرسة الإسلام، وحذرت من رأس المكاسب الخبيثة خمرا وميسرا لما تغيبه من

العقول وما تشيعه في الأمة من الخمول، ومن أكل أموال المستضعفين والأيتام وخيانة الأمانة، ثم وضعت أسس بناء الأسرة المسلمة، وهي النواة التي ينبغي أن تكون صلبة قوية، ورسمت منهج قيامها بوتقةً رشيدة للأمة أخلاقا سوية وحسنَ معاشرة، وما يحفظ المجتمع حال انفكاكها بالطلاق أو بالوفاة، مقررة للأبناء حقوقهم في التغذية والتنمية والتنشئة السوية في حالي الوفاق أو الفراق.

إلا أن التشريعات وحدها لا تكفي لبناء الأمة الشاهدة الرائدة التي بعثت النبوة المحمدية لتأسيسها، بقوله تعالى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ } آل عمران 110، وقوله: { هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ } التوبة33، وقوله في صفة رجالها: { مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ } الفتح 29. بل إن منظومة القيم الإيمانية والتشريعية التي أصّلها الإسلام مجملة ومفصلة وحدها لا تجدي إن طبقت في مجتمع نفوس أهله خائرة ضعيفة، غاية همها تِبْن في النهار ومنام في الليل، وشهوة منتهزة بينهما.

ذلك أن النفوس المنهزمة وقد آثرت الخبز على العز، وركنت إلى الدعة على مرارتها، والخمول على وضاعته، وذل الخنوع على مخاطر المجد والمعالي، لن تخرج لجهاد قط، ولن تدافع عدوا أبدا، فإن أخرجت قسرا كانت أسرع إلى الفرار من حمر مستنفرة فرت من قسورة، لذلك التفت الوحي الحكيم إلى هذه الحالة يعالج دواخل النفوس بعد أن عالج ظواهر التصرفات والمكاسب والعلاقات، لأن النفوس مكمن الطاقة التنفيذية في المرء، صبرا إيجابيا على المشاق، وصمودا فعالا أمام المحن، وقتالية مدافعة وهجوم في وجه العدو، وقد سئل الإمام علي كرم الله وجهه يوما عن السر في تكبيره عند هجومه على عدوه تكبيرة تنخلع منها القلوب فقال: إنني أقدم على عدوي واثقا بأنني سأقتله، ولديه ثقة بأنني سأقتله، فأكون أنا ونفسه عليه، وعندما عجب عمر لاشتهار سيف القعقاع ولا ميزة له عن السيوف قيل له: ميزته في الذراع التي تحمله, ولعل فشلَ جهود الأحزاب السياسية ومنظمات المجتمع المدني على اختلاف اتجاهاتها الفكرية في رفع الروح المعنوية لدى الشعوب المسلمة المعاصرة، بمحاولة علمنتها تارة ومركستها أو لبرلتها تارة، وفشلَها أيضا في رفع معنويات الحكام وبث روح العزة والمدافعة عن العرض والأرض في نفوسهم، دليل صارخ على عدم جدوى الإيديولوجيات المعتمدة والوسائل المنتهجة، وعلى ما أصاب الأمة من خواء أنفس عمرتها الهزيمة، وفراغ قلوب تحسب كل صيحة عليها.

هذه الحالة المرضية وصفها الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم من قبل، وبين أسبابها ونتائجها في حديثه الصحيح إذ قال: (يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟، قال: بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعَنَّ اللهُ من صدور عدوكم المهابةَ منكم، وليقذفَنَّ الله في قلوبكم الوهن، فقال قائل: يا رسول الله وما الوهن؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت).

لقد وضع الرسول صلى الله عليه وسلم إصبعه على مكمن الداء الذي هو حب الدنيا حرصا عليها وكراهية الموت خوفا وفرارا منها. وقبل ذلك نزل القرآن الكريم محذرا من هذا الداء الوبيل بقوله تعالى: {كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ } القيامة20،

وأرشد إلى علاج النفوس المنهزمة والقلوب الخائرة باستعلاء الإيمان واستشعار الأمن من الله تعالى بحسن الظن به، فقال: {وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } آل عمران، 139، وقال: {وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ } النساء 104.

وعلى صعيد التربية والإعداد بتجربة الصواب ونتائجه والخطأ وعواقبه، ورؤية مقومات النصر وأسباب الهزيمة عيانا، كان النصر المؤزر في غزوة بدر والنفوس مليئة بالإيمان والقلوب مستعلية بهدي القرآن، على قلة العدد وندرة الطعام والشراب والسلاح وشدة الحصار ووعثاء الهجرة، قال تعالى: {وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ } آل عمران 123.

ويوم حنين والمسلمون في أوج قوتهم العددية والعسكرية بعد فتح مكة، وقد داخلهم الإعجاب بالكثرة وموازينها، والاستعلاء بالقوة المادية ومقاييسها، كانت الهزيمة والفرار بادئ الأمر، قال تعالى: { لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ } التوبة25، حتى إذا تلقوا درس التجربة مرًّا، وعرفوا الحق وآبوا إليه، كان العفو عنهم والنصر لهم، قال تعالى: {ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ } 26.

إن الهزيمة في النفس لا تكون إلا لخوف من موت يتصوره الجاهلون فناء واندثارا، واستبدالا لخير أدنى معلوم بمآل مجهول على رغم ما قد يُدَّعَى من الإيمان بالله واليوم الآخر، كما قال تعالى: {قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ } الحجرات 14، ومهما كابر المهزوم أو أنكر فإن تصرفاته تكشف حقيقة نفسه ودخيلة قلبه، لذلك كان أول نصر يحققه المجاهد على عدوه أن ينتصر على الخوف من الموت في نفسه وإلا أصبح أول المهزومين، وكانت أول خطوة في مجال العقيدة القتالية الإسلامية أن يُهْزَمَ الخوف من الموت وأن يعاد بناء الشخصية المؤمنة على الفدائية والاستبسال، والدفاع عن الحوزة والأرض والعرض والدين، احتسابا لله وإيثارا لمرضاته، وثقة بأن الآجال بيده عز وجل.

ولئن سعى الوحي إلى هذه الغاية، فبين في سياقات كثيرة أن الموت حدث طبيعي يذوقه كل من في السموات والأرض، وأن النعيم الأبدي في الجنة ليس له من سبيل إلا الموت، فإنه في آيات هذ الدرس يسير في نفس المسعى ولنفس الهدف، ولكن ليس بالوعظ أو بتجربة الخطأ والصواب كما ألفنا، بل بتجربة الموت نفسه، كي تتأكد المفاهيم وتتضح التصورات، ويُعْلَمَ أن الموت من أمر الله تعالى، يأتي لأجل مضروب وميعاد موقوت، لا تعجل به شجاعة، ولا يؤجله جبن أو فرار. قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَاهُمْ }.

بهذا الإيجاز الموفي بكل ما يراد من الحادثة، يلفت الوحي الأبصار والقلوب إلى حقيقة عقدية تحيي النفوس الخائرة الخائفة من الموت، حقيقة طالما قررتها آيات القرآن الكريم بصيغ وأساليب تناسب ما وردت فيه من سياق، تارة بتقرير أن الموت من خلق الله تعالى كتبه على عباده لحكمة قدرها وأرادها، وما كان من خلقه ليس لبشر سلطان عليه: { الَّذِي خَلَقَ

الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا } الملك 2، { كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ } الأنبياء 35، وتارة بأن له أجلا غير قابل للزيادة أو النقصان: { لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ } يونس49، { فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ } النحل61، { إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } نوح 4، { أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ } النساء 78.

لقد ذكر إحياء الموتى في سورة البقرة خمس مرات، أربع منها لبيان قدرة الله تعالى وعلمه وبليغ صنعه وحكمته، إحداهن في بني إسرائيل وقد لجوا في مجادلة نبيهم موسى عليه السلام فكانت الإماتة والإحياء عقوبة وبيانا لقدرته على معاقبتهم والانتقام منهم، قال تعالى: {وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } البقرة 56/55، والثانية لبيان قدرته تعالى على إخراج مكنون الأنفس وإحياء الموتى بأبسط ما لا يكاد العقل يتصوره، في قصة بقرة بني إسرائيل وقد قتلوا نفسا فكتموا وأنكروا، قال تعالى: {وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } البقرة 73/72، والثالثة في قصة الذي مر على قرية وهي خاوية: {أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ } البقرة259، والرابعة في قصة إبراهيم والطيور الأربعة: { وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } البقرة260.

إلا أن الخامسة كانت لهدف تربوي يصحح التصور الإيماني لحقيقة الموت، ويضفي عليها مسحة واقع حي في قوم فروا منه فأماتهم الله تعالى ثم أحياهم، لينزع من قلوبهم خوف الموت، ويبين لهم أنه مجرد نقلة من حياة إلى حياة، ولن يضيرهم الموت في شيء إنما الذي يضيرهم هو ما بعده، يوم يردون إلى ربهم للمحاسبة والجزاء كما قال تعالى: {قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } الجمعة8.

لقد ورد ذكر حادثة الخروج من الديار موجزا مركزا مجردا عن التفاصيل، فلم تذكر الآية زمنا للخروج، ولا تعريفا بالقوم الذين خرجوا، ولا سببا لفرارهم من الموت، عن وباء أرعبهم أو عدو ذي شوكة هاجمهم، ولا حالهم بعد عودتهم إلى الحياة أو مدى استفادتهم من التجربة، ولم يُرْوَ عن النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك حديث صحيح، لأن هذه التفاصيل والجزئيات لا قيمة لها في تقرير ما يراد من الحادثة، وذكرُها يصرف عن استخلاص الحكمة من إيرادها، ويشغل بالجوانب القصصية والتاريخية عن الاتعاظ والاستفادة منها، ويوقع أحيانا كثيرة في تبني الأساطير والخرافات والإسرائيليات، فتضعف العقول عن الفهم وتكل عن الاستيعاب، وتغيب عن الأفئدة الغاية والهدف من التجربة.

لقد خافوا الموت ففروا منه فأحياهم الله تعالى ثم أماتهم، فعرفوا أن الموت حق، وأنه بيد الله تعالى وحده لا شريك له، لا أثر للفرار منه أو الإقبال عليه في تحديد أجله، وأنه نقلة طبيعية واجبة من عالم الاختبار والابتلاء إلى عالم المحاسبة والجزاء، فإن كان خوف فليكن ليوم الدين من مالك يوم الدين. بهذه المعرفة وهذا اليقين ينهزم في القلوب الخوف من الموت، فتنتصر الحياة الحقة، نصرا في الدنيا بإقامة أمة الخيرية والشهادة، ونصرا في الآخرة حياة عز ونعيم مخلد.

إن الآجال محددة والأرزاق مقدرة، والله تعالى يختار للإيمان به والجهاد في سبيله من يصطفيهم لمحبته وفضله ونعيم جنته، ولئن كان فضل الله تعالى على الناس مؤمنهم وكافرهم ظاهرا بينا فإنه على الصادقين من عباده أشد وضوحا وظهورا لأنه يشمل الدنيا والآخرة، لذلك عقب عز وجل على الحادثة بقوله: {إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ }، فضله بهدايتهم جميعا إلى الحق، وبتيسيره لمن اختاره ورضيه، وفضله على من قتل في سبيله، إذ خفف عنه محنة القتل فجعله أقل إيلاما من قرصة يقرصها، وأبدل الشهيد حياة خيرا من حياته وأبقى وأعز وأنبل، قال تعالى: { وَإِنَّ الدَّارَ الْآَخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ } العنكبوت64، وقال: { وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُون فَرِحِين بِمَا آَتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } آل عمران 170/169. وقال صلى الله عليه وسلم: (الشهيد لا يجد مس القتل إلا كما يجد أحدكم القرصة يقرصها)، وقال الإمام علي كرم الله وجهه:" أيها الناس إن لم تقتلوا تموتوا، والذي نفس ابن أبي طالب بيده لألف ضربة بالسيف أهون من ميتة على الفراش".

الموت حق، أما الخوف منه فمجرد غبش يعتور التصور الإيماني ويشاغب عليه، له أحد ثلاثة أسباب، حرصٌ على شهوة نفس ولذة مطعم ومكسب أموال يحمل المرء على التشبثِ بالحياة واهتبالِ فرص التكاثر فيها، ونسيانِ الآخرة وإهمالِ شأنها، أو جهلٌ مطبق بما بعد الموت من حياة أخرى خلودا في الجنة أو في النار، أو خوفٌ من آثام قدمها ومظالم ارتكبها. فإذا تدبر واعتبر عرف أن هذا الخوف في حقيقته خوف مما بعد الموت، وليس خوفا منه، علاجه المعرفة والتوبة واستعظام ما عند الله من خير يرجى وعذاب يخشى، قال ابن عباس رضي الله عنه: "ما أحد إلا والموت خير له، لأن الله تعالى قال في الأخيار: {لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ } آل عمران198، وقال في الأشرار: {وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ } آل عمران178.

إن المرء لا يستطيع أن ينتصر على نفسه وهواه، أو أن يحقق نصرا على عدوه ما لم يهزم الخوف من الموت، وكذلك قادة الأمة وساستها، إن لم يهزموا في قلوبهم الخوف من الموت والحرص على الحياة، فلن يقودوا أمتهم إلا إلى الهزيمة والخنوع المذل للعدو. وكم من شعوب صادقة متوثبة للنصر والدفاع عن الحوزة يقودها جبناء ألفوا السلامة وتمسكوا بها على

وضاعة وذلة وخضوع، فكبلوا شعوبهم عن طلب المعالي والسعي للحرية والانعتاق، وكم من قادة لديهم من مقومات النصر ما ليس عند غيرهم ولكنهم ابتلوا بشعوب لم ترتفع هممها عن مطالب التبن والشعير.

أما الخوف مما بعد الموت فهو سلاح المؤمن في مواجهة الخوف من الموت وهزيمته. إنه سبيل الفوز والنجاة بين يدي الله تعالى: {أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآَخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ } الزمر9، وحري بمن شاهد بعينه أو ببصيرته أو علم من مصدر يقين هو القرآن الكريم بقوم فروا وهم ألوف من الموت فأماتهم الله بواحدة كلمح بالبصر ثم أحياهم بيسر وسهولة في لحظة خاطفة، أن يصرف عقله وقلبه عن الخوف من الموت في جميع حالات السلم والحرب ومواجهة العدو ومدافعته، إلى التفكير في الدنيا وما عمل فيها والآخرة وما أعد لها، وأن يستجيب لداعي الجهاد في سبيل الله غير هياب ولا متردد ولا متقاعس.

لقد وردت هذه الآية الكريمة لتؤكد في مشهد حي متحرك حالة من حالات الهزيمة النفسية مقرونة بعلاجها، وتوضح بجلاء مبدأ هو الركن الركين في العقيدة القتالية الإسلامية، بدونه لا يقوم للأمة أمر ولا ترفع لشعارها راية، فكانت بمضمونها وإشاراتها أعظم آية في الحث على الجهاد وأقوى قاعدة وأثبت منطلق وأوضح توطئة لما جاء بعدها من أمر بالقتال في قوله تعالى: { وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ }. ذلك لأن الإنسان إذا علم أن فراره من الموت أو القتل لا ينجيه، وأن أجله لا يزيد ولا ينقص، وأنه بيد الله عز وجل لا سبيل لمخلوق عليه، هان عليه قراع الحروب، والتقدم في ميدان المعركة، ومبارزة الموت موقنا أن اقتحامها طريق إلى النصر، وأن النصر كله بيده عز وجل وهو القائل: { وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } الأنفال10، يهب نصره لمن يستحقه، هو العزيز الغالب في ملكه، الحكيم في عطائه ومنعه. {وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } يسمع ما تكتمون من قول ويعلم ما تسرون من نوايا وأعمال، وما تضمرون من إقبال على الجهاد صادقين أو خوف من الموت فُرَّارًا جزعين.

ثم أتبع عز وجل أمره بالقتال أمره الثاني بإنفاق الأموال لنفس الغاية والهدف فقال: {من ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللّهَ }، والقرض اسم لكل ما يلتمس عليه الجزاء، ومنه تقارض الرجلان الثناء إذا أثنى كل واحد منهما على صاحبه، والله تعالى غني عن العالمين، وما هو إلا مَثَلٌ لتقديم العمل العاجل طلباً للثواب الآجل، عبر عنه بالقرض تلطفا في استدعاء المؤمن إلى الإنفاق، والمراد به حسب سياق هذه الآيات الكريمة بذل المال جهادا في سبيل الله تعالى، {قَرْضاً حَسَناً } أي مالا حلالا طيبا بإخلاص ورضا نفس، {فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً } فيضاعف أجره وجزاءه أضعافا كثيرة لا يعلم عددها إلا الله تعالى، قال عز وجل: {مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ } البقرة261. {وَاللّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ } أي يقتر الرزق على من يشاء من عباده، ويوسع على من يشاء، {وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } فتحاسبون وتجزون بما كنتم تعملون.

وقد روي صحيحا أن هذه الآية لما نزلت (قال أبو الدحداح الأنصاري: يا رسول الله، وإن الله عز وجل ليريد منا القرض؟ قال: نعم يا أبا الدحداح، قال: أرني يدك يا رسول الله، فناوله يده، قال: فإني قد أقرضت ربي عز وجل حائطي، قال ابن مسعود: وحائط له فيه ستمائة نخلة، وأم الدحداح فيه وعيالها، قال: فجاء أبو الدحداح فناداها: يا أم الدحداح، قالت: لبيك، قال: أخرجي فقد أقرضته ربي عز وجل). وقال صلى الله عليه وسلم: (يَنْزِلُ اللَّهُ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا لِشَطْرِ اللَّيْلِ أَوْ لِثُلُثِ اللَّيْلِ الْآخِرِ فَيَقُولُ مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيب لَهُ أَوْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ ثُمَّ يَقُولُ مَنْ يُقْرِضُ غَيْرَ عَدِيمٍ وَلَا ظَلُومٍ).

إن للجهاد في سبيل الله شقين متكاملين انتظمتهما هذه الآيات الكريمة، بذل النفس وبذل المال، لذلك وردا معا متلازمين في كثير من آيات القرآن الكريم، واعْتُبِرَ البخلُ بالإنفاق على الجهاد هلاكا للأمة، قال تعالى: {وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ} البقرة 195، وقال: {وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ } التوبة 41،وقال: {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ } التوبة111، وقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } الصف 11/10.

وبعد أن استدعى الوحي ذاكرة الرسول صلى الله عليه وسلم ومن اتبعه إلى الاعتبار بتجربة الذين خرجوا من ديارهم حذر الموت على وَجَازَتِها، وبنى عليها الأمر بالجهاد والإنفاق في سبيل الله، التفت إلى التذكير بتجربة أخرى أكثر تفصيلا، هي تجربة بني إسرائيل من بعد موسى إذ ضعفوا بعد قوة، وذلوا بعد عز ورفعة، وانحرفوا عن تعاليم التوراة، فغلبهم أعداؤهم ونهبوا مقدساتهم، واستباحوا أعراضهم، فانتفضوا في صحوة ضمير وإيمان لاسترجاع الكرامة المداسة والعرض المهان والمقدسات المنتهبة والحرية المفتقدة، يذكر الوحي بهذه التجربة لما انبث في تفاصيلها من عبر وعظات وإشارات ومبادئ متعلقة بالتربية الجهادية والعقيدة القتالية اللازمة لبناء المجتمع الإسلامي الجديد، فيخاطب الرسول صلى الله عليه وسلم وكل مؤمن إلى قيام الساعة بقوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ }.

يبدأ الخطاب بسؤال تذكيريٍّ لرسول الله صلى الله عليه وسلم بما علَّمَه ربه من أخبار هؤلاء القوم، وتشويقيٍّ لأتباعه رضي الله عنهم إلى معرفتها والاستفادة منها، فيقول تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ } والملأ هم نخبة القوم وسراتهم، أي: ألم تعلم خبر النخبة المتنفذة من بني إسرائيل { مِن بَعْدِ مُوسَى } بعد زمن موسى عليه السلام بزمن طويل هو الزمن الذي بعث فيه داوود عليه السلام، { إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ } كان بين أظهرهم يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويقيمهم على منهج التوراة، ولم تذكر الآية اسم النبي ولم يرد به خبر صحيح عن الرسول صلى الله عليه وسلم، لأن الهدف من التجربة مضمونها لا التأريخ لها، والمقصود من الآية الترغيب في الجهاد والتحذير من تركه. { ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُّقَاتِلْ فِي

سَبِيلِ اللّهِ }، أقم لنا أميرا أو ملكا تنتظم به كلمتنا ويقودنا لقتال أعدائنا الذين أذلونا وتغلبوا علينا. وكان نظام أمر بني إسرائيل أن تسوس قادتهم وعامتهم الأنبياء، يرشدونهم ويقيمون أمرهم كما قال تعالى: { وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا }، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمْ الْأَنْبِيَاءُ كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ وَإِنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي وَسَتَكُونُ خُلَفَاءُ تَكْثُرُ).

والظاهر من لجوئهم إلى نبيهم أن وعظه لهم قد أحيي في قلوبهم ما خفت من إيمان وما وهن من قوة إرادة، فاسترجعوا وعيهم الغائب وتاقت أنفسهم إلى ما ضيعوه من عز وحرية وتراث نبوة، إلا أن هذا النبي لِمَا علمه من تردد اليهود وانتكساتهم العقدية عبر تاريخهم الطويل منذ عهد موسى عليه السلام، أراد أن يستوثق من صدق عزيمتهم على النهوض من كبوتهم ومقاتلة عدوهم، وأن يميز في موقفهم بين حماسة طارئة لا تفتأ أن تخبو، وبين عزم راسخ ثابت لا يزول، فخاطبهم باستفهام تحذيري عما يتوقع من تصرفاتهم وانهزاميتهم { قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُواْ }، وفعل "عسى" من أفعال المقاربة فيه ترقب وإشفاق، قرأ نافع: عسِيتم بكسر السين في كل القرآن، وقرأ الباقون بفتحها، والمعنى: ألا يحتمل إن استجاب الله تعالى لرغبتكم وفرض عليكم القتال وبعث لكم أميرا يقودكم إليه ألا تَفُوا بشروطه، ولا تصبروا على لأوائه، وأن تفروا منه، ويكون التولي عنه أقرب إليكم من الزحف نحوه والصمود له. فما كان جوابهم إلا أن قالوا: {قَالُواْ وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللّهِ } وهو منهم استفهام يراد به إنكار أن يردهم عن القتال راد، أو يعترض سبيلهم إليه معترض من أنفسهم أو من غيرهم، لأن الداعي إليه شدة ما أصابهم من ذلة وصغار وطرد من الدار والأهل والولد { وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَآئِنَا }، ذلك أن بني إسرائيل بعد موسى عليه السلام تخاذلوا وعصوا الأنبياء ودخلهم الفساد العقدي والسلوكي فسلط الله عليهم الكنعانيين هزموهم واستخلصوا منهم البلاد وسبوا الذرية وسلبوهم التابوت، وهو الصندوق الذي ترك فيه موسى تعاليمه وتعاليم هارون وآلهما العاملين بمنهجهما المتمسكين بسنتهما. وغير خفي من جوابهم أن داعيهم الأول للقتال ذاتي محض، هو الثأر لأنفسهم ممن أخرجهم من ديارهم وسبى ذريتهم، وليس في سبيل الله، من أجل أن يكون الدين كله له عز وجل، مما يكشف ما يعتور تصورهم الإيماني من خلل وغبش.

وباعتراض صارم وموجز عقب عز وجل على دعواهم الثبات في القتال والحرص على مواجهة العدو بقوله: {فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ } طلبوا الإذن لهم بالقتال واستنكروا ما توقعه نبيهم منهم، فلما أمروا به فروا من ميدانه ونكصوا عنه كما هو شأن الجبناء في كل عصر، يطلبون الطعن والنزال خارج ميدانهما ويزايدون رياء وسمعة بدعوى الشجاعة والقتالية، فإذا جد الجد وقيل يا خيل الله اركبي رأيتهم حمرا مستنفرة فرت من قسورة، ولم يثبت للقتال ممن طلبه إلا قليل { إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ } هم الذين نصرهم الله تعالى على العدو، وفي هذه الآية مكمن العظة والاعتبار والتحذير للمسلمين من حال بني إسرائيل في خور نفوسهم ومجادلتهم بالباطل وتركهم الجهاد في سبيل الله، كما أن فيها تقريرا لحقيقة الكثرة الجوفاء

المتخاذلة، والقلة المليئة بالإيمان والإخلاص والثقة بالله، ولذلك ختمها عز وجل بإثبات علمه بالنفوس والتصرفات، وتوعد من يظلمون أنفسهم وأمتهم بترك الجهاد بقوله تعالى: {وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ }.

ثم يعود الوحي إلى متابعة تفصيل ما تحتاجه التربية الجهادية من هذه الحادثة بقوله تعالى: {وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً } أخبرهم النبي أن الله استجاب طلبهم واصطفى منهم طالوت ملكا يقودهم للقتال، وكان طالوت فيهم رجلا فقيرا ليس من بيت يتوارث السيادة والقيادة، لذلك سرعان ما تجلى الخلل في تصورهم العقدي مرة أخرى بفساد مقاييس أحكامهم فقالوا: { قَالُوَاْ أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ }.

إن قيادة الأمة في ميزان الإسلام لا تكون بالتوارث، ولا بالجاه أو المال، ولا بالتكالب على السلطة والتنافس والتحاسد من أجلها، ولكن بالتقوى والطاعة والامتثال لأمر الله، والكفاية والقدرة على القيام بها والصبر على تكاليفها، ولذلك ردهم نبيهم إلى ما غاب عنهم من حقائق الإيمان والتوحيد { قَالَ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ } بين لهم أولا أن الله أمر له بالملك عليهم واصطفاه لهم قائدا، وأمْرُ الله لا يرد، قال تعالى: { وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ } القصص 68، وقال: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ } الأحزاب 36، وزاد فبين فضل طالوت عليهم بما ميزه عز وجل بسطة قوة ووافر علم وحكمة وقدرة على قيادة القتال، وعاتب من يجادل في شأنٍ من أمْرِ الله هو أعلم به وبمن يصلح له { وَاللّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ }.

وكأنما بقي في نفوسهم شيء من الريبة والشك فيما أمرهم به نبيهم، كما هي عادتهم مع جميع الأنبياء من عهد موسى عليه السلام، فأمدهم الله تعالى بالحجة القاطعة الملموسة على صدقه، ورد إليهم ما سلبوه من تراثهم الديني، إذ جاءتهم الملائكة بالتابوت المفتقد يطمئن قلوبهم ويملأها سكينة من ربهم {وَقَالَ لَهُمْ نِبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلآئِكَةُ } وفي ذلك ما يكفي من دلائل الصدق وبواعث الثقة لمن كان مؤمنا حقا { إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ }.

لم يتحرر بنو إسرائيل مما ألفوه من سيئ عادات وعقيم جدال بالباطل، وسوء ظن وغبش إيمان، وعصيان رسل في أي عهد من عهودهم، وقد عرض عز وجل في هذه الحادثة على وجازتها عددا من انتكاساتهم العقدية، أولاها عندما ربطوا جهادهم بالأسباب الذاتية ولم يجعلوه في سبيل الله، وثانيتها باختلال مقاييس اختيارهم لقيادة الجهاد وتسيير شأنهم العام، وغفلتهم عن مقياس الاصطفاء الإلهي والتقوى والعلم والكفاية والقدرة، وثالثتها بنكوص كثير منهم عن القتال بعد أن فرض، والجهاد بعد أن أمر به. فلم يبق مع طالوت إلا قلة منهم، رضيته قائدا، فجَيَّشَهم ثقة منه في الله وخرج بهم إلى ملاقاة العدو.

فلما فصل بهم عن مساكنهم، ومعه نبيهم يأتمر بأمره ويسترشد بهديه، أراد مرة أخرى أن يستوثق من صلابتهم وقدرتهم على التحمل والانضباط والطاعة، وصمودهم في مواجهة خصاص الحاجات وصبرهم على افتقاد الضرورات، لا سيما وهم جيش أمة مُغلَّبة مقهورة ألفت الخنوع والذلة للكنعانيين الأقوياء الغالبين، قال تعالى: {فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ} مخبرا عما تلقاه من النبي الذي يرافقهم: {إِنَّ اللهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ } ممتحن إرادتكم ومختبر عزمكم على القتال بنهر في طريقكم وأنتم عطاش { فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنّي } أي: ليس من جيشي ولا أهل رفقتي وطاعتي وولايتي، وليعد من حيث أتى، { وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ } ومن لم يشرب منه قط أو اكتفى بأخذ غرفة واحدة منه بيده فإنه من جيشي، يواصل معي مسيرة الجهاد في سبيل الله، إلا أن أكثرهم شربوا وارتووا، فكانت الانتكاسة الرابعة في هذه المسيرة { فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ } ولم يبق مع طالوت إلا عدد قليل ورد ذكره في حديث صحيح أخرجه البخاري وأحمد والترمذي عن البراء قال:"كنا نتحدث أن أصحاب بدر يوم بدر كعدة أصحاب طالوت ثلاث مائة وثلاثة عشر رجلا "

فلما جاوز طالوت النهر مع من بقي معه ورأوا جيش عدوهم رأي العين جفل بعضهم وذعروا من قوة جالوت وجنوده، { فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ قَالُواْ لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنودِهِ } أي قالت طائفة منهم ممن يغلب على طبعه الجزع والخوف من الموت: لا قدرة لنا على مواجهة جيش جالوت وقوته، وقالت طائفة أخرى ممن كانوا أقوياء القلوب والإرادة والعزم على صدق القتال والتصميم على لقاء العدو: {قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُو اللهِ } الذين يظنون أي: الذين يوقنون بأنهم ملاقو الله تعالى يوم الدين ولا يبالون بالموت في طاعة الله تعالى، أطلق لفظ الظن على اليقين على سبيل المجاز لتأكيد الاعتقاد، لما بين الظن واليقين من تقارب المعنى { كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ }. لقد اتضحت الرؤية الإيمانية لدى هذه الفئة فتخلت عن ميزان الأرض والطين كثرةً عددية وشاكيَ سلاح، وتبلورت في قلوب أهلها مقاييس إيمانية ترتفع بهم إلى مراقي المدد الإلهي الذي هو مصدر النصر والغلبة والتمكين والاصطفاء الرباني لأهل الريادة والقيادة والخلافة في الأرض، فمثلهم في موقفهم من جيش طالوت كمثل أهل بدر إذ قال لهم ربهم عزوجل: { بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ } آل عمران 126/125.

وعندما التقى الجيشان تجلت المفاصلة العقدية في أشد صورها وضوحا، معسكر إيمان لا كفر فيه، ومعسكر كفر لا إيمان فيه، إيمان يقاتل كفرا، وصلاح يدفع فسادا، طائفة تستنصر ربها وتستمد منه العون والثبات، وأخرى كافرة مستعلية بقوتها المادية مغرورة بكثرتها مزهوة بما سلف من انتصاراتها، {وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ} استفتحوا جهادهم باللجوء إلى الله ضارعين إليه بثلاث دعوات هن أسباب النصر: أن يفرغ عليهم صبرا من عنده يتحملون به سعير الحرب وشدتها { قَالُواْ

رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً }، وأن يثبت أقدامهم في مواجهة العدو فلا تهِنُ ولا تولي { وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا }، وأن ينصرهم على أعداء الله وأعدائهم، جالوت والكنعانيين الكفرة { وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ }.

بهذه النخبة المؤمنة القوية التي استصفاها طالوت من بين ضعف عزيمة وخوف موت وحب دنيا، وبيقينها الراسخ أن النصر بيده تعالى وحده، وبدعواتها الطيبة التي جمعت بين التوسل بربوبيته تعالى والإقرار بالاضطرار إليه والحاجة إلى نصره وتأييده، خاض طالوت معركته.

وبثوابت العقيدة القتالية في الإسلام إيمانا وتوكلا واحتسابا واقتحاما للموت الذي لايقهره إلا الجراءة عليه، ومتحول الوسيلة إعدادا للرجال والمال والأدوات، وخطط الحرب وحسن اختيار وقتها وميدانها، انهزم قوم جالوت شر هزيمة على كثرتهم ووفرة سلاحهم { فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللهِ }.

لم تكن هزيمة المشركين بقوة المسلمين ولا بكثرة عددهم، وإنما كانت بإذن الله وأمره ليُعْلَم أن النصر منه تعالى وحده، وأن المؤمن مجرد غطاء لما يريده عز وجل ويقدره، ليس له من الأمر إلا أن يقوم بما فرض عليه، والله يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد. وكان من عجائب هذا النصر المبين أنَّ قاتِلَ جالوت لم يكن طالوت ولا أحدَ جنوده الأشاوس، بل صبيا يرعى الغنم هو داوود عليه السلام، أرسله أبوه إلى جيش طالوت ليأتيه بأخبار أبناء له ثلاثة في الجيش المؤمن، كما تقول معظم روايات التاريخ، قتله بحجر من مقلاعه، فكان قتل الطاغية المتجبر بأصغر القوم وأضعف السلاح، عبرة للجبناء المتخاذلين وقدوة للشجعان الموقنين { وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ }. ثم آل إليه الملك بعد طالوت واصطفاه عز وجل للنبوة، وعلمه الحكمة وأنزل عليه الزبور وجعله خليفة في الأرض، قال تعالى: {يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ } ص 26، وقال: {وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ } سبأ10.

لم تذكر الآيات الكريمة كثيرا من تفاصيل هذه الواقعة كما هو الأسلوب القرآني في التعليم والتأهيل، ولم تتطرق السنة النبوية الصحيحة إليها، كيلا تنشغل القلوب والعقول بالروايات والأخبار عن العظة والاعتبار، فتتحول آيات الذكر الحكيم عن مسارها التربوي وهدفها العقدي في إعادة بناء النفوس والمجتمعات، وإخراج الأمة الشاهدة وإقامة أمر الله تعالى.

وتلافيا لأن تذهل العقول عن الحكمة من سوق ما تطرق إليه الوحي من خبر الذين فروا من الموت فأماتهم الله ثم أحياهم، وخبر بني إسرائيل وقد صَحَتْ أفئدتُهم للتحرر ودفع أهل البغي والشرك، يعقب عز وجل بتقرير قاعدة الاجتماع البشري في صراع الحق مع الباطل، والإيمان مع الكفر، بقوله: { وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ }، والدفع والدفاع سواء، كلاهما مصدر دَفَع، قرأ الجمهور: "دَفْعُ الله"، وقرأ نافع "دِفَاعُ الله"، أي لولا أن الله يدفع انحراف

البعض باستقامة بعضٍ آخر صالحٍ لفسدت الأرض، وهو نظير قوله تعالى: { وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا } الحج40.

إنه قانون التدافع، صراع الخير والشر، الصلاح والفساد، الحق والباطل، وضعه الله تعالى فضلا منه على الناس ورعاية لهم وتربية { وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ }، قانون التطهر الذاتي للمجتمع البشري، تتحصن به المبادئ والأخلاق، وتحفظ به الأعراض والذمم، يقاوم أهل الحق أهل الباطل، لا يلتقيان على حلول مداهنة يتنازل فيها الحق عن بعض حقه والباطل عن بعض باطله لتنشأ أوضاع وقيم هجينة ملفقة، وإنما تجمعهما فقط ساحة التدافع لقهر الفساد بكل ضروبه وأصنافه، في جميع مجالات الاجتماع والسياسة والاقتصاد والثقافة والعلم والتدبير العام، قال تعالى: { بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ } الأنبياء، وقال: { قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ } سبأ49.

إن قانون تدافع الخير والشر والفضيلة والرذيلة والصلاح والفساد، هو أخطر ضمان تسير به الحياة طيبة نظيفة آمنة، لأن مهادنة المفسدين لا تكف شرهم، بل تزيده طغيانا وتجبرا واستفحالا، ولطالما اكتفى قوم بصلاح أنفسهم وأسرهم وهادنوا الفساد وابتعدوا عنه، فهاجمهم في عقر ديارهم وأبنائهم وذرياتهم، وكما أن المؤمن يرى مكافحة الشر فرضا واجبا، كذلك الكافر والفاجر والفاسق يرون نشر الفساد حتما لازبا، والصراع بين الطرفين هو ميدان المناجزة ومجال المبارزة والمفاصلة { وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } يوسف21.

وتنتهي هذه الآيات الكريمة وقد قررت مبادئ العقيدة القتالية مستقرأة من حال الذين خرجوا من ديارهم حذر الموت، وحال بني إسرائيل إذ أرهقتهم الذلة والهزيمة وتحكم العدو في أهلهم وبلادهم، وما أمر الله تعالى به عباده المؤمنين في كل عصر ومصر من قتال في سبيله، وما وضعه لهم من قانون لدفع الشر بالخير بُنِيَ عليه نظام الاجتماع، مما يمكن إيجازه في سبعة مبادئ هي قوام العقيدة القتالية في الإسلام:

- النصر بيد الله يهبه لمن يوفي بشروطه.
- القتال لتكون كلمة الله هي العليا لا يداخل نيته شرك خفي أوظاهر.
- الموت نقلة طبيعية لازمة أجلها ثابت، لا أثر للإقدام أو الإحجام في تقديمه أو تأجيله.
- الخوف من الموت أهم عوائق النصر، ولا يكون نصرٌ إلا باقتحام الموت وهزيمة الخوف منه.
- لا يُهزَم الخوف من الموت إلا بالإيمان وطلب ما عند الله تعالى وإيثاره، واليقين الراسخ بأن ما عنده عز وجل خير وأبقى.
- الحق حق والباطل باطل، لا يتهادنان ولا يتصاحبان، ولا ينجبان إن تصافيا أو تهادنا أو داهن أحدهما الثاني إلا مسخا فاسدا أو حالا أشوه هجينا { إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا } فاطر 6.
- الثابت في العقيدة القتالية الإسلامية أن النصر من الله وحده، والمتحول فيها ضروب الإعداد المادي سوقا وتعبئة.

آية الكرسي أعظم آي القرآن
ورسالة الخالق إلى الخلق

قال الله تعالى: ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (252) تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُواْ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا اقْتَتَلُواْ وَلَكِنَّ اللّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (253) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ (254) اللّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (255) لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (256) ﴾ سورة البقرة

عندما أراد الله تعالى خلق آدم وذريته للاختبار بالعبادة في الأرض، هيأ لهم كل أسباب الحياة الهنيئة نعما ظاهرة وباطنة، وسخر لهم الأرض والسماء والشمس والقمر والنجوم، وزودهم بالقوة العاقلة، آلة الاستخلاف المادي في عالم الشهادة والكون المنظور، ونبههم إلى هذه النعم وطرق معرفتها والاستفادة منها فقال: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ البقرة 29، وقال: ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ لقمان 20، وقال: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ الحج46.

إلا أن للحياة الدنيا جانبا آخر غير عالم الشهادة، لا يسع العقل البشري المجرد معرفته، أو التجاوز إليه ومعالجته، إنه عالم الغيب الذي خرج منه آدم إلى الأرض للعبادة والابتلاء، ثم يعود إليه يوم الدين للمحاسبة والجزاء، هذا الجانب الغيبي من الحياة في الأرض تكفل الله عز وجل به منذ أمر بخروج آدم وحواء من الجنة وهبوطهما إلى الأرض، وقال لهما: ﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾ طه123، ﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ البقرة 38.

من ثَمَّ عُلِم أنه لابد من رسالة تكليف تأتي بني آدم من ربهم، ولا بد من مبلغ لهذه الرسالة، وأصبحت العبادة في الحياة الدنيا بذلك مبنية على ثلاثة أركان: وحي هو رسالة الإسلام عقيدة وشريعة، وملائكة كرام يحملون الوحي إلى الأنبياء المصطفين من البشر يتلقونه ويبلغونه، ومرسل إليهم من الجن والإنس.

لذلك نلحظ أن الوحي الحكيم بعد أن بين فيما سبق من آيات سورة البقرة شرائع الإسلام وقواعد الدين ومناهج بناء المجتمع والمحافظة عليه وحمايته والدفاع عنه، وتجارب أقوام سلفت وبقيت عبرة وعظة، التفت جمعا للعقول والأفئدة حول زبدة كل ذلك بإيجازه في أقانيمه الثلاثة، رسل ورسالة ومرسل إليهم، فلا تتيه العقول ولا تلتبس المفاهيم، ولا يضل إلا من اختار الضلال، ولا يشقى إلا من آثر الشقاء، وهو لعمري عين الحكمة من رب الحكمة وخالقها في التربية والتعليم، يبدأ بكليات الحقيقة المرسلة، ثم بتطبيقات جزئياتها وتفاصيلها، ثم يتبع ذلك بموجز لها يحفظ أركانها ويقيم بنيانها، ويبين طبيعة من يبلغها وعاقبة من كلف بها.

يبدأ الوحي في التفاتته هذه بمخاطبة نبيه الكريم صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى: { تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ }. آياتُ اللهِ هي حججه على خلقه، وأدلته على قدرته وحاكميته وواسع علمه وبديع صنعه، يبلغها الأمين جبريل عليه السلام قرآنا طريا نديا إليك يا محمد، يتلوها عليك ويبينها لك حقا وصدقا بأمر ربك { لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ } القيامة 19/16، فلا تبتئس بكيد أهل الكتاب والمشركين أو بمحاولاتهم التشكيك في رسالتك وإنكار نبوتك، وتخذيل أتباعك وفتنتهم، فإنك من جملة رسل الله الذين اصطفاهم لكرامته وطاعته ومرضاته { وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ }، وهو رد حاسم على تكذيب الكفار للرسول صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى { وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا } الرعد 43.

وآيات الله تعالى أيضا هي الكون المنظور مع آيات الكتاب المسطور، جعله تعالى دليلا إلى التوحيد والإيمان ودعا إلى رؤيته بالبصيرة والبصر وتأمله بالقلب والفكر، فقال عز وجل بعد أن ذكَّر بنعمه على المسلمين وهدايته لهم إلى الإيمان بعد الضلال والتقوى بعد التسيب والانحلال: { تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ } آل عمران108، وقال بعد أن ذكَّر بالكتاب المسطور وكتاب الكون المنشور معا: { حم تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ } الجاثية 6/1.

وآيات الله تعالى أيضا هم رسله عليهم الصلاة والسلام، الذين أشار إليهم عز وجل بقوله: { تِلْكَ الرُّسُلُ } بعد تأكيده رسالة محمد صلى الله عليه وسلم بقوله: { وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ }، رسل هداة إلى صراطه المستقيم، وحجج على الخلق، وشهود عليهم يوم الدين، قال تعالى: { إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ } المزمل 15، وقال: { وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ

حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا } الإسراء15، وقال: {رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ } 165 النساء

أول هؤلاء الرسل آدم وآخرهم وخاتمهم محمد عليه وعليهم جميعا أفضل الصلاة وأزكى التسليم، ذكر القرآن الكريم بعضهم ولم تقتض الحكمة الإلهية ذكر بعضهم الآخر كما قال تعالى: { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ } غافر 78، كلهم كوكبة التبليغ عن الله تعالى، بشر مثل بني جنسهم، يعيشون حياة الناس مشاعر وعلاقات، يسعون في الأرض كدحا وإنتاجا لتوفير حاجاتهم مثل بقية الخلق، لا يدّعون تميزا عنهم بغير ما ميزهم ربهم به من الاصطفاء الرسالي، جميع الرسل قالوا لأقوامهم ذلك { قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ } إبراهيم 11، وأُمِرَ محمدٌ صلى الله عليه وسلم أن يؤكد للناس طبيعته البشرية بقوله تعالى: { قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ } الكهف 110، فقال لرجل خافه: (هون عليك فإني لست بملك، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد)، وبيَّن رب العزة علة اختيار الرسل من البشر بقوله: { وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا } الإسراء 95/94.

إلا ان هؤلاء المصطفين الأخيار، كوكبة التبليغ عن الله، لديهم من صفات الفطانة والأمانة وصدق الخطاب والتبليغ وصفاء الفطرة ما يتلقون به وحي ربهم فلا يخطئون فهمه ولا يضلون عن مقاصده، ولا يكتمونه أو يحرفونه، بل يسارعون إلى العمل به في أنفسهم وأهلهم ثم يدعون إليه غيرهم، هم في ميزان الله تعالى إخوة كما قال صلى الله عليه وسلم: (الأنبياء إخوة من علات وأمهاتهم شتى)، يصحح كل منهم ما أفسد الناس من رسالة سلفه ويبشر بمن يأتي بعده، لا تناقض رسالة أحد منهم رسالة الآخر، لأن دينهم واحد هو الإسلام، يكمل التالي رسالة السابق ويوضحها، كما قال صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ إِلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعْجَبُونَ لَهُ وَيَقُولُونَ هَلَّا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ، قَالَ: فَأَنَا اللَّبِنَةُ وَأَنَا خَاتِمُ النَّبِيِّينَ).

وقد دأب رسول الله صلى الله عليه وسلم على تأكيد هذه المعاني بين الناس تواضعا وسلامة قلب وكراهية للتطاول على الأنبياء، كلما سنحت الفرصة وواتت المناسبة، فقال مرة: (لا تفضلوني على موسى) وقال أخرى: (لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متي)، ورد على من قال له: يا خير البرية بقوله: (ذاك إبراهيم).

إلا أن الوحي لحكمة منه تعالى نزل مصرحا بتفاضل الرسل فيما بينهم بقوله عز وجل عقب إشارته إليهم: { تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ }، وقال في الآية الخامسة والخمسين من سورة الإسراء: { وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا } . ولئن كانت النبوة في نفسها خصلة واحدة لا تتفاضل، وكان الأنبياء إخوة أبناء علات، فإن التفاضل بينهم لابد أن يكون بخصائص زائدة على النبوة، صفات أو كثرة أتباع، كما قال الرسول صلى الله عليه

وسلم: (مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ قَدْ أُعْطِيَ مِنَ الآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيا أَوْحَى اللهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعا يَوْمَ الْقِيَامَةِ)، وقال:(يجيء النبي يوم القيامة ومعه الرجل والنبي ومعه الرجلان والنبي ومعه الثلاثة وأكثر من ذلك)، وقال: (عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ فَجَعَلَ النَّبِيُّ وَالنَّبِيَّانِ يَمُرُّونَ مَعَهُمْ الرَّهْطُ وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ حَتَّى رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ قُلْتُ: مَا هَذَا؟ أُمَّتِي هَذِهِ؟ قِيلَ بَلْ هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ، قِيلَ: انْظُرْ إِلَى الْأُفُقِ، فَإِذَا سَوَادٌ يَمْلَأُ الْأُفُقَ، ثُمَّ قِيلَ لِي: انْظُرْ هَا هُنَا وَهَا هُنَا فِي آفَاقِ السَّمَاءِ، فَإِذَا سَوَادٌ قَدْ مَلَأَ الْأُفُقَ، قِيلَ: هَذِهِ أُمَّتُكَ). لذلك أخذ الوحي في تفصيل بعض خصائص الأنبياء عقب تقريره التفاضل بينهم فقال: { مِنْهُم مَّن كَلَّمَ اللّهُ } مثل آدم[88] وإبراهيم وموسى عليهم السلام، { وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ } مثل محمد وإبراهيم وأولي العزم من الرسل، قال صلى الله عليه وسلم بعد أن أعلمه ربه تعالى بأنه أفضل الأنبياء: (فضلت على الأنبياء بست: أعطيت جوامع الكلم ونصرت بالرعب وأحلت لي الغنائم وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا وأرسلت إلى الخلق كافة وختم بي النبيون) وقال: (أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا وأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة وأعطيت الشفاعة)، وقال: (أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَأَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الْأَرْضُ وَأَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ).

{ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ } أي: دلائل نبوته ومعجزاته، ومنها الإنجيل وإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص والمائدة من السماء وغير ذلك، { وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ } بجبريل عليه السلام يشد أزره ويسدده.

وكما هي مشيئة الله تعالى وحكمته في نظام الاجتماع البشري يتلقى الناس بينات العقيدة والشريعة من الرسل عليهم الصلاة والسلام، فيؤمن بها البعض ويكفر بها آخرون، وتبغي الفئة الكافرة على المؤمنة تحاول استئصالها أو ردها عن دينها، فيكون الاقتتال بمقتضى سنة الله تعالى في صراع الحق مع الباطل، وقمع الشر بالخير، ودفع الفساد بالصلاح، وهو ما عقب به عز وجل عند ذكر الرسل وتفاضلهم فيما بينهم بالخصائص والأتباع فقال: { وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ } وهي العقيدة والشريعة، { وَلَكِنِ اخْتَلَفُواْ } اختلفت مواقفهم من الرسالة، { فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا اقْتَتَلُواْ وَلَكِنَّ اللّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ}، ولو شاء الله تعالى لخلقهم على الإسلام ابتداء كما خلق الملائكة، فلم يختلفوا ولم يقتتلوا، قال تعالى: { وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا } يونس99. ولكن شاء أن يختبرهم بالرسالة والرسل، فآمن منهم من آمن وكفر منهم من كفر، وما يريده تعالى في هذه الحالات أن تقوم الفئة المؤمنة برد عدوان الكفرة، وقمع المفسدين الفجرة، تلك سنته عز وجل لأهل الأرض، وقد قال:

---

88 – عن أبي ذر قال: قلت: يا رسول الله أي الأنبياء كان أول؟ قال: " آدم "، قلت: يا رسول الله ونبي كان؟ قال: " نعم نبي مكلم " / قال الألباني صحيح.

{ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ } البقرة 251، وقال: { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ } التوبة 73، وقال: { مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا } الأحزاب 62/61.

إن من طبيعة الرسالات السماوية في كل عصر أن يتعرض مؤمنوها إلى العدوان والظلم وأن يشتط الكفار في محاربتهم، فيضطرون للدفاع عن عقيدتهم وأنفسهم، ومقاتلة عدوهم، والمسلمون المخاطبون بتجارب الأمم قبلهم في هذه الآية وغيرها من آي القرآن الكريم ليسوا بمنأى عن عدوان أعدائهم، فعليهم أن يلزموا جانب الحذر وأن يواصلوا الاستعداد للدفاع عن أنفسهم وأعراضهم وعقيدتهم، بإعداد أدوات القتال، وسد ثغرات الضعف في المجتمع المسلم، تكافلا وتعاونا وقياما بحاجات الفقراء والمحتاجين، لذلك ختم الوحي حديثه عن الصراع الحتمي المرتقب بين أهل الحق وأهل الباطل، بأمر حاسم بالإنفاق في سبيل الله، مقرون بتهديد واضح لمن يبخلون أو يأمرون الناس بالبخل قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاكُم } دفاعا عن الإسلام وأهله، واعلموا أنكم ستحاسبون بأي تقصير أو بخل يوم القيامة حيث لن تنفعكم أموال كنزتموها أو تجارة اقترفتموها.

{ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ } يوم القيامة ليس فيه مفاداة لأنفسكم من العذاب بمال ولو جئتم بملء الأرض ذهبا، قال تعالى: { وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ } الرعد 18.

{ وَلاَ خُلَّةٌ } لا صداقة تنفعكم كما كان عهدكم في الدنيا مع بعضكم، قال تعالى: { الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ } الزخرف67.

{ وَلاَ شَفَاعَةٌ } لا شفاعة للكافر مطلقا يومئذ، أما المسلمون فلا شفاعة لهم إلا بإذنه، تعالى { وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ } الأنبياء28، والخاسر في ذلك اليوم من أتى الله كافرا ظالما عاصيا.

{ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ } الكُفْرُ نقيض الإيمان، والكُفْرُ جُحود النعمة ضِدُّ الشكر، والكفر تغطية الحق وستره، وقد ورد في هذه الآية لفظ { وَالْكَافِرُونَ } مطلقا غير مقيد فدل على أن كل هذه الضروب من الكفر ظلم، كما يعني أيضا أن البخل بالمال والامتناع عن إنفاقه ظلم، لوروده عقب الأمر بالإنفاق مباشرة.

بهذه الآيات الكريمة أوجز الحق تعالى بوضوح تام حديثه عن الرسل عليهم الصلاة والسلام، والمرسل إليهم مطيعين وعصاة، مؤمنين وكفارا، وما يريده تعالى من سنن التدافع وصراع الخير والشر، فلم يبق إلا بيان جوهر الرسالة المنزلة والأمانة المؤداة.

وحيث إن الإسلام الذي هو رسالة الأنبياء والرسل، مبني على عقيدة تنبثق منها شريعة، والعقيدة إيمان بكل ما ورد عن الرسول صلى الله عليه وسلم قرآنا وسنة، وكل ذلك قوامه ومدار محوره على الإيمان بالله تعالى وحده لا شريك له، فقد

توج عز وجل حديثه عن الرسل والمرسل إليهم بجوهر العقيدة كله وهو توحيد الله تعالى، في آية هي سيدة آي القرآن الكريم، لما رواه أبو هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لكل شيء سنام وإن سنام القرآن سورة البقرة وفيها آية هي سيدة آي القرآن)، وهي كذلك أعظم آية فيه لما رواه أبي بن كعب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يا أبا المنذر أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟)، قال: قلت: الله ورسوله أعلم، قال: (يا أبا المنذر أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟)، قال: قلت: { اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ }، قال: فضرب في صدري وقال: (والله ليَهْنِك العلم أبا المنذر)، وروى أحمد والطبراني أنه صلى الله عليه وسلم قال:(البَقَرَةُ سَنَامُ القُرْآنِ وَذُرْوَتُهُ، نَزَلَ مَعَ كُلِّ آيَةٍ مِنْهَا ثَمانُونَ مَلَكاً، واسْتُخْرِجَتْ { الله لا إله إلاَّ هُوَ الحَيُّ القَيُّ‍ومُ } مِنْ تَحْتِ العَرْشِ، فَوُصِلَتْ بِسُورَةِ البَقَرَةِ، وَ" يس" قَلْبُ القُرْآنِ لا يَقْرَؤُها أَحَدٌ يُرِيدُ الله وَالدارَ الآخِرَةَ إلاَّ غُفِرَ لَهُ فاقْرَؤُوها عَلى مَوْتَاكُمْ)، ". وقال عنها الإمام علي رضي الله عنه: "ما أرى رجلا ولد في الإسلام ونبت في الإسلام وأدرك عقله في الإسلام يبيت أبدا حتى يقرأ هذه الآية { اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ } حتى يفرغ من آية الكرسي، تعلمون ما هي؟ إنما أُعْطِيَها نبيكم عليه السلام من كنز تحت العرش لم يُعْطَها أحد قبل نبيكم صلى الله عليه وسلم".

إن عظمة هذه الآية الكريمة تكمن في كونها أعظم مضمونا وأعظم ثوابا وحفظا وأعظم مدلولا ومعنى:

أعظم مضمونا لأنها تضمنت اسم الله الأعظم، وقد روي عن أبي أمامة يرفعه قال: اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب في ثلاث سور: سورة البقرة، وآل عمران، وطه، قال أبو أمامة: فالتمستها فوجدت في البقرة في آية الكرسي { اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ } وفي آل عمران { اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ } وفي طه { وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّوم }.

وأعظم ثوابا وحفظا، لقوله صلى الله عليه وسلم: (من قرأ آية الكرسي في دبر كل صلاة لم يكن بينه وبين أن يدخل الجنة إلا أن يموت، فإن مات دخل الجنة)، وقوله لأبي هريرة: (إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي، لن يزال معك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح).

وأعظم مدلولا ومعنى، لاحتوائها على أشرف العلوم وأعلاها قدرا وأرفعها منارا وأوفرها بركة، ودلالتها على العلم بالله تعالى وصفاته، وعلى أصل التوحيد ونقطة الارتكاز فيه، ومنطلق السعي في طريقه، ومبدأ الأمر في كل أمر جليل، قال تعالى: { قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ } الأنعام91، وعندما قال سفيان بن عبد الله الثقفي لرسول الله صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا بعدك، قال له صلى الله عليه وسلم: (قل آمنت بالله ثم استقم).

لقد انتثرت القواعد الكلية للتصور الإيماني في سياقات كثيرة من القرآن الكريم مَكِّيِّهِ ومَدَنِيِّهِ، ولكنها اجتمعت بإيجاز واضح معجز في آية الكرسي، تضمنته عشر جمل فيها، كل واحدة منها قاعدة كلية لا غنى للتصور الإيماني السليم عنها، ولا يقوم لمنهج الإسلام أمر بدونها.

أول هذه القواعد قوله تعالى: { اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ }، ولفظ { إِلَهَ } بمعنى مألوه يعني المعبود حباً وتعظيماً وطاعة وخوفا ورجاء، وهي صفة أسبغها الكفار من أهل الكتاب والمشركين على غير مستحقيها، أصناما وأوثانا وأشجارا وأحجارا وجنا وملائكة وأنبياء وحكاما. أما آية الكرسي فتنفيها عن غير الله تعالى، وتثبتها له وحده عز وجل، { اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ } وحدانيته سبحانه هي الركن الركين في منهج الإسلام كله، منهجه في الاعتقاد والاجتماع والسياسة والاقتصاد وهي قاعدة التوحيد لدى المؤمن في حياته كلها، في كل ضروب معيشته في الأرض ومآله في الآخرة، بها قامت الأرض والسماوات، ومنها تستمد النظم والتشريعات، وإليها تتجه الأعمال والطاعات، وبها تؤسس القيم وتوضع الموازين، وعلى أساسها تتميز النوايا والمشاعر والضمائر، كل ما سواه عز وجل من المعبودات والمرجوات باطل، وكل ادعاء لغيره بها زائف زائل، قال تعالى: { ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلِ } الحج 62، وقال: { قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا } الكهف110، وقال: { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ } الأنبياء25.

وحدانية الله تعالى تنتظم جميع أسمائه الحسنى وصفاته العلى، إثباتا وتنزيها، إثباتا بلا تمثيل وتنزيها بلا تعطيل، إثباتا لكل كمال مطلق، وتنزيها عن كل نقص أو عيب أو عاهة، ونفيا لكل ند أو كفء أو سمي أو شريك أو شبيه، أو ولد أو والد أو ولي من ذل وحاجة. هو الواحد عز وجل لا ثاني له، الأول الذي ليس قبله شيء، والآخِرُ الذي ليس بعده شيء، والظاهرُ الذي ليس فوقه شيء، والباطنُ الذي ليس دونه شيء { هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } الحديد3.

إن قوله تعالى: { اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ } أجمع ما في القرآن الكريم من الأسماء الحسنى والصفات العلى، به تعلقت كل دلائل التوحيد الحق، وبه اتضحت تصورات الإيمان السليم، وعلى أساسه تقبل العبادة، وبه يسأل المرء في قبره، ويجازى يوم العرض والحساب، لذلك كلما ذكرت هذه الآية في القرآن ذيلت بصفة من صفاته تعالى أو بتوجيه عقدي يناسبها، كما في هذه الآيات الكريمة وهي غيض من فيض: يقول تعالى: {لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } آل عمران6، { لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ } الأنعام103/102، { لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ } الأعراف 158، { لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ } التوبة31، { لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } القصص88، وفي سورة الحشر ترادفت بعدها بأسلوب في غاية الرهبة والعظمة والجلال صفات جمعت من أركان الإيمان ما لم تجمعه آية بعد آية الكرسي، قال

تعالى: { هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } الحشر 24/22.

لقد ترادف في آية الكرسي بعد كلمة التوحيد، مِنْ صفات الجمال والكمال والتنزيه ما جعلها حقا سيدة آي القرآن وأعظمها، وكانت صفتا الحياة والقيومية أولى وأنسب للوحدانية المطلقة أولا، تلتها الصفات الأخرى الواردة بعدهما، قال تعالى: { اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ القَيُّومُ }.

{ الْحَيُّ } ذو الحياة الكاملة الأزلية الأبدية من حيث الوجود، والصفات الكاملة من حيث الإثبات والتنزيه، صفاته تعالى كلها كاملة، وتنزيهه عن كل نقص واجب، بقاؤه تعالى لا أول له بحد، ولا آخر له بأمد، حياته عز وجل مطلقة، وذاته لا سبيل للفناء إليها، { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ } الشورى11.

{ الْقَيُّومُ } على وزن فيعول، أصلها قيووم، أبدلت الواو الأولى التي هي عين الكلمة ياء ثم أدغمت في الياء التي قبلها، فأصبحت "قَيُّوم"، صيغة مبالغة من فعل "قام"، أي القائم بنفسه، المقيم لغيره على الدوام على أعلى صفات القيام والإقامة، دائم القيام بتدبير الخلق وحفظهم وحياطتهم ورعايتهم وإحيائهم وإماتتهم، معطيهم ما به قوام حياتهم في الدنيا ونجاتهم في الآخرة، قال تعالى: { رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى } طه50، وقال: { أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ } الرعد 33.

{ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ } السِّنَةُ: استرخاء مقارب للسهو يتقدم النوم المستغرق، من الوسن وهو الغفلة والغفوة، والجملة كلها سلبية، تؤكد قيامه عز وجل على تدبير شؤون خلقه قياما كاملا مطلقا، وتنزهه تعالى عن السنة والنوم، لأن النوم يغلب النائم ويشغله عن التدبير، والله عز وجل تعالى عنه علوا كبيرا.

{ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ } تقرير لانفراده عز وجل على سبيل القصر بالملكية المطلقة الشاملة، دون قيد أو شرط، ليس لغيره فيها شيء معه، ومن كانت له هذه الملكية فحقيق أن تكون له الألوهية، وحقيق أن تكون له القيومية على الوجود. وعندما يقرر الله تعالى حقيقة ملكيته للسماوات والأرض وما فيهن، فإنه يقرر ضمنا حقه في أن يستخلف من يريد في الأرض، وواجب من يستخلفهم في أن يقوموا بهذه الخلافة طبقا لما يريده ويقرره، لأنه هو المالك الأصلي، قال تعالى: { قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ } الأعراف129.

{ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ } قال ابن فارس:"الشين والفاء والعين أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على مقارنة الشيئين"، يقال كان فردا فشَفَعْتُه، والشفاعة في الاصطلاح: التوسط للغير لجلب منفعة، أو دفع مضرة، ومنه شفَعَ فلان لفلان، إذا تدخل منضما إليه ناصرا له ملتمسا مطلبه، واسْتَشْفَعَ بفلان على فلان وتَشَفَّعَ له إِليه فشَفَّعَه، ومنه قوله عليه السلام: (

القرآن شافع مُشَفَّع)[89] ولذلك لم يجز أن يقتحم أحد باب الشفاعة لدى الله إلا بإذنه، لكمال سلطانه وجلاله وعلو شأنه وتمام هيبته، لأن الخلق كلهم- ولو تفاضلوا بما فضلهم به الله- على درجة واحدة من العبودية له عز وجل، واقتحام هذا الباب من غير وجهه الذي هو الإذن، سوءُ أدب سَمْجٌ وجراءةٌ محرمة. قال تعالى: { لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا } مريم87، وقال: { وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى } الأنبياء 28، وقال: { يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا } طه109، والرسول صلى الله عليه وسلم وهو سيد ولد آدم، وقد وعد بالشفاعة في أمته، ليس له أن يقوم بها يوم القيامة ما لم يؤذن له، جاء من حديث طويل للبخاري عن أنس أن الناس يوم القيامة يموج بعضهم في بعض، فيأتون رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألونه الشفاعة، فيقول:(أَنَا لَهَا فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي فَيُؤْذَنُ لِي وَيُلْهِمُنِي مَحَامِدَ أَحْمَدُهُ بِهَا لَا تَحْضُرُنِي الْآنَ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ وَأَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا فَيَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ وَسَلْ تُعْطَ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيَقُولُ: انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مِنْهَا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ شَعِيرَةٍ مِنْ إِيمَانٍ، فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ، ثُمَّ أَعُودُ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ وَسَلْ تُعْطَ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيَقُولُ: انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مِنْهَا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ أَوْ خَرْدَلَةٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجْهُ، فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ، ثُمَّ أَعُودُ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا فَيَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ وَسَلْ تُعْطَ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيَقُولُ: انْطَلِقْ فَأَخرِجْ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَدْنَى أَدْنَى أَدْنَى مِثْقَالِ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجْهُ مِنْ النَّارِ، فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ) وزاد الحسن في نفس رواية البخاري أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (ثُمَّ أَعُودُ الرَّابِعَةَ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ وَقُلْ يُسْمَعْ وَسَلْ تُعْطَهْ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ ائْذَنْ لِي فِيمَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَيَقُولُ: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي وَكِبْرِيَائِي وَعَظَمَتِي لَأُخْرِجَنَّ مِنْهَا مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ).

أما قوله تعالى: { يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء } فتقرير لصنفين من العلم، مطلق علم الله تعالى، ومحدود علم غيره، علمه عز وجل يشمل حاضر الخلق وماضيهم ومستقبلهم، دنياهم وآخرتهم، ما كان وما يكون { عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ } سبأ3، أما علم جميع المخلوقات جنا وإنسا وملائكة وغيرهم فمحدود مقيد بمشيئته تعالى، يكشفه لهم بقدر حاجتهم إليه في كل زمان ومكان، إن كان من أمر الدين فقد بلغه الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وإن من

89 – القرآن شافع مشفع وماحل مصدق من جعله إمامه قاده إلى الجنة ومن جعله خلف ظهره ساقه إلى النار/ صحيح: السلسلة الصحيحة للألباني.

أمر الدنيا فبما أودعه تعالى في العقول والإرادات من حب استكشاف واستقصاء، قال تعالى: { سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ} فصلت 53

{ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ } أما حقيقة الكرسي فقد احتفظ الله تعالى بها في ضمير الغيب، فلم يبين لنا من ذلك إلا ما نحن في حاجة إليه وهو قدرته على خلق ما هو أكبر من السماوات والأرض، والغاية أن تتضح معالم التصور العقدي لدى المؤمن. لقد خاطبه أولا فبين له قدرته على خلق الإنسان في أحسن تقويم بقوله عز وجل: { يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ } الانفطار8/6، ثم بعد أن تدبر من تدبر وعجب من عجب من قدرة الله من عجب، انتقل بنا الوحي إلى قدرته تعالى على خلق ما هو أكثر تعقيدا وغموضا من خلق الأنفس، وهو خلق السماوات والأرض: { لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } غافر57، أما في آية الكرسي فتظهر قدرته تعالى على خلق ما هو أعظم من ذلك بكثير، على خلق الكرسي الذي يسع الأرضين السبع وما فيهن، والسماوات السبع مهما اتسعت وامتدت وعظمت على مر العصور والدهور لقوله تعالى: { وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ } الذاريات47، إن قدرته تعالى مطلقة لا يعجزها شيء { وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} المائدة17، { أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } يس83/81

{ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا } الفعل يؤوده معناه يثقله ويشق عليه، من آدَهُ الأمرُ أي أجهده، والهاء تعود على الله تعالى، أي أن تدبير السماوات والأرض لا يتعبه عز وجل ولا يشغله وهو القائل: { أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} الأحقاف33.

{ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ } علوه تعالى لا في مكان، لأنه منزه عن التحيز، مطلق ليس كمثله شيء، خاص به متفرد به، وعظمته تعالى شاملة في ذاته وسلطانه، مطلقة في ألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته، لا يقدر قدرها أحد مهما أجهد فكره وشحذ عقله { وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ } الزمر67.

وبعد أن بينت آية الكرسي دلائل وحدانية الله تعالى وعظمته وتنزيهه، وطبيعة الدين القيم الذي تقبل عليه القلوب والعقول راضية طائعة، دون جبر أو إكراه، توجت ذلك كله بقاعدة فذة لتنزيل العقيدة إلى أرض الناس على اختلاف مواقفهم سلبا وإيجابا بقوله تعالى: { لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ }.

والإكراه هو حمل الغير على قول أو فعل لا يريده عن طريق التخويف أو التهديد أو التعذيب، من الكره وهو المشقة التي تنال الإنسان من غيره فيما يحمل عليه قسرا، وهذه الآية حجة قاطعة على إبطال الإكراه على الدين بسائر أنواعه،

مناسبة نزولها ما رواه سعيد بن جبير، قال: كانت المرأة تكون مِقْلاة لا يعيش لها ولد، فتجعل عليها إن عاش لها ولد لتُهَوِّدَنَّه، فلما أُجْلِيَتْ بنو النضير كان فيهم أبناء للأنصار، فأرادوا إكراه أبنائهم المتهودين على الإسلام وقالوا: كيف نصنع بأبنائنا؟ فنزلت هذه الآية { لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ }.

إن أمر الإيمان كما في هذه الآية متعلق بالفهم والاستيعاب والاقتناع والاختيار الحر، وهذا يقتضي عددا من الأحكام الشرعية:

منها أنه لا اعتداد في الآخرة بما يفعله الإنسان في الدنيا من الطاعة كرها، لأن الله تعالى لا يقبل إلا ما كان خالصا له وحده وابتغي به وجهه، قال صلى الله عليه وسلم: (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى).

وأن مبنى الدين الذي هو التصديق بالقلب والقول باللسان والعمل بالأركان على الاختيار الحر الذي هو أساس العمل في الدنيا ومناط الثواب والعقاب.

وأن بطلان الإكراه على الدين خاص بالدخول فيه ابتداء، أما الخروج منه بعد الدخول فيه، فله أحكام أخرى، متعلقة بضرورة التمييز بين من خرج منه لغبش اعترى تصوره الإيماني، ومن خرج منه لدنيا يصيبها أو فقر يجد عند الكفار من يدفعه عنه، ومن خرج منه تآمرا وكيدا ونكاية بالمسلمين ومكرا بهم. ولكل حالة من هذه الحالات بعد تمييزها أحكامها في فقه الفروع.

وأن لا اعتبار لمن أكره بأشد أنواع الإكراه على الخروج من الدين بلسانه وقلبه مطمئن بالإيمان، قال تعالى: { مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } النحل106.

والمبنى في هذا كله على أن تُبَيَّنَ حقائقُ الإيمان ومناهجُ الدين لمن يعرض عليه الإسلام، لقوله تعالى عقب ذلك: { قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ } والرشد مصدر رشد يرشد أي اهتدى إلى الحق والرشاد، أما الغي فضد الرشد، مصدر من غوى بفتح عين الكلمة وكسرها، غيا وغواية، أي ضل في معتقد أو رأي أو عمل، أي قد استبانت بآية الكرسي ورسالة الإسلام طريق الهداية من طريق الضلالة، والواجب على المسلمين بمقتضى الآية أن يبينوا للناس الحق من الباطل ويتركوا لهم حرية الاختيار. فإن فعلوا برئت ذمتهم بين يدي الله تعالى. وإن اهتدى من عرض عليه الإسلام فآمن بالله وكفر بعبادة ما سواه، فقد أمسك بالحبل المتين الذي يصله بالصراط المستقيم { فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ }، وأصل الطاغوت من فعل "طغى الشيء يطغى" إذا تجاوز قدره، يقصد به كل مخلوق تجاوز قدر المخلوقية فيه إلى ادعاء الألوهية أو الادعاء له بها، والعروة في هذا السياق مَثل للايمان الذي يعتصم به المؤمن، والحبل الذي يمسك به من يشرف على الغرق لينجو، والوعاء الذي له عروة يمسكه منها صاحبه { لاَ انفِصَامَ لَهَا } أي لا انكسار لها، والمعنى أن من كفر بعبادة غير الله مطلقا، وآمن به عز وجل فقد اهتدى إلى سبيل النجاة واستمسك بها

وثبت عليها، { وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } يسمع أقوالكم سرها وجهرها، ويعلم أعمالكم خفيها وعلنيها { سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ } الرعد10.

وتختم أعظم آية في القرآن الكريم، وقد أقامت الحجة وبينت أصل الدين ومحوره الذي يدور عليه، توحيدا للخالق عز وجل في أسمائه وصفاته وقدرته وتدبيره وحكمته وإحاطة علمه وملكه وولايته، بعد ما تقرر من شأن الرسل عليهم الصلاة والسلام، وتفاضلهم وتميز كل منهم بفضل من ربه، وتميز نبينا صلى الله عليه وسلم عنهم جميعا بالرسالة الخاتمة للناس كافة إلى يوم القيامة وما جبل عليه من خلق عظيم، وما أوتي من آيات وبينات، صلى الله عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين صلاة تامة زكية وسلم تسليما كثيرا.

الولاء وسر الموت والحياة

قال الله تعالى: { اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ وَالَّذِينَ
كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ
هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (257) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللّهُ
الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ
فَإِنَّ اللّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللّهُ
لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (258) أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى
عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىَ يُحْيِي هَذِهِ اللّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ
لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ
وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ
نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ
(259) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى
وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ
جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (260) }
سورة البقرة

عندما تشرق شمس الربيع الدافئة فتنبعث الكائنات اللطيفة فراشات هائمة ونحلات سارحة وعصافير مغردة بين زهور المروج والأودية والآكام والربى، ترشف الرحيق وتتفيأ الظلال، وتمرح في جنات البساتين، ما الذي هاج الشوق فيها وأزاح الغشاوة عنها فرأت ما رأت واستراحت لما وجدت؟

وعندما يغادر الجنين ظلمة الرحم فيصرخ من هول ما خرج إليه، ثم يلتقط ثدي الأم يرشف منه رحيق الحياة، فما يلبث أن تُغَشِّيَه السكينة والطمانينة فيستسلم لنوم الراحة والأمن، ما الذي هداه إلى ما يطمئنه في حضن الأم ولبنها؟

وعندما يُقْرَض المجاهد قرصةَ الشهادة ينتقل بها إلى حياة أرقى وأبقى، فيرى ما يرى من وعد الله، وَوَعْدُه الحق، وترتسم على مُحَيَّاه مهابة الشهداء وابتسامة السعداء، ماذا رأى وكيف رأى؟ وما مصير من لم ير، ومن لم يجد هاديا أو مرشدا كي يرى؟

وعندما يَلِجُّ المرء في حمأة الأرض والطين، ثم في لمحة بصر يناله قبس في ظلمات ليله البهيم، يشرق به قلبه وتنقدح به في كيانه مصابيح الهدى، فينكره الحبيب المحجوب والعدو المنكوب، ويعاديه القريب والقصي، ماذا رأى وكيف رأى؟

إن لله عبادا لهم فطرة تنجذب للنور وتنبعث به وتنجذب إليه مهما ابتعدت عنه، للنور إليهم شوق ولهم إليه اشتياق، بأي تماس بين الطرفين مهما ضعف كان الانجذاب أقوى وأثبت، إنه استلاب الفراشة في نور الشمس نحو الزهرة، وشوق النحلة إلى الرحيق في ضوء النهار، وارتفاع الحجب عن عين الشهيد وهو يرى وعد ربه، وزوال الغشاوة عن ناظر من أدركته رحمة الله المهداة فتاب وأناب وأحسن المثوبة والإياب.

إنه نور الله تعالى يخص به من اصطفاهم لولايته، واختارهم لجنته، لا يُسأل عما يفعل، ولا يُرَدُّ ما قدر، قال تعالى: { قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا } النساء 78، وقال صلى الله عليه وسلم فيما روي عنه صحيحا:(إن الله عز وجل خلق آدم ثم أخذ الخلق من ظهره وقال: هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي وهؤلاء إلى النار ولا أبالي، فقال قائل: يا رسول الله فعلى ماذا نعمل؟ قال: على مواقع القدر)

على مواقع القدر يعمل المؤمن، ولعفو الكريم رجاءً وثقة يسعى، فإن رضي الله سعيَه وبارك جهده، أسكن الطمأنينة قلبه، وسكب اليقين في فؤاده، وأنار دربه و اختاره لولايته ومحبته { اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ}.

إن للولاية لشأنا خطيرا في حياة المرء، خطورتها من معناها الذي هو المحبة والنصرة والرعاية، مجرد خطوات من المرء وقد سمع آيات ربه وتدبر آلاءه، وانجذب إليه، يتلوها سكب النور في القلب، والاختيار للولاية والهداية من الرب، قال تعالى فيما رواه عنه رسوله صلى الله عليه وسلم: (أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً).

أرأيت إن استنصر القوم بضعيف يزيدهم ضعفا، أو بجائع يأكل خبزهم، أو بلص يسرق مالهم، أو بخائن يغدر بهم، أو بصاحب سلطان يمزق دينهم ليرقع به سلطانه؟ فأطبق عليهم ظلام الجهل وحجب عنهم نور المعرفة، ماذا تكون النتيجة وما المآل، ومَنْ غيرُ الله يستنقذهم من وهدتهم، ويوقظهم من غفلتهم؟، {مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ } القصص71

أرأيت إن استنصر امرؤ بصاحب الأمر والشأن بديع السموات والأرض، مالك الدنيا والآخرة وملكها، العليم الخبير {وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} المائدة120، من يستطيع أن يؤذيه والله يحميه؟ ومن يستطيع إضلاله والله يهديه، ومن يستطيع إفقاره والله يغنيه؟ قال صلى الله عليه وسلم:(يا غلام، إني أعلمك كلمات، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك بشيء إلا قد كتبه الله عليك، جفت الأقلام ورفعت الصحف).

إنها ولاية الله تعالى لعباده المؤمنين، حصنهم الحصين وركنهم الركين، { اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ } فمن هم هؤلاء السعداء الذين فازوا من الله بالولاء؟

يعرف رب العزة بهم، وينوه من فوق سبع سماوات بقدرهم وما أعد لهم ويقول: { أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ } يونس64/62. ويعرف بهم الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله: (إن لله عبادا ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الشهداء والنبيون يوم القيامة لقربهم من الله تعالى ومجلسهم منه)، فجثا أعرابي على ركبتيه فقال: يا رسول الله صفهم لنا وجَلِّهِمْ لنا؟ قال: (قوم من أفناء الناس من نُزَّاع[90] القبائل تصادقوا في الله وتحابوا فيه، يضع الله عز وجل لهم يوم القيامة منابر من نور، يخاف الناس ولا يخافون، هم أولياء الله عز وجل الذين { لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ }). إن لهم صفتين، تشملان دخيلة أنفسهم ونواياهم وظاهر أعمالهم وتصرفاتهم، الإيمان والتقوى، صفاء الاعتقاد وصواب العمل، صنوان يأبى الله تعالى أن يقبل أحدهما بدون صنوه { الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ }.

أما الإيمان فأن يؤمن المرء بكل ما جاء به نبي الله محمد صلى الله عليه وسلم، قرآنا وسنة، به يخرج من ظلمات الجهل والعماية إلى نور المعرفة والدراية والهداية، قال تعالى: {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ} إبراهيم1، وقال: {رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ} الطلاق 11. وقال صلى الله عليه وسلم عندما سئل ما الإيمان: (أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ).

الإيمان قولٌ وعمل، بالقلبِ واللسانِ اعتقادا وإقرارا ونية وتسليما وإخلاصا وحبا واختيارا وطاعة، وبالجوارح قياما بما أمر الله تعالى واجتنابا لما نهى عنه وبعدا عن كل ما لا يرضاه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَة، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لاَ إِلَهَ إِلا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شعبة مِنَ الإِيمان)، قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: (الإيمانُ قولٌ وعمل، يزيدُ وينقص، يزيدُ بالطاعة وينقص بالمعصية)، ثم تلا: {وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا} المدثر 31.

أما التقوى فأن يخشى المرء الله تعالى، ويخاف عاقبة عصيانه، ويحاذر كل ما لا يرضاه من قول أو عمل أو سوء قصد، يتقي المعاصي فيبتعد عنها ويجتنبها، ويجعل بينها وبينه بولائه لله حاجزا يحميه من الوقوع فيها. ومن استجمع شرطي

90 – النُّزَّاع من القبائل جمع نازع، وهو الغريب الذي نزع عن أهله أي بعد وغاب، وفي الحديث الصحيح: قال صلى الله عليه وسلم:(إن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا فطوبى للغرباء قيل: ومن الغرباء؟ قال: النزاع من القبائل)

الإيمان والتقوى كان من أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، قال تعالى: { وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ} الزمر73.

بهذين الشرطين وحدهما تكون ولاية الله للمؤمنين، وتشمل من استجمعهما من جميع فئات الأمة، نساء ورجالا، عمالا وصناعا وتجارا وحرفيين وعلماء وحكاما، يخرجهم ربهم تعالى في كل أمر من الضلالة إلى الهدى، وفي كل حال من ظلمة الجهل إلى نور المعرفة { يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ}، ويؤويهم في الجنة إنْ آبوا إليه ورجعوا { وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ} محمد6.

أما غيرهم ممن جحد الإيمان واقتحم الكفر بقلبه أو لسانه أو عمله فله شأن آخر غير شأن أولياء الله المؤمنين الأتقياء، قال عز وجل: { وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ}، والطاغوت في سياق هذه الآية هو الشيطان وأولياؤه من الجن والإنس والأصنام والأوثان والأوهام والطواطم والحكام، وكل من جُعِل ندا لله أو شريكا. فهل لمن والى المهزومين من نصر؟، وهل لمن استعان بالعاجزين من قوة؟، وهل لمن انحاز لأعداء الله من نصيب في رضاه؟، إنه ليس لهم من هذا الولاء الذي اختاروه وارتضوه إلا الخسران، وأول الخسران وأخطره أن يخرجوا عن نور الفطرة التي خلقوا عليها، وأن تنصرف أفئدتهم وعقولهم وأبصارهم عن نور آيات الله في كتابه المسطور، وكونه المنظور، إلى ظلمات الضلالة وعتمات الغواية، { يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ } ومآلهم يوم الدين خلود في النار قال تعالى: { أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} وقال: { وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ} الزمر71.

إن الإيمان والتقوى إذا بلغا في قلب المرء مبلغ اليقين، استشعر عظمة الله تعالى وقوته، وارتفع بما لديه من ثقة بربه، عن سفساف الحياة، واهتمامات الوهاد والقيعان، واستعلى على جميع طواغيت العصر والمصر، واستصغر ما يدعيه الظالمون لأنفسهم من القوة والعظمة والسيادة، لأن قوتهم موصولة بالوهن والهزيمة وسيادتهم معلقة بالوهم والفناء، أما قوته مهما ضعفت فموصولة بقوة ربه المطلقة التي لا تقهر، وسيادته منبثقة من عزة الإيمان ورؤية الإحسان وقربه من الرحمن.

هذه القوة الربانية والسيادة الإيمانية هي طاقة المواجهة والتحدي في موقف إبراهيم عليه السلام، وهو يواجه الطاغوت العاجز عن إحراقه، الفاشل في مجابهته بالرأي والحجة والمنطق، المنهزم في الدفاع عن باطله وادعائه الألوهية، قال تعالى مخاطبا رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم، في عَرْض لَمَّاح لصورة حية متحركة تكاد تتشخص ملء السمع والبصر: { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ}.

لقد أوتي إبراهيم قوة فكر وتدبر اهتدى بها إلى ربه تعالى، فزاده ربه هداية وفضلا، واختاره لمرتبة الخلة والولاية، وأوتي استعلاء إيمان خالف به أباه وقومه وواجههم بحقيقة ضلالهم، وشجاعة في مواجهة الباطل تحدى بها الطواغيت وكسر بها

الأصنام، كما أوتي ثباتا في الدين وصبرا على البلاء في سبيله إذ أمر به إلى النار فكانت بردا وسلاما، وأوتي صلابة عزيمة وقوة حجة في دعوته إلى جوهر الإسلام، ألوهية وربوبية أفحم بهما أعتى ملوك عصره، من الذين أطغاهم الملك فتجبروا وتكبروا وظنوا أنهم قادرون.

لم يذكر القرآن الكريم اسم هذا الملك، ولم يرد في الخبر الصحيح شيء عن اسمه أو بلده، وإن كان الأخباريون يزعمون أنه نمرود ملك بابل وطاغيتها، وإنما عرض علينا ما ينفعنا من الحادثة وما به نتعظ ونستفيد ونتأسى، وهو مجادلة الملك لإبراهيم عليه السلام في العقيدة والوحدانية، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ والخطاب الاستفهامي للرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين على توالي العصور، يلفت نظرهم إلى موقف متجبر طاغية، ﴿ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ ﴾ أي: إلى الذي ادعى الربوبية منكرا أن يكون ثمة إله غيره، وجادل إبراهيم بالباطل في وجود الله تعالى، والمحاجة معناها المخاصمة والمغالبة، تستعمل كثيرا في المجادلة بالباطل، من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللّهِ وَقَدْ هَدَانِ ﴾ الأنعام 80.

﴿ أَنْ آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ ﴾ وما جرأه على ادعاء الربوبية وإنكار وجود الله تعالى إلا أن أعطي ملكا بطر به فطغى وتجبر وظن أن لن يقدر عليه أحد، وكأنه رام أن يعجز إبراهيم فسأله عن حجة تثبت وجود الله تعالى، فأورد له إبراهيم دليل خلقه عز وجل للموت والحياة واستحقاقه العبادة وحده لا شريك له ﴿ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾، وهو نفس معنى قوله تعالى في سورة أخرى: ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ الملك2، إلا أن الملك انصرف عن حقيقة معنى الموت في الدليل الذي أورده إبراهيم، إلى مادية وقوع الموت في ظل طغيان التجبر وغرور القدرة الوهمية، ليشاغب بالباطل على ما قصده إبراهيم من حجته: ﴿ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ﴾ أي: أنا أستطيع أن أعفو عن من حكمت بقتله فأحييه ولا أقتله، وأستطيع أن أقتله فأميته، ومعلوم أن ادعاءه القدرة على القتل ليس بالجواب المنطقي على حجة إبراهيم الواضحة البينة، لأن الله تعالى خلق الموت والحياة وجعل لهما أسبابهما، والمقتول ميت بأجله المقدر له، بسبب في حكمة الله سره، هذا يموت بالمرض وآخر بالقتل وثالث بسقوط من شاهق، وإنما انصرف الطاغية عن حقيقة الموت والحياة في تقرير إبراهيم إلى المجادلة بأسباب الموت الظاهرة، وشتان بين الأمرين، لذلك أعرض إبراهيم عما قال، لِمَا علم من مكابرته ومرائه، وألجأه إلى مجال لا يستطيع انتحاله، أسلوبُ التلاعب بالألفاظ فيه متعذر، والمجادلةُ فيه بالباطل لا تتسع، ﴿ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ﴾ أي لقد ادعيت التصرف في الموت والحياة بالباطل والممارة الجاهلة، واتخذت مثلا لذلك مستضعفين ممن استعبدتهم في ملكك، فهل تستطيع التصرف فيما يراه الناس كلهم وهو حركة الشمس التي يأتي بها الله من المشرق، هل تستطيع أن تأتي بها من المغرب؟، ﴿ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ﴾ أي غُلِب الملك الكافر وقهر واضطرب وتحير وانقطعت مجادلته ولم يستطع ردا، لما فوجئ به من قوة حجة إبراهيم الدامغة، ﴿ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ لا يهديهم للحق ولا يلهمهم حجة، ولا يستنقذهم من الضلال، بسبب إصرارهم على الظلم وإيثارهم العدوان على خلق الله، وتمسكهم بالشرك، وهو ظلم عظيم لا يغتفر.

هكذا انتصر الإيمان بقوة الحجة على باطل الكفر المدجج بالملك والسطوة والمجادلة التافهة الجاهلة، واتضحت جوانب أخرى للتصور العقدي متعلقة بسنن الله في تسيير الكون وخلق الحياة، تضاف إلى سابقاتها في آية الكرسي، صفاتٍ للألوهية والربوبية، واستحقاقا للولاء الحق. وذلك أخطر موضوع في الحياة، يدور حول توضيح التصور الإيماني في قلب المؤمن وعقله، ليبث طمأنينة اليقين ونور المعرفة في ضميره، و يؤهله لما ينتظره في الآخرة.

في السياق ذاته يورد رب العزة تبارك وتعالى حادثة أخرى تضيف لسر الحياة والموت مسحة جديدة أكثر وضوحا ورهبة وجلالا، قصة الذي مر على قرية خربت مبانيها واندثرت معالمها، ومات أهلها، فوقف متأملا مفكرا متعجبا من قدرة الله على إحياء أهلها، متى يحيون وكيف يبعثون، قال تعالى: ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ العروش جمع عرش وهو البناء، أي وجد القرية خالية من أهلها قد عمها الخراب وسقطت منها الجدران والسقوف، ولم يذكر الوحي اسما للقرية ولا للذي مر بها كعادته في الاقتصار على ما يُتَّعَظ به ويفيد، على أن المفسرين أفاضوا في ذكر ما روته الإسرائيليات من قصص متناقضة لا تثبت، من أن القرية بيت المقدس بعد أن خربها بخت نصر، وأن الذي مر بها هو عزير الذي فتن به بنو إسرائيل وادعوا بنوته لله، بقوله عز وجل: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ التوبة 30، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

إن العبرة التي اقتصر الوحي عليها هي حقيقة الموت والحياة في التصور الإيماني، لا حقيقة القرية والرجل، ونقطة الارتكاز فيها هي التساؤل عن كيفية العودة إلى الحياة بعثا ونشورا ﴿ قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ متى وكيف تعود الحياة إلى هذا الموات من أهل القرية ولم يبق منهم أحد؟.

من سياق الآية لم يكن الرجل ينكر ربه أو ينكر العودة إلى الحياة بعد الموت، وما تساؤله إلا استعظاماً لقدرة المحيي، واعترافا بالقصور عن معرفة سر الحياة والموت والبعث والنشور، فتعجب من ذلك وتساءل عن كيفية حصوله وزمن تحققه، ﴿ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ﴾، أراه الله تعالى من نفسه ومن القرية الخربة، مَثَلَ الموت والحياة وسر الزمان بأيامه وأعوامه، أماته وألبثه ميتا مائة عام، ثم أحياه، ليرتفع عن عالم الحس والأسباب والوسائط ويغادر طوارق الشك وخواطر الظنون والأوهام إلى ثوابت اليقين والتسليم لما حجب عنه من أستار الغيب، وما احتفظ به تعالى من سر الموت والحياة.

﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ ﴾ بعد إحيائه سئل من قبل ربه شفاها، مباشرة أو بواسطة ملك من الملائكة، عن مدة لبوثه فيما ظنه نوما، فقال إنه نام يوما أو أقل من يوم، فبين له خطأ تقدير حاله نوما وهو موت، وتقدير زمن ذلك يوما أو بعض يوم وهو مائة سنة. وبذلك تضيف هذه الآية بعدين آخرين يكملان التصور الإيماني للمسلم:

أحدهما تشبيه الموت بالنوم، وتشبيه البعث باليقظة، لأن بينهما قدرا مشتركا هو عدم التمييز في حالتي النوم والموت، وضمور المسافات الزمنية في الذهن حال اليقظة وحين البعث قال تعالى: ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ

ضُحَاهَا } النازعات46، والله تعالى قادر على ذلك كله { اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } الزمر42، { مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ } لقمان 28.

والبعد الثاني إشارته تعالى إلى نسبية الزمان وسر مقاييسه، وأنه نظام وضعه الله عز وجل للكون، يتكيف مع ظروف الكائنات والكواكب والأفلاك، وحركتها ومواقعها، يقدره خالقه تعالى ويتحكم فيه، قال تعالى: { يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ } السجدة5، وقال: { تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ } المعارج4.

ثم بعد أن بين الله تعالى له مدة لبثه ميتا، لفت نظره إلى أدلة وقرائن مادية تثبت ذلك فقال: { فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ } لم يتسنه أي: لم يتغير وقد مرت عليه مائة عام، لم يتعفن أو يأسن أو يتحجر، { وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ } الذي مات بجوارك منذ مائة عام كذلك، وقد بلي فلم تبق إلاّ عظامه يحييه الله أمامك { وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ } لنجعل موتك وبعثك في الدنيا لمن يراك أو يسمع بك آية ودليلا على الموت والحياة والبعث والنشور.

{ وَانظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً } قرأ جمهور العشرة { نُنْشِرها } بالرّاء مضارع أنْشَرَ الرباعي بمعنى الإحياء. وقرأه ابن عامر وحمزة وعاصم والكسائي وخلف: { نُنشِزها } بالزاي مضارع أنشزه إذا رفعه، والنشز الارتفاع، يراد بنشوزها نموها وارتفاعها حين تغلظ بإحاطة العصب واللحم والدم بها، وكلا القراءتين بمعنى واحد، هو إعادتها إلى شكلها الأول الذي كانت عليه أثناء الحياة، والمقصود بالعظام هو عظام الحمار، وليس عظام الذي مر على القرية فمات ثم بعث. لقد رأى رأي العين مثالا لإحياء الأموات في حماره، تتجمع عظامه وتكسى لحما تجري فيه الدماء، وتعود إليه الروح كأنه لم يمت من قبل، في واقعة خرقت سنن الطبيعة المرئية، وأهدرت ما عرفته علوم الحياة (البيولوجيا) قديما وحديثا من معارف وقيم مادية، وأثبتت أن قوانين الحياة التي نعرفها مجرد سنن وضعها ربها القادر على إبطالها أو تغييرها حسب مشيئته وحكمته، وأن الأصل في كل شيء هو المشيئة الإلهية، وهو عز وجل { لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ } الأنبياء 23، { إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ } هود107، { وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } البقرة117.

والظاهر من سياق الحادثة أن الذي مر على القرية وعاش هذ التجربة، كان مؤمنا ومن أصفياء الله تعالى، وإلا لَمَا أقر بوجود الله حالما رأى القرية الخاوية، ولَمَا جعله الله قطب هذه المعجزة وخاطبه وترفق به وأراه بعض أسرار الموت والحياة، ولَمَا اطمأن قلبه بالإيمان بعد أن رأى ما سأل عنه في نفسه وبأم عينه، ولَمَا قال ما قال بعد أن اطمأن بالتجربة وتبينت له قدرة ربه: { فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } ولما سيقت تجربته مع تجربة إبراهيم متجاورتين، وقد ضمتا موضوعا واحدا حول حقيقة الموت والحياة فقال تعالى: { وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى }.

لم يكن إبراهيم شاكا في أمر الله ومشيئته وقدرته على ذلك، ولا علاقة لسؤاله بأمر الإيمان الثابت الراسخ في قلبه، ولا بالبحث عن دليل يقويه ولكنه الشوق إلى المعرفة والتطلع لرؤية بعض أسرار الغيب، أذكاه وثوق الخليل بمحبة خليله وإدلاله بما له من رفيع المنزلة عنده.

أما قوله تعالى: { قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن } فهو تقرير لإيمان إبراهيم وشهادة ضمنية به من الله تعالى، وليست شكا فيه، معناه: قد آمنت يا إبراهيم فما حاجتك للرؤية المادية؟

ويجيب إبراهيم ربه في طموح منه وتشوف إلى أعلى درجات اليقين قائلا: { بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي} ليرقى بالرؤية إلى أعلى مراقي الإيمان فيكون أهلا لخلته مع ربه عز وجل، قال تعالى: { الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ } الرعد28.

وفي إيجاز واف بالمطلوب يستجيب الله تعالى ويقحمه في تجربة عملية تعطيه ما سأل، { قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً } .

لم يذكر الوحي كعادته من هذه الخارقة إلا ما يهم الجانب العقدي والتربية الإيمانية، وأهمل ما لا حاجة للناس به، أمره أمرا مجملا بأن يأخذ أربعة من الطير { فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ } أي طائر، وأن يقطعهن { فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ } وجههن إليك وقطعهن، من صرت الشيء وجهته، وصرته قطعته لغتان بمعنى واحد. { ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءاً } ثم وزع أجزاء هذه الطيور على الجبال، على كل جبل جزء، { ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً} السعي لغة هو العَدْو الخفيف، أي ثم مرهن بالإتيان إليك يأتينك بسرعة. { وَاعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} واعلم يا إبراهيم وكل من بلغته دعوة الإسلام أن الذي أحيا هذه الطيور بعد ذبحها وتفريق أجزائها بين الجبال قاهر فوق عباده، عزيز في قدرته وأخذه من عصاه، أو خالف أمره، حكيم في كل شؤونه وأفعاله، وإحيائه وإماتته، وهو بذلك المستحق وحده للولاء الحق والطاعة المطلقة والعبادة الشاملة.

وتختم هذه الآيات الأربع وقد أضاءت من التصور الإيماني جوانبَ مكملةً لما سبق في سورة البقرة وأجملته آية الكرسي، وأخرى أفاض في شرحها قرآن المرحلة المكية، لتتضح بذلك غاية خلق الإنسان ومقصد إنزاله إلى الأرض موعودا بالرسالة مسؤولا عنها يوم البعث والنشور، في طريق واضح المعالم والمسعى والمقصد والمنتهى، ولاء لله أو للطواغيت، مأوى في جنة الخلد، أو ارتكاسا في الجحيم.

أخلاق المنفق
وأدب الصدقة والمتصدق

قال الله تعالى: { مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (261) الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُواُ مَنّاً وَلاَ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (262) قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ (263) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاء النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (264) وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللهِ وَتَثْبِيتاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (265) أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاء فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (266) } سورة البقرة

إن الله تعالى إذ خلق آدم وذريته للابتلاء، جعل في فطرتهم حبا للبقاء وحبا للمال، وجعل الدنيا دار عبور والآخرة دار استقرار، والسعيد من ادخر ماله لآخرته، واختار بقاء دائما في الجنة على متعة دنيا زائلة، وما مكر الشيطان في الجنة بآدم عليه السلام إلا من هاتين الثغرتين إذ قال له: { هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى } 120طه، من ثَمَّ كان الحرص على الحياة والمال أشد ما يحول بين المرء وبين العمل للآخرة، قال تعالى: { وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا } إبراهيم 3/2، وقال: { وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا } الفجر 20.

لذلك يحض الوحي الحكيم على جهاد النفس وجهاد المال ويحرض عليهما، في أغلب سياقات الحديث عن البذل والتضحية، وعقب كل ذكر للآخرة وما يدخر لها وفيها كما ورد في الآيات السابقة، إذ بعد تقرير قاعدة صراع الحق مع الباطل، واقتتال أتباع الرسل عليهم السلام مع الكفار المعاندين في قوله تعالى: {وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ } البقرة253 ورد الأمر بالإنفاق في سبيل الله تعالى، إشارة إلى أن البقاء الحق في الآخرة هو ما كان في سبيل الله نفسا مجاهدة ومالا مبذولا، ثم بعد الإشارة إلى الموت والحياة والبعث والنشور، في حوار إبراهيم مع طاغية عصره في قوله تعالى: { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ} البقرة 258، وفي الذي مر على قرية وهي خاوية، وفي سؤال إبراهيم ربه عن إحياء الموتى، يأتي الأمر بالإنفاق في سبيل الله أيضا، بصفته لبنة أساسية في بناء جانب من نظام الاجتماع الإنساني متعلق بالاقتصاد في وجهه التكافلي التراحمي صدقة في سبيل الله

تعالى على كل ذي كبد رطبة، وفي وجهه التعففي عن استغلال حاجات الناس وابتزازهم مراباة أو ديونا مجحفة أو رهنا قاسيا ظالما، تأكيدا لنفس المسار في بذل النفس والمال وادخار ثمارهما للآخرة، بقوله تعالى: { مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}.

ولئن تخلل الأمرَ بالإنفاق في سبيل الله مجملا تلك الآيات التي تبلور التصور الإيماني وتزيده وضوحا ورسوخا، فإن هذه الآية وما بعدها مما بقي من سورة البقرة تمنهج بتفصيل أمر الإنفاق وتدعو إليه وتبين أدبه وأخلاقه، وتميز حلاله من حرامه، ونافعه من ضاره، وما يقبل منه في ميزان الله وما لا يقبل، كما تعالج أمراضا نفسية واجتماعية واقتصادية تنخر المجتمعات وتجعل التصرف في الأموال أداة فساد وإفساد، مثلما هو شأن الذين يبخلون عن مساعدة الفقراء والمحتاجين وعن جهاد المال وإعداد قوة المدافعة عن الدين وأهله وكسر شوكة عدوان الكفر ومكره، والذين يجعلون من الإنفاق أداة للتطاول والفخر والرياء وشراء الذمم والمواقف واستغلال أزمات الفقر والخصاص.

تبدأ الآية الكريمة بالتحريض على الإنفاق في سبيل الله تعالى والترغيب فيه وبيان فضله على المنفق وعلى المجتمع، فتشبه أجره ببذرة مما يزرعه الإنسان ليقتات به قمحا أو شعيرا أو غيرهما بقوله تعالى: { مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ} فتثمر هذه الحبة سبعمائة حبة { أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ } ثم يضاعف الله تعالى هذا العدد من الأجر لمن يشاء من عباده بحسب إخلاصهم وصفاء نيتهم وحسن تصرفهم وأخلاقهم عند الإنفاق والبذل { وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ}. وهو تشبيه في غاية الروعة والدقة، فيه إشارة إلى أن النفقة المقبولة ينمي الله أجرها لأصحابها ويكثره ويدخره لهم كما ينمي الزرع الطيب لمن بذره في الأرض الطيبة، وإلى أن الدرهم الذي ينفقه المرء مجرد رزق ساقه الله إليه ولوشاء لساقه إلى غيره، والحبة التي يحرثها الفلاح كذلك خلق من خلق الله، لا فضل لزارعها في إيجادها، وما دوره في تنميتها إلا أن حرثها، أما الزرع والإنبات فمن خالق البذرة ومنميها، { وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ } خلقه وفضله واسع وعطاؤه كثير لا ينقطع، وعلمه مطلق بحقيقة نية المنفق وطيب النفقة، وبمن يستحق ومن لا يستحق.

وقد ذكر أن الآية نزلت في صدقة عبد الرحمن بن عوف إذ جاء بأربعة آلاف درهم في غزوة تبوك، وصدقة عثمان بن عفان إذ جاء بألف دينار في جيش العسرة. إلا أن سبب نزولها لا يمنع عموم حكمها وشموله كل منفق في سبيل الله تعالى، وهو ما وردت به السنة النبوية شارحة ومبينة ومفصله، فيما يرويه رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ربه عز وجل قَال:(إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً).

وكما أنه ليست كل بذرة تنبت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة كذلك الإنفاق المقبول عند الله تعالى الذي يضاعف أجره ما بين عشر حسنات إلى سبعمائة إلى أضعاف ذلك له شروطه وضوابطه وسلوكياته الإنسانية الشرعية المتحضرة،

من هذه الشروط ما هو متعلق بالمنفق، وما هو متعلق بالمال ومصدره ووسيلة كسبه وفيما أنفق، أو بظروف الإنفاق أثناءه وبعده.

أما ما يتعلق بالمنفق، فأولها أن ينوي بذلك وجه الله تعالى، سواء كان للأرحام أو الفقراء والمساكين أو ذوي الحاجات أو للجهاد أو لغير ذلك من الأهداف المشروعة، وفي الحديث الصحيح أن رجلا أتى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أرأيت رجلا غزا يلتمس الأجر والذكر ما له؟، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا شيء له)، فأعادها ثلاث مرات يقول له رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا شيء له)، ثم قال: (إن الله عز وجل لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصا وابتغي به وجهه).

ومن ذلك أن الصدقة يخرجها الفقير المعافى في بدنه أعظم أجرا، لقوله صلى الله عليه وسلم عندما سئل: يا رسول الله أي الصدقة أعظم أجرا؟:(أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ تَخْشَى الْفَقْرَ وَتَأْمُلُ الْغِنَى وَلَا تُمْهِلُ حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ الْحُلْقُومَ قُلْتَ لِفُلَانٍ كَذَا وَلِفُلَانٍ كَذَا وَقَدْ كَانَ لِفُلَانٍ).

ومنها أن حاجة أهل المرء وأداء ديونه مقدمة على الصدقة وأولى منها، قال صلى الله عليه وسلم: (خَيْرُ الصَّدَقَةِ مَا كَانَ عَنْ ظَهْرِ غِنًى وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُول)، وقال أيضا: (أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ مَا تَرَكَ غِنًى، وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنْ الْيَدِ السُّفْلَى، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ)، وقال كعب بن مالك: (قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ أَنْخَلِعَ مِنْ مَالِي صَدَقَةً إِلَى اللَّهِ وَإِلَى رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ قُلْتُ فَإِنِّي أُمْسِكُ سَهْمِي الَّذِي بِخَيْبَرَ).

ومنها أن يعجل بها المرء إذا نواها، لأنه لا يدري هل يمهل حتى يؤديها أم يعجل به قبل ذلك، فعن عقبة بن الحارث أنه قال:(صَلَّى بِنَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْعَصْرَ فَأَسْرَعَ، ثُمَّ دَخَلَ الْبَيْتَ فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ خَرَجَ، فَقُلْتُ أَوْ قِيلَ لَهُ، فَقَالَ: كُنْتُ خَلَّفْتُ فِي الْبَيْتِ تِبْرًا مِنْ الصَّدَقَةِ فَكَرِهْتُ أَنْ أُبَيِّتَهُ فَقَسَمْتُهُ).

ومنها أن يميز في صدقته بين من يستحقها ومن لا يستحقها، وإن كان الخطأ في ذلك مغتفرا لما رواه مسلم: (أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: لَأَتَصَدَّقَنَّ اللَّيْلَةَ بِصَدَقَةٍ فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدِ زَانِيَةٍ، فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ تُصُدِّقَ اللَّيْلَةَ عَلَى زَانِيَةٍ، قَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ عَلَى زَانِيَةٍ، لَأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدِ غَنِيٍّ، فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ تُصُدِّقَ عَلَى غَنِيٍّ، قَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ عَلَى غَنِيٍّ، لَأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدِ سَارِقٍ، فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ تُصُدِّقَ عَلَى سَارِقٍ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ عَلَى زَانِيَةٍ وَعَلَى غَنِيٍّ وَعَلَى سَارِقٍ، فَأُتِيَ فَقِيلَ لَهُ: أَمَّا صَدَقَتُكَ فَقَدْ قُبِلَتْ، أَمَّا الزَّانِيَةُ فَلَعَلَّهَا تَسْتَعِفُّ بِهَا عَنْ زِنَاهَا، وَلَعَلَّ الْغَنِيَّ يَعْتَبِرُ فَيُنْفِقُ مِمَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ، وَلَعَلَّ السَّارِقَ يَسْتَعِفُّ بِهَا عَنْ سَرِقَتِهِ).

كما ينبغي أن يميز بين من يجوز له أكل الصدقة ومن لا يجوز في حقه إلا الهبة والهدية كما هو حال ذرية رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو ما رواه البخاري من حديث أبي هريرة قال: (أَخَذَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا تَمْرَةً مِنْ تَمْرِ الصَّدَقَةِ فَجَعَلَهَا فِي فِيهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كِخْ كِخْ لِيَطْرَحَهَا، ثُمَّ قَالَ أَمَا شَعَرْتَ أَنَّا لَا نَأْكُلُ الصَّدَقَةَ؟).

وأول شرط متعلق بمال الصدقة أن تكون من طيب المال وحلاله، لأن الله طيب ولا يقبل إلا طيبا، قال صلى الله عليه وسلم: (مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ، وَلَا يَقْبَلُ اللَّهُ إِلَّا الطَّيِّبَ، وَإِنَّ اللَّهَ يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهِ كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ).

وأما الشرط عند الإنفاق فقد ورد به قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (صدقة السر تطفيء غضب الرب)، وحديث البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: الإمام العادل، وشاب نشأ في عبادة الله عز وجل، ورجل قلبه معلق بالمساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه)،

أما شروط الصدقة عند أدائها وبعده فأن لا يتبعها مَنّ أو أذى، وهو قوله تعالى عقب ذلك: { الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُواُ مَنّاً وَلاَ أَذًى } والمنُّ المقصود في هذه الآية هو أن يعظم المعطي عطاءه أو يفخر به أو يشيعه أو ينتظر من الآخذ جزاء دنيويا على إحسانه، أو يتطاول عليه بإحسانه أو يفخر عليه به، أو يمحو أجر صدقته بإساءة استعمالها أو توظيفها أو استغلالها لشراء الذمم، أو إلحاق الأذى بأيٍّ كان، فردا أو مجتمعا. فإن توفرت هذه الشروط كلها وسلمت الصدقة مما يوبقها ويبطلها، ثبت أجرها عند الله تعالى وأمن صاحبها يوم القيامة من الخوف والحزن كما قال تعالى عقب ذلك: { لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ }.

وإن تبع الصدقة ما يبطلها من المن والأذى كانت وزرا على صاحبها بإساءته إلى الآخذ كَتَمَ مَساءتَه أو جأر بها، لأن الإحسان إلى قلوب الخلق والمحافظة على كرامتهم مهما بلغ بهم الفقر مقدم على كل إحسان مادي، وقدرة الغني على العطاء واضطرار الفقير إلى الأخذ ليس إلا ابتلاء من الله تعالى لكليهما، ولذلك أهاب رب العزة بالذين من طباعهم الرياء والفخر بالصدقة أو المباهاة والتطاول بها، أن يكفوا أذاهم ويهذبوا طباعهم، ويُعوِّدوا ألسنتهم الكلمة الطيبة التي تشرح النفس وتضمد الجرح، والاستغفار الذي يطهر القلب من البغضاء والضغينة، ذلك عند الله خير من بذل مال يتبعه المن والأذى، قال تعالى: { قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى }، وقال صلى الله عليه وسلم:

- الكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَة.

- تبسمك في وجه أخيك صدقة وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة وإرشادك الرجل في أرض الضلال لك صدقة وبصرك الرجل الرديء البصر لك صدقة وإماطتك الحجر والشوكة والعظم عن الطريق لك صدقة وإفراغك من دلوك في دلو أخيك لك صدقة.
- ويعين الرجل على دابته فيحمله عليها أو يرفع عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة وكل خطوة يخطوها إلى الصلاة صدقة و يميط الأذى عن الطريق صدقة.
- كل معروف صدقة وإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق وأن تفرغ من دلوك في إناء أخيك.

ثم ختم تعالى هذا التوجيه التحذيري بقوله: { وَاللّهُ غَنِيٌّ } أي: غني عن صدقة المتصدقين وإنفاق المنفقين، وما أَمْرُه بالإنفاق إلا ليدخره لأصحابه في الآخرة إن امتثلوا وأطاعوا قال تعالى: { خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا } التوبة 103.

{ حَلِيمٌ } يعطي الإنسان مؤمنا وكافرا، شكر أو لم يشكر، لا يعجل بالعقوبة، يمهل ولا يهمل، قال عز وجل: { وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى } النحل61.

ثم أعاد عز وجل تحذيره المؤمنين من إبطال أجر صدقاتهم بالمن والأذى فقال: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى } وزاد توضيح ذلك بمثل ضربه لهم، مثل الكافر أو المنافق الذي لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر وينفق ماله رياء وسمعة وتفاخرا { كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاء النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ } وشبه إنفاقه وتصدقه، وطمعه في أن يستفيد من ذلك، بحجر أملس صلد لا يصلح للإنبات، عليه طبقة قليلة من التراب، توهم أنه صالح للزراعة، فإذا نزل مطر شديد عراه من ترابه وتبين للناظر أنه غير صالح للبذار أو الحرث، قال تعالى: { كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً } الصفوان هو الحجر الأملس،والصلد أي الصلب بَيّنُ الصلابة، والوابل هو المطر الشديد إذا أصاب الصفوان المغطى بالتراب عراه وكشف عدم صلاحيته للإنبات، كذلك الكفار والمنافقون والمسلمون الذين يبطلون صدقتهم بالمن والأذى يكتشفون يوم القيامة أنهم لا يقدرون على أن يجنوا ثمار ما قدموا من الصدقة وما ارتقبوا من كسبهم فيها { لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ }. ولئن كان الله تعالى يهدي المؤمنين يوم القيامة إلى الجنة { تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا } الأعراف43، فإن هؤلاء الذين يراؤون بصدقاتهم ولا يؤمنون بالله واليوم الآخر ليس لهم في الآخرة إلا النار { وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ } إلى الجنة، لأنهم ليسوا أهلا لها إيمانا وعملا صالحا، وفي الحديث الصحيح أن رجلا (وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ).

إنها صورة كالحة جافة لقلوب قاسية صفوانية صلدة يسترها الرياء والتسميع، ينقشع عنها تراب المراءات، فتنكشف حقيقتها ويبدو خسرانها، { وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ } النور39، تقابلها صورة أخرى لقلوب ندية بالإيمان رضية بما عند الرحمن، واثقة بربها ثابتة على دربها، لم يستعبدها درهم ولا دينار، ولم تأسرها خضرة الدنيا وحلاوتها، ولا بريق الأهواء وفتنتها. يعرضها القرآن الكريم تشويقا لحارث الدنيا إلى زرع الآخرة ونعيمها، في مشهد حسي يربط المبدأ بالمآل ويغني السائل عن السؤال، يقول تعالى: { وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ } طلبا لرضا الله عنهم { وَتَثْبِيتاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ } يقينا وتصديقا بأن ما ينفقونه خير وأبقى مما احتفظوا به أو كنزوه، وأن الله يربيه لهم وينميه فيجدونه يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، { كَمَثَلِ جَنَّةٍ } بستان { بِرَبْوَةٍ } الربوة بفتح الراء وضمها هي الأرض المستوية المرتفعة عن سطح الماء تسقى بالمطر تجمع بين جمال الموقع وخصب التربة، إن أصابها مطر غزير تضاعف إنتاجها وإن أصابها رذاذ من المطر أغنت بما أثمرت { أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ } أضعفت ثمرها ضعفين حين أصابها المطر الغزير، { فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ } الطل هو النَّدَى واللّيّن من المطر، والرذاذ منه، إن اصابها ضوعف إنتاجها بإذن ربها كذلك. ويختم تعالى هذه الآية تذكيرا للمؤمنين بأن أعمالهم كلها محصية بقوله عز وجل: { وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ }، أي والله تعالى يراقب تصرفهم فيما رزقهم { فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُون } الأعراف 129.

إن المؤمن بعيد النظر، يعمل في قوّته ليوم ضعفه، وفي غناه ليوم فقره، وأن يتعب في مبدأ أمره وينعم في منتهاه خير له، لذلك نجد الوحي الكريم يوسع دائرة بعد النظر لديه تبصرة وتذكيرا وتحذيرا، وتقريبا للفهم بالأمثلة الحسية من حياته اليومية، بنفسه الغالية وأبنائه الأغلى، وبأحب ظروف الرفاه والراحة والغنى لديه، هل يطيق أن ينقلب حاله إلى الفقر والخصاص وضعف الذرية عن الكسب في شيخوخته وعجزه؟ هل يرضى هذا المصير أو يصبر عليه؟ يقول تعالى: { أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ } أيحب عاقل أن يكون مصيره مصير الغني الذي له بستان فيه من كل الثمرات ينعم به كيف يشاء، { وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاء } أدركته الشيخوخة والعجز عن العمل والكسب، وله على عجزه ذرية ضعفاء عن الكسب والعمل، { فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ } والإعصار هو الصاعقة ذات الشحن الكهربائة العالية تحرق ما أتت عليه، أي وبينما هو على هذه الحالة أصابت الصاعقة مصدر معيشتهم الوحيد وهو البستان، فأحرقته، وتركتهم في الفقر والخصاص والبؤس والحزن، وهو مصير مبتئس ينبغي لكل امرئ أن يتعظ به ويستعيذ بالله منه، قال صلى الله عليه وسلم: (اللهم اجعل أوسع رزقك علي عند كبر سني و انقطاع عمري). بمثل هذه الأمثال والعظات يبين الله تعالى للمؤمنين آياته وأحكامه ويهديهم إلى العمل الصالح ليتفكروا ويتدبروا ويختاروا الأهدى والأبقى والأرضى { كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ }.

كذلك حال الذي يأتي الله تعالى يوم القيامة وله أعمال صالحة هو في أشد الحاجة إليها فيلفي الرياء أحرقها، والمعاصي محقتها والذنوب دمرتها ويجد ما قدم للآخرة سرابا خادعا ووهما مضللا، ووجد الله عنده فوفاه الجزاء، عن ابن عباس قال:(ضرب الله مثلا حسنًا، وكل أمثاله حسنٌ تبارك وتعالى. قال: { أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ } إلى قوله تعالى: { فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ } يقول: صنعه في شبيبته، فأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء عند آخر عمره، فجاءه إعصار فيه نار فاحترق بستانه، فلم يكن عنده قوة أن يغرس مثله، ولم يكن عند نسله خير يعودون عليه. وكذلك الكافر يوم القيامة، إذا رُدّ إلى الله تعالى ليس له خيرٌ فيستعتب، كما ليس له قوة فيغرس مثل بستانه، ولا يجد خيراً قدم لنفسه يعود عليه، كما لم يغن عن هذا ولده، وحُرِم أجره عند أفقرِ ما كان إليه، كما حرم هذا جنته عند أفقر ما كان إليها عند كبره وضعف ذريته. وهو مثل ضربه الله للمؤمن والكافر فيما أوتيا في الدنيا: كيف نجَّى المؤمنَ في الآخرة، وذخر له من الكرامة والنعيم، وخزَن عنه المال في الدنيا، وبسط للكافر في الدنيا من المال ما هو منقطعٌ، وخزَن له من الشر ما ليس بمفارقه أبدًا، ويخلد فيها مهانًا، من أجل أنه فخر على صاحبه، ووثق بما عنده، ولم يستيقن أنه ملاق ربه).

إن وفرة الرزق وقلته مجرد اختبار في الدنيا لمدى شكر الناس وصبرهم أو جحودهم وجزعهم، وحكمة الله تعالى تختار للابتلاء بأي منهما من تشاء، الفقر والغنى ليسا دليلا على إكرام من الله أو إهانة، والإكرام والإهانة موعدهما يوم القيامة، ولئن كان الفقر فتنة لبعض الناس فإن الغنى أشد فتنة لأكثرهم، قال تعالى: { وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ } سبأ13، وقال: { وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ } الشورى27، وقال: { وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا } الإسراء16. وقال صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخاري ومسلم:(فَوَاللَّهِ لَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ وَلَكِنْ أَخشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمْ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ).

لذلك حذرت السنة النبوية من فتنة الغنى وبينت أن الفقر قد يكون دليل محبة الله للمؤمن في كثير من الحالات، قال صلى الله وسلم فيما صح من أحاديثه:

- إذا أحب الله عز وجل عبدا حماه الدنيا كما يَظَلُّ أحدُكم يحمي سقيمه الماء.
- إن الله عز وجل ليحمي عبده المؤمن الدنيا وهو يحبه كما تحمون مريضكم الطعام والشراب.
- إن الدنيا خضرة حلوة فاتقوها.
- إحذروا الدنيا فإنها خضرة حلوة.
- إن الدنيا خضرة حلوة وإن الله عز وجل مستخلفكم فيها، لينظر كيف تعملون فاتقوا الدنيا.
- وإن هذا المال خضرة حلوة فمن أخذه بحقه ووضعه في حقه فنعم المعونة هو، ومن أخذه بغير حقه كان كالذي يأكل ولا يشبع ويكون شهيدا عليه يوم القيامة.

- الدنيا حلوة خضرة فمن أخذها بحقها بارك الله له فيها، ورب متخوض فيما اشتهت نفسه ليس له يوم القيامة إلا النار.

إلا أن هذا لا يعني أن الاتساع في الكسب الحلال غير جائز، بل هو مباح حتى مع الكفاية، بشرط معرفة أحكام ذلك والعمل بها، والمحافظة على سلامة الدين والمروءة والعرض والذمة، وأداء جميع الحقوق واتخاذ الكسب قربة وعبادة، والحذر من الطغيان أو الاستعلاء على عباد الله، أو الاغترار بالقدرة عليه كما هو شأن صاحب الجنتين إذ اغتر { وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا } الكهف 36/35، أو الذي اعتز بقدرته على الكسب وعلمه به فقال عنه تعالى: { ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ } الزمر 49، أو قارون قوم موسى وقد خسف به إذ: { قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي } القصص 87.

طيب الإنفاق
من حلال الكسب وطيب الأرزاق

قال الله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلاَ تَيَمَّمُواْ الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (267) الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاء وَاللّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (268) يُؤتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ (269) وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (270) إِن تُبْدُواْ الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاء فَهُوَ خَيْرٌ لُّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (271)لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلأنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاء وَجْهِ اللّهِ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ (272) لِلْفُقَرَاء الَّذِينَ أُحصِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاء مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ (273) الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (274) } سورة البقرة

كما بين تعالى في الآية 261 من سورة البقرة وما بعدها صفات المنفقين في سبيل الله تعالى، وصفات المنفقين رياء وتعاليا وضرارا، ومصير كل منهم، بقوله عز وجل: { مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ } يواصل الوحي الكريم بناء نظام الاجتماع الاقتصادي في الإسلام بتوضيح جانب آخر من الإنفاق، متعلق بالمال الذي يبذل صدقة أو تمويلا لجهاد أو أعمال بر، فيقول عز وجل: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ } يخاطب المسلمين ممن كانوا مع الرسول صلى الله عليه وسلم وممن يأتون بعدهم إلى يوم القيامة، يخاطبهم بصفة الإيمان، لأنه تعالى لا يقبل عملا أو نفقة إلا ممن هذه صفته، ليبين لهم طبيعة الأموال التي يبذلونها في سبيله فيقول: { أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ}، مشترطا لقبولها أن تكون طيبة في نفسها مباحا تناولها واستعمالها مشروعا كسبها. تحت طائلة المحاسبة عن كل ذلك كما قال صلى الله عليه وسلم: (لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيم أفناه وعن علمه فيم فعل فيه وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه وعن جسمه فيم أبلاه)، وأخرج أبو نعيم في الحلية عن سالم مولى أبي حذيفة قوله صلى الله عليه وسلم:(لَيُجاءَنَّ يوم القيامة بقوم معهم من الحسنات مثل جبال تهامة حتى إذا جيء بهم جعل الله أعمالهم هباء ثم قذفهم في النار، كانوا

يصومون ويصلون ويأخذون هنة من الليل، ولكن كانوا إذا عرض عليهم شيء من الحرام وثبوا عليه فأدحض الله أعمالهم).

أما الكسب الحلال فمن مصادره التجارة والصناعة والإجارة ومختلف الخدمات جهدا فكريا أو وظيفيا أو حرفيا أو عملا عضليا أو غير ذلك مما يستحدث في الحياة من أوجه الكسب الحلال، وكذلك ثمار الأرض زروعا وفواكه وغيرها مما يصلح للاستخدام والاستعمال، كل ذلك إن كان مباحا وحصل من حلال وبوسيلة غير محرمة كان صالحا للإنفاق في سبيل الله تعالى.

إلا أن في هذا الكسب الحلال جيدا ورديئا، طيبا وخبيثا، ولا ينبغي للمؤمن أن يقدم لربه غير الجيد والطيب، وقد روى الواحدي عن البراء قال:" نزلت هذه الآية في الأنصار، كانت تخرج إذا كان جذاذ النخل من حيطانها أقناء[91] من التمر والبسر، فيعلقونها على حبل بين أسطوانتين في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيأكل منه فقراء المهاجرين، وكان الرجل يعمد فيخرج قنو الحشف[92] وهو يظن أنه جائز عنه في كثرة ما يوضع من الأقناء، فنزل فيمن فعل ذلك { وَلاَ تَيَمَّمُواْ الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ } يعني القنو الذي فيه حشف، ولو أهدي إليكم ما قبلتموه "

و قال جابر: أمر النبي صلى الله عليه وسلم بزكاة الفطر بصاع من تمر، فجاء رجل بتمر رديء، فنزل القرآن { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلاَ تَيَمَّمُواْ الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ }.

وقال عبيدة السلماني: سألت عليا كرم الله وجهه عن قول الله: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلاَ تَيَمَّمُواْ الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ } فقال علي: نزلت هذه الآية في الزكاة المفروضة، كان الرجل يعمد إلى التمر فيصرمه، فيعزل الجيد ناحية، فإذا جاء صاحب الصدقة أعطاه من الرديء، فقال عزّ وجلّ: { وَلاَ تَيَمَّمُواْ الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ }.

إن الإنفاق في سبيل الله تعالى يجب أن يكون أولا من الكسب الحلال، وثانيا من الطيب الحلال، وقد جبلت بعض النفوس على أن تحب طيب كسبها وتستأثر به، وأن تتخلص من رديئه لغيرها بالبيع أو الصدقة، أو الهبة أو الهدية، لذلك دعا الله عز وجل إلى تجنب هذا السلوك غير الرضي فقال: { لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ } آل عمران92. وأحرى بالمؤمن وصدقته موفورة له يوم القيامة أن يدخر لذلك اليوم أحسن ماله وأبقاه، قال صلى الله عليه وسلم:(وَهَلْ لَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ؟).

---

91 – الأقناء جمع مفرده قنو وهو العذق بما فيه من الرطب.

92 – الحشف أردأ التمر يقال أحشفت النخلة أي صار تمرها حشفا.

أما الرديء والخبيث ولو كان كسبا حلالا كحشف التمر الذي أخرجه بعض المسلمين صدقة أو زكاة فطر، فليس من الحياء أن يأباه المرء لنفسه ويرضاه للفقراء، قال تعالى: { وَلاَ تَيَمَّمُواْ الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ } تيمموا: من يمم الشيء وتيممه أي قصده، ومنه الحديث:(كانوا يَتَأَمَّمُون شِرارَ ثِمارِهم في الصدَقة) أي يَتعَمَّدون خبيثها ويَقْصِدونه ويختارونه للإنفاق على الفقراء والمساكين، ولو أعطي لهم هدية أو هبة أو تكرمة أو أداء لدين لم يأخذوه { وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ } لا تأخذونه إلا إذا أغمضتم أبصاركم عن رداءته وأخذتموه كرها أو حياء أو مسامحة. عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن الله قسم بينكم أخلاقكم، كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا لمن أحبَّ، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه، والذي نفسي بيده، لا يسلم عَبْد حتى يُسلِمَ قلبُه ولسانه، ولا يؤمن حتى يأمن جارُه بوائقه)، قالوا: وما بوائقه يا نبي الله؟. قال: (غَشْمه[93] وظلمه، ولا يكسب عبد مالا من حرام فينفق منه فيبارك له فيه، ولا يتصدقُ به فيقبل منه، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار، إن الله لا يمحو السيئ بالسيئ، ولكن يمحو السيئ بالحسن، إن الخبيث لا يمحو الخبيث)، وأخرج الإمام أحمد عن عائشة قالت: أُتِي رسول الله صلى الله عليه وسلم بضب فلم يأكله ولم ينه عنه. قلت: يا رسول الله نطعمه المساكين؟ قال: (لا تطعموهم مما لا تأكلون).

أما مشروعية الكسب فتعني أن تكون وسيلة الكسب مباحة، واستعمال المكتسب جائزا، وألا تشوب مصدره أو جوهره أو وسيلة كسبه شائبة من غش أو نصب أو خداع أو توسل بمحرم، ولو كان من تجارة مباحة كالذي يتاجر ويرابي أو يحلف لإنفاق تجارته، أو الذي يدس رديء بضاعته تحت طيبها، أو الموظف الذي يتهاون ويغش عند أداء واجبه فيسرق الوقت ويضيع مستحقي الخدمات...

ثم ختم عز وجل الآية بقوله: {وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ} غني عن صدقاتكم، غني عن جميع خلقه وجميع خلقه فقراء إليه، واسع الفضل والعطاء لا ينفد ما لديه، وإنما فرض عليكم الإنفاق رحمة بكم، يدخره لكم ويضاعف أجره يوم القيامة، قال تعالى: { لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ } الحج 37،

{ حَمِيدٌ } صيغة مبالغة من الحمد بزيادة ياء، أي محمود في عطائه ومنعه، يحمده خلقه لما أفاض عليهم من النعم ظاهرة وباطنة، ولما يجزل على المطيعين من عباده في الآخرة من عظيم المثوبة وحسن الجزاء.

ثم لما دعا عز وجل إلى الإنفاق ورغب فيه وأمر به ووعد عليه بالغنى والثواب، عقب على ذلك بالتحذير من الركون إلى وساوس الشيطان ونجواه وتخويفه من الفقر فقال:

93 – الْغَشْمُ الظُّلْم والغَصْبُ.

{الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاء } أي الشيطان يخوف المؤمنين من الفقر إن تصدقوا بأموالهم وأنفقوها في أوجه البر، ويأمرهم بالفحشاء، أي بالبخل[94]، أما الوعد لغة فيستعمل في الشر مجازا للتخويف أو التحذير كما في هذه الآية، وكما في قوله تعالى: { قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ } الحج72، ويستعمل في الخير على الحقيقة، فيقال وعدته بنفع وعدا وموعدا وميعادا، أي مَنَّيْته، كما في قوله تعالى: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ } المائدة9.

{ وَاللّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً } يعدهم إذا أنفقوا وتصدقوا في سبيله بمغفرة ذنوبهم وقبول توبتهم، وستر خطاياهم، وبواسع فضله الذي لا ينفد، قال تعالى: {مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ } الحديد 11، وقال: {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا } التوبة 103، وقال صلى الله عليه وسلم: (الصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار).

{ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ } واسع الفضل والعطاء، يُعطِي من سَعة، يعلم من أنفق وما أنفق وكيف تصدق وعلى من تصدق، يعلم الغيب والشهادة { لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ } سبأ3.

هذه التوجيهات الربانية لا يعقلها إلا من تدبرها وفهم حكمتها بعقل بعيد النظر، يتجاوز الفاني إلى الباقي، ويربط الحاضر بالمستقبل، والقريب بالبعيد، والمبدأ بالمآل، والدنيا بالآخرة، لذلك خرج الأسلوب القرآني بالتفات واضح من خطاب الأمر المباشر بالإنفاق والتحذير من البخل إلى خطاب تقريري رتبه على واسع فضل الله وعلمه فقال تعالى: { يُؤتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ }، والحكمة هي ثمرة الاستعمال الرشيد للعقل، بها يعقل المرء ما يرى وما يجد وما يسمع، ويفقه دوافع الأعمال والأقوال ويعرف أسبابها ونتائجها وما تفضي إليه أو تنشئه. استوى الناس في امتلاك العقل، وتفاضلوا في الاستفادة منه بحسن رعايته وشحذه وتنميته واستخدامه، وتحريره من شوائب الهوى والنزق والطيش، والبلوغ به إلى مصاف الحكمة والرشد وحسن التصرف، والعمل به فيما يقي مصارع السوء ويضمن خير الدارين، ولذلك عقب عز وجل بقوله: { وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ }، ولا يعقل هذه التوجيهات بمراميها القريبة والبعيدة إلا الذين أوتوا عقلا نيرا ولبا صافيا يستنبط الحكمة، ويلتقط دررها الظاهرة ويستكنه لآ لئ إشاراتها الخفية.

أما قوله تعالى عقب ذلك: { وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللّهَ يَعْلَمُهُ } فبيان تحذيري بأنه تعالى يعلم ما تبذلونه زكاة أو صدقة أو نذرا، ويعلم من ينفق في سبيله ومن ينفق رياء وتسميعا وإضرارا أو ينفق من كسب حرام أو

94 – الفُحْش والفَحْشاءُ والفاحِشةُ القبيحُ من القول والفعل وجمعها الفَواحِشُ، والعرب تسمي البخيل فاحشا.

رديء مال، كل ذلك يعلمه الله تعالى، يحصيه ويحاسب به، وليس لمن ظلم نفسه وخالف أمره من نصير أو شفيع ينقذه من عذاب الله أو يدفع عنه عقابه { وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ }.

لقد أحاط الوحي الحكيم في هذه الآيات الكريمة بكل جوانب الإنفاق، فبين أولا أنه قد يكون خالصا لله تعالى وقد يكون رياء وسمعة، ثم بين ثانيا أن منه الحلال والحرام ومنه الطيب والخبيث ثم بين ثالثا أن منه الظاهر ومنه الخفي، فقال تعالى:

{ إِن تُبْدُواْ الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ } أي إن تصدقتم علانية فنعم ذلك وله أجره { وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاء} وإن تصدقتم على الفقراء خفية { فَهُوَ خَيْرٌ لُّكُمْ }، أي أكثر فضلا وأجرا ومثوبة، قال صلى الله عليه وسلم:(صدقة السر تطفئ غضب الرب)، وقال:(من قام مقام رياء وسمعة رَاءى الله تعالى به يوم القيامة وسمع). لذلك كان بعض السلف الصالح يخرجون صدقاتهم بالليل كيلا يُعْرَفَ آخذٌ مِن مُعْطٍ، وكان أهل المدينة المنورة يقولون:"ما فقدنا صدقة السر حتى مات علي بن الحسين رضي الله عنهما". وفي كلتا حالتي الإنفاق سرا أو علنا تقبل الصدقات على تفاوت في الأجر، إن توفرت فيها شروط القبول، صِدْقَ نية ومكسبا حلالا طيبا وخلوا من الرياء والمن والأذى، يكفر الله تعالى بها السيئات ويمحو الخطايا ويرفع الدرجات { وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ }، لا تخفى عليه أعمالكم ولا نواياكم ولا مقاصدكم { وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ }.

ويبقى وجه آخر من أوجه الإنفاق هو الصدقة على غير المسلم، عالجه الوحي الكريم بقوله تعالى:

{ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ }، وقد ورد في سبب نزولها أنّه كان لأسماء بنت أبي بكر أمٌّ كافرة وجَدٌّ كافر وأنّ بعض الأنصار كان لهم قرابة وأصهار في بني النضير وبني قريظة، وكانوا لا يتصدقون عليهم رغبة في أن يسلموا إذا احتاجوا، فنزل قوله تعالى: { لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ }.

والهدى لغة هو الرشاد، من فعل هدى يهدي أي أرشد، يستعمل على الحقيقة والمجاز، ورد في الكتاب بمعان تدل على أنه لفظ مشترك، يظهر المقصود منه بسياقه في التعبير. فهو أحيانا بمعنى الدلالة والبيان لعامة الناس مسلمهم وكافرهم كما في قوله تعالى: { وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى } فصلت 17، وقوله: { وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ } البلد10.

وتارة بمعنى التوفيق والعون للمؤمن كما في قوله تعالى: { وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى } مريم 76، وقوله: { إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آَمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ } الكهف 14/13.

وتارة بمعنى الثواب كما في قوله تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ } يونس9. وقوله: {وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ } محمد5.

وتارة بمعنى الاصطفاء إرادة من الله تعالى، لايسأل عما يفعل، كما في قوله عز وجل: { فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ } الأنعام 125، ومنه قوله تعالى عقب آية الصدقات: { لَّيسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ } أي ليس عليك من هدايتهم إلا أن تدلهم على طريقها، أما إقحامهم فيها فراجع لمشيئة ربهم عز وجل وحكمته، ولما سبق من قاعدة عدم الإكراه في الدين بقوله تعالى: { لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ } البقرة 256.

بهذه الآية الكريمة بين عز وجل أن سماحة الإسلام لا تستثني من الصدقة فقراء غير المسلمين، وأن (في كل ذات كبد رطبة أجر) كما قال صلى الله عليه وسلم، وأن القلوب بيده تعالى يهدي منها إلى نوره من يشاء، وليس للمسلم أن يربط صدقته بأي توظيف لها بالضغط على الكفار لاستدراجهم للإسلام، وليس عليه من واجب الدعوة إلى الإسلام إلا الإرشاد والتبليغ، وأن يهتم بما ينفعه عند ربه من خير إنفاقه: { وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلأنفُسِكُمْ } وما ينفعه من صدقته أن تكون خالصة لوجه الله وحده ابتغاء لمرضاته { وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاء وَجْهِ اللهِ }، هذا ما ينفع المؤمنين من صدقتهم، كل خير بذلوه في هذا السبيل يعود إليهم يوم القيامة وافيا ومضاعفا لا يبخسون ولا يظلمون { وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ }.

إلا أن مصارف الصدقات وإن كانت لعموم المحتاجين من المسلمين وغير المسلمين فإن فيها نصيبا كبيرا لفئة خاصة من الفقراء، ميزهم الله تعالى بما لهم من فضل وما هم عليه من حال، ووصفهم بست صفات فقال: { لِلْفُقَرَاء الَّذِينَ أُحصِرُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الجَاهِلُ أَغْنِيَاء مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً }.

أول هذه الصفات قوله تعالى { لِلْفُقَرَاء } أي اجعلوا نفقتكم وصدقتكم للفقراء الذين ليس لهم ما ينفقون ولا يستطيعون الكسب، ويراد بهذه الآية فقراء المهاجرين في العهد النبوي، كانوا نحو أربعمائة رجل، بنيت لهم صُفَّة في المسجد النبوي، فقيل لهم أهل الصُّفَّة، يرسلهم الرسول صلى الله عليه وسلم للجهاد في مختلف السرايا والبعوث، كما يراد بها أيضا من دخل تحت صفتهم في كل عصر.

وثانيتها: { الَّذِينَ أُحصِرُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ } أي حصروا أنفسهم لخدمة الإسلام ووقفوها على الجهاد في سبيل الله، أو حوصروا بعدو أو مرض أو شيخوخة أو عجز.

والصفة الثالثة { لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الأَرْضِ } والضرب في الأرض هو السعي فيها بحرية للكسب والإنتاج تجارة وصناعة وفلاحة وغيرها. كما في حالة المتفرغين للجهاد أو سجناء الدعوة الإسلامية، أو المطاردين والمطلوبين بسببها، أو في بعض حالات اللجوء السياسي المهين، أو الذين فرضت عليهم الإقامة الجبرية فيما أصبح مألوفا وساريا في عصرنا هذا.

والصفة الرابعة { يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاء مِنَ التَّعَفُّفِ } التعفف من أصل العفة وهي الكف عما لا يحل ولا يجمل، أو لا يناسب مروءة المرء وكرامته، يقال: عف عن المحارم والأطماع يعف عفة وعفافا وتعفف واستعف وأعفه الله تعالى، والمعنى أن الجاهل بحال هؤلاء المتعففين يحسبهم أغنياء لما يسترونه من فقرهم ويترفعون به عن مهانة السؤال وابتذال الحال. قال صلى الله عليه وسلم لما سأله الأنصار فأعطاهم ثم سألوه فأعطاهم حتى نفِدَ ما عنده: (ما يكون عندي من خير فلن أدّخره عنكم، ومن يستعفف يُعِفّه الله، ومن يستغنِ يُغْنِه الله، ومن يتصبّر يصبّره الله).

والصفة الخامسة: { تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ } السيما والسمة معناها العلامة، من فعل سام الشيء إذا وضع عليه علامة، مقلوب من فعل وَسَم البعير أو غيره فهو موسوم، جعل فيه ما يعرف به، كيا أو قطع أذن أو غير ذلك مما يكون علامة له. قال تعالى: { سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ } الفتح 29. والمعنى أن هؤلاء الفقراء الذين يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف لهم من سيما المهابة والتواضع والتخشع وجهد الفاقة ما يجعل ذا الفراسة المؤمن يعرف حالهم، ويصون كرامتهم ويغطي حاجتهم مبادأة منه ومبادرة، من غير سؤال أو استطلاع عن حال.

والصفة السادسة: { لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً } والإلحاف هو الإلحاح، أي أنهم لا يسألون تعففا، ولا يلحفون في السؤال كما يفعل غيرهم، إذ لو سألوا أو ألحوا في السؤال لما كانوا متعففين ولما ظن الجاهل أنهم أغنياء، روى مالك والبخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(لَيْسَ الْمِسْكِينُ الَّذِي يَطُوفُ عَلَى النَّاسِ تَرُدُّهُ اللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ وَالتَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ وَلَكِن الْمِسْكِينُ الَّذِي لَا يَجِدُ غِنًى يُغْنِيهِ وَلَا يُفْطَنُ بِهِ فَيُتَصَدَّقُ عَلَيْهِ وَلَا يَقُومُ فَيَسْأَلُ النَّاسَ). وروى مسلم عن عوف بن مالك قال: كنا تسعة أو ثمانية أو سبعة عند رسول الله فقال:(ألا تبايعون رسول الله؟)، فقلنا: علام نبايعك؟ قال:(أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، والصلوات الخمس، وتطيعوا، ولا تسألوا الناس). فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم فلا يسأل أحداً يناوله إياه، كما روي أن أبا ذر حلت به ضائقة فأرسل إليه رجل من قريش ثلاث مائة دينار، فقال: ما وجد عبد الله رجلاً أهون عليه مني، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:(من سأل وله أربعون فقد ألحف)، ولآل أبي ذر أربعون درهما وأربعون شاة وماهنين، أي خادمين.

ثم عقب عز وجل على هذا الإنفاق بقوله: { وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ } فسماه خيرا، أي طيبا حلالا مقبولا لا يخفى عنه عز وجل، سواء كان سرا أو علانية، ينميه ويضاعف أجره، وأثنى على المتصدقين في سبيل الله من كل عصر وقطر، وفي كل الأحوال والأوقات، مبينا عاقبة أمرهم في الدنيا والآخرة فقال: { الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ } لهم أجرهم الذي بشرهم به قوله تعالى: { مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ } البقرة261، ولهم الأمن من الفقر والخوف والحزن في الدنيا والآخرة.

وقد ذكر الواحدي في أسباب النزول أن الإمام علي بن أبي طالب رضى الله عنه لم يكن يملك غير أربعة دراهم، فتصدق بدرهم ليلا، وبدرهم نهارا، وبدرهم سرا، وبدرهم علانية، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما حملك على هذا؟) قال: حملني أن أستوجب على الله الذي وعدني، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ألا إن ذلك لك).

بهذه الآية الكريمة يختم ربنا تبارك وتعالى صورة مشرقة من صور التكافل الإنساني الراقي في مجال الاجتماع الاقتصادي، تراحما وتعاونا، وتقوية للصف المسلم، ونشرا للمحبة والمودة بين المؤمنين، صورة أشرقت ملامحها بَدْءا من قوله تعالى: { مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ } البقرة261، واتضحت معالمها بقوله عز وجل يمدح المنفقين ويشيد بهم: { الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ } البقرة 274. في أربع عشرة آية خاصة بالصدقات التطوعية ومصارفها، أماالزكاة المفروضة فقد بين مصارفها قوله تعالى: { إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } التوبة 60.

أس الاقتصاد في الإسلام:

{ وَأَحَلَّ اللّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا }

قال الله تعالى: { الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (275) يَمْحَقُ اللّهُ الْرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (276) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (277) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (278) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ (279) وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (280) وَاتَّقُواْ يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ (281) } سورة البقرة

في مقابل الصورة الطيبة الندية لرجال ونساء ينفقون أموالهم في سبيل الله سرا وعلانية في الليل والنهار ابتغاء مرضاة الله، يعرض علينا الوحي الكريم صورة مضادة مشوهة لنفوس بشرية لوثها الجشع وأماتت القسوة فيها كل معاني الرحمة والشفقة والإنسانية، يعرضها علينا حماية للمجتمع المسلم من شرها ووقاية له من عاقبة أمرها. إنها صورة المرابي المتاجر بآلام الناس ومحنهم وحاجاتهم. يقرضهم مالا هم في أشد الحاجة إليه ليردوه إليه بربا يزداد كلما تأخر السداد، أو يبادلهم رديئا بجيد من صنف واحد بتفاضل في القدر كيلا أو عددا.

تبدأ ملامح الصورة من وجهها الأشوه الرديء، كائن بشري يلتهم أموال المضطرين، يفترس لحومهم ويمتص دماءهم بواسطة عملياته الربوية القذرة، بقوله تعالى: { الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا }. والربا لغة من فعل ربا يربو رُبُوّاً ورِباء أي زاد ونما، وأربيته: نميته، قال ابن فارس: الراء والباء والحرف المعتل وكذلك المهموز منه، يدلُّ على أصلٍ واحد، وهو الزِّيادة والنَّماء والعُلُوّ. تقول مِن ذلك: ربا الشّيءُ يربُو إذا زاد، وربَا الرّابية يَربُوها إذا علاها، ورَبَا إذا أصابه الرَّبْو، وهو ضيق النَّفَس وعلوها. قال تعالى: { وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ } الحج5،

أما في المصطلح الذي نقل إليه الشرع معنى الربا فهو زيادة يأخذها المقرض من المستقرض مقابل أجل سداد الدين. أو زيادة في مبادلة صنف بمثله على تفصيل يأتي في سياقه.

والمقصود بآكل الربا في هذه الآية هو المقرض لما يزيد على حقه في استخلاص ديونه والمستقرض لما يستدين من مال بطريقة غير مشروعة، وأطلق على المقرض بخاصة وصف المرابي لتضعيفه المال على غريمه، ولزيادته في قدره كلما مدد أجل

الأداء مرة بعد مرة، ولذلك قال جلّ ثناؤه: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً } آل عمران 130.وقال صلى الله عليه وسلم: (لعن الله آكل الربا و موكله و شاهديه و كاتبه، هم فيه سواء).

إن هدف المقرض أن يكثر ماله فيقوم بين الناس قويا غنيا عزيزا، وهدف المستقرض أن يقوم من محنة الحاجة والفقر وينهض حاله بعد سقوط، فيخضع لشروط الغني الظالمة المذلة، وليس في ذلك الخضوع ولا في تلك الشروط أي كرامة أو عز للمقرض الذي لا يرى فيه الناس إلا الجشع والطمع والخسة والقسوة والنذالة، أو نهوض من عثرة للمستقرض لعلمهم بضعفه واستخذائه بين يدي المقرض وخضوعه لشروطه المذلة، ويقينهم بأن الاستقراض بفائدة لن ينقذ من فقر أو يخرج من ضائقة، لذلك شبه الله تعالى المرابين في الدنيا أخذا أو عطاء بالذي يتخبطه الشيطان من المس، سواء كان التخبط حقيقة أو مجازا، جنونا أو صرعا أو اختلاجا عصبيا فقال: { لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ } وما قيامهم بمال الربا إلا وَهْم وضلال، في الدنيا يمحق بركة النفس والأهل والولد، وفي الآخرة حساب عسير، وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن تخبطهم يكون عند خروجهم من القبر لما روي عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إياكم والذنوب التي لا تغفر، الغلولَ فمن غل شيئًا يأتي به يوم القيامة، وأكلَ الربا فمن أكل الربا يبعث يوم القيامة مجنونًا يتخبط)، إلا أن الحديث فيه الحسين بن عبد الأول وهو ضعيف كما قال الهيتمي.

إن السبب فيما لُبِّس عليهم به هو زعمهم أن الربا والبيع سواء { ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا } جعلوا الأصل المباح في المعاملة هو الربا وقاسوا عليه البيع، وهو قياس مقلوب، والأمر ليس كذلك، بل الأصل هو البيع، ومقدار الربح في البيع ثابت معروف لا يتغير بتأجيل دفع أو تقديم، وله أحكامه الواضحة، لا استغلال فيها ولا ابتزاز ولا استغفال ولا غرر، وهو بذلك حلال، بخلاف الربا المحرم الذي بني أساسا على شر النوايا والمقاصد وشر آليات الأداء أخذا وعطاء، { وَأَحَلَّ اللّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا }. والناس في تلقي هذه التوجيهات الإلهية بين موقفين:

موقف الذي يتعظ ويكف عن التعامل الربوي عندما يبلغه الزجر عنه والتحريم { فَمَن جَاءهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَى } فليس عليه ان يرد منافع الربويات السابقة { فَلَهُ مَا سَلَفَ }، وأمر العفو عنه أو معاقبته إلى الله تعالى يوم القيامة { وَأَمْرُهُ إِلَى اللّهِ }.

وموقف المصِرّ على استحلال الربا، العائد إليها بعد النهي عنها، مصيره الخلود في جهنم لكفره بإنكار معلوم من الدين بالضرورة { وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ }.

ويؤخذ من هذه الآية الكريمة قاعدة فقهية عظيمة هي أن الله تعالى لا يؤاخذ الإنسان بما مضى من أفعاله قبل نزول التشريع، مما أوضحته آيات أخرى في غير هذا السياق كما في قوله تعالى: { وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ } التوبة115، وقوله عز وجل: { لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا

اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ } المائدة93، وهو ما أخذت به التشريعات الوضعية المعاصرة فيما يعرف بعدم رجعية القوانين.

إن الربا المحرم كما ورد في الكتاب والسنة صنفان: ربا النسيئة وربا الفضل.

ولفظ النسيئة من فعل نَسَأَ الشيءَ يَنْسَؤُه نَسْأً وأَنْسأَه: أَخَّره، فهو نسيء، قال تعالى: { إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا } لِما كانوا في الجاهلية يؤخرون الأشهر الحرم عن ميعادها لمصلحة حرب أو سلم. ومن هذا المعنى أصل ربا النسيئة، وهو أن يقرض المرابي مستقرضه مالا إلى زمن محدد مع اشتراط زيادة أو منفعة إذا حل أجل السداد، وزيادات أخرى كلما تأخر أداء الدين عن موعده. وهذا النوع هو المستعمل حاليا في المصارف المالية.

أما ربا الفضل فيكون في مبادلة الشيء بمثله مع تفاضل في القدر، كمبادلة شعير بشعير أكثر أو قمح بقمح أكثر أو زيت بزيت أكثر، أو ذهب بذهب أكثر مثلا، والنص على تحريم هذه المبادلة من قوله صلى الله عليه وسلم فيما أخرجه مسلم:(الذَّهَبُ بِالذَّهَبِ وَالْفِضَّةُ بِالْفِضَّةِ وَالْبُرُّ بِالْبُرِّ وَالشَّعِيرُ بِالشَّعِيرِ وَالتَّمْرُ بِالتَّمْرِ وَالْمِلْحُ بِالْمِلْحِ مِثْلًا بِمِثْلٍ يَدًا بِيَدٍ فَمَنْ زَادَ أَوْ اسْتَزَادَ فَقَدْ أَرْبَى الْآخِذُ وَالْمُعْطِي فِيهِ سَوَاءٌ)، والمعنى أن البيع التبادلي فيما ذكره الحديث النبوي، يشترط فيه التماثل في الوزن إن كان مما يوزن، والكيل إن كان مما يكال، والعدد إن كان مما يعد، وأن تكون المبادلة فيه يدا بيد ناجزة لا نساء فيها ولا تأخير، فإن اختلفت الأصناف كانت المبادلة حرة لا حرمة فيها إذا تمت مناجزة يدا بيد. وهو ما توجزه القاعدة الفقهية المتعلقة بمثل هذه المعاملات:"إذا اتحد الجنسان حرمت الزيادة والنَّساء، وإذا اختلف الجنسان حل التفاضل دون النَّساء"، قال صلى الله عليه وسلم: (الذَّهَبُ بِالذَّهَبِ وَالْفِضَّةُ بِالْفِضَّةِ وَالْبُرُّ بِالْبُرِّ وَالشَّعِيرُ بِالشَّعِيرِ وَالتَّمْرُ بِالتَّمْرِ وَالْمِلْحُ بِالْمِلْحِ مِثْلًا بِمِثْلٍ سَوَاءً بِسَوَاءٍ يَدًا بِيَدٍ فَإِذَا اخْتَلَفَتْ هَذِهِ الْأَصْنَافُ فَبِيعُوا كَيْفَ شِئْتُمْ إِذَا كَانَ يَدًا بِيَدٍ).

وإن لم تختلف الأصناف وكان الاضطرار للمبادلة كما في حالة بيع رديء التمر مثلا بجيده، كان البيع مثلا بمثل ولا اعتبار للتفرقة في الصنف الواحد بين جيده ورديئه، وإلا باع أحد طرفي المبادلة ما لديه من التمر واشترى بثمنه ما يشاء، وقد روى البخاري (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَ أَخَا بَنِي عَدِيٍّ الْأَنْصَارِيَّ وَاسْتَعْمَلَهُ عَلَى خَيْبَرَ فَقَدِمَ بِتَمْرٍ جَنِيبٍ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَكُلُّ تَمْرِ خَيْبَرَ هَكَذَا؟ قَالَ: لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا لَنَشْتَرِي الصَّاعَ بِالصَّاعَيْنِ مِن الْجَمْعِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَا تَفْعَلُوا وَلَكِنْ مِثْلًا بِمِثْلٍ أَوْ بِيعُوا هَذَا وَاشْتَرُوا بِثَمَنِهِ مِن هَذَا وَكَذَلِكَ الْمِيزَانُ).

والثابت من هذه النصوص الصحيحة وما في حكمها أن المقايضة في المتماثل من تلك السلع تنضبط بثلاث قواعد: بتحريم أي تفاضل أو زيادة عند مبادلة الصنف الواحد بمثله، في الوزن والكيل والعدد وما في حكم ذلك مهما اختلفت

الجودة والرداءة، وتحريم التأجيل وعدم التقابض يدا بيد، وتحريم بيع الغائب[95] بالناجز، لما فيه من ربا النَّساء، ولتعارضه مع التقابض في العوضين وهو شرط في صحة العقد عليهما. قال صلى الله عليه وسلم فيما رواه مالك والبخاري ومسلم:(لَا تَبِيعُوا الذَّهَبَ بِالذَّهَبِ إِلَّا مِثْلًا بِمِثْلٍ وَلَا تُشِفُّوا[96] بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ وَلَا تَبِيعُوا الْوَرِقَ بِالْوَرِقِ إِلَّا مِثْلًا بِمِثْلٍ وَلَا تُشِفُّوا بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ وَلَا تَبِيعُوا مِنْهَا شَيْئًا غَائِبًا بِنَاجِزٍ).

وكما عودنا التشريع الإسلامي في التربية والتهذيب ومحاربة الآفات الاجتماعية المتأصلة كالخمر مثلا، تدرج تحريم الربا في أربع مراحل:

المرحلة الأولى أشار فيها الوحي الكريم إلى أن الربا لا يباركه الله تعالى ولا يقبله ولا ينميه وإنما يبارك الصدقة ويضاعفها لأصحابها بقوله عز وجل في المرحلة المكية: { وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ} الروم39.

والمرحلة الثانية ورد التحريم فيها تلويحا وتعريضا وشجبا لما يفعله اليهود بقوله تعالى: { فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا } النساء(161/160).

والمرحلة الثالثة كان التحريم فيها للربا جزئيا انتظم الفاحش منها بقوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } آل عمران130. وهو مثل قوله تعالى عند إعداد النفوس لتحريم الخمر: { يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا } البقرة 219.

أما المرحلة الرابعة والأخيرة فكانت تحريما قاطعا وتهديدا بحرب من الله ورسوله في آيات سورة البقرة هذه من قوله تعالى: { الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا...} إلى قوله عز وجل: { فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ...} وهي المرحلة النهائية في التحريم كما في قوله تعالى عند التحريم القاطع للخمر: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } المائدة90.

ثم عقب تعالى بمقارنة بين مآل الربا ونتائجه وبين الصدقات التي أمر بها في الآيات السابقة بقوله: { يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا } يذهب ببركته ويهلك المال الذي يدخله، قال صلى الله عليه وسلم: (الربا وإن كثر فإن عاقبته إلى قُلٍّ) أي إنه يؤول إلى النقص وإن كان زيادة في المال عاجلة، ولا يقبل الله تعالى من صاحبها صدقة ولا زكاة ولا جهادا ولا حجا كما قال ابن عباس رضي الله عنه.

---

95 – المراد بالغائب أعم من المؤجل، كالغائب عن المجلس مطلقا، وبالناجز الحاضر.

96– لا تزيدوا ولا تفضلوا.

﴿ وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ ﴾ ينميها ويبارك فيها ويزيدها ويضاعفها ويقبلها ويدخرها لصاحبها في الآخرة، ﴿ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾ يبغض المصر على الكفر المتمادي في ارتكاب إثم الربا بأكله والتعامل به والشهادة عليه.

ولعل أكبر شاهد على هذا المآل هو الكارثة الاقتصادية التي ضربت الاقتصاد العالمي في هذه السنة إذ بدأت بأكبر دول العالم وأقواها وأغناها ثم عمت أرجاء الأرض، بسبب هيمنة النظام الرأسمالي الربوي وطغيانه، وسيطرة الشركات الربوية العالمية على مقاليد السلطة في كل قطر، مما أفقد كل بلد سيادتها السياسية وحريتها الاقتصادية وقرارها الحر.

في مقابل هذه الصورة البشعة لمآل المرابين العصاة الذين يبغضهم الله تعالى ويمحق أعمالهم، يعرض الوحي صورة رضية طيبة لمآل المطيعين الذين تكامل لديهم الإيمان بالعمل الصالح وإقامة الصلاة وتزكية الأموال بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ ﴾ إيمانا تاما بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره ﴿ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ ﴾ من قيام بالواجبات وانتهاء عن المنهيات، وأحسنوا في أموالهم بالصدقة والبذل واجتناب الربا ومفاسده ﴿ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ ﴾ التي تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴿ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ ﴾ المفروضة من طيب مالهم وحلاله رضية بها نفوسهم ﴿ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ لهم كامل الثواب والمغفرة والأجر الحسن عند الله تعالى يوم القيامة ﴿ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ لا خوف عليهم ولا حزن لديهم يوم الفزع الأكبر، يوم يخاف الظالمون والكافرون والمرابون والذين لاينفقون في سبيل الله، ويفرح المؤمنون الصادقون ﴿ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ آلعمران171/170.

ثم من الحديث عن الذين فازوا بحسن العاقبة والسعادة يلتفت الوحي لتحريض المسلمين جميعا على اتباع نفس نهجهم وطريقهم بقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ﴾ الذين أعلنوا إسلامهم واتباعهم لما نزل من الحق ﴿ اتَّقُواْ اللّهَ ﴾ اجعلوا تقوى الله تعالى حصنكم من غضبه وعذابه، وتجنبوا ما يحبط أعمالكم ويخبث أموالكم ﴿ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ اتركوا التعامل بالربا، وإن بقي لكم منها شيء في ذمة أحد فلا تأخذوا إلا رؤوس أموالكم، إن كان إيمانكم الذي أعلنتموه تاما خالصا لا خلل فيه ولا تردد.

﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ فأذنوا: من فعل"أَذِنَ" بالشيء أي علم به، فإن لم تنتهوا عن المعاملات الربوية فكونوا على عِلْم بحرب يشنها عليكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمر ربه. وقد روي في سبب نزول هذه الآية أن النبيّ صلى الله عليه وسلّم كان قد صالح ثقيفا على أن ما لهم من ربا على الناس، وما كان للناس عليهم من ربا فهو موضوع، فلما كان الفتح استعمل عَتّاب بن أَسِيد على مكة، وكانت بنو عمرو بن عمير بن عوف يأخذون الربا من بني المغيرة وكان بنو المغيرة يربون لهم في الجاهلية، فجاء الإسلام ولهم عليهم مال كثير، فأتاهم بنو عمرو يطلبون رباهم، فأبى بنو المغيرة أن يعطوهم في الإسلام، ورفعوا ذلك إلى عَتّاب بن أَسِيد، فكتب عتّاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم، فنزل قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللّهِ

وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ }، فكتب بها رسول الله صلى الله عليه وسلّم إلى عتاب وقال:(إِنْ رَضُوا وَإِلاَّ فَآذِنْهُمْ بِحَرْبٍ).

وقال السدي: نزلت في العباس وخالد بن الوليد وكانا شريكين في الجاهلية يسلفان في الربا إلى بني عمرو بن عمير، ناس من ثقيف، فجاء الإسلام ولهما أموال عظيمة في الربا فأنزل الله تعالى هذه الآية، فقال النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع في خطبته يوم عرفة: (أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمَيَّ مَوْضُوعٌ وَدِمَاءُ الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعَةٌ وَإِنَّ أَوَّلَ دَمٍ أَضَعُ مِنْ دِمَائِنَا دَمُ ابْنِ رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ كَانَ مُسْتَرْضِعًا فِي بَنِي سَعْدٍ فَقَتَلَتْهُ هُذَيْلٌ، وَرِبَا الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ، وَأَوَّلُ رِبًا أَضَعُ رِبَانَا رِبَا عَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَإِنَّهُ مَوْضُوعٌ).

أما قوله تعالى عقب تهديده العصاة المصرين على الربا بالحرب: { وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ } فبيان لما يترتب على التوبة من التعامل الربوي، ويشمل حالتين:

حالة بعض المسلمين الأوائل الذين كانوا يرابون في الجاهلية وقبل التحريم، ليس لهم بصريح الآية إلا أصول أموالهم يستردونها { فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ } دون أي زيادة ربوية تظلمون بها غيركم { لاَ تَظْلِمُونَ }، ودون نقص من رأس مالكم تُظلمون به { وَلاَ تُظْلَمُونَ }.

والحالة الثانية حالة المسلم الذي يتورط في المكاسب الربوية حال إسلامه والربا محرمة، وعليه أن يعجل بالتوبة، ولا تتم توبته إلا بالتخلص من المال الحرام يرده إلى أصحابه إن استطاع الوصول إليهم، أو إلى ورثتهم بعد وفاتهم، فإن لم يستطع تصدق به عليهم، وإن التبس عليه فلم يعلم مقداره اجتهد في التقدير حتى لا يشك، وسلمه للمساكين أو لما فيه مصلحة المسلمين.

وفي الآية قضية أخرى ذكرها القرطبي في تفسيره قال: (إن بعض العلماء استدلوا بها على أن كلّ ما طرأ على البيع قبل القبض مما يوجب تحريم العقد يبطل العقد؛ كما إذا اشترى مسلم صيداً ثم أحرم المشتري أو البائع قبل القبض بَطل البيع؛ لأنه طرأ عليه قبل القبض ما أوجب تحريم العقد؛ كما أبطل الله تعالى ما لم يقبض من فائدة الربا لورود ما أوجب تحريمه قبل القبض، ولو كان مقبوضاً لم يؤثر. هذا مذهب أبي حنيفة، وهو قول لأصحاب الشافعيّ. ويستدل بها أيضا على أن هلاك المبيع قبل القبض في يد البائع وسقوط القبض فيه يوجب بطلان العقد خلافاً لبعض السلف؛ ويروى هذا الخلاف عن أحمد. وهذا إنما يتمشّى على قول من يقول: إن العقد في الربا كان في الأصل منعقداً، وإنما بطل بالإسلام الطارىء قبل القبض. وأمّا من منع انعقاد الربا في الأصل لم يكن هذا الكلام صحيحاً)

أما قوله تعالى: { وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ } فالعُسْرةُ والإعسار الفقر وقِلّة ذات اليد، والمعنى: إن كان المدين في معاملة ربوية أو غير ربوية عاجزا عن أداء أصل الدين فليس للدائن إلا أن ينظره إلى ظروف يسر يصيبها فيرد إليه رأس ماله من دون

ربا ﴿ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ ﴾، والنظرة لغة هي الإمهال والتأخير في الأمر، من أنظرته بمعنى أمهلته، والميسرة واليسار الغنى والقدرة على الأداء.

هذا هو العدل في هذه الحالة، حالة إعسار المدين وعجزه عن الوفاء بدينه الذي ركبه في المعاملات الربوية بعد أن حرمت، يبقى في ذمته رأس مال الدائن دون زيادة، وينظر إلى حين اليسار والقدرة.

إلا أن العلاقات الجديدة التي أسسها الإسلام بين أهله ليست مبنية على العدل وحده، إنما مبنية على الإحسان والمكارمة أيضا، قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ النحل90، لذلك نبه رب العزة عباده إلى مندوب الإحسان في هذه العلاقة بعد أن بين واجب العدل الذي هو الأداء والإمهال، فقال: ﴿ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾، أن تتنازلوا للمدين عن رأس مالكم وتجعلوه صدقة عليه في سبيل الله تعالى خير لكم، إن كنتم تعلمون مقدار أجر الصدقة وما يكتبه تعالى لمن يوسع على غريمه المعسر. قال صلى الله عليه وسلم: (من سره أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة فلينفس عن معسر أو يضع عنه)، وقال: (من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ومن ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه). وروى الإمام مسلم (عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي قَتَادَةَ أَنَّ أَبَا قَتَادَةَ طَلَبَ غَرِيمًا لَهُ فَتَوَارَى عَنْهُ ثُمَّ وَجَدَهُ، فَقَالَ: إِنِّي مُعْسِرٌ، فَقَالَ: آللَّهِ، قَالَ: آللَّهِ، قَالَ: فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُنْجِيَهُ اللَّهُ مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلْيُنَفِّسْ عَنْ مُعْسِرٍ أَوْ يَضَعْ عَنْهُ).

ثم ختم الله عز وجل آيات تحريم الربا هذه بقوله تعالى: ﴿ وَاتَّقُواْ يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾، وهي الآية التي يعدها الجمهور آخر ما نزل من القرآن الكريم، فقيل نزلت قبل وفاته صلى الله عليه وسلم بتسع ليال ثم لم ينزل شيء، وقيل بثلاث ساعات، وروي أنه عليه السلام قال: (جاءني جبريل فقال: اجعلها على رأس مائتين وثمانين آية من البقرة) وأنه قال: (اجعلوها بين آية الربا وآية الدين). والمراد بها الأمر بالإعداد ليوم القيامة، إذ تعطى كل نفس وافي جزائها خيرا أو شرا، لا تظلم بزيادة عقاب أو نقص ثواب.

بهذه الآيات الكريمة حسم القرآن الكريم بالتحريم القاطع أمر هذه الآفة الاجتماعية في مهدها، وطهر منها المجتمع الإسلامي فطابت مكاسب المسلمين ومطاعمهم وسادت الرحمة والرأفة بينهم، وانطلقوا في الآفاق حاملين مشعل النور ينشرون الخير والنماء والرفاهية والعلم، إلى أن كبا بهم الزمان وتخلفوا عن ركب الحضارة وانبعثت فيهم جذور الفساد الجاهلي من جديد، ربا فرديا ومصرفيا وشركات تجارية ربوية، فمحقت بركة الحرث والنسل، وخضعت الأمة للأجنبي، وانهار الاقتصاد الوطني وأصبح ذيلا لمراكز القرار الربوي العالمي.

لقد كان الربا مظهرا من مظاهر النشاط الفردي الاستغلالي في مبدأ أمره، حرمته الديانة اليهودية والنصرانية والإسلام، إلا أن اليهود لما جبلوا عليه من الحب للمال والأنانية الضيقة العمياء، حرفوا نصوص التوراة واحتفظوا بالتحريم في علاقاتهم ببعضهم، وأباحوا لأنفسهم الربا مع غير اليهود.

كما تعامل عرب الجاهلية بالربا لاختلاطهم باليهود وأخذهم عنهم، إلا أنهم كانوا يزدرون مكاسبها والعاملين بها، من ذلك أن أحدهم قال لقريش وهم يجمعون المال لإعادة بناء الكعبة:" يا معشر قريش لا تدخلوا في بنيانها من كسبكم إلا طيبا، لا يدخل فيها مهر بغي، ولا بيع ربا، ولا مظلمة أحد من الناس"، ثم لما جاء الإسلام حرم الربا ومحا أثره وأزال رجسه.

وفي أروبا المسيحية بدأ التمرد على تحريم الربا، بإباحة استثمار أموال القاصرين في نهاية القرن السادس عشر الميلادي، وتبعته ممارسات ربوية فردية أخرى ضئيلة، إلى أن انتصرت الثورة الفرنسية وكان لليهود اليد الطولى في تحريكها، فأسسوا المصارف الربوية، وأعلنت الجمعية العمومية الفرنسية بتاريخ 12 أكتوبر سنة 1789م قرارها بإباحة المعاملات الربوية في حدود القانون. ثم عند بداية الثورة الصناعية بادرت المؤسسات الربوية اليهودية إلى إقراض أصحابها بالربا، فأمسكوا بناصية التطور الصناعي العالمي.

وفي عصرنا هذا عرف ما سمي النظام الاقتصادي العالمي الجديد، الذي أمسكت بخناقه أسواق المال والشركات الربوية العابرة للقارات فتمكنت من الهيمنة على القرار الاقتصادي والسياسي في دول العالم الثالث بعامة، والدول الإسلامية بخاصة، وأصبح الربا سيد الموقف في كل بيت، وأساس التمول في كل معاملة.

ولئن ظهرت في بعض بلاد المسلمين محاولات خجولة للتخلص من هيمنة أخطبوط الربا الذي تمثله في بلادنا المصارف الربوية المحلية والشركات الربوية العابرة للقارات، بتأسيس ما سمي " المصارف الإسلامية " فإنما ذلك مجرد محاولة للتأقلم مع النظام الربوي العالمي المتغلب وتحت سلطانه. ولا يمكن أن يقوم النظام الاقتصادي غير الربوي كما قرره الإسلام إلا بقيام الدولة الإسلامية القوية التي تملك قرارها وتفرض احترامها بقوة نظمها ورسوخ مناهجها وقوة حجتها وتحررها التام من النفوذ الأجنبي والخضوع لهيمنة الأقوياء.

توثيق الدين
بالكتابة والإشهاد والرهن

قال الله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلاَ يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللّهَ رَبَّهُ وَلاَ يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً فَإن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهاً أَوْ ضَعِيفاً أَوْ لاَ يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ من رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاء أَن تَضِلَّ إْحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى وَلاَ يَأْبَ الشُّهَدَاء إِذَا مَا دُعُواْ وَلاَ تَسْأَمُوْاْ أَن تَكْتُبُوْهُ صَغِيراً أَو كَبِيراً إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللّهِ وَأَقْومُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلاَّ تَرْتَابُواْ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوْاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلاَ يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلاَ شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (282) وَإِن كُنتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِباً فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللّهَ رَبَّهُ وَلاَ تَكْتُمُواْ الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (283) } سورة البقرة

من حكمة الله تعالى في خلق الإنسان أن جعله اجتماعيا بطبعه، وكلفه القيام بعمارة الأرض والسعي فيها، بنهج تكاملي، وكأنما الحياة في الدنيا مشروع يؤسَّس أو صرح يشيَّد باتفاق غير مكتوب بين أبنائها، في جو تنافسي حر يحتفظ فيه كل فرد بشخصيته وقراره، ويفتقر في الآن نفسه إلى غيره، لا يستغني عن مجتمعه ولا يستطيع التفرد عن الجماعة بعيشه، وجعل عز وجل لهم ضوابط من فطرة وتشريع منزل تنظم هذا النشاط وتوجهه وترشده، تعاونا وتناصحا وأخذا وعطاء، أمرا ونهيا، حوافز وكوابح، تجعل كل فرد مكملا للآخر ومسؤولا عنه، ومحاسبا به يوم القيامة، محاسبا به إن جاع أو عري، إن ضل أو جهل، إن مرض أو افتقر، قال صلى الله عليه وسلم: (المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، ومن كان في حاجة أخيه، كان الله في حاجته، ومن سعى في قضاء حاجة أخيه قضى الله حاجاته ومن فرج عن أخيه كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة)، وقال:(ليس بمؤمن من بات شبعان وجاره إلى جنبه جائع)، وقال:(لا يؤمن أحدكم حتى يحب للناس ما يحب لنفسه)، وعن أبي هريرة قال: (كنا نسمع أن الرجل يتعلق بالرجل يوم القيامة وهو لا يعرفه فيقول له: ما لك إليَّ وما بيني وبينك معرفة؟ فيقول: كنت تراني على الخطإ وعلى المنكر ولا تنهاني)، قال الله تعالى: { ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ } الجمعة8.

ولئن كانت الآيات السابقة بدءا من الآية 261 قد تناولت أحكام هذه العلاقات الاجتماعية الاقتصادية بما يحقق التكامل في الحياة العملية بين الناس، فبينت فضل الإنفاق في سبيل الله وما ينبغي أن يتصف به المنفقون من أدب رفيع وخلق عال، ثم بينت طبيعة الأموال التي تنفق فيقبلها الله تعالى ويضاعفها ويدخرها لصاحبها ويثيبه عليها، وطبيعة الأموال الربوية الخبيثة التي يركسها الله مع صاحبها في نار جهنم، فإنه تعالى قد بين بعد ذلك في هذه الآيات الكريمة للناس طرق صيانة كرامتهم وحفظ أموالهم عند التعامل بها وتسخيرها لما ينفعهم ويشيع بينهم المحبة والثقة وروح التعاون والتكافل والتسامح، بيعا وشراء ومعاملات تجارية مبرأة من الربا، وقرضا حسنا يراد به وجه الله تعالى، وتسامحا عند الأداء والقضاء والتقاضي، كما قال صلى الله عليه وسلم: (رحم الله عبدا سمحا إذا با ع سمحا إذا اشترى سمحا إذا قضى سمحا إذا اقتضى).

تبدأ هذه التوجيهات الربانية بقوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ } ولفظ "تداينتم" من فعل: "دان يدين"، يقال دِنْت الرجل وأَدَنْتُه إذا أقرضته وأعطيته الدين، فهو مَدِين ومديون، والتداين والمداينة صيغة مفاعلة بين أفراد يقرض بعضهم بعضا، أو يتبايعون بالدين، يقال: داينتَ فلانا إذا أقرضتَه وأقرضك، والدَّيْن ما في الذمة المالية للمرء نحو غيره صحيحا، في معاملة تجارية أو قرض حسن، ولا يسقط إلا بالأداء أو الإبراء، ولا يغتفر حتى بالشهادة في سبيل الله تعالى، قال صلى الله عليه وسلم: (أول ما يهراق دم الشهيد يغفر له ذنبه كله إلا الدين).

والمبدأ العام الذي تقرره الآية الكريمة بقوله تعالى: { إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ } هو أن يُحَدَّدَ له عند التعاقد أجلٌ معلوم يؤدَّى عنده، وأن يوثَّق بالكتابة، سواء كان الدين من قرض أو تجارة، حفظا للأموال والعهود والذمم وحسن العلاقة بين الناس، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من أسلف فليسلف في كيل معلوم ووزن معلوم إلى أجل معلوم).

ولئن اختلف الفقهاء والمفسرون في حكم الأمر بالكتابة الوارد في هذه الآية ما بين واجب ومندوب، فإن ظاهرها المتبادر إلى الذهن، وواقع التكاثر البشري وضعف الذمم الشائع والتناكر والتجاحد في أكثر المعاملات بين الناس مما يؤكد أن الأمر للوجوب، وهو ما سبق إليه التشريع الرباني، ثم توصلت إليه التجربة الإنسانية بعد حين، بتراكم الأخطاء والمنازعات، فنصت قوانين جميع الأمم المعاصرة مسلمها وكافرها على وجوب الكتابة في المداينات وسائر المعاملات التجارية والائتمانية. بل دخل التوثيق الكتابي حتى في مجال المعاملات الإنسانية زواجا وطلاقا وإثبات نسب.

ثم قيد الشرع الحكيم الكتابة بطرف ثالث لا دائن ولا مدين فقال عز وجل: { وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ } اشترط في الكاتب العدالة، والعدالة تقتضي أن يكون صاحبها نزيها مأمونا تقيا، ضابطا في فهمه وكتابته لما يسمع من الطرفين، محايدا لا مصلحة له في الأمر، لا يميل مع أحد المتعاقدين فيزيد في نص الشهادة أو ينقص، وقيد الكتابة بحضور الطرفين معا بقوله: { بَيْنَكُمْ } إيذانا بألا ينفرد به أحدهما، لأن الانفراد مظنة التهمة في نزاهته.

وجعل قيام الكاتب بعملية التوثيق عبادة له واجبة عليه، يسأل عنها أمام الله تعالى، ليس له منها إلا الثواب من ربه، حماية للحقوق وتأكيدا للحيادية والموضوعية والنزاهة فقال تعالى: { وَلاَ يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ }، واشترط في الكاتب العدل العلم بأحكام العقود وشروطها وما به تصح أو تبطل أو تفسد فقال: { كَمَا عَلَّمَهُ اللهُ فَلْيَكْتُبْ }، فكان التشريع الإسلامي في هذا لمجال أيضا رائدا للبشرية قبل غيره في مجال العقود والالتزامات، اقتبسته منه الأمم الراقية واعتبرت توثيق المعاملات والإشهادات بين الناس خدمة وطنية عامة، اتخذت لها مكاتب رسمية تابعة للدولة وأعدت للقيام بها قضاة وأعوانَ عدلٍ رواتبهم من ميزانية الدولة لا من جيوب المتعاقدين.

أما صياغة عقد الدين الذي يكتبه الكاتب فقد جعله الله تعالى من واجب المدين فقال: { وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الحَقُّ } والإملال والإملاء لغتان معناهما واحد. جاء بهما القرآن الكريم، قال تعالى: { وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا } الفرقان5، لأن إملاء المدين نفسهِ صيغةَ التزامه بالدين على الكاتب أقوم الطرق لحفظه من أي إكراه أو تدليس يمارس ضده من طرف الدائنين، ولحفظ حق الدائن باعتراف بالدين حر طوعي، والاعتراف الموثق كتابة سيد الأدلة، لاسيما إذا كان بضوابطه الشرعية الإيمانية التي تنص عليها الآية، لا كما يستخلصه ذوو النفوذ والجاه والسلطة بالتخويف والترهيب والضغط، أو يستخلصه زبانية الظالمين في كهوف المعتقلات وسراديب الظلم والاستبداد من مستضعفي الأمة وصادقي أبنائها.

ولئن أعطاه الشرع هذا الحق ومكنه من التسلط على صياغة نص العقد فقد ربط الأمر بالجانب العقدي الذي يمتثل له المؤمن الحق ويطيعه ويرعاه فخاطبه عز وجل بأمر ملزم يحاسب عليه يوم القيامة بقوله: { وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ } يتقي عقابه ويخشى انتقامه إن جحد الدين كله أو بعضه أو أنكر صنفه { وَلاَ يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً} والبخس يطلق لغة على النقص، يقال بخسه حقه إذا نقصه، وبخس الميزان إذا نقص منه، وتباخس القوم في بيوعهم إذا تغابنوا وتغاشوا، والضمير في "يبخس" يعود إلى المدين فلا ينقص من حق دائنه شيئا عند إملائه، كما يجوز أن يعود على الكاتب فلا ينقص من الحق الذي أمر بكتابته شيئا.

بهذه القيود الإيمانية والوعيد بالمساءلة يوم القيامة حفظ الوحي الحكيم حق الطرفين، إلا في حالة خاصة جعل لها عز وجل حلا آخر مناسبا، هي حالة السفيه الذي لا يحسن تدبير أمره، أو الجاهل بالإملاء والتعبير الدقيق السليم الموفي بالمقصود، وحالة العاجز عن النطق كالعَيِيّ والأصم والأبكم والضعيف لصغر سن أو شيخوخة متقدمة، في هذه الحالات وما في حكمها يتقدم للإملاء ولي المدين ومدبر أمره، قال تعالى: { فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهاً أَوْ ضَعِيفاً أَوْ لاَ يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ } الذي عليه الحق هو المدين إن عاق إملاءه عائق شرعي مثلما تقدم { فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ }، أي تنتقل ولاية إملاء الإقرار بالدين إلى أحد أولياء المدين الذين لا يرضون أن تهضم حقوقه أو تهدر، والولاية الشرعية للأب والوصي والوكيل ومن في حكمهم، أما الولاية العرفية فلكبار الأسرة أو القبيلة ومن في حكمهم.

وبعد تفصيل أحكام الكتابة وإملائها بالحق والعدل دون زيادة أو نقصان، انتقل الوحي الكريم إلى الأمر بتوثيق الكتابة نفسها بالإشهاد عليها فقال سبحانه وتعالى: { وَاسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ من رِّجَالِكُمْ }، أي أشهدوا على معاملاتكم المؤجلة رجلين من أحرار قومكم المعروفين بالعدالة والضبط تحملا وأداء، لأن إشهادهما يؤكد الكتابة ويزيدها وثوقا. فإن تعذر استشهاد رجلين لأي سبب، اكتُفِيَ بإشهاد رجل واحد وامرأتين ممن ترضون عدالتهم وقدرتهم على أداء الشهادة كلما طلبوا لها { فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ }.

لقد دعا التشريع الرجال أولا للشهادة لأنهم أولى بالمعاملات التجارية في المجتمع المسلم الذي تتوزع فيه مهام الحياة الاجتماعية بين الرجل والمرأة طبقا لطبيعة دور كل منها، فإن تعذر استشهاد رجلين صار حتما إتمام نصاب الشهادة برجل واحد وامرأتين، وإنما كانت المرأتان مع الرجل الواحد لمظنة نسيان المرأة التي تستشهد في معاملات لا خبرة لها بها، أو لا تستوعب ملابساتها، أو لا اهتمام لها بها لانشغالها بما هو أهم من ذلك كله، وهو دورها في إعداد أجيال الأمة من الصالحين والصالحات، لذلك حرص الوحي على أن تستشهد مع الرجل الواحد امرأتان إن نسيت إحداهما ذكرتها الأخرى: { أَن تَضِلَّ إْحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى }، وليس في الاستعاضة بامرأتين عن رجل واحد أي إنكار لكفاءة المرأة العامة أو إجحاف بمكانتها الرفيعة التي بوأها الإسلام إياها كما يدعي مرضى العقول والقلوب.

وسواء شهد رجلان أو رجل وامرأتان فلابد أن يكون كل واحد منهم رضي الدين والسلوك والأمانة، قال ابن عباس:"من أهل الفضل والدين والكفاءة"، وقال الشعبي:" ممن لم يطعن في فرج ولا بطن"، وقال غيرهما وهو التعريف الأجمع الأرضى:" المرضي من الشهود من اجتمعت فيه عشر خصال: أن يكون حراً، بالغاً، مسلماً، عدلاً، عالماً بما يشهد به، لا يجر بشهادته منفعة لنفسه، ولا يدفع بها عن نفسه مضرة، ولا يكون معروفاً بكثرة الغلط، ولا بترك المروءة، ولا يكون بينه وبين من يشهد عليه عداوة ".

على أن الفقه المذهبي قد اختلف اختلافا كثيرا في أمر الشهود المشتبه في عدالتهم لاسيما وقد فشا فساد النوايا والأعمال في المجتمع، وشهادة النساء منفردات ومجتمعات في قضايا بعضها بعيد عن دائرة نشاطهن في المجتمع الإسلامي السوي كالحدود والجراحات مثلا، وبعضها مما يختص بهن وحدهن كأحوال الإناث التي لا يجوز للرجل الاطلاع عليها، فتفرقت السبل في الاجتهاد، ذهب المالكية مثلا إلى أن شهادة النساء لا تقبل في أحكام الأبدان كالحدود والقصاص والنكاح والطلاق والرجعة، ورأى الأحناف أنها تجوز في الأموال والطلاق والنكاح والرجعة وكل شيء إلا الحدود..وهي اختلافات من فقه الفروع ليس علم التفسير مجالا لها. إلا أن الناظر في النصوص الواردة كتابا وسنة إن استقصاها وتدبرها وحاول تنزيلها إلى واقع الناس المتغير بتغير أطوار الحياة واختلاف البيئات والعادات والنشاط اليومي لابد أن يلاحظ مرونة التشريع الإسلامي بما يكفل رعاية المصالح والمقاصد، بعد التدقيق فيما صح وما لم يصح من الروايات والأخبار، والتمييز بين سنته الثابتة صلى الله عليه وسلم وبين اجتهادات سلف الأمة الصالح، وبين ما سوى ذلك.

وكما أمر تعالى الكُتاَّب في أول الآية بكتابة ما يملى عليهم من الإقرار بالدين، وعَدَّ ذلك واجبا شرعيا وعبادة وقربى، كذلك حرم على الشهداء أن يأبوا تحمل الشهادة وأداءها فقال عز وجل: { وَلاَ يَأْبَ الشُّهَدَاء إِذَا مَا دُعُواْ } لأن تلبية الدعوة لتحمل الشهادة فريضة وتلبية الدعوة لأدائها عند الحاجة إليها فريضة أيضا، وتحريفها والنكول عن تحملها وأدائها سواء، من الكبائر التي يحاسب بها المرء بين يدي الله، قال تعالى: { وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ} الطلاق 2، وقال صلى الله عليه وسلم:(إن بين يدي الساعة تسليم الخاصة و فشوا التجارة حتى تعين المرأة زوجها على التجارة وقطع الأرحام وظهور شهادة الزور وكتمان شهادة الحق)، وعندما سئل عليه الصلاة والسلام عن الكبائر قال:(الشِّرْكُ بِاللَّهِ وَقَتْلُ النَّفْسِ وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟ قَالَ: قَوْلُ الزُّورِ، أَوْ قَالَ: شَهَادَةُ الزُّورِ، قَالَ شُعْبَةُ: وَأَكْثَرُ ظَنِّي أَنَّهُ قَالَ شَهَادَةُ الزُّورِ).

وفي بعض الأحيان قد يستصغر الناس الدين ويتهاونون بكتابته، فيترتب على ما استهانوا به خصام ونزاع يفسد الود ويقطع الأرحام ويبث بذور العداوة والشنآن بين المؤمنين، ويفسح المجال واسعا لِعَيْث الشيطان في نفوسهم وصَفِّهم، لذلك سدا لهذا الباب من الفتنة أكد الوحي دعوته إلى الكتابة والتوثيق فقال عز وجل: { وَلاَ تَسْأَمُوْاْ أَن تَكْتُبُوْهُ صَغِيراً أَو كَبِيراً إِلَى أَجَلِهِ } أي لا تملوا كتابة مداينات‍كم وتوثيق آجالها مهما كانت صغيرة أو كبيرة، لأن ذلك هو عين العدل الذي يرضاه الله تعالى، وأَثْبَتُ للشاهد من أجل التذكر وأداء الشهادة إذا طلب لها، وللمشهود له إذا طالب بحقه { ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللّهِ وَأَقْومُ لِلشَّهَادَةِ } وأقوى وسيلة يقوم بها العدل وتدفع بها الريبة وسوء الظن والتأويل والتكاذب عند أداء الحقوق أو فصل القضاء { وَأَدْنَى أَلاَّ تَرْتَابُواْ }.

هذا شأن القروض والمداينات إلى أجل مسمى، فما بال التجارة الحاضرة يدا بيد؟

إن الشرع الحكيم أباح في هذه الحالة عدم الكتابة لانتفاء المحذور فيها، ولعدم الحاجة إليها في الأغلب الأعم، فقال: { إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا }، أي ليس من إثم على الناس في ترك الكتابة، إلا أن الإشهاد بقي على أصل الوجوب بقوله تعالى عقب ذلك: { وَأَشْهِدُوْاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ } أشهدوا على مبايعاتكم في كل حال، كان فيها أجل أو لم يكن، لأنه هو الاحتياط والحزم في رعاية الحقوق، وقد روى أحمد وأبو داوود والبيهقي (أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ابْتَاعَ فَرَسًا مِنْ أَعْرَابِيٍّ فَاسْتَتْبَعَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِيَقْضِيَهُ ثَمَنَ فَرَسِهِ فَأَسْرَعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَشْيَ وَأَبْطَأَ الْأَعْرَابِيُّ فَطَفِقَ رِجَالٌ يَعْتَرِضُونَ الْأَعْرَابِيَّ فَيُسَاوِمُونَ بِالْفَرَسِ لَا يَشْعُرُونَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ابْتَاعَهُ حَتَّى زَادَ بَعْضُهُمْ الْأَعْرَابِيَّ فِي السَّوْمِ عَلَى ثَمَنِ الْفَرَسِ الَّذِي ابْتَاعَهُ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَنَادَى الْأَعْرَابِيُّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ مُبْتَاعًا هَذَا الْفَرَسَ فَابْتَعْهُ وَإِلَّا بِعْتُهُ، فَقَامَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ سَمِعَ نِدَاءَ الْأَعْرَابِيِّ فَقَالَ: أَوَلَيْسَ قَدْ ابْتَعْتُهُ مِنْكَ؟ قَالَ الْأَعْرَابِيُّ: لَا وَاللَّهِ مَا بِعْتُكَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: بَلَى قَدْ ابْتَعْتُهُ مِنْكَ، فَطَفِقَ النَّاسُ يَلُوذُونَ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْأَعْرَابِيِّ وَهُمَا يَتَرَاجَعَانِ فَطَفِقَ

الْأَعْرَابِيُّ يَقُولُ: هَلُمَّ شَهِيدًا يَشْهَدُ أَنِّي بَايَعْتُكَ، فَمَنْ جَاءَ مِنْ الْمُسْلِمِينَ قَالَ لِلْأَعْرَابِيِّ: وَيْلَكَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَكُنْ لِيَقُولَ إِلَّا حَقًّا، حَتَّى جَاءَ خُزَيْمَةُ فَاسْتَمَعَ لِمُرَاجَعَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمُرَاجَعَةِ الْأَعْرَابِيِّ، فَطَفِقَ الْأَعْرَابِيُّ يَقُولُ: هَلُمَّ شَهِيدًا يَشْهَدُ أَنِّي بَايَعْتُكَ، قَالَ خُزَيْمَةُ: أَنَا أَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَايَعْتَهُ، فَأَقْبَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى خُزَيْمَةَ فَقَالَ: بِمَ تَشْهَدُ؟ فَقَالَ: بِتَصْدِيقِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَهَادَةَ خُزَيْمَةَ شَهَادَةَ رَجُلَيْنِ).

لقد جعل الله التوثيق الكتابي للقروض الحسنة وديون المعاملات التجارية، وتحمل الشهادة عليها وأداءها واجبا شرعيا، على الكاتب والشاهد، وهذا قد يجر عليهما من المخاطر والأذى ما لا قبل لهما به، لذلك نهى عز وجل عن الإضرار بهما بأي وجه من الوجوه فقال: { وَلاَ يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلاَ شَهِيدٌ } وعبَّر بحرف "لا" الناهية وصيغة المبني للمجهول للدلالة على تحريم الإضرار مطلقا، وعلى مسؤولية الدولة في حمايتهما من بعض المتبايعين الموتورين الذين لا يرضون بالحق والعدل، فإن لحق أحدهما أذي فهو تقصير من ولاة الأمر في حماية الحقوق، وفسوق عن الشريعة جرأ على انتهاك حرمتها { وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ }، والخطاب في هذا التحذير موجه بصيغة الجمع للأمة الإسلامية كافة بصفتها التضامنية ومسؤوليتها العامة عن حماية العدل ومكافحة الفسوق والظلم. والغريب في هذا التشريع الحكيم القاضي بحماية الشهود من عدوانية المتقاضين وقد سبق إليه الإسلام قبل أربعة عشر قرنا، أن أرقى دول الغرب وليست مسلمة كالولايات المتحدة الأمريكية مثلا قد اقتبسته وعملت به، ولا نجد له أثرا يذكر في تشريعات المسلمين، مما يشير إلى مدى تخلفنا عن الإسلام وعن ركب الحضارة المعاصرة.

ولعل ضمور التقوى في نفوس القادة والحكام، وغياب مراقبة الله وهم يسوسون شعوبهم، وتمردهم على تعاليم العقيدة والشرع، أهم عائق لهم عن الهداية والعلم والعمل، ولذلك عقب الوحي بقوله تعالى: { وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيم } ذلك أن التقوى مجاهدة نفسية وعملية نتيجتها الهداية والتوفيق إلى ما فيه أمن النفوس والأبدان والأموال، قال تعالى: { وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ } العنكبوت69، وقال: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا } الأنفال 29، وعِلْمُ الله تعالى محيط بخفي تصرفات الخلق في معاملاتهم المالية وعلنيها، دقيقها وجليلها. وبحقائق الأشياء ومآلاتها، وخفايا النفوس والنوايا وأسرارها { عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ } سبأ3.

هذا حكم التصرف في التجارة مناجزة يدا بيد إذا كان المتبايعون حضورا، أما في حالة السفر وتعذر التوثيق الكتابي كاتبا وأدوات كتابة كما قال تعالى: { وَإِن كُنتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِباً } فالأمر على أحد احتمالين:

أولهما: { فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ } أي يغني عن الكتابة والإشهاد رهان بيد رب الدين وثيقةً لدينه، والرهان جمع مفرده رهن، من فعل: رهن الشيءُ فهو راهن إذا دام واستقر، يقال نعمة راهنة أي دائمة، والرَّهْنُ جمع رُهون ورِهان ورُهُنٌ وهو ما وضع عند الإنسان مما ينوب مناب ما أُخذ منه، يقال رَهَنْتُ فلاناً داراً فارْتَهنها إذا أَخذها رَهْناً، قال الراغب:" الرهن ما

يوضع وثيقة للدين"، والرهن شرعا جَعْلُ عينٍ مالية وثيقةً بدَيْن لازم أو آيلٍ إلى اللزوم، عرفه ابن عرفة بقوله:" ما قبض توثقا به في دين، فتخرج الوديعة والمصنوع عند صانعه وقبْضُ المجنيِّ عليه عبدا جنى عليه"، والجمهور على أنه احتباس العين وثيقةً بالحق ليُسْتَوْفَى الحق من ثمنها أو من ثمن منافعها عند تعذر أخذه من الغريم.

والمعاملة بالرهن مطلقا في حالتي الحضر والسفر مباحة، وإنما خصها الوحي في هذه الآية بالسفر لمظنة تعذر الكتابة والاضطرار إليها وكثرة حدوثها في الأسفار الطويلة، وقد ثبت أن الرسول صلى الله عليه وسلم رهن دِرْعَه عند يهودي طلب منه سلَف الشعير فقال: إنما يريد محمد أن يذهب بمالي، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلّم: (كذب، إنّي لأمينٌ في الأرض أمينٌ في السماء، ولو ائتمنني لأدّيت، اذهبوا إليه بدرعي)، فمات صلى الله عليه وسلّم ودِرعه مرهونة, وعن أنس رضي الله عنه قال: (وَلَقَدْ رَهَنَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دِرْعَهُ بِشَعِيرٍ، وَمَشَيْتُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِخُبْزِ شَعِيرٍ وَإِهَالَةٍ سَنِخَةٍ[97] وَلَقَدْ سَمِعْتُهُ يَقُولُ: مَا أَصْبَحَ لِآلِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَّا صَاعٌ وَلَا أَمْسَى وَإِنَّهُمْ لَتِسْعَةُ أَبْيَاتٍ)

وقد قيدت الآية الرهن بضرورة قبضه بقوله تعالى: { فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ } مما يدل على أن القبض شرط في الرهن ومن متمماته، وأنه لا يجوز رهن الغرر كالمشاع من الأملاك والسمك في الماء والثمرة قبل بدو صلاحها والجنين في بطن الناقة وما في حكم ذلك، وقال المالكية يجوز ذلك، في أحكام شرعية أخرى مفصلة بفقه الفروع.

وثاني الاحتمالين أن يتعذر الرهن والكتابة والإشهاد، فإن كان طالب الدين أمينا موثوقا به لدى الدائن وكانت له من القدرة المالية في الحضر ما يؤدي به دينه جازت المداينة بالتجارة والقرض، قال تعالى: { فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضاً } وتداينتم { فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللّهَ رَبَّهُ} فما على المدين شرعا إلا أن يؤدي ما عليه من الدين وأن يتقي الله في مال غيره فلا يأكله بغير حق، ولعل سؤالا يتبادر إلى الذهن عن حال المحتاج الذي ليس له ما يرهنه وليس له قدرة على الأداء، ما مآله في السفر والحضر؟ والجواب أن له حقا آخر من صدقات المسلمين وزكواتهم، وليس لأحد منهم أن يتخلى عنه أو لا يرفده.

بهذه الآيات الكريمة نظَّم الله تعالى المعاملات المالية بين الناس فجعلها أربعة أقسام: بيوعا وقروضا بتوثيق كتابي وشهود، وأخرى استيثاقا برهان مقبوضة، وثالثة بالأمانة والثقة، وقسما رابعا بالتكافل صدقة وبرا وزكاة. وتوج ذلك كله بالحض على إقامة شهادة الحق في الأمركله، على النفس وعلى الخلق في قضايا الدنيا والآخرة محذرا من الكتمان وعاقبة إثمه، فقال تعالى: { وَلاَ تَكْتُمُواْ الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ } والله تعالى يعلم من يقيمها ومن يكتمها { وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ }. ممهدا بذلك لآيات فوز الأمة الإسلامية وتكريمها بشهادة رب العزة لها بالإيمان والإحسان في خواتيم

97 – الإهالة هي الدهن، والسنخة التي تغير ريحها.

سورة البقرة، شهادة هي أعز وأشرف ما يناله من الله تعالى مخلوق { قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ } الأنعام 19 . فهنيئا لأمة الإسلام وما ضمت من الأقوام والألسن والألوان، ما استقامت على عقيدتها ووفت بعهودها وعملت لربها وأحسنت إلى نفسها بتسخير دنياها لآخرتها { إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُون نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآَخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ } فصلت 32/30.

الفوز العظيم:
شهادة ذي الجلال والإكرام للأمة الإسلامية

قال الله تعالى: { لِّلَّهِ ما فِي السَّمَاواتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (284) آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (285) لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (286) } سورة البقرة

عَجَبٌ أمرُ أمة محمد صلى الله عليه وسلم، تُبتلى بما به لها الفوز، وتُمتحن بما يهيئها للنعيم، تُسأل فتُلقَّن حجتَها، وُعودُ ربها لها خيرات ووعيده لها مبرات، { فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ } الأنعام 125، يشرحه بالرهبة كما يشرحه بالرغبة، ويشرحه بالخوف كما يشرحه بالرجاء، فبصره دوما على معالم الطريق وخطواته ثابتة على المحجة.

لله در هذه الأمة لا يخبو نورها إلى الأبد، ما دام لها من الكتاب والسنة المدد، يخاطبها الرب من فوق سماواته فتَجِبُ[98] قلوبها وتلين عواطفها وتخشع جوارحها، ويخاطبها في ثلث ليلها من سماء دنياها فتهرع فرحة بالنداء وتلهج ضمائرها بالثناء.

يتجلى الرب لها بعظمته وقوته وجبروته فيرسخ يقينها ويستنير جنانها، ويتجلى لها من خلال مالكيته فتنشرح نفسها وتسارع إلى إرضائه واسترضائه، لها في كل حين من ربها مكرمة، وفي كل عمل من أعمالها مأثرة، تخافه فتلجأ إليه وترجوه فتسجد بين يديه.

أمَّرها في ختام تشريع المعاملات المادية مداينةً ومتاجرة بأداء الشهادة، وهدَّد بِشَرٍّ عاقبةٍ للكتمان يوم الدين، فما خلت أجيال الأمة من مؤديها الصادقين، يؤدونها بين الناس تناصفا وعدلا، ويؤدونها دعوة للحق وهداية للخلق. تَوَعَّدَ بواسع علْمِه المنافقين بقوله: { وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ } فخفقت في الجوانح أفئدة الصادقين، وانهمرت من مآقيهم دموع التوبة واليقين، وخاطب بمالكيته الكونَ ما علا في السماوات وما سفل في الأرض، ما غاب عن الأبصار وما بدا للأنظار، فقال: { لِّلَّهِ ما فِي السَّمَاواتِ وَمَا فِي الأَرْضِ } فلم يغب عن البصائر مغزى تعقيب التهديد بواسع العلم، بالوعيد بواسع

[98] – وَجَبَ القلبُ يَجِبُ وَجْباً وَوَجِيباً وَوُجُوباً وَوَجَبَاناً خَفَقَ واضْطَرَب.

الملك، والذي خلق لابد أن يعلم ما خلق وما في ضمير ما خلق، الكل له عباد تحت الطاعة وعبيد تحت الخدمة، ومتى حقق المرء معنى علم الله وخالقيته ومالكيته، أشرق قلبه بنور المعرفة، واستنار فؤاده بأشعة اليقين، واستشف ببصيرته الإيمانية نسائمَ ما يبشر به الوعد وعظائمَ ما يمهد له الوعيد.

تبدأ رحلة الإيمان بالاستسلام القولي دعوة للناس من الرسول صلى الله عليه وسلم: (يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا)، وبالإيمان القلبي بقوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا } النساء136، فيتجلى ما في القلوب طاعةَ جوارح وخشوعَ جوانح، عملا بالأركان وطاعة للرحمن، حتى إذا آنس القوم من أنفسهم رضا تداركتهم رحمة الله تعالى وألطافه، تطهرهم من الغرور والاغترار، تَخُض وجدانهم وتثير ما في ضمائرهم مما يخفونه والله عالم به، اختبار جديد أشد مما سبق، يزلزل الجنان وتهتز له الأحلام والعقول، إنه تعالى يتجاوز بخطابه إلى ما وراء القلوب، لاستكناه مساربها وأغوارها واستجلاء نجواها وخفاياها، ويختبر بما هو شاق وعسير، لا ليشق على العباد ولكن ليرى مدى التأهب والطاعة والاستعداد، قال تعالى: { وَإِن تُبْدُواْ مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }.

لقد اختبر عز وجل أمما سالفة سبقت لها الشقوة، فلم يبصر الحكمة منهم إلا قليل، ولم يثبت للاختبار إلا من رحم الله، لَجَّ بنو إسرائيل في الكفر والجحود والتشكيك والمجادلة تعنتا وتمردا واستكبارا، فكان اختبارهم برفع الطور فوقهم أو يأخذوا بقوة ما أنزل إليهم: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } البقرة93، وإذ ثبت الإصرار على العصيان كان لابد من غضب إلهي تتلوه صواعق اللعنة مسخا في الدنيا وعذابا في الآخرة { لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ } المائدة78.

فماذا كان من أمر أمة محمد صلى الله عليه وسلم إذ خوطبت من فوق سموات ربها وبجلال عظمته وعلمه ومالكيته وقدرته في آيتين شديدتي الإيجاز عميقتي المعنى تتصدع لهما الجبال وتنهد لهما قلوب الرجال: { وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ لِّلَّهِ ما فِي السَّمَاواتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللّهُ }.

أن يحاسَب المرء بقول قاله أو عمل قام به له فيه قصد وعزم وإرادة أمر يسعى للنجاة منه ولا حول ولا قوة له إلا بربه. أما أن يحاسَب بخاطرة أخفاها أو أبداها، وخلجة نفس غلبت عليه فكتمها أو بدت على صفحة وجهه فذلك إحصاء شديد، ومن يملك من البشر أن يتطهر من الهواجس والظنون، وما يلقى في النفس من النجوى والشجون، والعواطف المضطربة والأفكار المتلجلجة؟ من يستطيع أن ينجو في هذا الإحصاء والنفس أمارة والقلب تواق، والخيال سائب شرود؟

لذلك غَمَّت الآية المسلمين إذ سمعوها غما شديدا، واشتد عليهم الأمر فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ضارعين مستشفعين، يشكون ويبكون، جاء أبو بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف ومعاذ بن جبل وناس من الأنصار إليه صلى الله عليه وسلم فجثوا على الركب وقالوا:" يا رسول الله، والله ما نزلت آية أشد علينا من هذه الآية، إن أحدنا ليحدث نفسه بما لا يحب أن يثبت في قلبه وأن له الدنيا وما فيها، وإنا لمؤاخذون بما نحدث به أنفسنا، هلكنا والله "، فقال النبي صلى الله عليه وسلم:(هكذا أنزلت)، فقالوا: "هلكنا وكُلِّفنا من العمل ما لا نطيق"، قال: (فلعلكم تقولون كما قال بنو إسرائيل لموسى: سمعنا وعصينا، قولوا: سمعنا وأطعنا).

فما لبثت خير أمة أخرجت للناس أن تذكرت فأبصرت وأطاعت فنجت، ولهجت ألسنة الصحابة بالسمع والطاعة كما أمروا، خاشعة قلوبهم راضية أنفسهم، قالوا وهم يوقنون: { وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ } فانفسحت آفاق الغيب لبصائرهم وانقشعت غشاوة الخوف عن أفئدتهم: { إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ } الأعراف201.

نجحت أمة الإسلام في الاختبار، واستوت قانتة بين يدي الجبار، راضية بأن يفعل بها ما يشاء، إنهم خلقه وملكه، وهم سعداء بخدمته وعبادته، ولا شأن لهم بما يريده وما يختاره من أمره، { فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا } النساء65.

نجحت أمة المختار في الاختبار، { وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ } الزمر 74/73، فيا جنة الخلد ازدهري، ويا أزاهير الفردوس تفتقي، ويا حورها والنساء المؤمنات بها وقاصرات الطرف فيها تزينَّ وتعطرن وتبرجن، ويا أنهار اللبن والعسل والخمر اندلقي بين أشجارها ورياحينها ورياضها، ويا فرش الإستبرق وجنى الجنتين، أمة الإسلام سالمة، إلى جنة ربها قادمة، لقد سمعت ورضيت وسلمت أمرها وأحسنت، فيا سماء اشهدي ويا أرض تحدثي { فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ } 59 /60 الرحمن.

لقد قالوا سمعنا وأطعنا، فنزل التخفيف من التكليف، بشارةً بإحسان الثواب إلى من أحسن الجواب، في آيتين هما خواتيم سورة البقرة، شهادةً منه تعالى لنبيه الكريم وأمته بالإيمان والإحسان { آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ... }، يعطيهم عز وجل ولا يمنعهم، يكرمهم ولا يعذبهم، يخفف عنهم ولا يحرجهم { مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } المائدة6، { مَايَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا } النساء147.

تأتي استجابته تعالى من فوق سبع سماوات مشيعة بملك كريم لم ينزل إلى الأرض إلا يوم نزوله لتبليغها، في مهرجانِ عرسٍ صيتُه يملأ أرجاء الكون. روى مسلم والنسائي عن ابن عباس قال: (بيْنَمَا جبريلُ قاعدٌ عند النبيّ صلى الله عليه وسلّم سَمِعَ نَقِيضًا مِنْ فَوْقِهِ، فَقَالَ لَهُ: هَذَا مَلَكٌ نَزَلَ إِلَى الأَرْضِ لَمْ يَنْزِلْ قَطُّ إلاَّ الْيَوْمَ، وَقَالَ: أَبْشِرْ بِنورَيْنِ أُوتِيتَهُمَا، لَمْ يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ؛ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ، وَخَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ؛ لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهَا إلاَّ أُعْطِيتَهُ). وأخرج الحاكم وصححه والبيهقي في الشعب عن أبي ذر: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن الله ختم سورة البقرة بآيتين أعطانيهما من كنزه الذي تحت العرش، فتعلموهما وعلموهما نساءكم وأبناءكم، فإنهما صلاة وقرآن ودعاء). وعن أبي ذر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: (أعطيت خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش لم يعطهن نبي قبلي).

هاتان الآيتان لكرامتهما على الله تعالى أوحى بهما إلى نبيه صلى الله عليه وسلم مرتين: مرة في المرحلة المدنية إذ شيعتهما وشهدت عليهما الملائكة، وقبلها في المرحلة المكية ليلة المعراج في سدرة المنتهى، كما في صحيح مسلم إذ انْتُهِيَ به إليها فأُعطِيَ الصلوات الخمس وأعطِيَ خواتيمَ سورة البقرة وغُفِر لمن لا يشرك بالله من أمته شيئا المقحِماتُ، وهي الكبائر.

وروى الواحدي عن مقاتل بن سليمان أنه لما أسري بالنبي صلى الله عليه وسلم إلى السماء أعطي خواتيم سورة البقرة، فقالت الملائكة: إن الله عزّ وجلّ قد أكرمك بحسن الثناء عليك بقوله { آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ } فسَلْهُ وارغب إليه، فعلمه جبريل عليهما الصلاة والسلام كيف يدعو، فقال محمد صلى الله عليه وسلم: { غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ المصير } فقال الله تعالى:(قد غفرت لكم)، فقال: { لاَ تُؤَاخِذْنَا } فقال الله:(لا أؤاخذكم)، فقال: { رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا } فقال الله:(لا أشدد عليكم)، فقال محمد: { لا تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ } فقال:(لا أحملكم ذلك)، فقال محمد: { وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا } فقال الله تعالى:(قد عفوت عنكم وغفرت لكم ورحمتكم وأنصركم على القوم الكافرين)، وفي بعض الروايات أن محمداً صلى الله عليه وسلم كان يذكر هذه الدعوات والملائكة كانوا يقولون آمين.

وفي رواية أخرى قال صلى الله عليه وسلّم في خبر المعراج:(قربني الله وأدناني إلى سند العرش ثم ألهمني الله أن قلت: آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله كما فرقت اليهود والنصارى، قال: فما قالوا؟، قلت: قالوا سمعنا وعصينا والمؤمنون قالوا سمعنا وأطعنا، فقال: صدقت فسَلْ تُعْطَ، فقلت: { رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا } قال: قد رفعت عنك وعن أمتك الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه، فقلت: { وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا }، يعني اليهود، قال: لك ذلك ولأمتك، قلت: { رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ }، قال: قد فعلت، قلت: { وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ } قال: قد فعلت).

لقد أجمل الله تعالى في الآية الممهدة لخواتيم سورة البقرة وهي قوله: { وَإِن تُبْدُواْ مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ } ما يغتفر لعباده وما لا يغتفر، ما يبدون من ذلك وما يخفون، وإبداء ما في النفس يكون بالقول فيما سبيله القول، وبالعمل فيما سبيله العمل، والإخفاء عكسه، أي: إن تعلنوا ما في أنفسكم من المعاصي أو تسروها ولا تظهروها، يحاسبْكم بها الله تعالى ويجازكم، والأمر له عز وجل في كل الأحوال يؤاخذ أو يعفو. هو القادر الذي لا يسأل عما يفعل وهم يسألون { وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }، ونظير هذه الآية في القرآن كثير، من ذلك قوله تعالى: { وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ } الملك 14/13.

وإذ آنس عباده في أنفسهم التسليم والرضا والطاعة لما يؤمرون به يسيرا أو عسيرا، أنزل رب العزة عز وجل شهادته بتمام إيمانهم وإحسانهم فقال:

{ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ } أي صدّق الرسول صلى الله عليه وسلم والذين اتبعوه بما أنزل إليه من ربه، عقائد وأحكاما وسننا وبينات، تصديق إذعان وطاعة ورضا وإطمئنان.

{ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ } كل واحد منهم آمن إيمانا تاما بالله تعالى وملائكته وكتبه المنزلة ورسله الكرام، كما بينه القرآن الكريم والسنة النبوية.

{ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ } يؤمنون بجميع الرسل، وبأنهم أمناء الوحي والتبليغ عن الله تعالى، لا يفرقون بينهم في الاعتقاد، ولا يتبعون من الشرائع إلا شريعة محمد صلى الله عليه وسلم وما أنزل إليه من العمل.

{ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا } أي أعلنوا بألسنتهم صادقين أنهم سمعوا أمر الله تعالى ففهموه واستوعبوه ورضوا به وأطاعوه وصبروا على تكاليفه.

{ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا } يسألونه المغفرة فضلا منه عليهم، ورحمة لضعفهم وتقصيرهم.

{ وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ } إليه عز وجل المرجع والمآب، يرجون رحمته ويخافون عذابه، منه وحده يكون الحساب والثواب والعقاب { يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ } الشعراء89/88.

ثم عقب على موقف عباده المؤمنين وقد آمنوا وأطاعوا بتقرير قاعدة عدله عز وجل وعلمه بمحدودية طاقتهم وضعفهم فقال:

{ لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا } والوسع ما تسعه قدرة المرء ولا تعجز عنه، أي لا يكلف الله عباده إلا بما يطيقون، قال تعالى: { يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ } البقرة 185، وقال: { وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ } الحج 78، وقال: { يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا } النساء 28، والأجر على قدر مشقة التكاليف والصبر على أدائها { إِنَّمَا يُوَفَّى الصابرون أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ } الزمر 10.

{ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ } لها ما عملته من أوجه البر والعبادة مدخرا ليوم القيامة لا يضيع، وعليها ما اقترفته من أوزار تحاسب عليها، لا تمحوها إلا التوبة وواسع رحمة الله وعفوه.

وبعد أن قرر الوحي الحكيم هذه القاعدة، قاعدة التكليف والابتلاء والمحاسبة والجزاء، عاد لإتمام شهادة الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين برسالته، بأنهم مع إيمانهم قد أحسنوا التضرع والإذعان، واستحقوا إجابة مطلبهم، وتلبية رغبتهم ورضا مولاهم وقالوا صدقا واحتسابا:

{ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا } أي: ربنا لا تعاقبنا بما نسينا من التكاليف والطاعات، وما اخطأنا فيه جهلا وضعف فهم لما شرعته لنا.

{ وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا } والإصر لغة هو الحبس، من أصر الشيءَ يأصِره إذا حبسه، والإصر كذلك العهد الثقيل، والذنب، جمع آصار، أي لا تكلفنا بما لا نطيق، كما كلفت من سبقنا من بني إسرائيل بقتل أنفسهم وتحريم بعض الطيبات عليهم إذ ظلموا وجحدوا وعصوا، قال تعالى: { فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا } النساء160، وقال: { وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ } البقرة 54. قال ابن عباس: { ولا تَحْمِلْ علينا إصْراً } أي عهدا لا نفي به وتعذبنا بتركه ونقضه.

{ رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ } أي: ما نعجز عن أدائه، وما لا تتحمله قدرتنا من الأوامر والنواهي والمصائب والأسقام والبلايا.

{ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا } نسألك ربنا أن تعفو عنا وتغفر تقصيرنا وإسرافنا وذنوبنا وسيئاتنا وأن ترحمنا برحمتك الواسعة { رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ } غافر7.

{ أَنتَ مَوْلاَنَا } أنت سيدنا ووليبا ونحن عبادك وعبيدك، ومن شأن المولى أن يرفق بعبيده ويعينهم ويلطف بهم ويحفظهم.

{ فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ } لأنك ولينا، ولأن النصر كله منك، ولأن مما كلفتنا به أن نجاهد في سبيلك من عصاك وكفر بك وأعرض عن دينك وجحد ما أنزلت على رسولك، فثبت أقدامنا عند لقاء العدو وانصرنا عليه { رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ } آل عمران147.

بهذه الآيات الطيبات الكريمة تختم سورة البقرة بما يناسب مطلعها، وقد تضمن صفات المتقين بقوله تعالى: { الم ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } 5/1.

قرر عز وجل في مطلع سورة البقرة الصفات مجردة، وقرر في ختامها رجال هذه الصفات ومستحقيها، منتقلا من سياق شرح العقائد والأحكام الشرعية إلى الإشادة بالرسول صلى الله عليه وسلم والثناء عليه وعلى أمته، يبشرهم بقبول إيمانهم وعظيم جزائهم، وإعفائهم من آصار حمّلَها غيرهم. قال رجل: يا رسول الله أي آية تحب أن تصيبك وأمتك؟ قال:(آخر سورة البقرة، فإنها من كنز الرحمة من تحت عرش الله).

يبشرهم عز وجل بالجنة التي وعد المتقون، وبما هو أغلى وأشرف وأعلى من الجنة، { وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ } 23/22، قال النبي صلَّى الله عليه وسلَّم: (إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ نُودُوا: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ إِنَّ لَكُمْ مَوْعِدًا عِنْدَ اللَّهِ لَمْ تَرَوْهُ، فَقَالُوا: وَمَا هُوَ؟ أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا وَتُزَحْزِحْنَا عَنْ النَّارِ وَتُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ؟ قَالَ: فَيُكْشَفُ الْحِجَابُ فَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، فَوَاللَّهِ مَا أَعْطَاهُمْ اللَّهُ شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنْهُ، ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: { لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ } يونس 26.

ويختم العبد الراجي عفو مولاه، تفسير هذه السورة المباركة متضرعا سائلا حسن القبول وحسن المغفرة وحسن الجزاء، (اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ وَابْنُ عَبْدِكَ وَابْنُ أَمَتِكَ نَاصِيَتِي بِيَدِكَ مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي وَنُورَ صَدْرِي وَجِلَاءَ حُزْنِي وَذَهَابَ هَمِّي).

{ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأبْرَارِ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ } آل عمران 194/191.

والحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِين، اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ.

محتويات الكتاب

- تقديم: أجدى السعي ما كان علما وعملا
- سورة الفاتحة:
- تمهيد: سورة الفاتحة نهر للحياة
- في رياض الفاتحة.
- نزول الفاتحة على الرسول صلى الله عليه وسلم.
- حكم البسملة في أول الفاتحة وما بين سور القرآن.
- حكم قراءة البسملة في الفاتحة في الصلاة.
- مباحث مفردات الفاتحة.

- تفسير سورة البقرة:
- القسم الأول:الإعداد للاستخلاف في الأرض
- تمهيد: سنام القرآن وفسطاط المسلمين.
- منهج دعوة ونظام دولة.
- آيات التقوى والفلاح (من الآية 1 إلى الآية 5)
- النِّذارةُ هِدايَةٌ أو إقامةُ حُجَّةٍ (من الآية 6 إلى الآية7)
- المنافقون: أربعة محاور لشخصيتهم المريضة (من الآية 8 إلى الآية 20)
- نداء واحد ومصيران مختلفان (من الآية 21 إلى الآية 25)
- أمثال القرآن رحمة للمؤمنين ونقمة على الفاسقين (من الآية 26 إلى الآية 29)
- خلافة الإنسان بين الحقيقة القرآنية وبين غبش التصور (الآية 30)
- العلم أداة استعمار الأرض وعمرانها (من الآية 31 إلى الآية 33)
- الإعداد للاستخلاف البشري تربية وتأهيلا (من الآية 34 إلى الآية 39)

- تفسير سورة البقرة:

- القسم الثاني: بنو إسرائيل انحراف عن الجادة وعزل عن الإمامة وتمهيد للأمة الخاتمة
- تمهيد: انحراف عن الجادة وعزل عن الإمامة وتمهيد للأمة الخاتمة
- تذكير وتحذير (من الآية 40 إلى الآية 41)
- التلبيس رأس الانحراف والفسق (من الآية 42 إلى الآية 46)
- ثلاث أمم في خطاب واحد تصريحا وتلميحا (من الآية 47 إلى الآية 50)
- عجل الذهب وعجل النفط، أيهما أشد فتنة؟ (من الآية 51 إلى الآية 57)
- وحدة المؤمنين لا يفصمها كفر كافر أو انحراف منحرف(من الآية 58 إلى الآية 62)
- عوائق قيام الأمة الشاهدة (من الآية 63 إلى الآية 74)
- أصلان راسخان للعدل في الدنيا والآخرة (من الآية 75 إلى الآية 82)
- أمة يهودية نقضت عهدها وأمة مسلمة على الطريق (من الآية 83 إلى الآية 86)
- الحسد مرض يهودي ورثه المنافقون في كل عصر (من الآية 87 إلى الآية 93)
- الولاء الحق محبة واتباع ونصرة (من الآية 94 إلى الآية 100)
- سحرة الأمس واليوم في مواجهة دعوة التوحيد (من الآية 101 إلى الآية 103)
- تميز الشخصية المسلمة (من الآية 104 إلى الآية 110)
- التصور الإيماني السليم وهجوم ملل الكفر المتحدة (من الآية 111 إلى الآية 118)
- بنو إسرائيل: نهاية أمة وابتعاث أخرى (من الآية 119 إلى الآية 123)

- سورة البقرة القسم الثالث:
- الأمة الإسلامية: قرآن لا يُمَّحِي وسنة لا تبلى وطائفة منصورة أبدا.
- تمهيد/ الأمة الإسلامية: قرآن لا يُمَّحِي وسنة لا تبلى وطائفة منصورة أبدا.
- جذور العقيدة وعبرة التاريخ (من الآية 124 إلى الآية 128)
- التضامن العقدي بين الأجيال سنة إبراهيم وعهده (من الآية 129 إلى الآية 135)
- وحدة الدين أم وحدة الأديان؟ أنى يؤفكون؟! (من الآية 136 إلى الآية 141)
- تحويل القبلة تميز في الشخصية وإعداد للفتح والانتشار (من الآية 142 إلى الآية

(148

- التربية الجهادية مبادئ وقيم (من الآية 149 إلى الآية 157)
- الإيمان والتوحيد كلية الدين وقوام الأمر (من الآية 158 إلى الآية 167)
- كلية حلال المطعم وحرامه في اليسر والعسر (من الآية 168 إلى الآية 176)
- البر كلية الأعمال وزاد المؤمن للحال والمآل (من الآية 177 إلى الآية 182)
- الصيام أيام معدودات بأجر غير معدود (من الآية 183 إلى الآية 188)
- فصل المقال في أحكام القتال (من الآية 189 إلى الآية 195)
- مجمل أحكام الحج والعمرة (من الآية 196 إلى الآية 203)

- سورة البقرة القسم الرابع:
- الأمة الإسلامية: إعادة بناء المجتمع الإسلامي الجديد
- معالم الفوز والتكريم
- الفساد: أسبابه ونتائجه، علاجه والمناعة منه (من الآية 204 إلى الآية 213)
- ثلاثية النجاة في الدنيا والآخرة: إيمان وهجرة وجهاد (من الآية 214 إلى الآية 218)
- مكاسب خبيثة محرمة (من الآية 219 إلى الآية 220)
- الحياة الزوجية وفاق وولاء (الآية 221)
- أدب المعاشرة الزوجية والحياة الكريمة (من الآية 222 إلى الآية 227)
- أحكام الطلاق وأدب الفراق (من الآية 228 إلى الآية 232)
- الرضاعة: حق الأطفال وواجب الوالدين والمجتمع (الآية 233)
- المعروف في عدة الوفاة والمتعة (من الآية 234 إلى الآية 242)
- العقيدة القتالية بناء للنفس ونصر على العدو (من الآية 243 إلى الآية 251)
- آية الكرسي:أعظم آي القرآن ورسالة الخالق إلى المخلوق (من الآية 252 إلى الآية 256)
- الولاء وسر الموت والحياة (من الآية 257 إلى الآية 260)
- أخلاق المنفق وأدب الصدقة والمتصدق (من الآية 261 إلى الآية 266)

- طيب الإنفاق من حلال الكسب وطيب الأرزاق (من الآية 267 إلى الآية 274)
أس الاقتصاد الإسلامي: { وأحل الله البيع وحرم الربا } (من الآية 275 إلى الآية 281)
- توثيق الدين بالكتابة والإشهاد والرهن (من الآية 282 إلى الآية 283)
- الفوز الكبير: شهادة ذي الجلال والإكرام للأمة الإسلامية (من الآية 284 إلى الآية 286)
- محتويات الكتاب